

غابرییل غارسیا مارکیز

عشت لاروی

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^



ترجمة: صالح علماني

إلى ماريا

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا ،
وإنما هي ما يتذكره ، وكيف يتذكره ليرويه .

طلبت مني أمي أن أرافقها من أجل بيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح إلى بارانكيًا قادمة من القرية الثانية حيث تعيش الأسرة، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. فراحت تسأل هنا وهناك بين المعارف، فأشاروا عليها بأن تبحث عني في مكتبة "موندو" أو في المقاهي المجاورة، حيث أذهب مرتين في اليوم لتبادل الحديث مع أصدقائي الكتاب. ومن أخبرها بذلك حذرًا قائلاً: "كوني متيقظة، لأنهم مجانيين تماماً". وصلت في الثانية عشرة تماماً. شقت طريقها بمشيتها الخفيفة بين مناضد الكتب المعروضة، ووقفت أمامي، تنظر إلى عيني مباشرة بابتسامة مأكرة من ابتسامات أفضل أيامها، وقالت لي قبل أن أتمكن من الإتيان بأي رد فعل:

- أنا أمك.

ثمة شيء قد تغيرَ فيها منعتني من التعرف عليها للوهلة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين. وإذا ما أضفنا إلى سنوات عمرها ولاداتها الإحدى عشرة، تكون قد أمضت عشر سنوات تقريباً وهي حبلية، ومثلها على الأقل وهي تُرضع أبناءها. كانت قد شابت تماماً قبل الأوان، وبدت عيناها كبيرتين جداً وذاهلتين وراء نظارتها الأولى ثنائية البؤرة، وهي

تلتزم جِداداً كاملاً وجدياً على موت أمها، ولكنها ما زالت تحتفظ بالجمال الروماني الذي تبدو عليه في صورة من حفل زفافها، وقد اكتسبت الآن جلال نسمة خريفية. قالت لي قبل أي شيء آخر، وحتى قبل أن تعانقتي، بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

- جئتُ أطلب منك معروفاً بمرافقتي لبيع البيت.

ولم تكن مضطرة لأن تقول أي بيت هو، ولا أين، لأنه لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم؛ بيت الجددين القديم في أراكاتاكا، الذي حالفني الحظ بالولادة فيه، ولم أعد للعيش هناك منذ بلوغي السنة الثامنة من عمري. كنتُ آنذاك قد هجرت كلية الحقوق بعد ستة فصول دراسية، أمضيتها، قبل أي شيء آخر، في قراصة كل ما يقع تحت يدي، وفي ترديد أشعار العصر الذهبي الإسباني الفريدة من الذاكرة. كنت قد قرأت، مترجمة وفي طبعات مستعارة، كل الكتب التي تكفيني لتعلم تقنية قص الروايات؛ وكنت قد نشرت ست قصص قصيرة في ملاحق صحفية، استحقت حماس أصدقائي واهتمام بعض النقاد. وكنت سأكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي؛ وكنت متخلفاً عن الخدمة العسكرية، ومُجرباً في حالتي سيلان زهري، وأدخن كل يوم، دون هواجس، ستين سيجارة من صنف تيغ رهيب. وأقضي بظالتي بالتناوب بين بارانكيّا وكارتخيّنا دي إندياس، على ساحل الكاريبي الكولومبي، بالبقاء جيداً على أحسن وجه بما يدفعونه لي مقابل ملاحظاتي الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"، وهو أقل من لا شيء تقريباً، وأنا مع أفضل رفقة ممكنة حيثما يفاجتني الليل. وكما لو أن عدم اليقين بأمر طموحاتي وغوضي حياتي لم يكونا كافيين، فقد كنا نعد العدة، أننا

وجماعة من الأصدقاء المحميمين، لإصدار مجلة جريئة، ودون موارد، خطط ألفونسو فوينماهور لها منذ ثلاث سنوات. ما الذي يمكنني أن أرغب فيه أكثر من ذلك؟

وبسبب القلة، أكثر مما هو بدافع الإعجاب، سبقتُ الموضة بعشرين سنة؛ شارب كشيّف خشن، وشعر مشعث. بنظال رعاة بقر، وقمصان مزركشة بأزهار غير مناسبة، وصندل حاج. وفي ظلمة إحدى دور السينما، كان أحد أصدقاء، ذلك الزمن يقول لأحدهم، دون أن يدري أنني قريب منه: "يا لغابيتو المسكين، إنه حالة ميشوس منها". وهكذا، حين طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت لم أجد أي عائق يمنعني من أن أقول لها نعم. أخبرتني أنها لا تملك ما يكفي من النقود، فقلتُ لها، بدافع الكرامة، إنني سأتولى دفع نفقاتي.

لم يكن ممكناً حلّ الأمر في الصحيفة التي أعمل فيها. فقد كانوا يدفعون لي ثلاثة بيوزات مقابل زاويتي اليومية وأربعة بيوزات عن كل افتتاحية أكتبها، حين يتغيب أحد المحررين الشابتين. ولكن ذلك كان يكاد لا يكفيني. حاولت الحصول على سلفة، غير أن المدير ذكرني بأن ديوني الأصلية تزيد على خمسين بيوزو. وفي ذلك المساء اقترفت تجاوزاً لا يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يُقدم عليه؛ فعند مخرج مقهى كولومبيا، الملاحق للمكتبة، التقيت بدون رامون فينيس، المعلم والمكتبي الكنتاتي العجوز، وطلبت منه عشرة بيوزات ديناً. فكان لديه ستة فقط. لم يكن بإمكان أمي ولا بإمكانني طبعاً، أن ننصوّر، مجرد تصور، أن تلك الرحلة البريئة التي استمرت يومين فقط، ستكون حاسمة إلى ذلك الحد بالنسبة لي، حتى إنه لا يمكن لأطول حياة وأكثرها اجتهداً، أن

تكون كافية لروايتها. والآن، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، أعرف أن ذلك القرار كان الأهم بين كل القرارات التي توجب عليّ اتخاذها في حياتي ككاتب. هذا يعني: في حياتي كلها.

حتى سن المراهقة، يكون اهتمام الذاكرة منصباً على المستقبل، أكثر من الماضي. ولهذا لم يكن الهنن قد حوّل ذكرياتي عن القرية إلى المثالية. كنت أتذكرها مثلما كانت عليه: مكان جيد للعيش، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً، على ضفة نهر ذي مياه صافية تنساب فوق فرشة من حصى مصقولة، ببضء وكبيرة مثل بيوض خرافية. وعند الغروب، وخاصة في شهر كانون الأول، بعد أن تنقضي الأمطار ويصير الهواء الملساً، تبدو سلسلة جبال سبيرا نيفادا في سائتا مارتا كأنها تدنو بقمها البيضاء، حتى مزارع الموز على الضفة المقابلة. ومن هناك يظهر الهنود الأروهاكون مهرولين في أرتال تمل على دروب سلسلة الجبال الضيقة، وهم يحملون أكياس الزنجبيل على كواهلهم، ويمضغون كرات من أوراق الكوكا، ليشتملوا الحياة. وكنا نحن الأطفال نحلم آنذاك بأن نصنع كرات من تلك الثلوج الدائمة، وبأن نلعب لعبة الحرب في الشوارع اللثبية. لقد كان الحر غير معقول، ولا سيما خلال القبولة، إلى حد أن الكبار يشكون منه كما لو أنه مفاجأة جديدة في كل يوم. كنت أسمع منذ مولدي، باستمرار ودون هواده، أن خط سكة الحديد ومعسكرات اليونايته قروت كومباني بُنيت في الليل، لأنه من المستحيل إمساك المعدات المعدنية المسخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول إلى آراكاتاكا، للقادم من بارانكيا، هي في مركب مخلع ذي محرك، عبر مرمائي حفرتة أذرع العبيد في العهد

الاستعماري، ثم بعد ذلك عبر مستنقع فسيح، مياهه عكرة وكثبية، حتى بلوغ بلدة نيناغا الغامضة. ومن هناك يُركب القطار العادي الذي كان، في أيام عزه، الأفضل في البلاد، وفيه تُقطع المسافة الأخيرة عبر مزارع الموز الشاسعة، مع مواقف كثيرة عابرة في ضياع معفرة وملتهبة، ومحطات متوحدة. كان هذا هو الطريق الذي انطلقنا فيه أنا وأمي في الساعة السابعة ليلاً من يوم السبت، الثامن عشر من شباط سنة ١٩٥٠ - عشية الكرنفال - تحت وابل طوفاني في غير أوانه، ودون أن يكون معنا سوى اثنين وثلاثين بيرو نقداً تكفيينا بمشقة للعودة إذا لم يُبع البيت في الظروف المثوقة.

كانت رياح الصايبات الشمالية قوية جداً في تلك الليلة، فتكلفتُ جهداً كبيراً في المرسى النهري لإقناع أُمي بالصعود إلى المركب. وقد كانت عليّ حق. فمثلك المراكب هي تقليد مُصغّر لسفن نيو أورليانز البخارية، ولكن بمحركات تعمل بالبنزين، تبعث رجة حمى خبيثة في كل من هو على متنها. وكانت في المركب قاعة صغيرة فيها حلقات من الخيال على مستويات متعددة، لتعليق أراجيح النوم، ومقاعد خشبية يمكن لكل واحد أن يرتاح عليها، مزاحماً بالمتاكب، كيفما يستطيع مع أمتعته المفرطة، وحزم البضائع، وأقفاص الدجاج، وحتى المختازير الحية، وكان هناك عدد ضئيل من القمرات الخائفة، في كل واحدة منها سمران عسكريان، وتشغل تلك القمرات، على الدوام تقريباً، غاهرات بانسات برشي لهن، يقدمن خدمات مستعجلة خلال الرحلة. وبما أننا لم نجد في نهاية الأمر أي قسرة قنارعة، ولم نكن نحصل كذلك أراجيح نوم، فقد هجمنا، أنا وأمي، على كرسيين معدنيين في المر الأوسط، وتهيأنا لقضاء الليل هناك.

ومثلما حدثت أمي، فقد ضربت العاصفة المركب المشهور بينما نحن نعبّر نهر مجدلبنا، الذي يتحول إلى مزاج محيطي عند مصبه. كنت قد اشتريت في المرفأ مؤونة جيدة من أرخص أصناف السجائر، مصنوعة من تبغ أسود، وبورق ينقصه القليل ليصبح أسمر. وبدأت أدخن على طريقتي آنذاك، بإشعال سيجارة من عقب أخرى، بينما أنا أعيد قراءة رواية ويليم فوكنر "تور في آب". وكان فوكنر آنذاك أوفى شياطيني الأوصياء. تشبثت أمي بمسبحتها، وكأنها تتسكك بمخاف راقعة روحية يمكنها أن تسحب جواراً أو أن تحمل طائرة في الجو. وكما هي عاداتها، لم تطلب شيئاً لنفسها، وإنما الازدهار والحياة المديدة لأيتامها الأحد عشر. ولا يد أن صلاتها قد وصلت إلى حيث يجب أن تصل. لأن المطر تحول إلى الوداعة، عندما دخلنا القنال. وتحرك الهواء بخفة تكفي فقط لإبعاد البعوض. خبأت أمي عندئذ المسبحة وراحت تراقب، مطولاً ويصت، جلبة الحياة التي تدور في ما حولنا.

كانت قد ولدت في بيت متواضع، ولكنها ترعرعت في الازدهار العابر الذي وفرته شركة الموز. وقد بقي لها من كل ذلك، على الأقل، التريبة الجيدة التي تلقتها كطفلة غنية في مدرسة تقدمية العذراء المقدسة، في سانتا مارتا. وكانت، خلال عطلات عيد الميلاد، تطرز على الطارة مع صديقاتها، وتعزف على الكلافيكورديو في الأسواق الخيرية، وتحضر مع عمّة مرافقة، أشد حفلات الرقص انشائية من تلك التي تقبها الأرستقراطية المحلية الوردية. ولكن أحداً لم يكن يعرف لها أي خطيب عندما تزوجت، رغم إرادة أبيها، من عامل التلغراف في القرية، وكانت أبرز مزايها منذ ذلك الحين هي حس السخرية والصحة الحديدية

التي لم تستطع مكابد الرزايا والشدائد أن تهزمها خلال حياتها المديدة. أما أكثر مزايها مفاجأة، وأقلها منذ ذلك الحين إثارة للشبهة أيضاً، فهي موهبة وقتها التي أتاحت لها إخفاً قوة طبيعتها الرهيب: إنها برج أسد مكتمل. وقد وفر لها ذلك فرض سلطة أسومية تصل سيطرتها إلى أبعد الأقارب المقيمين في أماكن لا تخطر على بال، مثل نظام كوكبي تتحكم به من مطبخها، بصوت خافت، ودون أن يرف لها جفن تقريباً، بينما هي تسلق قدر فاصوليا.

لدى رؤيتها تتحمل تلك الرحلة القاسية، دون أن يطرأ عليها أي تبدل، تسألت كيف استطاعت الإذعان لمطالب الفقر بكل تلك السرعة، وكل ذلك التحكم بالنفس. ولم يكن هناك مثل تلك اللبلة للشأكد من ذلك. فالبعوض الضاري، والحرق الكثيف المفزز، بسبب وحل القنوات الذي كان المركب يحركه في مروره، وجلبة المسافرين المؤرقين الذين لا يجدون راحة ضمن جلودهم. كان كل شيء يبدو وكأنه معدّ عمداً لزعزعة أشد الطباع فولذة. كانت أمي تتحمل كل ذلك، وهي ثابتة في كرمسها. بينما فتيات الاستئجار يجتنن حصاد كرفال في القمرات القريبة، متكررات كرجال أو "مانولات"^(١). كانت إهداهن قد دخلت وخرجت من قمرتها عدة مرات، وفي كل مرة مع زبون مختلف، بجوار مقعد أمي بالضبط. وقد ظننت أنها لم تلاحظ ذلك، ولكنها بعد المرة الرابعة أو الخامسة لدخول الفتاة وخروجها، لاحقتها بنظرة رثاء، حتى نهاية المرء، وتنهدت قائلة:

(١) مانولا manola صيغة تلاعب باسم مانويلا الشائع، وهي تسمية كانت تُطلق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، على نساء، بعض الأحياء الشعبية اللواتي يرتدين ملابس تتميز بالتأنق، وتحول استخدام الكلمة فيما بعد لتصبح تسمية مهذبة، مع لسة سخرية، للعاهرات.

- يا للفتيات البائسات! ما عليهن عمله لكي يعشن أسوأ من الشغل.
 بقيت أُمي على تلك الحال حتى منتصف الليل، عندما تعبتُ من
 القراءة مع الاهتزاز الذي لا يطاق وشح أنوار المسر، فجلست أدخن
 بجانبها، محاولاً الخروج من ورطة رمال كونتية بوكتاباتها^(١). كنتُ قد
 هجرت الجامعة في السنة السابقة، معللاً النفس بالوهم الجريء في
 العيش من الصحافة والأدب دون حاجة إلى تعلمهما، متحمساً لعبارة
 أظن أنني قرأتها لبرنارد شو: "منذ طفولتي المبكرة اضطررت إلى قطع
 تعلمي لكي أذهب إلى المدرسة". ولم أجرؤ على مناقشة الأمر مع أحد،
 لأنني كنت أشعر، دون أن أتمكن من تفسير ذلك، بأن مسوغاتي لن
 تكون ناقعة إلا لي أنا بالذات.

محاولة إقناع أبوي بمثل ذلك التصرف الجنوني، بعد أن عقدنا عليّ
 آمالاً كبيرة وأنفقا نفوداً كثيرة لم يكونا يملكانها، هو إضاعة للوقت. ولا
 سيما أبي الذي يمكن له أن يغفر لي أي شيء، باستثناء عدم تعليق
 شهادة جامعية، لم يستطع هو الحصول عليها، على الجدار. انقطع
 الاتصال بيننا. وبعد مرور سنة تقريباً، كنت ما أزال أفكر في زيارته
 لأقدم له مبرراتي، عندما ظهرت أُمي لتطلب مني مرافقتها لبيع البيت.
 ومع ذلك، لم تات هي على أي ذكر للمسألة إلى ما بعد منتصف الليل،
 في المركب، عندما أحست، كوحى خارق، بأنها وجدت أخيراً الفرصة
 المناسبة لتقول لي ما كان، دون ريب، السبب الحقيقي لرحلتها. وبدأت
 بالطريقة والنبرة والكلمات الموزونة بدقة، والتي لا بد أنها قد أنضجتها
 في وحدة أرقها، قبل وقت طويل من بدئها الرحلة.

(١) المكان الذي تدور فيه أحداث رواية فوكس تور في آب.

- أبوك حزين جداً - قالت.

ها هو ذا إذاً المحجيم المهوب، بدأت كمعادتها، في وقت لا يخطر
 على بال، وبصوت هادئ لا يمكن لأي شيء أن يبدله، لمجرد أن تستكمل
 الطقوس، لأنها كانت تعرف جوابي جيداً، فسألتها:

- ولماذا هو حزين؟

- لأنك تركت الدراسة.

- لم أتركها - قلت لها - وإنما غيرت الدراسة فقط.

- أبوك يقول إنه الشيء نفسه.

فقلت لها، وأنا أعرف أن ما أقوله زائف:

- وهو نفسه ترك الدراسة أيضاً ليعزف الكمان.

- الأمر ليس مماثلاً - ردت بحدة كبيرة - لقد كان يعزف الكمان

في الحفلات والسيرنادات فقط. وإذا كان قد ترك دراسته، فلأنه لم يكن
 يملك ما يأكله، ولكنه في أقل من شهر، تعلم مهنة التلغراف، وهي مهنة
 جيدة آنذاك، ولا سيما في أراكاتاكا.

- وأنا أيضاً أعيش من الكتابة للصحف - قلت لها.

- أنت تقول هذا كي لا تعذبني. ولكن سوء حالك يظهر عليك من

بعيد. وإلا كيف لم أتعرف عليك عندما رأيتك في المكتبة.

- وأنا أيضاً لم أتعرف عليك.

- ولكن ليس للسبب نفسه. لقد ظننت أنك متسول صدقات، -

ونظرت إلى صندلي، وأضافت: - ودون جورب.

فقلت لها:

- هذا مريح أكثر. قميصان وسروالان داخلان؛ واحد أرثديه وآخر

يجف. ما الذي أحتاجه أكثر من هذا؟

- قليل من الكرامة - قالت هي. ولكنها لطفت ذلك على الفور
ببتيرة أخرى: - أقول لك هذا لأننا نحبك كثيراً.

- أعرف ذلك. ولكن أخبريني، لو أنك مكاني، أما كنت ستفعلين
الشيء نفسه؟

- ما كنت لأفعله - قالت - إذا كنت سأخالف أبويّ بذلك.

تذكرتُ عنادها الذي تمكنت به من كسر معارضة أسرتها للزواج،
قلقت لها ضاحكاً:

- تجرّكي على النظر في عيني.

ولكنها تحاشتني بجدية، لأنها كانت تعرف تماماً ما الذي أفكر
فيه. وقالت:

- لم أتزوج إلا بعد أن حصلتُ على مباركة أبوي. بالقوة، أجل،
ولكنني حصلت عليها.

قطعتُ النقاش، ليس لأن حججي أفتعتها، وإنما لأنها أرادت
الذهاب إلى المرحاض وهي لا تثق بظروفه الصحية. فتحدثتُ إلى معاون
الريان. لأسأله إذا ما كان هناك مكان أكثر نظافة، لكنه أوضح لي أنه
هو نفسه يستخدم المرحاض العمومي. ثم قال، كما لو أنه قد انتهى ترواً
من قراءة كونراد: "جميعنا متساوون في البحر". وهكذا خضعت أُمي
إلى قانون الجسيمع. وعندما خرجت، وعلى عكس ما كنتُ أخشاه، لم
تستطع منع نفسها من الضحك إلا بصعوبة وهي تقول لي:

- تصور، ما الذي سيظنه أبوك بي إذا ما رجعت إليه مصابة بأحد
أمراض الحياة الحبيثة؟

بعد انقضاء منتصف الليل، تعرضنا لتأخير دام ثلاث ساعات، ذلك

أن تشابهك الزنبيقيات والأعشاب المائية في القنال عطل مراوح الدفع،
فحاد المركب إلى منبت أشجار مانغي وكان على مسافرين كثيرين أن
يسحبوه من الضفاف، بحبال أراجيح النوم. صار الحر والبعض لا
يطاقان. ولكن أُمي تخلصت منهما، بوميض إغفاة آنية ومقطععة.
وهي حالة مشهورة في الأسرة، أتاحت لها الاستراحة دون أن تفقد خيط
المحادثة. وعندما استؤنفت الرحلة وهبت النسمة الباردة، استعادت
صحتها كاملاً. وتنهدت:

- لا بد لي، على كل حال، من أن أحمل جواباً إلى أبيك.

فقلتُ لها بالبراعة نفسها:

- من الأفضل ألا تقلقي. في شهر كانون الأول سأذهب بنفسي،
وعندئذ سأوضح له كل شيء.

- ما زالت هناك عشرة شهور.

- لا يمكن في نهاية المطاف إصلاح أي شيء بشأن الجامعة هذه
السنة - قلتُ لها.

- هل تعني حقاً أنك ستذهب؟

- أعددك - قلتُ لها، ولحمتُ لأول مرة، شيئاً من الجزع في صوتها:

- هل يمكنني أن أقول لأبيك إنك ستقول له نعم؟

فأجبتها بحزم:

- لا، هذا لا.

بدا جليلاً أنها تبحث عن مخرج آخر. ولكنني لم أمنحها إياه.

- من الأفضل إذاً أن أقول له الحقيقة كلها منذ الآن. وهكذا لن
يبدو أن هناك خدعة.

فقلت لها براحة:

- حسناً، أخبريه.

اتفقنا على ذلك. ويمكن لمن لا يعرفها أن يفكر في أن كل شيء قد انتهى عند ذلك الحد، ولكنني كنت أعرف أنها مجرد هدنة لاستعادة الأنفاس. بعد قليل نامت بعمق. هبت نسمة خفيفة أبعدت البعوض وأفعمت الهواء الجديد برائحة أزهار. وعندئذ اكتسب المركب رشاقة سفينة شراعية.

كنا في ثيناغا غراندي^(١) (المستنقع الكبير)، وهو أسطورة أخرى من أساطير طفولتي. فقد أبحرتُ فيه عدة مرات، عندما كان جدي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيا - الذي كنا، نحن أحفاده، نسميه باباليلو - يأخذني من أراكاتاكا إلى بارانكيا لزيارة أبوي. يجب عدم الخوف من الثيناغا (المستنقع)، وإنما احترامه. كان قد قال لي، متحدثاً عن نزوات مباحه غير المتوقعة، فهي قد تتصرف مثل مستنقع راكد أو مثل محيط هائج. في فصل الأمطار يكون تحت رحمة عواصف سلسلة الجبال. ومنذ كانون الأول حتى نيسان، عندما يفترض أن يكون الطقس هادئاً، تفسده الروائح الكريهة وريح الشمال بهبات قوية، تجعل كل ليلة فيه مغامرة. لم تكن جدتي لأمي، ترانكيلينا إغواران - مينا - تتجرأ على اجتيازه، إلا في الحالات المستعجلة والطائرة الكبرى. بعد ما حدث، إثر رحلة مرعبة اضطرروا خلالها إلى البحث عن ملجأ حتى الفجر في مصب نهر ريوغريو.

(١) Ciénaga Grand نوع من البحيرات أو المستنقعات الشاطئية، تتشكل في المنطقة المعروفة باسم ثيناغاس. تفصلها عن البحر كتيان رملية ضيقة.

لحسن الحظ أن المستنقع كان هادئاً في تلك الليلة. فمن نوافذ مقدمة المركب، حيث خرجتُ للتنفس، قبل الفجر بقليل، كنت أرى أنوار مراكب الصيد التي لا يُحصى عددها. تطفو مثل نجوم على سطح الماء. وكان الصيادون غير المرتين يتبادلون الحديث كما في الزيارات، إذ كان للأصوات وقع خاص في جو الثيناغا. وبينما أنا متكئ على الحاجز، أحاول أن أتبين شبح سلسلة الجبال، فاجأتني، على حين غرة، ضربة مخالب الحنين الأولى.

في فجر يوم آخر مثل هذا، بينما كنت أجتاز ثيناغا غراندي، تركني باباليلو نائماً في القمرة، وذهب إلى حانة المركب. لست أدري كم كانت الساعة، عندما أيقظتني جلبة أناس كثير من خلال أزيز المروحة الصدئة واهتزاز صفائح القمرة. لم أكن، على ما أظن، قد تجاوزت الخامسة من عمري. وأحسست برعب شديد، ولكن الهدوء، ما لبث أن ساد من جديد. وفكرت في أنه قد يكون حلماً. وفي الصباح، وكنا قد وصلنا مرسى ثيناغا، كان جدي يحلق ذقنه بموسى حلاقة، والباب مفتوح والمرأة معلقة في إطاره. الذكري دقيقة: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، ولكنه كان يضع فوق قميصه الداخلي حمالتي بنطاله المطاطيتين الأبديتين، العريضتين الموشايتين بخطوط خضراء. وبينما هو يحلق، كان يواصل الحديث مع رجل، ما زال بإمكانني، حتى اليوم، التعرف عليه من النظرة الأولى. كان له بروفييل غراب، لا يمكن الخطأ فيه؛ وشم بحار على اليد اليمنى، ويعلق حول عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وأساور وسلاسل أخرى، من الذهب أيضاً، في معصيه كليهما. كنتُ قد انتهيت من ارتداء ملابس، وجلست على السرير لأنتعل حذائي، عندما قال الرجل لجدي:

- لا تشك في ذلك أيها الكولونيل. ما كانوا يريدون فعله بك، هو
إلقاؤك إلى الماء.

فابتسم جدي دون أن يتوقف عن الحلاقة، ورد بترفع هو من خصاله
الخاصة جداً:

- لحسن حظهم أنهم لم يتجرؤوا،

عندئذ فهمت فضيحة الليلة السابقة، وأحسست بالتأثر لفكرة أن
هناك من كان يمكن له أن يلقي بجدي إلى البحيرة.

ذكرى هذه الحادثة التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الصباح
الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، بينما أنا أتأمل تلوج سلسلة الجبال
التي تبدو، في الفجر، زرقاء مع أول خيوط الشمس. التأخير في
القنوات، أتاح لنا أن نرى في وضوح النهار، حاجز الرمال المشعة التي
تفصل البحر عن البحيرة، حيث توجد قرى صيادين، الشباك فيها معلقة
لتجف على الشاطئ، والأطفال المتسخون والضامرون يلعبون كرة القدم،
بكرة من الحرق. كان من المؤثر رؤية صيادين كثيرين في الشوارع،
مبتوري الأذرع، لأنهم لم يلقوا قطع الديناميت في الوقت المناسب.
ولدى مرور المركب، راح الأطفال يعوضون في الماء، بحثاً عن القطع
التقديرة التي يلقي بها المسافرون.

كانت الساعة توشك على بلوغ السابعة، عندما بدأنا الرسو في
مستنقع متفتح على مقربة من بلدة ثناغا، تلتفتنا جماعات من المحالين
الغائضين في الوحل حتى ركبهم. وحملونا حتى رصيف المرسى، وسط
زحام تسور رخصة تتنازع قذارات المستنقع الموحل. كنا نجلس إلى إحدى
مراند المرقأ، نتناول بتمهل، فطوراً من أسماك البحيرة اللذيذة وشرايح

موز أخضر مقلية، عندما جددت أمي هجوم حربها الشخصية. فقالت
دون أن ترفع بصرها:

- قل إذن مرة واحدة، ما الذي سأقوله لأبيك؟

حاولت كسب وقت للتفكير.

- حول أي شيء؟

فقالت بشيء من النزق:

- حول الشيء الوحيد الذي بهم، دراستك.

وقد حالفني الحظ بوجود زبون فضولي، مشدود إلى حدة الحوار،
أراد أن يعرف سيرواتي. وجواب أمي الفوري لم يخفني قليلاً فقط، وإنما
فاجأني إقدامها عليه، وهي الغيرة جداً على حياتها الخاصة. قالت:

- المسألة أنه يريد أن يصير كاتباً.

فرد الرجل بجديّة:

- يمكن للمكاتب الجيد أن يكسب مالاً وفيراً، ولا سيما إذا كان
يعمل مع الحكومة.

ولا أدري إذا ما كانت أمي قد تحاشت الموضوع بدافع الحذر
والتحفظ، أم خوفاً من حجج محاررها الطارئ. ولكنهما انتهيا إلى
التأسي لحالة التردد التي يعيشها أبناء جيلي، وتبادل الحنين إلى
الماضي. وأخيراً، جرجرا أسماء معارف مشتركين، وانتهى بهما الأمر إلى
اكتشاف أننا أقرباء من ناحيتين، من ناحية آل كوتيس، وناحية آل
إغواران. وكان ذلك يحدث لنا في تلك الحقبة، مع كل شخصين من كل
ثلاثة أشخاص نلتقي بهم في منطقة ساحل الكاريبي. وكانت أمي
تحتفل بذلك في كل مرة، كحدث فريد.

ذهبنا إلى محطة القطار، في عربة من طراز فيكتوريا، يجرها حصان واحد، ربما هو الأخير من سلالة منقرضة في بقية العالم. كانت أمي تمضي ساهمة. تنظر إلى السهب القاحل والمتكلس بملح البارود الذي يبداً من مرحلة الرفأ ويضيع في المدى. لقد كان المكان تاريخياً بالنسبة إليّ: ففي الثالثة أو الرابعة من عمري، في أثناء رحلتي الأولى إلى بارانكيّا، أخذني الجد من يدي، عبر ذلك القفر المنتهب، سائراً بسرعة ودون أن يقول لي لماذا. وفجأة وجدنا نفسنا قبالة امتداد شاسع من الماء الأخضر فيه مجسّوات زبد، ويظفر فيه عالم كامل من الدجاج الغارق. وقال لي:

- هذا هو البحر.

فسألته، وقد خاب أملي، عما يوجد في الضفة الأخرى، فأجابني دون أن يتردد في الأمر:

- في الجانب الآخر، لا توجد ضفة.

اليوم، بعد رؤيتي لبحار كثيرة من الوجه والقفا، ما زلت أفكر بأن ذلك الجواب هو إحدى إجاباته العظيمة. وعلى أي حال، لم يكن أي من تخيلاتني المسبقة، يتفق مع ذلك البحر الrosخ، الذي يستحيل المشي على شاطئه التيرتاني، ما بين أعصان أشجار المانغلي المتعفنة وشطابا فتات الأصداف: لقد كان رهيباً.

لا بد أن أمي كانت تحمّل الفكرة نفسها عن بحر ثيتاغا، لأنها، ما إن رأته يظهر إلى يسار العربة، حتى تنهدت:

- ليس هناك بحر مثل بحر ريوهاتشا!

رويّت لها، في تلك المناسبة، ذكري عن الدجاجات الغارقة، فبدا

لها ذلك، مثل جميع الكبار، أنه من تهيؤات الطفولة. ثم واصلتُ بعد ذلك تأمل كل مكان نصادفه في طريقنا، وكنتُ أعرف، من تبدلات صمتها، ما الذي تفكر فيه، وهي ترى كل مكان. مررنا قبالة "حي التسامح" على الجهة الأخرى من خط القطار، ببيوته الصغيرة الملونة ذات السقوف الصدفية، وبيغاواته الهرمة من باراماريسو التي تدعو الزبائن بالبرتغالية، من الحلقات المعلقة بأقاريز الأسطح. مررنا بمنهل القاطرات، ذي القبة الحديدية الهائلة التي تأوي إلى النوم فيها الطيور المهاجرة والنوارسُ الشائنة. مررنا بمحاذاة المدينة، دون أن ندخل إليها، ولكننا رأينا الشوارع القسيحة والكتيبة، وبيوت الازدهار الغابر، المزلقة من طابق واحد وذات النوافذ الكبيرة، حيث كانت الصارين على البيانو، تتوالى دون توقف منذ الفجر. وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت لي:

- انظر. هناك انتهى العالم.

تابعت الاتجاه الذي أشارت إليه، ورأيت المحطة: بناه من أخشاب متهالكة، بسقف من التوتياء الموج، وشرفات ناتئة، وأمامها ساحة صغيرة مقفلة لا يمكن لها أن تتسع لأكثر من مئتي شخص. لقد قتل الجيش هناك في سنة ١٩٢٨، كما أكدت لي أمي في ذلك اليوم، عدداً لم يتم تحديده قط من عمال مزارع الموز المياومين. وكنتُ أعرف ذلك الحدث، كما لو أنني قد عشته، بعد أن سمعت جدي يحكيه ويكرره ألف مرة، منذ أن صار لي ذاكرة: الضابط يقرأ القرار الذي اعتُبر فيه العمال المضربون عصابة من الأشرار؛ والثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل ظلوا ثابتين في أماكنهم، تحت الشمس الرهيبية، بعد أن منحهم الضابط مهلة خمس دقائق لإخلاء الساحة؛ أمر إطلاق النار، أزيز زخات الرصاص

المتأججة، أصيب الحشد المحاصر بالهلع، بينما هم يفلصونه شبراً فثبيراً بمقص الرشاشات المنهجي والنهم.

بصل القطار، عادة إلى ثينانغا في التاسعة صباحاً، فيحمل ركاب المركب ومن ينزلون من سلسلة الجبال، ويواصل طريقه، متوغلاً داخل منطقة مزارع الموز، بعد ربع ساعة من ذلك. وصلنا أنا وأمي إلى المحطة، بعد الساعة الثامنة، لكن القطار تأخر. ومع ذلك، فقد كنا الركاب الوحيدين. وقد انتهت هي إلى ذلك، مذ دخلنا العربة الخاوية، فهتفت بزجاج احتفالي:

- يا للترف! القطار بكامله لنا وحدنا!

لقد فكرت على الدوام في أنه كان ابتهاجاً متكلفاً تواري به خيبة أملها: فصروف الزمن كانت بادية للعبان بكل وضوح في حالة العربات. إنها عربات الدرجة الثانية القديمة، ولكن دون مقاعد الخيزران، ودون الزجاج الذي يمكن رفعه وإنزاله في النوافذ، وإنما بمقاعد خشبية دبغتها مؤخرات الفقراء. اللساء والدافنة. وقد بدا القطار بكامله، وليس تلك العربة وحدها، شبحاً لنفسه بالمقارنة مع ما كان عليه في الماضي. لقد كانت فيه من قبل ثلاث درجات. الدرجة الثالثة التي يسافر فيها أفقر الناس، وعرباتها هي الأقفاص نفسها، المصنوعة من ألواح خشبية، لنقل الموز أو مواشي الذبح، وقد كُيِّت للمسافرين بمقاعد طولانية من الخشب الحام. والدرجة الثانية، فيها مقاعد من الخيزران وإطارات برونية. أما الدرجة الأولى التي يسافر فيها أناس الحكومة وكبار موظفي شركة الموز، فهناك سجاد في مرها ومقاعد فارهة مغلقة بقطيفة حمراء. يمكن تبديل أماكنها. وعندما يسافر مراقب الشركة الأعلى أو أسرته، أو

ضيوفه البارزون، تُشَبك في آخر القطار، عربة فاخرة ذات نوافذ من البلور الشمسي وأفاريز مذهبة، وشرفة مكشوفة فيها مناوئد صغيرة من أجل تناول الشاي، أثناء السفر. ولم أتعرّف على كائنٍ فإن رأى عربة الأحلام تلك من الداخل. لقد كان جدي عمدة مرتين، ولديه فوق ذلك مفهوم سعيد عن النفود. ولكنه لم يكن يسافر في الدرجة الثانية، إلا إذا كانت برفقته إحدى نساء الأسرة. وعندما يسألونه لماذا يسافر في الدرجة الثالثة، يجيب: "لأنه لا وجود لرابعة". ومع ذلك، فإن أهم ما يُذكر من القطار، في أزمنة أخرى، هو دقة مواعيده. فساعات القرى كانت تُضبط على صفيره.

في ذلك اليوم، لسبب أو لآخر، انطلق القطار متأخراً ساعة ونصف الساعة. وعندما بدأ انطلاقه، ببطء شديد وصرير كثيب، رسمت أُمي إشارة الصليب. ولكنها عادت على الفور إلى الواقع، وقالت:

- هذا القطار بحاجة إلى زيت في نوابضه.

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في القطار كله، ولم يكن هناك حتى تلك اللحظة، أي شيء يثير في اهتماماً حقيقياً. غرقت في سبات "نور في آب"، مدخناً دون توقف، مع نظرات سريعة ألقيتها بين حين وآخر للتعرف على الأماكن التي نخلّفها وراءنا. اجتاز القطار، بصغير طويل، مستنقعات ثينانغا، ودخل بسرعة قصوى في عمر مترجرج من صخور مائلة إلى الحصرة. فصارت فرقة العربات لا تطلق. ولكن السرعة خفت بعد نحو خمس عشرة دقيقة، ودخل في لهاث مكثوم، إلى ظلال برودة المزارع، وصار الطقس أشد كسافة، وتلاشى الإحساس بنسيم البحر. لم أكن مضطراً إلى قطع القراءة، لأعرف أننا قد دخلنا مملكة مناطق الموز الكثيمة والغامضة.

تبدل العالم. فعلى جانبي سكة الحديد، راحت تمتد دروب المزارع المتناسقة وغير المتناهية. حيث كانت تمضي عربات مجرها الجواميس، محملة بقطوف الموز المحضرا. وفجأة، وفي فراغات مباحثة خالية من الزرع، تظهر هناك معسكرات من الأجر الأحمر، ومكاتب لنواقذها زوائد ملحقة، فيها مراوح ذات أذرع معلقة في السقوف، ومستشفى متوحد في حقل شقائق نعمان. كل نهر وله قريته وجسره الحديدي، حيث يمر القطار مطلقاً ولولائه، فتقفز الفتيات اللواتي يستحمن في المياه الجليدية، مثل أسماك شابل، لدى مروره، لبشوشن المسافرين بنهودهن العابرة.

في قرية ريوغريو، صعدت عدة أسر من هندو أروهاكو، محملين بحقائب ظهر مترعة بنمار الأغواكاتي الجبلية، وهي الأشهى مذاقاً في البلاد. ذرعوا العربة متقافزين في كلا الاتجاهين، باحثين عن مكان يجلسون فيه. ولكن لم يبق في العربة، عندما استأنف القطار سيره، سوى امرأتين بيضاوين، معهما طفل حديث الولادة، وخوري شاب. لم يتوقف الطفل عن البكاء طوال بقية الرحلة. أما الخوري فكان يتنعل جزمة ويعتمر قبعة كشاف، مثل شراع، وكان يتكلم، في الوقت الذي كان فيه الطفل يبكي. ودائماً، كما لو أنه على منبر الكنيسة. وموضوع مرعظته هو احتمال عودة شركة الموز. منذ غادرت هذه الشركة لم يكن هناك حديث آخر في المنطقة، وكانت وجهات النظر منقسمة بين من يريدون أن تعود، ومن لا يريدون، ولكن الجميع يعتبرون عودتها أمراً مؤكداً. الخوري كان ضد عودتها، وقد فسر ذلك بسبب شخصي جداً، إلى حد بدأ معه جنوبياً للمرأتين:

- الشركة تخلف الخراب أينما مرت.

كان هذا هو الشيء الأصيل الوحيد الذي قاله. ولكنه لم يتمكن من شرحه. وقد انتهى الأمر بالمرأة التي تحمل الطفل إلى تخطئته، بحجة أنه لا يمكن للرب أن يكون متفقاً معه.

لقد محا الحنين، كالعادة، الذكريات السيئة، وضخم الطيبة. ليس هناك من ينجو من آثاره المخرية. كان الرجال الجالسون عند أبواب بيوتهم، يظهرون من نافذة العربة، وكانت رؤية وجوههم كافية لمعرفة ما ينتظرونه. والغسالات على الشواطئ النيتراتية ينظرون إلى مرور القطار بالأمل نفسه. فهم جميعهم يرون في كل غريب يأتي حاملاً حقيبة رجل أعمال، رجل اليونايته فروت كومباني العائد لإعادة إقرار الماضي. في كل لقاء، وفي كل زيارة، وفي كل رسالة، تُطل عاجلاً أو آجلاً، الجملة القدسية: "يقولون إن الشركة راجعة". ليس هناك من يعرف من قال ذلك، ولا متى، ولا لماذا قاله؛ إنما لم يكن هناك من يشك فيه.

كانت أُمي تظن أنها قد شغبت من كل دُعر مفاجئ، فبعد موت أبيها قطعت كل علاقة لها بأراكاتاكا. ومع ذلك، كانت أحلامها تخزنها. فعلى الأقل، عندما يكون لديها حلم، يهبها كثيراً أن ترويه أثناء الفطور، يكون مرتبطاً دوماً بحياتها إلى منطقة الموز. كانت قد تجاوزت بمسقة أقسى فترات حياتها، دون أن تبسح البيت، بوهم الحصول، مقابلته، على مبلغ يزيد أربعة أضعاف، عندما ترجع الشركة. وأخيراً هزمها ضغط الواقع الذي لا يطاق. ولكنها حين سمعت الخوري يقول في القطار إن الشركة على وشك الرجوع، أومأت بحركة مكروية، وقالت لي في أذني:

- من المؤسف أننا لا نستطيع الانتظار لوقت آخر قصير، كي نبيع البيت بسعر أعلى.

بينما الخوري يتكلم، مرنا، عُرْضاً، بقرية يجتمع في ساحتها حشد من الناس، وفرقة موسيقية تعزف لحناً مرحاً، تحت الشمس الملتهبة. جميع تلك القرى كانت تبدو لي متشابهة على الدوام. وعندما كان باباليلو يأخذني إلى سينما أولمبيا التي يملكها دون أنطونيو داكوتني، كنتُ ألاحظ أن محطات القطارات، في أفلام رعاة البقر، تشبه محطات قطارتنا. وفيما بعد، عندما بدأتُ بقراءة فوكنر، وجدت أيضاً أن قرى رواياته تبدو مماثلة لقرانا. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن هذه الأخيرة بُنيت تحت الإشراف المخلص لليونانيتد فروت كومباني، وبأسلوبها الموقت نفسه، في بناء معسكرات عابرة. إنني أتذكر تلك القرى جميعها، بكنيستها التي في الساحة، وبيوتها الصغيرة، كما في قصص الخوربات، المطلية بألوان أولية. أتذكر فرق الميامين السود، وهم يغنون عند الغروب، وغالبونات^(١) المزارع، حيث يجلس العمال لرؤية مرور قطارات الشحن، والحدود بين المزارع، حيث كان يطلع الصباح على عمال القطف يمتاغل المشيشتي مقطوعي الرؤوس في عربات السكر، أيام السبت. أتذكر المدن الخاصة بالفرنغيين في أراكاتاكا، وفي سيبيا، على الجانب الآخر من سكة الحديد، مسيجة بشباك معدنية كأنها أقفاص دجاج هائلة مكهربة، يطلع عليها الصباح في أيام الصيف الباردة وقد اسودّت بعصافير السنونو المحروقة. أتذكر مروجها البطيئة المزركة بالطواويس وطيور السماني، ومسكنها ذات السقوف الحمراء، والنواقد المشبكة، والمناضد المستديرة، مع كراسن قابلة للطي من أجل تناول

(١) غالبون galpon، عنبر كبير لمبيت العبيد في المزارع، وقد يكون مسقوفاً فقط، ودون جدران في أغلب الأحيان.

الطعام على الشرفة، بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معفرة. وأحياناً، تظهر من خلال سياج الأسلاك، نساء جميلات وضامرات، بفساتين من المولدين وقبعات كبيرة من الشف، يقطفن أزهار حدائقهن بمقصات ذهبية.

منذ طفولتي، لم يكن سهلاً تمييز بعض القرى عن غيرها. وبعد مرور عشرين سنة، كان الأمر أصعب؛ فقد سقطت، عن بوابات المحطات، اللوحات الخشبية التي تحمل الأسماء الشاعرية - توكورينكا، غاماتشيتو، نيرلانديا، غراكامبال - وجميعها كانت أكثر وحشة وخبأياً مما هي عليه في الذاكرة. توقف القطار في سيبيا في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحاً، لاستبدال القاطرة والتزود بالماء. خلال خمس عشرة دقيقة بدت لانهائية. وهناك بدأ الحر. وعندما تجدد المسير، كانت القاطرة الجديدة تقلدنا عند كل منعطف بدفقة من هباب الفحم، تدخل من النافذة التي لا زجاج لها، وتغطينا بثلج أسود. كان الخوري والمرأتان قد نزلوا في إحدى القرى، دون أن نتشبه إلى نزولهم، فزاد ذلك من إحساسي بأنني أنا وأمي نساقر وحيدين في قطار لا أحد. وبينما هي جالسة قبالي، تنظر من النافذة، أزاحت عنها إغفاًتين أو ثلاثاً، ولكنها تشطت فجأة، وأفلتت مرة أخرى السؤال المروهب:

- والآن، ما الذي سأقوله لأبيك؟

كنت أفكر في أنها لن تستسلم أبداً، وستواصل البحث عن خاصة ضعيفة تكسر من خلالها قرارى. كانت قبل قليل من ذلك قد اقترحت بعض صيغ الالتزام التي استبعدتها دون تقديم حجج. ولكنني كنت أعرف أن تراجعها لن يكون طويلاً. ومع ذلك، فقد أخذتني على حين غرة

في هذه المحاولة الجديدة. فأجبتها بهدوء أكبر من المرات السابقة، وأنا أعد نفسي لمعركة عقيمة أخرى:

- قولي له إن الشيء الوحيد الذي أريده في الحياة، هو أن أكون كاتباً. وسوف أصير كذلك.

فقلت:

- هو لا يعترض على أن تكون ما تشاء، على أن تنال شهادة في أي شيء.

كانت تتكلم دون أن تنظر إليّ، متظاهرة بأنها مهتمة بحدائقنا، أقل من اهتمامها بالحياة التي تمر من خلال النافذة.

- لا أدري لماذا تلحن إلى هذا الحد، مع أنك تعرفين جيداً أنني لن أستسلم - قلت لها.

فنظرت إلى عيني على الفور وسألني مبهورة:

- ولماذا تظن أنني أعرف؟

- لأننا أنا وأنت مشابهان.

توقف القطار في محطة دون قرية. وبعد قليل من ذلك، هرّ قبالة مزرعة الموز الوحيدة على الطريق التي يظهر اسمها مكتوباً على البوابة:

ماكوندو. لقد استرعت هذه الكلمة اهتمامي منذ الرحلات الأولى مع جدي، ولكنني لم أنسبه، إلا بعد أن كبرت، إلى أن إبقاعها الشعري

بروقتي. لم أكن قد سمعت أحداً ينطق الكلمة، حتى إنني لم أسأل عن معناها. وكنت قد استخدمتها في ثلاثة كتب كاسم قرية متخيلة، عندما

عرفت من موسوعة مصادفة أن الكلمة هي اسم شجرة استوائية تشبه شجرة السيبيا، وأنها لا تنتج أزهاراً ولا ثماراً، وخشبها الإسفنجي ينفع

في صنع زوارق الكائوا^(١) وفي نحت أدوات مطبخية. وقد اكتشفتُ فيما بعد، في الموسوعة البريطانية، أنه توجد في تنجانيقا قبيلة الماكوندو (makondos) الرحالة، وفكرت في أن ذلك قد يكون أصل الكلمة. ولكنني لم أتقصّ الأمر قط، ولم أتعرّف على الشجرة، فقد سألت عنها كثيراً في منطقة الموز، ولم يستطع أحد إخباري بشيء عنها. ربما ليس لها وجود على الإطلاق.

القطار يمر في الساعة الحادية عشرة بمزرعة ماكوندو، وبعد عشر دقائق من ذلك، يتوقف في أراكاتانكا. أما في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، فسرّ متأخراً ساعة ونصف الساعة. كنتُ في المرحاض عندما بدأ يسرع، ودخلتُ من النافذة المكسورة ريحاً لافحة وجافة، مختلطة بصُجج العريبات العتيقة، وصغير القاطرة المفزع. كان قلبي يدوي في صدري، وجمّد غشيان جلدي أحشائي. خرجتُ بأقصى سرعة، مدفوعاً برعب مشابه لما يشعر به المرء لدى حدوث هزة أرضية، فوجدتُ أمي مستقرة بثبات في مكانها، تعدد بصوت عالٍ الأماكن التي ترمى مرورها من خلال النافذة، مثل ومضات آنية وسريعة من الحياة التي كانت، ولن تعود مطلقاً وإلى الأبد. وقالت:

- هذه هي الأراضي التي باعوها لأبي، بخديعة أن فيها ذهباً.

مر، مثل نيزك، بيت المعلمين المجتبيين^(٢). بحديقته المزهرة واللوحة

التي على البوابة: The sun shines for all. فقالت أمي:

- كان هذا هو أول ما تعلمته بالإنكليزية.

(١) الكائوا canoa «نوع من الزوارق كان يستخدمه السكان الأصليون قبل مجيء الإنسان» وهو يصنع من قطعة واحدة بنحت جذع شجرة.

(٢) المجتبيين adventismo «مذهب يقول إن مجيء المسيح صار قريباً».

فقلت لها:

- ليس الأول، بل الوحيد.

مرّ الجسر الإسمنتي والساقية بمياهها العكرة، منذ أن حوّل
الغرينغيون النهر، لإصاله إلى المزارع. وقالت هي:

- هذا هو حي نساء الحياة، حيث كان الصباح يطلع على الرجال،
وهم يرقصون رقصة الكومبيلامبا حاملين زماماً من الأوراق النقدية
المشتعلة بدل الشموع.

مصاطب مورد الأبقار، أشجار اللوز الصدئة بفعل الشمس، حديقة
مدرسة مونتيسوريانا الصغيرة حيث تعلّم القراءة. ولبرهة، ومضت من
النافذة صورة شاملة للقريّة، في ذلك الأحد المشع من شباط.

- المحطة! - هتفت أُمّي، ثم قالت: - لقد تغير العالم إلى حد لم
يعد فيه من ينتظر القطار.

عندئذ انتهت القاطرة من الصفير، وخففت سرعتها، وتوقفت بأنّة
طويلة.

أول ما أثر فيّ هو الصمت. صمت مادي كان بمقدوري التعرف
عليه، وأنا معصوب العينين، بين أصناف صمت العالم الأخرى. كان وهج
الحرقشة إلى حد يبرئ معه كل شيء، وكأنه وراء زجاج متموج. لم تكن
هناك أي ذاكرة لحياة بشرية، على المدى الذي يصل إليه النظر، ولا لأي
شيء غير مغطى بندى خفيف من غبار ملتهب. بقيت أُمّي محتفظة
بالصمت لبضع دقائق، تنظر إلى القريّة الميتة والمسددة في الشوارع
المقفرة، وأخيراً هتفت مرعوبة:

- ربا!

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

في أثناء وقوف القطار هناك، راودني إحساس بأننا لم نكن
وحيدين تماماً. ولكنه عندما تحرك، مبتعداً، وهو يطلق صغيراً خائفاً
ومؤثراً، بقيت أنا وأُمّي مهجورين تحت الشمس الجهنمية، وقد انهالت
علينا كل آباء القريّة. ولكن أباً منا لم يقل شيئاً للآخر. المحطة القديمة
المهتية من الخشب، ويسقف من التوتيا، وشرفة بارزة، كانت نسخة
مدارية للمحطات التي عرفناها في أنلام رعاة البقر. اجتزنا المحطة
المهجورة التي بدأ بلاطها يتشقق، بفعل ضغط الأعشاب، وعرقنا في
ركود القيلولة، باحثين طوال الوقت عن حماية أشجار اللوز.

كنت أمتت، عند طفولتي، تلك القيلولات الخاملة؛ لأننا لم نكن
نعرف ما يمكننا عمله. "اصنوا، فتنح نائمون"، كان النائمون يهيمون
لنا. وكانت المتاجر، والمكاتب العامة، والمدارس، تُغلق منذ الساعة
الثانية عشرة ظهراً ولا تفتح أبوابها إلى ما قبل الثالثة بقليل. ويبقى
البيت من الداخل طافياً في ليمبوس^(١) السيات. وكان الحر في بعض
البيوت لا يطاق، إلى حد أنهم يعلقون أراجيح النوم في الفناء، أو
يضعون كراسي بلا مستد في ظل أشجار اللوز، وينامون جالسين في
وسط الشارع. ولا يبقى مفتوحاً سوى الفتق المقابل للمحطة، وحاته
وصالة البلياردو فيه، ومكتب التلغراف وراء الكنيسة. كل شيء كان
مطابقاً للذكريات، ولكنه أكثر اقتضاباً وقرراً، عاثت به زويدة ربح
قدرية: البيوت المتآكلة نفسها، سقوف التوتيا التي نخرها الصدأ، مورد

(١) الليمبوس Limbo، منطقتة بين الفردوس والجحيم، تستقر فيها أرواح الموتى من الأطفال
الذين لم يُعمدوا، ومن كانوا أبرياء وأتقيا، قبل مجيئ المسيح.

الماشية مع أنقاض مقاعد الغرائب وأشجار اللوز الكنيسة، وكل شيء متغير بذلك الغبار غير المرئي والمتهب الذي يخدع البصر ويكلس الجلد. أما فردوس شركة الفواكه الخاص، في الجانب الآخر من سكة القطار، وقد صار بلا سباج الأسلاك المكهرب، فكان دغلاً نسيحاً بلا أشجار نخيل. بيوته متداعية بين شقائق النعمان وأنقاض المستشفى المحترق. لم يكن هناك باب، أو صدع في جدار، أو أثر إنساني إلا له في أعماقي صدى خارق للطبيعة.

كانت أمي تمشي منتصبه جداً، بخطواتها الخفيفة، متعركة بصورة تكاد لا تُلحظ في قستانها الحدادي، ويصمت مطلق. ولكن شحوبها القاتل وبروقيل وجهها الحاد كانا يشيان بما يحدث لها من الداخل. في نهاية الطريق، رأينا أول كائن بشري: امرأة ضئيلة، ذات مظهر متردٍ، ظهرت من ناصية جاكوبو بيراكاتا، ومرت بجانبنا حاملة قدراً من القصدبر، غطاؤها، غير المحكم جيداً، بهتمز مسجلاً إيقاع خطواتها. فهست لي أمي دون النظر إليها:

- إنها فيتا.

كنت قد تعرفت عليها. لقد عملت منذ طفولتها في مطبخ جدي، ومهما تكن التغيرات التي طرأت علينا، فإنها كانت ستتعرف علينا لو أنها تنازلت ونظرت إلينا. ولكن لا؛ لقد مرت في عالم آخر. وما زلت حتى هذا اليوم أتساءل إذا ما كانت قيتا قد ماتت قبل وقت طويل من ذلك اليوم.

حين انعطفتنا عند الزاوية، كان الغبار يلتهب في قدمي، بين نسج الصندل. وصار إحساسي بالخدلان لا يطاق. عندئذ رأيت نفسي ورأيت

أمي، تماماً مثلما رأيت في طفولتي أم وأخت اللص الذي كانت ماريا كونسويغرا قد قتله برصاصة قبل أسبوع، وهو يحاول خلع باب بيتها. كانت، قد أيقظتها في الساعة الثالثة فجراً، خشخشة أحدهم وهو يحاول، من الخارج، خلع الباب المؤدي إلى الشارع. نهضت دون أن تشعل الضوء، وبحث، بالتمس، في الخزانة عن سدس عتيق لم يطلق النار منه أحد منذ حرب الألف يوم، وحددت في الظلام، ليس موقع الباب وحسب، وإنما كذلك مستوى ارتفاع القفل بالضغط. وعندئذ سدت السلاح بكلتا يديها، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت النار من قبل قط، ولكن الرصاصة أصابت الهدف، عبر الباب. كان ذلك هو أول ميت أراه. فعندما مررت في طريقي إلى المدرسة، في الساعة السابعة صباحاً، كان الجسد لا يزال ممدداً على الرصيف، فوق بقعة من الدم الناشف، بوجه مهشم من رصاص الطلقة التي حطمت الأنف وخرجت من الأذن. كان يرتدي قميص بحار من الفانيلة، مقلماً بخطوط ملونة، وينظالاً عابداً بشبكة بدل الحزام، وكان حافياً. وإلى جانبه، على الأرض، وجدوا الخنطاف الذي حاول أن يفتح به قفل الباب.

هرع أعيان القرية إلى بيت ماريا كونسويغرا ليقدموا لها التعازي، لأنها قتلت اللص. ذهبتُ في تلك الليلة مع باباليلو، ووجدناها جالسة على متكا من قماش المانتيلا، تبدو مثل طاووس هائل من الحبيزان، وسط حماس الأصدقاء الذين يستمعون إلى القصة المعادة ألف مرة. الجميع كانوا متفقين معها بأنها أطلقت النار بدافع الخوف المحض. وكان أن سألتها جدي عندئذ، عما إذا كانت قد سمعت شيئاً بعد أن أطلقت النار. فردت عليه بأنها سمعت في أول الأمر صمتاً كبيراً، ثم رنة

الخطاف المعدنية، وهو يسقط على الأرضية الاسمنتية، وبعد ذلك صوتاً خافتاً وممتلئاً: "آي، يا أمها". ويبدو أن ماريا كونسويفرا لم تح تلك الأثّة المؤثرة، إلى أن وجّه إليها جدي السؤال، لأنها عندئذ فقط انفجرت في البكاء.

حدث ذلك في يوم اثنين، وفي يوم الثلاثاء، من الأسبوع التالي، في ساعة القبلولة، كنتُ أَلعب بالهدروف، مع لويس كارميلو كورنيا، أقدم أصدقائي في الحياة، عندما فوجئنا بأن النائم يستيقظون قبل الموعد، ويطلون من النوافذ. وحينئذ رأينا في الشارع المقفر، امرأة بملابس الحداد الكامل، ومعها طفلة في حوالي الثانية عشرة من عمرها، تحمل باقة أزهار ذابلة ملفوفة بورقة صحيفة. وكانتا محتصيان من الشمس الحارقة بمظلة سوداء، غير عابيتين مطلقاً بوقاحة الناس الذين يراقبون مرورهما. لقد كانتا أم اللص وأخته الصغرى، تحملان زهوراً إلى قبره.

لقد لاحقتني تلك الرؤيا لسنوات طويلة، مثل حلم جماعي شهدت القرية كلها مروره من خلال النوافذ، إلى أن استطعت التظاهر منها في قصة قصيرة. ولكنني لم أع، في الحقيقة، مأساة المرأة والطفلة، ولا عزة نفسيهما الراسخة حتى اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت وفاجأت نفسي أمشي في الشارع المقفر نفسه وفي الساعة القاتلة نفسها، فقلت:

- أشعر كما لو أنني أنا اللص.

لم تفهم أمي ما أعنيه. بل أكثر من ذلك: فعندما مررنا قبالة بيت ماريا كونسويفرا، لم تَلق مجرد نظرة على الباب الذي تظهر عليه رقعة

الحشب، في موضع ثقب الرصاصة. وبعد مرور سنوات، بينما أنا أتذكر معها تلك الرحلة، تأكدتُ من أنها تتذكر المأساة. ولكنها كانت مستعدة لأن تقدم روحها مقابل نسيانها. وقد بدأ ذلك أكثر جلاءً، عندما مررنا قبالة البيت الذي عاش فيه دون إميليو، المشهور بلقب البلجيكي، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الأولى، وفقد القدرة على استخدام ساقيه الاثنتين، في حقل ألغام في النورماندي، وفي يوم أحد العنصرة من إحدى السنوات مجاً بنفسه من عذابات الذاكرة، باستنشاق أبخرة سيانور الذهب. لم أكن قد تجاوزت آنذاك السادسة من عمري.

وكانت واقعة لا تُنسى إلى حد أن أمي، عندما عدنا إلى القرية، لبيع البيت، قطعت أخيراً صمتها الذي استمر عشرين دقيقة، وتنهدت قائلة:

- يا للبلجيكي المسكين! فهر، مثلما قلت أنت، لم يعد مطلقاً إلى لعب الشطرنج.
كنا ننوي الذهاب مباشرة إلى البيت. ومع ذلك، عندما صرنا على بعد كوادرا^(١) واحدة عنه، توقفت أمي فجأة وانعطفت من الزاوية السابقة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا - قالت لي. وعندما أردت أن أعرف السبب، ردّت علي: - لأنني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب جزعي: لقد كان خوفاً، ليس من مواجهة أشباحي وحسب، وإنما خوف من كل شيء. وهكذا اصلنا تقدمنا عبر شارع مواز لنقوم بالتفافة، كان الهدف الوحيد منها هو عدم المرور ببيتنا. وقد قالت لي أمي فيما بعد: "ما كنتُ لأفهم على رؤيته دون التحدث،

(١) الكوادرا cundra وحدة لقياس الأبعاد، تساوي ١٢٥ متراً.

قبل ذلك مع أحد^١. وكان هذا هو ما حدث. فقد اقتادتني بما يشبه
الجرجرة، ودخلت دون أي تنبيه إلى صيدلية الدكتور ألفريدو باربوثا،
وهو بيت على الناصية على بُعد أقل من مئة خطوة من بيتنا.
كانت أدريانا بيردوغو، زوجة الدكتور، مستغرقة تماماً في الحياطة
على ألتها اليدوية البدائية، فلم تشعر بنا إلا عندما وصلت أمي إليها،
وقالت لها بصوت هامس تقريباً:
- صديقتي.

رفعت أدريانا بصرها المشوش عبر زجاجتي نظارة قصور البصر
السميكتين، ثم خلعت النظارة، وترددت نهيبة، ثم نهضت قافزة وهي
تفتح ذراعها وتتن:
- آي، صديقتي!

كانت أمي قد صارت وراء منضدة الكونتوار. ودون أن تقول شيئاً
آخر تعانقتا لتكبيا. بقيتُ أراقبهما من خارج حاجز الكونتوار، دون أن
أدري ما أفعل، بهزني اليقين بأن ذلك العناق الطويل ذا الدموع
الصامتة، هو أمر لا مفر منه كان يحدث على الدوام في حياتي نفسها.
لقد كانت الصيدلية هي الأفضل في أزمته شركة الموز. غير أنه لم
يبق من قوارير العقاقير القديمة، في الخزائن المتقلصة، سوى بعض
القوارير الخرفية المعلمة بحروف مذهبة. أما ماكينة الحياطة، وصولجان
هيرمس^(١)، وساعة البندول التي ما زالت حية، وورقة القسَم الأبوقراطي،
والكريسيان الهزازان المخلعان، وكل الأشياء التي رأيتها وأنا طفل، ما

(١) صولجان هيرمس caduceo * قضيب ينتهي بجناحين في أعلاه، وتلتفد عليه حيتان.
وهو شعار الطب.

زالت هي نفسها. وكانت لا تزال في الأماكن نفسها، ولكن صدأ الزمن
بدل هيناتها.

أدريانا نفسها كانت ضحية. فمع أنها ترتدي، كما في السابق،
فستاناً مزينا بأزهار تروبيكالية كبيرة، إلا أنه يكاد لا يظهر عليها شيء
من الاندفاع والشيطنة اللذين اشتهرت بهما، حتى وقت متقدم من
نضجها. الشيء الوحيد الذي بقي دون تغيير في ما حولها هو رائحة
الناردين التي تبعث الجنون في القطة، والتي سأبقى أتذكرها بإحساس
بالفرق، طوال ما تبقى من حياتي.

عندما استنفدت أدريانا وأمي الدموع، سُمعت سعلة قوية وقصيرة
من وراء الحائط الخشبي الذي يفصلنا عن الحجرة الخلفية. استعادت
أدريانا بعض ظرفها الذي كانت عليه، في زمن آخر، وتكلمت ليُسمع
صوتها، عبر الحائط الخشبي، قائلة:

- حَمْن من لدينا هنا يا دكتور؟

وجاء صوت حُببتي لرجل صلب يسأل من الجانب الآخر دون اكترات:
- من؟

لم ترد عليه أدريانا، وإنما أوصأت لنا للانتقال إلى الحجرة الخلفية.
شكّني رعب طفولي مفاجئ وغمر فمي لعاب داكن. ولكنني دخلت مع
أمي إلى الحيز المشعث الذي كان فيما مضى، مخبراً للصيدلية، وجرى
تكييفه كغرفة نوم للطوارئ. وهناك كان الدكتور ألفريدو باربوثا، أكثر
هرماً من كل الرجال وكل الحيوانات الهرمة في البر والماء، مستلقياً على
ظهره في أرجوحة تومه الأبدية المهترئة، دون حذاء، وبيجامته العتيقة
التي من القطن الخام، والتي تبدو أقرب إلى عباءة تكفير. كان نظره

موجهاً إلى السقف. ولكنه أدار رأسه عندما أحس بدخولنا، وهدقَ فينا بعينيه الصفراوين الشفافتين، إلى أن تعرّف على أمي، فهتف:

- لويسا سانتياغا!

جلس في أرجوحة النوم بانهماك قطعة أثاث قديمة، وتأنس بالكامل، وحيانا بمصافحة سريعة بيده المتوقدة. انثبه هو إلى انهاري، وقال لي: "منذ ستة وأنا أعاني من حمى أساسية"⁽¹⁾. عندئذ غادر أرجوحة النوم، وجلس على السرير، وقال لنا بنفس واحد:

- لا يمكن لكما أن تتصورا ما عانته هذه القرية.

تلك الجملة وحدها، التي لخصت حياة بكاملها، ربما كانت كافية لأن أراه مثلما كان على الدوام: رجلاً متوجداً وحزيناً. كان طويل القامة، نحيلاً، له شعر معدني بديع متقصوص كيفما اتفق، وعينان صفراوان وكثيفتان هما أروهب رعب في طفولتي. فعند عودتنا من المدرسة في المساء، كنا نصعد إلى نافذة حجرة نومه، يجتذبننا الافتتان بالخوف. وهناك تراه يتأرجح في أرجوحة النوم بهزات قوية ليخفف الحر عن نفسه. وكانت اللعبة تتمثل في النظر إليه بثبات، إلى أن ينتبه ويلتفت لينظر إلينا فجأة، بعينيه المتوقدتين.

لقد رأته أول مرة، وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، في صباح يوم تسللتُ فيه إلى الفناء الخلفي لبيته، مع رفاق آخرين، لنسرق ثمار المانجا الضخمة من أشجاره، وفجأة انفتح باب المرحاض المشيد من ألواح خشبية في أحد أركان الفناء، وخرج وهو يربط سرواله الداخلي الذي من الكتان. رأته مثل رؤيا من العالم الآخر، بقميص داخلي أبيض

(1) الحمى الأساسية، نوع نادر من الحمى لا يعرف له أصل.

بياض مستشفى، شاحباً وعظيماً، ونظرتُ إلى عيناه الصفراوان مثل عيني كلب من جهنم، نظرة استمرت إلى الأبد. هرب الآخرون من الفتحات الصغيرة في السباح. أما أنا فبقيت متحجراً بنظرة الشابتة. صوّب بصره إلى ثمار المانجا التي كنت قد قطفتها من الأشجار، ومدّ يده بالمانجا.

- هاتهما! - قال لي أمراً، ثم أضاف وهو ينظر إلى كامل قاستي

بازدراء: - لص فناء صغير.

ألقيت بالثمار عند قدميه، وهربت مدعوراً.

لقد كان شبحي الخاص. فإذا ما مشيتُ وحيداً، أقوم بالالتفاف في جولة طويلة، كيلا أمر ببيته. وإذا ما كنت أمضي مع أشخاص بالغين، فإنني أكاد لا أتجرأ على أكثر من إلقاء نظرة مختلسة بالمانجا الصيدلية. كنت أرى أدريانا محكومة بالمؤبد إلى ماكينة الخياطة، وراة الكونستوار. وأراه هو من نافذة غرفة النوم، يتأرجح في اهتزازات كبيرة في أرجوحة النوم. وتكون تلك النظرة كافية لبعث الشعيرة في بدني.

لقد أتى إلى القرية في أوائل القرن، بين ما لا يُحصى من الفنزويليين الذين تمكّنوا من الفرار عبر حدود إقليم غواخيرا، هرباً من استبدادية خوان فيشتته غوميث الشرسة. وكان الدكتور أحد أول من جرجرهم قوتان متناقضتان: شراسة المستبد في بلاده، ووه رخاء الموز في بلادنا. وقد اشتهر منذ مجيئه بعينه الطيبة - مثلما كان يقال آنذاك - وبأساليب روحه الطيبة. كان أحد أكثر الأصدقاء المواطنين في بيت جدي، حيث كانت المائدة مجهزة على الدوام دون معرفة من سيصل في القطار. لقد كانت أمي عمربة ابنه الأكبر. وجدي هو الذي علمه كيف

يُحلقُ بأجنحته الأولى. وقد كبرتُ بين أولئك الفنزويليين، مثلما واصلت
التمو بعد ذلك، بين منفيي الحرب الأهلية الإسبانية.

آخر آثار الخوف الذي كان يسببه لي ذلك المنبوذ المنسي، وأنا طفل،
تلاشت فجأة، بينما كنت جالساً، مع أمي، بجوار سريرها، نستمع إلى
تفاصيل المأساة التي ضرت البلدة. كان يتمتع بقدرة تذكّر واستحضار
شديدة الزخم، يبدو معها أن كل شيء يرويه، يصبح مرئياً في الحجرة
المخلخلة بفعل الحر. أصل كل النكبات، بالطبع، هي مذبحه العمال على
يد قري الأمن العام. ولكن الشكوك ما زالت قائمة حول الحقيقتة
التاريخية: ثلاثة قتلى أم ثلاثة آلاف؟ ربما لم يكونوا بهذه الكثرة، قال
هو، ولكن كل واحد يزيد الرقم وفق ألمه الخاص. والشركة قد رحلت الآن،
وإلى الأبد. وانتهى إلى القول:

- الغرينغون لن يرجعوا مطلقاً.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أخذوا كل شيء: المال، نسمات كانون
الأول، سكين تقطيع الخبز، رعد الساعة الثالثة مساءً، أريج الياسمين،
الحب. ولم يبق سوى أشجار اللوز المعفرة، والشوارع المتوجهة، والبيوت
الحشبية ذات سقوف التوتياء الصدئة، بأناسها المكفهرين الذين فتكت
بهم الذكريات.

المرّة الأولى التي التفت فيها الدكتور إليّ، في ذلك المساء، كانت
عندما رأيته متفاجئاً بقرعة كأنها قطرات مطر متفرقة على سطح
التوتياء. فقال لي: "إنها نسور الرخمة. فهي تقضي النهار في المشي
على الأسطح" ثم أشار بإصبع إبهام تحيلة، نحو الباب المغلق، وأضاف:
- في الليل تكون الحال أسوأ، لأننا نشعر بالأموات يمضون طليقين
في هذه الشوارع.

دعانا لتناول الغداء، ولم يكن هناك أي مانع، فصفقة البيت لا
تحتاج إلا إلى تثبيتها رسمياً. فالمستأجرون أنفسهم هم الذي سيثرونه،
وقد تم الاتفاق على التفاصيل عبر الهاتف. هل سيكون لدينا متسع من
الوقت؟

- بل فائض منه - قالت أديانا، وأضافت: - فالآن لم يعد معروفاً
متى يعود القطار.

وهكذا تقاسنا معهما وجية كيرولية، لا علاقة لبساطتها بالفقر،
وإنما بنظام غذائي فنوع يمارسه الدكتور ويعطى ممارسته، لبس على المائدة
وحسب، وإنما في كل شؤون الحياة. منذ أن تذوقت الحساء راودني
إحساس بأن عالماً يكامله كان نائماً، راح يستيقظ في ذاكرتي. طعم
كانت لي في الطفولة وضاعت منذ أن غادرت القرية، عادت إليّ كاملة
مع كل ملعقة، وأخذت تضغط على قلبي.

هكذا بدأ المحادثة، أحسست في مواجهة الدكتور بأنني في السن
نفسها التي كنت عليها، وأنا أسخر منه عبر النافذة، ولهذا أخافني
عندما توجه إليّ بالمجدية والتأثر نفسيهما اللذين كان يتحدث بهما إلى
أمي. لقد كنتُ في طفولتي، عندما أتعرض لمواقف صعبة، أحاول أن
أخفي انبهارى برمّش سريع ومتواصل من عيني. وقد عاد إليّ ذلك
الفعل الانعكاسي فجأة، عندما نظر الدكتور إليّ. صار الحر لا يطاق.
بقيت على هامش المحادثة لبعض الوقت، متسائلاً كيف أمكن لذلك
العجز البشوش والغارق في الحنين، أن يكون رعب طفولتي. وفجأة،
بعد توقف طويل، وبإحالة تافهة لا تعني له شيئاً، نظر إليّ باهتمام
جد، وقال:

- أنت غابيتو إذن. ماذا تدرس الآن؟

واريتُ اضطرابي بسردي غانم لدراساتي؛ إنها، الثانوية بتقدير جيد في مدرسة داخلية رسمية. قضاء سنتين وبضعة شهور في دراسة الحقوق دون انتظام. صحافة تجريبية. استمعتُ أُمِّي إلى ما أقوله، وبحثت على الفور عن دعم الدكتور، قائلة:

- تصور أيها الجار، إنه يريد أن يصير كاتباً.

أشرفت عينا الدكتور في وجهه، وقال:

- يا للروعة يا جارتنا! إنها هدية من السماء - ثم التفت إليّ:-

شعر؟

- رواية وقصة - قلت له وروحي معلقة بطرف خيط.

فتحسس هو:

- هل قرأت "دونيا باربارا"؟

- طبعاً - أجيته - وقرأت أعمال رومولو غيبغوس^(١) كلها تقريباً.

وكما لو أنه يتبعث في حساسة مفاجئة، روى لنا أنه قد تعرف عليه

في محاضرة ألقاها في ماركايو. وبدا له أنه كاتب جدير بكتبه.

والحقيقة أنني في تلك اللحظة، وبحمي الأربعين درجة ملاحم الميسببي

الفوكترية، كنت قد بدأت ألحظ مواطن ضعف الرواية المحلية. ولكن

التواصل السهل والودود مع الرجل الذي شكّل رغب طفولتي، بدا لي

معجزة. وفضلت التوافق مع حماسه. فحدثته عن "الزرافة" - عمودي

(١) رومولو غيبغوس، كاتب وسياسي فنزولي (١٨٨٦-١٩٦٩) انتخب رئيساً للجمهورية

عام ١٩٤٧. ولكن حركة عسكرية أطاحت به في العام التالي. يعتبر أحد أبرز روائي

أمريكا اللاتينية في النصف الأول من القرن العشرين. وأهم أعماله رواية "دونيا باربارا"

التي ترجمها إلى العربية الدكتور محمود علي مكي -

اليومي في صحيفة الهيرالدو - وأطلعته على خبر أننا ننوي، عما قريب، إصدار مجلة نثني عليها آمالاً كبيرة. وأخبرته كذلك، وقد ازدادت ثقة بنفسي، بتفاصيل المشروع، وحتى اسم المجلة: كرونیکا.

أمعن النظر إليّ من أعلى إلى أسفل، وقال:

- لا أدري كيف تكتب، ولكنك تتكلم ككاتب منذ الآن.

وسارعت أُمِّي إلى توضيح الحقيقة: فلا أحد يعارض أن أصير

كاتباً، ولكن يجب عليّ أن أنهي أولاً دراسة جامعية تمنحني أرضاً صلبة

أقف عليها. قلل الدكتور من شأن كل شيء، وتكلم عن مهنة الكاتب.

فقد كان هو أيضاً راغباً في أن يصير كاتباً، ولكن أبويه، وبحجج أُمِّي

نفسها، أجبراه على دراسة الطب عندما عجزا عن إدخاله سلك الجيش

ليكون ضابطاً. وانتهى إلى القول:

- وانظري يا جرتي. إنني طبيب، وها أنذا هنا، دون أن أدري كم

من مرضاي ماتوا بمشيئة الرب. وكم منهم ماتوا بسبب أدويتي.

أحست أُمِّي بالضياع، وقالت:

- وأسوأ ما في الأمر هو أنه ترك دراسة الحقوق، بعد توضيحات

كثيرة قدمناها لمساعدته.

ولكن ذلك بدا للدكتور، على العكس منها، دليلاً دامعاً على ميل

جارف: القوة الوحيدة القادرة على منازعة الحب امتيازاته. وبخاصة الميل

الفتني، أكثر الميول سرية وغموضاً، لأن المرء يكرس له حياته كاملة دون

أن يأمل منه شيئاً.

- إنه شيء، يُحمل في الداخل، منذ الولادة، ومعاكسته هي أسوأ

ضرر للصحة - قال ذلك، واختتم بابتسامة ماسوني لا خلاص له: - إنه

مثل ميل الكاهن.

أصابني الانبهار من الطريقة التي أوضح بها، ما لم أستطع توضيحه قط. ولا بد أن أمي شاركتني ذلك الانبهار، لأنها تأملتني بصمت بطيء، واستسلمت لقدرها.

- ما أفضل طريقة لقول كل هذا لأبيك؟ - سألتني.
فقلت لها:

- بالطريقة التي سمعناه بها للتو، بالضغط.

- لا، فهذا لن يعطي نتيجة - قالت ذلك، ثم أضاللت بعد تأمل آخر: - ولكن لا تقلق، سأجد طريقة مناسبة لآخره.

لست أدري إذا ما أخبرته بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى. ولكن الجدل توقف عند ذلك الحد. أعلنت الساعة الوقت برنين كأنهما قطرتا بلور. فانتفضت أمي قائلة: "رباه. لقد نسيت سبب مجيئنا." ونهضت واقفة:

- يجب علينا أن نذهب.

الرؤية الأولى للبيت، على الرصيف المقابل، كانت مرتبطة إلى حد ما بذكرياتي، دون أي علاقة بحسني. فقد قُطعت، من الجذور، شجرتنا اللوز الحاميتان اللتان شكلتنا، طوال سنوات، هوية مميزة. وصار البيت مكتشوفاً في العراء. ما بقي منه تحت الشمس النارية لا يزيد على ثلاثين متراً من الواجهة: نصفه من مواد بناء وسقف قرميذ تدفع إلى التفكير في أنه بيت دمي. والنصف الآخر من أخشاب غير مسحوجة. طرقت أمي الباب المغلق برفق شديد، ثم بقوة أكبر، وسألت من خلال النافذة:

- ألا يوجد أحد؟

فُتح الباب موارية وببطء شديد. وسألت امرأة من شبه الظلمة الداخلية:

- ماذا يمكنك أن أقدم لك؟

فردت أمي بتسلط ريماء غير واع:

- أنا لومسا ماركيز.

كان الباب المؤدي إلى الشارع قد فُتح عندئذ تماماً، وظهرت امرأة ترتدي ملابس الحداد، معروقة وشاحبة. نظرت إلينا من حياة أخرى. وفي عمق الصالة، كان هناك رجل متقدم في السن، يهتز على كرسي مُتعد. إنهما المستأجران، وقد اقترحا بعد سنوات طويلة شراء البيت. ولكن لم يكن يبدو عليهما مظهر المشترين، ولم يكن البيت في حالة تثير اهتمام أحد ليشتريه. وفقاً للبرقية التي تلقتها أمي، فإن المستأجرين يوافقان على أن يدفعوا، نقداً، نصف الثمن مقابل إبطال موقع منها، ثم يدفعان الباقي عندما تُبرم عقود البيع خلال السنة. ولكن أحداً لم يكن يتذكر أن هناك زيارة منتظرة. وبعد محادثة طرشان طويلة، كان الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح، هو أنه لا وجود لأي اتفاق. وعندئذ التفتت أمي المتضايقة من تلك البلاهة، ومن الحر المدل، وألقت نظرة على ما حولها، وأفلت منها مع الزفرة:

- هذا البيت البائس، في آخر نفس.

فقال الرجل:

- هل هو أسوأ. وإذا كان لم يسقط على رؤوسنا، فنبفضل ما

أنفقناه، للحفاظ عليه.

كانت لديهم قائمة بالإصلاحات التي يجب النظر فيها، إضافة إلى

أخرى اقتطعوها من الإيجار، إلى حد أننا كنا نحن المدنين لهم بالمال، ولكن أُمي المعروفة بدمعتها السهلة، كانت قادرة كذلك على إظهار حزم مخيف لمواجهة مكابد الحياة. ناقشت الأمر بصورة جيدة. أما أنا فلم أتدخل لأثني أدركتُ، منذ العقبة الأولى، أن المشتريين على حق. فليس هناك شيء واضح في البرقية حول تاريخ وطريقة البيع، ويُفهم منها بالمقابل أنه لا بد من أن يجري الاتفاق على ذلك. لقد كان موقفاً تقليدياً من ميول الأسرة الحدية. ويمكن لي أن أتصور كيف جرى اتخاذ القرار، حول مائدة الغداء، في اللحظة نفسها التي وصلت بها البرقية. فقد كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي، لهم الحقوق نفسها. وأخيراً جمعت أُمي بعض البيزوات من هنا، وبيزوات أخرى من هناك، وأعدت حقيبتها التي كحقتائب التلاميذ، وسافرت دون أي موارد أخرى سوى تذكرة العودة.

راجعت أُمي مع المستأجرة، مرة أخرى، كل شيء من البداية، وخلال أقل من نصف ساعة توصلنا إلى أنه ليست هناك أي صفقة. فنحن لم نتذكر، إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكن تجاوزها، رهناً عقارياً يُشقل على البيت، ولم يجر فكه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تم بيع البيت قطعياً. ولهذا، حين حاولت المستأجرة أن تكرر مرة أخرى حجج الحلقة المفرغة نفسها، أوقفنا أُمي بالحسن، وبحزم لا يقبل الاستئناف: - البيت لن يباع. ولنضع في حسابنا أننا جميعاً ولدنا هنا، وسنموت هنا.

أمضينا بقية فترة المساء، ونحن ننظر مجيء قطار العودة، في جمع فئات الحنين، في البيت الشبهي. لقد كان البيت بكامله لنا، ولكن

لم يكن صالحاً منه سوى القسم المؤجر الذي يطل على الشارع، حيث كانت مكاتب الجد. وما تبقى، مجرد هيكل من الجدران الخشبية المنخورة، وسقوف التوتيا، الصدئة تحت رحمة الحراذين. أطلقت أُمي الواقعة عند العتبة، صرخة قاطعة:

- ليس هذا هو البيت!

ولكنها لم تقل أي بيت تعني، فخلال طفولتها كلها، كانوا يصفونهم بطرق متعددة، بحيث كان ثلاثة بيوت على الأقل، تتبدل شكلاً ومعنى، حسب من يروي. البيت الأصلي، مثلما سمعت من جدي بطريقته المزدرية، كان كوخ هنود. وأما الثاني الذي بناه الجدان، فكان جدراناً من القصب والطين وسقوفاً من جريد النخيل، مؤلفاً من صالة فسيحة وجيدة الإنارة، وغرفة طعام على شكل شرفة مع أزهار ذات ألوان بهيجة، وحجرتي نوم، وقناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وستان مزروع جيداً وزرنية يعيش فيها الماعز، في مجتمع سلمي، مع الحنازير والدجاج. وحسب الرواية الأكثر تواتراً، فإن هذا البيت قد تحول إلى رماذ، بفعل مفرقة ألعاب نارياً سقطت على السقف الذي من سعف النخيل، خلال الاحتفالات بيوم ٢٠ تموز، عيد الاستقلال، في سنة لا يذكرها أحد من سنوات حرونا الكثيرة. الشيء الوحيد الذي تبقى منه هو الأرضيات الإسمنتية وكنلة غرفتين مع باب يطل على الشارع، حيث كانت المكاتب التي عمل فيها باباليلو، عدة مرات، موظفاً عمومياً.

وفوق الأنقاض التي كانت لا تزال ساخنة، شيدت الأسرة ملجأها النهائي. بيتاً من ثمانين حجرات متتالية في صف واحد، على امتداد بحر له حاجز من أزهار البيجونيا، حيث تجلس نساء الأسرة، للتطريز على

الطارة، وتبادل الحديث في برودة المساء. الغرف بسيطة ولا يمكن التمييز بينها. غير أن نظرة واحدة كانت كافية لأن أنشبه إلى أنه في كل تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، هناك لحظة حاسمة من حياتي.

المهجرة الأولى كانت تستخدم كقاعة لاستقبال الزيارات، ومكتب رسمي للجد. وكانت فيها منضدة مكتب بستارة، ومقعد كبير دوار بنوابض، ومروحة كهربائية، وخزانة كتب فارغة ليس فيها سوى كتاب واحد ضخّم ومفكك: معجم اللغة. وبلها مباشرة مشغل الصياغة، حيث كان الجد يمضي أفضل ساعات وقته في صنع أسماك ذهبية صغيرة ذات أجساد متفصلة، وعميون دقيقة من الزمرد، كانت توفر له المتعة أكثر مما تؤمن من الطعام. وهناك جرى استقبال بعض الشخصيات البارزة، ولا سيما السياسيين، وكبار الموظفين المتقاعدين، ومشاركين قدماء في الحروب. وكان بين تلك الزيارات، في مناسبتين مختلفتين، زيارتان تاريخيتان: الجنرال أوربيي أوربيي، والجنرال بينخامين هيريرا، اللذان تناولا الغداء مع الأسرة. ومع ذلك، فإن ما سيتذكره جدي طوال حياته، من أوربيي أوربيي، هو قناعته على المائدة: "إنه يأكل مثل عصفور".

حيز المكتب ومشغل الصياغة المشترك كان محظوراً على النساء، بتأثير ثقافتنا الكاريبية، مثلما كانت حانات القرية محظورة عليهن بأمر القاتون. ومع ذلك، فقد تحول المكان مع مرور الزمن إلى حجرة مستشفى، توفيت فيها العمة بيترا. وتحملت فيها وينفريدا ماركيز، شقيقة باباليلو، آخر شهور مرضها الطويل. وبدناً من هناك، يبدأ الفردوس المغزول للنساء، الكثيرات، المقيمات والعابرات، اللواتي مروّن بالبيت خلال طفولتي. وقد كنت أنا الذكر الوحيد الذي تمتع بامتيازات العالمين كليهما.

غرفة الطعام لم تكن أكثر من توسع في الممر مع الشرفة التي لمجلس عليها نساء البيت للخياطة، وكانت فيها مائدة تسع لستة عشر مدعواً طارئاً أو غير متوقع من باتون يومياً في قطار الظهيرة. تأملت أمي من هناك أصص البيجونيا، وأصول النباتات المتعفنة، وجذع الياسمين التي نخرها النمل، واستعادت أنفاسها:

- لم تكن نستطيع التنفس أحياناً من عبق الياسمين الحار - قالت وهي تنظر إلى السماء المبهرة، وتنهتد من أعماق روحها وهي تضيف:- لكن ما أفتقده، منذ ذلك الحين، هو رعد الساعة الثالثة مساءً.

لقد أذهلتني، لأنني كنت أتذكر كذلك الدوي الوحيد الذي كان يوقظنا من القيلولة، وكأنه تدرج أحجار. ولكنني لم أنتبه قط إلى أنه لا يحدث إلا في الساعة الثالثة.

بعد الممر، هناك قاعة استقبال محجوزة للمناسبات الخاصة. ذلك أنه كان يُقدّم للزيارات اليومية العادية، بيرة مثلجة في حجرة المكتب، إذا كان الزائر رجلاً. وفي بحر البيجونيا، إذا كان الزائر امرأة. وهناك يبدأ عالم حجرات النوم الأسطوري. أولاً مخدع المجدين، مع بوابة كبيرة تؤدي إلى المديقة، ولوحة حفر أزهار خشبية تحمل تاريخ البناء: ١٩٢٥. وهناك، دون أي إشعار مسبق، قدمت لي أمي، بتفخيم انتصاري، مفاجأة لم تخطر لي على بال:

- وهنا وكّدت أنت! -
لم أكن أعرف ذلك من قبل، أو أنني نسيتته. ولكننا وجدنا، في الغرفة التالية، المهد الذي كنت أنام فيه حتى الرابعة من عمري، وقد احتفظت به جدتي إلى الأبد. كنت قد نسيتته، ولكنني ما إن رأيته حتى

تذكرت نفسي، بأفروهول نوم مزين بأزهار زرقاء، كنت قد دشتته للنوم، وأنا أبكي صارخاً لكي يأتي إلي أحدهم وينزع عني الأقمطة الملوثة بالبراز. كنت أقف على قدمي بصعوبة، وأنا أتشيت بقضبان المهد الصغير والهش، كأنه سلّة موسى. وكانت تلك الحادثة سبب مجادلات وسخریات بين الأقارب والأصدقاء، من بدا لهم غمي في ذلك اليوم، عقلياً جداً بالمقارنة مع سني المبكرة، وخاصة عندها أصررت على أن سبب جزعي لم يكن القرف من يؤسي نفسه، وإنما خوفاً من تلويث الأفروهول الجديد. هذا يعني أنه لم تكن للأمر علاقة بأحكام النظافة، وإنما هي مشكلة جمالية، وأظن، من الطريقة التي حُفظت بها الحادثة في ذاكرتي، أنها كانت معاشني الأولى ككاتب.

كان هناك في تلك الغرفة كذلك، مذبح عليه قنابل قديسين بالحجم البشري، وهم أكثر واقعية وغموضاً من قديسي الكنيسة. وهناك كانت تنام على الدوام، العمة فرانسيسكا سيمودوسيا مينخيا، وهي ابنة عمّة لجدّي، كنا ندعوها العمة ماها، وكانت تعيش في البيت كمالكة وسيدة، منذ وفاة أبويها. أما أنا فكانت أنام في أرجوحة النوم المجاورة، مرعوباً من ارتعاش القديسين الذي يسببه المصباح القدسي الذي لم ينطفئ إلا بعد موت الجميع، وهناك أيضاً كانت تنام أمي وهي عازبة، معذبة من رهبة القديسين.

وكانت في أقصى المر، غرفتان محرمتان عليّ. في الأولى تعيش ابنة خالي سارا إميليو ماركيز، وهي ابنة الخال خوان دي ديبوس قبل زواجه، وقد تولى الجدان تربيتها، وكانت، فضلاً عن مهانتها الطبيعية منذ طفولتها، تتمتع بشخصية قوية فتحت شهيتي الأدبية الأولى،

بمجموعتها البديعة من حكايات كاييخا، المزينة برسوم ملونة، ولم تكن تسمح لي بالاقتراب منها، مخافة أن أقسد ترتبها. وقد كان ذلك هو إحباطي الأول والمرير ككاتب.

الحجرة الأخيرة هي مستودع أمتعة قديمة وصناديق متقاعدة، أقيمت فضولي منبسطاً طوال سنوات، ولكنهم لم يسمحوا لي باستكشافها قط. وقد علمت فيما بعد، أنه كانت هناك أيضاً السبعون مبولّة التي اشتراها جدّي، عندما دعت أمي زميلاتها في صفها المدرسي، لقصا، إجازة في البيت.

قبالة هاتين الحجرتين، وفي المر نفسه، كان المطبخ الكبير، بمواقده البدائية التي من أحجار كلسية، والفرن الكبير الذي بنته الجدة، وهي صانعة خبز وحلوى محترقة. كانت حيوانات السكاكر الصغيرة التي تصنعها، تغمع الفجر برائحها الشذبة. وقد كان المطبخ مملكة النساء اللواتي يعشن أو يخدمن في البيت، وكن يغنين في كورال مع الجدة، وهن يساعدنها في أعمالها المتنوعة. وكان الصوت المختلف هناك هو صوت لورينشو العظيم، البغاء ذي المئة سنة الموروث عن جدّي أمي، الذي يصرخ بشعارات مناهضة لإسبانيا وبغني أغنيات حرب الاستقلال. وكان ضعيف البصر إلى حد أنه سقط يوماً في قدر السانكوتشو^(١) ونجا بأعجوبة، لأن الماء في القدر لم يكن قد سخن كثيراً بعد. وفي العشرين من تموز من إحدى السنوات، في الساعة الثالثة بعد الظهر، ملأ البيت صخباً بصرخات رعب:

(١) سانكوتشو sancocho، صنف طعام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية، يتألف من جذور اليكة واللحم والملوز الأخضر وخضار متنوعة أخرى، تسلق معاً على نار هادئة لوقت طويل.

- الثور، الثور! لقد جاء الثور!

لم يكن في البيت سوى النساء، إذ كان الرجال قد ذهبوا إلى موقع الاحتفال بالعيد الوطني. فظن أن صرخات البهائم ليست سوى هذيانات خرف شيخوخته. ولكن نساء البيت، اللواتي يعرفن التكلم معه، لم يفهمن صرخاته إلا عندما اندفع ثورٌ هائج، هارب من زرائب الساحة، إلى المطبخ بجوار سفينة، وراح ينطع عشوائياً أثاث المطبخ، والقدر على المواقد. كنت أمضي بالاتجاه المعاكس لزوجة النساء المذعورات اللواتي حملنني في طريقهن وحبسني معهن في حجرة المونة. كان خوار الثور التائه في المطبخ، ووقع حوافره على إسمنت المر، يهزّان البيت هزاً. وفجأة أطلّ من كوة تهوية، فجمّد نخير أنفاسه التاري واحتقان عينيه الكبيرتين، الدم في عروقي. وعندما تمكن الرماحون من اقتياده إلى الزريبة، كانت قد بدأت في البيت جوقة رواية الدراما التي امتدت أكثر من أسبوع، تتخلله قدور لا نهائية من القهوة وحلوى الزفاف، لمراقبة قصة التاجيات الصاخبات المعادة ألف مرة، وفي كل مرة، ببطولية أكثر.

لم يكن الغناء كسبيراً جداً، ولكنه يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار، وحماماً مشتركاً دون سقف، وبركة من الإسمنت لتجميع ماء المطر، ومصطبة مرتفعة يُصعد إليها بسلم هش، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. وهناك كان الريميلان الكبيران اللذان يملؤهما الجهد عند الفجر، بمضخة يدوية. وإلى الورا، إسطلب الحبول المشيد من أخشاب دون سحج، وغرف الخدم. وأخيراً الغناء الخلفي الفسيح المزروع بأشجار مشرفة، وفيه المرحاض الوحيد الذي تُفرغ فيه الحامدات الهنديات، طوال النهار

والليل، صيولات البيت. وكانت أضخم الأشجار وأكثرها كثافة، هي شجرة كستناء على هامش العالم والزمن. ولا بد أنه مات متبولاً على نفسه، تحت أغصانها المتشابكة، أكثر من كولونيلين اثنين من كولونيلات الحروب الأهلية الكثيرة، في القرن السابق.

كانت الأسرة قد جاءت إلى أراكاتاكا، قبل سبع عشرة سنة من مولدي، عندما بدأت جلية اختكار البيوتاتد فروت كومباني للموز. وأحضرت الأسرة معها ابنتها خوان دي ديبوس، وهو في الحادية والعشرين، وابنتها، مارغريتا ماريا مينيئاتا دي ألاكوكي، في التاسعة عشرة، ولويسا سانتياغا، أمي، في الخامسة. وكانت الأسرة قد فقدت قبلها تويمي إناث في حادث إجهاض، بعد أربعة شهور من الحمل. وعندما ولدت أمي، أعلنت الجدة أنه سيكون حملها الأخير. وكانت قد أكملت الثانية والأربعين من عمرها. وبعد نصف قرن تقريباً، وفي السن نفسها، وفي ظروف مطابقة، قالت أمي الشيء نفسه، عندما ولد إليخيو غابريل، ابنها رقم أحد عشر.

الانتقال إلى أراكاتاكا كان مقرراً من قبل الجددين، على أنه رحلة نسيان. وقد أخذنا لخدمتهما، هنديين غواخيريين - أليرو وأبولينار - وهندية - ميمي - اشتروهم في موطنهم، بمئة بيزو لكل واحد، بعد إلغاء الرق. وكان الكولونيل يحمل معه كل ما هو ضروري ليخلف الماضي، أبعد ما يمكن عن ذكرياته السيئة، بلا حقه عذاب الضمير المشؤوم، لقتله رجلاً في مبارزة شرف. كان يعرف المنطقة سابقاً منذ وقت طويل، عندما كان يمضي باتجاه ليناغا في حملة حربية، وحضر بوصفه رئيس إدارة التعمين العام، توقيع معاهدة نيرلانديا.

لم يُعد البيت الجديد الطمأنينة وراحة البال إلى الأسرة، لأن تأنيب الصمير كان وببلاً، حتى إن آثاره استصل إلى حفيد ضال من الجيل الثالث. كانت أكثر الذكريات تواتراً وزخماً، والتي شكّلنا منها رواية مرتبة لما حدث، هي تلك التي قدمتها الجدة مينا، وكانت قد صارت عمياً، ونصف مخبولة، على الرغم من أنها، وسط الشائعات المتواصلة عن المأساة الوشيكة، كانت هي الوحيدة التي لم تعلم بخير الميازرة، إلا بعد وقوعها.

حدثت المأساة في بارانكيّا، وهي قرية مسالمة ومزدهرة بمحاذاة جبال سييرا نيفادا، حيث تعلم الكولونيل من أبيه وجده، مهنة صباغة الذهب، وحيث رجع ليستقر، بعد توقيع اتفاقيات السلام. أما الخصم فكان مارداً بصغره بست عشرة سنة، ليبرالياً ذا عظم أحمر، مثله، وكاثوليكياً ممارساً، ومزارعاً فقيراً، تزوج حديثاً وله ابنان، ويحمل اسم رجل طيب: ميداردو باتشيكو. ولا بد أن أكثر ما أحنز الكولونيل هو أن خصمه لم يكن أي واحد من الأعداء الذين لا يعرف وجوههم ممن واجهوه في ميادين المعارك. وإنما هو صديق قديم، ومحاذب له، وجندي عنده في حرب الألف يوم. وعليه أن يواجهه حتى الموت، في الوقت الذي كان الاثنان يظنان أنهما قد كسبا السلام.

كانت تلك هي الحالة الأولى من الحياة الحقيقية التي استثارت غرائز الكاتب لدي، ولم أستطع أن أتظهر منها حتى الآن. لقد أدركت، منذ أن بدأت الوعي، ضخامة حجم ونقل تلك المأساة في بيتنا. ولكن تفاصيلها بقيت غائمة، فأمي التي لم تكن قد بلغت الثالثة من عمرها، تذكرتها على الدوام، كحلم غير محتمل. وكان الكبار يشوشونها أمامي،

لتختلط الأمور عليّ، ولم أستطع قط، أن أعيد تركيب اللفظ كاملاً، لأن كل واحد من كلا الفريقين، يركب كل قطعة على طريقته. والرواية الأكثر ثقة هي أن أم ميداردو باتشيكو حفته على الثأر لشرها، لأنها أهينت بتعليق شأن نسيته إلى جدي. فنذ هذا الأخير الأمر باعتباره إشاعة كاذبة، واعتذر علناً من لحقت بهم الإهانة، ولكن ميداردو باتشيكو أصر على العدا، وانتهى به المطاف إلى التحول من مُسأء إليه إلى مُسيء، بتوجيه شتائم خطيرة إلى الجد حول سلوكه كليبالي. ولم أعرف بصورة مؤكدة قط، فحوى تلك الشتائم. فتحداه الجد الذي جُرحت كبرياؤه بدعوته إلى مبارزة حتى الموت ودون تحديد موعد ثابت.

المثال النموذجي لطبيعة الكولونيل، هو الوقت الذي تركه يمر، منذ التحدي، حتى المبارزة. رتب أموره بتكتم مطلق، ليضمن أمان أسرته في الخيبار الوحيد الذي يوقره له القدر: الموت أو السجن. بدأ، دون أدنى تسرع، ببيع القليل المتبقي له للمعيشة بعد الحرب الأخيرة: ورشة الصياغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يربى فيها تبوس أضاح، ويزرع قطعة من أرضها بقصب السكر. وبعد ستة شهور من ذلك، خبأ في قاع إحدى الخزائن، ما يجمع لديه من المال، وانتظر بصمت، اليوم الذي حدده هو نفسه: الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٠٨، ذكرى اكتشاف أميركا.

كان ميداردو باتشيكو يعيش خارج القرية. ولكن الجد كان يعرف أنه لا يمكن له أن يتخلف في ذلك المساء، عن صوكب عنوا البيلاز. وقبل أن يخرج بحثاً عنه، كتب رسالة موجزة ورفيقة إلى امرأته، يقول لها فيها أين خبأ نقوده. وقدم لها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأبناء. تركها

إغواران وأبناءها، إلى أن هدأت مخاطر السَّار. لقد أثرت في هذه التفاصيل في طفولتي، إلى حد لم أحمل وزر خطيئة سلفي كما لو أنها خطيئتي وحسب، وإنما شعرت، مثلما أشعر الآن، وأنا أكتب عن ذلك، بالتعاطف مع أسرة الميت، أكثر من تعاطفي مع أسرتي.

نقلوا بأباليلو إلى ريوهاشا من أجل مزيد من الأمن، ثم إلى سانتا مارتا بعد ذلك، حيث حكموا عليه سنة: يقضي نصفها في السجن ونصفها الآخر في نظام مفتوح، وفور إطلاق سراحه، سافر مع الأسرة لبعض الوقت، إلى بلدة تيناغا، ثم إلى بنما، حيث أُنحِبَ ابناً آخر من علاقة غرامية عابرة. ثم انتقل أخيراً إلى بلدية أراكاتاكَا الوبيلة والمتشجّمة، بوظيفة محصل مالبة في الإقليم. ولم يعد يخرج منذ ذلك الحين مسلحاً إلى الشارع، حتى في أسوأ أزمته العنف التي رافقت ثورة الموز، بل كان يُبقي المسدس تحت وسادته، من أجل الدفاع عن البيت فقط.

كانت أراكاتاكَا آنذاك أبعد ما تكون عن الملاة الهادئ والراكد الذي حلم به، بعد كابوس ميداردو باتشيكو. فقد ولدت كدسكرة لهنود تشيمبلا، ودخلت التاريخ بقدمها اليسرى، كبلدية نائية، دون رب ودون قانون، في ناحية تيناغا، أذلّتها حتى الموز أكثر مما أثمرتها. واسمها ليس اسم قرية، وإنما اسم نهر. إذ يقال للنهر "آرا" في لغة هنود تشيمبلا. أما كاتاكَا فهي الكلمة التي تطلقها القبيلة الهندية على من يأمر. ولهذا لم تكن نسمي القرية أراكاتاكَا، عند التحدث مع السكان الأصليين، وإنما يجب أن يكون الاسم: كاتاكَا.

وعندما حاول الجد تشجيع الأسرة، بأوهام أن النقود تتدفق هناك

تحت الوسادة المشتركة، حيث ستجدها امرأته دون شك، عندما تستلقي لتنام. وخرج دون أي نوع من الوداع، لمواجهة ساعة نحسه.

وتشفق حتى أقل الروايات صلاحية، على أنه كان يوم اثنين، تقليدياً، من تشرين خريفي، بمطر كثيب من غيوم منخفضة وريح مائتية. وكان ميداردو باتشيكو يرتدي بدلة يوم الأحد. وقد انتهى لشوه من دخول زقاق مسدود، عندما اعترض الكولونيل ماركيز طريقه. كلاهما كان مسلحاً. بعد سنوات من ذلك، وفي هذيانات جنونها، كان من عادة جدتي القول: "لقد منح الرب نيكولاسيتو فرصة العفو عن حياة ذلك الرجل البائس، ولكنه لم يعرف كيف يستغلها". ربما كانت تفكر في ذلك لأن الكولونيل قال لها إنه رأى وميض أسف في عيني الخصم الذي أخذ على حين غرة. وقال لها كذلك إنه عندما هوى الجسد الضخم كجذع شجرة سيبيا، على النباتات القصيرة، أصدر أنة دون كلمات، "مثل أنة هرّ مبلل". ونسيت التقاليد الشعبية إلى بأباليلو، عبارة بليغة في اللحظة التي سلّم فيها نفسه إلى العمدة: "طلقة الشرف سبقت طلقة السلطة". وهي عبارة وفيّة للأسلوب الليبرالي في ذلك العهد، ولكنني لم أستطع مواحتها مع أسلوب الجد. الحقيقة أنه لم يكن هناك شهود. وكان يمكن للرواية القضائية التي قدمها الجد ومعاصروه، من كلا الجانبين، أن تكون الرواية المرجعية. ولكن لم يبق من ملف القضية، إذا كان قد وجد أصلاً، أي ملحق نور. ومن الروايات العديدة التي سمعتها حتى اليوم، لم أجد اثنتين متطابقتين.

شقت الواقعة أسر القرية، بمن في ذلك أسرة الميت. فقد دعا قسم منها إلى الثأر للميت، بينما أوى آخرون في بيوتهم الجدة ترانكيلينا

في الشوارع، قالت له مينا: "المال هو روث الشيطان". أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك هي مملكة كل الأراضي. وأقدم ما تتذكره فيها هي جائحة الجراد التي عانت خراباً في الزروع، عندما كانت لا تزال صغيرة جداً. "لقد كان يسمع مرور أسراب الجراد، وكأنه ربح أحجار"، هكذا قالت لي عندما ذهبتنا لبيع البيت. وكان على السكان المرعوبين، أن يتحصنوا في غرفهم، ولم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بفنون الشعوذة.

في كل وقت، كانت تباغتنا أعاصير جافة تقتلع مقوف الأكواخ، وتنفق على الموز الجديد، وتخلّف القرية مغطاة بغيبار كوكبي. وفي الصيف، تنكل بالماشي فترات جفاف رهيب، أو تهطل في الشتاء أمطار كونية عاتية تحوّل الشوارع إلى أنهار مائجة. فكان المهندسون الغرينغيون يبحرون في قوارب من المطاط، بين حزم فراش غارقة وأبقار ميتة. واليونايبتد فروت كومباني، التي كانت أنظمة ربهما الاصطناعية مسؤولة عن فوضى المياه، حوكت مسار النهر، عندما نبش أخطر تلك الفيضانات جنامين الموتى في المقبرة.

ولكن أسوأ الجائحات وأشدها شؤماً، مع ذلك، هي الجائحة البشرية. فقد قذف قطاراً، يبدو مثل دمية، على رمال القرية المتوقدة، حثالة مغامر من كل أنحاء العالم، استولوا بقوة السلاح على السلطة في الشارع. فازدهار القرية الطائش حمل معه نمواً سكانياً، وفوضى اجتماعية، تجاوزت كل الحدود. كانت آراكاتاكما تبعد مئة فرسخ فقط، عن مستوطنة-سجن بويس آيرس. على نهر فونداثيون، التي اعتاد سجنائها على الهرب في نهاية الأسبوع، ليلعبوا لعبة الرعب في

القرية. لم تكن نشبه شيئاً إلى حد كبير مثلما نشبه القرى الناشئة في أفلام الغرب، منذ أن بدأت محلّ. في آراكاتاكما، محل أكواخ هنود التشمبيل التي من السعف والقصب، بيوت اليونايبتد فروت كومباني المخشبية، ذات السقوف الصفيحية المروجة، والنواقد البارزة والشرفات المسقوفة المزينة بنباتات معرشة ذات أزهار معفرة. وسط تلك العاصفة الهوجاء من الوجوه غير المعروفة، ومن الخيام المرجلة على قارعة الطريق العام، ومن رجال يبدلون ملابسهم في الشارع، ونساء جالسات على صناديق الأمتعة، ومظلاتهن مفتوحة، وبغال وبغال وبغال محتضرن من الجوع، في زرائب الفندق، كان من وصلوا أولاً هم الأخيرون. فقد صرنا الغريباء الدائمين. الدخلاء.

لم تكن المذابح تقتصر على مشاجرات أيام السبت وحسب. ففي مساء أحد الأيام، سمعنا صراخاً في الشارع، ورأينا مرور رجل دون رأس، ممتطياً حملاً. لقد جرى قطع رأسه بضربة متشبسي في تصفية حسابات، في مزارع الموز. وقد جرف تيار الساقية المتجمد الرأس، وفي تلك الليلة سمعتُ من جدي التفسير الدائم: "أمر يمثل هذه القطاعة، لا يمكن أن يقدم عليه سوى كاتشاكو".

والكاتشاكو هم أهالي الهضبة، الذين لم تكن فيزيهم عن بقية البشرية، بأساليبهم الفاترة الواهية، ونطقهم الفاسد وحسب، وإنما كذلك بغرورهم بأنهم مبعوثو العناية الإلهية. وقد كانت تلك الصورة مكروهة إلى حد أنه على إثر أعمال القمع الشرسة لإضرابات عمال الموز، على يد عسكريّ الداخل، لم تكن نسمي رجال القوة العسكرية جنوداً، وإنما كاتشاكو. كنا ننظر إليهم باعتبارهم المنتفعين الوحيديين من السلطة

السياسية. وكثيرون منهم كانوا يتصرفون على أنهم كذلك. هكذا فقط، يمكن تفسير "ليلة أراكاتاكا السوداء"، وهي مذبحة أسطورية لها أثر غائم في الذاكرة الشعبية، ولا وجود لدليل واضح على أنها قد حدثت فعلاً.

بدأ ذلك في يوم سبت أسوأ من سواه، عندما دخل شخص محترم من أبناء المنطقة، لم يحفظ التاريخ هويته، إلى حانة ليطلب كأس ماء لطفل يسك بيده. فأراد غريب كان يشرب وحيداً، على الكونستور، أن يجبر الطفل على شرب خمرة "الرؤم" بدلاً من الماء، حاول الأب منعه، ولكن الغريب أصر على طلبه، إلى أن هدر الطفل المذعور، دون أن يريد ذلك، كأس الشراب، بحركة من يده. عندئذ أقدم الغريب، دون مزيد من الجدل، على قتل الصغير، بطلق ناري.

لقد كان شبحاً آخر من أشباح طفولتي. وكان باباليلو يذكرني به، كلما دخلنا معاً لتناول مرطب في إحدى الحانات، ولكن بطريقة خيالية يبدو معها هو نفسه، غير مصدق لما يرويه. لا بد أن ذلك حدث بعد وقت قصير من وصوله إلى أراكاتاكا، لأن أمي تذكره، من خلال الرعب الذي كانت تشير الواقعة في كبار أسرتها. لم يُعرف عن المعتدي إلا أنه يتكلم بلهجة أهل مرتفعات الأنديز المتكلمة، ولهذا لم ينفلت انتقام القرية ضده وحسب، وإنما ضد أي واحد من الغرباء الكثيرين والمكروهين الذين يتكلمون لهجته. اندفعت، في الليل إلى الشوارع، زمر من الأهالي المسلحين يناجل متشبتي قطع قصب، وكانوا يسكون الكتلة غير واضحة المعالم التي يفاجئونها في الظلام، ويأمرونها:

- تكلم!

ويسبب اللهجة وحدها، كانوا يمزقونه بضربات المشيتي، دون أن تفهم عدالة تصرفهم، وسط أساليب التكلم المختلفة. وقد قُدِّر لدون رافاتيل كينتيرو أورتيجا، زوج خالتي وينفريدا ماركيز، الكاتشاكو القح والمحجوب، أن يعيش ويوشك أن يحتفل بعيد ميلاده المشوي في الحياة، لأن جدي حسبه يومذاك في حجرة مؤونة، إلى أن هدأت المحوطة.

بلغ شقاء الأسرة ذروته، بعد سنتين من العيش في أراكاتاكا، بموت مرغريتا ماريا مينباتا التي كانت نور البيت. وقد بقيت صورتها المنقطة بألة دغريتيب، معروضة في الصالة لسنوات طويلة، وبقي اسمها يتردد من جيل إلى آخر، كعلامة أخرى من العلامات المميزة للهوية الأسرية. الأجيال الحديثة لا تبدي تأثراً بتلك الفتاة ذات التنورة المجددة، والجزمة البيضاء، والمجدلة الطويلة حتى الحصر، والتي لا يستطيعون مطابقتها أبداً مع الصورة البلاغية لمجددة جدتهم. ولكن لدي انطباعاً بأنه تحت وطأة تائب الضمير، والأحلام المحيطة بعالم أفضل، كانت حالة الاستنفار الدائمة تلك، في نظر جدي، هي أقرب ما تكون إلى السلام. فحتى موتها، بقيا يشعران بأنهما غريبان في أي مكان يحلان فيه.

لقد كانا كذلك، في الواقع. ولكن التمييز الفوري كان صعباً، وسط حشود القطار التي جاءتنا من العالم أجمع. وبالاندفاع الذي جاء به جدأي وذريتهما، وصل كذلك آل فيرغوسا، وآل دوران، وآل بيراكاتا، وداكوتي، وكوريا، بحثاً عن حياة أفضل. ومع اضطرابات الشعب، جاء الإيطاليون، والكناريون، والسوريون - وكنا نسميهم توركو - متسللين من حدود بروبينشيا، بحثاً عن الحرية، وطرق أخرى في العيش افتقدوها في بلادهم. كان هناك أناس من كل الألوان والمستويات. بعضهم من

الهاربين من جزيرة الشيطان - مستوطنة السجن الفرنسية في غوايانا - وكانت أفكارهم، أكثر من جراتهم العادية، هي السبب في ملاحظتهم. أحدهم هو ريتيه بلفيتو، وكان صحفياً فرنسياً محكوماً لأسباب سياسية، انتقل هارباً إلى منطقة الموز، وكشف في كتاب بارع الأحوال التي عرفها في سجنه، وبفضلهم جميعاً - الطبيين منهم والسيثيين - كانت أراكاتا منذ نشوتها، بلاداً بلا حدود.

ولكن الجالية التي لا تُنسَى بالنسبة إلينا هي الفنزولية، وفي أحد بيوتها كان يستحم بدلاء ماء من البرك المتجمدة، عند الفجر، طالبان مرافقان في إجازة: رومولو بتانكور، وراؤول ليوني، اللذان سيصيران بعد نصف قرن من ذلك رئيسين لبلادهما على التوالي. أما أقرب الفنزوليين إلينا فكانت السيدة خوانا دي فريسي، وهي امرأة مهيبة وباهرة، تمتلك موهبة توراتية في قصص الحكايات. فأول قصة رسمية عرفتها هي جينوفيفا دي براهاتي، وقد سمعتها منها، مع قصص أخرى من أبرز أعمال الأدب العالمي التي كانت توجزها إلى حكايات أطفال: الأوديسة، أورلاند الغاضب، دون كيخوته، الكونت دي مونتكريستو، وقصص كثيرة من الكتاب المقدس.

لقد كانت ذرية المجد إحدى أكثر الأسر احتراماً، ولكن أقلها نفوذاً في الوقت نفسه. وتميزت مع ذلك بجدارتها بالاحترام المعترف به حتى من المسؤولين المحليين في شركة الموز. فهي من أسر المحاربين الليبراليين السابقين في الحروب الأهلية، ممن استقروا هناك، بعد الاتفاقيتين الأخيرتين، وتموذجهم الجيد هو الجنرال بيخامين هيريرا، الذي كانت تُسمع في الأمسيات، من مزرعته في نيرلانديا، موسيقى فالسات كئيبة، من يوقه السلمى.

صارت أمي امرأة في ذلك المكان البائس، واحتلت حيز كل الغراميات، منذ أن قضى التيفوس على مرغريتا حاريا ميثياتا. وكانت هي نفسها أيضاً عليله كثيرة المرض. فقد عاشت طفولة قلقة عانت فيها من نوبات الحصى الثلاثية. ولكنها عندما شقيت من آخرها، كان الشفاء نهائياً، وإلى الأبد، وتقتعت بصحة أتاحت لها الاحتفال بعيد ميلادها السابع والتسعين، مع أبنائها الأحد عشر، وأبناء زوجها الأربعة، وخسة وستين حفيداً، وثمانية وثمانين ابن حفيد، وأربعة عشر من أحفاد أحفادها. دون عد من لم يُعرفوا قط. وقد ماتت ميتة طبيعية، يوم التاسع من حزيران ٢٠٠٢ في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، عندما كنا نعدّ العدة للاحتفال بقرنها الأول في الحياة، وكانت وفاتها في اليوم نفسه، وفي الساعة نفسها تقريباً التي وضعتُ فيها نقطة النهاية لهذه المذكرات.

كانت قد ولدت في بارانكاس، في الخامس والعشرين من تموز ١٩٠٥، حين بدأت الأسرة تستعيد عافيتها من كارثة الحروب الأهلية. أطلقوا عليها اسمها الأول، تكريماً لذكرى لويسا ميخيا بيدال، أم الكولونيل، التي انتضى في ذلك اليوم، شهر على وفاتها. أما الاسم الثاني، فوقع عليها مصادفة، لتوافق يوم ميلادها مع عيد الرسول سانتياغو الأكبر^(١)، الذي قُطع رأسه في أورشليم. وقد أخفت هي هذا الاسم الثاني طوال نصف حياتها، لأنه بدا لها اسماً ذكورياً وصاحبياً، إلى أن جاء ابن عمي وكشفه في رواية^(٢).

(١) سنتياغو الأكبر Santiago el Mayor هو يعقوب بن زبدي، أحد حوارمي المسيح، قتلته هيروودس الملك.

(٢) الإشارة هنا إلى رواية المؤلف نفسه "قصة موت مملن"، حيث يذكر اسمها في نهاية الفصل الأول.

كانت تلميذة مجتهدة، باستثناء درس البيانو، الذي فرضته عليها أمها التي لم تكن قادرة على تصور أنسة محترمة لا تكون عازفة بيانو بارعة. وقد درست لويسا سانتياغا العزف، بدافع الطاعة والانصياع، طوال ثلاث سنوات، ثم هجرته يوماً بسبب الضجر من التمارين اليومية، في قبض القبولولة. ومع ذلك، فإن الميزة الوحيدة التي أفادت بها، في زهرة العشرين من عمرها، هي قوة شخصيتها، حين اكتشفت الأسرة أنها مفتونة بحب عامل التلغراف الشاب والمتكبر في أراكاتاكا.

لقد كانت قصة تلك الغراميات المقموعة، واحدة أخرى من دهشات شبابي. فلكنثرة ما سمعتُ روايتها من أوبي، كل منهما على حدة، صارت القصة مكتملة لدي تقريباً عندما كتبتُ روايتي الأولى، "الأوراق الذابلة"، وأنا في الثالثة والعشرين، ولكنني كنتُ واعياً أنه ما زال عليّ أن أتعلم الكثير حول فن القص الروائي. كلاهما كان راوياً ممتازاً، ولديه ذاكرة الحب السعيدة. ولكنهما بلغا في روايتهما حدوداً من الشغف العاطفي، لم أستطع معها تبيين الحدود بين الحياة والشعر، عندما قررت، أخيراً، بعد أن تجاوزت الخمسين، استخدام قصة جهما في رواية "الحب في زمن الكوليرا".

لقد التقيا أول مرة، حسب رواية أمي، في مأتم طفل، لم يتمكن أي منهما تحديده لي. وكانت يومذاك تغني في الفناء، مع صديقاتها، وفق العادة الشعبية في قضاء ليالي الأربياء التسع، في إنشاد أغنيات الحب. وفجأة انضم صوت رجولي إلى الكورال. فالتفتن جميعهن لرؤيته وأصابهن الارتباك حيال حسن مظهره. "ستتزوج منه". غنين هذه العبارة في قفلة المقطع، على إيقاع أكفهن. ولكن رؤيته لم تؤثر في أمي، وهذا

ما قالته: "لقد بدا لي أنه غريب آخر". وكان كذلك بالفعل. فقد وصل لتوه من كارتاخينا دي إندياس، بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة، بسبب شح الموارد، وانطلق في حياة أقرب إلى الابتذال والسوقية، في عدد من قرى المنطقة، ممارساً مهنة عامل التلغراف المحدث. إحدى صورته في تلك الأيام، تبديه بالمظهر الخاطف لمئات فقير. فهو يرتدي قميصاً قاتماً من حرير التفنن، مع سترة ذات أربعة أزوار، ضيقة جداً، على موضة تلك الأيام، وياقة قاسية، وربطة عنق عريضة، وقبعة من القش. وكان يضع كذلك نظارة من النوع الدارج، عدستها مستديرتان من زجاج طبيعي وإطارها رفيع. من عرفوه في تلك الفترة، كانوا يرون فيه بوهيمياً محباً للسهر، وزيراً نساء، ولكنه لم يشرب مع ذلك قطرة خمر واحدة، ولم يدخن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت تلك هي أول مرة تراه فيها أمي. أما هو بالمقابل، فكان قد رآها في قداس الساعة الثامنة، يوم الأحد السابق، وهي بحراسة العمدة فرانسيسكا سيمودوسيا التي كانت وصيفتها المرافقة، منذ أن عادت من المدرسة. ثم رآها مرة أخرى يوم الثلاثاء التالي، تخيطان تحت أشجار اللوز، عند بوابة البيت، وهكذا كان يعرف في ليلة المأتم أنها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز الذي جاء حاملاً له عدة رسائل توصية. وعرفت هي أيضاً، منذ ذلك الحين، أنه عازب ومتقلب الغراميات، وأنه يصيب نجاحاً قوياً لطلاوة لسانه، وتدقق شاعريته، ورقصه الظريف على وقع الموسيقى الدارجة، وعاطفيته المدروسة مسبقاً التي يعزف بها الكمان. وقد روت لي أمي أن من كان يسمعه يعزف فجراً، لا يتمكن من كبح رغبته في البكاء. وكانت بطاقة تقديمه لنفسه في المجتمع هي

معزوفة "عندما انتهت الرقصة"، وهي مقطوعة فالس ذات رومنطيقية مستترفة، ضمها إلى قائمة معزوفاته وصارت لحناً لا بد منه في جولات العزف الليلية (السيرنادات). جوازات المرور المحسمة هذه، وجاذبيته الشخصية، فتحت له أبواب البيت، وأتاحت له التردد بكثرة على مائدة الغداء العائلية. وقد تبنته العمدة فرانثيسكا، المتحدرة من قرية كارمن دي بوليفار، دون تحفظ، عندما علمت أنه مولود في سينثي، وهي قرية قريبة من قربتها. وكانت لويسا سانتياغا تستمتع في الحفلات الاجتماعية، بحيله في الإغواء، ولكن لم يدر في خلدنا قط أنه يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك. بل على العكس؛ فقد كانت علاقتهما الطيبة تستند، قبل كل شيء، إلى أنها كانت تشكل واجهة لغرامياته الخفية مع إحدى زميلاتنا في المدرسة. وقد وافقت على أن تكون أسيبته في زفافه. وصار منذ ذلك الحين بدعوها أسيبتي، بينما تدعوه هي فليوني^(١). ومن السهل، في مثل هذا الوضع، تصور مدى دهشة لويسا سانتياغا في إحدى ليليات حفلات الرقص، عندما أقدم عامل التلغراف الجري، على انتزاع الوردة المعلقة في عروة ياقته، وقال لها:

- أسلمك حياتي في هذه الوردة.

لم تكن حركة مرتجلة، هذا ما قاله مرات كثيرة، وإنما جاءت بعد أن تعرف عليهن جميعاً، وتوصل إلى أن لويسا سانتياغا قد خلقت له، أما هي ففهمت حركة تقديمه الوردة، على أنها دعابة أخرى من مزاحه التوددي الذي اعتاد ممارسته مع صديقاتها. وكانت مقتنعة بذلك، إلى

(١) الفليون، هي التسمية التي يطلقها العراب على ابنه بالعماد، أو الأسيب على العريس الذي يكفله.

حد أنها تركت الوردة منسية هناك، أينما اتفق، وانتبه هو إلى ذلك. لم تكن قد عرفت قبل ذلك سوى متوعد سري واحد، وهو شاعر غير محظوظ، وصديق طبيب لم يتمكن من الوصول قط إلى قلبها بأشعاره الملتهية. ومع ذلك، فقد عكرت وردة غابرييل إليخو أحلامها، بغضب لا تفسير له. في محادثتنا الرسية الأولى عن غرامياتها، وكانت مثقلة بالأبناء، اعترفت لي: "لم أستطع النوم لغضبي من كوني أفكر فيه، ولكن ما كان بغضبي أكثر، هو أنني كلما ازددت غضباً، كان تفكيري فيه يزداد". ومحملت خلال بقية الأسبوع بمشقة رعب رؤيته وعذاب عدم التمكن من رؤيته. وتحولاً من أشبينة وفليون، كما كانا، إلى التعامل كمن لا يعرف أحدهما الآخر. وفي إحدى تلك الأسباعات، بينما كاننا تخيطان تحت أشجار اللوز، وخزت العمدة فرانثيسكا ابنة أخيها بخبثها الهندي:

- قيل لي إن هناك من قدم لك وردة.

ومثلما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا هي آخر من يعلم بأن عواصف قلبها قد صارت موضوعاً متداولاً بين الجميع. وفي المحادثات الكثيرة التي أجريتها معها ومع أبي، كانا متفقين على أن الحب الصاعق مرّ بثلاث مناسبات حاسمة. الأولى كانت في القديس الكبير، في يوم أحد الشعانين. وكانت هي تجلس مع العمدة فرانثيسكا على مقعد من جهة المنشدتين، عندما تعرفت على وقع خطوات كعبيه الفلامنكيين على آجر الأرضية، ثم رأته يمر قريباً جداً إلى حد أنها شمّت رائحة عطره الفاتر كعريس. لم يبد على العمدة فرانثيسكا أنها رأته، وبدأ أنه هو أيضاً لم يرها. ولكنه في الحقيقة كان قد دبر كل شيء مسبقاً، فقد لحق بهما عندما مرتا على مكتب التلغراف. وبقي واقفاً إلى جوار أقرب الأعمدة

من البوابة، بحيث يستطيع رؤيتها مديرة ظهرها، بينما لا يستطيع هي رؤيته. وبعد عدة دقائق متوترة، لم تستطع لويسا سانتياغا كبح لهفتها. ونظرت نحو الباب من فوق كتفها، وأحست عندئذ بأنها تموت من الغيبط، فقد كان ينظر إليها، وتقاطعت نظراتهما. "كان هذا هو ما خططت له بالضبط"، اعتاد أبي أن يقول ذلك، بسعادة، كلما أعاد قص الحكاية لي في شيخوخته. أما أمي بالمقابل، فلم تقل من ترديد القول بأنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، السيطرة على غضبها، لوقوعها في الفخ الذي نصبه لها.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. لم تكن الرسالة التي انتظرتها، من شاعر وعازف كمان في ساعات الفجر المستترة، وإنما رسالة أمرة، تطالبها بالرد، قبل أن يسافر إلى سانتا مارتا، في الأسبوع التالي. لم ترد عليه. وجبت نفسها في حجرتها، مصممة على قتل تلك الدودة التي لا تبقي لها أنفاساً للعيش، إلى أن حاولت العمة فرانثيسكا أن تقنعها بأن تستسلم دفعة واحدة، قبل أن يفوت الأوان. وفي محاولة منها للتغلب على مقاومتها، روت لها القصة النموذجية لحوئيتينو تريبو، ذلك العاشق الذي كان يرباط تحت شرفة محبوبته المستحيلة كل ليلة، منذ الساعة السادسة حتى العاشرة. فكافأته بكل أشكال الصد التي خطرت لها، وانتهى بها الأمر إلى أن تُفَرَّغ عليه، من الشرفة، ليلة بعد ليلة، مبولة صغيرة مملثة بالبول. ولكنها لم تستطع إبعاده. وبعد كل أشكال تلك الاعتادات التعسفية - ومتأثرة بتفاني ذلك الحب الذي لا يُهزم - تزوجت منه، ولكن قصة حب أبي لم تصل إلى تلك الحدود.

مناسبة الحصار الثالثة، كانت حفلة زفاف شديدة الأبهة، دعي إليها كلاهما كإشبهتي شرف. لم تجد لويسا سانتياغا ذريعة للتملص من التزام شديد القرب من الأسرة. ولكن غابرييل إليخيو كان قد فكر بذلك أيضاً، وذهب إلى الحفلة، وهو مستعد لكل شيء. لم تستطع هي كبح جماح قلبها عندما رأته يجتاز القاعة بتصميم بالغ الوضوح، ويدعوها إلى الرقصة الأولى. وقد قالت لي: "كان الدم يقور بقوة في جسدي، ولم أعد أعرف إذا ما كان السبب هو الغضب أم الخوف". وانتبه هو إلى ذلك، ووجه ضربة قاسية: "لم تعودني مضطرة إلى أن تقولي لي نعم، لأن قلبك يقولها لي".

تركته هي دون مزيد من اللف والدوران، وخلفته مسمراً في القاعة، في منتصف الرقصة. ولكن أبي فهم الأمر على طريقته.

- بقيت سعيداً - هذا ما قال لي.

لم تستطع لويسا سانتياغا كبح الضغينة التي أحست بها، ضد نفسها، عندما أبقتها في الفجر مغازلات الفالس المسحوم؛ "عندما انتهى الرقص قبيل الفجر". وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي، أعادت إلى غابرييل إليخيو كل هداياه. هذا الصد المجحف، والأقارب عن تركها له في حلبة الرقص، أثناء حفلة الزفاف، كانت أشبه برياش ألقيت في الهواء، ولم تعد هناك ربح قادرة على إرجاعها. اعتبر الجميع أن تلك هي النهاية غير المجيدة لعاصفة صيفية، وقد تعزز الانطباع لدى إصابة لويسا سانتياغا بتكسة الحمى الثلاثية التي كانت تعاني منها في طفولتها، فأخذتها أمها لتخفف عنها إلى قرية مانوري، وهي ركن فردوسي متاحم لسلسلة جبال سييرا نيفادا. وقد أنكر كلاهما على الدوام

وجود أي اتصال بينهما، خلال تلك الشهور، ولكن لا يمكن تصديق ذلك بسهولة. فعندما رجعت، وقد تعافت من علتها، صاروا يبدوان وكأنهما قد تعافيا كذلك من شكوكهما. ويقول أبي إنه ذهب لانتظارها في المحطة، لأنه قرأ البرقية التي أرسلتها مينا معلنة عودتها إلى البيت، وقد أحسن، من الطريقة التي شددت بها لويسا سانتياغا على يده لدى المصافحة، بما يشبه إشارة مشفرة ماسونية، فسرها هو على أنها رسالة حب. وقد أنكرت هي ذلك دوماً، بالخفر والحياء اللذين تستحضر بهما ذكريات تلك السنوات. ولكن الحقيقة أنها صاروا منذ ذلك الحين، يظهران معاً بقدر أقل من التكتّم. ولم يكن ينقص إلا النهاية التي وفرتها العمة فرانثيسكا، في الأسبوع التالي، بينما هما تخططان في محر أزهار البيجونيا:

- لقد علمت مينا بالأمر.

وقد قالت لويسا سانتياغا، على الدوام، إن معارضة الأسرة كانت السبب في مجاوز حواجز السبل الذي كانت تكبمه في قلبها، منذ الليلة التي تركت فيها المتروك إليها، مسرماً في منتصف حلبة الرقص. كانت حرباً ضارية. وقد حاول الكولونيل البقاء على هامشها، ولكنه لم يستطع تجنب الشعور بالذنب الذي واجهته به مينا، عندما انتهت إلى أنه لم يكن هو نفسه بريئاً كذلك، بالقدر الذي يُظهره. كان واضحاً للجميع أن عدم التسامح لم يكن منه، وإنما منها، مع أن عدم التسامح كان مدرجاً، في الحقيقة، في قانون القبيلة التي ترى أن أي عريس هو شخص دخيل. هذا التحامل المسبق المشوارث الذي ما زالت جذواته موجودة تحت الرماد، جعلت منا جمعية نساء عازيات ورجالاً بسراريل دون فتحات مع أعداد كبيرة من أبناء الأزقة غير الشرعيين.

انقسم الأصدقاء حسب السن، مع العاشقين أو ضدهما، ومن لم يكن لهم موقف جذري، جاءت الأحداث لتفرضه عليهم. الشباب اتخذوا موقف المؤيدين المتواطين بابتهاج، وخاصة معه، إذ تمتع متلذذاً بشرطه كضحية تكفير عن تحامل الأفكار الاجتماعية المسبقة. أما غالبية الكبار بالمقابل، فكانت ترى في لويسا سانتياغا، أثمن جوهرة في أسرة ثرية ومعتنفة، لا يمكن لعامل تلغراف وصولي وغريب أن يتوحد إليها بدافع الحب، وإنما بدافع المصلحة. وقد تصدت هي نفسها لمعارضتها، رغم ما عُرف عنها من انصياع وخضوع، بضراوة لبوة نَفَسَاء. وفي أحد أشد نزاعاتها البيئية الكثيرة جفاء، فقدت مينا السيطرة على نفسها، ورفعت في وجه ابنتها سكين تقطيع الخبز. فواجهتها لويسا سانتياغا برباطة جأش. ولكن مينا انتهت فوراً إلى قنوة غضبها الإجماعي، فأقلت السكين وصرخت مذعورة: "زباها". ووضعت يدها على جسر الموقد، في حركة تكفير فظة.

إحدى الحجج القوية ضد غابرييل إليخيرو، هي وضعه كابن طبيعي لأم عازية أنجبته وهي في سن الرابعة عشرة المتواضعة، من عشرة عابرة مع معلم مدرسة. كان اسمها أرخيمينا غارثيا باتيميننا، وهي بيضاء ممشوقة القوام، ذات روح حرة، أنجبت ستة أبناء آخرين وابتنتين من ثلاثة آباء مختلفين، لم تتزوج أباً منهم أو تسكن معه تحت سقف مشترك. وكانت تعيش في قرية سينشي، حيث ولدت، وترهب ذريتها بالأطفال وبمزاج مستقل وسعيد كنا نتمناه، نحن أحفادها، ليوم أحد شعائين.

كان غابرييل إليخيرو نموذجاً متميزاً لتلك السلالة الرثة. فقد عاش، منذ بلوغه السابعة عشرة، خمس عشيقات عذراوات، حسب ما كشف

عنه لأمي، كفعل توتة، في ليلة زفافهما على متن سفينة ريوهاشاشا
 الشراعية التي في حالة برئى لها والمصفوعة بالعاصفة. اعترف لها بأنه
 في علاقته بإحداهن، وهو عامل تلغراف في قرية آتشي، في الثامنة
 عشرة من عمره، أنجب منها ابناً، يدعى ابيلااردو، بوشك أن يتم الثالثة
 من عمره. وفي علاقته بواحدة أخرى، وهو عامل تلغراف في آباييل،
 وكان في العشرين من عمره، أنجب ابنة عمرها شهر، وهو لا يعرفها،
 وتدعى كارمن روسا. وقد وعد أم الطفلة بالعودة إليها للزواج منها،
 وكان لا يزال يحافظ على وعده حياً عندما انحرف مسار حياته بحب
 لويسا سانتياغا. كان قد اعترف بابنه الأكبر، أمام كاتب العدل،
 وسيفعل ذلك في ما بعد مع ابنته. ولكن ذلك الاعتراف لم يكن سوى
 شكليات بيزنطية لا قيمة لها أمام القانون. ومن المفاجئ أن يسبب ذلك
 السلوك الشاذ مخاوف أخلاقية للكولونيل ماركيز الذي أنجب، فضلاً
 عن أبنائه الثلاثة الرسميين، تسعة أبناء آخرين من أمهات مختلفات،
 قبل زواجه وبعده، وكانت زوجته تستقبلهم جميعهم، كما لو أنهم
 أبناءها.

ليس بإمكانني أن أحدد متى علمت بأول أخبار تلك الوقائع. ولكن
 تهشكات أسلاقي لم تكن تهمني على أي حال. أما أسماء الأسرة بالمقابل،
 فكانت تشد انتباهي، لأنها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء أسرتي من جهة
 أمي: ترانكيلينا، وينفرايدا، فرانشيسكا سيمودوسيا. وفيما بعد، اسم
 جدتي لأبي أرخيمبرو، واسمها أبيوها، لوثانا واميناداب. وربما من هنا
 يأتي اليقين الراسخ بأن شخصيات رواياتي لن يسبروا على أقدامهم
 بالذات، ما داموا لا يمتلكون اسماً يتطابق مع طريقتهم في العيش.

وقد تفاقمت الحجج ضد غابرييل إليخيرو لكونه عضواً نشيطاً في
 الحزب المحافظ الذي خاض الكولونيل ماركيز حروبه ضده. كان السلام قد
 استتب جزئياً فقط، منذ توقيع اتفاقيتي نيرلانديا وويسكونسين، ذلك أن
 المركزية المتشوقعة كانت لا تزال في السلطة، وكان لا بد من مرور زمن
 طويل قبل أن يتغلى النبلاء والليبراليون عن التكشير عن أنسابهم. ربما
 كانت ميول العاشق المحافظة، ناشئة عن عدوى أسرية أكثر مما هي قناعة
 فكرية. ولكنهم كانوا يأخذون الأمر بالحسبان أكثر من اهتمامهم بسمات
 أخرى في طبيعته الطيبة، مثل ذكائه المتيقظ على الدوام، ونزاهته المجربة.
 كان أبي رجلاً يصعب استشفافه وإرضاه. وكان دائماً أفقر مما يبدو
 عليه. وقد اعتبر الفقر عدواً بغضاً لم يستسلم له قط ولم يتمكن كذلك
 من هزيمته. وبعزة النفس والشجاعة نفسها، تحمل عواقب غرامياته مع
 لويسا سانتياغا، في الحجرة الخلفية من مكتب التلغراف في آراكاتاكا،
 حيث كانت لديه أرجوحة نوم معلقة على الدوام، ينام عليها وحيداً. ومع
 ذلك، كان هناك، إلى جواره، سرير عازب ضيق أيضاً، نوابضه مزينة
 جيداً، تحسباً لما يمكن أن يوفره له الليل. في إحدى الفترات، شعرتُ بميل
 إلى عادته كصبياد متخف. ولكن الحياة علمتني بأنها أشد حالات العزلة
 قحلاً، وأحسست بشفقة كبيرة عليه.

وإلى ما قبل موته بقليل، كنت أسمعُه يروي كيف أنه اضطر في
 أحد تلك الأيام العصبية إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء إلى بيت
 الكولونيل. فدعوا الجميع للجلوس باستثنائه هو. ولكن أسرته أنكرت
 ذلك دعواً، وعزته إلى جذوة الاستياء الكامنة في نفس أبي. أو إلى
 ذكرى زائفة على الأقل. ولكن في إحدى المرات، عندما كانت جدتي في

حوالي المئة من عمرها، أفلت منها في هذياناتها الدراماتيكية التي لم تكن تبدو استذكّاراً لأحداث، وإنما عودة لعيشها من جديد.

- ها هو هناك، ذلك الرجل المسكين، واقفناً عند باب الصلاة.

ونيكولاسيتو لم يدعه للجلوس - قالت ذلك متألمة حقاً.

وكنْتُ متيقظاً على الدوام لمثل هذه الإيحاءات المبهرة، فسألته من هو الرجل. وردت علي بجفاء:

- إنه غارسيا، ذو الكمان.

وسط كل تلك الحماقات الكثيرة، كان أقل ما يشبه طريقة والدي في الحياة، هو شراؤه مسدساً محسباً لما يمكن أن يحدث مع محارب في استراحة، مثل الكولونيل ماركيز. كان مسدساً معتبراً من نوع سمبث أند ويسن ٢٨ طويل، لا أحد يدري كم عدد الذين امتلكوه سابقاً، وكم هناك من القتلى على كاهله. الشيء المؤكد الوحيد هو أنه لم يطلق النار منه قط ولو على سبيل الاحتياط أو الفضول. وقد وجدنا نحن أبناء الكبار، المسدس، بعد سنوات من ذلك، وفيه رصاصاته الخمس الأصلية، في خزانة أمتعة غير مجددة، إلى جانب كمان السيرنادات.

لم تثبط صرامة الأسرة من عزيمته غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا. وكان بإمكانهما اللقاء خفية، في أول الأمر، في بيوت الأصدقاء، ولكن عندما أطبق الحصار عليهما تماماً، صارت وسيلة التواصل الوحيدة هي الرسائل التي يجري تلقيها وإرسالها بأساليب مبتكرة. وكان كل منهما يرى الآخر من بعيد، عندما تمنعها ذؤوها من حضور الحفلات التي يدعى إليها. ولكن القمع بلغ حدوداً صارمة، بحيث لم يعد هناك من يتجرأ على تحدي نوبات غضب ترانكيلينا إغواران. ولم يعد العاشقان

للظهور أمام الناس. وعندما لم يتبق هناك أي ثغرة لتبادل الرسائل الخفية، ابتدع الخطيبان أساليب تشبه أساليب الناجين من الفرق. فقد تمكنت هي من إخفاء رسالة تهنئة في قالب حلوى (بودين) أوصى عليه أحدهم من أجل عيد ميلاد غابرييل إليخيو. ولم يكن هو بدوره يفوت فرصة ليرسل إليها برفقيات مزيفة وبريئة مع الرسالة الحقيقية المشفرة أو المكتوبة بحبر سرّي. صار تواطؤ العمّة فرانثيسكا عندئذ جلياً جداً، على الرغم من إنكارها الحاسم، مما أثر لأول مرة على سلطتها في البيت، ولم يعد يسمح لها بمرافقة ابنة أخيها، إلا وهي تخبط في ظل أشجار اللوز. وعندئذ صار غابرييل إليخيو يبعث رسائل حب من نافذة الدكتور ألفريدو باروثا، على الرصيف المقابل، بإشارات الصم والبكم اليدوية. وقد أتقنت هي تلك الإشارات، على أحسن وجه، إلى حد أنها كانت تتمكن، في لحظات سهو العمّة، من تبادل أحاديث حميمة مع خطيبها. وقد كانت تلك واحدة من الحيل العديدة التي ابتدعتها أديانا بيردوغو، صديقة لويسا سانتياغا الروحية، وأشد المتواطئات معها عوناً وجرأة.

مناورات المواسة تلك، كانت تكفيهما للبقاء، حين على نار هادئة، إلى أن تلقى غابرييل إليخيو رسالة من لويسا سانتياغا تنفّر بالخطر، مما اضطره إلى إعادة نظر حاسمة، كانت قد كتبتهما بسرعة، على ورق تواليت، وأودعتها الخبير المشؤوم بأن أبويها قرروا أخذها إلى بارانكاس، بالتنقل من قرية إلى قرية، كعلاج قاس من داء غرامباتها. ولن تكون رحلة نظامية في ليلة تحس تقضيها في سفينة روهاتشا، وإنما عبر طريق الجبال الرهيب، في سلسلة سييرا نيغادا، على متن البغال، وفي العربات، لاجتياز مقاطعة باديا القسيحة.

كنتُ أفضل الموت على تلك الرحلة". هذا ما قالته لي أمي يوم ذهبنا لبيع البيت. وقد حاولت الموت فعلاً، بحبس نفسها وراء باب غرفتها المغفل، والعيش على الخبز والماء، طوال ثلاثة أيام، إلى أن تغلب عليها الخوف التوقيري الذي كانت تشعر به تجاه أبيها. أدرك غابرييل إليخيو أن التوتر قد بلغ أقصى حدوده، واتخذ قراراً متطرفاً أيضاً، ولكنه مرن. فاجتاز الشارع بخطوات واسعة، من بيت الدكتور باربوثا، إلى ظل شجرات اللوز، ووقف أمام المراتين اللتين انتظرتاه مرعوبتين، وشغل الحياطة في حثنيهما.

- اعلمي معروفاً بتركي وحيداً للحظة مع الأنسة - قال للعممة فرانسيسكا - لدي شيء مهم أريد قوله لها على انفراد.

فردت عليه العممة:

- وقع ليس هناك ما يعنيه ولا يمكنني سناعه.

فقال:

- لن أقوله إذًا. ولكنني أحذرك من أنك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسلت لورسا سانتياغا إلى عمتها لتتركهما وحيدتين، وجازفت بتحمل المسؤولية. عندئذ أعرب لها غابرييل إليخيو عن مرافقته على قيامها بالرحلة مع أبويها، مهما كانت الطريقة والمدة. ولكن شريطة أن تعاهده تحت القسم بأنها ستزوج منه. وفعلت هي ذلك راضية، وأضافت على حسابها ومسئوليتها أنه لا يمكن إلا للموت وحده، أن يحول دون ذلك. وقد كانت تلك السنة فرصة لكلية، كي يثبتا جدية عهدهما. ولكن أياً منهما لم يكن يتصور كم سيكلفهما ذلك. استمر الجزء الأول

من الرحلة في قافلة بغالين، مدة أسبوعين، على متن البغال، عبر الدروب الجبلية الضيقة في سلسلة سييرا نيغادا. وكانت ترافقهم تشون - تصغير محبب لاسم إنكارناثيون - خادمة وينفريدا، والتي انضمت إلى الأسرة منذ مغادرتها بارانكاس. كان الكولونيل يعرف جيداً ذلك الطريق الوعر، حيث خلّفت سلسلة من الأبناء، في ليبالي حروبه المبهدة. ولكن زوجته فضلت سلوك ذلك الطريق، دون أن تعرفه، بسبب ذكرياتها السيئة عن الرحلة في السفينة الشراعية. أما أمي التي كانت تمتطي بغلة لأول مرة، فكانت الرحلة بالنسبة لها كابوس شמוש عارية وأمطاراً ضارية، وكانت تمضي وروحها معلقة بخيط، بسبب بخار الوديان السحيقة المنوم. وكان تفكيرها بخطيب غير مؤكد، بهدلات منتصف الليل التي يرتديها، وكمان الفجر، يبدو إحدى سخريات المخيلة. في اليوم الرابع من الرحلة، عندما أحست بأنها عاجزة عن البقاء على قيد الحياة، هددت أمها باللقاء نفسها إلى الهاوية ما لم يعودوا إلى البيت. وقررت ميننا، الخائفة أكثر منها، العودة. ولكن رئيس القافلة بين لها على الخريطة بأنه لم يعد هناك فرق بين العودة ومواصلة الرحلة. وقد جاءتهم الراحة في اليوم الحادي عشر، عندما لمحوا من آخر منعطف جبلي سهل باييدوبار المشرق. قبل أن تنتهي المرحلة الأولى، كان غابرييل إليخيو قد أمّن اتصالاً دائماً مع الخطيبة الجواله، بفضل تواطؤ عاملي التلغراف في القرى السبع التي ستوقف فيها هي وأمها، قبل الوصول إلى بارانكاس. وساهمت لورسا سانتياغا أيضاً بما هو مترتب عليها. فقد كانت أنحاء بروينشيا كلها تغض بأناس من آل إنسواران وكوتيس، يمتلك وعينهم لأصول سلالتهم قوة شبكة معقدة وكثيمة. وقد نجحت هي في استمالتهم إلى

جانيتها، فأتاح لها ذلك الحفاظ على مراسلات محبومة مع غابرييل إليخيو، ابتداءً من باييدويار، حيث قضت مدة ثلاثة أشهر، وحتى نهاية الرحلة، بعد سنة من ذلك تقريباً. كان يكتبها أن تمر على مكتب التلغراف في كل قرية، بالتواطؤ مع قريبة شابة ومنتحمة، لكي تتلقى رسائله وترد عليها. وقد لعبت تشون، كاتبة الأسرار الصموت، دوراً لا يثمن، لأنها كانت تخفي الرسائل بين ثيابها، دون أن تشير قلق لويسا سانتياغا أو تخدش حياها، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ويمكنها أن تتحمل الموت حفاظاً على السر.

بعد ستين سنة من ذلك تقريباً، عندما كنتُ أحاول إنقاذ تلك الذكريات، من أجل "الحب في زمن الكوليرا"، روايتي الخامسة، سألت أبي إذا ما كانت هناك ضمن مصطلحات موظفي التلغراف، كلمة محددة لعملية وصل مكتب بآخر. ولم يكن عليه أن يفكر بالجواب، بل قال على الفور: "تعشيق". هذه الكلمة موجودة في المعاجم، ليس للاستخدام المحدد الذي أحتاجه، ولكنها بدت لي دقيقة وتفي تماماً بما أريد. فالاتصال يختلف المكاتب يتحقق من خلال ربط توصيلة في لوحة خطوط الأطراف التلغرافية. لم أناقش الأمر مع أبي قط. ومع ذلك، وقبل موته بقليل سألوه، في مقابلة صحفية، إذا ما كان قد رغب يوماً في كتابة رواية. فأجاب بنعم، وأضاف أنه تخلى عن الفكرة، عندما سألته يوماً عن كلمة "تعشيق المخطوط"، لأنه اكتشف عندئذ أنني كنتُ أكتب ما كان يفكر هو في كتابته.

وقد تذكر في تلك المناسبة أيضاً، معلومة خفية كان يمكن لها أن تبديل مسار حياتنا. فبعد ستة شهور من الترحال، عندما كانت أمي في

سان خوان دل تيسر، وصلت إلى غابرييل إليخيو، وشاية سرية بأن مينا قد كُلفت بالإعداد لعودة الأسرة نهائياً إلى بارانكاس، بعد أن التأمت جراح الضغينة التي خلفها موت ميرادو باتشيكو. بدا له ذلك التصرف غير معقول، لا سيما بعد انقضاء الأزمنة السيئة، وبعد أن بدأت سيطرة شركة الموز المطلقة في تحقيق ما بدا أنه حلم الأرض الموعودة. ولكن كان معقولاً كذلك أن يقود العناد آل ماركيز إغواران إلى التضحية بسعادتهم، مقابل تخليص ابنهم من مخالف ذلك الباشق. وكان قرار غابرييل إليخيو الفوري هو بذل المساعي لنقله إلى مكتب تلغراف ريوهاثشا، على بعد عشرين فرسخاً من بارانكاس. لم تكن هناك وظيفة شاغرة، ولكنهم وعدوه بأخذ طلبه في الاعتبار.

لم تستطع لويسا سانتياغا أن تكتشف نوايا أمها السرية، ولكنها لم تتجرأ كذلك على نفيها. وقد لفت انتباهها أنهم كلما اقتربوا أكثر من بارانكاس، كانت أمها تبدو أكثر تنهداً ووداعة. ولم تقدم لها تشون، حافظة أسرار الجميع، أي إشارة موحية كذلك. ومن أجل استخلاص الحقائق، قالت لويسا سانتياغا لأمها إنه يسعدها البقاء للعيش في بارانكاس. ترددت الأم لحظة، ولكنها لم تحسم أمرها بقول أي شيء. وأحسنت الابنة بأنها قد اقتربت كثيراً جداً من السر. ودفعها القلق إلى عقد آمالها على التنجيم مع غجرية متجولة، لم تقدم لها أي إشارة حول مستقبلها في بارانكاس. ولكنها بشرتها بالمقابل، بأنها لن تواجه أية عقبات في عيش حياة طويلة وسعيدة، مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه، ولكنه سيحبها إلى أن يموت. وقد أعاد الوصف الذي قدمته الغجرية الروح إلى جسدها، لأنها وجدت فيه ملامح مشتركة مع خطيبها، ولا

سبعا طريقتة في الحياة. وأخيراً، تبنّت لها الفجرية، دون قطرة واحدة من الشك، بأنها ستنجب ستة أبناء منه. "لقد متُ هلعاً"، هذا ما قالت لي أُمي عندما روت لي ذلك أول مرة، دون أن تتصور أن العدد الحقيقي لأبنائها سيزيد خمسة على ذلك العدد. تلقف كلاهما تلك النبوءة بحماس شديد، إلى حد أن المراسلات التلغرافية لم تعد عندئذ كونشيرتو نوايا حاملة، وتحوّلت إلى مراسلات منهجية وعملية، وأكثر كثافة من أي وقت آخر. فحدّثا التواريخ، وأقرا الوسائل، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك بالزواج، دون استشارة أحد، أينما كان وكيفما كان، عندما يعودان للقاء.

وكانت لويسا سانتياغا شديدة الوفاء للوعد الذي قطعته على نفسها، إلى حد أنها رأت، حين كانت في قرية فونسيكا، أنه ليس من الصواب الذهاب لحضور حفلة راقصة، دون الحصول على موافقة خطيبها. كان غابرييل إليخيو في أرجوحة النوم، يتعرق حمى أربعين درجة مئوية عندما رنت إشارة نداء تلغرافي مستعجل. وكان المتصل هو زميله عامل تلغراف فونسيكا، ومن أجل الأمان التام، سألت هي عمن يدير جهاز البرق في نهاية السلسلة. فأرسل الخطيب المشوش أكثر مما هو مغالاً، جملة تعرّف بهويته: "قل لها إنني فليوثها". تعرّفت أُمي على كلمة السر، وذهبت إلى حفلة الرقص، وظلت هناك حتى الساعة صباحاً، عندما كان عليها أن تعود لتستبدل ثيابها على جناح السرعة، كيلا تصل متأخرة إلى القُداس.

لم يجدوا في بارانكاس أدنى أثر للحمق على الأسرة. بل على العكس، فقد كان يسود بين ذوي ميداردو باتشيكو مزاج مسيحي من

الصفح والنسيان، بعد مرور سبعة عشر عاماً على الحدث المشؤوم. وكان استقبال الأقرباء حميماً جداً، حتى أن لويسا سانتياغا هي من فكرت في إمكانية عودة الأسرة إلى ذلك الملاذ الجبلي الهادئ والمختلف تماماً عن الحر والغبار، والسجوت الدامية، والأشباح مقطوعة الرؤوس في آراكاتاكا. وقد تمكّنت من الإيحاء بتلك الرغبة إلى غابرييل إليخيو، شريطة أن يتحكّن من الانتقال إلى ريوهاتشا. وأبدى هو موافقته. ومع ذلك، فقد عُرف في تلك الأيام، أخيراً، أن رواية الانتقال ليست بلا أساس وحسب، وإنما ليس هناك كذلك من يرغب فيها سوى مينتا. وهذا ما اتضح من رسالة جوابية أرسلتها إلى ابنها خوان دي ديوس، عندما كتب إليها هذا الأخير، خائفاً من العودة إلى بارانكاس، دون أن تكون قد انقضت عشرون سنة على موت ميداردو باتشيكو. فقد كان مقتنعاً على الدوام بقدرية قانون غواخيرا، حتى إنه عارض أدا، ابنه إدواردو للخدمة الطبية الاجتماعية في بارانكاس، بعد مرور نصف قرن على ذلك.

وخلافاً لكل المخاوف، حدث أن حلّت هناك عُقد الوضع كلها. ففي يوم الأربعاء نفسه الذي أكدت فيه لويسا سانتياغا لغابرييل إليخيو، أن مينتا لا تفكر في الانتقال إلى بارانكاس، أعلموه في العمل بأن مكتب تلغراف ريوهاتشا صار تحت تصرفه، بعد موت موظف المركز بصورة مفاجئة. وفي اليوم التالي أفرغت مينتا أدراج حجرة المؤونة، بحثاً عن مقص تقطيع اللحم وقتحت، دون أي مبرر، غطاء علبه البسكوت الإنكليزي التي تخسّ فيها ابنتها برقيات غرامها. وقد بلغ غيظها حدّاً لم تستطع معه أن تقول سوى أحد الأمثال المشهورة التي اعتادت

أرجعها في لحظات نحسها: "الله يغفر كل شيء إلا العقوق". في نهاية ذلك الأسبوع، سافرتا إلى ربوهاتشا لكي تدركا السفينة الشراعية المتوجهة إلى سانتا مارتا يوم الأحد. ولم تنتبه أي منهما إلى الليلة الرهيبة المسفوعة بعاصفة شباط: فقد كانت الأم خامدة بسبب هزيمتها، وكانت الابنة مذعورة، إنما سعيدة.

أعاد النزول إلى اليباسة، إلى الأم توازنها الذي طاح به العشور على الرسائل. وفي اليوم التالي واصلت السفر، وحدها، إلى أراكاتاكا، وتركت لويسا سانتياغا في سانتا مارتا، تحت رعاية ابنتها خوان دي ديوس، واثقة بذلك من أنها تضعها بمنجى من شياطين الحب. ولكن ما جرى هو العكس: كان غابرييل إبلخيوس يسافر في أثناء ذلك من أراكاتاكا إلى سانتا مارتا، لكي يراها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. في حين أن الحال خوانيتو الذي عانى سابقاً من تشدد أبويه نفسه في غرامياته مع ديليا كاباييرو، كان قد صمم على عدم التدخل إلى جانب أي طرف في غراميات أخته، ولكنه عندما حانت ساعة الحقيقة، وجد نفسه موزعاً بين حبه لأخته لويسا سانتياغا، واحترامه لمشيئة أبويه. فلجأ إلى صيغة تعبر عن طبيعته التي يضرب بها المثل: وافق على أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، إنما دون أن يكونا وحيدين، ودون أن يعلم هو بذلك. ودرت زوجته ديليا كاباييرو، التي تغفر ولكنها لا تنسى، لشقيقة زوجها، المصادفات المؤكدة والحيل البارعة نفسها التي كانت تتصلص بها من رقابة حمويها. بدأ غابرييل ولويسا اللقاء في بيوت الأصدقاء، ولكنهما راحا يجازفان، شيئاً فشيئاً في الذهاب إلى أماكن عامة قليلة الارتباد. ثم مجرأً أخيراً على تبادل الحديث، عبر النافذة،

عندما يكون الحال خوانيتو غير موجود. الخطيبة في الصلاة، والخطيب في الشارع. وقبين لالتزامهما بعدم اللقاء داخل البيت. كانت النافذة تبدو كأنها صُنعت عمداً للغراميات المتنوعة، عبر حاجز قضبان معدنية من الطراز الأندلسي، بحجم قامة كاملة، وبإطار عريضة نباتات متسلقة، لا تغيب عنها أحساناً رائحة الياسمين في هدأة الليل. وكانت ديليا تحتاط لكل شيء، بما في ذلك تواطؤ بعض الجيران الذين يطلقون صغيراً مشفراً لتنبه الخطيبين إلى خطر وشيك. ومع ذلك، فقد أخفقت، في إحدى الليالي، كل احتياطات الأمن، ولم يجد خوان دي ديوس بدأ من الاستسلام أمام الحقيقة. فانتهزت ديليا الفرصة لتدعو الخطيبين ليجلسا في الصلاة، مع إبقاء كل التوافذ مفتوحة، ليشاركا العالم بحبهما. ولم تنس أُمي قط زفرة أخبها: "يا للراحة".

في تلك الأيام تلقى غابرييل إبلخيوس التعيين الرسمي في مكتب تلغراف ربوهاتشا. فلجأت عندئذ أُمي، الحائفة من فراق جديد، إلى المونسنيور بيدرو إسبيخو، أسقف الأبرشية الحالي، وهي تأمل أن يزوجها دون إذن أبويها. كان وقار المونسنيور قد حقق قوة كبيرة، حتى إن كثيرين من رعيته كانوا يخلطون بين ذلك الوقار والقداسة. وكان بعضهم يذهب إلى القداس الذي يترأسه للتأكد فقط، من حقيقة أنه يرتفع عدة سنتيمترات عن مستوى الأرض، في لحظة صلاة الصعود. وعندما طلبت لويسا سانتياغا مساعدته، قدم هو دليلاً آخر على أن الذكاء هو إحدى ميزات القداسة. فقد رفض التدخل في الشؤون الداخلية، لأسرة شديدة الحرص على خصوصياتها الحسمة. ولكنه اختار المبادرة إلى الحصول سراً، على معلومات عن حال أسرة أبي من خلال الكنيسة. وقد غض

خوري سينثي النظر عن تساهل آرخميريا غارسيا، ورد على الأسقف بصيغة مترفقة: "إنها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة التقوى". عندئذ تحدث مونتسنيور إلى الخطيبين معاً، ومع كل منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وترانكيلينا أعرب لهما فيها عن تأثره وبقيته بأنه لا وجود لسلطة بشرية قادرة على هزم ذلك الحب العنيد. فوافق جدائي، المهزومان بسلطة الرب، على قلب تلك الصفحة المؤلمة، ومنحا خوان دي ديوس كل الصلاحيات لإقامة العرس في سانتا مارتا. ولكنهما لم يحضرا، وإنما أرسلا فرانثيسكا سيمودوسباً كإشيطة.

تزوجا في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٦ في كاتدرائية سانتا مارتا، ويتأخير دام أربعين دقيقة، لأن العروس نسيت تاريخ اليوم، واضطروا إلى إيقافها بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي تلك الليلة بالذات، استقلا السفينة الشراعية المرعبة، لكي يتسلم غابرييل إليخيو وظيفته في مكتب تلغراف ريوهاتشا، وأمضيا ليلتهما الأولى بعد الزفاف، منهارين من دوار الإبحار.

كانت أمي نحن كثيراً إلى البيت الذي أمضت فيه شهر العسل، حتى إنه كان بمقدورنا، نحن أبنائنا الكبار، أن نصفه حجرة حجرة، كما لو أننا قد عشنا فيه، وهو لا يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك، عندما ذهبت أول مرة إلى شبه جزيرة غواخيرا، قبل قليل من بلوغى الستين من عمري، فوجئت بأن البيت الملحق بمكتب التلغراف، لا علاقة له بذكرياتي. وريوهاتشا الحاملة التي كنت أحملها، منذ طفولتي في قلبي، بشوارعها النيتراينية التي تتحدر باتجاه بحر موحل، لم تكن سوى أضغاث أحلام مستعارة من جدي. بل أكثر من ذلك؛ فالآن وقد

صرت أعرف ريوهاتشا، لا أتوصل إلى رؤيتها مثلما هي عليه، وإنما مثلما شيدت حجراً حجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من الزفاف، تلقى خوان دي ديوس برقية من أبي يخبره فيها بأن لويسا سانتياغا حبلى. هز الحبر البيت في أراكاتاكّا من أساساته، حيث لم تكن ميتا قد شفت بعد من المرارة، ولكنها هي والكلونيل على السواء، ألقيا سلاحهما لكي يعود العريسان للعيش معهما. لم يكن ذلك بالأمر السهل، وبعد معارضة عزة نفس وعقلانية استمرت عدة شهور، وافق غابرييل إليخيو على أن تضع زوجته مولودها في بيت أبويها.

بعد قليل من ذلك، استقبله جدي في محطة القطار، بجملة بقيت في إطار من الذهب، في السجل التاريخي للأسرة: "إنني مستعد لأن أقدم إليك كل الرضى الضروري". جددت الجدة غرقة النوم التي كانت لها حتى ذلك الحين، واستقر أبواي فيها. وخلال تلك السنة، استقال أبي من مهنته الجيدة كعامل تلغراف، وكرس موهبته في التعلم الذاتي، لعلم أخذ في الانحدار: الطب التجانسي. وبذل الجهد المساعي لدى السلطات، بدافع الاعتراف بالجميل أو تأنيب الضمير، لكي يُطلق على الشارع الذي كنا نعيش فيه في أراكاتاكّا، الاسم الذي ما زال يحمله حتى اليوم: جادة مونتسنيور إسبيخو.

هكذا وهناك ولد الابن الأول من سبعة ذكور وأربع إناث، يوم الأحد، السادس من آذار ١٩٢٧، في الساعة التاسعة صباحاً، خلال هطل وابل مطر طوفاني في غير موسمه. وكان الوليد على وشك أن يموت اختناقاً بحبل السرة، لأن قابلة الأسرة، سانتوس بييرو، فقدت

السيطرة على فننها في أسوأ لحظة. ولكن من فقدته أكثر هي العمة فرانتيسكا التي ركضت حتى الباب الخارجي، وهي تطلق صرخات من يعلن عن حريق:

- ذكرا! إنه ذكرا - وتضيف على الفور، كمن يندق ناقوس الخطر:-

هاتوا الرُّوم، فهو يختنق!

وافترضت الأسرة أن الروم لم يكن للاحتفال، وإنما لإنعاش الوليد بتدليكه به. وروت لي السيدة خوانا دي فريبتيس عدة مرات، وكانت العناية الإلهية قد أدخلتها الحجره في تلك اللحظة، أن الخطر الأكبر لم يكن الحمل السري، وإنما وضعية أمي غير الصحيحة في السرير. وقد أصلحت هي وضعها في الوقت المناسب، ولكن لم يكن من السهل إنعاشي، وهكذا رشتني العمة فرانتيسكا بما العمام، بتعجل. كان عليهم أن يسموني أوليغارو، وهو اسم القديس الذي يصادف عيدهِ يوم مولدي. إلا أن أحداً لم يكن يملك سجل القديسين في متناول يده. ولهذا أطلقوا علي، بصورة عاجلة، الاسم الأول لأبي (غابرييل) يليه اسم خوسيه، نسبة إلى يوسف التجار، لأنه شفيح أراكاتاكما، ولأن الولادة جرت في شهر آذار الذي هو شهره. وافترحت السيدة خوانا فريبتيس إضافة اسم ثالث هو كونكورديا (الوفاق) احتفاً، بالمصالحة العامة التي تمت بين الأسرة والأصدقاء، بجبتي إلى الدنيا، ولكنهم نسوا إضافته في وثيقة التعميد الرسمية التي صدرت بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسيه دي لا كونكورديا.

في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، كنت أتذكر كل ما أثار في طفولتي، ولكنني لم أكن متأكدًا بما هو سابق وما هو لاحق، أو ما الذي يعنيه كل ذلك في حياتي. وكنت أكاد لا أعني أنه وسط ازدهار شركة الموز الزائف، كان زواج أبوي مقدرًا، ضمن التحولات التي ستشكل الضربة القاضية لانحدار أراكاتاكما. فمنذ أن بدأتُ التذكر، كنتُ أسمع - أولاً بهمس شديد، وبعد ذلك بصوت عالٍ وبدعر - ترديد العبارة القدرية: "يقولون إن الشركة سترحل". ومع ذلك، إما أن أحداً لم يكن يصدق الأمر، وإما أن أحداً لم يكن يجرؤ على التفكير في آثاره المدمرة.

رواية أمي كانت تتضمن أرقاماً زهيدة ومشهداً فقيراً جداً، بالنسبة للمأساة الضخمة التي تصورتها أنا؛ مما سبب لي إحساساً بالإحباط. وقد تحدثتُ فيما بعد، إلى أحياء وشهود عيان، ونبشت في مجموعات صحف ووثائق رسمية، وتبين لي أن الحقيقة لم تكن في أي جانب، فالموالون يقولون إنه لم يكن هناك، في الواقع، قتلى. ومن هم في الجانب الآخر يؤكدون، دون أي ارتعاش في الصوت، أنه سقط أكثر من مئة قتيل، وأنهم رأوهم ينزفون في الساحة، وأنهم حُمَلوا في قطار شحن

لرميهم في البحر، مثل الموز المرفوض. وهكذا ظلت حقيقتي ضائعة إلى الأبد في نقطة غير محتملة بين الطرفين. ولكنها كانت تُلح عليّ، حتى إنني أشرت في إحدى رواياتي، إلى المذبحة بالدقة والهول اللذين احتضنتها بهما، طوال سنوات في مخيلتي. وهكذا أهدت الرقم عند ثلاثة آلاف، لكي أحافظ على الأبعاد الملحمية للمأساة. وقد انتهت الحياة الواقعية إلى منحي العدالة؛ فمتذ وقت قريب، وفي أحد أيام الذكرى السنوية للمأساة، طالب أحد المتكلمين في مجلس الشيوخ، بالوقوف دقيقة صمت، إحياءً للذكرى الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلهم قوى الأمن العام.

لقد كانت مذبحة مزارع الموز، ذروة مذابح أخرى سابقة. ولكن مع ذريعة إضافية تشير إلى أن زعماء الإضراب هم من الشيوعيين. وربما كانوا كذلك. وقد تعرفتُ، مصادفة، على إدواردو ماهيتشا، أكثرهم بروزاً وشهرة، في سجن بارانكيّا النمودجي، خلال تلك الفترة التي ذهبت فيها مع أمي لبيع البيت؛ وعقدت معه صداقة جيدة، منذ أن قدمت نفسي على أنني حفيد نيكولاس ماركيز. وكان هو من كشف لي أن جدي لم يكن محايداً، وإنما وسيطاً في إضراب عام ١٩٢٨. وكان يعتبره رجلاً منصفاً. وهكذا استكمل لي الفكرة التي كانت لدي دوماً عن المجزرة، وكوّنتُ تصوراً أكثر موضوعية عن النزاع الاجتماعي. لقد كان الاختلاف الوحيد بين ذكريات الجميع، هو حول عدد القتلى. ولن يكون هذا هو اللغز الوحيد في تاريخنا.

كانت الروايات الكثيرة هي السبب في ذكرياتي الزائفة. وأكثر واحدة من تلك الذكريات إلحاحاً وثباتاً، هي عني أنا بالذات: أتذكر

نفسي واقفاً عند باب البيت، بقبعة تمساوية وبندقية لعبة، أشاهد استعراض كتيبة من الجنود الكاثاكو المتعرقين تحت أشجار اللوز. وقد جبانني أحد الضباط الذين يقودونهم في زي المراسم، لدى مروره:

- وداعاً يا نقيب غايي.

الذكرى واضحة، ولكن لا وجود لأي احتمال بأن تكون صحيحة. البدلة العسكرية، والقبعة، والبندقية وُجدت جميعها معاً، ولكن بعد حوالي سنتين من الإضراب، عندما لم تكن هناك قوات عسكرية في كاتاكا. أشياء كثيرة مثل هذه ولدت لي في البيت، السمعة بأن لدي ذكريات من داخل الرحم، وأحلاماً تستبق الأحداث.

كانت تلك هي حال الدنيا عندما بدأتُ أعني جوي الأسري. ولا يمكنني استحضاره بطريقة أخرى: كروب، حنين، ارتياب، في عزلة بيت فسيح. لقد بدا لي، طوال سنوات، أن تلك الفترة قد تحولت بالنسبة لي، إلى كابوس يتواتر كل ليلة تقريباً، لأنني كنت أستيقظ بالرعب نفسه الذي كان يسيطر عليّ في حجرة القديسين، فخلال المراهقة، حين كنت تلميذاً داخلياً في مدرسة جليدية، في جبال الأنديز، كنت أستيقظ باكياً في منتصف الليل. وقد احتجت إلى هذه الشيخوخة الحالية من تأنيب الضمير، لكي أفهم أن تعاسة الجددين، في بيت كاتاكا، تنلخص في أنهما كانا طوال الوقت متورطين في حنينهم، وبصورة أكثر حدة، كلما سعوا للتطهر منه.

هل إن الأمر أكثر بساطة: لقد كانا يقيمان في كاتاكا، ولكنهما يواصلان العيش في مقاطعة باديا، التي ما زلنا نسميها المقاطعة (بروينشيا)، دون أية إضافات أخرى، كما لو أنه لا وجود لمقاطعة سواها

في العالم. وقد بنى البيت في كاتاكا، ربما دون أن يفكروا في ذلك، كنسخة احتفالية من بيت بارانكيّا الذي تظهر من نوافذه، في الجهة الأخرى من الشارع، المقبرة الكتيبة، حيث يرقد ميداردو باتشيكو. كانا محبوبين وراضيين في كاتاكا، ولكن حياتهما كانت خاضعة لعبودية مسقط وأسيهما. لقد تخندقا في أذواقهما، ومعتقداتهما، وأحكامهما المسبقة، وأغلقا الأبواب أمام كل ما هو مختلف.

أقرب صداقاتهما كانت قبل أي شيء، هي التي تأتي من المقاطعة. واللغة البيتية السائدة هي تلك التي جاء بها أبأؤهما من إسبانيا، عبر فنزويلا، في القرن السابق، وأضافوا عليها الحبوية بكلمات وعبارات محلية كاريبية، وأفريقية من العبيد، واتفق من لغة غواخيرا التي كانت تتسرب قطرة فقطرة إلى لغتنا. وكانت الجدة تستخدم تلك العبارات لكي تضلّني، دون أن تدري أنني أفهمها بصورة أفضل، بسبب تعاملتي المباشر مع الخدم. وما زلت أتذكر الكثير من تلك العبارات: أتونكشي، أنا نغس؛ خاموسايتشي تايا، أنا جانع؛ إيسوتوس، المرأة الحبيلى؛ آريخوانو؛ الغريب. وهذه الكلمة الأخيرة اعتادت جدتي أن تستخدمها للإشارة بطريقة ساخرة، إلى الإسباني، والرجل الأبيض، وإلى العدو في نهاية المطاف. وكان الغواخيريون من جانبهم، يتكلمون دائماً نوعاً من القشتالية الحالية من العظام، مع ومضات مشعة، مثل لهجة الخادصة تشون، التي تتميز بدقة في التحديد إلى حد معيب، مما دفع جدتي إلى منعها، لأنها تجعل السامع، دون مفر، إلى تخيل مغالط، كقولها: "شفتا الغم"، مثلاً.

لم يكن اليوم يكتمل ما لم تصل الأخبار عن ولد في بارانكاس.

وكم من الأشخاص قتل الشور في حظائر فونسيكا، ومن تزوج في ساناوردي أو توفى في ريوهاتشا، وكيف طلع الصباح على الجنرال سوكاراس الذي كان بحالة خطرة في سان خوان دي تيسر. لقد كان يباع في مخزن شركة الموز، بأسعار الأوكازيون، تفاح كالبفورتيا ملفوناً، بورق حرير، وأسماك متحجرة في الثلج، وجامبون غاليسيا، وزيتون اليونان. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يؤكل في البيت، ما لم يكن متيلاً بمرق الحنين: فلفل الحسا. يجب أن يكون من ريوهاتشا، وذرة خبز الفطور يجب أن تكون من فونسيكا، والجديان يجب أن تكون قد ربيت على ملح غواخيرا، والسلاحف وجراد البحر تأتي حية من ديبويّا.

وهكذا فإن معظم الزائرين الذين يأتون يومياً، في القطار، يكونون قادمين من بروينشيا (المقاطعة) أو مبعوثين من أحد هناك. وتكون لهم على الدوام الكنى نفسها: آل رياسكو، آل نوغيرا، آل أوقايّه، مع تقاطع زيجات مع آل كوتيس أو آل إغواران. يأتون عابرين، وليس معهم سوى حقيبة معلقة بالكنف، وبالرغم من أنهم لا يعلنون مسبقاً عن زيارتهم، إلا أنه كان معروفاً أنهم سيقبلون لتناول الغداء، ولم أنس قط، العبارة شبه الطقوسية التي كانت ترددها الجدة لدى الدخول إلى المطبخ: "يجب تحضير كل شيء"، لأننا لا نعرف ما الذي يروق لمن سيأتون".

كانت روح الهروب الدائم تلك، تستند إلى واقع جغرافي. فقد كانت بروينشيا تتمتع باستقلالية عالم خاص، وبوحدة ثقافية متماسكة وقديمة، في وادٍ خصيب بين جلي سييرا نيغادا دي سانتا مارتا وسييرا دل بيرنخا، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وكان اتصالها بالعالم أسهل من اتصالها ببقية أنحاء البلاد. ذلك أن حياتها اليومية تتحدد،

بصورة أفضل، من خلال حركة التجارة السهلة مع جامايكا وكوراساو. وتكاد تختلط بغنزويلا عبر حدود بوابات مفتوحة، لا تميز فيها بين المقامات الاجتماعية أو الألوان. أما من داخل البلاد التي كانت تُطهى على نار هادئة في مرقها بالذات، فلا يكاد يصل سوى صدأ السلطة: القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيئة التي تفرّخ على ارتفاع ألفين وخمسمئة متر، وعلى بعد ثمانية أيام من الإبحار، عبر نهر مجدلينا، في سفينة بخارية تتغذى على الحطب.

تلك الطبيعة الجزيرية المعزولة، أُنحيت ثقافة راكدة ذات طبيعة خاصة، فرضها الجدان في كاتاكا. فالبيت كان قرية أكثر مما هو منزل. إذ هناك على الدوام عدة ورديات على المائدة، ولكن دور أول شخصين كان مقدساً، مذ بلغتُ الثالثة من عمري: الكولوتيل على رأس المائدة وأنا على الزاوية التي إلى يمينه. وبقيّة الأماكن يشغلها الرجال أولاً، ثم النساء بعد ذلك، ولكن منفصلين بعضهم عن بعض. وكانت هذه القواعد تُكسر خلال احتفالات العيد الوطني في العشرين من تموز. وتستمر ورديات تناول الغداء إلى أن يأكل الجميع. أما في الليل فلا يجري إعداد المائدة، وإنما توزع فناجين قهوة بالحليب في المطبخ، مع حلويات الجدة الشهية. وعندما تُغلق الأبواب، يعلق كل واحد أروحة نومه أيضاً استطاع، على مستويات متعددة، وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى أكثر فانتازيات تلك السنوات جموحاً، عشتها يوم حضرت إلى البيت جماعة رجال، بملابس وطماقات ومهاميز فرسان متشابهة، وقد رُسم على جباههم جميعاً صليب بالرماد. إنهم الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل على امتداد أراضي برويشيبا، خلال حرب الألف يوم. وقد

جازوا من قراهم لتهنئته بعيد ميلاده، متأخرين أكثر من شهر على الموعد. وقبل أن يحضروا إلى البيت كانوا قد استمعوا إلى قدامس أريعاء الرماد، وبدا لي الصليب الذي رسمه الأب آنغاريستا على جباههم شعاراً خارقاً سيلحقني غموضه طوال سنوات، حتى بعد أن تألفت مع طقوس أسبوع الألام المقدس.

لقد ولد معظمهم بعد زواج جدي، فكانت الجدة مينا تسجل أسماءهم وكتباتهم في دفتر ملاحظات، منذ أن تعلم بميلادهم. وتنتهي بتسامح سهل إلى ضسهم، من كل قلبها، إلى عداد الأسرة. ولكن لم يكن بإمكانها أو بإمكان أي شخص آخر، أن يميز بيتهم قبل تلك الزيارة الصاخبة التي كشف فيها كل واحد منهم عن طريقته في التمييز. كانوا جديين ومجتهدين، أرباب بيوت، وأناساً مسالمين، ولكنهم لا يخشون مع ذلك فقدان رؤوسهم في دوار حفلات اللهو والسكر. كسروا الأطباق، ونسفوا الورود وهم يطاردون عجلاً للعب معه بوشاح المصارعة، وقتلوا الدجاجات بالرصاص من أجل طهو السانكوتشو، وأطلقوا خنزيراً مكتنزاً بالشحم اصطدم بالنساء اللواتي يطرزن في المرر. ولكن أحداً لم يأسف لتلك الأضرار، بسبب عاصفة السعادة التي حملوها معهم.

واصلتُ اللقاء بكثر مع استيبان كاربُو، توم العمّة إلغيريا البارح في فنون الحرف البدوية، الذي كان يسافر ومعه صندوق عدّة ليصنع المعروف بإصلاح أي عطل في البيوت التي يزورها. وقد ملأ بمزاجه المرح وذآكرته الجيدة، قراغات كثيرة من تاريخ الأسرة بنا لي الحصول عليها عصبياً. وترددتُ بكثر في مرافقتني كذلك، على خالي نيكولاس غوميث، ذي الشفرة الكثيفة والنمش الأحمر. وقد حافظ على أحسن

وجه على مهنته الجيدة، كصاحب حانوت في مستوطنة سجن فونداتيون القديمة. ولتأثره بسمعتي كحالة ضائعة وعينوس منها، كان يحلمني عند الوداع، كيس سوق يتضمن مؤونة جيدة من أجل مواصلة الرحلة. وكان راقائيل آرياس يأتي دوماً بصورة عابرة، ومستعجلة، على متن بغلة ويملابس ركوب الخيل. ويكاد لا يبقى لوقت أطول من تناول القهوة، وهو واقف في المطبخ. أما الآخرون فالتقيت بهم متفرقين، في رحلات الحنين التي قمت بها في ما بعد في قرى بروينشبا، لكي أكتب رواياتي الأولى. وكنت أحن دوماً إلى صليب الرماد على جباههم، كعلامة فارقة مؤكدة لهويتهم الأسرية.

بعد سنوات من موت الجددين وهجر البيت الفخيم، ذهبتُ إلى فونداتيون في قطار الليل، وجلست في محل بيع المأكولات الوحيد المفتوح في تلك الساعة في المحطة. لم يكن قد تبقى لديهم إلا القليل لتقديمه. ولكن صاحبة المحل أعدت على عجل طبقاً جيداً على شرفي. كانت امرأة مرحة وخدمياً، وفي مركز تلك الفضائل الأليفة، لمحتُ طبع نساء قبيلتنا القوي. وقد تأكدتُ من ذلك بعد سنوات: فصاحبة المطعم الجميلة هي سارا نوريغا، خالة أخرى من خالتي المجهولات.

أبولينار، العبد الصغير القديم، ومتين البنية الذي تذكرته على الدوام كخال لي، اختفى من البيت طوال سنوات عديدة. وفي مساء أحد الأيام، عاد للظهور دون سبب، مرتدياً ملابس جداد: بدلة من الجوخ الأسود وقبعة ضخمة، سوداء اللون أيضاً، وشاطسة في رأسه حتى عينيه الصموتين. وقد تقال لدى سرورده في المطبخ إنه أت من أجل الجنازة. لكن أحداً لم يفهمه حتى اليوم التالي، عندما وصل الخبر بأن

الجد قد مات للتو، في ساننا مارتا، وكان قد نُقل إليها بصورة مستعجلة ومتكئمة.

الشخص الوحيد منهم الذي حقق شهرة عامة، هو أكبرهم جميعاً والمحافظ الوحيد بينهم، خوسيه ماريا بالديلاتكيت، الذي صار عضواً في مجلس شيوخ الجمهورية، خلال حرب الألف يوم، وحضر بصفته هذه توقيع استسلام الليبراليين في مزوعة نيريلانديا القريبة. ومقابلته، في جانب المهزومين، كان يجلس أبوه.

أظن أنني مدين بجوهر طريقي في الحياة والتفكير، لنساء الأسرة ونساء الخدمة الكثيرات اللواتي رعين طفولتي. لقد كن يتمتعن بقوة الشخصية وطيبة القلب. وكن يعاملنني بتلقائية الفردوس الأرضي. وبين الكثيرات اللواتي أذكرهن، كانت لوثيا هي الوحيدة التي فاجأتني بخبثها الصبياني، عندما أخذتني إلى زقاق الضفادع، ورفعت ثوبها حتى الحصر لتكشف لي عن شعر عانتها النحاسي المنفوش. غير أن ما شدَّ انتباهي هو لوطخة القوبا، ذات البقع الحمراء المستدة على بطنها مثل خريطة العالم، بكثبان بتفسجية ومحيطات صفراء. أما الأخريات فكن يبدون ملاتكة طهارة؛ فقد كن يبدلن ملابسهن أمامي، ويحمتني بينما هن يستحمن. ويُجلسنني على ميولتي ويجلسن على مباولهن قبائلي، لكي يفضين بأسرارهن، وأحزانهن، وأحقادهن، كما لو أنني لا أفهم، ودون أن ينتسهن إلى أنني أعرف كل شيء.، لأنني كنت أربط أطراف المحبوظ التي يتركها لي هن أنفسهن مقلنة.

كانت تشون واحدة من الخدم ومن الشارع. جاءت من بارانكاس مع الجددين، وهي لا تزال طفلة، وقد ترعرعت في المطبخ، ولكن متدمجة في

الأسرة، وكانت العاملة التي تلقاها، هي معاملة خالة ووصيفة مرافقة، منذ أن قامت بالرحلة إلى بروينشيا مع أمي العاشقة. وقد انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى حجرة خاصة بها، في أفقر أحياء القرية، برغبة حقيقية منها. وكانت تعيش هناك على بيع كرات من الذرة المطحونة لصنع الحبيز. وتفضل ذلك في الشارع، منذ الفجر، وبدا صار مألوقاً في صمت الصباح الباكر: 'كرات عجيب العجوز تشون الثلجة...'

كان لها لون هندية جميل. وقد بدت على الدوام كما لو أنها مجرد عظام. وكانت تمضي حافية القدمين، معتمرة عمامة بيضاء وملتحفة بملامات متشاة. تمشي ببطء شديد في وسط الشارع، يرافقها صوكنب كلاب ودبعة وصامتة، تدور من حولها في تقدمها. وقد انتهى الأمر بضمها إلى فولكلور القرية. وظهر في أحد الكرنفالات من تنكر في هيئة مطابقة لها، بملاماتها ونداتها. ولكنه لم يتسكن من ترويض كوكبة كلاب مثل كلابها. وقد صار نداؤها على العجيب المثلج شعبياً، إلى حد التحول إلى موضوع أغنية لعازفي الاكورديونات الجوالين. وفي صباح يوم مشؤوم، هاجم كلبان مسعوران كلابها، فدافعت تلك الكلاب عن نفسها بضراوة، وقمت معها تشون أرضاً، وكُسرت عمودها الفقري. ولم تستطع تجاوز إصابها تلك، على الرغم من الإمكانيات الطبية الكثيرة التي وفرها لها جدي.

ذكرى كاشفة أخرى من تلك الأزمنة، هي ولادة ماتيلدي أرمينتا، الغسالة التي اشغلت في البيت عندما كنت في حوالي السادسة من عمري. فقد دخلت خطأ إلى غرفتها ووجدتها عارية ومنفرجة الساقين، على سرير من الكتان، تولول من الألم وسط غضبة من القابلات، توزعن

حول جسدها دون نظام أو دراية لمساعدتها على الولادة بإطلاق الصرخات. كانت إحداهن تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يثبتن ذراعيها وساقها ويدلكن بطنها لتعجيل المخاض. وكانت سانتوس يببئرو تغغم، وسط تلك الفوضى، بصلوات تمنى بحراً هادئاً، بينما هي تنبش، بعينين مغمضتين، بين فخذي الولادة. كان الحر لا يطاق في الحجر المفعمة بالبخار المتساعد من قدور الماء المغلي التي يؤتى بها من المطبخ. بقيت منزوية في أحد الأركان، موزعاً بين الذعر والفضول، إلى أن أخرجت الغابلة كتلة لحم حية مسوكة من كاحلها، مثل عجل وليد، ومعها عصران دام يتدلى من السرة. عندئذ اكتشفت إحدى النساء وجودي في الركن، وسحبتي خارج الحجر.

- إنك في خطينة ميمنة - قالت لي ذلك، وأمرتني وهي تهز إصبعاً متوعداً: - لا تعد إلى تذكر ما رأيته.

أما المرأة التي انتزعت براعتي حقاً، بالمقابل، فلم تتعمد ذلك، ولم تعرف به قط. كانت تدعى ترينيداد، وهي ابنة أحد العاملين في البيت، وقد بدأت تتفتح في ربيع قاتل. لقد كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها لا تزال ترتدي ملابسها التي كانت لها وهي في التاسعة، فكانت ضيقة على جسدها إلى حد تبدو معه عارية أكثر مما لو كانت دون ملابس. وفي إحدى اللبالي التي كنا فيها وحيدين في الفناء، انطلقت فجأة موسيقى جوقة في البيت المجاور، فسحبتي ترينيداد للرقص بغناق قوي اقتقدت معه النفس. لست أدري ما الذي حل بها. ولكنني ما زلت حتى اليوم، أستيقظ في منتصف الليل مضطرباً من الانفعال، وأنا أعرف أنه يمكنني التعرف عليها في الظلام.

من تلمس كل بوصة في بشرتها، ومن رانحتها الحيوانية. وفي لحظة واحدة، وعيتُ جسدي، ببصيرة الغرائز التي لم أعد إلى الشعور بمثلها قط، وإلى الأبد، وأهجراً على تذكراها كحالة موت لذيذ. منذ ذلك الحين، علمتُ بصورة غائمة وغير واقعية، بأن هناك سرّاً بعيد الغور لا أعرفه أنا، ولكنه يقلقني كما لو أنني أعرفه. أما نساء الأسرة، وعلى العكس من ذلك، فكُنَّ يقتدني على الدوام إلى وجهة العفة القاحلة.

وقد علمني فقدان البراءة، في الوقت نفسه، أن من يأتي لنا بالهدايا في عيد الميلاد، ليس الطفل يسوع، ولكنني كنتُ حذراً من قول ذلك. وعندما صار عمري عشر سنوات، كشف لي أبي الأمر، كسر من أسرار الكبار، ولكنه كان يعتبر معرفتي له أمراً واقعاً. وقد أخذني إلى متاجر ليلة الميلاد، لأختار ألعاباً ودمى لأخوتي. وحدث لي الشيء نفسه مع سرِّ الولادة، قبل أن أحضر ولادة ماتيلدي أرميتتا؛ كنتُ أختنق بالضحك عندما يقولون إن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال من باريس. إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتوصل، سواء الآن أو في الماضي، إلى ربط الولادة بالجنس. وعلى أي حال، أعتقدُ أنه يمكن لعلاقتي الحميمة بالخدم، أن تكون الأصل في خيط تواصل سري، أظن أنني أمتلكه مع النساء، أتاح لي على امتداد حياتي الشعور بالراحة والأمان بينهن أكثر مما أشعر بهما بين الرجال. ويمكن أن تكون قد أتت من هناك أيضاً فناعتي بأنهن هنَّ عماد حماية العالم، بينما نشيع، نحن الرجال، فيه الفوضى بهمجيتنا التاريخية.

لقد كان لسارا إميليو ماركيز، دون أن تدري ذلك، بعض العلاقة بقجري. فمنذ صباها، كان المتوددون يلاحقونها دون أن تتنازل بالنظر

إليهم. ثم حسمت أمرها مع أول شخص بدا لها مناسباً، وإلى الأبد. كان هناك شيء مشترك بين الرجل المختار وأبي؛ فهو غريب لا يعرف أحد من أين جاء ولا كيف جاء، بسجل حياة نظيف، ولكن بلا موارد معروفة. كان اسمه خوسيه دل كارمن أوربيي بيرخيل، ولكنه يقصر توقيعه أحياناً على "خ. دل ك." وقد سرَّ بعض الوقت، قبل أن نعرف من هو في الحقيقة، ومن أين أتى، إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطابات التي يُكلف بكتابتها للموظفين الحكوميين، ومن خلال أشعار الحب التي ينشرها في مجلته الثقافية الخاصة، التي كان صدورها يعتمد على مشيئة الرب، منذ أن ظهر في البيت، أحسست بتقدير كبير لشهرته ككاتب، وهو أول كاتب تعرّفت عليه في حياتي. وقد رغبت على الفور في أن أكون مثله. ولم أشعر بالرضى إلا بعد أن تعلّمت الحالة ميمي تسريح شعري، على طريقتها.

كنت أول شخص في الأسرة يعرف بأمر غرامياته السرية، عندما دخل في إحدى الليالي إلى البيت المقابل، حيث كنتُ ألعب مع بعض الأصدقاء. فاستدعاني جانباً، وهو في حالة من التوتر الواضح، وأعطاني رسالة موجهة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنها جالسة عند باب بيتنا، تتبادل الحديث مع صديقة زائرة. اجتزت الشارع، واختبأت وراء إحدى أشجار اللوز، وقذفت الرسالة بدقة سقطت معها في حضنها. رفعت يديها مذعورة، ولكن الصرخة بقيت مكتومة في حنجرتها، عندما تعرّفت على الخط المكتوب على المغلف. وقد صارت سارا إميليا و"خ. دل ك." صديقي، منذ ذلك اليوم.

كانت إلفيرا كارميو، الشقيقة التوأم للخال إستيبان، تلوي وتعصر

عود قصب سكر بيديها، وتستخرج عصارته بقوة معصرة زيت. وكانت مشهورة بصراحتها الفظة، أكثر من شهرة رقتها في تسلية الأطفال، وبخاصة أخي لويس إنريكي، الذي يصغرني بسنة. فكانت المتواطئة معه وسيدته في الوقت نفسه، وقد عمّدها باسم الحالة "ها" الذي لا يمكن سير أغواره. كانت متخصصة على الدوام، بالمشكلات المستحيلة. وكانت هي وإستيبيان، أول من جاء إلى البيت في كاتاكا. ولكن بينما وجد هو طريقه في كل أنواع المهن والصفقات المشمرة، ظلت هي الحالة التي لا غنى عنها في الأسرة، دون أن تدرك قط أنها كذلك. كانت تختفي عندما لا تكون ثمة حاجة إليها. أما عند الحاجة إليها، فلا يعرف أحد أبداً كيف، ولا من أين تخرج. في لحظات نحسها، تتكلم وحدها، بينما هي تحرك القدر. وتكشف بصوت عال، أين هي الأشياء التي اعتبرت ضائعة. بقيت في البيت، بعد أن انتهت من دفن الكبار، بينما الأجمة تلتهم المكان شبراً فمشراً، والحيوانات تطوف في حجرات النوم، مشوشة منذ منتصف الليل بسعال مما وراء القبر في الحجرة المجاورة.

فرانثيسكا سيمودوسيا - العمة ماما -، جنرالة القبيلة التي ماتت عذراء. وهي قبي التاسعة والسبعين، كانت مختلفة عن الجميع بعاداتها وبلغتها. فسقاقتها لم تكن ثقافة بروينثيا، وإنما ثقافة الفردوس الإقطاعي في سهول مقاطعة بوليفار، حيث كان أبوها خوسيه ماري ميخيا بيدال، قد هاجر منذ شبابه المبكر أتياً من ريوها تشا بفنونته في الصياغة. تركت شعرها السميك الداكن، الذي قاوم الشيب بعد تقدمها في الشيخوخة، ينمو حتى عرقوبها. وكانت تغسله مرة كل أسبوع بماء خلاصات الأعشاب، ثم تجلس لتسرحه عند باب حجرتها، في طقس

مقدس يستمر عدة ساعات، مستهلكة دون توقف، لفائف تبغ خشن، تدخنها معكوسة، بوضع الطرف المشتعل داخل فمها، مثلما كان يفعل رجال جيوش التحرير، كيلا يكتشف العدو وجودهم في ظلام الليل. كما أن طريقتهما في اللبس كانت مختلفة أيضاً، فهي ترتدي تنورات، وصدارات دون أكمام من الكتان الخالص، وتتعل أخفاقاً من المخمل. وعلى خلاف تعفف الجدة الاصطفائي في الكلام، كان لسان العمة ماما هو الأكثر طلاقة في رطانة اللهجة الشعبية. ولم تكن تخفي ذلك أمام أي كان أو في أية ظروف، فهي تعلن الحقائق لكل واحد في وجهه. بمن في ذلك إحدى الراهبات، وهي معلمة أمي في مدرسة ساننا مارتا الداخلية. فقد أوقفتها عند حدها بوقاحة سوقية: "أنت بمن يخلطون بين طيزهم ومواسم الصيام". ومع ذلك، كانت تتدبر الأمور على الدوام، بحيث لا تبدو فظة ولا مهينة.

كانت خلال نصف حياتها، أمينة مفاتيح المقبرة. تقيّد وتصدر شهادات الوفاة، وتصنع في البيت خبز القربان من أجل القديس. وكانت الشخص الوحيد، من أي جنس، في الأسرة، التي لم يخترق قلبها، كما يبدو، أسى غرام مرفوض. وقد وعينا ذلك في إحدى الليالي، عندما كان الطبيب يعد العدة ليفحصها بالتسمع إلى نبضها، فسمعته بمرر لم أفهمه آنذاك: "أريد أن أتبهك يا دكتور إلى أنني لم أعرف رجلاً قط".

وقد بقيت أسمعها، منذ ذلك الحين، تقول ذلك بكثرة، ولكنني لم ألاحظ قط أنها تشعر بالفخر أو الندم، وإنما تقوله كأمر واقع لم يخلف أي أثر في حياتها. وكانت بالمقابل، خطّابة وساعية زواج داهية، لا يد أنها عانت من لعبتها المزدوجة بإعداد منخدع والدي، دون أن تتخلى عن وفائها للجدة مينا.

لدي انطباع بأنها كانت تفاهم مع الأطفال، أكثر من تفاهمها مع الكبار. وكانت هي من تولت أمر سارا إيميليا، إلى أن انتقلت هذه إلى غرفة كتيبات قصص كايخا المصورة. عندئذ احتضنتني أنا ومرغريتا بدلاً منها، مع أن الجدة واصلت الاهتمام بأمر نظافتي الشخصية، وتولى الجد أمر تكويني كرجل.

أكثر ذكرياتي إثارة للقلق، في ذلك الزمن، هي ذكرى العمة بيترا، أخت الجد الكبرى، التي جاءت من ريوهايتا لتعيش مع الجددين عندما فقدت بصرها. كانت تقيم في الحجرة الملاصقة لغرفة المكتب، حيث أقبمت ورشة الصياغة فيما بعد، وقد طوّرت مهارة سحرية لكي تتحرك في ظلماتها دون مساعدة من أحد. مازلت أتذكرها كما لو أن ذلك حدث بالأمس، تمشي دون عكاز وكأنها تمشي بعينها، بطيئة ولكن دون تردد، وتقود نفسها عن طريق مختلف الروائح وحسب، فهي تعرف حجرتها من رائحة حمض الهيدروكلوريك في ورشة الصياغة المجاورة، والمر من عطر ياسمين الحديقة، ومخدع الجددين من رائحة كحول الخشب الذي يستخدمه كلاهما لتدليك جسديهما قبل النوم، وحجرة العمة ماما من رائحة الزيت في مصابيح المذهب، وفي نهاية المسر، هناك رائحة المطبخ اللذيذة. كانت ممشوقة القوام وقليلة الكلام، لها بشرة أزهار سوسن داوية، وشعر مشع يلمن الصدف تتركه منسدلاً حتى خصرها، وتشلّي هي نفسها العناية به. حدثتها الخضراوان والصفائتان كعيني مراهقة، يتبدل ضوءهما مع تبدل حالتها المعنوية. ولكن خروجها كان عابراً وعرضياً على أي حال، ذلك أنها كانت تبقى طوال اليوم، في حجرتها ببابها الموارب، ووحيدة على الدوام تقريباً. كانت تغني لنفسها

همساً في بعض الأحيان. ويمكن الخلط عندئذ بين صوتها وصوت الجدة مينا، ولكن أغنياتها كانت مختلفة وأشد حزناً. وقد سمعتها تقول لأحدهم إنها أغنيات حب من ريوهايتا، ولكنني عندما كبرت فقط، عرفت أنها كانت ترجلها، هي نفسها في الواقع هناك بالذات، بينما هي تغنيها. لم أستطع كبح نفسي في مناسبتين أو ثلاث من الانقياد لإغراء الدخول إلى حجرتها دون أن ينتبه إليّ أحد، ولكنني لم أجدها. بعد سنوات من ذلك، خلال إحدى إجازاتي، في مرحلة الدراسة الثانوية، رويت تلك الذكريات لأمي، فسارعت إلى إقناعي بخطئي. وقد كانت حجتها مطلقة الصحة، واستطعت التأكد منها، دون أي رصاد شك: فالعمة بيترا ماتت قبل أن أكمل السنة الثانية من عمري.

كنا نطلق على العمة وينفريدا اسم نانا، وكانت أكثر نساء القبيلة مرحاً ولطفاً. ولكنني لا أستطيع تذكرها، إلا وهي على فراش مرضها. كانت متزوجة من رافائيل كينتيرو أورتيجا - العم كينتي - محامي فقراء، مولود في تشيكا، على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً عن بوغوثا، وعلى الارتفاع نفسه عن سطح البحر. ولكنه تكيف على أحسن وجه مع منطقة الكاربيبي، حتى إنه كان يحتاج في حجم كاتاكا، إلى زجاجات ماء ساخن عند قدميه، لكي ينام في برودة كانون الأول، كانت الأسرة قد استعادت توازنها من محنة ميداردو باتشيكو، عندما اضطر العم كينتي إلى التحمل معاناة محتته، بعد إقدامه على قتل محامي الخصم في نزاع قضائي. كانت له هيئة رجل طبيب ومسالّم، ولكن الخصم ضايقه دون هوادة، ولم يعد أمامه من مفرّ سوى التسلح. لقد كان ضئيلاً جداً وعظماً نحيلاً، ينتعل أحذية طفل، وأصدقاؤه يسخرون منه بمودة، لأن

المسدس كان يبرز منه كما لو أنه يحمل مدفعاً تحت قميصه. وقد حذره الجذُّ جدياً بعبارة الشهيرة: "أنت لا تعرف ثقل العم الذي يخلفه قتيل". ولكن العم كينتي لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما اعترض العدو طريقه بصرخات هستيرية، في قاعة الانتظار في المحكمة، ثم انقض عليه بجسده الضخم. "لم أدرك كيف أخرجت المسدس وأطلقت النار في الهواء، بكلتا يدي، وعينين مغمضتين"، هذا ما قاله لي العم كينتي، قبل قليل من موته عن مئة سنة. وروى لي: "عندما فتحت عيني، رأيته لا يزال منتصباً على ساقيه، ضخماً وشاحباً؛ ورأيت كيف راح بهوي ببطء شديد، إلى أن خرَّ جالساً على الأرض". لم يكن العم كينتي قد أدرك، حتى تلك اللحظة، أنه قد أصابه في منتصف جبهته. سألته عما أحس به عندما رآه بهوي، وقد فاجأني صراخه:

- أحسست براحة عظيمة!

ذكراي الأخيرة عن زوجته وينفريدا، هي في ليلة أمطار عظيمة، عرّمت عليها فيها امرأة مشعوذة. لم تكن ساحرة عادية، وإنما امرأة لطيفة، حسنة المظهر وترتدي ملابس دارجة، تطرد بعرق من نبات القراص العليل من الجسد، بينما هي تغني رقبة تشبه أغنيات المهدي. وفجأة، تلوّرت نانا بتشنج اختلاجة عميقة، وأفلت من بين ملابسات سربرها عصفورٌ بحجم فرخ دجاج له ريش لامع. التقطته المرأة من الهواء بضربة بارعة من يدها، ولفته بخرقه سوداء جاهزة معها. ثم أمرت بإشعال محرقة في الفناء الخلفي، وألقت بالعصفور بين ألسنة اللهب، دون أي طقوس أخرى. ولكن نانا لم تشف من عائلها.

بعد قليل من ذلك، أعيد إشعال محرقة الفناء. وعندما وضعت

دجاجاً بيضة عجيبة تشبه كرة بونغ بونغ، لها زائدة مثل التي في أعلى قبة الثورة الفرنسية، وقد تعرفت عليها جذتي فوراً: "إنها بيضة أفعى صناجة"^(١). وألقت بها بنفسها إلى النار وهي تغغم بتراتيل رقبة.

لا أستطيع أن أتخيل جدّي في سن غير تلك التي هما عليها، في ذكرياتي عن تلك المرحلة، وهي الحقبة نفسها التي التقت لهما فيها صور في مستهل شبخوختهما. وقد جرى تناقل نُسَخها التي تزداد شحوباً عبر أربعة أجيال من ذريتهما، كطقس قبلي. وبخاصة صور المدة ترانكيلينا، أسرع النساء اللواتي عرفتهن تصديقاً وقابلية للتأثر، بسبب الذعر الذي كانت تسببه لها أسرار الحياة اليومية الغامضة. لقد كانت تحاول بعث البهجة في أعمالها، بالغناء بأعلى صوتها الهرم، أغنيات عاشقين. ولكنها تقطعها فجأة بصرخة الحرب التي تطلقها ضد القدر:

- يا قديسة مريم الطاهرة!

فقد كانت ترى أن الكراسي الهزازة تهتز وحدها، وأن شبح حمى النفاس، قد تسلل إلى حجرات الولادات، وأن رائحة شجيرات ياسمين الحديقة هي شبح غير مرئي، وأن جبلاً ملقى على الأرض كيفما اتفق، له شكل أرقام يمكن أن تريح الجائزة الكبرى في البانصيب، وأن طائرًا بلا عيون، قد ضلّ داخل غرفة الطعام ولن يستطيعوا إخراجه إلا بترتيل التعظيمة^(٢) مغناة. وتعتقد بأنها تحمل برموز سرية هوية أبطال وأماكن الأغنيات التي تصل من بروينشيا، كانت تتصور كوارث ستقع عاجلاً أو

(١) أفعى صناجة basilisco، أفعى خرافية يُعتقد بأنها تمثت بنظرتها.

(٢) التعظيمة Magnificat، نشيد توجهت به مريم العذراء إلى الرب عندما زارت نسيبتها إيزابيل، ويُغنى هذا التشديد عادة في صلاة المساء عشية عيد الميلاد، وهو وارد في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا (الآيات ٤٦ حتى ٥٥).

أجلاً. ومهندس من الذي سيأتي من ريوها تشا بقبعة بيضاء، أو من ماناوري، مصاباً بمغص لن يشفى منه إلا بمرارة تسرخمة، إذ إنها كانت مداوية سرية، فضلاً عن كونها متنبئة في المهنة.

كان لديها نظام خاص جداً لتفسير أحلامها وأحلام الآخرين التي تحكم السلوك اليومي، لكل واحد منا، وتقرر مسار حياة البيت. ومع ذلك، فقد أوشكت أن تموت دون نبوءات أو نذر، عندما أزاحت جانباً في أحد الأيام سلامات سريرها دفعة واحدة، وأطلقت رصاصاً من المسدس الذي كان الكولونيل يخبئه تحت الوسادة، ليكون في متناول يده، وهو نائم. ومن خلال مسار الطلقة التي انغرست في السقف، تبين أنها قد مرت قريباً جداً من وجه الجدة.

لقد عانيتُ، منذ صارت لي ذاكرة، من التعذيب الصباحي الذي كانت تُقرّشُ به مينا أسناني، بينما هي تستمع بالامتياز السحري بنزع أسنانها، لتغسلها وتضعها في كأس ماء في أثناء نومها. ولقناعتي بأنها أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها، متى شئت، بفنون سحر غواخيرية، طلبت منها أن تريني جوف فمها، لكي أرى كيف هو من الداخل قفا العينين، والدماغ، والأذنين، وعانيت خيبة أمل عدم رؤية أي شيء سوى سقف الخلق. ولكن أحداً لم يفسر لي أعجوبة الأسنان. وقد ألححتُ لوقت طويل على أن يفعل لي طبيب الأسنان مثل الجدة، لكي تُقرّش لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان لدينا نوع من الشيفرة السرية، نتواصل كلاتا بوساطتها مع كون غير مرئي، في النهار، يبدو لي عالمها السحري أخذاً، ولكنه في الليل يسبب لي رعباً خالصاً وبسيطاً: الخوف من الظلمة، السابق

لوجودنا، الذي طاردني طوال الحياة، في الدروب المقفرة، وحتى في أوكار الرقص في العالم بأسره. لقد كان لكل قديس في بيت الجدين حجرته، وكل حجرة لها ميتها. ولكن البيت الوحيد المعروف باسم "بيت الميت" هو المجاوز لبيتنا. وميته هو الوحيد الذي عرف بنفسه، في إحدى جلسات استحضار الأرواح، باسمه الآدمي: ألفونسو مورا. وقد كلف أحد القريبين منه نفسه مشقة التقصي عنه في سجلات التعميد والوفيات، فوجد عديدين بهذا الاسم نفسه. ولكن أباً منهم لم يكشف عما يشير إلى أنه رجلنا. لقد كان ذلك البيت خلال سنوات منزلاً للغوري، وقد ازدهرت الإشاعة القائلة إن الشيخ هو الأب أنغاريتا نفسه، يظهر لكي يُبعد الفضوليين الذين يتجسسون عليه في جولانه الليلية.

لم أتوصل إلى التعرف على ميمي، الجارية الغواخيرية التي جاءت بها الأسرة من بارانكاس، وهربت في ليلة عاصفة مع ألييرو، أخيها المراهق. ولكنني كنت أسمع على الدوام أنهما من لظخا كلام البيت بمفردات من لغة السكان المحليين. لقد كانت قشتاليتها العريضة مشار دهشة الشعراء، منذ ذلك اليوم التاريخي الذي وجدت فيه علبة الكبريت التي أضاعها الخال خوان دي ديوس، فأعادتها إليه برطانة انتصارية:

- هانذا، كبريتك.

من الصعب تصديق أن الجدة مينا، مع نساها الساهيات، كن عماد اقتصاد البيت عندما بدأت الموارد تنضب. كان الكولونيل يملك أراضي متفرقة احتلها مستوطنون من الكاتشاكو، ورفض هو طردهم منها. واضطر في لحظة ضيق، من أجل إنقاذ شرف أحد أبنائه، إلى رهن البيت في كاتاكا. وكلفه عدم فقدانه ثروة كبيرة. وعندما لم يعد هناك أي

شيء، واصلت ميناء إعماله الأسرة بقوة عملها في المخيم، وبحيوانات
السكاكر التي كانت تباع في القرية كلها، والدجاجات متعددة الألوان،
وببيض البط، وخضار الفناء الخلفي. قامت بتقليص جذري في عدد
الخدم واستيقنت أكثرهم فائدة، وانتهى الأمر بالمال نقداً إلى فقدان معناه،
في تقاليد البيت الشفوية، حتى إنهم عندما أرادوا شراء جهاز بيانو
لأمي، بعد عودتها من المدرسة، أجرت العمة "ها" الحساب الدقيق بالنقد
المنزلي: "ثمان البيانو خمسمئة بيضة".

وسط تلك الكثيبة من النساء الانجليديات، كان الجد هو الأمان
الكامل لي. فسمعه فقط يتلاشى القلق، وأشعر بأن قدمي على الأرض،
وأنتني مستقر تماماً في الحياة الواقعية، والغريب، وأنا أفكر في الأمر
الآن، هو أنتني كنت أرغب في أن أصير مثله، واقعياً، شجاعاً، وانقياً
بنفسي. ولكنني لم أستطع قط أن أقدم الإغراء الدائم في الإطلال على
عالم المجدة، إنني أتذكره بدينياً ومتورداً، مع قليل من الشيب في رأسه
اللامع، بشارب كأنه فرشاة، حسن التشذيب، ونظارة مدورة ذات إطار
ذهبي. كان متمهلاً في كلامه، متفهماً، ومصالحاً في أوقات السلم.
ولكن أصدقاؤه المحافظين يتذكرونه كعدو مرهوب في النزاعات الحربية.

لم يستخدم زياً عسكرياً قط، لأن رتبته كانت ثورية، وليست
أكاديمية. ولكنه إلى ما بعد الحرب بكثير، ظل يرتدي السترة متعددة
الجيوب، التي شاع استخدامها بين محاربي الكاريبي القديما. وهذا
صدور قانون متقاعد الحرب، ملاً الاستمارات اللازمة ليحصل على
تقاعدته، وبقي هو وزوجته وورثته القربون ينتظرون ذلك التقاعد حتى
الموت. جدتي ترانكيلينا التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياً،

وهرة ونصف مجنونة، قالت لي في آخر لحظات صحوها: "ساموت
مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستلقون راتب نيكولاسينو التقاعدي".

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها الكلمة الأسطورية
التي زرعت، في الأسرة، بذرة الأوهام الأبدية: التقاعد. لقد دخلت
الكلمة إلى البيت قبل مولدي، عندما أقرت الحكومة تقاعد قديما،
مقاتلي حرب الألف يوم، والجد شخصياً هو الذي أعد الملف، مع إفراط
في الشهادات المحلفة ووثائق الإثبات. وحملها بنفسه إلى سانتا مارتا
لتوقيع بروتوكول الاستسلام. ووفق أقل الحسابات تفاؤلاً، كان المبلغ
كافياً له ولذريته حتى الجيل الثاني. وكان الجد يقول لنا: "لا تقلقوا،
فأموال التقاعد ستكفي الجميع." والبريد الذي لم يكن مستعجلاً قط
في الأسرة، تحول منذ ذلك الحين إلى مبعوث العناية الإلهية.

أنا نفسي لم أتقن من تجنب الأمر، على الرغم من شحنة الارتياب
التي أحملها بداخلي. ومع ذلك، كانت ترانكيلينا تبدي، في بعض
المناسبات، مزاجاً لا يتناسب مع اسمها أبداً^(١)، ففي حرب الألف يوم،
سُجن جدي في ريوهايتشا، على يد ابن عم لها كان ضابطاً في جيش
المحافظين. وقد فهم الأقرباء الليبراليون، وهي نفسها، الأمر على أنه
عمل حربي لا نفع حياله لأي سلطة أسرية. ولكن عندما علمت المجدة بأن
زوجها يعامل في السجن كمجرم عادي، وأجهت ابن عمها بغضب،
وأجبرته على تسليمها إياه، سليماً معافى.

عالم الجد كان مختلفاً إلى حد كبير، فحتى في سنواته الأخيرة،
كان يبدو وافر النشاط، وهو ينتقل من مكان إلى آخر، حاملاً صندوق

(١) اسمها ترانكيلينا يعني هادئة.

عدته لإصلاح الأعطال في البيت؛ أو عندما يرفع ماء الحمام، طوال ساعات، إلى البراميل، بواسطة المضخة اليدوية في الفناء الخلفي؛ أو عندما يتسلق السلم الشاهق ليتأكد من كمية الماء في البراميل، ولكنه كان يطلب مني، بالمقابل، أن أعقد له رباط، حذائه لأنه يفقد أنفاسه عندما يحاول عمل ذلك بنفسه. وقد نجا من الموت بأعجوبة، في صباح اليوم الذي حاول فيه أن يمسك البيغهام العمياء التي صعدت حتى البراميل. كان قد تمكن من الإمساك بخناقها، عندما زلت قدمه فجأة، فانزلق عن الجسر الصغير، وهوى على الأرض، عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسر كيف استطاع النجاة، بالتسعين كيلوغراماً التي يزنها، وسنوات عمره التي تزيد على الخمسين. وكان ذلك اليوم هو يومي التاريخي الذي فحصه فيه الطبيب، شيراً شيراً، وهو عار في السرير، وسأله عن ندبة قديمة بطول نصف بوصة تقريباً، اكتشفها في أصل الفخذ. فقال الجد:

- إنه أثر رصاصة في الحرب.

حتى الآن لم أشفَ من التأثير. مثلما لم أشفَ، بعد، من اليوم الذي أطل فيه إلى الشارع، من نافذة مكتبه، ليرى مرور حصان مشهور يريدون بيعه، وفجأة أحس بامتلاء عينه ماءً. حاول حمايتها بيده فبقيت في راحته بضع قطرات من سائل شفاف. لم يفقد عينه اليمنى وحسب، وإنما لم تسمح له جدتي كذلك بشراء الحصان المسكون بالشیطان، استخدم لوقت قصير عصا قرصان فوق محجر عينه الغائمة، إلى أن استبدلها له طبيب العيون بنظارة حسنة المقاس، ووصف له عكازاً انتهى لأن يكون علامة مميزة له، مثل ساعة الجيب ذات السلسلة الذهبية، التي

كان غطاؤها يُفتح بظفرة موسيقية. وقد كان معروفاً للملأ، على الدوام، أن غدر السنوات الذي بدأ يقلقه، لم يخلف أي تأثير على نزواته، كمغبر سري وعاشق جيد.

في طقوس حمام الساعة السادسة صباحاً، الذي صار يستحمه معي على الدوام في سنواته الأخيرة، كنا نسكب الماء من الحوض على جسدنا بقرعة مفرغة، وننتهي إلى تضييق نفسنا بماء عطر "فلوريدا دي لانمان وكيمبس" الذي كان يبيعه مهربو كوراساو، ويوصلونه في صناديق إلى البيوت، مثل البراندي وقمصان الحرير الصينية. وقد سُمع، في إحدى المرات، يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأن لا أحد يشمه سوى من استخدمه. ولكنه لم يعد يصدق ذلك، عندما تعرّف أحدهم راحته على وسادة غريبة. وقصة أخرى سمعته يكررها، خلال سنوات، هي قصة الليلة التي انقطع فيها النور، فسكب الجد على رأسه زجاجة حبر معتقداً أنه ماء عطر فلوريدا.

من أجل الأعمال اليومية في البيت، كان يرتدي بنظارة من القطن الحام، مع حمالتى المطاط الدائمتين، وحذاء خفيفاً وقبعة من المخمل ذات واقية. ومن أجل قداس يوم الأحد، الذي لم يتغيب عنه سوى مرات قليلة، ولأسباب قاهرة؛ أو في أيام المناسبات المهمة والتاريخية، كان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض، مع ياقة من السيلوليد وربطة عنق سوداء. وهذه المناسبات القليلة هي السبب في شهرته بأنه منذر ومزهو. الانطباع الذي أحفظ به اليوم هو أن البيت، بكل ما فيه، كان موجوداً من أجله فقط؛ فقد كانت علاقة زواجه من النوع الذكوري النموذجي، في مجتمع أمومي، حيث الرجل هو الملك المطلق في بيته، ولكن من

تحكمه هي المرأة. ويمكن القول دون مزيد من اللف والدوران، إنه كان الذكر. هذا يعني: أنه رجل عذب الحنان في جلساته الحميمة، ولكنه يبخل من ذلك الحنان أمام الملاء، بينما تحرق هي نفسها، لتجعله سعيداً.

قام الجدان برحلة أخرى إلى بارانكيآ، في الأيام التي جرى فيها الاحتفال بالثوية الأولى لموت سيمون بوليفار، في شهر كانون الأول ١٩٣٠، من أجل حضور ميلاد أختي عايدا روسا، الرابعة في الأسرة. ولدى عودتهما إلى كاناكا، أحضرا معهما مارغوت، وكان عمرها أكثر من سنة بقليل. وبقي مع أبوي لويس إنريكي، والوليدة الجديدة. وقد تكلفتُ مشقة كبيرة للاعتياد على التغيير، لأن مارغوت جاءت إلى البيت ككائن من حياة أخرى، رخوة وبرية، وذات عالم داخلي مغلق.

عندما رأتها أبيغال - والدة لويس كارميلو كورباً - لم تفهم لماذا تحمل جداي مثل ذلك الالتزام، وقالت: "هذه الطفلة محتضرة". ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه عني، لأنني كنت قليل الأكل، ولأنني كنت أرمش، ولأن الأشياء التي كنت أروها، تبدو هائلة، فيظنونها كدنيا، دون أن يفكروا في أن معظمها كان صحيحاً بطريقة أخرى. ولم أعلم إلا بعد سنوات طويلة أن الدكتور باروثا هو الوحيد الذي دافع عني بحجة حكيمة: "أكاذيب الأطفال هي علامة موهبة كبيرة".

مرّ وقت طويل، قبل أن تستسلم مارغوت لأسلوب الحياة الأسرية. كانت تجلس في الكرسي الهزاز لتمض أصبعها، في ركن لا يخطر على بال. لم يكن هناك ما يشد انتباهها، باستثناء دقائق الساعة التي تبحث عنها كل ساعة، بعينها الكبيرتين، كسهووسة، لم يتمكنوا من جعلها تأكل، طوال عدة أيام. فهي ترفض الطعام دون دراماتيكية، أو ترمي به

أحياناً في الأركان، ولم يفهم أحد كيف تبقى حية دون أكل، إلى أن انتبهوا إلى أنها لا تحب سوى تراب الحديقة الرطب، ورفائق الكلس التي تنتزعها عن الجدران بأظفارها. وعندما اكتشفت الجدة ذلك وضعت مرارة بقر في أشهى أركان الحديقة، وخبأت لفللاً حاراً في أصص الأزهار. لقد عمدوا الأب أنغارتا في الطقوس نفسها التي صادق فيها على التعميد المتعجل الذي أجروه لي عند مولدي. وقد تلقيتُ مراسم العماد وأنا أفق على كرسي، وتحملت، بشجاعة مهذبة، ملح الطعام الذي وضعه على لساني، وإبريق الماء الذي سكبته فوق رأسي. أما مارغوت، بالمقابل، فقد تردت على الاثنين بصرخة وحش جريح، وبعضيان اجتاح جسدها بكامله. حتى إن العرابين والعرابيتين لم يتمكنوا من إبقائها عند حوض التعميد، إلا بشق الأنفس.

إنني أفكر اليوم في أنها كانت، في علاقتها معي، أعقل من الكبار، فيما بينهم. وقد كان تواطؤنا غريباً، حتى إن كل واحد منا كان يحدس، في مناسبات عديدة، أفكار الآخر. ففي أحد الأيام، كنت ألعب وإياها في الحديقة، عندما دوى صفير القطار، كما في كل يوم، في الساعة الحادية عشرة. ولكنني في ذلك اليوم أحسست، لدى سماعه، بهاجس لا تفسير له، بأن طيبب شركة الموز الذي كان قد أعطاني، قبل شهر، شراياً سمكياً سبب لي نوبة تقيؤ، أت في القطار. وكضتُ في كل أنحاء البيت، وأنا أصرخ منبهاً، ولكن أحداً لم يصدق ذلك.

باستثناء شقيقتي مارغوت التي ظلت محتبئة معي إلى أن انتهي الطبيب من تناول الغذاء، وغادر في قطار العودة. وقد هفت جدتي، عندما وجدونا محتبتين تحت سريرها: "يا قديسة مريم الطاهرة! بوجود هذين الطفلين، لا حاجة إلى التلفاف".

لم أستطع، قط، مجاوز الخوف من البقاء وحيداً، ولا سيما في الظلام. وأظن أن هناك منشأً محدداً لذلك، ففي الليل، تتجسد أشباح وتُذر الجدة، حتى الآن، وأنا في السبعين، أرى في أحلامي حدة الياسمين في المعمر، وأشباح غرف النوم الممتعة؛ ودائماً بالإحساس الذي أفسد طفولتي؛ الرعب من الليل. لقد توجست مرات كثيرة، في لسالي أرتقي التي تساوي أرق العالم بأسره، أنني أنا أيضاً أخرج لعنة ذلك البيت الخرافي، في عالم سعيد، حيث كنا نغتم في كل ليلة.

أغرب ما في الأمر، أن الجدة كانت تقيم أود البيت بحسبها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان إعالة قطار الحياة ذاك، بموارد على ذلك القدر من الشح؛ الحسابات لا تضبط. كان الكولونيل قد تعلم مهنة أبيه الذي تعلمها بدوره من أبيه. وعلى الرغم من شهرة أسماكه الذهبية الصغيرة التي براها المرء في كل مكان، إلا أنها لم تكن بالتجارة الراهنة. بل أكثر من ذلك؛ فعندما كنت طفلاً، كان براودني إحساس بأنه لا يصنعها إلا في فترات قصيرة أو عندما يهيم هدية زفاف. وكانت الجدة تقول إنه لا يشتغل إلا ليقدّم الهدايا. ومع ذلك، فإن شهرته كموظف، توطدت تماماً عندما كسب الحزب الليبرالي السلطة، وكان خازناً لعدة سنوات ومدير مالية، عدة مرات.

لا يمكنني تخيل وسط أسري أكثر ملاءمة لميلي، من ذلك البيت الجنوني، ولا سيما بفعل طبع النساء الكثيرات اللواتي تولين تنشئتي. الذكران الوحيدان كُتا جدي وأنا، وكان هو من بدأ بإدخالي في واقع الكبار الحزين، بحكايات عن معارك دامية وشروحات مدرسية عن طيران الطيور، ورمود الغروب. وشجعني في هواية الرسم. في البد، كنت

أرسم على الجدران، إلى أن أطلقت نساء البيت الصوت حتى السماء، قائلات: الجدار والسور هما ورقة الوغد. فغضب جدي، وأمر بطلاء أحد جدران مشغل الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلام ألوان، ثم اشترى لي قيسماً بعد، عليه ألوان مائية، لكي أرسم على هوي، بينما هو يصنع أسماكه الذهبية الصغيرة المشهورة. وقد سمعته في أحد الأيام يقول إن حفيده سيصير رساماً. ولم يشد ذلك اهتمامي، لأنني كنت أظن أن الرسامين هم من يدهنون الأبواب فقط^(١).

من عرفوني، وأنا في الرابعة من عمري، يقولون إنني كنت شاحياً ومستغرقاً في التأمل، وإنني لم أكن أتكلم إلا لأروي هذياناً. ولكن حكاياتي، في معظمها، كانت أحداثاً بسيطة من الحياة اليومية، أجعلها أنا أكثر جاذبية بتفاصيل متخيلة، لكي يصغي إليّ الكبار. وكانت أفضل مصادر إلهامي، هي الأحاديث التي يتبادلها الكبار أمامي، لأنهم يظنون أنني لا أفهمها، أو التي يشفرونها عمداً، كيلا أفهمها. لكن الأمر كان خلاف ذلك: فقد كنت أمتصها مثل إسفنجة، وأفككها إلى أجزاء، وأقلمها لكي أخفي الأصل؛ وعندما أرويها للأشخاص أنفسهم الذين رووها، تتملكهم الحيرة للتوافق الغريب بين ما أقوله، وما يفكرون فيه.

في بعض الأحيان، لم أكن أعرف ما أفعله بضميري؛ وأحاول مواراته بطرف عيني طرماً سريعاً. وكان ذلك يتكرر إلى حد أن شخصاً عقلياً في الأسرة، قرر أن يعرضني على طبيب عيون، فعزا هذا الأخير

(١) الالتباس هو في إطلاق التسمية نفسها على الرسام الفنان والتقاش الدهان، فكلاهما يدعى painter .

طُرفَ عيني إلى علة في اللوزتين، ووصف لي شراباً من لقت مَبْرُودَن، كان مفعوله جيداً لطمأنة الجدين. وتوصلت الجدة من جهتها إلى النتيجة القدرية، بأن حفيدها متبني. فجعل ذلك منها ضحيتي المفضلة، حتى اليوم الذي أغمي عليها فيه لأنني حملت، فعلاً، بأن عصقوراً حياً قد خرج من فم الجد. وكان الرعب من أن أكون السبب في موت الجد، هو العنصر المهدئ الوحيد لاندفاعي المبكر. وأنا أفكر الآن في أن كل ذلك لم يكن خبث طفل، كما يمكن أن يُظن، وإنما التقنيات البدائية لراوٍ في بداياته، من أجل جعل الواقع أكثر متعة وقابلية لتلفهم.

خطوتي الأولى في الحياة الواقعية، كانت اكتشافي كرة القدم، في وسط الشوارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلمي هو لويس كارميلو كوربّا الذي ولد مزوداً بغريزة خاصة بألعاب الرياضة، وبهوية خلقية في الرياضيات. كنت أكبره بخمسة شهور، ولكنه كان يسخر مني، لأنه ينمو أكثر وأسرع. بدأنا اللعب بكرة من الخرق. وتوصلت إلى أن أكون حارس مرمى جيداً، ولكننا عندما انتقلنا إلى اللعب بالكرة النظامية، عانيت من ضربة على المعدة، بتسديدة قوية منه؛ ولم أمض إلى ما هو أبعد من ذلك. وخلال المرات التي التقينا فيها ونحن كبار، تبين لي بسعادة كبيرة أننا ما زلنا نتعامل، مثلما كنا ونحن طفلان. ومع ذلك، فإن الذكرى الأكثر تأثيراً من تلك الحقب، هي المرور السريع العابر لنائب مدير تومين شركة الموز، في سيارته الفخمة المكشوفة، وإلى جانبه امرأة ذات شعر ذهبي طويل، مغلت للريح، وكلب حراسة ألماني جالس كملك في مقعد الشرف. لقد كانوا رؤيا سريعة عابرة من عالم نا. ويعيد الاحتمال، محظور علينا، نحن البشر الفاتين.

بدأت المساعدة في القداس دون إيمان كبير، ولكن بصراحة، ربما كانوا يحتسبوننها لي كعنصر جوهرى من الإيمان. ولا بد أن تلك المزايما الحميدة هي السبب في أنهم أخذوني، وأنا في السادسة من عمري، إلى الأب أنغاريشا لتلقيتي أسرار المناولة الأولى. لقد تبدلت حياتي. فقد بدؤوا يعاملونني كراشد، وعلمني القندلفت كيف أساعد القس في القداس. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أنني لم أكن أعرف، في أي لحظة عليّ قرعُ الناقوس؛ فكنت أقرعه عندما يخطر لي ذلك، بإلهام محض وبسيط. وفي المرة الثالثة، التفت الأب نحوي وأمرني، بنبرة جافة، ألا أقرع الجرس مجدداً. الجزء الجيد من الخدمة الدينية، كان يأتي عند بقائي مع خادم الكاهن الآخر والقندلفت وحيدين لترتيب حجرة المقدسات؛ فكاننا نأكل ما يقبض من خبز القربان، مع كأس من النبيذ.

عشية متاولتي الأولى، أخذ الأب اعترافاتي دون مقدمات، وهو جالس مثل بابا حقيقي على المشكأ الذي كعرش، بينما أنا جاثٍ قبالة، على وسادة من المخمل. كان وعيي للخير والشر بسيطاً جداً. ولكن الأب ساعدني بمعجم من الخطايا، لكي أقول له أنها اقترفت، وأنها لم أقرفها. أظن أنني أجبت جيداً، إلى أن سألتني إذا ما كنت قد مارست أفعالاً منكرة مع حيوانات. كانت لدي فكرة عامة غامضة عن أن بعض الكبار يقترفون مع الحمير خطيئة، لم أكن أفهم حقيقتها، ولكنني في تلك الليلة فقط، تعلمت أن فعل ذلك ممكن أيضاً مع الدجاجات. وهكذا كانت خطوتي الأولى، إلى المناولة الأولى، قفزة كبيرة أخرى على طريق فقدان البراءة. ولم أعد أجد دافعاً مشجعاً لمواصلة المساعدة في القداس. اختساري بالنار، كان يوم انتقل أبواي إلى كاتاكما، مع لويس

رأى أبي وجدي يبحثان عنه، صفأً صفأً، في المقاعد؛ ومعهما صاحب
السينما وشرطيان. كان على وشك الاستسلام، عندما اكتشفه بالليلو
في الصف الأخير من القاعة، وأشار إليه بعكازه:
- إنه هناك

سحبه أبي من شعره، وجلده في البيت بالحزام جلدًا ظل عبيرة
أسطورية في تاريخ الأسرة. الرعب والتقدير اللذان شعرت بهما تجاه
سلوك أخي الاستقلالي ذاك، ظلا حيين إلى الأبد في ذاكرتي. أما هو
فكان يبدو كأنه يتجاوز كل شيء، ليصبح أكثر بطولية، في كل مرة.
ومع ذلك، فإنني أصاب بالذهول اليوم، من أن تمرده لم يكن يتبدى في
الفترات النادرة التي يكون فيها أبي غائباً عن البيت.

التجأت، أكثر من أي وقت آخر، إلى ظل الجد. لقد كنا معاً على
الدوام، في فترات الصباح في مشغل الصياغة أو في مكتبه كموظف
مالية، حيث خصني بوظيفة سعيبة؛ رسم علامات رسم الأبقار التي
ستُذبح. وكان يأخذ الأمر بجدية، إلى حد يتخلى لي معه عن موقعه على
منضدة المكتب. وفي موعد الغداء، بوجود كل المدعوين، تجلس معاً على
رأس المائدة، هو مع إبريقه الألبنيوم الكبير المملوء بالماء الثلج، وأنا مع
ملعقة فضية أستخدمها في كل شيء. وما كان يلفت النظر، أنني إذا
أردت قطعة من الثلج، أمد يدي في الإبريق لأخذها، فتتشكل على
سطح الماء، طبقة من الدهن. وكان جدي يدافع عني: "إنه يتسمع بكل
الحقوق".

في الساعة الحادية عشرة، نذهب إلى المحطة، عند وصول القطار؛
فابته خوان دي ديبوس الذي ظل يعيش في سانتا مارتا، كان يبحث إليه

إنريكي وعابدا، أخوي الآخرين. أما مارغوت التي تكاد لا تعرف أباهما،
فقد كانت ترتعب منه. وأنا أيضاً، ولكنه كان أشد جذراً معي. في
مناسبة واحدة فقط، نزع الحزام ليجلديني، فوقفت متأهباً، وعضضت على
شفتي كيلا أبكي. فأنزل ذراعاه، وبدأ يعيد وضع الحزام حول خصره،
بينما هو يؤنني من بين أسنانه، على ما فعلته. وقد اعترف لي، في
حواراتنا الطويلة كراشدين، بأنه كان يتألم كثيراً لجلدنا؛ ولكنه ربما كان
يفعل ذلك، لخوفه من أن نخرج منحرفين. لقد كان مسلماً في لحظات
صفائه. وكان يسعه أن يروي دعابات على المائدة، بعضها جيدة. ولكنه
يكررها كثيراً حتى أن لويس إنريكي نهض يوماً وهو يقول:
- أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

ومع ذلك، فإن المجلدة التاريخية هي تلك التي نالها لويس إنريكي،
في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت أبويه، ولا في بيت جديته،
فيحشوا عنه في نصف القرية، إلى أن عثروا عليه في السينما. كان
ثيلسو دائماً، يانع المرطبات، قد قدم إليه كأس شراب مرطب في الساعة
الثامنة ليلاً. وقد اختفى، دون أن يدفع، وأخذ الكأس معه، وباعشه
صانعة المعجنات المقلية فطيرة، ورأته يتحدث بعد ذلك بقليل، مع بواب
السينما الذي سمح له بالدخول مجاناً، لأنه قال له إن أباه ينتظره في
الداخل. كان الفيلم هو دراكولا، من تمثيل كارلوس فيلارياس ولويستا
توقار، وإخراج جورج ميلفورد. ولقد حدثني لويس إنريكي، بعد سنوات،
عن رعبه في اللحظة التي أضيئت فيها أنوار الصالة، حين كان الكونت
دراكولا على وشك أن يغرس أنيابه كخصاص دماء، في رقبة الحسناء.
كان يجلس في أكثر مكان متوارٍ وجده شاعراً في الصالة. ومن هناك

رسالة في كل يوم، مع سائق القطار المناوب الذي يتقاضى، مقابل ذلك، خمسة سنتات. وكان الجد يرد عليه بخمسة سنتات أخرى، في قطار العودة. وفي المساء، عندما قبيل الشمس، يأخذني من يدي، ليقيم بمساعيه وشؤونه الشخصية. كنا نذهب إلى محل الخلاقة - وهي أطول ربع ساعة في الطفولة -؛ ولروية الألعاب النارية - كانت تخيفني - في الأعياد الوطنية؛ وإلى مواكب أسبوع الآلام - حيث تمثال المسيح الميت الذي كان يبدو لي أنه من لحم وعظم -، وكنت أستخدم آنذاك برنيطة ذات مربعات اسكتلندية، مثل واحدة للجد، اشتريتها لي مينا لكي أصير أكثر شبيهاً به. وقد توصلت إلى ذلك على أحسن وجه، حتى إن العم كيتني كان يرانا كشخص واحد، بعمرين مختلفين.

في أي ساعة من ساعات النهار، كان الجد يأخذني للشراء من متجر شركة الموز المترع بالطيبات، وهناك عرقتُ أسماك البارغو، ووضعت للمرة الأولى، يدي على الجليد؛ وهزني اكتشاف أنه بارد. كنت سعيداً بأكل ما يخطر لي. ولكنني كنتُ أملُ أدوار الشطرنج التي يلعبها جدي مع البلجيكي، والأحداث السياسية. ومع ذلك، فإنني ألاحظ الآن أننا، في تلك الجولات الطويلة، كنا نرى عاملين مختلفين. جدي يرى عالمه على مستوى أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى عيني. كان يحبني أصدقاءه على الشرفنات، وأنا أتشوق إلى ألعاب بائعي الشوارع المعروضة على الأرصفة.

وفي بداية الليل، كنا نتأخر في صحب "الأركان الأربعة" الكوني، حيث كان يتبادل الحديث مع دون أنطونيو داكوتني، الذي يستقبله واقفاً عند باب متجره المزركش، وبينما أقف أنا مذهولاً بالمستجدات الآتية من

العالم بأسره. كنتُ مفتوناً بسخرة المهرجان الشعبي الذين يُخرجون أرتاب من قسعاتهم، وأكلي النار، والمتكلمين من بطونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلم، وعازفي الأكورديونات الذين يغنون بأعلى أصواتهم، ناقلين الأحداث التي تقع في بروينشيا. وقد انتسبت اليوم إلى أن أحدهم، وكان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء، يمكن له أن يكون قرانيسكو الإنسان الأسطوري.

كلما بدا لدون أنطونيو داكوتني أن الغيلم ملاتم، كان يدعونا إلى العرض المبكر في صالته أولمبيا، مشيراً بذلك ذعر الجدة التي ترى في السينما، خلاعة لا تليق بحفيد بري. ولكن باباليلو كان يصير على أخذني معه. وفي اليوم التالي يطلب مني رواية الفيلم على المائدة، ويصحح نسياني وأخطائي، ويساعدني على إعادة بناء المقاطع الصعبة. كانت تلك ومضات فن درامي أفادتني دون أدنى شك؛ ولا سيما عندما بدأت رسم قصص مسلسلته، قبل أن أتعلم الكتابة. في البدء كانوا يحفظون بها كطرافات صيبانية. ولكن استحسان الكبار السهل كان يروقني، حتى انتهى بهم الأمر إلى الهرب عندما يشعرون بقدمي. وقد حدث لي الشيء نفسه، فيما بعد، مع الأغنيات التي كانوا يجبرونني على غنائها، في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد.

قبل الذهاب للنوم، كنا نمر لبعض الوقت على مشغل البلجيكي؛ وهو عجوزٌ مرعوب ظهر في أراكاتاكا، بعد الحرب العالمية الأولى. ولا أشكُ في كونه بلجيكياً، بسبب الذكرى التي أحفظ بها عن لكتته الطائشة وحينه كبحار. وكان الكائن الحي الآخر في بيته كلباً دغركياً ضخماً، أصمٌ ولوطياً، اسمه مثل اسم رئيس الولايات المتحدة؛ وودرو

ويلسون. لقد تعرفت على البلجيكي وأنا في الرابعة من عمري، عندما كان جدي يذهب ليلعب معه بضعة أذوار شطرنج بكما، ولانهائية. منذ الليلة الأولى، أثار دهشتي أنه لم يكن هناك في بيته شي. أستطيع أن أعرف فائدته واستخدامه. فقد كان فناناً في كل شي، يعيش وسط فوضى أعماله: مناظر بحرية بالاستيل، صور فوتوغرافية للأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم أو بمنازلهم الأولى، مستنسخات لمجوهرات أسبوية، وجوه منحوتة على قرون أبقار، أثاث من عصور وطُرُز متنوعة مكومة، بعضها فوق بعض.

شدَّ انتباهي جلده المتصقِّ بعظامه، وهو بلون شعره الأصفر الشمسي نفسه الذي تهدل خصلة منه على وجهه، وتضايقه عند التكلم. كان يدخن بعلبون ذئب بحر، لا يشعله إلا من أجل الشطرنج. وكان جدي يقول إنها حيلة لإرباك الخصم. وكانت له عين زجاجية زائفة تبدو أكثر انتباهاً إلى محدثه من العين السليمة. وكان مشلولاً من خاصرته إلى أسفل، منحنيًا إلى أمام وملتبسًا إلى اليسار. ولكنه يبحر مثل سمكة بين عوائق مشغله، متعلقاً على عكازيه الحشبيين، أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمعهُ يتكلم قط، عن مغامرات إبحاره. وكانت على ما يبدو كثيرة وجريئة. أما الولد الوحيد المعروف عنه خارج بيته، فهو السينما. لم يكن يتخلف عن أي فيلم، من أي نوع، في نهاية كل أسبوع.

لم أحبه قط. وأقل من ذلك، خلال جولات الشطرنج التي يتأخر فيها ساعات، لكي يحرك قطعة، بينما أنا أتهالك من النعاس. في إحدى الليالي رأيتُه شاحباً جداً. وداهمتني النبوة المتدرة بأنه سيموت عما قريب؛ فأحسست بالشفقة عليه. ولكنه مع مرور الزمن، صار

يستغرق وقتاً طويلاً، في التفكير في كل نقلة، إلى حد انتهيتُ معه إلى تمنّي موته، من كل قلبي.

في تلك الفترة، علّق الجد في غرفة الطعام، لوحة تمثل بطل التحرير سيمون بوليفار، وهو مسجى بعد موته. ولم أفهم لماذا هو بلا الكفن الذي كنت قد رأيتُه في طقوس السهر على موتى آخرين، وإنما ممدداً على منضدة مكتب، بالزي العسكري الذي كان يرتديه في أيام مجده. وقد أخرجني جدي من تلك الشكوك، بجملته حاسمة:

- لقد كان مختلفاً.

ثم قرأ لي، بصوت مرتعش لا يشبه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أتذكر منها إلى الأبد، الأبيات الأخيرة فقط: "أنت يا سانتا مارتا، كنت كريمة مضيفة. فأنت، في أحضانك، متحتة قطعة الأرض الصغيرة تلك على الشاطئ، لكي يموت فيها". منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، ظلت راسخة، في ذهني، فكرة أنهم عثروا على بوليفار ميتاً على الشاطئ. وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى أن ذلك الرجل هو أعظم من ولد في تاريخ العالم. وقد اختلط عليّ الأمر، لتناقض عبارته تلك مع عبارة أخرى كانت الجدة قد قالتها لي بتفخيم مائل. فسألت الجد عما إذا كان بوليفار أعظم من يسوع المسيح. فرد عليّ وهو يهز رأسه، دون قناعته الراسخة السابقة:

- لا علاقة لهذا بذلك.

لقد صرت أعرف الآن، أن الجدة هي التي فرضت على زوجها أن يأخذني معه في جولاته المسائية، لأنها كانت واثقة بأن جولاته تلك، ليست سوى ذريعة لزيارة عشيقاته الحقيقيات أو المقترضات، من

المحتمل أنه كان يستغلها كستارة، ولكن الحقيقة أنه لم يذهب معي قط، إلى أي مكان غير مقرر في جولته، مسيقاً. ومع ذلك، لدي في ذاكرتي صورة واضحة لليلة، مررت فيها مصادفة وأنا أمسك بيد أحدهم، قبالة بيت مجهول، ورأيت الجد جالساً كالسيد والمالك في الصالة. ولم أستطع قط، أن أفهم لماذا هزني الإحساس بأنه يجب عليّ عدم إخبار أحد بذلك حتى شمس هذا اليوم.

وكان الجد أيضاً هو من حقق اتصالي الأول بالحرف المكتوب، وأنا في الخامسة من عمري، في مساء يوم أخذني فيه للتعرف على حيوانات سيرك مرّ من كاتاكا، تحت خيمة كبيرة، مثل كنيسة. وكان أكثر حيوان شداً انتباهي هو مجتر مكتئب، وفي حالة مزمنة، له صلامع أم مرعية. وقال لي الجد:

- إنه جميل.

فاعترض شخص يقف قريباً منا بالقول:

- المعذرة يا كولونيل، ولكن هذا وحيد ستام^(١).

ويمكنني أن أتخيل الآن، كيف كان إحساس الجد، لأن أحدهم صحح له ما قاله، بحضور حفيده. ودون أن يحاول التفكير في الأمر، تجاوزه بسؤال وجهه:

- وما الفرق؟

فقال له الآخر:

- لا أدري، ولكن هذا وحيد الستام.

لم يكن الجد بالرجل المثقف، ولم يكن يحاول أن يكونه؛ فقد هرب من المدرسة العامة، في ربوها تاشا، كي يذهب ليطلق النار في واحدة من حروب متطقة الكاربي الأهلبة التي لا حصر لها. لم يعد إلى الدراسة، ولكنه بقي واعياً طوال الحياة لحوانه، وكان به نهم إلى المعارف المباشرة التي تعوض نقصه. وفي مساء يوم السيرك ذلك، رجع إلى مكتبه، مشبط العزيمة، ويبحث في المعجم باهتمام طفولي. وعندئذ عرف هو، وعرفت أنا إلى الأبد، الفرق بين وحيد الستام والمجمل. ثم وضع، بعد ذلك، المجلد الضخم في حضني وقال لي:

- هذا الكتاب لا يعرف كل شيء، وحسب، وإنما هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطن: أهدأ.

كان مجلداً ضخماً مصوراً، وعلى كعبه رسم تمثال تستقر على كتفيه قبة الكون. لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنني كنت قادراً على تصور مدى صحة ما قاله الكولونيل، ما دمت أرى ما يقارب ألفي صفحة كبيرة، موشومة ومزينة برسوم بدیعة. كان حجم كتاب الصلوات في الكنيسة قد أذهلني، ولكن المعجم كان أسمك منه. وبدا لي ذلك، كما لو أنني أطل على العالم بأسره، لأول مرة. فسألت:

- كم كلمة فيه؟

- كل الكلمات - قال الجد.

الحقيقة، أنني لم أكن بحاجة آنذاك إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني كنت قادراً على التعبير بالرسوم عن كل ما يؤثر فيّ. ففي الرابعة من عمري، رسمت ساحراً يقطع رأس امرأته، ويعيد إصاقه في مكانه، مثلما فعل الساحر ريشارد بن، لدى مروره في صالة سبنما أولمبيا.

(١) تطلق تسمية camello على جمال آسيا الوسطى ذات الستامين. أما جمال الصحراء العربية وحيد الستام فيسمى dromedario.

المشهد المرسوم يبدأ بقطع الرأس بمشار، يتلوه عرض انتصاري للرأس الدامي، وينتهي بالمرأة، وهي ترد على تصفيق الجمهور محيية برأسها الذي أعيد إلى مكانه. كانت القمص المصورة قد اختُرت آنذاك. ولكنني لم أتعرف عليها، إلا فيما بعد، في الملاحق الملونة لصحف يوم الأحد. وقد بدأت عندئذ باختراع حكايات مرسومة دون حوارات. ومع ذلك، عندما أهدى إليّ الجمد المعجم، أيقظ في نفسي فضولاً نحو الكلمات، إلى أن صرت أقرؤه كرواية، وفق التسلسل الأبجدي، ودون أن أهتمهم تقريباً. هكذا كان اتصالي الأول مع ما سيكون الكتاب الأساسي في قدرتي ككاتبة.

في الواقع، أنه عندما تُروى للأطفال أول قصة تشد اهتمامهم، يصعب بعد ذلك، أن يرغبوا في سماع قصة أخرى. أظن أن هذه ليست حالة الأطفال القصاصين، ولم تكن حالتي. فقد كنت أريد المزيد. فالنهم الذي كنتُ أستمع به إلى القصص، يدفعني على الدوام، إلى انتظار قصة أفضل في اليوم التالي، وبخاصة تلك التي لها علاقة بأسرار وخرائب التاريخ المقدس.

كل ما يحدث لي في الشارع، كان له وقع هائل في البيت. ترويه نساء المطبخ للغرباء الذين يأتون في القطار - ويأتي هؤلاء بدورهم ولديهم ما يروونه - ويندمج كل ذلك في سبيل التقاليد الشفوية. بعض الأحداث تعرف أولاً، من خلال عازفي الأكورديونات الذين يغنونها في المهرجانات، فبعيد المسافرون روايتها ويغنونها. ومع ذلك، فإن الحدث الأعظم تأثيراً في طفولتي، خرج لي في يوم أحد، باكراً، عندما كنا سنذهب إلى القديس، وبدأ بعبارة عابرة قالتها جدتي:

- سيتخلف نيكولاسترو المسكين عن قديس العنصرة اليوم. أسعدني ذلك، لأن قديس يوم الأحد طويل جداً بالنسبة إلى سني! ومراعاة الأب أنغاريتا الذي طالما أحبته في طفولتي، تبدو لي منومة. ولكنه كان وهماً دون طائل؛ فقد اقتادني الجمد بما يشبه الجرجرة، وأخذني إلى مشغل البلجيكي، ببذلة المخمل الخضراء التي أردتها للذهاب إلى القديس. وكانت تضغط ما بين ساقي. تعرّف شرطيو الحراسة على الجمد من بعيد، ففتحوا له الباب. مع العبارة التقليدية:

- تفضل أيها الكولونيل.

عندئذ فقط عرفت أن البلجيكي قد استنشق أبخرة سيانور الذهب - تقاسمها مع كلبه - بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة" من إخراج لويس مايلستون، عن رواية إريك ماريا ريمارك، الحدس الشعبي الذي يجد الحقيقة دائماً، حتى حيث لا يكون ذلك ممكناً، تفهم الأمر، وأعلن أن البلجيكي لم يعد يتحمل هزة الانفجار لرؤيته نفسه يتمرغ مع كتيبته الممزقة أشلاء في أحد مستنقعات النورماندي.

كانت صالة الاستقبال الضيقة في شبه ظلمة، بسبب النافذة المغلقة. ولكن نور الصباح الباكر في الفناء، كان يضيء غرفة النوم، حيث كان العمدة وشرطيان آخران ينتظرون الجمد. وهناك كانت الجثة مغطاة ببطانية، على سرير عسكري ضيق؛ والعكازان في متناول اليد، حيث تركهما صاحبهما قبل أن يستلقي ليموت. وإلى جانبهما، على مقعد خشبي صغير، الطست الذي يخرّ قيه السيانور، وورقة عليها حروف كبيرة مرسومة بريشة رسام: "لا تنهوا أحداً، لقد قتلت نفسي لأنني أحق". لم تدم الإجراءات القانونية وتفصيل الدفن التي أجراها الجمد أكثر من

عشر دقائق. ولكنها كانت بالنسبة لي عشر دقائق الأشد تأثيراً التي سأذكرها في حياتي.

أول ما هزني، منذ الدخول، هي رائحة غرفة النوم. ولم أعرف إلا بعد وقت طويل من ذلك، أنها كانت رائحة اللوز المر المنطلقة من السياتور الذي استنشقه البلجيكي ليسوت. ولكن لن يكون هذا الانطباع، ولا أي انطباع آخر سواء، أشد أثراً وديمومة من رؤية الجثة. عندما أزاح العمدة البطانية عنها ليربها للجسد. كان عارياً، متبسباً، معوجاً. يشرته الحشنة مغطاة بشعر أصفر. والعينان راكدتا الماء نظران إلينا وكأنهما حيتان. هذا الرعب من الإحساس بأنني مراقب من الموت، هزني طوال سنوات كلما كنتُ أمر إلى جوار القبور التي بلا صليان، المخصصة للمتحررين المدفونين خارج المقبرة، بترتيب من الكنيسة. ومع ذلك، فإن ما عاد إلى ذاكرتي مع شحنة قوية من الرعب، لدى رؤية الجثة، هو الملل الذي كنتُ أشعر به في الليالي التي نذهب فيها إلى بيته. وربما لهذا السبب، قلتُ لجدي عندما غادرنا البيت:

- لن يعود البلجيكي إلى لعب الشطرنج، بعد اليوم.

كانت فكرة بسيطة، ولكن جدي رواها في الأسرة كخاطرة عبقرية. ونشرتها النساء بحماس كبير. حتى إنني كنتُ أهرب في إحدى الفترات من الزائرين، خوفاً من أن يرووا لهم ذلك أمامي، أو أن يجبروني على إعادته. وقد كشف لي ذلك أيضاً أحد شروط الكبار الذي سيكون ذا فائدة كبيرة لي ككاتب: فكل واحد منهم بروي القصة مع تفاصيل جديدة، يضيفها من عنده؛ إلى حد تصبح معه الروايات المتعددة في النهاية، مختلفة عن الأصلية. لا يمكن لأحد أن يتصور الشفقة التي

أشعر بها، منذ ذلك الحين، على الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آباؤهم عباقرة، فيجعلونهم يغنون أمام ضيوفهم، ويقلدون أصوات الطيور أو يدفعونهم حتى إلى أن يكلبوا للتسلية. وقد أدركت اليوم، مع ذلك، أن تلك الجملة البسيطة كانت نجاحي الأدبي الأول.

كانت هذه هي حياتي في العام ١٩٣٢، عندما أعلن أن البيرو، تحت النظام العسكري للجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو، قد احتلت بلدة ليتشيا، التي بلا حامية، على ضفاف نهر الأمازون، في أقصى جنوبي كولومبيا. دوى الحير في أجواء البلاد. وأعلنت الحكومة التعبئة الوطنية، وحملة تبرعات عامة لجمع المجوهرات الأثرية ذات القيمة من بيت إلى بيت. حدة الوطنية المتزايدة بسبب هجوم قوات البيرو الغادر استشارت استجابة شعبية لا سابق لها. ولم يكن جامعو التبرعات يتناونون عن تحصيل تلك الضرائب الطوعية، من بيت إلى بيت، وبخاصة خواتم الزفاف، المرغوبة لقيمتها الحقيقية، وقيمتها الرمزية على السواء.

أما بالنسبة لي بالمقابل، فكانت واحدة من أسعد الفترات، لما تخللها من فوضى. فقد كُسر نظام الصرامة العقيم في المدارس، وحل محله الإبداع الشعبي في الشوارع والبيوت. تشكل فوج مدني من صفوة الشبيبة، دون تمييز في الطبقة الاجتماعية أو اللون، وأنشئت كتائب الصليب الأحمر النسائية، وألفت على عجل أناشيد تدعو إلى الحرب حتى الموت، ضد المعتدي الزنيم، ودوت في أجواء الوطن الصرخة الجماعية: "فلتعض كولومبيا، ولتسقط البيرو".

لم أعرف قط إلى ما انتهت تلك المأثرة، لأن الخواطر هدأت بعد وقت قصير، دون تفسيرات كافية. وترسخ السلام على إثر اغتيال

الجنرال سانتشيث ثيرو، على يد أحد المعارضين لحكمه الدموي، وتحولت صرخة الحرب إلى روتين للاحتفال بانتصارات كرة القدم المدرسية. ولكن أبوي اللذين ساهما بخاتي زفاقهما من أجل الحرب، لم يشقبا أبداً من سناجتهما.

ووفق ما تصل إليه ذاكرتي، فإن ميلي إلى الموسيقى، تكشف في تلك السنوات، من الاثنيار الذي أثاره في نفسي، عازفو الأكورديونات بأغنيات الجوالين. كنت أعرف بعض تلك الأغاني عن ظهر قلب، مثل تلك التي تغنيها النساء في المطبخ خفية، لأن جدتي تعتبرها أغنيات وضیعة. ومع ذلك، فإن حاجتي الملحة إلى الغناء، لكي أشعر بأنني حي، يشتها في نفسي أغنيات التانغو التي يغنيها كارلوس غارديل، وأصابت بعدواها نصف العالم. كنت أطلب أن يلبسوني مثله، مع قبعة من اللبد ولغاف من الحرير. ولم أكن بحاجة إلى من يتوسل إلي كثيراً لكي أطلق أغنية تانغو بل. صدي. حتى صباح النحس الذي أيقظني فيه العممة ماما لتخبرني بأن غارديل قد مات في تصادم طائرتين في ميدلين. قبل شهر من ذلك، كنت قد غنيت "الاتحدار إلى الهاوية" في سهرة خيرية، ترافقني على البيانو الأختان إنشيفيري، البوغوتيتان الصافيتان، اللتان كانتا معلمتي معلمين، وروح كل سهرة خيرية وحفلة ذكرى وطنية تقام في كاتاكا. وقد غنيتُ بومذاك بشفرد شديد حتى إن أمي لم تتجرأ على معارضتي، عندما قلتُ لها إنني أريد تعلم العزف على البيانو، بدل الأكورديون الذي فقته الجدة.

في تلك الليلة بالذات، أخذتني إلى الأستين إنشيفيري لكي تعلماني. وبينما هن يتكلمن، كنت أنظر إلى البيانو من طرف الصالة

الأخر بورع كلب بلا سيد، وأقدر إذا ما كانت ساقاي متصلان إلى الدوامات، وأتشكك إذا ما كان إصبعاي، الإبهام والخنصر، يصلان إلى الفواصل المتعادلة جداً، أو إذا ما كنتُ سأتمكن من فك هيروغليفيات المدرج الموسيقي. كانت زيارة أمال زاهية استمرت ساعتين. ولكن دون طائل؛ فقد قالت لنا المعلتان في النهاية، إن البيانو معطل، ولا تعرفان إلى متى سيبقى كذلك. فتأجلت الفكرة إلى أن يعود المدوّن في جولته السنوية القادمة. ولم يعد أحد إلى الحديث عن تلك الفكرة إلا بعد مرور نصف حياة، عندما ذكرتُ أمي في حديث عابر، بالألم الذي أحسست به لأنني لم أتعلم العزف على البيانو. فتنهدت هي قائلة:

- وأسوأ ما في الأمر، أنه لم يكن معطلاً.

وعندئذ، علمتُ أنها اتفقت مع المعلتين على التعلل بحجة البيانو المعطل، لكي تجهني العذاب الذي عانت منه هي نفسها، طوال خمس سنوات من التمارين البلهاء، في مدرسة التقدمة. وكان العزاء في أنه قد افشحت، في كاتاكا تلك السنوات، مدرسة مونتسوري. وكانت معلماتها يحفرن الحواس الخمس من خلال تمارين عملية، ويعلمن الغناء. ويفضل موهبة وجمال المديرية روسا إيلينا فيرغوسون، كانت الدراسة شيئاً رائعاً، أشبه بمن يلعب لعبة أنه حي. تعلمت تقدير حاسة الشم التي تتمتع بقدرة استحضار نوسالجي ساحقة. وشحذتُ حاسة التذوق إلى حد تذوق مشروبات لها طعم نافذة، وخبز قديم له طعم صندوق خشبي، وأشرطة مغلية لها طعم قدامس. من الصعب نظرياً فهم هذه المنع الذاتية، ولكن من عاشوها سيفهمونها فوراً.

لا أظن أن هناك منهجاً أفضل من أسلوب مدرسة مونتسوري،

لشحن حساسية الأطفال، تجاه جماليات العالم وإبقاظ فضولهم نحو أسرار الحياة. لقد أخذ عليها أنها تشجع حس الاستقلالية والقردية - وربما كان ذلك صحيحاً في حالتي - . ولكنني لم أتعلم قط، بالمقابل، القسمة أو استخراج الجذر التكعيبي، ولا التعامل مع أفكار مجردة. كنا صغاراً إلى حد لا أتذكر معه سوى تلميذين: أولهما هي خوانيتا ميندوتا التي توفيت بالتيفوس، وهي في السابعة من عمرها، بعد وقت قصير من افتتاح المدرسة. وقد أثرت فيّ كثيراً، حتى إنني لم أستطع نسيانها قط، وهي بإكليل وطرحه العروس في الشابوت. والآخر هو شيبيرمو بالينثيا أبدالا، صديقي منذ الفسحة الأولى، وطبيبي الذي لا يخطئ في تشخيص وهن صباحات أهام الاثنين.

لا بد أن أختي مارغوت كانت تعسة جداً في تلك المدرسة، مع أنني لا أذكر أنها قالت ذلك يوماً. كانت تجلس على كرسيها في صفها التحضيري، وتظل هناك صامتة - حتى في أوقات الاستراحة - دون أن تحوّل بصرها عن نقطة غير محددة، إلى أن يُقرع الجرس الأخير. لم أعرف في الوقت المناسب قط أنها، حين تبقى وحيدة في القاعة الحاوية، تمنغ تراباً من حديقة البيت، تحمله معها في جيب مريلتها.

لقد تكلفتُ مشقة كبيرة في تعلم القراءة، إذ لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف "م" يسمى "ميم"، ومع ذلك فإنّه، بإضافة حرف "آ" الصوتي إليه، لا يلفظ "ميما" وإنما "ما"، كان من المستحيل عليّ القراءة على هذا النحو. وأخيراً، عندما وصلت إلى مدرسة مونتيسوري، لم تعلمني المعلمة أسماء الحروف، وإنما منظوقها. وهكذا استطعت أن أقرأ أول كتاب وجدته في خزانة معفرة في مستودع البيت. كان مفككاً

وغير مكتمل، ولكنه اجتذبتني بشدة حتى إن خطيب سارا أطلق لذي مروره إنذاراً رهيباً: "يا للعنة هذا الطفل سيصير كاتباً".

ولأنه هو، الذي يعيش من الكتابة، من قال ذلك، فقد سبب لي انفعالاً عظيماً. وقد مرت عدة سنوات قبل أن أعرف أن ذلك الكتاب هو "ألف ليلة وليلة". وأكثر قصة أعجبتني فيه - إحدى أقصر القصص التي قرأتها وأسطها - ستبقى تبدو لي الأفضل طوال ما تبقى من حياتي، مع أنني غير متأكد الآن مما إذا كنت قد قرأتها هناك. ولم يستطع أحد أن يوضح لي ذلك، والقصة هي التالية: صياد يعد جارتته بأن يهدي إليها أول سمكة يصفدها، إذا ما قدمت له قطعة رصاص، من أجل شبكته. وعندما تشق المرأة السمكة لكي تغليها، تجد في داخلها ماسة بحجم حبة لوز.

لقد ارتبطت حرب البيرو، في ذاكرتي، بانحدار كاناكا، لأنه ما إن أعلن السلام حتى تاه والدي في مشاة من عدم اليقين، انتهت أخيراً بانتقال الأسرة إلى مسقط رأسه، في قرية سينشي. وكان ذلك الانتقال في الواقع، بالنسبة لي وللويس إنريكي، وقد رافقناه في رحلة الاستطلاع، مدرسة جديدة في الحياة، وثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا بحيث تبدوان وكأنهما كوكبان مختلفان. منذ اليوم التالي لوصولنا، أخذونا إلى البساتين المجاورة، وهناك تعلمنا امتطاء الحمار، وحلب الأبقار، وخصي العجول، ونصب أفخاخ للتدرج، والصيد بالشص، وفهم سبب بقاء الكلاب ملتحة بإنائها، كان لويس إنريكي يمضي دوماً، متقدماً عليّ كثيراً، في اكتشاف العالم الذي كانت الجدة مينا تحظره علينا؛ بينما كانت الجدة أريخميرا تحدثنا عنه في سينشي دون أدنى

تستر. الكثير من الأعمام والعمات، والكثير من أبناء العمومة مختلفي الأنوان، والكثير من الأقارب ذوي الكنى الغربية، يتكلمون رطانة لهجات شديدة التنوع، كانت تشير فينا أول الأمر من البليلة، أكثر مما تشير من التعرف على الجديد، إلى أن فهمنا ذلك على أنه طريقة أخرى في المحبة. والد أبي، دون غابرييل مارتينيث، وهو معلم مدرسة أسطوري، استقبلني أنا ولويس إنريكي، في فناء بيته المزروع بأضخم أشجار محمل أشهر ثمار المانجا، بطعمها وحجمها، في البلدة. كان يخصص الثمار واحدة واحدة، كل يوم منذ بدء المحصول السنوي، ويقطفها واحدة فواحدة بيده، في لحظة بيعها بثمن مقرر، هو خمسة سنتات لكل واحدة. وعندما ودعنا، بعد محادثة ودية عن ذكرياته كمعلم جيد، قطف ثمرة مانجا، من أكثر الأشجار ضخامة، وقدمها إلينا، نحن الاثنين.

كان أبي قد سرق لنا تلك الرحلة باعتبارها خطوة مهمة على طريق لم شمل الأسرة. ولكننا أدركنا منذ وصولنا، أن هدفه السري هو فتح صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. وقد جرى تسجيلي، أنا وأخي، في مدرسة المعلم لويس غابرييل ميسا، حيث شعرنا بأننا أكثر حرية وأفضل اندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا بيتاً فسيحاً جداً، عند أفضل ناصية في القرية، مؤلفاً من طابقين وشرقة بارزة فوق الساحة. يتردد طوال الليل، في غرف نومه الكئيبة، تغريد شبح كروان غير مرئي.

كان كل شيء جاهزاً من أجل قدوم أبي وأخواني السعيد، عندما وصلتنا برقية تحمل خبر موت الجد نيكولاس ماركيز. لقد أصيب باعتلال مفاجئ في حنجرته، جرى تشخيصه على أنه سرطان في آخر مراحل. ولم يكده يتسع الوقت لأكثر من أخذه إلى سانتا مارتا، ليموت

هناك. والوحيد منا الذي رآه الجد، في احتضاره، هو أخي غوستافو. وكان قد ولد قبل ستة شهور، فوضعه أدهم في سرير الجد لكي يودعه. فداعبه الجد المحتضر مداعبة وداع. وقد احتجت لسنوات طويلة، كي أعني ما تعنيه بالنسبة لي، تلك الميتة غير المتوقعة.

جرى الانتقال إلى سينثي على كل حال، ليس مع الأبناء وحدهم، وإنما كذلك مع الجدة مينا، والعمة ماما، وكانت مريضة، وكلتاها تحت الرعاية الطبية للعمة با. ولكن سعادة التجديد وفشل المشروع، حدثا في الوقت نفسه تقريباً. فدعنا جميعنا، خلال أقل من سنة، إلى البيت القديم في كاتاكا "ونحن نهز القبعة"، مثلما كانت تقول أبي، في المواقف التي لا علاج لها. ظل أبي في بارانكيا، يدرس طريقة لفتح صيدليته الرابعة.

آخر ذكرياتي عن بيت كاتاكا، في تلك الأيام المربعة، هي ذكرى محرقة الفناء التي أحرقوا فيها ملابس الجد. كانت سترته ذات الجيوب الحربية، وبدلته الكتانية البيضاء ككولونيل مدني، تشبهه كما لو أنه لا يزال حياً فيها، بينما هي محترق. وبخاصة قبعاته المخملية الكثيرة متعددة الألوان التي كانت أفضل سمة فارقة تميزه من بعيد. وقد تعرفت، بينها، على قبعتي ذات المربعات الاسكتلندية التي أحرقت بسبب السهو. وقد هزني إحساس بأن طقوس الإهابة تلك، تمنحني دور بطولة مؤكدة في موت الجد. اليوم أرى ذلك بوضوح: هناك شيء خاص بي قد مات معه. ولكنني أعتقد أيضاً، دون أي شك، أنني كنت منذ تلك اللحظة، كاتباً لا يزال في المدرسة الابتدائية، لا ينقصه إلا تعلم الكتابة. وكانت هذه الحالة المعنوية نفسها هي التي شجعتني على مواصلة

عيش الحياة، حين خرجت مع أمي من البيت الذي لم نستطع بيعه. وبما أنه يمكن لقطار العودة أن يأتي في أي وقت، فقد ذهبنا إلى المحطة دون أن نفكر حتى في أن نحسي أي شخص آخر. "سنعود مرة أخرى لوقت أطول"، قالت هي ذلك، بالعبرة الملتفة الوحيدة التي خطرت لها، لتشير إلى أنها لن تعود مطلقاً. أما أنا من جهتي، فكنت أعرف حينئذ أنني لن أتوقف أبداً طوال حياتي، عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة.

كنا الشبيين الوحيديين في المحطة، عدا الموظف ذي الأفرهول الذي يبيع التذاكر، ويقوم بالأعمال التي كانت تتطلب في أزمنتنا عشرين أو ثلاثين رجلاً متعجلين. كان الحر رهيباً. وعلى الجانب الآخر من سكة القطار، لم تكن هناك سوى بقايا المدينة المحرمة التي أقامتتها شركة الموز، ببيوتها القديمة دون القرميد الأحمر، وأشجار النخيل الداوية بين الأجام، وأنقاض المستشفى. وفي أقصى التل الترابي، بيت المنتسوري، مهجوراً بين أشجار لوز حرمة. وساحة ملح البارود الصغيرة، قبالة المحطة، دون أدنى أثر من عظمتها التاريخية.

كان كل شيء، بمجرد النظر إليه، يستثير في نفسي لهفة جامحة إلى الكتابة، كيلا أموت. لقد عانيت ذلك الشعور من قبل، ولكنني في ذلك الصباح فقط، تعرفت عليه، على أنه اللحظة السابقة للإلهام. هذه الكلمة البغيضة، إنما الواقعية إلى حد جرف كل ما تصادفه في طريقها، لكي تصل في الموعد، إلى رماها.

لا أتذكر أننا تحدثنا شيئاً، حتى في قطار العودة. وعندما صرنا في المركب، في فجر يوم الاثنين، مع النسمة الباردة في ثيابنا الهاجعة، انتهت أمي إلى أنني، أنا أيضاً لم أنم، فسألتنى:

- بم تفكر؟

- إنني أكتب - أجبته، ثم أسرعت في محاولة الظهور بمظهر أكثر لطفاً: - أعني أنني أفكر في ما سوف أكتبه، عندما أصل إلى المكتب.
- ألا تخاف أن يموت أبوك من الأسى؟
فتملصت بالتفافة طويلة.

- كانت لديه أسباب كثيرة للموت، وهذا أقلها إماتة.

لم يكن الوقت المناسب لأغامر في كتابة رواية ثانية، بعد أن غصت في وحل الأولى، وبعد أن حاولت، بحسن الحظ أو من دونه، أشكلاً أخرى من القصص المتخيل. ولكنني أنا نفسي، فرضت الأمر على نفسي في تلك الليلة، كالتزام حربي؛ إما أن أكتب هذه الرواية وإما أموت. أو مثلما قال ريلكه: "إذا كنتَ تظن أنك قادر على العيش دون كتابة، فلا تكتب".

من سيارة التاكسي التي نقلتنا حتى مرفأ المراكب، بدت لي مدينتي القديمة بارانكياً، غريبة وكثيبة، على أول أنوار ذلك اليوم القدي من شباط. دعاني قبطان السفينة "إيلينا ميرثيدس" لمرافقة أمي حتى بلدة سوكري، حيث كانت تقيم الأسرة، منذ نحو عشر سنوات. ولكنني لم أفكر في الأمر مجرد تفكير. ودعتها بقبلة، ونظرت هي إلى عيني، وابتسمت لي لأول مرة، منذ المساء السابق، وسألتنى بمكرها الدائم:

- إذا ماذا سأقول لأبيك؟

فأجبته، وقلبي في يدي:

- قولي له إنني أحبه كثيراً، وإنني بفضله سأصير كاتباً. - ثم سارعت إلى قطع الطريق على أية حبارات أخرى، دون شفقة: - كاتب ولا شيء آخر.

كنت أحب قول ذلك، في بعض المرات مازحاً، وفي مرات أخرى بجد. ولكنني لم أقله بكل تلك الفناعة، كما في ذلك اليوم. بقيت في المرقأ، أرد على تلويحات الدواع البطيئة التي تقوم بها أمي من شرفة المركب. ثم مضيت بعد ذلك مسرعاً إلى مكتب جريدة الهيرالدو، منفعلاً باللهفة التي تنهشني من الداخل. وبدأت، دون أن ألتقط أنفاسي، كتابة الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمي: "جئت أطلب منك معروفاً بأن ترافقني لبيع البيت".

كان منهجي آنذاك مختلفاً عن الذي تبنيته فيما بعد، ككاتب محترف. كنت أكتب بالسياتين فقط - مثلما ظللت أفعل حتى الآن - ولكنني لم أكن أمزق كل فقرة، إلى أن تصير وفق ذوقي - مثلما أفعل الآن -، وإنما كنت أطلق العنان لإقراغ كل المادة الحمام التي أحملها في أعماقي. أظن أن ذلك النظام فرض نفسه علي، بسبب مقاسات الورق الذي كان على شكل أشرطة عمودية مقصوصة من لفافة المطبعة، يمكن لكل شريط منها أن يكون بطول خمسة أمتار. وكانت المحصلة أصولاً طويلة وضيقة مثل أوراق بردي تخرج كشلال من الآلة الكاتبة، وتمتد على الأرض، كلما تقدم أحدنا في الكتابة. لم يكن رئيس التحرير يقدر المقالات التي يكلفنا بكتابتها، بعدد الصفحات أو الكلمات أو الحروف، وإنما بالاستنيمات الورقية. فكان يقول: "أزيد ريبورتاجاً بطول متر ونصف". لقد عاودني الحنين إلى ذلك القطع، وأنا في أوج التضوج، عندما انتهت إلى أنه يشبه، عملياً، شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية، كان بلا كايح، إلى حد فقدت معه الإحساس بالوقت. وفي الساعة العاشرة صباحاً، كنت قد كتبت أكثر من

متر، عندما فتح ألفونسو فونسيمايور الباب الرئيسي فجأة، وبقي متجمداً، والمفتاح في القفل، كما لو أنه أخطأ وفتح الحمام. إلى أن تعرف عليّ.

- وأنت، أي لعنة تفعلها هنا، في هذه الساعة؟ - قال لي متفاجئاً، فقلت له:

- إنني أكتب رواية حياتي.

- واحدة أخرى؟ - قال ألفونسو بسخريته المجاهدة، وأضاف: - يبدو

أن لك، من الحيوانات، أكثر مما لقط.

- إنها الرواية نفسها، ولكن بطريقة أخرى - قلت ذلك، كيلا أقدم

له تفسيرات غير مجدية.

لم تكن نتخاطب برفع الكلفة، كما هي العادة الكولومبية الغربية، منذ التحية الأولى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى التخاطب بتوقيع، عندما يتم التوصل إلى قدر كبير من الشقة المتبادلة - مثلما يحدث بين الأزواج.

أخرج كتباً وأوراقاً من الحقيبة المهترئة، ووضعها على المنضدة. وفي أثناء ذلك، استمع بفضوله الذي لا يرتوي إلى الانقلاب الانفعالي الذي حاولت نقله إليه، بالقصة الجامحة عن رحلتي. وأخيراً، وعلى سبيل الإيجاز، لم أستطع تفادي نكبتني في أن أخص، في جملة واحدة، ما لم أستطع تفسيره. فقلت له:

- هذا أعظم ما حدث لي، في الحياة.

فقال ألفونسو:

- لحسن الحظ، أنه لن يكون الأخير.

بدا كأنه لم يفكر، وهو يقول ذلك، لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على تقبل فكرة دون اختزالها، قبل ذلك، إلى حجمها المصنوع، ولكنني كنت أعرفه بما يكفي، لألاحظ أن انفعالي بالرحلة، ربما لم يؤثر فيه كثيراً، مثلما كنت أنتظر. ولكنه أدهشه دون ريب. وهكذا كان: فمئذ اليوم التالي، بدأ يوجه إليّ كل أنواع الأسئلة العارضة، إنَّما البارعة، حول سير الكتابة. وكانت أي إجابة بسيطة منه، كافية لدفعي إلى التفكير في أن هناك شيئاً لا بد من تصحيحه.

وبينما نحن نتكلم، كنت قد جمعت أوراقي، لكي أخلي المنضدة. إذ كان يتوجب على ألفونسو أن يكتب في ذلك الصباح، الافتتاحية الأولى لمجلة كرونيكا. ولكن الخبر الذي حمّله إليّ أسعد نهارى: فالعدد الأول، المقرر صدوره في الأسبوع التالي، سيأجل، للمرة الخامسة، بسبب عدم التقيد في موعد تسليم الورق. وقال ألفونسو: إذا حالقنا الحظ، سنصدر المجلة، خلال ثلاثة أسابيع.

فكرت في أن تلك المهلة التي وفرها لي القدر، ستكون كافية لكي أحدد بداية الكتاب؛ فقد كنت ما أزال مبتدئاً جداً لكي ألاحظ أن الروايات لا تبدأ مثلما يريد أحدنا، وإنما مثلما تريد هي. إلى حد أنني، بعد ستة شهور من ذلك، عندما كنت أظن أنني أمضي نحو النهاية السوية، اضطررت إلى إعادة كتابة معمة للصفحات العشر الأولى، كي يصدقها القارئ. وهي ما زالت تبدو لي حتى اليوم، غير نافعة. ولا بد أن التأجيل كان مواتياً لألفونسو كذلك. لأنه بدل أن يتحسر، خلع سترته وجلس إلى المنضدة، ليوصل تصحيح الطبعة الجديدة، من معجم الأكاديمية الملكية الذي وصلنا في تلك الأيام. لقد كانت تلك، هي

تسليته المفضلة، منذ أن وجد خطأ عارضاً في معجم إنكليزي. وأرسل التصحيح موثقاً إلى ناشري ذلك المعجم في لندن. وربما دون السعي إلى مكافأة أخرى أكثر من إرفاق رسالة التصحيح تلك، بواحدة من دعاياتنا: "أخيراً صارت إنكلترا مدينة للكولومبيين بحميل". وقد ردّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جداً، يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه مواصلة التعاون معهم. وقد فعل ذلك، لعدة سنوات. ولم يجد عشرات أخرى في المعجم نفسه وحسب، بل في معاجم أخرى بلغات مختلفة. وعندما شاخت العلاقة، كان قد أدمن عاداته الفريدة، في تصحيح معاجم بالإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية. فإذا كان عليه الجلوس في قاعة انتظار، أو الانتظار في الحافلات، أو في أية صفوف انتظار أخرى في الحياة، كان يشغل نفسه في المهمة المليمترية الدقيقة: تصيد الأخطاء المطبعية، في أدغال اللغات.

كان الحر لا يطاق في الساعة الثالثة عشرة. وكان دخان سجاثرنا، نحن الاثنين، قد غيَّب الضوء الشحيح الذي يدخل من النافذتين الوحيدتين. ولكن أياً منا لم يكلف نفسه مشقة تهوية الغرفة، ربما بسبب الإدمان الشاوي، بمواصلة تدخين الدخان نفسه حتى الموت. أما الحر، فكانت حالتي معه مختلفة، فقد كنت أحظى، خَلْقياً، بالقدرة على تجاهله حتى الثلاثين درجة مئوية في الظل. أما ألفونسو، بالمقابل، فراح يخلع ملبسه، قطعة بعد أخرى، مع اشتداد الحر، دون أن يقطع عمله: بدأ بربطة العنق، ثم القميص، ثم القميص الداخلي. وكان في سلوكه ذلك، فائدة أخرى هي أن شيابه تظل جافة، بينما هو يذوب في العرق، ويستطيع ارتداها من جديد، عندما تميل الشمس، مكوّبة جيداً.

وطازجة، مثلما كانت عند الفطور. ولا بد أن هذا هو السر في ظهوره المتألق دائماً، وفي أي مكان، ببذلاته الكتانية البيضاء، وربطات عنقه ذات العقدة الملوية، وشعره الهندي القاسي والفروق في منتصف رأسه بخط رياضي متقن. وهكذا كان مرة أخرى، في الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما خرج من الحمام، كما لو أنه قد استيقظ من إغفامة مريحة. وسألني عندما مرّ بجاني:

- ألا تنفدى؟

فقلت له:

- ليس هناك جوع يا معلم.

كان الرد مباشراً في قانون القبيلة: فلو قلت نعم، فإن ذلك يعني أنني في ضيق شديد، ربما منذ يومين على الحبز والماء. وفي هذه الحالة، أذهب معه دون مزيد من التعليقات. ويكون واضحاً أن عليه تدبر الأمر ليدعوني. أما الرد - ليس هناك جوع - فيمكن أن يعني أي شيء. ولكنها كانت طريقي في القول له إنني لا أجد مشكلة في تدبير الغداء. اتفقنا على اللقاء في المساء، كما هي العادة، في مكتبة موندو. بعد الظهر بقليل، جاء رجل شاب يبدو كأنه ممثل سينمائي. كان شديد الشقرة، وببشرة مدبوغة بقسوة المناخ. له عينان زرقاوان غامضتان، وصوت موسيقي دافئ. وبينما نحن نتحدث عن المجلة وشبكة الصدور، رسم على غطاء المنضدة بروقيل ثور هائج بستة خطوط سريعة متقنة، ووقع على الرسم، مع ملاحظة موجهة إلى فوينمايور. ثم ألقى قلم الرصاص على الطاولة، وودّع بصفق السباب بقسوة. كنت مستغرقاً في الكتابة، حتى إنني لم أنظر إلى الاسم الذي وقع به على

الرسم. وهكذا واصلت الكتابة، طوال ما تبقى من النهار، دون أن أكل أو أشرب. وعندما نفذ ضوء المساء، اضطرت إلى الخروج متلمساً طريقي، ومعني المخططات الأولى للرواية الجديدة، سعيداً باليقين بأنني وجدت أخيراً، طريقاً مختلفاً لشيء كنت أكتبه، دون أمل منذ أكثر من سنة.

في تلك الليلة فقط، عرفت أن زائر بعدد الظهر، هو الرسام أليخاندررو أوبريغون. وكان قد رجع حديثاً من واحدة أخرى من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا. لم يكن، منذ ذلك الحين، واحداً من أعظم رسامي كولومبيا وحسب، وإنما أحد أكثر الرجال المحبوبين من أصدقائه كذلك. وكان قد استبق عودته بالإخبار بأنه سيشارك في إطلاق مجلة كرونيكا. وجمته مع أصدقائه المقربين في حانة بلا اسم في زقاق النور، في وسط الحي السفلي. وكان ألفونسو فوينمايور قد عمد تلك الحانة بعنوان كتاب حديث لغراهام شرين: "الرجل الثالث". كانت عودات أليخاندررو أوبريغون، تاريخية على الدوام. وبلغت عودته ذروتها في تلك الليلة، في استعراض جندج مروّض يطيع، مثل كائن بشري، أوامر سيده. يقف على قائمتين، يمد جناحيه، يغني بصفير إيقاعي موزون، ويحيي المصفيقين بانحناءات توقيع مسرحية. وفي النهاية، وأمام المروّض النشوان بعاصفة التصفيق، أمسك أوبريغون الجندج من جناحيه، بأطراف أصابعه، ودسه في فمه أمام ذهول الجميع، ومضغه حياً بتلذذ حسي. لم يكن من السهل إرضاء المروّض اليانيس بأي نوع من المديح والعطافات. وقد علمتُ فيما بعد، أنه لم يكن الجندج الأول الذي يأكله أوبريغون حياً، في استعراضات عامة، ولن يكون الأخير.

لم أشعر قط، مثلما شعرت في تلك الأيام، باندعاجي في أجواء تلك المدينة، ونصف دزينة الأصدقاء الذين بدأت سمعتهم بالانتشار في الأوساط الصحفية، باسم جماعة بارانكيّا. كانوا كتاباً وقنّانين شباباً يمارسون نوعاً من الزعامة على حياة المدينة الثقافية. تقودهم يد المعلم الكتلاتي دون رامون فينيس، المسرحي والمكسبي الأسطوري، والمكرس في موسوعة إسبانيا منذ العام ١٩٢٤.

كنتُ قد تعرفت عليهم في شهر أيلول من السنة السابقة، عندما جئت من كارتاخينا - حيث كنتُ أعيش في ذلك الحين - بتوصية مستعجلة من كليمتي مانويل ثيبالا، رئيس محرير صحيفة الأونيفرسال، التي كتبت فيها أولى مقالاتي الصحفية. أمضينا ليلة في الحديث عن كل شيء، وبقينا على اتصال متحمس ودائم، تبادل الكتب والغمزات الأدبية. وانتهى بي الأمر إلى العمل معهم. كان هناك ثلاثة من الجماعة الأصلية، يميزون باستقلاليتهم وميولهم الطبيعية: خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، وألفارو سيبدا ساموديو. وكانت تجمع بيننا أشياء كثيرة مشتركة حتى كان يقال، بسوء نية، إننا أبناء الأب نفسه. ولكننا كنا معروفين، وكانوا يحبوننا قليلاً في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وميلنا الجامح، والتصميم الخلاق الذي يشق طريقه بالناكب، وحياة، يحل أمره كل واحد منا على طريقته، دون أن يوفق في ذلك دائماً.

كان ألفونسو فوينمايور كاتباً وصحفيّاً بارعاً، في الشائنة والعشرين من عمره. واطب لوقت طويل، على كتابة عمود يومي عن الوقائع الراهنة في جريدة اليسرال دو بعنوان "جو اليوم"، وبالاسم

الشكسبيري المستعار "بوك". وكلما ازداد تعرفنا على استهتاره وحسه الساخر، كان فهمنا يتضائل حول أنه قرأ الكثير من الكتب، بأربع لغات، وفي كل الموضوعات التي يمكن تخيلها. وقد كانت ترجمته الحيوية الأخيرة، حين صار في الخمسين من عمره تقريباً، هي سيارة هائلة في حالة يرثى لها، كان يقودها بكل مجازفة بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة، وكان سائق سيارات التاكسي، أصدقاءه الحميمون وأكثر قرائه حكمة، يتعرفون عليه من بعيد، فيقفون جانباً، ليفسحوا له الطريق.

أما خيرمان بارغاس كاتبيّو، فكان كاتب عمود في مسائية "إلتاسيونال". ناقد أدبي دقيق ولاذع، وصاحب نشر خدوم يمكن له أن يقنع القارئ بأن الوقائع تحدث، لأنه هو الذي يرويها فقط. كان أحد أفضل مذيعي الإذاعة، وأوسعهم ثقافة، دون شك، في أزمنة المهنة الجديدة الطبية تلك، وتمودجاً جيداً لكاتب التحقيقات الطبيعي الذي كنتُ أرغب في أن أكونه. أشقر وذو عظم قاس، وعينين زرقاوين زرقة خظرة. ولم يكن بالإمكان، فهم متى أمكن له الاطلاع لحظة بلحظة، على كل ما هو جدير بأن يُقرأ. لم يتوان لحظة واحدة عن هوسه المبكر في اكتشاف قيم أدبية خفية في أنحاء بروينثيا القصية المنسية، ليعرضها أمام الملأ. ومن حسن الحظ، أنه لم يتعلم قيادة السيارات قط، في جمعية الساهين تلك، لأننا كنا نخشى ألا يتمكن من مقاومة إغراء القراءة، وهو يسوق.

أما ألفارو سيبدا ساموديو، بالمقابل، فكان سائقاً مهوساً قبل أي شيء، آخر - سائق سيارات وأدب على السواء -؛ فهو قصاص من

الجيدين، عندما كان يمتلك إرادة الجلوس لكتابة قصصه؛ وناقد سينمائي بارع، والأوسع ثقافة دون ريب، ومنشط المناظرات الجريئة. كان يبدو غجرباً من ثينافا غراندي، ذا بشرة مدبوغة ورأس بديع تغطيه خصلات شعر سوداء مشعثة؛ وله عينا مجنون لا تخفيان سهولة الوصول إلى قلبه. نعله المفضل كان صندلاً قماشياً من أرخص الأنواع. وبعض بأسنانه على سيجار ضخم، ومظناً في أغلب الأحيان، كتب حروفه الأولى، كصحفي، في جريدة "إلتاسيونال"، وفيها نشر قصصه الأولى. وفي تلك السنة، كان في نيويورك ينهي دورة متقدمة في الصحافة بجامعة كولومبيا.

عضو مرافق آخر في الجماعة، هو، مع دون رامون، الأكثر تميزاً ومعزة. إنه خوسيه فيليكس فوينمايور، والد ألفونسو. صحفي تاريخي وقصاص من أكبر الكبار. نشر ديوان شعر بعنوان "ريات شعر المدار" سنة ١٩١٠، وروايتين: "كوسمي" سنة ١٩٢٧، و"غامرة حزينه لأربعة عشر حكيماً"، في سنة ١٩٢٨. لم يحقق أي من كتبه نجاحاً في المكتبات. ولكن النقد المتخصص اعتبر خوسيه فيليكس، على الدوام، أحد أفضل القصاصين، والمختق بسرخص بروينثيا.

لم أكن قد سمعت به قط، عندما تعرفت عليه. ونحن تصادف وجودنا وحدنا في ظهيرة أحد الأيام، في مقهى جابي، بهرني على الفور بحكمته وبساطة محادثته. كان محارباً سابقاً وناجياً من سجن مشؤوم في حرب الألف يوم، لم يكن يملك تكوين رامون فينيس. ولكنه كان أقرب إلى نفسي، لطريقته في الحياة، وثقافته الكاربية. غير أن أكثر ما كان يعجبني فيه، هي فضيلته الغريبة في نقل حكمته، كما لو أنها

مسألة خياطة وغناء. كان محدثاً لا يُهزم، ومعلماً في الحياة. وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم، حتى ذلك الحين. كنا أنا وألفارو سيبيدا نقضي ساعات، ونحن نستمع إليه. ولا سيما حول مبدئه الأساسي، بأن الفرق الرئيسي بين الحياة والأدب، هو مجرد خطأ بسيط في الشكل. فيما بعد، لست أدري أين، كتب ألفارو ومضة صائبة: "جميعنا خرجنا من خوسيه فيليكس".

تشكلت الجماعة بطريقة عفوية، بقوة المجاذبية تقريباً، وبمقتضى تألف راسخ، إنما يصعب فهمه للوهلة الأولى. لقد سُئلنا مرات كثيرة، كيف بقينا متوافقين على الدوام، رغم الاختلاف الكبير فيما بيننا. وكان علينا أن نرحل أية إجابة، لكي لا نقول الحقيقة: فنحن لم نكن متوافقين دوماً، ولكننا كنا نعرف الأسباب. كنا واعين أنه، خارج إطارنا، تسود عنا صورة المقتدرين، النرجسين، الفوضويين. ولا سيما بسبب اختلافاتنا السياسية. فكان يُنظر إلى الفونسو على أنه ليبرالي متعصب، وإلى خيرمان على أنه مفكر حر بالإكراه، وإلى ألفارو كفوضوي متعسف، وأنا على أنني شيوعي غير مؤمن وانتحاري كامن. ومع ذلك، فإنني أعتقد دون أدنى تردد، بأن حسن حفظنا الأكبر هو أنه كان يمكن لنا، في أشد المآزق حرجاً، أن نفقد صبرنا. ولكن دون أن نفقد مطلقاً حس السخرية.

خلافاتنا القليلة الجدية، كنا نناقشها فيما بيننا. وقد تصل أحياناً إلى درجات حرارة خطيرة ولكنها تُنسى مع ذلك فور نهوضنا عن المائدة، أو إذا ما حضر صديق من خارج الجماعة. الدرس الأقل عرضة للنسيان، تعلمته إلى الأبد، في بار "لوس أليندروس"، في ليلة قريبة العهد

بجيشي إلى المدينة، دخلت فيها أنا وألفارو في جدال عويص حول فوكزر. وكان الشاهدان الوحيدان على المنضدة هما خيرمان وألفونسو. وقد بقيا على الهامش، صامتين صمت الرخام الذي بلغ حدوداً لا تطاق. لا أذكر في أي لحظة، وأنا متترع بالغضب والخمر الرخيص، تمحدث ألفارو لحل النقاش باللكلمات. بدأنا كلانا بالتهوض عن المائدة للخروج إلى الشارع، عندما أوقفنا فجأة، صوت خيرمان بارعاس الهادئ يدرس سيبقي إلى الأبد:

- من ينهض أولاً هو الخاسر.

لم يكن أي منا قد بلغ آنذاك الثلاثين من العمر. أنا كنت قد أكملت الثالثة والعشرين. وكنت أصغر الجماعة سناً. وقد تبنوني منذ مجيئي إلى المدينة لأبقى فيها، في شهر كانون الأول السابق. ولكننا عندما نكون على طاولة دون وامن فينيس، نتصرف نحن الأربعة كدعاة الإيمان وطالبيه، معاً على الدوام، متبادلين الحديث في الموضوع نفسه، وساخرين من كل شيء، ومتفقين تماماً على المعارضة، حتى صار يُنظر إلينا في النهاية، كما لو أننا شخص واحد.

المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها جزءاً من الجماعة، هي ماريما ديلمار. وكانت قد بدأت اندفاعها الشعري، ولكننا لم نكن نتحدث معها إلا في المناسبات القليلة التي نخرج فيها من مدار عاداتنا السيئة. لقد كانت جلسات السمر في بيتها، مع الكتاب والفنانين المشهورين الذين يمزون بالمدينة، تاريخية. صديقة أخرى لوقت أقصر وتواتر أقل، هي الرسامة سيسيليا بوركس التي كانت تأتي من كارتاخينا، بين حين وآخر، وترافقنا في جولتنا الليلية، ولم تكن تهماها

في شيء، نظرة عدم الاحترام التي يُنظر بها إلى النساء، في مقاهي السكرى وبيوت الضياع.

كنا نحن، أفراد الجماعة، نلتقي مرتين في اليوم، في مكتبة موندو، التي تحولت في النهاية إلى مركز اجتماعات أدبية. لقد كانت ملاذاً سلام وسط ضجيج شارع سان بلاس، الشريان التجاري الصاحب والمتهب الذي يُفرغ من خلاله مركز المدينة، في الساعة السادسة مساءً. كنا أنا وألفونسو نكتب حتى بداية الليل، في مكتبتنا الملاصق لقاعة التحرير، في جريدة الهيرالدو، مثل تلميذين مجتهدين. هو يكتب افتتاحياته العقلانية الرصينة، وأنا ملاحظاتي الصحفية المشعثة. وكثيراً ما كنا نتبادل أفكاراً من آلة كاتبة إلى أخرى، ونقترض نعتاً، ونستفسر عن معلومات غادية ورائحة، إلى حد لا نعود نعرف معناه، في بعض الحالات، لمن منا هي إحدى الفقرات.

كانت حياتنا اليومية دوماً معروفة المسار مسبقاً. اللهم إلا في ليالي الجمعة التي نكون فيها تحت رحمة الإلهام، ونواصلها أحياناً حتى فطور يوم الاثنين. وإذا ما أطبق علينا الاهتمام، نبدأ نحن الأربعة، حجاً أدبياً دون كايح أو مقياس. يبدأ في حانة "الرجل الثالث" مع حرفيي الهمي وميكانيكيي ورشة سيارات، إضافة إلى موظفين عموميين ضالين، وآخرين مثلهم، ولكن بدرجة أقل. وكان أقل أولئك الزبائن غرابية، هو لص بيوت يأتي قبيل منتصف الليل يقليل بزّي العمل؛ بنطال راقص باليه، حذاء تنس، قبعة لاقط كرات، وحقيبة أدوات وعدة خفيفة. لقد فاجأه أحدهم، وهو يسرق في بيته، وتمكن من تصويره ونشر الصورة في الصحافة، لعل أحداً يتمكن من التعرف عليه. والشيء الوحيد الذي تم

التوصل إليه هو عدة رسائل من قرأه ساخطين، يستنكرون مثل هذه الألعاب القذرة، مع لصوص البيوت البائسين.

كان اللص صاحب ميسول أدبية مسؤولة، لا يضيع كلمة من المحادثات التي تدور حول الفن والأدب، وكنا نعرف أنه المؤلف الخجول لقصائد حب يلقبها على الزبائن، عندما نكون غير موجودين. وكان ينصرف بعد منتصف الليل، للسطو على بيوت المنطقة الغنية، كما لو أنه ذاهب إلى وظيفة. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، يأتينا بهدية ضئيلة القيسة، يخرجها من الغنيمة الكبرى قاتلاً: "هذا للأطفال"، دون أن يسأل عما إذا كان لدينا أطفال. وعندما يجتذب كتاب اهتمامه يهدبه إلينا. فإذا كان الكتاب جديراً بالاعتناء، نتبرع به إلى مكتبة الحي العامة التي تديرها ميريا ديلمان.

تلك الجامعات الشوارعية، أشاعت عنا سمعة عكرة، بين النساء الثرائيات اللواتي نلتقي بهن لدى خروجهن من قُداس الساعة الخامسة فجراً، فينتقلن إلى الرصيف الآخر، كجلا بصطدمن بمخمورين طلع عليهم الفجر، ولكن لم يكن هناك في الحقيقة، عريضة أكثر نزاهة وخصباً من عريدتنا. وإذا كان هناك من أدرك ذلك فوراً فهو أنا، الذي كنت أرافقهم في صراخهم، في المواخير حول أعمال جون دوس باسوس أو حول الأهداف التي بددها فريق جونيور الرياضي. حتى إن إحدى المومسات في ماخور "القط الأسود"، ضجرت من ليلة كاملة من نقاشاتنا الصاخبة المجانية، فصرخت بنا لدى مرورنا:

- لو أنكم تضاجعون مثلما تصرخون، لكننا نستحم في الذهب!
في أحبان كثيرة كنا نذهب لرؤية شروق شمس اليوم الجديد، في

ماخور بلا اسم، في الحي الصيني، حيث عاش أورلاندو ريفيرا، الملقب "كيبغوريتا"، طوال سنوات، بينما هو يرسم جدارية كانت رمزاً لمرحلة. لا أتذكر أحداً خارجاً عن المؤلف أكثر منه، بنظرته الغريبة، وحيثه التي كلحية المعزى، وطيبة قلب التيم التي يتمتع بها. مذ كان في المدرسة الابتدائية لسعه هوى أن يكون كويباً، وانتهى به الأمر لأن يكون كويباً أكثر وأفضل مما لو كانه فعلاً. كان يتكلم، ويأكل، ويرسم، ويلبس، ويحب، ويرقص، ويعيش حياته ككويب، ومات كويباً دون أن يعرف كويباً. لم يكن ينام. وعندما كنا نزره في الفجر، ينزل قاسراً عن السقالات، وهو أكثر تلمخاً بالألوان من الجدارية التي يرسمها، ويجدف ويشتم بلغة المامبيسيين^(١) بتأثير ما تعاطاه من الماريجوانا. كنا أنا والفونسو نأخذ إليه مقالات وقصصاً لكي يرسم لها رسوماً توضيحية، فنضطر إلى أن نحكيها له بصوت عال، لأنه لا يطيق صيراً على فهمها مقروءة. وكان ينجز الرسوم المطلوبة في هنيهة بتقنيات الكاريكاتير، وهي التقنيات الوحيدة التي يؤمن بها. وتأتي رسومه جيدة على الدوام تقريباً، مع أن خيرمان بارغاس كان يقول، دون حيف، إنها تكون أفضل بكثير، عندما تخرج منه سيئة.

هكذا كانت بارانكيًا، مدينة لا تشبه سواها، وبخاصة منذ كانتون الأول حتى آذار، عندما تعوض رياح الصايبات الشمالية عن الأيام الجهنمية، بهبات ليلية لزوية في أفناء البيوت، وتحمل الدجاجات في الجو. فلا يبقى حياً سوى فنادق العابرين، وحانات ملاحى السفن

(١) المامبيسيون mambises، رجال الجيش الثوري الذي أسسه بطل تحرير كوبا، خوسيه مارتى، حوَّس حرب التحرر من التبر الإسباني. وكانوا في الغالب من الفلاحين والعيبد.

كنتُ أنا الأكثر عزواً بين أفراد الرابطة. وكنت ألبأ في أحبان كثيرة إلى مقهى روما، لكي أكتب حتى الفجر في ركن منعزل. ذلك أنه كانت لوظفتي كليبهما مزجة التناقض بين كونهما مهمتين وسيئتي الأجر. وهناك كان يفاجئني الفجر، وأنا أقرأ دون رحمة، فإذا ما اشتد عليّ الجوع، أتناول فنجاناً من الشوكولاته الكثيفة مع سندويتش جامبون إسباني جيد، وأتمشى مع أول أنوار الفجر، تحت الأشجار المزهرة في جادة بوليفار. في الأسابيع الأولى كنت أكتب حتى ساعة متأخرة في قاعة تحرير الجريدة، وأنام بضع ساعات في صالة التحرير المقفلة، أو فوق لفائف ورق المطبوعة. ولكنني وجدت نفسي مضطراً، مع مرور الوقت، إلى البحث عن مكان أقل أصالة.

وكان من قدم لي الحل، كما في مرات تالية كثيرة أخرى، هم سائقو سيارات التاكسي المرحون في جادة بوليفار. إذ اقترحوا عليّ فندق عابرين على بعد كوادرا واحدة عن الكاتدرائية، حيث يمكنني النوم وحيداً، أو مع رفيقة، مقابل بيزو ونصف البيزو. كان البناء قديماً جداً ولكن مُحْتَفَظ به في حالة جيدة، على نفقة العاهرات المدمات اللواتي يتجولن في جادة بوليفار، منذ السادسة مساءً، مترصدات غرامبات ضالة. كان البواب يدعى لوئيديس. له عين زجاجية زائفة المحور، وتلعلعهم حياءً. وما زلت أتذكره بامتنان كبير، منذ الليلة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك. ألقى البيزو وخمسين سنتافو في درج منضدة الكونتوار، الممتلئة بالأوراق النقدية المعثرة والمجعدة. لليلة الأولى. وقدم لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش أبداً في مكان أكثر هدوياً. إذ لم يكن يُسمع أكثر من وقع خطوات خامدة، أو دمدمة غير مفهومة. وبين حين وآخر، صرير نوابض

البخارية، حول المرفأ. بعض العصفورات الليليات ينتظرن، ليلالي بطولها، زبائن غير مؤكدين، يأتون في السفن النهرية. فرقة موسيقى نحاسية تعزف لمن فالس خامد في طريق أشجار المحور، ولكن لا أحد يستمع إليها، بسبب صراخ السائقين الذين يتجادلون حول كرة القدم بين سيارات التاكسي المتوقفة عند رصيف جادة بوليفار. المكان المحتمل الوحيد هو مقهى روما. وهو مطعم شعبي يؤمه لاجئون إسبان ولا يغلق أبداً لسبب بسيط، هو عدم وجود أبواب له. كما أنه بلا سقف، في مدينة يهطل فيها وابل من الأمطار الطقوسية. ولكن لم يُسمع قط أن هناك من توقف عن تناول عجة بطاطا، أو تخلى عن عقد صفقة بسبب المطر. لقد كان المقهى مكاناً راكداً في العراء العاصف، فيه موائد مستديرة مغطاة بالأبيض، وكراسي حديدية تحت أشجار أكاسيا وارقة ومزهرة. في الساعة الحادية عشرة، عندما تغلق الصحف الصباحية - الهيرالدو ولابرنسا - أبوابها، يجتمع المحررون الليليون لتناول الطعام. ويكون اللاجئون الإسبان موجودين منذ الساعة السابعة، بعد سماعهم، في البيت، نشرة الأخبار المحكية من البروفيسور خوان خوسيه بيرث دومينيش الذي ما زال يقدم أخباراً عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد اثنتي عشرة سنة من خسارته لها.

في ليلة حظ طيب حظ هناك الكاتب إدواردو ثالاميا وهو في طريق عودته من غواخيرا، وأطلق رصاصه مسدس على صدره، دون أن تؤدي إلى نتائج خطيرة. بقيت المنضدة كلقية أثرية تاريخية يعرضها النُذُل على السائحين، دون السماح لهم بالجلوس إليها. بعد سنوات من ذلك، نشر ثالاميا شهادة عن مغامرته في "أربع سنوات على متن نفسي"، الرواية التي فتحت أفاقاً لا ريب فيها أمام جيلنا.

سرير صدئة. ولكن دون سماع همسة أو تنهيدة واحدة؛ لا شيء.. الأمر الشاق الوحيد هو حر الفرن السائد بسبب التوافد المسمرة بصليب خشبي. ومع ذلك، فقد قرأت منذ الليلة الأولى ويليام إيريش، على خير ما يرام، حتى الفجر تقريباً.

كان البناء، منزلاً للمالكي سفن، فيه أعمدة مئسمة بالمرمر وأفاريز من النحاس اللمّاع، تحيط بفناء داخلي مسقوف بزجاج ملون يُشع ببريق دقيشة زراعية. في الطابق السفلي، كانت مكاتب توثيق العقود في المدينة. وفي كل واحد من طوابق البيت الأصلي الثلاثة، ست حجرات كبيرة من المرمر، حُوت بالورق المقوى إلى حجيرات صغيرة - مثل حجرتي - تجمع فيها فتيات الليل السريات محمولهن. وكان محل دق الأعناق السعيد ذاك، قد حمل ذات يوم اسم فندق نيويورك. وقد أطلق عليه ألفونسو فونشمايور، فيما بعد، تسمية ناطحة السحاب، تكريماً للمتحررين الذين كانوا يلقون بأنفسهم، في تلك السنوات، من الإمبراطور ستيث بيلدنغ.

ولكن محور حياتنا على كل حال، كان يتركز في مكتبة "موندو"، حيث كنا نذهب في الساعة الثانية عشرة نهاراً، ثم في السادسة مساءً. وكان موقع المكتبة في أكثر قطاعات شارع سان بلاس ارتياداً. وقد كان خيرمان بارغاس، الصديق الحميم لصاحب المحل دون خورخي روندون، هو من أقنعه بإنشاء تلك المكتبة التي تحولت، بعد وقت قصير، إلى مركز اجتماع الصحفيين والكتّاب والسياسيين الشباب. لم تكن لدى روندون، خبرة في هذا النوع من التجارة، ولكنه تعلم بسرعة، وبحماس وأريحية حولا، إلى نصير للأدب والعلوم لا يُنسى. لقد كان خيرمان

وألفارو وأفونسو، هم مستشاروه في طلبيات الكتب، ولا سيما الإصدارات الجديدة من بوينس آيرس التي بدأ الناشر فيها، بعد الحرب العالمية الثانية، بترجمة الجديد في الآداب. من كل أنحاء العالم، وطباعته وتوزيعه بالجملة. وبفضلهم صار بإمكاننا أن نقرأ في حينه، الكتب التي ما كان يمكن لها أن تصل إلى المدينة بطريقة أخرى. وكانوا هم أنفسهم يشجعون الزبائن، واستطاعوا أن يعيدوا تحويل بارانكيّا إلى مركز القراءة الذي انحدر في سنوات سابقة، عندما اختفت من الوجود، مكتبة دون رامون التاريخية.

لم يكن قد انقضى وقت طويل على مجيئي إلى المدينة، عندما انضمت إلى تلك الجماعة الأخوية التي تنتظر باتي كتب دور النشر الأرجنتينية الجوالين، كسبعوثين من السماء. وصرنا بفضلهم، من المعجبين المبكرين بخورخي لويس بورخيس، وخوليسو كورتاثار، وفيلسبيرتو هيرتاندث، والروائيين الإنكليز والأمريكيين، في ترجمات جيدة تنجزها عصابة فيكتوريا أوكامبوس. وكانت "فولذة ثائر" لأرتورو بارنبا، هي أول رسالة تحمل الأمل من إسبانيا النائية ومغيبية الصوت، بعد حربين متتاليتين، أحد أولئك الباعة الجوالين، وهو غببرمو دافالو، الدقيق في موعده، كان يتميز بعبادته الحميدة في المشاركة في حفلاتنا الليلية، ويهدي إلينا نسخ النماذج من الكتب الجديدة بعد أن ينجز صفقاته في المدينة.

من كانوا يعيشون بعيداً عن مركز المدينة، لم يكونوا يذهبون ليلاً إلى مقهى روما، ما لم يكن هناك سيب محدد. أما أنا، فكان المقهى هو البيت الذي لا أملكه. كنتُ أعمل في الصباح في قاعة تحرير "الهيرالدو" الهادئة، وأنغدى كيفما أستطيع، وعندما أستطيع، وأينما

أستطيع. ولكن، مدعوّاً على الدوام تقريباً من جماعة الأصدقاء الطيبين والسياسيين ذوي المصالح. وفي مساء أكتب زاويتي الصحفية اليومية "الزرافة"، وأي نص عابر آخر. وفي الساعة الثانية عشرة ظهرأ والسادسة مساء، كنت الأكثر دقة وانتظاماً في الذهاب إلى مكتبة موندو. أما مقبلات ما قبل الغداء التي ظلت الجماعة تتناولها طوال سنوات، في مقهى كولومبيا، فقد انتقلت فيما بعد، إلى "مقهى جايبي"، على الرصيف المقابل، لأنه أكثر الأماكن المظلة على شارع سان بلاس، تهوية ومرحاً. وكنا نستقبل فيه الزيارات، ونستخدمه كمكتب، ومكان لعقد الصفقات، وإجراء المقابلات، ونقطة التقاء سهلة.

كان لمنضدة دون رامون، في مقهى جايبي، قوانين فرضتها العادة ولا سبيل إلى خرقها. فهو أول من يصل، لأن دوام عمله كمعلم ينتهي في الرابعة مساء، ولم تكن الطاولة تتسع لأكثر من ستة منا. وقد اخترنا أماكننا انطلاقاً من العلاقة بمكانه. وكانت إضافة كرسي جديد، لا متسع له، تعتبر تصرفاً غير لائق. وبسبب قدم الصداقة ومستواها، جلس خيرمان إلى يمينه، منذ اليوم الأول. وكان المسؤول عن شؤونه المادية، فهو يحلها له حتى لو لم يطلب منه ذلك، لأنه لم يكن بمقدور العلامة، يميل طبيعي خلقتي، التفاهم مع الحياة العملية، وقد كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام، هي بيع كتبه إلى مكتبة الهي العامة، وتصفية أشياء أخرى قبل سفره إلى برشلونة. وكان خيرمان يبدو أشبه بابن بار أكثر منه سكرتيراً.

أما علاقة دون رامون بالفرنسو، فكانت تركز بالمقابل على مسائل أدبية وسياسية أكثر صعوبة. في حين كان ألفارو، يبدو لي دوماً معطل

الإرادة، عندما يجد نفسه وحيداً على الطاولة، مع دون رامون، ويحتاج إلى حضور آخرين لكي يبدأ الإبحار. الكائن البشري الوحيد الذي كان يتمتع بحرية اختيار المكان على المنضدة، هو خوسيه قبلكس. وفي الليل، لم يكن دون رامون يذهب إلى "جايبي"، وإنما إلى مقهى روما مع أصدقاء منفاه الإسبان.

آخر من انضم إلى منضدته هو أنا. ومنذ اليوم الأول جلستُ، دون أي حق، على كرسي ألفارو سيبيدا الذي كان في نيويورك. وقد استقبلني دون رامون كتلميذ آخر له، لأنه كان قد قرأ قصصي القصيرة في جريدة الاسيكنادور. ولكنه لم يكن ليتصور قط، مع ذلك، أنني سأصل في الشقة معه إلى حد الطلب منه أن يقرضني النقود، من أجل رحلتي إلى أراكاتاكا مع أمي. بعد وقت قصير من ذلك، وبصداقة لا يمكن تصورها، أجريت محادثتي الأولى والوحيدة معه على انفراد، عندما ذهبت إلى "جايبي" في وقت مبكر، قبل الآخرين، لأدفع له، دون شهود، البيزوات الستة التي أقرضني إياها.

- أهلاً بالعبقري - حيانتي كالعادة. ولكن شيئاً في وجهي أثار قلقه، فأضاف: - هل أنت مريض؟

فقلت له باضطراب:

- لا أظن يا سيدي، لماذا؟

- أراك نحيلاً - قال هو، ثم أضاف: -، ولكن لا تهتم بما أقوله، فجميعنا في هذه الأيام نمضي fotats del cul⁽¹⁾.

(1) بالكتلانبة في الأصل، وهي عبارة بذيئة تعني، بصورة تقريبية "جميعنا متخولزون في مؤخراتنا".

خبأ البيزوات الستة في محفظته بحركة متحفظة، كما لو أنها نقود كسبها بطريقة غير مشروعة، ثم أوضع لي وهو يحمزُ خجلاً:
- إنني أخذها كذكري، من شاب فقير جداً، استطاع أن يرد ديناً، دون أن يُطالب به.

لم أجد ما أقوله، وظللت غارقاً في صمت تحملته مثل بئر رصاص، وسط لغط الصالة. لم أكن أحلم قط، بأن يحالفني الحظ بذلك اللقاء. وكان لدي إحساس بأن كل واحد منا، في أحاديث الجماعة، يساهم بحبة رمل في الفوضى، وتختلط دعابات كل واحد وتفاهاته، بدعابات وتفاهات الآخرين. إنما لم يكن يخطر لي أبداً أنه سيكون بإمكانني التحدث عن الغنون والمجد، على انفراد، مع رجل يعيش منذ سنوات في موسوعة^(١). في فجر أيام كثيرة، بينما أنا أقرأ في وحدة جبرتي، كنت أتخيل حوارات مثيرة، أقتنى تبادلها معه حول شكوكي الأدبية. ولكنها كانت تذوب دون أن تخلف أثراً مع أول أنوار الشمس. وكان خجلي يتضاعف، عندما يندفع الفونسو بوحدة من أفكاره العظيمة، أو يستنكر خيرمان رأياً متعجباً يطرحه المعلم، أو يصيح الفارو بمشروع يخرجننا عن طورنا.

لحسن الحظ، أن دون رامون هو من بادر، في ذلك اليوم، في مقهى جابي، إلى سزالي عن حال قراءتي. وكنت قد قرأت حتى ذلك الحين، كل ما استطعت العثور عليه من أعمال جيل الضياع، بالإسبانية، مع اهتمام خاص بفوكر الذي كنت أتبعه وأجرقه بالحاح شفرة حلاقة

(١) المعنى هنا مجازي، وهو إشارة إلى أن اسم دون رامون فينيس، كما ذكر قبل صفحات قليلة، وورد في موسوعة إسبانيا إي كالميس الإسبانية الشهيرة منذ عام ١٩٢٤.

دموية، بسبب خوفى الغريب من ألا يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغي ماسر. بعد أن قلت ذلك، هزني الحياء من أن أبدو استغزانياً. وحاولت أن أخفف من وقع ما قلته، ولكن دون رامون لم يتح لي الوقت، ورداً عليّ، بهدوء أعصاب:

- لا تقلق يا غابيتو؛ فلو كان فوكر في بارانكيّا، لوجدته على هذه الطاولة.

وقد لاحظ من جهة أخرى أنني أولى اهتماماً كبيراً لرامون غوميث دي لا سيرنا، وأستشهد به في "الزرافة" إلى جانب روابين لا ينطرق الشك إليهم. فأوضحت له بأنني لا أفعل ذلك، إعجاباً بروايته. لأنه، باستثناء "قبلا الورود" التي أعجبتني كثيراً، فإن ما يهمني فيه، جراءة قريحته وموهبته الشفوية، ولكن كرياضة إيقاعية. من أجل تعلم الكتابة فقط. وفي هذا الاتجاه، لا أذكر جنساً أدبياً أشد ذكاً، من "غريغرياته"^(١) المشهورة. فقاطعتني دون رامون بابتسامة لاذعة:

- الخطر عليك هو في أن تتعلم الكتابة بصورة سيئة، دون أن تلحظ ذلك.

ومع ذلك، فقد اعترف قبل إغلاق الموضوع بأن غوميث دي لا سيرنا، كان شاعراً جيداً، وسط فوضاء ذات الوميض القسفوري. هكذا كانت ردهه، مباشرة وحكيمة. وكنت أكاد لا أجد أعصاباً لتمثلها، وأنا مختنق بالخوف من أن يقطع علينا أحدهم تلك الفرصة الوحيدة، ولكنه كان يعرف كيف يتحكم بتلك الردود ويفسرهما. أحضر له نادله المعهود

(١) غريغريتا gregueria، سورة نظرية تقدم رؤية شخمية لأحد مظاهر الواقع، وهي تسمية ابتدعها في إحدى نثراته، الكاتب رامون غوميث دي لا سيرنا. وأملتها على أحد مؤلفاته سنة ١٩١٢.

كوكا كولا الساعة الحادية عشرة والنصف، وبدا هو كما لو أنه لم يشبهه. ولكنه تناولها ورشف منها رشفة مخصصة ورقية، دون أن يقطع شروحاته. كان معظم الزبائن يحبونه، بصوت عالٍ من الباب: "كيف حالك يا دون رامون". فبرد عليهم، دون النظر إليهم، بحركة من يده التي كيد فتان. وبينما دون رامون يتكلم، كان يوجه نظرات خفية إلى حافظة الأوراق الجلدية التي كنت أتثبت بها، بكلتا يدي، بينما أنا أستمع. وعندما انتهى من تناول الكوكا كولا الأولى، لوى المصاصة الورقية كلولب وطلب الثانية. فطلبت واحدة لي، وأنا أعرف جيداً أن كل شخص يدفع حسابه، على تلك المنضدة. وأخيراً سألتني عن حافظة الأوراق الغامضة التي أتثبت بها، مثلما يتثبت الغريق بخشبة. أخبرته بالحقيقة: إنها مسودة الفصل الأول من الرواية التي بدأت بكتابتها، إثر العودة من كاتاكما مع أمي. وبجراحة لن أستطيع العودة إلى مثلها أبداً، في لحظات الحياة أو الموت، وضعت الحافظة، مفتوحة على المنضدة أمامه، كاستفزاز بريء. صوب إليّ حدقتيه الصافيتين بزرقة خظرة، وسألني وهو مندهش قليلاً:

- هل تسمح لي؟

كانت المسودات مكتوبة على الآلة الكاتبة، مع ما لا حصر له من الشطب والنصحیح، على شرائط ورق مطبوعة مثل منفاخ أكوردبون، وضع، دون تسرع، نظارة القراءة، وفتح الشرائط الورقية ببراعة احترافية، وفردتها على المنضدة. قرأ دون أن يأتي بأي حركة، ودون أي تلون في بشرته، ودون أي تبدل في أنفاسه، بينما خصلة شعر على رأسه، كأنها ناصية بيضاء، تتحرك مع إيقاع أفكاره، حركة تكاد لا

تُلاحظ. وعندما أنهى قراءة شريطين ورقيتين كاملتين، أعاد طيهما بصمت ويفن قروسطي، وأطبق الحافظة. ثم خبياً عندئذ نظارته في جرابها، ووضعها في الجيب، على صدره.

- يبدو واضحاً أنها لا تزال مادة خام، مثلما هو منطقي - قال لي ذلك ببساطة عظيمة، ثم أضاف: - ولكنها جيدة.

أهدى بعض التعليقات الهامشية، حول استخدام الزمن الذي كان مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي، وهو الأسهل دون ريب، ثم أضاف:

- يجب أن تكون واعياً بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات ليست موجودة، إلا لاستذكارها، وهكذا عليك خوض الصراع مع زمين.

وبعد سلسلة من التفصيلات التقنية الدقيقة التي لم أستطع تقدير قيمتها، لضحالة تجريتي، نصحتني بالألا يكون اسم مدينة الرواية بارانكيًا، مثلما هو مقرر لدي في المسودة، لأنه اسم معروف جداً في الواقع. مما لا يترك للقارئ سوى هامش ضيق للحلم. ثم انتهى إلى القول، بنبرته الساخرة:

- أو تصرف كفلاح. وانتظر أن يسقط عليك الاسم من السماء.

أضف إلى ذلك أن أثينا سوفوكلس، لم تكن قط، في نهاية المطاف، هي نفسها أثينا أنتيغون.

ولكن ما التزمت به حرفياً إلى الأبد، هو الكلمات التي ودعتي بها في ذلك المساء:

- أشكر احترامك لي، وسأكافئك عليه بتصيحة: لا تعرض على أحد أبداً مسودة، ما زلت تكتبها.

كانت تلك هي محادثتي الوحيدة معه على انفراد. ولكنها تغني

عن كل المحادثات، لأنه سافر إلى برشلونة في الخامس عشر من نيسان سنة ١٩٥٠، مثلما كان مقرراً منذ أكثر من ستة، متضاملاً في بدلة الجوخ السوداء، وقبعة الموظفين. كان ذلك أشبه بتسفير تلميذ مدرسة. وكان بصحة جيدة وبكامل وضوحه الذهني، وهو في الثامنة والستين. ولكننا نحن الذين رافقناه إلى المطار، ودعناه كشخص عائد إلى مسقط رأسه، ليحضر جنازته بالذات.

في اليوم التالي فقط، عندما وصلنا إلى موانئنا في مقهى جابي، لاحظنا الفراغ الذي تبقى في كرسيه. ولم يتجرأ أحد على شغل ذلك الكرسي، قبل أن نتوصل إلى الاتفاق بأن يكون خيرمان هو من يشغله. وقد احتجنا إلى بضعة أيام، لكي نعتاد على الإيقاع الجديد لأحاديثنا اليومية، حتى وصلت الرسالة الأولى من دون راعون، قبدت كما لو أنها مكتوبة بصوته الحي، وكانت بخطه الدقيق ذي الحبر البنفسجي. وهكذا بدأت مراسلاته معنا جميعاً من خلال خيرمان، مراسلات متواترة وزخمة، يروي فيها القليل عن حياته، والكثير عن إسبانيا التي كان يعتبرها أرضاً معادية مادام فرانكو حياً، وبقيت السيطرة الإسبانية على كاتالونيا.

كانت فكرة إصدار المجلة الأسبوعية من بنات أفكار ألفونسو فوينمايور، وسابقة لتلك الأيام بوقت طويل. ولكنني أظن أن سفر العلامة الكتلاني سرع المشروع. ففي أثناء اجتماعنا في مقهى روما، بعد ثلاث ليال من سفره، أخبرنا ألفونسو بأن كل شيء صار جاهزاً لإصدار المجلة. ستكون أسبوعية متنوعة من عشرين صفحة، صحافية وأدبية، اسمها - كرونিকা - لن يعني الكثير لأحد. وقد بدأ لنا من

قبيل الهذيان أننا لم نستطع الحصول على الموارد حيث يتوفر لائق منها، بينما تمكن ألفونسو فوينمايور من الحصول عليها من الحرفيين، وميكانيكي السيارات، والموظفين المتقاعدين، وحتى من أصحاب الحانات المتواطين الذين وافقوا على أن يدفعوا مشروب روم القصب، مقابل الإعلانات. إنفا كانت هناك أسباب للتفكير في أنها ستقابل بالترحيب، في مدينة تحافظ، وسط ضوضائها الصناعية وكبرياتها المدني، على توقيع حي للشعراء.

وسيكون المشاركون المنتظمون، فضلاً عنا، قليلين. المحترف الوحيد الذي لديه خبرة جيدة هو كارلوس أوسيس نوغيرا - الشاعر أوسيو -، وكان شاعراً وصحفيّاً يتمتع بخفة ظل خاصة جداً وجسد هائل. موظف حكومي ورفيق في جريدة الناسيونال، حيث عمل مع ألفارو سيبيدا وخيرمان بارغاس. ومشارك آخر هو روبيرتو (بوب) بريشو، علامة من الوسط الاجتماعي الراقى، يمكنه أن يفكر بالإنكليزية أو الفرنسية على أحسن وجه، مثلما يفكر بالإسبانية، وأن يعزف على البيانو، من الذاكرة، أعمالاً عديدة لكبار الموسيقيين. أما من لم يكن مفهوماً تضمينته في القائمة التي خطرت لألفونسو فوينمايور، فهو خوليو ماريا سانتوده ومينغو. لقد فرضه دون تحفظ لنوابه، في أن يكون رجلاً مختلفاً. ولكن ما لم نفهمه هو إيراد اسمه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي كان واضحاً أنه مرصود ليكون روكفلر لاتيني، ذكي، مشفق، وودود، ولكن محكوم عليه دون خلاص بالعيش في ضباب السلطة. وقلة هم الذين يعرفون، مثلما كنا نعرف، نحن الأربعة أصحاب فكرة المجلة، أن حلم سنوات عمره الخمس والعشرين السري، هو أن يصير كاتباً.

المدير، بالمحق التلقائي، سيكون الفونسو. أما خيرمان بارغاس
فسيكون، قبل أي شيء، كاتب التحقيقات الرئيسي الذي أمل أن
أشاركه الحرفة، ليس عندما يتوفر لي الوقت - الذي لم يكن يتوفر لنا
مطلقاً - وإنما عندما يكتمل حلمي بتعلمها. وسيرسل إلينا ألفارو
سببدا مساهماته التي بنجزها في ساعات فراغه بجامعة كولومبيا في
نيويورك. وفي نهاية القائمة، لم يكن هناك من هو أكثر مني حرية
ولهفة ليعين رئيس تحرير في أسبوعية مستقلة، وغير مؤكدة، وهكذا
كان.

كان لدى ألفونسو أرشيف احتياطي منذ سنوات، وأعمال كثيرة
أعدت مسبقاً. في الشهور الستة الأخيرة، مع زوايا رأي، ومواد أدبية،
وريبورتاجات متقنة، ووعود بإعلانات تجارية من أصدقائه الأغنياء.
رئيس التحرير، غير المرتبط بساعات دوام محددة، والذي خصص له
راتب أعلى من راتب أي صحفي في مثل مستواي، غير أنه مشروط
بالأرباح المستقبلية. كان جاهزاً أيضاً لتخرج المجلة في حالة جيدة، وفي
موعددها، وأخيراً، في يوم السبت من الأسبوع التالي، عندما دخلت إلى
غرفتنا في جريدة الهيرالدو، في الساعة الخامسة، قال لي ألفونسو
فونسا، دون أن يرفع نظره عن إنها مقالته الافتتاحية للمجريدة:

- عجل بعملك يا معلم. "كرونিকা" تستصدر في الأسبوع القادم.

لم أرتعب، لأنني كنت قد سمعت الجملة نفسها، في مرتين
سابقتين. ومع ذلك، فقد كانت المرة الثالثة ثابتة. كان أعظم حدث
صحفي في ذلك الأسبوع - وبأسبقية مطلقة - هو مجيء لاعب كرة
القدم البرازيلي هيلينو دي فريتاس للانضمام إلى فريق جونيور

الرياضي. ولكننا لن نتناول الحدث في منافسة مع الصحافة الرياضية
المخصصة، وإنما كخير ذي أهمية ثقافية واجتماعية كبيرة. فمجلة
كرونিকা لن تسمح لنفسها بالتقيد بهذا النوع من التمييز. وأقل من ذلك
إذا كان الحدث يتعلق بأمر واسع الشعبية، مثلما هي كرة القدم. وكان
القرار إجماعياً، والعمل فعلاً.

كنا قد أعدنا مادة واسعة من الصحافة. والشئ الوحيد الذي
تبقى للحظة الأخيرة، هو الريبورتاج عن هيلينو. وقد كتبه خيرمان
بارغاس، المعلم في كتابة الريبورتاجات والكروي المتعصب. ظهر العدد
الأول في مواعده الدقيق، في أكشاك البيع، صباح يوم ٢٩ نيسان
١٩٥٠، يوم القديسة سانتا كاتالينا دي سيينا، كاتبة الرسائل الزرقاء،
في أجمل ساحة في العالم. وقد طبعت كرونিকা تحت شعار خُطر لي في
اللحظة الأخيرة: "نهاية أسبوعك المفضلة". كنا نعرف أننا نتحدى اللغة
الاصطفائية عمسيرة الهضم التي كانت تتأصل في الصحافة
الكولومبية، في تلك السنوات. ولكن ما كنا نريد قوله بذلك الشعار، لم
يكن له معادل باللون نفسه في اللغة الإسبانية. كان الغلاف رسماً
بالحبر للاعب الكرة هيلينو دي فريتاس، من رسم ألفونسو ميلو، رسام
الوجوه الوحيد بين رساميننا الثلاثة.

نفدت الطبعة، رغم تعجل الساعة الأخيرة، وغياب الإعلان، قبل
وقت طويل من وصول هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى سناد الملعب
البلدي في اليوم التالي - الأحد ٣٠ نيسان -، حيث ستجري مباراة
الذروة بين فريق جونيور الرياضي وسورتينغ. وكلاهما من بارانكيا،
وكانت المجلة نفسها منقسمة، لأن خيرمان وألفارو يشجعان سورتينغ،

بينما أنا وألفونسو نؤيد جونيور. ومع ذلك، فإن مجرد ورود اسم هيلينو ورييورتاج خيرمان بارغاس الرائع، أكدا الخطأ بأن "كرونيكاً" هي المجلة الرياضية الكبرى التي طالما انتظرناها كولومبيا.

كان الاستاد قد امتلأ حتى الرايات، وبعد ست دقائق من الشوط الأول، سجل هيلينو هدفه الأول في كولومبيا، بضربة من قدمه اليسرى، سددها من وسط الملعب. ومع أن فريق سبورتينغ هو الذي فاز في النهاية ٢/٣، إلا أن ذلك المساء كان مساء هيلينو أولاً، ومساءنا نحن تالياً، بسبب الاختيار الموفق للغلاف. إننا لم تكن هناك سلطة بشرية، ولا إلهية، قادرة على إقناع أحد من الجمهور بأن كرونিকা ليست مجلة رياضية، بل أسبوعية ثقافية تكرم هيلينو دي فريتاس، باعتبار مجيئه إلى كولومبيا، أحد أهم أخبار السنة.

لم تكن مجرد مصادفة موفقة لمستجدين. ذلك أن ثلاثة منا كانوا يتناولون موضوع كرة القدم في أعمدتهم ذات الاهتمام العام، بمن فيهم خيرمان بارغاس طبعاً، وكان ألفونسو فوينسايور متابعاً حريصاً لكرة القدم، بينما عمل ألفارو سيببدا، طوال عدة سنوات، مراسلاً في كولومبيا للـ "سبورتينغ نيوز" التي تصدر في سانت لويز، ولاية ميسوري الأمريكية. ومع ذلك، فإن القراء الذين كنا نتلهف إليهم، لم يستقبلوا بذراعيين مفتوحين أعدادنا الثالثة. وتخلّى عنا متعصبو الملاعب دون إحساس بالألم.

وفي محاولة لترقيع ما ترقق، قررنا في هيئة التحرير، أن أتولى كتابة ريبورتاج رئيسي عن سياستيان بيراسكوتشيا، وهو نجم برازيلي آخر في فريق جونيور الرياضي. على أمل أن أتفك من المصاحلة بين كرة

القدم والأدب، مثلما حاولت، في مرات كثيرة، أن أفعل بعلوم أخرى خفية في عمودي اليومي. كانت حتى لعب الكرة التي نُقل إليّ عدواها لويس كارميلو كورتاً في مرات كاتاكا، قد انخفضت إلى درجة الصفر تقريباً. أضف إلى ذلك، أنني كنت من المتعصبين المبكرين للييسبول الكاريبي - أو لعبة الطابة، كما يسمونها باللغة المحلية -، ومع ذلك، فقد أخذت الأمر على عاتقي.

كان نموذجي الذي سأقتدي به، طبعاً، هو ريبورتاج خيرمان بارغاس. وعززت نفسي بريبورتاجات أخرى، وأحسست بالطمأنينة، بعد محادثة طويلة أجريتها مع بيراسكوتشيا، وهو رجل ذكي ولطيف، ولديه إدراك جيد للصورة التي يود أن يقدم بها نفسه لجمهوره. السيئ في الأمر هو أنني عرقتُ به، ووصفته كهامكي غودجي، بسبب كنيسته وحسب. دون أن يستوقفني تفصيل صغير يتمثل في كونه زنجياً غامقاً من أفضل سلالة أفريقية. كانت تلك أكبر غلطة في حياتي، وفي أسوأ لحظة تمر فيها المجلة. وبلغ ذلك حدّاً وجدت فيه نفسي متطابقاً حتى الروح، مع رسالة قارئ اعترضني صحفياً رياضياً عاجزاً عن التمييز بين كرة وترام. وحتى خيرمان بارغاس نفسه، شديد التدقيق في أحكامه، أكد في كتاب تذكاري أصدره بعد سنوات، بأن الريبورتاج حول بيراسكوتشيا هو أسوأ ما كتبتّه. أظن أنه يبالغ، ولكن ليس كثيراً، لأنه ليس هناك من يعرف الحرفة مثله، هو الذي كان يكتب التحقيقات والريبورتاجات، بنبرة شديدة التدفق، تبدو كأنها قد أُمليت. بصوته على مُنصّد اللبنتيب.

لم تتخلّ عن كرة القدم أو اليسبول، لأن اللعبتين كانتا واسعتي

الشعبية في ساحل الكاريبي. ولكننا ضاعفنا موضوعات الأوضاع الأدبية الراهنة والمستجدة. إلا أن ذلك كله لم يجد نفعاً؛ إذ لم تتمكن مطلقاً، من تجاوز الخطأ السائد بأن كرونিকা هي مجلة رياضية. ولكنّ متعصبي الملاعب بالمقابل، تجاوزوا خطأهم، وتخلوا عنا لمصيرنا. وهكذا واصلنا إصدارها، مثلما قررنا مسبقاً، مع أنها ظلت، منذ العدد الثالث، تطفو في ليمبوس غموضها.

لم تخر عزيمتي. فالرحلة إلى كاتانكا مع أمي، والمحادثة التاريخية مع دون رامون، وعلاقتي الحميمة بجماعة بارانكيّا، بثت في نفسي حماساً جديداً سوف يكفيني إلى الأبد. وهذا ذلك الحين، لم أكسب شيئاً واحداً، إلا من الآلة الكاتبة. وهذا أمر يبدو لي أكثر جدارة مما يمكن أن يخطر على البال. ذلك أن أول حقوق مؤلف أتاحت لي العيش من قصصي ورواياتي، دُعُت لي، وأنا في الأربعين وبعث سنوات، وبعد أن نشرت أربعة كتب بعوائد زهيدة. وإلى ما قبل ذلك، كانت حياتي مضطربة، على الدوام، بشبكة معقدة من المصائد والذرائع والأوهام، لكي أقتلص من الأحلام الكثيرة التي سمعت إلى تحويلي إلى أي شيء آخر، على ألا أكون كاتباً.

بحدوث كارثة أراكاتانكا، وموت الجد، وتلاشي ما يمكن أن يكون قد تبقى من سلطاته الغائصة، وقعنّا، نحن الذين كنا نعيش عليها، تحت رحمة الحنين. صار البيت بلا روح حينما لم يعد هناك من يعود في القطار. مينا وفرانثيسكا سيمودوسيا، بقيتا في كنف إلفيرا كاريو التي تولت مسؤوليتهما بولاء جارية. وعندما فقدت الجدة بصرها وعقلها، أخذها أبواي معهما لكي تعيش حياة أفضل، وهي تموت على الأقل. وظلت العمة فرانثيسكا، العذراء والشهيدة، هي نفسها صاحبة الكلام الغريب غير المألوف والأمثال الغظة. ورفضت تسليم مفاتيح المقبرة ومشغل خبز القربان الذي يُعدّ لتقديسه، متذرة بأن الرب كان سيدعوها، لو كانت تلك هي مشيئته. وفي أحد الأيام، جلست عند باب حجرتها، ومعها بعض ملائمتها البيضاء الناصعة، لتخيط كفنًا مفصلاً على مقاسها. وقد فعلت ذلك بتأن بالغ، جاعلة الموت ينتظر أكثر من أسبوعين إلى أن انتشبت منه. واستلقت في تلك الليلة دون أن تودع أحداً، ودون أن تعاني من أي مرض أو ألم، متأهبة لأن تموت، وهي في أفضل حالاتها الصحية. ولم ينتبهوا إلا قيساً بعد، إلى أنها كانت قد ملأت استمارات الوفاة وأُحجزت بنفسها إجراءات دفنها. بقيت إلفيرا

كارثو، التي لم تعرف رجلاً، بإزادتها أيضاً، وحيدة في عزلة البيت الفسيح. وكان يوقظها في منتصف الليل، وعب السعال الأيدي في حجرات النوم المجاورة. ولكنها لم تهتم بذلك قط، لأنها معتادة كذلك، على تقاسم هوم الحياة الحارقة للطبيعة.

وخلافاً لها، بقي أخوها التوأم، إستيبان كارثو، صافي الذهن ونشيطاً، حتى بلوغه شبخوخة متقدمة. وفي ذات مرة، بينما كنت أتناول الفطور معه، تذكرت كل التفاصيل البصرية، عندما حاول بعضهم الإلقاء بأبيه من المركب في بحيرة ثيناغا، مرفوعاً على أكتاف الحشد، وملفوناً بقطعة خيش، مثلما فعل البغالون بسانتشو بانثا. كان بابليلو قد مات في ذلك الحين. ورويت الذكري للخال إستيبان، لأنها بدت لي مسلية. ولكنه نهض قافزاً، واستشاط غضباً، لأنني لم أذكر أحداً بذلك، فور حدوثه. وأبدي تلهفه لكي أتمكن من أن أعدد في الذاكرة، من هو الرجل الذي كان يتحدث إلى الجد في ذلك اليوم، لكي يخبره من هم الذين حاولوا إغراقه. ولم يستطع أن يفهم كذلك، كيف لم يدافع الجد عن نفسه، مع أنه رام ماهر. كان في خطوط النار، فترات طويلة، خلال حريقين أهليتين؛ وكان بنام والمسدس تحت وسادته. كما أنه قتل في أزمنة السلم. خصصاً في مبارزة. وقال لي إستيبان إن الوقت، لم يفت، مع ذلك لكي يقوم هو واخوته بالتأثر للإهانة. إنه قانون غواخيرا؛ إهانة أحد أفراد الأسرة يدفع ثمنها كل ذكور أسرة المعتدي. وكان خالي إستيبان مصحماً، حتى إنه أخرج المسدس من حزامه ووضع على المائدة كيلاً يضيع الوقت، بينما هو يستنجنهني. منذ ذلك الحين، وفي كل مرة نلتقي بها، في مجاولنا، تعاوده الأمل بأن أكون قد تذكرت. وفي إحدى

الليالي، جاء إلى حجرتي في المجرى، في الفترة التي كنت أستقصي فيها عن ماضي الأسرة من أجل رواية أولى لم أنهيها، واقترح علي أن نقوم معاً بتحريات عن ذلك الاعتداء. لم يستسلم قط. وآخر مرة التقيت به في كارتاخينا دي إندياس، سافر وقلبه مشروخ، وقد ودعني بابتسامة حزينة:

- لا أدري كيف توصلت إلى أن تكون كاتباً. يمثل هذه الذاكرة السيئة.

عندما لم يعد هناك ما يمكن عمله في أراكاتاكا، أخذنا أبي مرة أخرى للعيش في بارانكيا، ولكي يقيم هناك صيدلية أخرى، دون أن يكون معه ستافو واحد من رأس المال، ولكن بقروض ائتمان جيدة من تجار الجملة الذين كانوا شركاء له في صفقات سابقة. لم تكن تلك هي الصيدلية الحامسة، مثلما اعتدنا القول في الأسرة، وإنما الصيدلية الوحيدة التي كنا نحملها على الدوام من مدينة إلى أخرى، حسب استشارات أبي التجارية: مرتين في بارانكيا، ومرتين في أراكاتاكا، ومرّة في سينثي. وفي كل مرة، كانت هناك فوائد غير مؤكدة، وديون يمكن سدادها. وتقلصت الأسرة التي صارت دون جدين ولا أعصام أو أخوال، ودون خدم، إلى الأبوين والأبناء. وكنا ستة أبناء آنذاك - ثلاثة ذكور وثلاث إناث - خلال تسع سنوات من الزواج.

انتابني قلق لهذا الجديد في حياتي. لقد جئت إلى بارانكيا، عدة مرات من قبل، لزيارة أبوي، عندما كنتُ طفلاً، وبصورة عابرة على الدوام، وذكرياتي عن ذلك مفتحة جداً. الزيارة الأولى كانت وأنا في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ولادة أختي

- ها قد صرت رجلاً -

كان لها أنف روماني جميل. وبدت وجهية وشاحبة، وأكثر تمييزاً من أي وقت آخر، بموضة تلك السنة: ثوب من الحرير بلون العاج، خصره عند الوركين؛ وعقد لؤلؤ من عدة لفات؛ وحذاء مفضض ذو رباط جلدي وكعب عالٍ؛ وقبعة أنيقة من القش على شكل ناقوس، كما في أفلام السيتما الصامتة. أحاطني عناقها برائحة خاصة شممتها فيها على الدوام، وهزنتني، جسداً وروحاً، هبة شعور بالذنب، لأن واجبي هو محبتها، غير أنني أحسست أن ذلك ليس صحيحاً.

أما أقدم ذكرى لدي عن أبي بالمقابل، فهي مؤكدة وواضحة، في الأول من شهر كانون الأول ١٩٣٤، اليوم الذي أكمل فيه الثالثة والثلاثين من عمره. رأيته يدخل سعيداً، ويخطوات سريعة، إلى بيت الجددين في كاتاكما، ببذلة كاملة من الكتان الأبيض، وقبعة قش ذات خافة ملساء. هناك أخذهم معانقاً، وسأله كم سنة أكمل. ولم أنس جوابه قط، لأنني لم أفهمه في حينه:

- سن المسيح نفسها.

لقد تسالمت على الدوام، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة جداً، مع أنني كنت قد التقيت بأبي دون ريب، مرات كثيرة قبلها.

لم أكن قد أقمت مع أبوي في البيت نفسه قط. ولكن بعد مولد مارغوت، تبنى جددي عادة أخذي إلى بارانكييا، بحيث لم أعد غريباً إلى ذلك الحد في بيت والدي، عندما ولدت عابدا روسا. أظن أنه كان بيتاً سعيداً. وكانت لهم هناك صيدلية، ثم فتحوا قفصاً بعد واحدة أخرى في مركز المدينة التجاري. وعدنا للقاء الجدة أرخيميرا - ماما خيمي -

مارغوت. أتذكر رائحة الرجل الكريهة في المرفأ عند الفجر، وعربة الحصان التي يُبعد حودُها، بسوطه، للصوص الذين يحاولون الصعود إلى مقعده في الشوارع الترابية المقفرة. أتذكر جدران دار التوليد، حيث ولدت الطفلة، بلونها الترابي الأمغر، وخشب أبوابها وتوافذها، وهواء الأدوية النفاذ الذي يعيق في الحجر. كانت الوليدة في سرير حديدي بسيط جداً، في أقصى حجرة كئيبة، مع امرأة هي أمي دون ريب، غير أنني لا أتوصل إلى أن أتذكر منها سوى حضور، دون وجه، مد لي بدأ نحيلة، وتنهد:

- أنت لم تعد تتذكرني.

لا شيء سوى ذلك. فالصورة الأولى البيئة التي أحفظ بها عنها، تعود إلى عدة سنوات تالية، وهي صورة واضحة ومؤكدة، ولكنني لا أتمكن من تحديد زمنها. لا بد أنها من إحدى زيارتها إلى أراكاتا، بعد ولادة عابدا روسا، أختي الثانية. كنت يومذاك ألعب في الفناء، مع حمل حديث الولادة، أحضره لي سانتوس فيسبرو بين ذراعيه من فوتسيكا، عندما جاءت العممة ماما، راكضة، وتبهتني بصوت بدأ لي مرعباً:

- لقد جاءت أمك!

اقتادتني، بما يشبه المجرجرة إلى الصالة، حيث كانت كل نساء البيت، وبعض المزارات جالسات، كما في سهر على ميت، على كراسي مصفوفة بمحاذاة الجدران. انقطع الحديث لدى دخولي المفاجئ. وبقيت متحجراً عند الباب، دون أن أدري أيأ منهن هي أمي، إلى أن فتحت لي ذراعها وقالت، بأكثر الأصوات التي أتذكرها، خائناً:

واثنين من أبنائها، خوليو وإينا. وكانت إينا جميلة جداً، ولكنها مشهورة في الأسرة، بسوء طالعها. ماتت في الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد الداء. وما زال يقال حتى الآن إن السبب هو شؤم خطيب مرفوض. وكلما كنا كبير أكثر، كانت ماما خيمي تبدو لي أكثر لطفاً وبذاعة لسان.

في تلك الفترة بالذات، سبب لي أبواي نكسة عاطفية خلّفت في نفسي ندبة، من الصعب محوها. حدث ذلك في يوم عانت فيه أمي هبة حين، وجلست تداعب ملامس البيانو بلحن "عندما انتهى الرقص"، فالس غرامياتهما السرية التاريخي. وخطرت لأبي الشقاوة الرومانسية بفض الغبار عن الكمان لمراقبتها، مع أن أحد أوتاره كان مقطوعاً. اندمجت هي بسهولة على طريقتها، كرومانسية مبكرة، وعزفت أفضل من أي وقت آخر، إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كتفها، وانتهت إلى أن عينيه مخضلتان بالدموع. "من تتذكر الآن؟"، سأله أمي، ببراعة قاسية. فرد هو، مستلهماً لحن الغالس: "أتذكر المرة الأولى التي عزفناه فيها معاً". عندئذ وجهت أمي ضربة غضب، بكلتا قبضتيها، إلى ملامس البيانو. وصرخت بأعلى صوتها:

- لم تعرفه معي يا منافق! أنت تعرف جيداً من هي التي عزفته معها، وأنت تبيكي من أجلها.

لم تذكر الاسم، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر قط. ولكن الصرخة جمدتنا جمعينا من الرعب، في أماكن مختلفة من البيت. لويس إنريكي وأنا. وكانت لدينا على الدوام أسباب خفية للخوف. اختبأنا تحت الأسرة. وهربت عابداً إلى بيت الجيران، وأصبحت مارغوت بحمي

مفاجئة أبقنتها تهذي طوال ثلاثة أيام. وحتى الأخوة الصغار كانوا معتادين على انفجارات غيرة أمي تلك، بعينها المتهبتين وأنفها الروماني المرفف، مثل سكين. كنا قد رأيناها تنتزع، بهدوء غريب، لوحات من الصالة ومحطمتها واحدة بعد أخرى، على الأرض، في وابل بَرْدٍ زجاجي صائب. وفاجأناها، وهي تشم ملابس أبي قطعة قطعة، قبل أن تلقي بها إلى سلة الغسيل. لم يحدث أي شيء آخر بعد ذلك، في ليلة العزف الثنائي التراجيدية تلك. ولكن مَدُون البياتوهات الفلورنسي أخذ البيانو لبيعه. وانتهى الأمر بالكمان - مع الممسدس - إلى التعفن في خزنة الملابس.

كانت بارانكيًا. آنذاك، حالة متقدمة في التقدم التمدني، والليبرالية الواذعة، والتعاشيش السياسي. وهي عوامل حاسمة في نموها وازدهارها، بعد انقضاء أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي عصفت بالبلاذ منذ الاستقلال عن إسبانيا، ثم ما تلا ذلك من انهيار منطقة زراعة الموز، الجريحة جراحاً مشخنة من القمع الشرس الذي نكل بها، بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يقف في وجه روح أهلها الخلاقة. ففي عام ١٩١٩، كسب الصناعي الشاب ماريو سانتوده ومنغو - والد خوليو ماريو - أمجاد التمدن، بافتتاحه البريد الجوي الوطني بسبع وخمسين رسالة في كيس من قماش الحيم ألقى به على شاطئ بويرتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ من بارانكيًا، من طائرة بدائية يقودها الأمريكي الشمالي ويليم نوكس سارتن. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، جاء فريق من الطيارين الألمان - بينهم هيلموت فون كروهن - ودشنوا

المخطوط الجوية بطائرات جنركز ف-13، وهي أول طائرات ذرعت نهر مجدلينا، مثل جنادب تحركها العناية الإلهية، حاملة ستة ركاب جسورين وأكياس البريد. كان ذلك هو جنين الشركة الكولومبية الألمانية للنقل الجوي - SCADTA، إحدى أقدم شركات النقل الجوي في العالم.

انتقالنا الأخير إلى بارانكيّا، لم يكن بالنسبة لي مجرد تغيير مدينة وبيت، وإنما تغيير أب، وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب الجديد كان رجلاً عظيماً، ولكنّ لديه إحساساً بالسلطة الأبوية، مختلفاً تماماً عن ذلك الذي جعلنا، أنا ومرغريتا، سعيدين في بيت الجددين. فبعد أن اعتدنا على أن نكون سبدي نفسنا، تكلفنا مشقة كبيرة في التكيف مع نظام غريب عنا. كان أبي، في جانبهِ الأكثر مدعاة للإعجاب والتأثير، متعلماً ذاتياً بالمطلق، وأشد من عرفته من القراءة نهماً. وإن يكن أقلهم منهجية. فمئذ أن هجر مدرسة الطب، انكبّ وحيداً على دراسة الطب التجانسِي، الذي لم يكن يتطلب في ذلك الحين تكويناً أكاديمياً. وحصل على تصريح بمزاولته مع التكريم. ولكنه لم يكن يتمتع بالمقابل، بصلاية أُمِّي في تجاوز الأزمات. وقد أمضى أسوأها في أرجوحة النوم في غرفته، وهو يقرأ كل ما يقع بين يديه من الورق المطبوع، ويحل الكلمات المتقاطعة. غير أن مشكلته مع الواقع كانت عصبية على الحل. فقد كان ينظر إلى الأغنياء، بورع شبه أسطوري. ولكن ليس الأغنياء الذين لا تفسير لغناهم. وإنما أولئك الذين شكلوا ثرواتهم بقوة الموهبة وسعة الأفق. وكان يبقى مؤرقاً في أرجوحة نومه، حتى في وضوح النهار، يراكم ثروات هائلة في مخيلته، بمشاريع سهلة لا يفهم كيف لم تخطر له من قبل. وكان يحب أن يستشهد ويضرب الأمثلة

بأسرع ثروة وجد عنها خيراً في صحيفة دباريو؛ منشا فرسخ من الخنزيرات الولود. ومع ذلك، فإن تلك الصفقات الكبرى الفريدة لم تكن تجري في الأماكن التي نعيش فيها؛ وإنما في جنان منعزلة سمع عنها خلال تشرده، كعامل تلفراف. عدم واقعيته المشؤوم أبقانا معلقين بين الحبيبات والعودة إلى البدء من البداية. ولكن مع وجود فترات طويلة كذلك، لم يسقط علينا خلالها من السماء، حتى فتات خبزنا كفاف يومنا. وقد علمنا أبوانا، على أي حال، سواء في السراء أو الضراء، أن نحتفي بالأولى ونتحمل الثانية بإذعان ووقار كاثوليكي، على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقضي هي السفر وحيداً مع أبي. وقد حصلت عليها كاملة، عندما أخذني إلى بارانكيّا لأساعده في إقامة الصيدلية، وفي الإعداد لمجيء بقية الأسرة. ما فاجأني أنه كان يعاملني، ونحن وحدنا، كما لو أنني شخص راشد، بمحبة واحترام. حتى إنه كان يكلفني بمهمات لا تبدو سهلة على سنوات عمري، ولكنني أنجزتها على خير ما يرام وبسعادة. مع أنه لم يكن راضياً على الدوام. كان من عادته أن يروي لنا قصصاً من طفولته في قرية مولده. ولكنه يكرها سنة بعد أخرى للمولودين الجدد، بحيث راحت تفقد بهجتها في نظر من يعرفونها. حتى إننا نحن الكبار، كنا ننهض حين يبدأ بروايتها بعد تناول الطعام. وقد أغضبه لويس إنريكي، عندما قال، وهو يتسحب في واحدة من نوبات صراحته:

- أخبروني، عندما يموت الجد مرة أخرى.

تلك الانتدفاعات شديدة العفوية، كانت تشير غضب أبي، وتضاف إلى الأسباب التي كانت تتراكم من أجل إرسال لويس إنريكي إلى

إصلاحية ميدلين. ولكنه تحول معي في بارانكيًا إلى شخص آخر. أرشف قائمة النواذر الشعبية، وراح يقص علي مقاطع مشوقة من حياته الشاقة مع أمه، ويخل أبيه الأسطوري، والمصاعب التي أعاقته دراسته. تلك الذكريات أتاحت لي تحملاً أفضل لبعض نزواته، وتفهم بعض عدم تفهمه لنا.

تحدثنا، في تلك الفترة، عن كتب قرأناها أو في سبيلنا إلى قراءتها. وجمعنا من المواقع الموبوءة في السوق العام، محصولاً وافراً من قصص طرزان والتحريرين وحروب الفضاء. ولكنني كنت أيضاً على وشك أن أكون ضحية حسه العملي، ولا سيما عندما قرر أنه علينا الاكتفاء بوجبة واحدة في اليوم. وجاءت الأزمة الأولى، حين فاجأني، وأنا أملاً بالمياه الغازية والحيز المحلى فجوات العشاء، عند الغروب، بعد مرور سبع ساعات على تناول الغداء. ولم أستطع أن أخبره من أين جئت بالنقود لشراؤها. لم أجرؤ على الاعتراف له بأن أمي قد أعطتني، خفية، بعض البيزوات، محسباً من حمية الناسك الغذائية التي يفرضها في رحلاته. وقد استمر تواطؤ أمي ذلك، طالما هي قلقت الوسائل. فحين صرت تلميذاً داخلية في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي عشرة بيزوات في علبة صابون "ريوتير" وهي تأمل أن أعثر عليها في لحظة حرجة. وهكذا كان؛ فعندما كنا ندرس بعيداً عن البيت، كانت أي لحظة تعتبر مثالية، للعثور على عشرة بيزوات.

كان أبي يتدبر الأمر لكي لا يتركني في الليل، في صيدلية بارانكيًا. ولكن حله لم تكن هي الأكثر إمتاعاً لسنوات عمري الاثنتي عشرة، فالزيارات الليلية لأسر الأصدقاء، كانت تنهكتي. لأن الأمر التي

لها أبناء في مثل سني، تجبرهم على النوم في الساعة الثامنة، ويتركونني معذباً بالضجر والنعاس، في فقر الثروات الاجتماعية القاحلة. ولا بد أنني غفوت في إحدى الليالي، ونحن في بيت طبيب صديق. ولم أدر كيف ولا في أي ساعة استيقظتُ سائراً في شارع لا أعرفه. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك. ولم يكن بالإمكان فهم ذلك إلا على أنه حالة من المشي نائماً. ليس ثمة سوابق عائلية، ولم تتكرر كذلك حتى اليوم، ولكنه ما زال التفسير الوحيد الممكن. أول ما فاجأني، عندما استيقظت، هو واجهة صالون حلقة ذات زجاج مشع، حيث كانوا يخدمون ثلاثة أو أربعة زبائن، تحت ساعة جدار تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهو وقت لا يمكن فيه لطفل في مثل سني، أن يكون وحيداً في الشارع. ولارتسائي من الرعب، أخطأت في أسماء الأسرة التي كنا نزورها، وتذكرت بصورة غير واضحة، عنوان البيت. ولكن بعض العابرين تمكنا من ربط بعض الجيوب، وأوصلوني إلى العنوان الصحيح. وجدت الجيران في حالة هلع، يطرحون كل أنواع التكهات حول اختفائي. الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه عني هو أنني نهضت عن الكرسي أثناء تبادلهم الحديث. وظنوا أنني ذهبت إلى الحمام. لم يقنع تفسير السرقة (السير نائماً) أحداً، وبخاصة أبي الذي فهم الأمر دون مزيد من اللف والدوران، على أنه شبطنة غير موفقة من جانبي.

وقد استعدت اعتباري، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام في بيت آخر، حيث تركتني في إحدى الليالي بينما هو يحضر عشاء عمل. كانت الأسرة بكاملها، تتابع برنامج مسابقة أحاج شعبية في إذاعة أتلاتيكيو.

خلال أقل من شهرين، انتهينا من إقامة الصيدلية، وحصلنا على منزل للأسرة وأثنائه. الصيدلية كانت في ركن يرتاده الناس بكثرة، في قلب المركز التجاري، وعلى بعد أربع كوادرات فقط عن جادة بوليفار. أما المنزل، بالمقابل، فكان في شارع هامشي من الحي السفلي الوضيع والمرح. ولكن قسيمة الإيجار لم تكن تتفق مع ما هو عليه؛ وإنما مع ما يدعيه: منزل من الطراز القوطي مطلي بدوائر صفراء وحمراء، وفيه برجان حربيان.

في اليوم نفسه الذي سلموا إلينا فيه محل الصيدلية، علقتنا أرجوحتي نومتا، بحلقات من الحبال، ونمنا هناك على نار هادئة، وفي حساء من العرق. وعندما استلمنا المنزل اكتشفنا، أنه لا وجود فيه لحلقات من أجل تعليق أراجيح النوم. ولكننا فرشنا قرائشاً على الأرض، ونمنا على أحسن وجه ممكن، منذ أن حصلنا على قط مستعار لإخافة الفئران. وعندما حضرت أُمي مع بقية الفرقة، كان تجهيز المنزل لا يزال غير مكتمل. ولم تكن فيه بعد أدوات مطبخ ولا أشياء كثيرة أخرى من لوازم المعيشة.

كان البيت عادياً على الرغم من مزاعمه الفنية. ويكاد يكون غير كافٍ لنا؛ فهو مؤلف من صالمة، وغرفة طعام، وحجرتي نوم، وقناة صغير مبلط. وإذا ما دققنا في الأمر، فإنه لم يكن يستحق ثلث المبلغ الذي كنا ندفعه لاستجاره. ارتعبت أُمي عندما رأتها. ولكن زوجها طمأنها بالحلم بمستقبل مذهب، هكذا كانا على الدوام. كان من المستحيل تصور كائنين شديدي الاختلاف، يتفاهمان بتلك الصورة الجيدة، ويتحaban إلى ذلك الحد.

ويدت الأحجية في تلك الليلة، غير قابلة للحل: "ما هو الحيوان الذي يتبدل اسمه عندما ينقلب؟". وبمعجزة غريبة، كنت قد قرأت الجواب في مساء ذلك اليوم بالذات، في الطبعة الأخيرة من تقويم بريستول، وبدا لي دعابة رديئة: الحيوان الوحيد الذي يتبدل اسمه هو الجمل (escarabajo) لأنه عندما ينقلب يصير جعلاً مقلوباً (escararriba)^(١). قلت ذلك سراً لإحدى طفلات البيت، فسارعت الكبرى إلى الهاتف وقدمت الجواب لإذاعة أتلاتيكو. وكسبت الجائزة الأولى التي تكفي لدفع إيجار البيت عن ثلاثة شهور؛ مئة بيزو. امتلأ الصالون بالمجيران الصاخبين الذين استمعوا إلى البرنامج وهرعوا لتهنئة الراحين. ولكن ما كان يهم الأسرة، أكثر من المال، هو الفوز بحد ذاته في مسابقة إذاعة كانت عنوان مرحلة برمتها على ساحل الكاريبي. لم يتذكر أحد أنني موجود هناك. وعندما رجع أبي لبيأخذني، انضم إلى البهجة الأسرية، وشرب نخب الفوز. ولكن أحداً لم يخبره من هو الراح الحقيقي.

فتح آخر من فتوحات تلك الحقبة هو الإذن الذي منحني أبي إياه للذهاب وحيداً، إلى عرض يوم الأحد الصباحي في سينما مسرح كولومبيا. وكانوا يقدمون، لأول مرة، أفلاماً متسلسلة، حلقة منها كل يوم أحد. تسبب توتراً لا يتيح لي لحظة واحدة من الراحة خلال الأسبوع. كان فيلم "غزو مونغول" هو الملحمة الفضائية الأولى التي تدور بين الكواكب. ولم أستطع أن أحل محلها، إلا بعد سنوات طويلة، فيلم "أرديسة الفضاء" لستانلي كوبريك. ومع ذلك، فقد استطاعت السينما الأرجنتينية، بأفلام كارلوس غارديل وليبيرتاد لاماركي، هزيمة الجميع في نهاية المطاف.

(١) لعبة لفظية محض تعتمد على اللاحقة bajzo (أسفل)، وأولاً واللاحقة arriba (أعلى) أي الكلمة العنانية -

لقد أثر في مظهر أمي. كانت حبيلى للمرة السابعة. وبدا لي أن كاحليها وجفونها منتفخة مثل خصرها. كان عمرها آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ذاك هو البيت الخامس الذي توّضه. وقد أذهلني سوء حالتها المعنوية التي تفاقمت منذ الليلة الأولى؛ إذ كانت مرعوبة من فكرة اخترعتها هي نفسها، دون أي أساس تستند إليه، بأن المرأة المجهولة قد عاشت هناك، قبل أن تُقتل طعناً. كانت الجريمة قد اقترفت قبل سبع سنوات، خلال وجود أبي في المدينة، في المرة السابقة. وكانت الجريمة مروّعة إلى حد أن أمي قررت عدم العودة للعيش في بارانكيّا. وربما كانت قد نسيت ذلك، عندما رجعت في تلك المرة. ولكن الرعب عاد إليها فجأة منذ الليلة الأولى في البيت المكفهر الذي لمست فيه على الفور، شيئاً من أجواء قلعة دراكولا.

كان الحير الأول عن المرأة المجهولة، هو العثور على جسد عار، يصعب التعرف عليه، بسبب حالة النسخ التي صار إليها. وأمكن بصعوبة، تحديد أنها امرأة في الثلاثين، ذات شعر أسود وملامح جذابة. وساد الاعتقاد بأنها قد دُفنت حية لأن يدها اليسرى كانت فوق عينيها، في حركة رعب. والذراع اليمنى مرفوعة فوق الرأس. والإشارة الوحيدة إلى هويتها، هي شريطتان زرقاوان ومشط زينة صغير مذهب. وبين الفرضيات الكثيرة التي شاعت، بدت أكثرها احتمالاً، فرضية كونها راقصة فرنسية ذات حياة مرحة اختفت، منذ تاريخ الجريمة المحتمل.

كانت بارانكيّا تتمتع بالشهرة العادلة، بأنها أكثر مدن البلاد أمناً وحسن ضيافة، إنفاً مع نكبة وقوع جريمة مروّعة، في كل سنة. ومع ذلك، لم تكن هناك جريمة سابقة هزت الرأي العام إلى ذلك الحد، ولكل ذلك

الوقت، مثل جريمة المرأة المطعونة التي بلا اسم. كانت جريدة "لابرنسا"، إحدى أهم صحف البلاد في ذلك الحين، تعتبر الرائدة في نشر القصص المصورة أيام الأحاد - بوك روجرز، وطرزان ربيب القروود -، ولكنها فرضت نفسها، منذ سنواتها الأولى، كأحدى الصحف الرائدة الكبرى في التحقيقات الحماة. وقد استبقت المدينة في حالة من الترقب القلق، طوال عدة شهور بعناوينها الكبيرة واكتشافاتها المفاجئة التي أشاعت، بحق أو دون وجه حق، شهرة كاتب تحقيقات منسي.

كانت السلطات تحاول قمع معلومات الجريدة، بذريعة أنها تبليغ التحريات. ولكن الأمر انتهى بالقراء، إلى تصديق السلطات، أقل من تصديقتهم اكتشافات لابرنسا. وقد أبقّتهم المواجهة، وروحهم معلقة بخطط، طوال عدة أيام. وأجبرت المحققين في مناسبة واحدة على الأقل، على تفسير مسار التحقيق. كانت صورة المرأة المجهولة قد ترسّخت آنذاك، في المخيلة الشعبية، حتى إنهم كانوا يحكمون إغلاق الأبواب بالسلاسل في معظم البيوت، ويحتفظون بحراسات ليلية خاصة، تحسباً من محاولة القاتل الطليق، مواصلة برنامج جرائمه المريعة، واتخذت تدابير منع الفتيات المراهقات من الخروج وحدهن، من بيوتهن، بعد الساعة السادسة مساءً.

ومع ذلك، فإن الحقيقة لم يكتشفها أحد، وإنما كشف عنها بعد بعض الوقت، مرتكب الجريمة نفسه، إفرانين دوتكان. الذي اعترف بأنه قتل زوجته، أنخيليا هويو، في الوقت نفسه الذي قدره الطب الشرعي لوفاة المرأة المجهولة. وأنه دفنها في المكان الذي عُثر فيه على الجثة المطعونة. وتعرف الأقارب على الشريطتين الزرقاوين، وعلى مشط الزينة

- ماذا تريد أن تأكل؟

فأطلق الرجل زمجرة:

- خرا..

فرفعت الزوجة، عندئذ، الطبق وقالت بعذوبتها القدسية:

- ها هو ذا أمامك.

وتقول القصة إن الزوج اقتنع عندئذ بقداسة زوجته، وتحول إلى

الإيمان بدين يسوع.

كانت صيدلية بارانكيًا الجديدة إخفاقاً مدوياً، خففت منه بعض الشيء. سرعة إدراك أبي لذلك. فبعد عدة شهور من تدبر الأمر ببيع عقاقير متفرقة، وفتح ثغرتين من أجل سدّ واحدة، انكشف أكثر تخبطاً مما كان يبدو عليه، حتى ذلك الحين. وفي أحد الأيام، حزم أمتعته ومضى للبحث عن الثروات في قرى لا تخطر على البال، في وادي نهر مجدليتا. وقبل أن يغادر، أخذني إلى شركائه وأصدقائه وأعلمهم بشي، من التفخيم بأنني سأكون بديلاً منه في غيابهم. لم أدر قط، إذا ما كان يقول ذلك هزلاً، مثلما كان يروقه أن يقوله حتى في أشد المناسبات حرجاً، أم أنه قاله، بجد مثلما كان يمتعه أن يقوله في المناسبات المبتذلة. وأعتقد أن كل واحد كان يفهمه على طريقته. ذلك أنتي كنت، وأنا في الثانية عشرة، رخواً وشاحباً لا أكاد أنفع إلا قلبلاً، في الرسم والغناء. وقد قالت المرأة التي نستدين منها الحليب لأمي، ذات مرة أمام الجميع، وأمامي أنا، دون أي ذرة من سوء النية:

- اغزيريني لما أقوله يا سيده، ولكنني أظن أن هذا الطفل لن يكبر.

الرعب الذي أحسستُ به جعلني أنتظر الموت المفاجئ، لوقت طويل.

الذي كانت تضعه أنخيلا، عندما خرجت من البيت مع زوجها، يوم الخامس من نيسان، في رحلة مزعومة إلى كالامار. وأغلقت القضية، دون مزيد من الشكوك بمصادفة أخيرة يصعب تصورها، وتبدو كما لو أنها أخرجت من كم مؤلف روايات خيالي: فقد كان لأنخيلا هويو شقيقة ترم تشبهها تماماً، مما أتاح التعرف عليها دون أدنى شك.

انهارت أسطورة المرأة المجهولة بتحولها إلى جريمة عاطفية عادية. ولكن سرّ الشقيقة الشبيهة، ظل طافياً في البيوت، لأن التفكير بلغ حدّ اعتبارها المرأة المجهولة نفسها، معادة إلى الحياة، بفتون السحر. كانت الأبواب تغلق بمزايح ومستاريس من الأثاث، للحيلولة دون أن يدخل منها، ليلاً، القاتل الهارب من السجن بأساليب السحر. وانتشرت في بيوت الأغنياء، موضة اقتناء كلاب الصيد المدربة، ضد القتل القادرين على اختراق الجدران. والواقع أن أمي لم تستطع تجاوز الحوف، إلى أن أقتعها الجيران بأن بيتنا في المحي السفلي، لم يكن قد شيد في أزمنة المرأة المجهولة.

في العاشر من شهر تموز ١٩٣٩، أنجبت أمي طفلة لها برونييل هندية جميل. وقد عمدوها باسم ريتا، بسبب الورع غير المحدود الذي يشعرون به في البيت، تجاه القديسة ريتا دي كاسيا. وهو ورع يستند، إضافة إلى أمور أخرى، إلى صبرها في تحمل سوء طباع زوجها المتهتك الضال. وكانت أمي تروي لنا أنه رجع في إحدى الليالي إلى بيته، وقد ذهبت الحمرة بعقله، بعد برهة من تبريز دجاجة على مائدة غرفة الطعام. وقد تمكنت الزوجة، حين لم تجد متسعاً من الوقت، لتنظيف الشرشف الملوث، من تغطيته بطبق كيلا يراه زوجها، وسارعت إلى إلهائه بالسؤال المعهود:

وراودني في تلك الفترة، أول إحساس بأني راشد، عندما لاحظت أن أختي بدؤوا يعاملونني، كما لو كنتُ عمّاً لهم.

لم أستطع قط، التخلص من الحجل. فكلما اضطرت إلى أن أتصدي، يلحمني الحى، للمهمة التي أوصاني بها أبي الهائم على وجهه، كنت أدرك أن الحجل هو شبح لا يمكن هزيمته. فني كل مرة أضطر فيها إلى طلب قرض، حتى من تلك المتفق عليها مسبقاً، في متاجر الأصدقاء، كنتُ أتأخر متجولاً لساعات حول البيت، كاهباً رغبتني في الهكاه، وتقلبات بطني، إلى أن أتجيراً أخيراً، وأنا أضغط فكي بقوة لا يخرج معها صوتي. ولم يخل الأمر من صاحب دكان دون قلب، ينتهي به الحال إلى إرباكي: "أيها الطفل الرعيد، لا يمكنك التكلم وفك مطبق". وأكثر من مرة، رجعت إلى البيت بيدين خاويتين، وباعتذار كنتُ اخترعه أنا نفسي. ولكنني لم أعرف تعاسة قط، أكبر من تلك التي أحسست بها، عندما أردتُ التكلم بالهاتف أول مرة، من الدكان الذي على الناصية. ساعدني صاحب الدكان في التعامل مع عاملة المقسم، إذ لم تكن قد وُجدت الخدمة الآلية بعد. وأحسست بهيبة أنفاس الموت، عندما قدم لي السماعه. كنت أنتظر سماع صوت خدوم. لكن ما سمعته هو نباح شخص يتكلم في العماء، في الوقت نفسه الذي أتكلم فيه. فكرت في أن محدثي لا يفهمني كذلك، فرفعت صوتي إلى حيث أستطيع. وعندئذ رفع الآخر أيضاً صوته غاضباً:

- ومن أجل أي لعنة، تصرخ بي أنت!

أغلقت الهاتف مرعوباً. ولا بد لي من الاعتراف بأنه، على الرغم من حمى اتصالاتي، إلا أنني ما زلت أضطر إلى كبح خوفاي من الهاتف

وكثيراً ما كنت أحلم، وأنا أنظر إلى المرآة، بأنني لا أرى نفسي وإنما عجباً ولیداً. وقد شخص طبيب المدرسة إصابتي باليرقان، والتهاب اللوزتين وأسوداد المرارة بسبب القراءات التعسفية غير الموجهة. لم أشأ أن أخفف من ذعر أحد. بل على العكس، كنتُ أبالغ في شرطي كعموق لأتخلص من الواجبات. ومع ذلك، فقد قفز أبي عن العلم إلى الخيال، ونادى بي قبل أن يذهب، مسؤولاً عن البيت والأمره. في أثناء غيابه:

- كما لو كنتُ أنا نفسي، موجوداً.

جمعتنا يوم سفره في الصالة، ووجه إلينا تعليقات وتوبيخات وقائية عما يمكن أن نسيء عمله في غيابه. ولكننا لم ندرك أنه إنما يتحایل، كيلا يبكي. وقدم لكل واحد منا، قطعة نقد من فئة الخمسة سنتافو. وهي ثروة صغيرة بالنسبة لأي طفل آنذاك. ووعدنا بأن يستبدلها لنا بقطعتين مائتين، إذا ما حافظنا عليها سليمة حتى عودته. وأخيراً توجه إلي بصوت إنجيلي:

- بين يديك أتركهم، وبين يديك سأجدهم.

مزقت قلبي رؤيته يخرج من البيت بطماق ركوب الحبل، وخُرج الأمتعة على كتفه. وكنت أول من استسلم للهكاه، عندما نظر إلينا آخر مرة، قبل أن ينعطف عند الناصية، ويودع ملوحاً بيده. عندئذ فقط، أدركت، وإلى الأبد، كم أحبه.

لم يكن صعباً، تنفيذ توصياته. كانت أمي قد بدأت الاعتياد على تلك العزلات المفاجئة والغامضة، وتصريفها على معضن، ولكن بسهولة كبيرة. وقد فرضت أعمال المطبخ وترتيب البيت، حتى على أصغرنا، المساعدة في المهمات المنزلية، وفعل الجميع ذلك على أحسن وجه.

والطائرة. ولست أدري إذا ما كان هذا الحرف يأتي من تلك الأيام. كيف يمكنني التوصل إلى عمل شيء؟ ولحسن الحظ، كثيراً ما كانت أُمِّي تردد الجواب: "لا بد من المعاناة من أجل تقديم الخدمات".

أول خبر من أبي وصلنا بعد أسبوعين، في رسالة مكرسة لإلهائنا أكثر منها لإخبارنا أي شيء. هكذا فهمتها أُمِّي. وفي ذلك اليوم، غسلت الأطباق، وهي تغني لترفع من معنوياتنا. لقد كانت مختلفة في غياب أبي؛ كانت تتطابق مع بناتها، وكأنها أخت كبرى لهن. وتندمج معهن على أحسن حال، حتى تكون أفضلهن في الألعاب الطفولية، بما في ذلك اللعب بالدمى. ويصل بها الأمر إلى فقدان أعصابها والنشاجر معهن، وكأنها نداء لهن، ويمثل مضمون الرسالة الأولى نفسها، وصلت رسالتان أخريان من أبي، تعرضان مشاريع واعدة، أتاحت لنا النوم، بصورة أفضل.

كانت هناك مشكلة خطيرة تشتغل في السرعة التي تضيق بها ثيابنا علينا. لم يكن هناك من يرت ملابس لويس إريكسي، لأنه كان يرجع من الشارع متهاكاً، وثيابه ممزقة. ولم نفهم السبب قط. كانت أُمِّي تقول إنه كمن يمشي بين أسلاك شائكة. أما الأخوات - وهن بين السادسة والتاسعة من أعمارهن - فكن يتدبرن أمر ملابس إحداهن بملابس أخرى. كيفما استطعن وبمجزات البراعة. وقد اعتقدت على الدوام، بأن حاجات تلك الأيام الماسية، حوكنهن راشدات، منذ وقت مبكر. كانت عابداً مدبرة، وتجاوزت مارجوت قدراً كبيراً من حيائها، وبدت حائبة وخدمية تجاه الوليدة الجديدة. وكنت أنا في وضع أصعب من الجميع، ليس لأنه على القيام بمساع متميزة وحسب، وإنما لأن أُمِّي،

محاطة بحماس الجميع، جازفت في تقليص النفقات المنزلية، لتسجيلي في مدرسة كارتاخينا دي إندياس، على بعد نحو عشر كوادرات، مشياً من بيتنا.

وبناء على الاستدعاء، توجهنا، نحن العشرين متقدماً، في الساعة الثامنة، من أجل مسابقة القبول. لم يكن فحصاً كتابياً لحسن الخط، وإنما كان هناك ثلاثة معلمين يستدعوننا، وفق تسلسل تسجيلنا في الأسبوع السابق، ويجرون لنا اختباراً موجزاً بالاستناد إلى وثائق دراستنا السابقة. وكنت الوحيد الذي لا يملك تلك الوثائق، لأن ضيق الوقت لم يُتَحَ طلبها من مدرسة مونتسوري، ومن المدرسة الابتدائية في آراكاتاكا. وكانت أُمِّي تفكر في أنني لن أقبل من دون الوثائق. ولكنني قررت التظاهر بالبلاهة. أخرجني أحد المعلمين من الصف، عندما اعترفت له بأنني لا أملك الوثائق. ولكن معلماً آخر تولى مسؤولية تقرير مصري، وأخذني إلى مكتبه، ليجري لي الفحص، دون مطلب مسبق. سألتني ما هي كمية الغرويسا^(١)، وما هو عدد سنوات اللوسترو^(٢) والألفية. وطلب مني أن أذكر عواصم المحافظات الإدارية، وأنهار البلاد الرئيسية والبلدان التي تمجدها. بدا لي كل ذلك روتينياً. إلى أن سألتني ما هي الكتب التي قرأتها. ولفت انتباهه أنني ذكرت كتباً كثيرة وشديدة التنوع بالنسبة لسنتي، وبأنني قرأت "ألف ليلة وليلة"، في طبعة للكبار لم تحذف منها بعض الفقرات المرحجة التي تستثير حفيظة الأب أنغاريتا. وقد فوجئت حين علمت أنه كتاب مهم، لأنني كنت أفكر على الدوام بأن

(١) الغرويسا gruesa اثنتا عشرة ذبذبة .

(٢) لوسترو lustro خمس سنوات .

الكبار الجديدين لا يمكنهم أن يصدقوا بأن هناك جنأ يخرجون من القوارير، أو أن الأبواب تُفتح بتعويذة من الكلمات، المتقدمون الذين سبقوني لم يتأخر كل واحد منهم أكثر من ربع ساعة، المقبولون منهم والمرفوضون على السواء.. بينما بقيت أنا أكثر من نصف ساعة، أتحدث مع المعلم، حول كل أنواع الموضوعات. تفحصنا معاً خزانة كتب متراصة، وراء متضدة المكتب.. وبينها كان يتميز، بعدد نسخه وألقه، كتابٌ "كنز الشباب" الذي كنتُ قد سمعت عنه. ولكن المعلم أقتعني بأن الكتاب الأكثر فائدة لسني هو "الكيخوته". لم يجده في المكتبة، ولكنه وعدني بأن يعيرني إياه فيما بعد. وبعد نصف ساعة من التعليقات السريعة، حول السندباد البحري أو روبنسون كروزو. رافقتني حتى المخرج، دون أن يقول لي إذا ما كنتُ قد قبلت. فكرتُ أن لا، طبعاً، ولكنه ودعني عند الشرفة بالشدُّ على يدي والقول لي، إلى اللقاء، في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، من أجل تسجيلي في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

لقد كان المدير العام، واسمه خوان فينتورا كامالينس، وأنا أتذكره كصديق طفولة، دون أي أثر من الصورة المرعبة التي كانت شائعة عن معلمي تلك الحقبة. فضيلته التي لا تنسى، كانت في معاملتنا جميعاً كراشدين متساوين، بالرغم من أنني ما زلت أشعر بأنه كان يولياني اهتماماً خاصاً. فقد اعتاد أن يوجد لي، خلال الدروس، أسئلة أكثر من الآخرين، ويساعدني لتكون إجاباتي صائبة وسيطة. وكان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة المدرسية، لأقرأها في البيت. وقد كان اثنان من تلك الكتب، "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتكريستو"، هما المخدر

السعيد في سنوات الأعاجيب تلك. كنت أتلهمهما حرفاً حرفاً، متلهفاً لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي. ومتلهفاً في الوقت نفسه إلى عدم معرفة ذلك، حتى لا أكسر السحر. وقد تعلمت منهما، مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة، ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن نقرأ فقط الكتب التي تجبرنا على أن نعيد قراءتها.

أما قراءتي لرواية "دون كيخوته" بالمقابل، فكنت أراها على الدوام جدية بفصل منفرد، لأنها لم تسبب لي التأثير الذي توقعه المعلم كامالينس. فقد كانت تُصجرتني خطب الفارس الجوال المسهية. ولا أشعر بأي ظرافة في حساقتات تابعه. حتى إنني صرت أفكر في أنه ليس الكتاب نفسه الذي يجري الحديث بكثرة عنه. ومع ذلك، فقد قلت لنفسي إن معلماً حكيماً مثل معلمتنا، لا يمكنه أن يخطئ. وبذلت جهداً لا يتلعه ملعة بعد أخرى، كما لو كان شراباً مُسهلاً. ثم بذلت محاولات أخرى في المرحلة الثانوية، حين كان علي أن أدرسه كواجب إجباري، ومللته دون خلاص، إلى أن نصحتني صديق بأن أضعه على رف المرحاض، وأحاول قراءته بينما أنا أنجز واجباتي الجسدية اليومية. وبهذه الطريقة فقط اكتشفته، كتفجر، واستمتعت به سوياً ومقلوباً، إلى أن صرت أردد من الذاكرة، مقاطع مطولة كاملة منه.

لقد خلفت لي تلك المدرسة التي قرأها لي القدر، ذكريات تاريخية كذلك، عن مدينة وحقة لا سبيل إلى استعادتهما. كانت المدرسة هي البناء الوحيد على قمة رابية خضراء، يظهر من شرقها أقصى طرفي العالم. فإلى يسارها هي البرادو، الأكثر تميزاً وغلاء، والذي بدأ، لي منذ الوهلة الأولى، نسخة مطابقة لقرن الدجاج ذي السور المكهرب الذي كان

يقطنه موظفو اليونايته فروث كومباني. لم يكن ذلك مصادفة؛ فقد بنته شركة مصصمي مدن أمريكيين، وفق ذوقهم وأنظمتهم وأسعارهم المستوردة. وكان الحي نقطة جذب سياحي محتمة لبقية أرجاء البلاد. وهناك إلى يمينه بالمقابل، الضاحية المعفرة لدينا السفلى بشوارعه الترابية المنتهية، ويبرته التي من قصب وطبن، وسقوف من سعف النخيل، تذكّرنا طوال الوقت، أننا لسنا أكثر من بشر قانين من لحم وعظم. ولحسن الحظ أنه كان يظهر لنا من شرفة المدرسة، مشهد بانوراخي للمستقبل: دلنا نهر مجدليننا التاريخي، وهي من أكبر دلتات العالم، والبحر الرمادي عند بوكاس دي ثينينا.

في ٢٨ أيار ١٩٣٥ رأينا ناقلة النفط تازالبت، التي ترفع العلم الكندي، تدخل وهي تطلق جوار بهجة بين سدي الصخور، لترسو في مرفأ المدينة، وسط صخب الموسيقى والألعاب النارية، يقودها القبطان د.ف.ماكونالد. وهكذا تحققت مآثرة قمدنية أعد لها خلال سنوات طويلة، لتحويل مدينة بارانكيّا إلى الميناء البحري والنهري الوحيد في البلاد.

وبعد وقت قصير من ذلك، حرت طائرة يقودها النقيب نيكولاس ريبس مانوتاس، وهي تكاد تلامس أسطح البيوت، بحثاً عن أرض خلاء من أجل هبوط اضطراري، ليس لينجو بجلده وحسب وإنما لينقذ كذلك، جلود المسيحيين الذين سيصطدم بهم في سقوطه. لقد كان أحد رواد الطيران الكولومبي. وقد أهديت إليه تلك الطائرة الهدائية في المكسيك، وقادها، وحيداً، من أحد طرفي أميركا الوسطى إلى طرفها الآخر. وكان قد أعد له حشد متجمع في مطار بارانكيّا، حفل ترحيب انتصاري، مع مناديل ورابات وفرقة موسيقية. ولكن ريبس مانوتاس أراد القيام

بجولتي نحية أخربين فوق المدينة، فأصيب محرك طائرته بعطل. وتمكن من السيطرة على الطائرة، بمهارة إعجازية، لكي يهبط على شرفة بناء في المركز التجاري. ولكن الطائرة تشابكت مع أسلاك الكهرباء، وبقيت معلقة بأحد الأعمدة، لحقنا بها أنا وأخي لويس إنريكي، بين الحشود الصاخبة، إلى حيث سمحت به أنفاسنا. ولكننا تمكنا من رؤية الطيار فقط، بعد أن أخرجوه بمشقة، إنما سليماً معافى، وهو يحيي الناس بحماس بطل.

وقد شهدت المدينة كذلك، أول محطة بث إذاعية، وقناة مائية حديثة تحولت إلى مكان جذب سياحي وتربوي للتعريف بعملية تنقية المياه المستجدة، وفريق إطفاء كانت صفارته وأجراسه عيداً للصغار والكبار، مذ بُدئ بسماعها، كما دخلت هناك أولى السيارات المكشوفة التي كانت تنطلق في الشوارع بسرعة جنونية، ومحول الطرق المرصوفة حديثاً، إلى عجة. وقد استلهمت وكالة "الإنصاف" لدفن الموتى، سخرية الموت، وعلقت إعلاناً هائلاً عند مخرج المدينة، تقول فيه: "لا تسرع، فنحن في انتظارك".

وفي الليل، عندما لا يعود هناك ملاء سوى البيت، تجمعنا أمي لتقرأ لنا رسائل الوالد. وكان معظمها أصحالاً بارعة في الإلهام والتخلص. ولكن إحداها بدت واضحة في حديثها عن الحماس الذي يوقظه الطب التجانسي بين كبار السن، في أسفل نهر مجدليننا. إذ يقول أبي: "توجد هنا حالات تبدو إعجازية". لقد كان يؤكد أحياناً لدينا الانطباع بأنه سيكشف لنا عما قريب عن أمر عظيم. ولكن ما يتلو ذلك هو شهر آخر من الصمت. في أسبوع الألام المقدس، عندما أصيب اثنان

من أختي الصغار بعدوى حصة وبيلة، لم تجد طريقة للاتصال به لأن أمهر الأدلاء ما كانوا يعرفون شيئاً عن أثره.

في تلك الشهور، فهِمْتُ في الحياة الواقعية، معنى واحدة من الكلمات التي كان يكثر جفاي من استخدامها: الفقر. لقد كنت أفسرُها على أنها الوضع الذي كنا نعيشه في بيتنا، منذ أن بدأت شركة الموز بالنفكك، كمانا يشكوان منه طوال الوقت. ولم تعد هناك وردبتان أو ثلاث وردبات على المائدة، مثلما كانت الحال في السابق، وإنما وردية وحيدة. من أجل عدم التخلي عن طقس الغداء المقدس. وقد انتهى بهما الأمر، عندما لم تعد لديهما موارد للإتفاق عليها، إلى شراء الطعام جاهزاً من مطاعم السوق، وكان جيداً وأرخص بكثير، مع المفاجأة بأننا نحن الأطفال، أحببناهُ أكثر. ولكن ذلك كله انتهى إلى الأبد، عندما علمت الجدة مينا بأن بعض المدعوين المشاهير قرروا عدم المجيء إلى البيت، لأن الأكل لم يعد لائقاً، كما في السابق.

فقر والدي في بارانكيًا بالمقابل، كان منهكاً. لكنه أتاح لي لحسن الحظ، إقامة علاقة استثنائية مع أمي. كنت أشعر نحوها، إضافة إلى الحب البتوي المفهوم، بإعجاب مذهل بطبيعتها، كلبوة صامتة، وإنما ضارية في مواجهة المصاعب. وبِعلاقتها بالرب، التي لا تشبه الخضوع وإنما العراك. وهما ميزتان رسختا لدينا. في الحياة، ثقة بالنفس لم نخنهما مطلقاً. ففي أسوأ اللحظات، كانت تضحك من أساليبها القدرية. كما في المرة التي اشترت فيها ركبة جاموس، وراحت تغلبها يوماً بعد آخر، من أجل المرقق البرومي الذي راح دسسه يتناقص يوماً بعد يوم، إلى أن تحول إلى مجرد ماء لا يمكن أن يمنح المزيد. وفي ليلة عاصفة مرعية،

أنفقت كل شحم الخنزير المخصص للشهر، لتصنع منه سراجات قماشية، لأن الضوء انقطع حتى الصباح. وكانت هي نفسها، من أدخلت في صغارها الخوف من الظلام، كيلا يتحركوا من فراشهم.

كان أبواي يزوران، في أول الأمر، الأسر الصديقة التي هاجرت من آراكاتاكا، بعد أزمة الموز وتردي نظام الأمن العام. وكانت زيارات دارة، يدورون فيها على الدوام، حول موضوعات النكبة التي حلت بالقرية. ولكن عندما اشتد علينا الفقر في بارانكيًا، لم نعد نشكو في البيوت الغربية. وأوجزت أمي تكتمها في جملة واحدة: "الفقر يظهر في العيون".

حتى الخامسة من عمري، كان الموت يبدو لي نهاية طبيعية تحدث للآخرين. ولم أكن أرى في بهجة الفردوس السماوي وعذابات الجحيم، إلا مجرد دروس نحفظها عن ظهر قلب، من كتاب الأب أستيتي في الترسية الدينية. ولم تكن لي أي علاقة بها؛ إلى أن لاحظت بطرف عيني، في أثناء السهر على ميت، أن القمل كان يهرب من شعر الجثة، ويمشي دون وجهة محددة، على الوسائد. وما أقلقني منذ ذلك الحين، لبس الخوف من الموت، وإنما الخجل من أن يهرب مني القمل أيضاً، على مرأى من الأقارب الذين سيسهرون على جثتي. ومع ذلك، لم أنتبه، وأنا في المدرسة الابتدائية، في بارانكيًا، إلى أنني كنت مصاباً، بالقمل إلى أن نقلت العدوى إلى الأسرة كلها. وأظهرت أمي أنذاك دليلاً آخر على صلاحية طبيعتها. فقد عمقت أبنائها واحداً واحداً، بمبيد صراصير، في عملية تنظيف معمقة عمدتها باسم ذي وقع مهيب: الشرطة. ولكن السيئ في الأمر، هو أننا ما إن تطهرنا حتى بدأنا تصاب من جديد، لأن

العدوى انتقلت إليّ مجدداً في المدرسة. عندئذ قررت أمي قطع الداء من جذوره، فأجبرتني على قص شعري من أصوله. كان ظهوري في المدرسة يوم الاثنين، وأنا أضع قبعة قماشية، عملاً بطولياً. ولكنني تجاوزت، بشرف، سخريات زملائي. وتوجت السنة النهائية بأعلى التقديرات والدرجات. لم أعد للقاء المعلم كاساليناس قط، ولكن بقيتُ مديناً له بالامتحان الأبدى.

وجد لي صديق لوالدي، لم نتعرف عليه قط، عملاً في مطبعة قريبة من البيت. وكان الأجر أقل بكثير من لا شيء، وكانت فكرة تعلم المهنة هي دافعي الوحيد. ومع ذلك، لم تكن تتوفر لي لحظة واحدة لرؤية المطبعة، لأن عملي كان يتلخص في ترتيب الملازم المطبوعة، لكي يجلدوها في قسم آخر. وكان عزائي هو أن أمي سمحت لي بأن أشتري من أجري، ملحق صحيفة لابرنتسا ليوم الأحد. وكان يتضمن قصص رسوم متسلسلة عن طرزان، وبوك ووجرز - واسمه عندنا روخيليو الغازي - وعن "مَت أند جف" - وكانا يسميان بينيتو وإنياس -. وقد تعلمتُ، في استراحة أيام الأحد، رسمهم من الذاكرة؛ وكنت أستكمل حلقة الأسبوع، وأضع لها نهاية على هواي. فتوصلت بذلك، إلى إثارة حماس بعض الكبار في الحي، بل واستطعت أن أبيعها مقابل سنتين اثنتين.

كان العمل منهكاً ومجديداً. وكانت تقارير رؤسائي، مهما بذلتُ من جهد، تنهمني بالتقصير وضعف الرغبة في العمل. وقد نقلوني، تقديراً لأمرتي دون شك، من روتين الورشة، إلى موزع نشرات دعائية في الشوارع، لشراب سعال يوصى به أشهر فناني السينما. بدا لي ذلك

جيداً، لأن النشرات جميلة، وعلبها صور المثلين بالألوان، مطبوعة على ورق مصقول. ومع ذلك، فقد أدركت منذ البداية، أن توزيعها ليس بالأمر السهل، مثلما ظننت. فالتناس ينظرون إليها بارتباب، لأنها توزع مجاناً؛ ويجفل معظمهم، كما لو أنها مكهربية، كيلا يتلقوها. في الأيام الأولى رجعت إلى المشغل ومعني النشرات المتبقية ليستكملوها لي. إلى أن التقيت بعض زملاء الدراسة في آراكاتاكّا، وقد استشاطت أمهم غضباً، حين رأتنني في تلك المهنة التي بدت لها عمل متسولين. عتفتني بما يشبه الصراخ، لأنني أخرج إلى الشارع بصندل قماشي اشتريته لي أمي كيلا، أستهلك هذا المناسبات الرسمي. وقالت لي:

- قل للويسا سانتياغا، أن تفكر في ما يمكن أن يقوله أبواها إذا ما رأيا حفيدهما المفضل، يوزع دعايات مسوليين في السوق.

لم أنقل الرسالة، لأوفر على أمي الغم. ولكنني بكيته على وسادتي من الغضب ومن الحجل ليالي عديدة. وكانت نهاية تلك الدراما أنني لم أعد أوزع النشرات، وإنما صرت ألقى بها في مجارير السوق دون أن ألاحظ أن مياها راكدة، والورق المصقول يبقى طافياً على السطح، إلى أن يشكل قرشة بديعة الألوان، تتحول إلى مشهد فريد، من فوق الجسر.

لا بد أن أمي تلقت رسالة من موتاها في حلم ملهم، لأنها أخرجتني، قبل انقضاء شهرين من المطبعة دون تفسيرات. فعارضتُ ذلك كيلا أفقد عدد يوم الأحد من جريدة لابرنتسا التي كنا نطلقها في الأسرة مثل مباركة من السماء. ولكن أمي واصلت شراءها لنا، ولو اضطرها ذلك إلى أن تقتطع حبة بطاطا من الحساء.

وسيلة إنقاذ أخرى هي مبلغ الفرج الذي كان يرسله إلينا الخال خوانيتو، في أشد الشهور قسوة. كان الخال آنذاك لا يزال يعيش في

سانتا مارتا، على دخله الضئيل كعبدك محلف، وقد فرض على نفسه واجب إرسال رسالة لنا كل أسبوع، ومعها وقتان نقديتان من فئة البيزو الواحد. وكان قبطان المركب النهري أوروبا، وهو صديق قديم للأسرة، بسلمني الرسالة في الساعة السابعة صباحاً، فأعود إلى البيت بمشتريات أساسية تكفي عدة أيام.

وفي أحد أيام الأربعاء، لم أستطع القيام بالمهمة، فأولكتها أمي إلى لويس إتركي الذي لم يقاوم إغراء محاولة مضاعفة البيزوين في آلة العملات في حانة صينيين. لم يستطع اتخاذ قرار التوقف عندما خسر الفيشتين الأوليين، وواصل محاولة استردادهما، إلى أن خسر حتى قطعة النقد ما قيل الأخيرة. وقد روى لي بعد أن كبر: "لقد بلغ خوفي حداً قررت معه عدم العودة إلى البيت أبداً". فقد كان يعرف جيداً أن البيزوين يكتبان للمشتريات الأساسية لأسبوع. ولحسن الحظ أن شيئاً في الآلة مع الفيشة الأخيرة جعل أحشائها تهتز هزة حديدية، وتقيأت على أثرها، في دقائق متواصلة، الفيشات الكاملة للبيزوين الضائعين. وقد أخبرني لويس إتركي: "عندئذ ألهمني الشيطان، ونجرات على المجازفة بفيشة أخرى". كسب. وجازف بأخرى وكسب أيضاً، وأخرى وأخرى وأخرى، وكسب. وقد روى لي: "كان الرعب عندئذ أكبر مما أحسست به حين خسرت. فتراخت أحشائي، ولكنني واصلت اللعب" وأخيراً كسب ضعف البيزوين الأصليين في قطع نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يتجرأ على استبدالها بنقود ورقية من الصندوق، خوفاً من أن يورطه الصيني في قصة صينية^(١). انتفخت بها جيوبه كثيراً، حتى إنه سارع، قبل أن يعيد إلى أمي بيزوي الخال خوانيتو، في قطع نقدية

(١) القصة الصينية cuento chino هي كل حديث غير معقول وفيه كثير من الكذب والدوران.

من فئة الخمسة سنتافو، إلى دفن البيزوات الأربعة التي كسبها، في أقصى القنار، حيث اعتاد أن يخفي كل سنتافو يجده في غير مكانه. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً، دون أن يعترف لأحد بالسر، إلا بعد سنوات طويلة. وكان ما يزال يتعذب، لأنه انقاد للمجازفة بقطعة الخمسة سنتافو الأخيرة في دكان الصيني.

علاقته بالنقود كانت شخصية جداً. في إحدى المرات، فاجأته أمي بنيش في محفظتها التي تضع فيها نقود الشراء. وكان دفاعه عن نفسه فظيماً، ولكنه ذكي: النقود التي يأخذها أحدنا دون إذن من محفظة الأبوين، لا يمكن أن تعد سرقة، فهي نقود الجميع، التي ينكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما يفعله الأبناء. وقد بلغ بي الأمر، في الدفاع عن حجته، إلى حد الاعتراف بأنني، أنا نفسي، كنت قد سطوت على المخابئين المنزلية من أجل ضرورات ملحة. فقدت أمي عندئذ أعصابها، وقالت لي صارخة تقريباً: "لا تكونا على هذا القدر من الحماقة: أنت وأخوك لم تسرقا مني شيئاً. فأنا نفسي أترك النقود، لأنني أعرف أنكما ستأخذان منها، عندما تضطران إلى ذلك". وفي إحدى نوبات غضبها، سمعتها تغمغم بيأس، بأنه لا بد للرب من أن يبيع السرقة أحياناً، من أجل إطعام الأطفال.

لقد كان سحر لويس إتركي في شيطناته، مفيداً جداً في حل مشاكل مشتركة. ولكنه لم يحاول قط، أن يورطني في مقالبه. بل على العكس من ذلك، كان يتدبرها دوماً. بحيث لا يلحق بي أدنى قدر من الشبهة. وقد أرهف سلوكه ذلك، عاطفة حقيقية استمرت بيننا إلى الأبد. ولكنني لم أتج له بالمقابل، أن يعرف كم كنت أحسد جراته، وكم كنت

أتألم من الضرب المبرح الذي يتلقاه من أبي. لقد كان سلوكي مختلفاً جداً عن سلوكه. ولكنني كنتُ أتكلف جهداً كبيراً في إخفاء حسدي له. وكان بيت الأيوين في كاتاكا بالمقابل، يخيفني، حيث كانوا يأخذونني للثوم قيه، عندما يريدون إعطاني شربة طاردة للديدان أو زيت خروع فقط. حتى إنني كنت أكره قطع النقد من فئة العشرين سنتافو التي يدفعونها لي مقابل الشجاعة في تناولها.

أظن أن أمي بلغت ذروة اليأس، عندما أرسلتني محملاً برسالة إلى رجل مشهور بثرانه، وبأنه في الوقت نفسه، أوسع المحسنين إلى الناس سخاءً في المدينة. كانت الأخبار عن طيبة قلبه، تُنشر بتوسع لا يقل عن التوسع في نشر انتصاراته المالية. كتبت إليه أمي رسالة غم بلا مواربة، تطلب منه مساعدة مادية مستعجلة، ليس باسمها، لأنها قادرة على تحمل أي شيء، وإنما حباً بأبنائها. لا بد من أن يكون المرء قد تعرّف عليها لكي يدرك ما الذي تعنيه تلك الإهانة في حياتها. ولكن المناسبة كانت تتطلب ذلك. نيهتني إلى أن السر يجب أن يبقى بيننا نحن الاثنين، وهذا ما حدث، حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

طرقتُ بوابة البيت الذي فيه شبه بالكنيسة. وعلى الفور تقريباً فُتحت كوة في الباب، أطلت منها امرأة لا أتذكر منها سوى جليد عينيهما. تلقت الرسالة دون أن تفوه بكلمة واحدة، وأغلقت الكوة من جديد. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وانتظرتُ جالساً عند دعامة البوابة، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما قررت طرق الباب ثانية، طلباً للرد. فتحت المرأة نفسها من جديد، وفوجئت بالتعرف عليّ، وطلبت مني الانتظار لحظة. ثم جاءتني بالجواب بأن أعود يوم الأربعاء،

من الأسبوع التالي، في الساعة نفسها. وكان هذا ما فعلته ولكن الجواب الوحيد الذي تلقيته، هو أنه لا مجال لأي جواب قبل أسبوع. وكان عليّ أن أعود ثلاث مرات أخرى، وأن أتلقى دوماً، الجواب نفسه. إلى أن ردت عليّ امرأة أكثر جفاءً من السابقة، بتكليف من السيد، بأن ذلك البيت ليس بيت صدقات.

قمت بالتجوال في الشوارع المتهبة، محاولاً استجماع الشجاعة، لأثقل إلى أمي إجابة تخلصها من أوهامها. واجهتها في أوج الليل، لأخبرها بقلب مروجوع بأن المحسن الطيب قد توفي، منذ بضعة شهور. وكان أكثر ما ألمني هو صلاة السبحة التي رددتها أمي من أجل الراحة الأبدية لروحه.

بعد أربع أو خمس سنوات من ذلك، عندما سمعنا من المذبح، الخبر الحقيقي، بأن المحسن قد توفي في اليوم السابق. بغيت متسبباً بانتظار رد فعل أمي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أفهم مطلقاً كيف سمعت الخبر باهتمام متأثر، وتنهدت من أعماق روحها:

- فليحفظه الرب في ملكوته المقدس!

على بعد كوادرا من البيت، أقمنا صداقة مع آل موسكيرا. وهم أسرة تتفق ثروة على شراء مجلات القصص المصورة، ويكسبونها حتى السقف في عتبر في الفناء. وكنا نحن المحظوظين الوحيديين الذين أمضوا هناك أياماً بكاملها في قراءة "دك تراكي" و"بوك روجرز"، ولقبة سعيدة أخرى، هي متدرب برسم إعلانات لأفلام سينما كينتناس القريبة. وكنت أساعده لمجرد المتعة في تلوين الحروف، فيدخلنا مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، إلى أفلام إطلاق الرصاص وتبادل

بحسب المستمعين، منذ الساعة الواحدة بعد الظهر، بكل أصناف
 المتوعات الذكية، ولا سيما ساعتها المخصصة للهواة دون الخامسة عشرة.
 كان يكفي أن يسجل المتقدم اسمه في مكاتب "صوت الوطن" وأن يأتي
 إلى البرنامج، قبل نصف ساعة من الموعد. وكان المعلم كاماتشو آي كانو
 نفسه يرافق الهاوي على البيانو، بينما يصدر مساعد له الحكم غير
 القابل للاستئناف بقطع الأغنية، برن جرس كنيسة عندما يقترب الهاوي
 أدنى خطأ. وكانت الجائزة التي تقدم لأفضل مغنٍ أكثر مما يمكن لنا أن
 نحلم به - خمسة بيزوات -، ولكن أمي كانت واضحة بأن المهم هو
 الفخر بالغناء جيداً في برنامج بهذه الشهرة.

كنت حتى ذلك الحين، أعرف بنفسي، بكنية أبي وحدها - غارسيا
 - واسمى الأول المركب من اسمين - غارسيا خوسيه -، ولكن أمي
 طلبت مني، في تلك المناسبة التاريخية، أن أسجل اسمي مضمناً إليه
 كنيته كذلك - ماركيز - حتى لا يشك أحد في هويتي. لقد كان حدثاً
 في البيت. ألبسوني ثياباً بيضاء، كما في المناولة الأولى، وقبل
 الخروج، قدموا لي شراباً من فوكر الصودا. وصلتُ إلى "صوت الوطن"
 قبل ساعتين من الموعد. وقد انقضى مدخل المسكن، بينما أنا أنتظر في
 حديقة قريبة لأنهم لا يسمحون بالدخول إنني الاستديو، إلا قبل ربع ساعة
 من البرنامج. في كل دقيقة كنت أشعر بعناكب الرعب تنمرسني داخلني،
 وأخيراً دخلت وقلبي يكاد يطفر من صدري. كان علي أن أبذل جهداً
 خارقاً لأمنع نفسي من العودة إلى البيت والقول إنهم لم يسمحوا لي
 بالاشتراك في المسابقة متعللاً بأي حجة. أجرى لي المعلم اختباراً سريعاً
 بمرافقة البيانو، لكي يحدد طبقة صوتي. وقد استدعوا قبلي سبعة

اللكمات. الترف الوحيد الذي اقتصدناه، هو جهاز مذبذب لسماع
 الموسيقى في أي وقت، بمجرد لمس زر، من الصعب اليوم، تصور كم
 كانت تلك الأجهزة نادرة في بيوت الفقراء. كنت أجلس أنا ولويس
 إنريكي أمام الدكان القائم على الناصبة، على مقعد موضوع من أجل
 مسامرات الزبائن البطالين. وكنا نغني أمسيات بطولها، ونحن نستمع
 إلى برامج الموسيقى الشعبية. وهي كل شيء، في ذلك الحين تقريباً.
 وتوصلنا إلى أن نحفظ في ذاكرتنا قائمة كاملة من أغنيات ميغيليتو
 بالديس مع أوركسترا كازينو دي لا بلايا، ودانييل سانتوس مع فرقة
 سونورا ماتانثيرا، وأغنيات بوليفو أغوستين لارا بصوت توتيا الزنجية.

تسليتنا الليلية، وبخاصة في المناسبتين اللتين قطعوا فيهما عنا
 نور الكهرياء، لعدم الدفع، كانت تعليم تلك الأغنيات لأمننا وأخوتنا.
 ولا سيما ليخيا وغوستافو، اللذان كانا يحفظانها كالبغاوات، دون أن
 يفهما معناها، فيضحكاننا حتى الانفجار بأخطائهما الغنائية. لم تكن
 هناك استثناءات. فجميعنا ورثنا عن الأب والأم ذاكرة خاصة
 للموسيقى، وسمعاً جيداً لحفظ أغنية من المرة الثانية. وبخاصة لويس
 إنريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بإمكانياته الذاتية في العزف
 المنفرد على الجيتار في سرينات الحب المعاكس. وسرعان ما اكتشفنا
 أن جميع الأطفال الذين ليس لديهم مذبذب في البيوت المجاورة، يتعلمون
 أيضاً من أخوتي، وبخاصة من أمي، التي انتهت لأن تكون أختاً أخرى
 في بيت الأطفال ذلك.

كان برنامجي المفضل هو "ساعة لشيء من كل شيء" للمؤلف
 المرسيتي والمغني والمعلم آنخل ماريا كاماتشو آي كانو، الذي كان

متسابقين، وفق تسلسل التسجيل، وقرعوا الجرس لثلاثة منهم لأخطأ، مختلفة، ثم أعلنوا عني باسم غابرييل ماركيز وحسب. غنيت "البعجة"، وهي أغنية عاطفية عن بجمعة أشد بياضاً من ندفة ثلج قُتلت مع حبيبها، على يد صياد عديم الشفقة. منذ الألمان الأولى لاحظت أن الإيقاع عالٍ جداً بالنسبة لي في بعض النغمات التي لم تمر في الاختبار، وعانيت لحظة رعب عندما قام المساعد بإيماة مترددة، وتأهب لتناول الجرس. لست أدري كيف واتفتي الشجاعة لأشير، له بإيماة، نشطة ألا يقرعه. ولكن ذلك جاء متأخراً؛ فقد دوى الجرس دون رحمة. وذهبت ببيزوات الجائزة الخمسة، ومعها عدة هدايا دعائية، إلى شقراء جميلة جداً مضغت مقطعاً من مدام بترفلاي. رجعتُ إلى البيت مثقلاً بالهزيمة. ولم أستطع قط مواصلة أمني من خيبة أملها. وقد انقضت سنوات طويلة، قبل أن اعترف لي بأن سبب خجلها هو أنها كانت قد أخبرت أقرباها وأصدقاءها، لكي بسمعوني وأنا أغني. ولم تكن تعرف كيف تتهرب منهم.

وسط ذلك النظام من الضحك والبكاء، لم أتعب عن المدرسة قط. حتى وأنا خاوي المعدة. ولكن وقت قراءتي المنزلية، صار ينقضني في المساعي المنزلية. ولم تكن لدينا ميزانية للنور، تمكنتي من القراءة حتى منتصف الليل. ولكنني كنت أتدير الأمور على أي حال. ففي الطريق إلى المدرسة كانت هناك ورشات لحافلات الركاب، وكنت أتوقف في إحداها لساعات، أراقب كيف يخطون، على جانبيها، لافتات تبين الطريق الذي تقطعه، والوجهة التي تصل إليه. وفي أحد الأيام، طلبت من الرسام أن يسمح لي يرسم بعض الحروف، لأرى إذا ما كنتُ قادراً

على ذلك. فوجئ بكفاتي الطبيعية، وسمح لي بأن أساعده أحياناً، مقابل بعض البيزوات المتفرقة التي تساعد قليلاً، في الميزانية الأسرية. وقد عشت في تلك الفترة وهماً آخر، عندما تعرّفت مصادفة، على ثلاثة أخوة كنيستهم غارسيا، أبناء بحار يمخر نهر مجدليننا. وكانوا قد نظموا ثلاثي موسيقى شعبية، لتنشيط حفلات الأصدقاء، حباً بالفن وحسب. فأكملت معهم الرباعي غارسيا، لنشارك في مسابقة ساعة الهواة، في إذاعة أتلاتيكو. ربحنا الجائزة، منذ اليوم الأول، وسط عاصفة من التصفيق. ولكنهم لم يدفعوا لنا ببيزوات الجائزة الخمسة، بسبب خطأ لا يمكن إصلاحه، في تسجيل الأسماء. واصلنا التدريب معاً خلال بقية السنة، والغناء مجاناً في الحفلات الأسرية، إلى أن فرقت بيننا الحياة. لم أنفق أبداً مع الزوابة الخبيثة القائلة إن الصبر الذي كان أبي يواجه به الفقر، له علاقة بانعدام حس الشعور بالمسؤولية. بل على العكس؛ أظن أنها كانت أدلة هوميروسية على تواطؤ لم يخبُ أبداً بينه وبين زوجته. ويسمح لهما بكنم أنفسهما، إلى أن يبلغا شفير الهاوية. كان يعرف أنها قادرة على التحكم بالرعب، خيراً من محكمها باليأس، وأن هذا هو السر في بقاتنا على قيد الحياة. وربما أن الأمر الذي لم يفكر فيه هو أن آلامه كانت تهدأ، وهو يراها تخلف في الطريق، أفضل ما في حياتها. لم تكن نفهم أبداً سبب أسفاره. ففي أحد أيام السبت، أيقظونا فجأة في منتصف الليل، مثلما كان يحدث عادة، ليأخذونا إلى وكالة محلية لحقل بترول في كاتاتومبو، حيث تنتظرنا مكاملة لاسلكية من أبي. لن أنسى قط أمني المستحمة بالدموع، في تلك المحادثة التي تشوشها التقنية.

- آي يا غابرييل. انظر كيف تركتني مع هذه الكتيبة من الأبناء.
وقد وصلنا إلى حد عدم العثور على ما نأكله. مرات عديدة.
فرد هو بالخير المشؤوم. بأن كبدته متوروم. وكان ذلك يحدث له
بكثرة. ولم تكن أمي تأخذه على محمل الجد. لأنه استخدمه مرة للتستر
على مجونه. فقالت له مازحة:

- هذا ما يصيبك. كلما أسأت التصرف.

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الميكروفون، كما لو أن أبي هناك. ثم
ارتبكت أخيراً، وهي تحاول أن ترسل إليه قبلة، فقبلت الميكروفون. ولم
تستطع، هي نفسها، كبح قهقهاتها. ولم تتمكن قط من رواية الحكاية
كاملة، لأنها كانت تنتهي إلى الاستحمام بدموع الضحك. ومع ذلك،
بقيت ساهمة في ذلك اليوم. وأخيراً قالت على المائدة وكأنها تتكلم إلى
لا أحد:

- لقد لمستُ شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

أوضحنا لها أن جهاز اللاسلكي لا يشوش الأصوات فقط. وإنما
بحجب حقيقة الشخصية كذلك. وفي الليلة التالية، قالت وهي نائمة:
"صوته على كل حال، يُسمع كما لو كان أكثر نحولاً". كان أنفها مرهفاً
كما في أيامها السيئة. وكانت تتسائل بين التنهدات، كيف هي تلك
القرى التي بلا رب ولا قانون، حيث يمضي زوجها طليقاً من دون امرأته.
وقد تبدت أسبابها الخفية بجلاء، أكبر في محادثة لاسلكية أخرى،
عندما أجبرت أبي على أن يعدها بأنه سيرجع فوراً إلى البيت، إذا هو لم
يتوصل إلى أي شيء. خلال أسبوعين. ومع ذلك، تلقينا قبل انتهاء
المهلة، من لوس ألتوس دل روساريو، برقية دراماتيكية من كلمة واحدة:

"متشرد". رأت أمي في الرسالة، تأكيداً لأشد شكوكها وضوحاً،
وأصدرت حكماً غير القابل للاستئناف:

- إما أن تأتي قبل يوم الاثنين، وإلا فإنني سأتي إليك هناك، الآن،
بالذات ومعى الذريرة كلها.

وسيلة مباركة. فقد كان أبي يعرف قوة تهديداتها. وقبل انقضاء
أسبوع كان قد عاد إلى بارانكيّا. لقد أذهلنا دخوله، مرتدياً ملابس
كبقية اتفق، ببشرة مائلة إلى الخضرة، وذقن غير حليقة، حتى إن أمي
ظنت أنه مريض. ولكنه مجرد انطباع آني، لأنه ما لبث أن خرج لنا، بعد
يومين بمشروع شبابه، في إقامة صيدلية متعددة الأغراض، في بلدة
سوكري. وهي ركن حالم ومزدهر، على بُعد ليلة ونهار من الإبحار من
بارانكيّا. لقد كان هناك في بداية عهده، كعامل تلغراف. وقلبه ينقبض،
حين يتذكر الرحلة في قنوات غسقية ومستنقعات مذهبة، وحفلات
الرقص الأبدية. لقد ألح في تلك الفترة، على نقل عمله إلى ذلك المكان.
ولكن دون أن يحالفه الحظ، كما في مرات أخرى مشتبهة، مثل
آراكاتاكا. عاد للتفكير فيها، بعد خمس سنوات من ذلك، عندما وقعت
أزمة الموز الثالثة. ولكنه وجدها، وقد احتلها تجار الجملة القادمون من
مغناغي. مع ذلك، وقبل شهر من العودة إلى بارانكيّا، التقى مصادفة،
مع واحد منهم، لم بصور له واقعاً مخالفاً وحسب، وإنما عرض عليه
كذلك قرصاً انشمانياً جيداً للعمل في سوكري. لم يوافق على العرض،
لأنه كان على وشك الحصول على الحلم الذهبي في لوس ألتوس دل
روساريو. ولكن عندما فاجأه قرار زوجته الحاسم، عثر على تاجر الجملة
في ماغناغي، الذي كان لا يزال تائهاً في قرى النهر. وأبرما الاتفاق.

بعد نحو أسبوعين من الدراسات والترتيبات، مع بحار جملة،
أصدقاء، ذهب وقد استرد مظهره وموهبته. وكان تأثره بسوكري قوياً
حتى إنه خلف انطباعه، مكتوباً في رسالته الأولى: "لقد وجدتُ الواقع
أفضل من الخين". استأجر بيتاً له شرفة في الساحة الرئيسية. ومن
هناك استعاد علاقته بأصدقائه القدامى الذين استقبلوه بأبواب مفتوحة.
طلب من الأسرة أن تبيع ما يمكن بيعه، وأن تحزم ما تبقى من متاع. ولم
يكن كثيراً، وتحمله معها في إحدى السفن البخارية التي تقوم برحلات
منتظمة عبر نهر مجدلتنا، وأرسل في البريد نفسه، حوالة مالية
محسوبة بدقة، من أجل النفقات المباشرة. وأعلن أنه سيرسل حوالة أخرى
من أجل تكاليف السفر. لا يمكنني أن أتصور أخباراً أكثر شهية لطبع
أمي الحالم، وهكذا لم يكن ردها، على الرسالة، تابعاً من التفكير في
دعم حماس زوجها وحسب، وإنما تحليته بخبر أنها جلي للمرة الثامنة.
قمت بالهجاز إجراءات الحجز في سفينة "القيطان دي كارو"، وهي
سفينة أسطورية تقطع الطريق من بارانكيا إلى ساغانفي في ليلة
وتصف نهار. ثم نواصل الرحلة، بعد ذلك، في مركب ذي محرك عبر
نهر سان خورخي والقناة المائية الحافلة، من مورخانا حتى وجهتنا.
- يكفي أن تذهب من هنا، حتى ولو إلى الجحيم - هتفت بذلك
أمي التي كانت ترتاب دوماً بسمعة سوكري البالية، وأضافت: - يجب
عدم ترك الزوج، وحيداً في قرية مثل تلك.
- فرضت علينا الإسراع، حتى إننا كنا ننام على الأرض، قبل ثلاثة
أيام من السفر. لأننا بعنا الأسرة وكل الأثاث الذي استطعنا بيعه. وكل
ما عدا ذلك، كان معبأً في الصناديق. ونقود تذاكر السفر، مخبأة في

أحد مخابئ أمي، ومحسوبة جيداً، ومعاد حسابها ألف مرة.
الموظف الذي استقبلني في مكاتب الشركة مالكة السفينة، كان
مهذباً، بحيث لم أجد نفسي مضطراً إلى الضغط على فكي، لكي أتفاهم
معه. إنني واثق ثقة مطلقة من أنني دونت الأسعار بحذافيرها، مثلما
أملأها عليّ بأسلوب الكاربييني الخدميين، في الكلام الواضح والمتكلف.
وكان أكثر ما أسعدني، وأقل ما نسيته، هو أن من هم دون الثانية
عشرة، يدفعون نصف التسعيرة العادية فقط. وهذا ما ينطبق على جميع
اخوتي، باستثنائي أنا، وعلى هذا الأساس، وضعت أمي تقود السفر
جانباً، وأنفقت، حتى آخر سنتافو، مما تبقى في تفكيك موجودات
البيت.

ذهبت يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن
من هم دون الثانية عشرة، لا يتمتعون بحسم نصف السعر، وإنما بثلاثين
بالمنة منه فقط. مما يعني فرقاً لا يمكن لنا تجاوزه. وتذرع بأنني قد دونت ما
أملاه عليّ بصورة سيئة، لأن المعلومات مطبوعة في لوحة إعلانات رسمية
وضعتها أمام عيني. رجعتُ إلى البيت مغموماً، فلم تعلق أمي بشيء، وإنما
ارتدت الفستان الذي أمضت فيه فترة الحداد على أبيها. وذهبتنا معاً إلى
وكالة الملاحاة النهرية. أرادت أن تكون منصفة: أحد ما قد أخطأ، ويمكن له
أن يكون ابني. ولكن هذا ليس مهماً. فالواقع أننا لا نملك مزيداً من
النقود. أوضح لها الموظف بأنه ليس هناك ما يمكن عمله، وقال:

"لاحظي يا سيدتي، المسألة ليست الرغبة أو عدم الرغبة في
خدمتك. وإنما هي أنظمة شركة محترمة. ولا يمكن التلاعب بها مثل
دوارة رح."

"ولكنهم مجرد أطفال"، قالت أمي ذلك، وأشارت إليّ كمشال:
"تصور، هذا هو أكبرهم. ويكاد لا يبلغ الثانية عشرة." ثم أشارت
بيدها:

- إنهم بهذا الطول.

فتعلل الوكيل بأن المسألة ليست مسألة طول القامة، وإنما السن.
ولا أحد يدفع أقل من التسعيرة، باستثناء حديثي الولادة الذين يساقرون
مجاناً. فبحثت أمي عن سماوات أعلى!

- مع من يجب عليّ أن أتكلم، من أجل تسوية هذا الأمر؟

لم يتوصل الموظف إلى الرد. فقد أطلّ المدير، وهو رجل متقدم في
السن، وله كرش أمومي، من باب مكتبه، خلال تلك المرافعة. فنهض
الموظف واقفاً، حين رآه. كان هائلاً؛ له مظهر محترم، وسلطته أكثر من
واضحة، حتى وهو بقميص قصير الكمين، ومبلل بالعرق. استمع إلى
أمي باهتمام، وردّ عليها بصوت هادئ، بأن قراراً من ذلك النوع لا يمكن
اتخاذها إلا بتعديل للأظمة في جمعية عمومية للمساهمين. واختتم
قائلاً:

- صدقيني. إنني متأسف جداً.

فقلت: "أنت على حق. ولكن المشكلة هي أن موظفك لم يشرح
الأمر جيداً لابني. أو أن ابني قد فهمه بصورة سيئة، وأنا تصرفت بناءً
على هذا الخطأ. وكل أمشعني موضعية الآن، وجاهزة للإبحار. إننا ننام
على الأرض دون شيء. ونقرء المشتريات تكفيها حتى هذا اليوم فقط.
وعليتنا أن نسلم البيت يوم الاثنين للمستأجرين الجدد." لاحظت أن
موظفي القاعة جميعهم، يصغون إليها باهتمام كبير. وعتدند توجّهت

إليهم: "ما الذي يعنيه كل هذا لشركة بهذه الأهمية؟" ودون أن تنتظر
جواباً، سألت المدير، وهي تنظر مباشرة إلى عيني:

- هل أنت مؤمن بالرب؟

انبهر المدير. كان المكتب كله يترقب بصمت طال كثيراً. عندئذ
تهاوت أمي على المقعد، ضمت ركبتيها اللتين بدأتا ترتجفان، وشدت
المحفظة إلى حضنها بكلتا يديها، وقالت بالتصميم الذي تهبه في
قضاياها العظمى:

- لن أتحرك من هنا، ما لم تحلوا لي المشكلة.

ظل المدير متجمداً. وتوقف جميع الموظفين عن عملهم، لينظروا إلى
أمي. لم تُبدِ تأثراً، بأنفها المرفف، وشحوبها وحببات العرق اللؤلؤية.
كانت قد خلعت ثوب الحداد على أبيها، منذ بعض الوقت، ولكنها عادت
لارتدائه في تلك المناسبة، لأنه بدا لها الفستان الأكثر ملاءمة، في ذلك
المسعى. لم يعد المدير إلى النظر إليها. وإنما نظر إلى موظفيه. دون أن
يدري ماذا يفعل. وأخيراً هتف متوجهاً إلى الجميع:

- هذا أمر لا سابقة له!

لم تحرك أمي رمشاً. وقد روت لي فيما بعد: "كانت الدموع حبيسة
في حلقي. إنما كان عليّ الصمود، لأنني في وضع سيئ جداً". عندئذ
طلب المدير من الموظف، أن يأتيه بالوثائق إلى مكتبه. ففعل الموظف
ذلك، وعاد للخروج بعد خمس دقائق، وهو يزمجر ويتأفف. إنما كانت
معه بطاقات السفر جميعها، جاهزة ونظامية.

في الأسبوع التالي، نزلنا في بلدة سوكري، كما لو أننا قد ولدنا
فيها. كان عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثل بلدات كثيرة

في البلاد، في ذلك الزمان، وجميعهم يعرف بعضهم بعضاً، ليس بالأسماء بقدر ما هو في حيواتهم السرية. ولم تكن القرية وحدها، وإنما المنطقة بأسرها، أشبه ببحر مياه وراكدة تتبدل ألوانها بملاوات الزهور التي تغطيها حسب الموسم، وحسب المكان، وحسب حالتنا المعنوية. بهاؤها يذكر بملاذات جنوبي شرق آسيا الراكدة. فخلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك، لم تأت سيارة واحدة. ولن تكون لمجبتها أية فائدة، لأن الشوارع المستقيمة ذات التراب المهد تبدو، كما لو أنها قد أعدت للأقدام العارية. وكانت هناك بيوت كثيرة تملك في المطايخ مرساها الخاص؛ وفيه الزوارق البيتية، من أجل التنقلات المحلية.

أول ما أثارني، هو الحرية التي لا يمكن تصورها. فكل ما كان ينقصنا، نحن الأطفال، وكل ما كنا نتلهف إليه، صار فجأة في متناول أيدينا. كل واحد يأكل عندما يجوع، وينام في أي وقت يشاء. ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، إذ إن الكبار، على الرغم من صرامة قوانينهم، كانوا يمضون غارقين في أوقاتهم الشخصية التي تكاد لا تكفيهم للاهتمام بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال أن يتعلموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي؛ لأن القرية مقسومة إلى شطرين، بقناة مياه قانقة تُستخدم في الوقت نفسه، كمجرى مائي ومجرور صرف صحي. فكانوا يلقون بالأطفال، منذ السنة الأولى من عمرهم، من شرفات المطايخ، في أول الأمر، مع إطارات نجاة، لكي يتخلصوا من احترامهم للموت. وقد تألق، بعد سنوات من ذلك، أخي خيمي وأختي ليخيا، في بطولات السباحة للصغار، بعد أن تجاوزا، حينئذ، المخاطر الأولية.

ما حول سوكري بالنسبة لي إلى بلدة لا تُنسى، هو حس الحرية الذي كنا نتحرك به، نحن الأطفال، في الشارع. خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كنا نعرف من الذي يعيش في كل بيت، وكنا نتصرف فيها، كما لو أننا نعرف ساكنيها منذ الأزل. كانت العادات الاجتماعية - المبسطة في الاستخدام - هي عادات الحياة الحديثة، في مجتمع إقطاعي: الأثرياء - مربي الماشية وصانعو السكر - في الساحة الكبرى، والفقراء، حينئذ، يستطيحون. وكانت المنطقة، بالنسبة للإدارة الكنسية، ميدان بعثات تبشيرية، وسلطة قضائية وقيادية، في مملكة بحيرات شاسعة. وفي منتصف ذلك العالم، كانت الكنيسة الأبرشية، في ساحة سوكري الكبرى، نسخة جيب من الكاتدرائية الكولونبالية، استنسخها من الذاكرة، كاهن إسباني مُدوَّب مع الهندسة. كان استخدام الكنيسة للسلطة مباشراً ومطلقاً. ففي كل ليلة، بعد صلاة المسبحة، يقرعون في برج الكنيسة، ناقوس التقويم الأخلاقي، للفيلم المعلن عن عرضه في دار السينما المجاورة، وفق القائمة التي يصدرها المكتب الكاثوليكي للسينما. وكان هناك ميسر مناوب، يجلس على باب مكتبه، ليراقب من يدخلون إلى المسرح، من الرصيف المقابل، من أجل معاقبة المخالفين.

كان إهباطي الأكبر، هو السن التي وصلت بها إلى سوكري. كنت أحتاج إلى ثلاثة شهور أخرى لأجتاز خط الثالثة عشرة المتذر بالغموض، ولم يعودوا يتحملونني في البيت كطفل. ولكنهم لا يعترفون بي كراشد أيضاً. وانتهى بي الأمر في ليمبوس تلك السن إلى أن أكون الوحيد بين أخوتي الذي لم يتعلم السباحة. ولم يكونوا يعرّفون إذا ما كان علي الجلوس إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. ولم تعد نساء الخدمة

يغيرون ملابسهن أمامي، حتى ولو كان الضوء مطلقاً. ولكن إحداهن نامت عدة مرات عارية في فراشي، دون أن تقلق نومي. ولم يُنح لي الوقت للارتواء - من حرية الاختيار المخالفة للأعراف تلك، عندما اضطرت إلى الرجوع إلى بارانكيًا، في شهر كانون الثاني من العام التالي، لأبدأ مرحلة الدراسة الثانوية. لأنه لم تكن هناك في سوكري، مدرسة مؤهلة بما يكفي، للدرجات الممتازة التي منحتني إياها المعلم كاسالينس.

بعد مناقشات واستشارات مطولة، بمشاركة ضئيلة من جاني، قرر والداي إرسالني إلى مدرسة سان خوسيه اليسوعية في بارانكيًا. ولا أجد تفسيراً للطريقة التي حصلنا بها على كل تلك الموارد خلال أشهر قليلة، ولا سيما وأن الصيدلية وعبادة الطب التجانسي، كانتا لا تزالان موضع اختيار. وقد قدمت أمي على الدوام تفسيراً لا يحتاج إلى براهين: "الله كبير". لا بد أن استقرار الأسرة وإعالتها قد أخذاً في الحسبان، ضمن نفقات الانتقال، ولكن ليس مستلزماتي المدرسية. ولأنني لم أكن أملك سوى حذاء مزق وغيار ملابس واحد ألبسه، بينما يغسلون لي الآخر، فقد جهزتنني أمي بملابس جديدة، مع صندوق بحجم نعش، دون أن تقدر مسبقاً أنني سأكون، خلال ستة شهور، قد كبرتُ شبراً. وكانت هي أيضاً من قررت بنفسها، أن أبدأ بارتداء البنطلونات الطويلة، خلافاً للأحكام الاجتماعية التي يراعيها والدي، بأنه لا يمكن لبسها، ما لم يبدأ الصوت بالتبدل.

الحقيقة أنه في أثناء كل مناقشة حول تعليم كل واحد من الأبناء، كانت تراودني الأحلام على الدوام، بأن يعمد أبي، في إحدى نوبات غضبه الهومبيريوسية، إلى إصدار أمره بالأمر بالعودة أي واحد منا إلى

المدرسة. لم يكن ذلك مستحيلًا. فهو نفسه تعلم ذاتياً، بسبب فقره الشديد، ولأن أباه كان يستلهم أخلاقيات دون فرناندو السابع، الداعية إلى التعليم الفردي في البيت، للحفاظ على تماسك الأسرة. لقد كنتُ أخشى المدرسة كأنها السجن. وترعيتني فكرة العيش، خاضعاً لنظام جرس يُقرع. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، الإمكانية الوحيدة المتاحة لي، للاستمتاع بحياتي الحرة منذ سن الثالثة عشرة. إذ يمكنني الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأسرة. ولكن بعيداً عن نظامها، وعن حماسها الديموغرافي، وأيامها التعسة. وحيث أستطيع أن أقرأ، دون التقاط للأنفاس، ما دام الضوء يسعفتني.

حجتي الوحيدة، ضد مدرسة سان خوسيه، إحدى أكثر المدارس تطلباً وكلفة، في منطقة الكاريبي، هو انضباطها العسكري. ولكن أمي واجهتني بوقار: "هناك يُصنع الحكام". وعندما لم يعد ثمة مجال للتراجع، نقض أبي يديه:

- فليكن واضحاً، أنتي لم أقل نعم ولم أقل لا.

كان يفضل ذهابي إلى المدرسة الأمريكية، لكي أتعلم الإنكليزية. ولكن أمي استبعدت هذا الاحتمال، متذرة بأنها وكر لوثريين. وعلى اليوم أن أعترف على شرف أبي، بأن أحد أخطأ حياتي ككاتب، هو عدم تكلم الإنكليزية.

العودة لرؤية بارانكيًا التي غادرتها قبل ثلاثة شهور، من فوق جسر السفينة "القبطان دي كارو"، هيجت قلبي، كما لو أنني قد حدثت مسبقاً، أنني سأعود وحيداً، إلى الحياة الواقعية. ولحسن الحظ أن أبوي كانا قد رتبنا أمر إقامتي وطعامي، عند ابن عمي خوسيه ماريا

بالديبلوماتيك وزوجته هورتينسيا، وهما شابات لطيفتان، أشركاني في حياتهما الوداعة، في صالة بسيطة وغرفة نوم وفناء صغير مرصوف، تكتنفه الظلال على الدوام، بفعل الملابس المنشورة لتجف على الأسلاك. كانا ينامان في حجرة النوم مع طفلتهم ذات الستة شهور. بينما أنام أنا على أريكة الصالة التي تتحول في الليل، إلى سرير.

كانت مدرسة سان خوسيه تبعد ست كوادرات تقريباً. وتقوم ومنط حديقة من أشجار اللوز، كانت فيما مضى أقدم مقبرة في المدينة. وما زال يُعثر فيها على بقايا عظام متفرقة، ونسف ثياب ميته على سطح الأرض المرصوفة. يوم دخلت فناء المدرسة الرئيسي أول مرة، كان هناك احتفال لتلاميذ السنة الأولى، يبناطيل بيضاء ومسترات من الجوخ الأزرق. فلم أستطع كبح رعبي من أنهم يعرفون كل ما أجعله. ولكنني سرعان ما لاحظت أنهم نيتون ومرعوبون مثلي، حبال خفايا المستقبل غير المؤكدة.

ظهر لي شبح شخصي خاص تمثل في الأخ بيدرو ريس، موجه قسم التعليم الأساسي، الذي انهمك في إقناع رؤسائه في المدرسة، بأنني غير مؤهل للمرحلة الثانوية. لقد تحول إلى كابوس يعترض طريقي، في أماكن لا تخطر على البال، ويُجري لي اختبارات مفاجئة تتضمن كمان شيطانية: "هل تظن أن الرب قادر على صنع حجر ثقيل إلى حد يعجز عن حمله؟"، كان يسألني دون أن يمنحني الوقت للتفكير. أو هذا الفخ اللعين الآخر: "إذا ما وضعنا لخط الاستواء، حزاماً من الذهب، سماكته خمسون سنتيمتراً، فكم سيزداد وزن الكرة الأرضية؟" لم أكن أفصح في الإجابة على أي سؤال، مع أنني كنت أعرف الأجوبة. لأن لساني كان

ينعقد من الرعب، مثلما حدث لي في يومي الأول مع الهاتف. لقد كان خوفاً يستند إلى أسباب، فالأخ ريس على حق. أنا لم أكن مهيباً فعلاً للشانوية. غير أنني لا أستطيع التخلي عن حسن الطالع الذي خالفني بقبولهم إياي، دون اختبار. كنت أرهف لمجرد رؤيته. وراح بعض الزملاء يقدم تفسيرات خبيثة لتلك المحاصرة، غير أنه لم يكن لدي مبرر للتفكير فيها. أضف إلى ذلك، أن ضميري كان يساعدي. لأنني نجحت في اختباري الشفوي الأول دون عقبات، عندما ألقيت، مثل ماء متدفق، أشعاراً لغزاي لويس دي ليون، ورسمت بالطباشير الملونة على السبورة مسجحاً، هذا وكأنه حي. وقد بلغ رضى لجنة الاختبار حداً، نسبت معه اختباري بالحساب والتاريخ الوطني.

وقد سوّيت المشكلة مع الأخ ريس، لأنه احتاج في أسبوع الآلام المقدس، إلى بعض الرسوم لدروس علم النبات، فأخرجتها له دون أن يرف لي جفن. فلم يتخلّ عن محاصرته لي وحسب، وإنما صار يتسلى أحياناً، خلال الاستراحات، بتعليمي الإجابات المدعمة بأفضل الحجج عن الأسئلة التي لم أكن أستطيع الرد عليها، أو عن أسئلة أكثر غرابة، راحت تظهر فيما بعد، كما لو أنها مصادفة، في الاختبارات التالية من سنتي الأولى. ومع ذلك، كلما وجدني ضمن جماعة، يسخر وهو يكاد يموت من الضحك، من أنني الوحيد في الصف الثالث الأساسي الذي يتقدم جيداً في الشانوية. وأنا أرى اليوم أنه كان على صواب. وبخاصة في الإملاء الذي كان عذابي على امتداد دراستي، وما زال يخيف مصححي أصول أعمالتي. وأكثرهم أريحية يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنها أخطاء مطبعية. جاءت الطمانينة لمخاوفي، بتعيين الرسام والكاتب هيكتور روخاس

هيراثو، أستاذة للرسم. لا بد أنه كان في حوالي العشرين من عمره. دخل إلى القاعة برفقة الأب الموجه، ودوت تحيته كصفقة باب في قبط الثالثة بعد الظهر. بدا بوسامة وأناقة فنان سينمائي. كان يرتدي شتره من وير الجمل. ضيقة جداً، وبأزرار مذهبة، وصدريّة مبهرجة، وربطة عنق حريرية مطبّعة. ولكن أغرب ما فيه كانت قبعة اللبد التي يعتمرها، بالرغم من الحرارة التي تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طول قامته يصل حتى ساكف الساب، مما يضطره إلى الانحناء، لكي يرسم على السبورة. وإلى جانبه، كان الأب الموجه يبدو مهجوراً تحت رحمة الرب. تبين منذ دخوله أنه لا يمتلك منهجاً ولا يطبق صبراً على التعليم. ولكن حس دعابته الخبيث كان يبقينا متنبهين، مثلما كانت تذهلنا رسومه البارعة التي يرسمها على السبورة بالطباشير الملونة. لم يستمر في عمله سوى ثلاثة شهور، ولم نعرف السبب قط. إنما يمكن الاستنتاج أن تربيته الدنيوية لم تكن تتوافق مع النظام الذهني لفرقة يسوع.

لقد اكتسبت الشهرة، منذ بدايتي في المدرسة، بأنني شاعر، أولاً بسبب السهولة التي أحفظ بها عن ظهر قلب، قصائد الكلاسيكيين والرومانسيين الإسبان. في كتب النصوص، وألقيها بصوت جهوري. ثم بعد ذلك بسبب الأهاجي المفقاة التي كنت أكرسها لزملائي في الصف، ونشرت في مجلة المدرسة. وما كنت لأكتبها، أو أنني كنت سأوليها قليلاً من الاهتمام، لو أنني تصورت أنها ستنال مجد الكلمة المطبوعة. الواقع أنها كانت أهاجي لطيفة تتداولها الأيدي على وريقات خفية في قاعات الدرس المنومة، في الساعة الثانية بعد الظهر. وقد ألقى الأب لويس بوسادا - موجه الصف الثاني - القبض على واحدة منها، فقرأها

وهو متجهج المبهين، ووجه إلى توبيخاً قاسياً. ولكنه احتفظ بها في جيبه. عندئذ استدعاني الأب أرتورو ميخيا إلى مكتبه، ليقتراح علي نشر الأهاجي المصادرة في مجلة "الشبيبة"، لسان حال تلاميذ المدرسة. وكان ردّ فعلي الفوري فتبلة مجدولة من المفاجأة والحجل والسعادة، حللتها برفض غير متعق:

- إنها مجرد حماقات مني.

سجل الأب ميخيا ملاحظة من جوابي، ونشر الأشعار بهذا العنوان - "حماقات مني" - ويتوقع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، ويتغريض من ضحايا الأهاجي. وكان عليّ أن أنشر في عددين متتاليين، مجموعة أخرى، بناء على رغبة زملائي في الفصل. وهكذا، فإن تلك الأشعار الطفولية - شئت ذلك أم لم أشأ - هي عملي الأدبي الأول.

كان إدمان قراءة كل ما يقع في يدي، يشغل وقت فراحي وقت الدروس كله تقريباً. وكنتُ قادراً على إلقاء قصائد كاملة من القائمة الشعبية التي كانت شائعة آنذاك، في كولومبيا، وأجمل أشعار العصر الذهبي والرومانسية الإسبانية. وقد حفظتُ معظمها من نصوص منهاج المدرسة نفسه. وكانت تلك المعارف غير المتوقعة في مثل سني، تستثير غيظ المعلمين. فكلما وجهوا لي في أحد الدروس سؤالاً صاعقاً، أردت عليهم بشاهد أدبي أو بفكرة مستمدة من الكتب، لم يكونوا في وضع يؤهلهم لتقييمها. وقد قال ذلك الأب ميخيا: "إنه طفل مغرور يكرر أقوالاً" كيلا يقول، لا بطاق. لم أكن مضطراً قط، إلى إجهاد ذاكرتي؛ ذلك أن القصائد وبعض مقاطع الشعر الكلاسيكي الجيد، تبقى منطبعة

في ذاكرتي، بعد ثلاث أو أربع قراءات. أول قلم حبر حصلت عليه، نلته من الأب الموجّه، لأنني تلمت عليه، دون عشرات، وعشرات "الدوار" السبع والخمسين لغاسبار نونيث دي أرثيه.

كنت أقرأ في أثناء الدروس، واضعاً الكتاب مفتوحاً على ركبتي، ويوقاحة يبدو لي أنني ما كنت لأتجو من عقوبتها، إلا بتواطؤ المعلمين. الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من تحقيقه بحيلي محكمة القوافي، هو إعفائي من القداس اليومي، في الساعة صباحاً. وإضافة إلى كتابة حماقاتي، كنت أؤدي الغناء المنفرد في الكورال، وأرسم الكاريكاتير الساخر، وألقي القصائد في المناسبات الرسمية، وأشياء كثيرة أخرى خارج الزمان والمكان، بحيث لم يكن هناك من يفهم في أي وقت أدرس دروسي. وقد كان السبب بسيطاً: لم أكن أدرس دروسي.

وسط كل تلك الديناميكية المفرطة، ما زلت لا أفهم حتى الآن، لماذا كان الأساتذة يهتسون بي إلى ذلك الحد، دون أن يرفعوا أصوات الاستنكار ضد أخطائي الإملائية. على خلاف أمي التي كانت تخفي بعض رسائلي عن أبي لإبقائه حياً، وتعبد لي غيرها مصححة، وترفقها أحياناً بتهنئة على بعض التقدم في النحو والاستخدام الجيد للكلمات، ولكن بعد مرور سنتين، لم يكن هناك تحسين يرجى في الأفق. وما زالت اليوم مشكلتي هي نفسها: لا يمكنني أن أفهم أبداً لماذا هناك حروف لا تُنطق، أو لماذا يوجد حرفان مختلفان لهما المنطوق نفسه^(١)، أو غيرها من القواعد غير المجدية.

(١) قدم غارسيا ماركيز ملاحظاته هذه حول الالتباس الذي يسببه تشابه منطوق بعض حروف اللغة الإسبانية في مؤتمر لغوي عقد قبل سنوات قليلة في المكسيك. وقد أثارت أذاك ردود فعل عنيفة ضدّه.

وكان أن اكتشفتُ ميلاً سيرافقني مدى الحياة: متعة تبادل الحديث مع تلاميذ أكبر مني سناً. وحتى اليوم، في اجتماعات شباب يمكن لهم أن يكونوا أحفاداً لي، أجد نفسي مضطراً إلى بذل الجهد كيلا أشعر بأنني أصغر منهم. وهكذا أقمت صداقة مع اثنين من تلاميذي الذين يكبرونني سناً، وصاروا فيما بعد، زميلي في مراحل تاريخية من حياتي. أحدهما هو خوان ب. فيرنانديث، ابن أحد مؤسسي ومالكي جريدة "الهيرالدو" الثلاثة في بارانكيّا، حيث قمت بأول محاولاتي الصحفية، وحيث تكوّن هو منذ حروفه الأولى، حتى صار المدير العام. والآخر هو إنريكي سكوبيل، ابن مصور كوبي أسطوري في المدينة. وهو نفسه كاتب تحقيقات صحفية، ولكن امتناني تجاهه، لا يرجع كله إلى عملنا المشترك في الصحافة، وإنما لمهنته، كذلك، كدباغ جلود حيوانات متوحشة تُصدّر إلى نصف العالم. وقد أهدى إليّ، في واحدة من رحلاتي الأولى، إلى الخارج، جلد تمساح طوله ثلاثة أمتار.

- هذا الجلد يساري ثروة لا بأس بها - قال لي دون دراماتيكية -، ولكنني أنصحك بالأ تباعه ما دمت لا تشعر بأنك ستتموت جوعاً.

ومازلتُ أتسأل حتى الآن، إلى أي حد كان كيكي سكوبيل الحكيم يعرف أنه إنما يقدم لي تيممة أبدية. فقد كان عليّ في الواقع، أن أبتعد مرات كثيرة، في سنوات نحسي المتتالية. ومع ذلك، مازلت أحفظ به، معفراً وشبه متببببب، لأنني منذ أن حملته في حقيبتي، عبر العالم بأسره، لم ينقصني ستنافو للأكل.

كان الأساتذة الجزويت، الصارمون في الدروس، مختلفين عن ذلك في الاستراحات، حيث كانوا يعلموننا ما لا يقولونه داخل قاعة الدرس،

ويفرحون عن أنفسهم بقول ما كانوا يرغبون في تعليمه حقاً. وأظن أنني أتذكر، إلى الحمد الذي تسمح به سني آنذاك، أن ذلك الاختلاف كان ملحوظاً إلى حد كبير، وكان يساعدنا كثيراً. فالأب لويس بوسادا، وهو كاتشاكو شاب ذو عقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة في القطاعات النقابية. كان لديه أرشيف بطاقات يضم كل أنواع المعلومات الموسوعية، ولا سيما حول الكتب والكتّاب. وكان الأب إغناثيو سالدوبار باسكياً جبلياً، وأصلت زيارته في كارتاخينا، حتى شيخوخته الطيبة في دير سان بيدرو كالفير. وكان الأب إدواردو تونيث، قد أنجز قدراً لا بأس به من مؤلف ضخم عن تاريخ الأدب الكولومبي. ولم أعد أعرف شيئاً عن المصير الذي آل إليه. أما الأب العجوز مانويل هيدالغو، معلم الغناء، المتقدم في السن، منذ ذلك الحين، فكان يفرغ الميسول على مزاجه، ويسمح لنفسه بإدخال بعض الموسيقى الوثنية غير المقررة.

وكانت لي مع الأب بيسشاكون، مدير المدرسة، بعض المحادثات العرضية. وقد احتفظت منها باليقين بأنه ينظر إليّ كشخص راشد، ليس بسبب الموضوعات التي كان يطرحها وحسب، وإنما لتوضيحاته الجريئة. لقد كان له دور حاسم في حياتي، بتحديد مفهوم الفردوس والجحيم، لأنني لم أكن أتوصل إلى المصالحة مع معلومات كتاب الديانة المسيحية، بسبب عوائق جغرافية بسيطة. وخالقاً لتلك المعتقدات الجامدة، أراحتي المدير بأفكاره الجريئة. فالفردوس، بغض النظر عن التعقيدات اللاهوتية، هو حضور الرب. أما الجحيم فهو العكس، طبعاً. ولكنه في مناسبتين اثنتين اعترف لي بمشكلته بأن "هناك في الجحيم نار على كل حال"، ولكنه لم يتوصل إلى توضيح ذلك. ويفضل هذه الدروس في

الاستراحات، أكثر مما هو بفضل الدروس الرسمية، أنهيت السنة، بصدر مدرع بالميداليات.

بدأت إجازتي الأولى إلى سوكري، في الساعة الرابعة من أحد أيام الأحاد، في مرفأ مزين بأكاليل زهور وبالونات ملونة، وساحة متحولة إلى سوق عيد فصح. ما إن وطأت اليابسة، حتى تعلقت بعنقي، بتلقائية ساحقة، فتاة شقراء جميلة جداً، وخنقتني بالقبلات. كانت تلك هي أختي كارمن روسا، ابنة أبي قبل زواجه. وكانت قد جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة. كما حضر في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، هو أيلاردو، مهنته الخياطة، وقد أقام مشغله في أحد جوانب الساحة الكبرى. وكان معلمي في الحياة، في فترة البلوغ.

كانت تسود البيت الجديد المؤث حديثاً، أجواء عيد، وأخ جديد؛ خائمي، الذي ولد في أيار تحت برج الجوزاء. الطب، وكان خديجاً أيضاً. لم أعلم بمولده حتى وصولي، لأن أبوي كانا مصممين كما يبدو على تخفيف الولادات السنوية، فسارعت أمي إلى التوضيح لي بأن ذلك المولود هو ضريبة للقديسة ريتا، واعتراضاً بفضلها في الرخاء الذي دخل البيت. بدت مستعيدة شبابها وسعيدة، وأكثر طرباً من أي وقت مضى. وكان أبي يطفو في أجواء طبب المزاج، فالعيادة مزدهمة والصيدلية جيدة التجهيز، ولا سيما في أيام الأحاد التي يأتيه فيها المرضى من الجبال المجاورة. لست أدري إذا ما كان قد عرف يوماً أن ذلك التدفق هو نتيجة شهرته كمداو جيد، وإن كان الريفيون لا يعززون تلك الشهرة إلى فضائل الطب التجانسني وكرات السكر التي يقدمها إليهم ومائه العجيب، وإنما إلى جودة فنونه كساحر.

كانت سوكرى أفضل مما هي عليه في الذاكرة، بسبب التقليد الشائع في أعياد الميلاد، بانقسام الأهالي إلى حيين كبيرين: سوليا في الجنوب، وكونغويو في الشمال. وكانت تقام، فضلاً عن مناقسات أخرى، مسابقة عربات رمزية مزينة، تمثل في مباريات فنية، المنافسة التاريخية بين الحيين. وأخيراً، في ليلة الميلاد، يلتقي الجميع في الساحة الرئيسية، ووسط مجادلات كبيرة، يقرر الجمهور، أي الحيين هو الفائز في تلك السنة.

أسهمت كارمن روسا، منذ وصولها، في إضفاء بريق جديد على عيد الفصح. كانت متحضرة ومتأنقة. وصارت سيدة حفلات الرقص، يلحق بها رتل من المتوددين الصاخبين. وأمي التي كانت شديدة الغيرة على بناتها، لم تكن كذلك معها. بل على العكس، كانت تسهل لها علاقاتها بالمتوددين الذين أدخلوا إيقاعاً فريداً على جو البيت. لقد قامت بينهما علاقة تواطؤ، لم تُقم أمي مثلها قط مع بناتها. أما أبيلاردو من جانبه، فقد حلّ شؤون حياته بطريقة أخرى، في مشغل خياطة مؤلف من محل واحد يقسمه حاجز. وكان عمله كخياط، يمضي على ما يرام. ولكن ليس أفضل من اعتداله كفعل، فقد كان يقضي، مع رفيقة جيدة في السرير، وراء الحاجز، وقتاً أطول من الذي يمضيه، وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خطرت لوالدي في تلك الإجازة، أن يبدأ بتبشيشي للأعمال التجارية. "قد تحتاج إليها"، هكذا نبهني. وكان أول ما بدأ بتعليمي إياه، هو تحصيل ديون الصيدلية من بيوت المدينين. وفي أحد تلك الأيام أرسلني لجباية ديون عديدة من "لاأورا"، وهو ماخوّر بلا مزاعم أبهة يقوم عند خارج القرية.

أطلتُ من باب مفتوح قليلاً لغرفة تطل على الشارع، ورأيت إحدى نساء البيت نائمة القبلولة، في فراش هوائي، وبلايس لا تغطي فخذيها. وقبل أن أتكلم إليها، جلست في السرير، ونظرت إلي نظرة ناعسة، وسألتنى ماذا أريد. قلت لها إنني أت برسالة من أبي إلى دون إليخيو مولينا، مالك المحل. ولكنها بدلاً من أن تدلني على مكانه، أمرتني بأن أدخل وأغلق مزلاج الباب، وأشارت لي بسايتها إشارة قالت لي بها كل شيء:

- تعال.

ذهبت إليها. وكلما اقتربت كانت أنفاسها المندفعة تملأ الحجرة مثل فيضان نهر، إلى أن استطاعت إمساكي من ذراعي بيدها اليمنى، وانسلت يدها اليسرى إلى فتحة بنطالي. فأحسستُ برعب لذيذ.

- أنت إذن ابن دكشور الأقراص المكورة - قالت لي بينما هي تداعبني من داخل البنطال بخمسة أصابع رشيقة، أحسستُ كما لو أنها عشرة. خلعت عني بنطالي دون أن تتوقف عن الهمس في أذني بكلمات دافئة، ثم خلعت قميص نومها من رأسها واستلقت على ظهرها فوق السرير، وليس عليها سوى سروالها الداخلي المزين بأزهار ملونة. وقالت: - هذا ستخلعه أنت عني، إنه واجبك كرجل. أرخيتُ تكته، ولكنني لم أستطع في تعجلي خلعه عنها، فاضطرت إلى مساعدتي بساقيها الممدودتين جيداً وبحركة سيّاح سريعة. ثم رفعتني في الهواء من تحت إبطي، ووضعتني فوقها على طريقة المشر الأكاديمية. وما تبقى قامت به بنفسها، إلى أن مت فوقها وحسب، ملعبطاً في حساء بصل فخبها المهريين.

استراحت بصمت، مائلة قليلاً على جانبها، وهي تنظر بتمعن إلى عيني، فبادلتها النظرة بوجه أن نبدأ ثانية من جديد، ودون خوف الآن ولوقت أطول. وفجأة قالت لي إنها لن تتقاضى مني البيزوين اللذين تأخذهما مقابل ما تقدمه من خدمة، لأنني لم أكن مستعداً. ثم استلقت على ظهرها وأمعنت النظر في وجهي وقالت:

- ولأنك كذلك الأخ العاقل للويس إنريكي، أليس كذلك؟ فأنت لك الصوت نفسه.

وقد واثنتي البراة لأسألها كيف تعرفه. فضحكت:

- لأنك أبه. فلدي هنا أحد سراويله الداخلية الذي اضطرت أن أغسله له في المرة الأخيرة.

بدأ لي قولها مبالغة غير معقولة، بسبب سن أخي. ولكنها حين أرنتني إياه، أدركت أن ما تقوله صحيح. ثم قفزت عارية من السرير برشاقة راقصة باليه. وبينما هي ترتدي ثيابها، أوضحت لي أنني سأجد إليخيرو مولينا في الباب التالي من البيت، إلى اليسار. وأخيراً سألتني:

- هذه هي ممارستك الأولى، أليس كذلك؟

طفر قلبي من مكانه، وكذبت عليها:

- لا أبداً، لقد فعلتها سبع مرات من قبل، على الأقل.

فقلت لي بإيماءة ساخرة:

- عليك أن تطلب من أخيك، على أي حال، أن يعلمك قليلاً.

منحني ذلك التدشين دفعة حبوية. كانت الإجازة من كانون الثاني حتى شباط. وقد تسالمت كم من المرات عليّ أن أتدبر بيزوين اثنين لكي

أعود إليها. أما أخي لويس إنريكي، الحبير المجرب في أمور الجسد، فكان يتفجر ضاحكاً، لأن هناك من هو في سننا، ويضطر إلى الدفع، مقابل شيء - يقوم به اثنان معاً، ويستمتعان معاً.

ضمن روح تقاليد موخانا الإقطاعية، كان سادة الأرض يتمتعون بحق تدشين عذراوات إقطاعياتهم. وبعد بضع ليال من سوء الاستعمال، يتخلون عنهن لمصيرهن. وهكذا كانت تتوفر لنا إمكانية الاختيار بين من يخرجن لاصطيادنا في الساحة، بعد الخروج من حفلات الرقص. ومع ذلك، فقد كن في تلك الإجازة يسبين لي الخوف نفسه الذي أشعر به من الهاتف. وأرى مرورهن مثل مرور السحب في الماء. لم أجد لحظة سكينه من الغم الذي خلّفته في جسدي، مغامرتي الأولى العارضة. ومازلت أعتقد حتى اليوم، بأنه ليس من المبالغة الظن أنها كانت السبب في سوء الحالة المعنوية التي رجعت بها إلى المدرسة. تغلغل عيني تماماً غشاوة تلك الحماقة العبقريّة التي نظمها الشاعر البوغوتي دون خوسيه مانويل ماروكين، وكانت تصيب المستمعين بمس من الجنون منذ المقطع الأول:

الآن، بينما النباح يُكَلِّب، والصباح يُدَبِّك،

الآن بينما تُنْقَس الدويات عالياً،

وبينما النهيق يُحْمَرُّ، والزقزقة تُعَصْفِر،

والتردد بعصفُر، والقباع يخنزِر،

والوردي فجراً امتدادات مذهبة يُخَقِّل،

الآن، متلاثة ندى قطرات مثل انسكابِي تدمع

وأنا أتبرد من الارتجاف مع أن الجمر روحاً،

أجيء لأنتهد اطلاقاتي نافذتك تحت.

لم أكن أدخل الفوضى فقط، حيثما حللت، وأنا أرتل مقاطع القصيدة غير المتناهية، وإنما تعلمت كذلك، التكلم بطلاقة أحد السكان المحليين، دون أن أدري أين. وكثيراً ما كان يحدث لي أن أجيب عن أي سؤال، ولكن الجواب يكون في الغالب غريباً ومسلماً. حتى أن المعلمين كانوا يتجنبونني، ولا بد أن القلق قد راود أحدهم بشأن سلامتي الذهنية، عندما قدمت إليه في أحد الاختبارات رداً صائماً، إنما لا يمكن حل رموزه للوهلة الأولى. ولست أتذكر أنه كان ثمة سوء نية في تلك المداعبات السهلة التي تسلي الجميع، وتقتهم.

لقت انتباهي أن القساوسة صاروا يتكلمون إليّ، كما لو أنهم فقدوا رشدهم. فكنت أجارهم بالطريقة نفسها. وسبب آخر للذعر هو أنني ابتكرت تحويرات ساخرة لتراويل الكورال الكنسي، باستخدام كلمات وثنية لم يفهمها أحد لحسن الحظ. أخذني المعلم الوصي علي، بالاتفاق مع أبوي، إلى طبيب مختص أجرى لي فحصاً منهكاً، ولكنه مسلّ جداً، لأنه فضلاً عن سرعته الذهنية، كان يتمتع بلطف شخصي وانهج جارف لا يقاوم. طلب مني أن أقرأ دفاتر تتضمن جملاً منقلوبة بتوجب عليّ فهمها. فعلت ذلك بحماس شديد، لم يستطع الطبيب معه مقاومة إغراء التدخل، ومشاركتي للعبة، وقد خطرت لنا اختبارات مستنبطة بالغة الحدق، فدوّن ملاحظات عنها ليضمها إلى متهم فحوصاته القادمة. ولدى الانتهاء من التحقيق الدقيق حول عاداتي، سألتني كم مرة أستمني. فأجبت بأول إجابة خطرت لبيالي: لم أتجرأ على عمل ذلك قط. لم يصدقني. ولكنه عتّب، كما لو أنه يفعل ذلك سهواً، بأن الخوف عامل سلبي للصحة الجنسية، وبدا لي عدم تصديقه أقرب إلى التحريض. رأيت

فيه رجلاً رائعاً. وقد رغبت في اللقاء به بعد أن كبرت وصرت صحفياً في جريدة الهيرالدو، لكي يخبرني بالنتائج الخاصة التي استخلصها من فحصه لي. والشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه قد انتقل إلى الولايات المتحدة، منذ عدة سنوات. وكان أحد زملائه القدامى أكثر وضوحاً حين قال لي بتأثر شديد، إنه لا يستغرب أبداً أن يكون في إحدى المصحات العقلية في شيكاغو، لأنه كان يراه على الدوام، أسوأ حالاً من مرضاء. شخص الحالة على أنها إنهاك عصبي، زادته حرجاً، القراءة بعد الغداء. أوصاني بالراحة المطلقة لمدة ساعتين من أجل عملية الهضم، والقيام بنشاط بدني أكثر عنفاً من دروس الرياضة المفروضة. وما زالت تفاجئني الصرامة التي طبق بها أبواي وأساتذتي أوامره. نظمو قراءاتي. وفي أكثر من مناسبة انتزعوا الكتاب مني عندما وجدوني أقرأ في قاعة الدرس، واطعوا الكتاب تحت المقعد. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على ممارسة مزيد من الرياضة البدنية، لعدة ساعات يومياً. وهكذا، بينما يكون الآخرون في الدرس، كنتُ ألعب وحيداً، في باحة كرة السلة، مسجلاً نقاطاً حقا، ومرتلأ أشعاراً من الذاكرة. انقسم زملائي في الصف، منذ اللحظة الأولى: فكان هناك من فكروا في أنني مجنون، في الواقع، منذ الأزل. ومن ظنوا بأنني أتصنع الجنون لأستمع بحياتي. ومن واصلوا التعامل معي على أساس أن المجانين هم المعلمون، وإلى تلك الفترة، تعود الرواية القائلة إنني طردت من المدرسة، لأنني قذفت معلم الحساب بدواة حبر، بينما هو يكتب تمارين معادلة من الدرجة الثالثة على السبورة. لحسن الحظ أن أبي تفهم الأمر بصورة بسيطة، وقرر إعادتي إلى البيت، دون أن أنهى العام الدراسي، وعدم هدر مزيد

من الوقت والمال، على عارض صحي، يمكن له ألا يكون أكثر من علة كبدية.

أما بالنسبة إلى أخي ألبيلاردو بالمقابل، فلم تكن هناك مشكلة في الحياة، لا يمكن حلها في الفراش. وبينما كانت أخواتي يوفرن لي علاجاً من الشفقة والحنان، علمني هو الوصفة السحرية، مذ رأني أدخل مشغله:

- ما أنت بحاجة إليه هو ساق جيدة.

وقد أخذ الأمر على محمل الجد، حتى إنه كان يذهب مدة نصف ساعة، إلى صالة البيلاردو على الناصية، ويتركني وراءه الهاجز في مشغل الحياطة، مع صديقات له من كل الأجناس. وفي كل مرة مع واحدة مختلفة. كانت تلك مرحلة تعصف وتجاوزات خلاقة، بدت كأنها تؤكد التشخيص السريري لألبيلاردو، لأنني رجعت في السنة التالية إلى المدرسة، بعقل سليم.

لن أنسى أبداً، السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسيه، والتقدير الذي أبدوه احتفاءً بمفعول أقراص دواء أبي المكورة. لم أذهب في هذه المرة للعيش مع الزوجين بالديلاتكيث، لأن بهيتهما لم يعد يتسع لي بعد ميلاد ابنتهما الثاني. وإنما عشت في بيت دون إليسير غارسيا، أحد أشقاء جدي لأبي، المشهور بطيبته ونزاهته. لقد عمل في مصرف حتى بلغ سن التقاعد. وكان أكثر ما أثر بي هو شغفه الأبدي باللغة الإنكليزية. لقد درسها طوال حياته، منذ الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة، كتمارين مغناة بصوت جميل ولكنة جيدة، إلى حيث سمح له العمر بذلك. وكان يذهب في أيام الأعياد والعطلات إلى المرفأ

لاصطياد سانحين والتكلم إليهم. وقد توصل إلى إتقان الإنكليزية بالقدر نفسه الذي كان يتقن به القشتالية على الدوام. ولكن خجله كان يمنعه من التكلم مع أحد من معارفه. ولم يتمكن من سماعه يتكلمها، قط، أبناؤه الذكور الثلاثة، وهم جميعهم أكبر مني، ولا ابنته الوحيدة فالينتينيا.

ومن خلال فالينتينيا - التي كانت صديقتي العظيمة والقارئة الملهمة - اكتشفت وجود حركة "رمل وسما"، المؤلفة من جماعة شعراء شباب أخذوا على عاتقهم، تجديد شعر ساحل الكاريبي، مقتدين بمثال بابلو نيرودا الحميد. والحقيقة أنهم كانوا نسخة محلية مكرورة لجماعة "حجر وسما"، التي سادت في تلك السنوات، في مقاهي الشعراء في بوغوتا. وفي الملاحق الأدبية التي يشرف عليها إدواردو كارانثا، في ظل الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينث، بالإصرار الصحي على كنس أوراق شجرة القرن التاسع عشر الميتة، لم يكونوا أكثر من نصف دزينة خارجين لتوهم، من المراهقة، ولكنهم برزوا بقوة في الملاحق الأدبية، على الساحل، إلى حد بدأ يُنظر إليهم على أنهم وعد أدبي كبير.

قائد جماعة "رمل وسما" ويدعى سيسر أغوستو دل بايي، كان في حوالي الثانية والعشرين من عمره. ولم يقتصر، في حمل اندفاعه التجديدي إلى الموضوعات والمشاعر، وإنما كذلك إلى الإملاء والقواعد النحوية في قصائده. فكان هرطوقياً في نظر دعاة النقاء اللغوي، وأبده في نظر الأكاديميين، ومتخبطاً في نظر الكلاسيكيين. والحقيقة مع ذلك، أنه كان، فضلاً عن نضالينه المعقدة - مثل نيرودا - رومانسياً لا خلاص له.

أخذتني ابنة عمي فالينتينيا، في يوم أحد، إلى البيت الذي يعيش

فيه سبسر مع أبويه، في حي سان روكني، أكثر أحياء المدينة قصفاً ولهاواً. كان متين العظام، قائم البشرة ونحيفاً. له أسنان أرنب كبيرة وشعر مشعث على طريقة شعراء زمانه. وهو فوق ذلك، عرييد ومفتوح السروال. كان بيته، وهو بيت طبقة متوسطة فقيرة، مترعاً بالكتب دون مجال لكتاب آخر جديد. وكان أبوه رجلاً جدياً وأقرب إلى الكآبة. له مزاج موظف متقاعد، ويبدو معموماً لمبول ابنه القاحلة. وقد احتضنتني أمه بشيء من الأسى، كإبن آخر يعاني الداء نفسه الذي طالما جعلها تنكي على ابنها.

كان ذلك البيت، بالنسبة لي، كشفاً عن عالم ربما كنت أحده، وأنا في سن الرابعة عشرة تلك. ولكن دون أن أعرف إلى أي حد. وقد تحولت منذ ذلك اليوم الأول، إلى زائر الأكثر مواظبة. وكنت أخذ الكثير من وقت الشاعر، حتى إنني مازلت غير قادر إلى الآن، على تفسير كيف أمكن له أن يتحملني. وقد توصلت إلى التفكير في أنه كان يستعملني لممارسة نظرياته الأدبية التي ربما كانت اعتباطية، ولكنها مبهرة، مع محدث مبهور لكنه مسالم. كان يعيرني كتباً لشعراء لم أسمع بأسمانهم من قبل، فأناقشها معه دون أدنى وعي لمدي جنسارتي. ولا سيما نيرودا الذي حفظت عن ظهر قلب "قصيدته العشرين"^(١) لكي أخرج بعض المعلمين الجيزويت عن طورهم، وهم الذين لا يتوغلون في مجاهل هذا النوع من الشعر. في تلك الأيام، اصطخيت أجواء المدينة الثقافية، بسبب قصيدة لميريا ديلمان، عن مدينة كارتاخينا دي إندياس، شغلت كل أوساط الساحل. وقد بلغت براعة الإلقاء والصوت اللذين قرأ

(١) قصيدة نيرودا قبل الأخيرة في ديوانه المشهور "عشرون قصيدة حب وأغنية يانسة".

بهما سيسر دل بايي القصيدة على، حداً جعلني أحفظها عن ظهر قلب، بعد القراءة الثانية.

وفي مرات كثيرة أخرى، لم نستطع التكلم، لأن سيسر كان يكتب على طريقته، ماشياً عبر الحجرات والممرات، كما لو أنه في عالم آخر. وبعد كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، ير أمامي كالمسرنم، ثم يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، فيكتب بيتاً من الشعر، أو كلمة، أو حتى نقطة أو فاصلة، ثم يعود للمشي من جديد. وكنت أراقبه مبهوراً بانفعال سماوي، لأنني اكتشف الطريقة الوحيدة والسحرية لكتابة الشعر. هكذا كنت على الدوام، خلال سنواتي في مدرسة سان خوسيه، التي منححتني الركيزة البلاغية لإطلاق شياطين شعري. أما آخر خبر بلغني، عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد سنتين من ذلك في بوغوتا، فهو برقية من فالينتينيا مؤلفة من كلمتين اثنتين، لم يطاوعها قلبها على التوقيع عليهما: "مات سيسر".

أول شعور أحسست به في بارانكيا، بغياب أبوي، هو وعيي لحرية الاختيار. كان لي أصدقاء أحافظ عليهم خارج المدرسة. منهم ألفارو دل تورو - الذي كان يُثني على تصريحاتي في الاستراحات بين الدروس - وقبيلة آل آربيتسا الذين اعتدت الهرب معهم إلى المكتبات والسينما. ذلك أن الشرط الوحيد الذي فُرض عليّ في بيت العم اليسير، للحفاظ على مسؤوليتهم عني، هو عدم التأخر في العودة إلى البيت، إلى ما بعد الثامنة ليلاً.

بينما كنت في أحد الأيام، أنتظر سيسر دل بايي، وأنا أقرأ في صالة بيته، جاءت للبحث عنه امرأة مفاجئة. اسمها مارتينا فونسيكا.

وهي بيضاء مسكوبة في قالب خلاصية، ذكية ومستقلة. يمكن لها أن تكون عشيقته الشاعر. وقد عشت لساعتين أو ثلاث ساعات، أوج متعة التحدث معها، إلى أن رجع سيسر إلى البيت، وذهبا معاً، دون أن يخبراني إلى أين. لم أعد أعرف شيئاً عنها حتى يوم الأربعاء الرماد، من تلك السنة، عندما خرجت من القفاس الأكبر ووجدتها تنتظرنني على أحد مقاعد الحديقة. ظننت أنها رؤيا. كانت ترتدي ثوباً مطرزاً من الكتان، يُبرز جمالها الباهر، وتضع عقداً مبهرجاً، وزهرة نار متوقدة على فتحة ثوبها عند الصدر. ومع ذلك، فإن أكثر ما أقدره الآن في الذاكرة، هو الأسلوب الذي دعنتني به إلى بيتها، دون أدنى ملمح من التكفير المسبق، ودون أن نأخذ في الاعتبار علامة الصليب المقدس المرسومة بالرماد، على جبهتنا. كان زوجها، وهو قبطان سفينة قحمر نهر مجدلينا، يقوم بمهام عمله في رحلة تستمر اثني عشر يوماً. وما الغريب في أن تدعوني زوجته، في يوم سبت ما، لتناول فتجان من الشوكولاته، مع المعجنات؟ لا شيء سوى أن التقليد تكرر طوال بقية تلك السنة، بينما الزوج مسافر في سفينته، ودوما ما بين الساعة الرابعة والسابعة، وهو وقت العرض السينمائي المخصص للصغار في سينما ريكس، فكان ذلك ينفعني، كذريعة في بيت عمي إليسير، حين أكون معها.

كان اختصاصها المهني هو إعداد معلمي المرحلة الابتدائية للترقية، وكانت تستضيف أكثرهم كفاة في بيتها، في ساعات فراغها. وتقدم لهم الشوكولاته والمعجنات. ولهذا لم يول أهل الحي الصاحب اهتماماً لتلميذ أيام السبت الجديد. انسيابية ذلك الحب السري الذي تأجج ناراً مجنونة منذ أذار حتى تشرين الثاني، كانت مفاجئة. فبعد أول سبتين،

اعتقدت أنني لن أطيق صبراً على تحمل الرغبة العارمة، في أن أكون معها طوال الوقت.

لقد كنا بمنجى من كل خطر، لأن زوجها كان يعلن عن مجيئه إلى المدينة، بإشارة مشفرة، لكي تعلم هي وحدها، بأن سفينته تدخل الميناء. وهذا ما حدث في السبت الثالث من غرامياتنا، عندما كنا في الفراش، وسُمع جوار السفينة البعيد. فتصلت هي.

- ابن صامتاً - قالت لي، وانتظرت جوارين آخرين تالين. ولكنها لم تقفز من السرير، مثلما كنت أنتظر بسبب خوفي، وإنما وصلت دون مبالاة وهي تقول: - ما زالت أمامنا ثلاث ساعات من الحياة.

كانت هي نفسها قد وصفته لي "بمنجي ضخم بطول مترين وشبر، وله قضيبي مدفعي". كنتُ على وشك أن أكسر قواعد اللعبة في نوبة غيرة، وبطريقة غير عادية؛ فقد أردت قتله. ولكن نضجها هو الذي حلَّ المسألة. فقد اقشادتنني، منذ ذلك الحين برسن، عبر عقبات الحياة الواقعية، وكأنها تقتاد ذئباً صغيراً يجلد حمل.

رحت أتردى من سبب إلى أسوأ في المدرسة. ولم أنشأ أن أعرف شيئاً عن ذلك. ولكن سارتينا تولت بنفسها أمر محنتي المدرسية، فاجأتها صبيانية إهمالي لدروسي في سبيل إشباع شيطان ميل لا يقاوم إلى الحياة. وقد قلت لها: "الأمر طبيعي". فلو كان هذا الفراش هو المدرسة، وكنت أنت المعلّمة، لكنتُ الأول ليس في صفي وحسب، وإنما في المدرسة كلها". وقد أخذت قولتي كعشال صائب. وقالت لي:

- هذا هو بالضبط ما ستفعله.

واندفعت، دون توضيحات كبيرة، في مهمة إعادة تأهيلي، وفق

توقيت ثابت، كانت محل واجباتي المدرسية وتهبتي لدروس الأسبوع التالي، بين طفرات السرير وتأنيبات الأم. فإذا لم تكن واجباتي المدرسية على ما يرام، تعاقبتني بسبت من الحرمان عن كل ثلاثة أخطأ. ولكنني لم أعجز الحظيتين قط. وبدأ التبدل يظهر عليّ، في المدرسة.

ومع ذلك، فإن ما علمتني إياه بالممارسة، كان معادلة مؤكدة الصواب لم تفدني، لسوء الحظ، إلا في سنتي الثانوية الأخيرة: إذا ما انتهت إلى دروسي وأجزت واجباتي بنفسى، دون استنساخها من زملائي، فإنني سأنال تقديراً حسناً. ويمكّني القراءة مثلما أشاء، في ساعات فراغي، ومواصلة حياتي الخاصة دون سهر منك أو مخاوف مفاجئة بلا طائل. بفضل هذه الوصفة السحرية، كنت الأول على دفعتي في سنة ١٩٤٢ تلك، وتلت ميدالية الامتياز وتنويهات شرف من كل نوع. ولكن الاستداح والامتنان وجهًا إلى الأطباء الذين أحسنوا صنعاً بعلاجي من الجنون. وقد أدركت فجأة في الحفل، أن هناك جرعة من الصفاقة، في التأثير الذي كنت أرد به، في السنوات السابقة، شاكرًا المدائح التي تكال لي عن استحقاقات لم أكن جديرًا بها. أما في السنة الأخيرة، عندما كنت استحقها عن جدارة، بدا لي عدم تقديم الشكر، عملاً وقوراً. ولكنني رددت من كل قلبي، بقصيدة غيبيرمو بالينشيا "السيرك" التي ألقيتها كاملة، في الحفل الختامى، وكنت مرعوباً أكثر من مسيحي في مواجهة الأسود.

قررت أن أذهب في إجازة تلك السنة الحميدة، لزيارة الجدة ترانكيلينا في أراكاتاكا. ولكنها اضطرت هي إلى المجيء بصورة مستعجلة إلى بارانكيا لإجراء عملية جراحية بسبب إظلام شبكية

عينها. وقد اكتملت سعادتي برؤيتها مجدداً، مع سعادتي بمعجم الجد الذي حملته إليّ، كهدية. لم تلحظ أبداً أنها كانت تفقد بصرها، أو أنها لم تشأ الاعتراف بذلك، إلى أن صارت لا تستطيع التنقل في حجرتها. كانت العملية الجراحية التي أجريت لها في المستشفى الخيري، سريعة، مع تبنّيات طيبة. وعندما نزعوا الضمادات، وهي جالسة في السرير، فتحت عيني شبابها الجديد المشعنين، وأشرق وجهها، وهي تلخص سعادتها بكلمة واحدة:

- أرى.

أراد الطبيب الجراح أن يحدد ما الذي تراه أكثر. فمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة، وراحت تعدد كل شيء بدقة باهرة. انحبست أنفاس الطبيب. ولكنني أنا وحدي، من كنت أعرف أن الأشياء التي تعددها الجدة، ليست هي الموجودة أمامها، في غرفة المستشفى؛ وإنما محتويات غرفة نومها في أراكاتاكا، التي تستحضرها من ذاكرتها، بالترتيب الذي هي عليه. ولم تستعد بصرها، بعد ذلك اليوم قط.

ألح والداي على أن أقضي إجازتي معهما، في سوكري، وأن آخذ الجدة معي. كانت قد هرمت أكثر بكثير من سنّها، وكان ذهنها يضي على غير هدى. وقد شُحذ جمال صوتها، وصارت تغني أكثر، وبالهام أكبر من أي وقت آخر. اهتمت أمي بإبقائها نظيفة ومرتبّة، كما لو أنها دمية ضخمة. كان واضحاً أنها تعي العالم، ولكنها تنسبه إلى الماضي. وبخاصة برامج المذيع التي تروّظ فيها اهتماماً طفولياً. فقد كانت تتعرف على أصوات مختلف المذيعين الذين يحدد هويتهم، على أنهم أصدقاء شبابها، في ريوهانشا، لأنه لم يدخل مذياع، قط، إلى بيتها

في آراكاتاكا. وكانت تخالف أو تنتقد بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم البرامج المتنوعة، أو تؤنبهم على أي خطأ نحوي، كما لو أنهم، بلحمتهم وعظمتهم، إلى جوار سريرها، وترفض أن تُستبدل ملابسها، طالما لم يلق المذيعون بحمة الوداع. وعندما ينفعلون، ترد عليهم بحسن تربيتها السليمة:

طابت ليلتك أيها السيد.

أسرار كثير من الأشياء المفقودة، أو المخبأة، أو المسائل المحظورة، توضحت من خلال منولوجاتها؛ من الذي أخذ، في تابوت، مضخة الماء التي اختفت من البيت في آراكاتاكا، ومن هو في الحقيقة والد ماتيلدي سالونا، الذي أخطأ فيه اخوته وجعلوه يدفع الثمن بالرصاص.

لم تكن سهلة كذلك إجازتي الأولى في سوكري. من دون مارتينا فونسيكا، إنما لم يكن هناك أدنى إمكانية لذهابها معي، وصجره التفكير في أنني لن أراها، طوال شهرين، بدا لي أمراً غير معقول. أما هي فلا. بل على العكس، فعندما طرحت الموضوع، أدركت أنها، كعادتها، كانت قد سبقني بثلاث خطوات. فقد قالت لي، دون أسرار أو غموض:

هذا ما كنتُ أريد التحدث فيه. الحل الأمثل لكلينا هو أن تذهب للدراسة في مكان آخر، بعد أن صرنا الآن مجنونين، بحاجة إلى تقييد، وهكذا، ستتوصل إلى القناعة، بأن ما بيننا لا يمكن له أن يصير أبداً، أكثر مما كان.

أخذتُ كلامها بسخرية:

سأذهب غداً وأعود بعد ثلاثة أشهر، لأبقى معك.

فردت علي بموسيقى تانغو:

- ها، ها، ها، ها، ها

عندئذ أدركتُ أنه من السهل، إقناع مارتينا، عندما تقول نعم، ولكن لا يمكن إقناعها مطلقاً، عندما تقول لا. وهكذا تناولت قفازي، مستحماً بالدموع، وقررت أن أكون شخصاً آخر، في الحياة التي فكرت بها هي لي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرون، وحتى طريقة أخرى في حياتي. لم أكد أفكر في ذلك، حين كان أول ما قلته لأبي بشي، من الوقار، وسلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنني لن أرجع إلى مدرسة سان خوسيه. ولا إلى مدينة بارانكيا. فقال هو:

- تبارك الرب! فقد كنتُ أسألك على الدوام، من أين جاءتك رومانسية الدراسة لدى الجيزويت.

فتجاوزتُ أمي هذا التعليق قائلة:

- إذا هو لم يدرس هناك، فلا بد أن يذهب إلى بوغوتا.

وردة أبي على الفور:

- لن يذهب إذن إلى أي مكان، لأنه لا وجود لأموال تكفي أولئك الكاتشاكو هناك.

أمر غريب! فمجرد فكرة عدم مواصلي الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي عندئذ، غير محتملة. حتى إنني لجأت إلى حلم لم يبدُ لي يوماً أنه ممكن التحقيق، إذ قلت:

- هناك منح دراسية.

فقال أبي:

- أجل، الكثير منها، ولكنها للأغنياء.

كان ذلك صحيحاً جزئياً. ولكن ليس بسبب المعاهاة والمحسوية، وإنما لأن الإجراءات صعبة وشروط القبول سيئة التوزيع والانتشار. ويحكم النظام المركزي، فإن كل مستطع إلى متحة، عليه الذهاب إلى بوغوتا، على بعد ألف كيلومتر، بطلب اجتيازها ثمانية أيام من السفر، ويكلف ما يعادل ثلاثة شهور تقريباً، في مدرسة داخلية جيدة. ويمكن، مع ذلك، أن يكون السفر دون طائل. استشاطت أمي غضباً:

- عندها يفتح أحدنا غطاء آلة المال، يعرف أين يبدأ، ولكنه لا يعرف أين ينتهي.

أنصف إلى ذلك، أنه كانت هناك أمور أخرى مؤجلة. فلويس إتركي الذي يصغرني بسنة، كان قد سُجِّل في مدرستين محليتين، وهرب من كليهما، بعد شهور قليلة. ومرغريتا وعابدا تدرسان على ما يرام، في مدرسة ابتدائية للراهبات، ولكنهما بدأتا التفكير في الانتقال إلى مدينة قريبة، وأقل كلفة، من أجل الدراسة الثانوية. أما غوستافو، وليخيا، وريتا، وخيمي فلم يكونوا مستعجلين بعد، ولكنهم يكبرون بإيقاع متوعد. وكان هؤلاء، أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يتعاملون معي، كشخص لا يأتي دائماً، إلا لكي يغادر.

كانت تلك هي سنتي الحاسمة. وكانت أكبر جاذبية، في عرايت المنافسة المزيئة، هن الفتيات المختارات للطفهن وجمالهن، واللواتي كن يرتدين ثياب الملكات، ويلقن أشعاراً تعريضية، تلمح إلى الحرب الرمزية، بين نصفَي القرية. وكنتُ أنا، نصف الغريب، أستمتع بامتياز كوني محايداً. وعلى هذا الأساس كنت أتصرف. ولكنني في تلك السنة، تنازلت أمام توسلات قادة حي كونغوييو، لأكتب لهم أبيات شعر

تلقيها أختي كارمن روسا التي ستكون ملكة إحدى العرايات الضخمة. وقد أرضيتهم بكل سعادة، ولكنني بالفت في مهاجمة المحصم، بسبب جهلي قواعد اللعبة. فلم يبق لي مخرج آخر سوى ترقيع تلك الفضيحة بقصيدتي سلام: واحدة ترميمية جميلة حي كونغوييو، وقصيدة مصالحة لجميلة حي سوليا، شاع خير الحادثة. وهكذا تحول الشاعر شبه المجهول، في البلدة، إلى بطل الاحتفال. وقد قدمني الحدث في المجتمع، وجعلني جديراً بصداقة الفريقين. ومنذ ذلك الحين، لم يعد لدي وقت للمساعدة في المسرحيات الطفلية، والأسواق الخيرية، ومهرجانات بانصيب الإحسان، وحتى في كتابة خطاب مرشح للمجلس البلدي.

لويس إتركي الذي كان يتباهى بعازف الجيتار الملهم الذي صار إليه، علمني عزف التيبلي^(١). وتحولت معه ومع فيلادلفيو بيليبيا إلى ملوك السرينات، براودنا الأمل الكبير بأن ترتدي بعض المحتفى بهن ملابسهن بسرعة، ويفتحن الباب، وبوقظن الجارات، لنواصل الحفلة حتى الفطور. في تلك السنة أثرت الجماعة، حين انضم إليها خوسيه بالينشيا، حفيد مالك أراضٍ ثري ومبذر. كان خوسيه موسيقياً قظراً قادراً أن يعزف على أي آلة موسيقية تقع بين يديه، له مظهر قنان سينمائي. وكان راقصاً مجومياً، يمتع بذلك مبهراً ويحفظ محسوداً، أكثر مما هو قابل للحسد في الغراميات العابرة.

أما أنا، بالمقابل، فلم أكن أتقن الرقص، ولم أستطع تعلمه، حتى في بيت الأنسات لوسيباو، وهن ست أخوات مقعدات بالولادة، ولكنهن يعطين مع ذلك دروساً في الرقص الجيد، دون أن ينهضن عن كراسيهن

(١) التيبلي triple آلة موسيقية تشبه الجيتار ولكنها أسفر منه حجماً، وأغناها أكثر حدة.

الهزاجة. أبي الذي لم يكن قط، من النوع غير المبالي بالسمعة، تقرب مني برؤية جديدة. وصرنا، لأول مرة، نكرس ساعات طويلة، لتبادل الحديث. كنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر. الواقع أنني، وأنا أنظر اليوم إلى ذلك، لم أعش مع أبي أكثر مما مجموعته ثلاث سنوات، بما في ذلك ما عشته معهما في أراكاتاكا، وبارانكيّا، وكاراتاخينا، وسينيشي، وسوكري. لقد كانت تجربة لطيفة جداً أتاحت لي التعرف عليهما، بصورة أفضل. وقد قالت لي أمي ذلك: "كم هو جيد أنك صرت صديقاً لأبيك". وبعد أيام من ذلك، بينما هي تعدّ القهوة في المطبخ، قالت لي أيضاً:

- أبوك فخور بك.

وفي اليوم التالي، جاءت توقظني، على رؤوس أقدامها، وهمست في أذني: "أبوك يخشى لك مفاجأة". وبالفعل، عندما نزلت لتناول الفطور، قدم هو نفسه لي الخبز، بحضور الجميع وبتفخيم مهيب:

- جهز أشياك، فسوف تذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت إحباطاً كبيراً، فما كنت أرغب فيه آنذاك، هو البقاء غارقاً في حفلات الصخب الأبدية. ولكن البراءة تغلبت. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للملابس المنطقية الباردة. فلدى والدي، بدلة سوداء من الجوخ، وأخرى من المخمل، ولا تنطبق أي منهما على خصره. وهكذا ذهبنا إلى بيدروليون روساليس، المعروف باسم خياطة المعجزات، فأعاد تكييفهما على مقاسي. واشترت لي أمي كذلك، معطفاً من جلد الجممل، كان لسيناتور ميت. وبينما كنت أجريه في البيت، حذرتني أختي ليخيا، سرّاً - وهي متنبئة بالفطرة - من أن شبح السيناتور يمر ليلاً من بيته، وهو يرتدي المعطف. لم أولها اهتماماً. ولكن كان من الأفضل لي

أن أفعل، لأنني عندما ارتديته في بوغوتا، رأيت نفسي في المرأة، بوجه السيناتور الميت. فرهنته مقابل عشرة بيزوات، في محل رهونات موتني دي بيداد (جبل الرحمة) وتركته يضيع.

كانت الأجواء الأسرية قد تحسنت كثيراً، حتى إنني كنتُ على وشك اليكاه عند الوداع. ولكن البرنامج جرى بحذاقيره، دون إفراط في العواطف. في الأسبوع الثاني من كانون الثاني، أبحرت من بلدة ماغانغي في "القبطان أرانغو"، وهي السفينة الرئيسية في شركة نافيرا كولومبيانا، بعد أن عشت ليلة كرجل حر. زعملي في القمرة كان ملاكاً بزن متين وعشرين رطلاً، أمره الجسم بالكامل. له الاسم المُفتصّب "جك السفاح"، وهو المتبقي الأخير على قيد الحياة. من سلالة رماة السكاكين في السيرك، المتحدرين من آسيا الوسطى. بدا لي للوهلة الأولى، أنه يمكن له أن يخنقني بينما أنا نائم. ولكنني انتهيت في الأيام التالية، إلى أنه ليس أكثر مما يبدو عليه وحسب: طفل ضخم بقلب لا يتسع له جسده.

أقيمت حفلة رسمية في الليلة الأولى، بمشاركة فرقة موسيقية، مع وليمة عشاء فخمة. ولكنني هربت إلى السطح، تأملت لآخر مرة، أضواء العالم الذي أستعد لنسيانه دون ألم، وبكيت على هواي حتى الفجر. وأنجمر اليوم على القول، إن الشيء الوحيد الذي أرغب في أن أعود طفلاً من أجله، هو الاستمتاع بتلك الرحلة. لقد قتت بها فيما بعد، ذهاباً وإياباً، عدة مرات خلال السنوات الأربع المتبقية لي في الدراسة الثانوية، وستين آخرين في الجامعة. وفي كل مرة، تعلمت من الحياة، أكثر مما تعلمت في المدرسة، وأفضل مما في المدرسة. في الفترات التي

يكون فيها النهر مرتفعاً ومياهه كافية، تستغرق رحلة الصعود خمسة أيام، من بارانكيئا حتى بويرتو سالغار. ومن هناك تُستكمل الرحلة بالقطار إلى بوغوتا. أما في فترات الجفاف، وهي الأكثر متعة في الإبحار، إذا لم يكن المرء مستعجلاً، فيمكن أن تستمر حتى ثلاثة أسابيع.

كان للسفن أسماء سهلة ومباشرة: "أتلاتيكو"، "ميدلين"، "كابتن دي كارو"، "دافيد آرانغو". وقباطنتها، مثل قباطنة [جوزيف] كونراد، كانوا متسلطين ومن النوع الجيد. يأكلون كالبرابرة، ولا يستطيعون النوم وحيدين، في فتراتهم الملوكية. كانت الرحلات بطيئة ومفاجئة. وكنا نحن المسافرين، نجلس على الشرفات طوال اليوم، لنشاهد القرى المنسية، والتسايح المنبطح، وأشداقها مفتوحة بانتظار الفراشات غير المحذرة، وأسراب مالك الحزين التي تنطلق محلقة خوفاً، من أثر مخور السفينة، وقطعان بط المستنقعات الداخلية، والأطم التي تغني على الشواطئ، بينما هي تُرَضع صغارها. وخلال الرحلة كلها، يستيقظ المرء مشوشاً من صخب القروء والبيغاوات. وكثيراً ما تقطع القيلولة راحة مفززة لبقرة غارقة، ثابتة دون حراك، في خيط الماء النحيل، ومع نسر رخمة وحيد يجثم على بطنها.

من النادر أن يتعرف أحدنا الآن، على أحد في الطائرات. أما في السفن النهرية، فكان الأمر ينتهي بنا، نحن الطلاب، إلى أن نبدو أسرة واحدة؛ فقد كنا نتفق كل سنة لكي نلتقي معاً، في الرحلة نفسها. وكانت السفينة تعلق أحياناً لمدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، في إحدى المصاطب الرملية. ولم يكن أحد منا يشعر بالقلق، لأن الحفلة تتواصل.

وتكفي رسالة من القبطان مبهورة بخاتمه، كعذر، لوصولنا متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول، لفت انتباهي أصغر أفراد جماعة أسرية كان يعزف الباندونيون^(١) كما لو أنه في الأحلام، وهو يتجول طوال أيام كاملة، على سطح الدرجة الأولى. لم أستطع تحمل الحسد، ذلك أنني منذ أن سمعت أول عازفي الأكورديونات، من جماعة فرانثيسكو الإنسان في أعباد العشرين من تموز في أراكاتاكا، سعيتُ جاهداً من أجل أن يشتري لي جدي أكورديوناً. ولكن جدتي اعترضت، كعادتها المراتبة الدائمة، بأن الأكورديون هو آلة بلهاء. وبعد ثلاثين سنة من ذلك، ظننت أنني تعرّكت في باريس، على عازف الأكورديون المشائق في السفينة، في مؤتمر عالمي لأطباء الأعصاب. كان الزمن قد فعل فعله: فقد أطلق حية بوهيمية، وكبرت ملبسه على مقاسه حوالي ثمتين. ولكن ذكرى براعته، كانت لا تزال حية، بحيث لا يمكنني أن أخطئ. ومع ذلك، ما كان يمكن لجوابه أن يكون أكثر فظاظة، حين سألته، دون أن أقدم نفسي:

- كيف حال الباندونيون؟

فأجابني متفاجئاً:

- لا أدري عمّ تتكلم.

أحسست بأنني أسفُ التراب، وقدمت إليه تفسيراتي البائسة بأنني أخطأت، وظننته طالباً كان يعزف الباندونيون في السفينة "دافيد آرانغو"، في أوائل شهر كانون الثاني سنة ٤٤. عندئذ أشرق متألماً بالذكري. كان ذلك الرجل هو الكولومبي سالمون حكيم، أحد أعظم أطباء

(١) الباندونيون bandoneon آلة موسيقية من نوع الأكورديون .

الأعصاب في العالم. وكانت خيبة الأمل في أنه تحسرك من عزف
الأكورديون، إلى الهندسة الطبية.

وقد لغت نظري مسافر آخر، بسبب انزوانه. كان شاباً مريوعاً، ذا
شعر أشقر، ضارب إلى الحمرة، يضع نظارة حسيبر بصر، وله صلعة
مبكرة، بدا لي، الصورة النمذجية للسائح الكاتشاكو. احتكر لنفسه،
منذ اليوم الأول، أكثر المقاعد راحة، ووضع عدة أكدماس من الكتب
المجددة على طاولة صغيرة، وصار يقرأ دون توقف، منذ الصباح إلى أن
تشد اهتمامه حفلات الغناء والصخب الليلية. وكان يظهر كل يوم في
قاعة الطعام، بقميص شاطئ مختلف ومزين بالأزهار، فيتناول قظوره،
وغداه، وعشاءه ويواصل القراءة، وحبداً على المتضدة الأكثر انزواً. لا
أظن أنه تبادل التحية مع أحد. وقد عمدته بيني وبين نفسي، بلقب
"القارئ النهم".

لم أستطع مقاومة إغراء التلصص على كتبه. كانت في معظمها
مراجع عسيرة الهضم، في القانون العام. بقروها في الصباح، وهو يؤشر
تحت السطور، ويدون ملاحظات في الهوامش. ومع برودة المساء، يقرأ
روايات. منها رواية أصابني بالذهول: "القرين" لدوستوفسكي، إذ كنت
قد حاولت سرققتها من إحدى مكتبات بارانكيبا، ولم أستطع. وكنت
أتلهف بجنون لقراءتها، حتى إنني أردت طلبها منه، ولكنني لم أجرؤ
على ذلك. وفي أحد تلك الأيام، ظهر معه رواية مولان الكبير، ولم
أكن قد سمعت بها، ولكنني ضمنتها بعد وقت قصير من ذلك، إلى
قائمة الأعمال البارعة المفضلة لدي. أما أنا بالمقابل، فلم أكن أحمل
سوى كتب قرأتها من قبل، ولا يمكن إعادة قراءتها: جيرومين للأب

كولوما، التي لم أنه قراءتها قط؛ والدائمة، لحوسيه إوستاسيو ريفيرا؛
ومن جبال أبينون إلى جبال الأنديز، لإدموندو دي أميسس؛ ومعجم الجد
الذي كنت أقرأ فيه مقاطع متفرقة طوال ساعات. بينما لم يكن لدى
القارئ النهم، من جهته، ما يكفي من الوقت، لقراءة ما لديه. وما أريد
قوله، ولم أقله، هو أنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء، مقابل أن أكون
هو.

المسافر الثالث هو جاك السفاح، طبعاً، زميلي في القمرة الذي كان
يتكلم، وهو نائم، بلغة همجية، طوال ساعات كاملة. وكانت لمداخلته
تلك إيقاع مترنم، يعضي خلفية جديدة على قراءاتي عند الفجر. قال لي
إنه لا يعي ذلك، ولا يعرف ما هي اللغة التي يحلم بها، لأنه في
طفولته، كان يتفاهم مع البهلوانات في سيركه، بست لغات أسبوية.
ولكنه فقدوها كلها بعدما توفيت أمه. ولم تبق له سوى اللغة البولونية،
وهي لغته الأصلية. ولكن يمكن الإقرار بأنها ليست اللغة التي يتكلم بها
وهو نائم، لا أتذكر كائناً أكثر منه مودة. وهو بزيت سكاكينه المشؤومة،
ويجرها على لسانه الورد.

كانت مشكلته الوحيدة هي يومه الأول في قاعة الطعام، عندما قال
للندل إنه لن يستطيع العيش حتى نهاية الرحلة، ما لم يقدموا إليه وجبة
تعادل حصّة أربعة أشخاص. وقد أوضح له مساعد الرهان أنهم سيفعلون
ذلك، إذا هو دفع ثمناً إضافياً مع تخفيض خاص. فاحتج بأنه قد سافر
في كل بحار العالم، وكان الجميع يعترفون بحقه الإنساني في عدم
البقاء جائعاً. ورفعت القضية إلى الرهان الذي قرر، على الطريقة
الكولومبية جداً، أن تقدم له حصتان، وأن يطلق الطهاة يدهم قليلاً

لتنوفر له حصتان أخريان سهواً. وساعد هو نفسه أيضاً بتناول لقيمات بشوكتيه من أطباق زملائه على المائدة، وبعض الجيران ضعيفي الشهية، ممن كانوا يستمتعون بدعاباته. لا بد للمرء من أن يكون هناك ليصدق ذلك.

لم أكن أدري ما أفعله بنفسى، إلى أن سعدت إلى السفينة في لاغوريا، جماعة من الطلاب الذين راخوا يشكلون فرقةً ثلاثية ورباعية في الليل، ويقنون سيرنادات شجية وأغنيات بوليرو غرامية. وعندما اكتشفتُ أنهم بحاجة إلى صوت صادح، عرضت عليهم أن أؤديه أنا. وصرت أقرن معهم بعد الظهر، ونغني حتى الفجر. وهكذا وجدت للمل ساعات فراغي، علاجاً مرتبطاً بالقلب؛ لا يمكن لمن لا يغني أن يتخيل ما تعنيه متعة الغناء.

في ليلة مكتملة القمر، أيقظنا نواح مؤثر يأتي من الضفة، فأصدر الفبطان كليماكو كوندي ألبيسو، أحد أعظم الربانة، أمره بالبحث بالمصايح الكشافة، عن مصدر ذلك النواح. فكانت أنثى أطم عالقة بأغصان شجرة ساقطة. فألقى بحارة السفينة البخارية بأنفسهم إلى الماء، وربطوها برافعة رحوية، وتمكنوا من تخليصها. لقد كانت كائناتاً رائعاً ومؤثراً، تجمع بين المرأة والبقرة. طولها حوالي أربعة أمتار. لها جلد داكن ولين، وصدرها ذو الثديين الكبيرين، أشبه بصدر أم توراتية. وقد سمعتُ الكابتن كوندي ألبيسو يقول إن العالم سينتهي إذا ما واصلوا قتل حيوانات النهر. وقد منع إطلاق النار من سفينته. وقال صارخاً:

- من يرد أن يقتل أحداً، فليذهب ويقتله في بيئته وليس في سفينتي.

إنني أتذكر يوم التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٦١، بعد ست عشرة سنة من ذلك، يوم نحس، لأن صديقاً اتصل بي، وأنا في مكسيكو، ليخبرني بأن السفينة البخارية "دافيد أرانغو" قد احترقت واستحالت رماداً في مرفأ ماغانغي. أغلقتُ سماعة الهاتف، براودني شعور رهيب بأن شبابي قد انتهى في ذلك اليوم، وبأن القليل المتبقي لنا من الحنين إلى نهرنا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مجدلينيا اليوم، هو نهر صيت، يباهه العفنة وحيواناته المنقرضة. وأعمال الترميم التي طالما تحدثت عنها الحكومات المتتالية، لم يتحقق منها شيء، فهي تتطلب غرس ستين مليون شجرة، في تسعين بالمئة من أراضٍ تعود إلى ملكيات خاصة، يتوجب على مالكيها، أن يتخلوا عن تسعين بالمئة من دخلهم، جياً بالوطن وحسب.

كل رحلة كانت تخلف لدينا قدراً كبيراً من التعلم الحياتي. يضعنا على ارتباط بصورة عابرة، إنما لا تُنسى، بالقرى التي نمر منها، حيث ارتبط مصير بعضنا بها إلى الأبد. فهناك طالب طب مشهور دخل، دون دعوة، إلى حفل زفاف راقص، ورقص دون إذن، مع أجمل امرأة في الحفلة، فقتله الزوج برصاصة. وآخر تزوج وهو ثمل، في سكرةٍ ملحمية، من أول فتاة أعجبتته في بويتو بيريرو. وما زال سعيداً معها ومع أبنائهما التسعة هناك. وخوسيه بالينشيا، صديقنا الذي من سوكري، كسب بقرة في مسابقة مهرجان شعبي في تينيريفي، وباعها هناك بالذات، مقابل خمسين بيسو؛ وهي ثروة في ذلك الزمن. وفي حي التسامح الهائل في بارانكايرميخا، عاصمة البترول، فوجئنا بأنفسنا نغني مع أوركسترا أحد مواخير آتخل كاسيخ بالينشيا، ابن عم خوسيه،

الذي كان قد اختفى من سوكري، دون أن يخلف أثراً منذ السنة السابقة. أما حساب ما فعلناه، فتكلفت به الأوركسترا حتى الفجر.

الذكرى غير اللطيفة، هي ما جرى لنا في حانة مكفهره في بوپرتو ببيرو، حيث أخرجتنا الشرطة بالضرب بالهروى، وكنا أربعة من ركاب السفينة، دون تقديم أي تفسير لنا، أو سماع أي تفسير منا. واعتقلونا بتهمة أننا اغتصبنا إحدى التلميذات. وعندما وصلنا إلى مركز الشرطة، كانوا قد احتجزوا وراء القضبان المذنبين الحقيقيين، دون خمس احد منهم. وهم بعض الزعران المحليين، وليست لهم أي علاقة بسفینتنا.

في محطتنا الأخيرة، بوپرتو سالانغار، كان علينا أن نزل إلى البر، في الساعة الخامسة صباحاً، مرتدين ملابس مناسبة للمناطق المرتفعة. وهكذا تبدت هينات الرجال بالبدلات السوداء، مع الصدار. والقبعة لها شكل الفطر، والمعاطف معلقة بأذرعهم، ما بين تقافز الضفادع وتنانة النهر المترع بحيوانات ميتة. وعندما حان موعد النزول من السفينة، وقعت لي مفاجأة غريبة، فقد كان أحد الأصدقاء، قد أقنع أمي في اللحظة الأخيرة، بأن تعد لي بقجة تضم شبكة من ألياف نبات البيت، ودثاراً من الصوف، ومبولة صغيرة للطوارئ، وأن تلف كل ذلك بحصيرة من الخلفاء، وتربطه بصورة متصالية بحبال تعليق أرجوحة النوم. لم يستطع زملائي الموسيقيون كبح ضحكهم وهم يرون معي، مثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة. وأقدم أكثرهم جرأة، على ما لم يكن بمقدوري الإقدام عليه: ألقى بالحزمة إلى الماء. وكانت رؤياي الأخيرة من تلك الرحلة التي لا تنسى، هي البقجة العائدة إلى موطنها، منهادية مع التبار.

كان قطار بوپرتو سالانغار يصعد، كما لو أنه يحبو على أفاريز الصخر، خلال الساعات الأربع الأولى. وفي المقاطع الأكثر انصباباً، ينزل متراجعاً ليستجمع قواه ويحاول الصعود من جديد، مطلقاً لهات تنين. وكان لا بد للمسافرين، في بعض الأحيان، من النزول لتخفيف وزن المحملة، والسير على الأقدام حتى الحافة الجبلية التالية. كانت قري الطريق كنيبة ومنجدة، لا ينتظرنا في محطاتها المقفرة سوى البائعات الأبديات اللواتي يعرضن علينا من نوافذ العربات، دجاجات سمينة وصفراء، مطهوه بكاملها، وبظاظا مثلجة لها طعم المجد. هناك أحسستُ أول مرة، بحالة جسدية مجهولة لدي وغير مرئية: البرد. عند الغروب، انفتحت أمامنا فجأة، لحسن الحظ، السهول الفسيحة الممتدة حتى الأفق، خضراء وجميلة، مثل بحر سماوي. فصار العالم ساكناً ومقتضباً، وتحول جو القطار إلى آخر.

كنتُ قد نسيت تماماً القارئ النهم، عندما ظهر فجأة وجلس قبالي، بمظهر المتعجل. كان أمراً لا يصدق، فقد أعجبتني أغنية بوليرو، غنيهاً في ليالي السفينة، فطلب مني أن أدون له كلماتها. لم أكتف بعمل ذلك، وإنما علمته كيف يغنيها أيضاً، فاجأتني حسن سماعه وبريق صوته، عندما غناها وحيداً، مضبوطة وجيدة، منذ المرة الأولى. وهتف مشرقاً:

- تلك المرأة ستموت، عندما تسمعها!

وهكذا فهمت لهفته. فسمعت أن سمع البوليرو، ونحن نغنيه في السفينة، أحس بأن ذلك اللحن سيكون إلهاً للخطية التي ودعته في بوغوتا، قبل ثلاثة شهور. وهي تنتظره في ذلك المساء، في المحطة. لقد سمع الأغنية مرتين أو ثلاث مرات. وكان قادراً على تركيب أجزائها،

على وشك السقوط منهوكاً، وجلستُ عليه لألتقط الأنفاس التي افتقدتها. لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع. والقليل الذي تمكنت من رؤيته، هو ناصبة جادة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بهباب الفحم، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر عن سطح البحر، وسط هواً قطبي يعوق التنفس.

انتظرتُ، مبتتاً من البرد، ما لا يقل عن نصف ساعة. كان لا بد لشخص من أن يأتي، ذلك أن أبي أرسل برقية مستعجلة إلى دون إليسير توميس أرانغو، وهو قريب له، ليكون في انتظاري. ولكن ما كان يفلتني عندئذ، ليس مجيء، أو عدم مجيء أحد، وإنما الخوف من وجودي جالساً، على صندوق كأنه القبر، دون أن يكون هناك من أعرفه في الجانب الآخر من العالم. وفجأة نزل من سيارة تكسي، رجل وجيه، يحمل مظلة من الحرير، ويرتدي معطفاً من صوف الجمال، يصل حتى كاحليه. أدركت أنه من يبحث عني، بالرغم من أنه لم ينظر إليّ. ومرّ به عَرَضاً، فلم أجد الجرأة للإشارة له بأي إيماءة. دخل راكضاً إلى المحطة، ثم عاد للخروج، بعد دقائق، دون أي بادرة أمل. وأخيراً اكتشف وجودي، وأشار إليّ بإصبعه السبابة:

- أنت غابيتو، أليس كذلك؟

فأجبت من روحي:

- تقريباً.

ولكنه حين رأيته أجلس وحيداً على المقعد في القطار، قرر أن يطلب مني ذلك الجميل. وقد تجرأت أنا عندئذ، على القول له، بنية مبسطة، ودون أي مناسبة أو مقدمات، إنني فوجئت كثيراً حين رأيت على طولته، كتاباً من الصعب العثور عليه. أما مفاجأته فكانت حقيقية:

- أي كتاب هو؟

- القرين.

ضحك راضياً، وقال:

- لم انتبه من قراءته بعد. ولكنه من أغرب ما وقع بين يدي.

لم يتجاوز ذلك الحد. شكرني بكل التدرجات الصوتية على أغنية البوليرو، وودّعني بالشد، بقوة على يدي.

بدأ الظلام يخيم، عندما أخذ القطار يخفف من سرعته. مرّ من غير مترع بالتحردوات الصدئة، ورسا عند رصيف مظلم. أمسكت صندوق أمتعتي من لسان الجر، وسحبته نحو الشارع، قبل أن يصدمني حشد الناس. وكنت على وشك الوصول، عندما صرخ أحدهم:

- أيها الشاب، أيها الشاب!

التفت لأنظر، مثلما فعل عدة شبان، وآخرون أقل شباهاً كانوا يسرعون مثلي، ومرّ عندئذ القارئ النهم إلى جانبي، وأعطاني كتاباً دون أن يتوقف.

- فليكن هنيئاً لك - صرخ بذلك، وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو "القرين"، وكنت مذهولاً إلى حد لم أنتبه معه إلى ما جرى لي. وضعت الكتاب في جيب المعطف، وصدفتني ريح الغسق الجليدية عندما خرجت من المحطة. تركت الصندوق على الرصيف وأنا

دافعه ربه فقله لئولئك يتوسعون في رزقهم ويؤمنون بما نزلنا
من الكتاب ولهم في الدنيا رزق كفافاً ولهم في الآخرة رزق كفافاً
ولهم فيها زوجات مطهرة وهم فيها خالدون

فقلنا يا موسى انزلنا عليك الكتاب بالبينات والذكر العظيم
فقلنا يا موسى انزلنا عليك الكتاب بالبينات والذكر العظيم
فقلنا يا موسى انزلنا عليك الكتاب بالبينات والذكر العظيم

كانت بوغوتا، آنذاك، مدينة نائية وكثيبة، يهطل فيها رذاذ مطر
مؤرق، منذ مطلع القرن السادس عشر. لفت انتباهي وجود كثير من
الرجال المستعجلين في الشارع، يلبسون مثلما ألبس، منذ وصولي،
بدلات من الجوخ الأسود وقبعات قاسية. ولكن لا تظهر بالمقابل، امرأة
واحدة تبعث العزاء في النفس. كان محظوراً عليهن الدخول إلى المقاهي
الكالحة في المركز التجاري، مثلما هي حال القساوسة الذين يرتدون
ملابس الكهنوت، والعسكريين الذين هم بالزي الرسمي. وكان يُعلق، في
عربات الترام والمراحيض العامة، إعلان كئيب: "إذا كنت لا تخشى الله،
فاخشِ السفلس".

أذهلتني الأحصنة الضخمة التي تجر عربات البيرة، وشرر الألعاب
النارية الذي يطلقه الترام عندما ينعطف في الزوايا، وعرقلة حركة
المروء، من أجل فتح الطريق للجنائز التي تتقدم مشياً على الأقدام،
تحت رذاذ المطر. لقد كانت المظهر الأكثر كآبة، في عربات فاخرة تجرها
خيول مكسوة بالمخمل، مع قنزعة من الريش الأسود، تحمل جثث أناس
من أسر راقية، تتصرف مثل مخترعي الموت. أمام مدخل كنيسة لاس
نيفيس، رأيتُ من سيارة التاكسي، أول امرأة في الشارع، كانت

ممشوقة القوام ورشيقة، ذات مهابة كبيرة، كأنها ملكة في حداد. ولكنني بقيت إلى الأبد، بنصف الوهم، لأنها كانت تغطي وجهها بخمار لا يمكن اختراقه.

لقد كان انهياراً معنوياً كاملاً. فالبيت الذي أمضيت فيه تلك الليلة، كان كبيراً ومرحاً. ولكنه بدا لي شحياً، بسبب حديثه الكالحة ذات الورود القاتمة، والبرد الذي يطحن العظام. إنه بيت أسرة توريس غامبوا، أقرباء أبي ومعارفي. ولكنني رأيتهم غرباء، أثناء العشاء، وهم متلغعون بأرواب النوم. وكانت مفاجأتي الكبرى، عندما انزلت تحت ملايات السرير، وأطلقت صرخة رعب، لأنني أحسست بأنها مبللة بسائل متجمد. فأوضحوا لي أنها تبدو كذلك، في المرة الأولى، وأني سأخذ بالاعتقاد شيئاً فشيئاً، على غرابة المناخ. وقد بكيت ساعات طويلة بصمت، قبل أن أتوصل إلى إغفاءة غير سعيدة.

تلك هي الحالة المعنوية التي كنتُ عليها، بعد أربعة أيام من وصولي، بينما أنا أمشي بكل سرعة، في مواجهة البرد ورذاذ المطر، نحو وزارة التربية، حيث سيفتتح التسجيل للمسابقة الوطنية للمنتح دراسية. كان صف المنتظرين يبدأ من الطابق الثالث في الوزارة، أمام باب مكتب التسجيل بالذات، وينزل متلوياً على السلالم، حتى المدخل الرئيسي. لقد كان مشهداً يمزق القلب. وعندما انقطع المطر، في حوالي العاشرة صباحاً، تطاول الصف، أكثر من كوادرتين أخريين، في جادة خيمينث دي كيسادا. وكان لا يزال هناك متقدمون آخرون يلوذون بمداخل العمارات، بدا لي أنه من المستحيل الحصول على شيء، في ذلك التدافع للفوز.

بعد منتصف النهار بقليل، أحسست بطرقتين خفيفتين على كتفي. وكان قارئ السفينة النهم الذي تعرّف عليّ، بين آخر الواقفين في الصف. ولكنني تكلفت جهداً في التعرف عليه، بقبعة الفطر التي يعتمرها، وملابس الكاتشاكو الماتمية. وبدا هو مستغرباً أيضاً، عندما سألتني:

- أي لعنة تفعلها هنا؟

فأخبرته.

- يا للأمر الغريب - قال وهو يكاد يموت من الضحك، وأضاف:- تعال معي. وأخذني من ذراعي باتجاه الوزارة. عندئذ عرفت أنه الدكتور أدولفو غوميث تامارا، المدير الوطني للمنتح المدرسية في وزارة التربية. كانت المصادفة الأقل احتمالاً، وواحدة من أكثر المصادفات توفيقاً في حياتي. وبمداغبة، من أكثر دعايات السلالة الطلابية صفاء، قدمني غوميث تامارا إلى مساعديه، على أنني أكثر مغني البوليفو الرومانسي إلهاماً. قدموا لي قهوة وسجلوني دون مزيد من الإجراءات. ولكن ليس دون أن ينبهوني، قبل ذلك، إلى أنهم لا يرمون بعملهم إلى تجاوز اللوائح. وإنما يدفعون آتاة تلك المصادفة. أخبروني أن الامتحان العام سيكون يوم الاثنين التالي، في مدرسة سان بارتولومي. وكانوا يقدرُونَ أن هناك ألف متقدم من كل أنحاء البلاد، إلى حوالي ثلاثمئة وخمسين منحة. وهذا يعني أن المعركة ستكون طويلة وشاقة؛ وربما ضربة قاضية لأحلامي. المقبولون المحظوظون سيعرفون النتائج بعد أسبوع، ومعها المعلومات عن المدرسة التي سيرسلون إليها. كان ذلك أمراً جديداً وحرماً بالنسبة لي، إذ يمكن لهم أن يرسلوني إلى ميدلين أو بيتشادا. وأوضحوا

لي أن هذا الفرز الجغرافي، بالقرعة، إنما أقرّ لتنشيط الحركة الثقافية بين مختلف المناطق، وعندما انتهت الإجراءات، شدّ تامارا على يدي بالحماس نفسه الذي شكرني به على أغنية البوليرو، وقال لي:

- كن متيقظاً. مصيرك الآن بين يديك.

ولدى خروجي من الوزارة، عرض عليّ رجل له مظهر كهنوتي، أن يحصل لي على منحة مؤكدة، دون التقدم إلى امتحان القبول؛ وفي المدرسة التي أرغب فيها، مقابل دفع خمسين بيزو. كان المبلغ ثروة بالنسبة لي. ولكنني أظن أنني كنت سأدفعه، لو أنني أملكه، كي أجنب رعب الامتحان. وبعد بضعة أيام، تعرّضتُ على ذلك المحتال، في صورة منشورة في الجريدة، باعتباره زعيم عصاة نصابين يتنكرون بزي القساوسة، للقيام بصفقات غير مشروعة، في الأجهزة الرسمية.

لم أفرغ صندوق أمتعتي. ليقيني بأنهم سوف يرسلونني إلى أي مكان. وكان تشاومي راسخاً إلى حد أنني ذهبت، عشية الامتحان، مع موسيقيي السفينة، إلى حانة بائسة في حي لاس كرويس الوعر. وكنا نغني مقابل الشراب، بسعر أغنية لكل كأس من التشبثشا، ذلك الشراب الرهيب من الذرة المخمرة، الذي يصفيه السكبرون الذواقة بالبارود. وهكذا وصلتُ متأخراً، إلى الامتحان، ورأسي ينض من الألم، دون أن أدري أين كنت، ولا حتى من الذي أوصلني إلى البيت. في الليلة السابقة. ولكنهم استقبلوني بدافع الشفقة، في صالة فسيحة ومزدحمة بالمتقدمين. وكان إلقاء نظرة عصفور سريعة على قائمة الأسئلة، كافياً لأن أدرك أنني مهزوم مسبقاً، لا محالة. ومن أجل إلهاء المراقبين فقط، شغلت نفسي بأسئلة العلوم الاجتماعية. وقد بدا لي أنها

الأقلّ قسوة. وفجأة أحسست بأن هالة إلهام تتلبسني، وتتيح لي ارتجال إجابات معقولة، ورميات إعجازية موفقة. باستثناء أسئلة الرياضيات، التي لم تتّسع لي كما يشاء الرب. أما امتحان الرسم الذي أنجزته بسرعة، إنما بصورة جيدة، فكان مصدر راحتي. وقد قال لي زملائي الموسيقيون: "لا بد أنها معجزة شراب التشبثشا". أنهيت الامتحان على أي حال، وأنا في حالة استسلام نهائي، مع التصميم على كتابة رسالة إلى أبوي، حول الحقوق والأسباب، كيلا أعود إلى البيت.

قمت بواجب المراجعة، لمعرفة النتائج. بعد انقضاء أسبوع. ولا بد أن الوظيفة قد تعرّفت على إشارة ما في إجاباتي، لأنها اقتادتني، دون مسوغ، إلى حيث مديرها. وجدته رائق المزاج، يرتدي قميصاً قصير الأكمام، ويضع حملتي سروال حمراوين مبهرجتين. راجع درجات امتحاني باهتمام احترافي، تردد مرة أو مرتين، ثم زفر أخيراً، وقال لنفسه:

- ليس سيئاً. اللهم إلا في الرياضيات. ولكنك نجوت، بشعرة، بفضل الدرجات الخمس في الرسم.

دفع نفسه إلى الوراء، في الكرسي ذي النوايض، وسألني عن المدرسة التي فكرتُ فيها.

كانت تلك إحدى لحظات رعيي التاريخية، ولكنني لم أتردد:

- مدرسة سان بارتولومي، هنا في بوغوتا.

فوضع راحته على كدسة أوراق موضوعة على مكتبه.

- كل هذه هي رسائل من الوزن الثقيل، توصي بأبناء أو أقرباء أو أصدقاء، لفرزهم إلى مدارس هنا، في العاصمة - قال ذلك، ثم انتبه

إلى أنه ما كان عليه أن يقوله، فواصل: - إذا ما سمحت لي فسوف أساعدك. أفضل ما يناسبك هي المدرسة الوطنية في تيباكيرا، على بُعد ساعة في القطار.

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية، هو أن فيها مناجم ملح. وقد أوضحت لي غوميث تامارا أن مدرستها تعود إلى العهد الاستعماري. وقد جرى الاستيلاء عليها، من جمعية دينية، في عملية إصلاح ليبرالي حديثة. وفيها الآن، قائمة ممتازة من الأساتذة الشبان ذوي العقلية الحديثة. فكرت في أن الواجب يفرض علي، أن أخرجه من شكوكه، فقلت له منبهاً:

- ولكن والدي من المحافظين.

فقال:

- لا تأخذ الأمر بهذه الجدبة. فما أعنيه بليبرالي، هو سعة أفق

التفكير.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص، وقرر أن مصيري سيكون في ذلك الدبر القديم الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، والمتحول إلى مدرسة زنادقة، في فيلا حاملة، لا وجود فيها لأي وسيلة لهو سوى الدراسة. كان الدبر ينتصب، بالفعل، غير عابئ بالأبدية. لقد كانت هناك، في مراحلها الأولى، لوحة محفورة في الحجر تقول: رأس الحكمة مخافة الله. ولكن هذا الشعار، استبدل، وحل محله الشعار الوطني الكولومبي، عندما أمت حكومة الرئيس ألفونسو لوبيث بومارخو التعليم، سنة ١٩٣٦. ومد كنت في دهليز المدخل، وبينما أنا أستعيد أنفاسي من الاختناق بشقل الصندوق، أحسست بالانقباض، حين رأيت

الفتاء الصغير ذا الأعمدة الكولونيبالية المنحوتة من الحجر الصلد، والشرفات الخشبية المطلوبة بالأخضر، وعلى حوافها أصص أزهار كتبية، كل شيء، كان يبدو خاضعاً لنظام طائفة دينية بعينها، ويُلاحظ في كل شيء، بصورة واضحة، أنه لم يعرف تسامح يدي امرأة منذ أكثر من ثلاثمئة سنة. داهمني رعباً أنتي سأعيش السنوات الأربع الحاسمة من مراهقتي، في ذلك الزمن الراسخ، وأنا الذي ترعرعت على سوء تربية فضاءات منطقة الكاريبي التي لا تخضع لقانون.

ما زلت حتى اليوم، لا أصدق أن طابقين، حول فتاة صامتة، وبناءً مرجحلاً آخر، من الحجر في قطعة الأرض القصوى، يمكن لها أن تتسع لمنزل ومكتب المدير، والسكرتيريا الإدارية، والمطبخ، وقاعة الطعام، والمكتبة، وقاعات الدرس الست، ومخبر الفيزياء والكيمياء، والمستودع، والحمامات ودورات المياه، وقاعة النوم المشتركة ذات الأسرة الحديدية المتراكمة، لحوالي خمسين تلميذاً، جيء بهم جرجرة، من أشد ضواحي البلاد غمماً، وقلة قليلة من أبناء العاصمة. ولحسن الحظ أن شرط المنفى ذاك، كان نعمة أخرى لنجمي الطيب. فقد عرفت بفضلها، جيداً وسريعاً، كيف هي البلاد التي كانت من نصيبي في قُرعة العالم. فمع نصف دزينة الكاربيين الذين تبونوني، كواحد منهم، منذ وصولي، وتبنتهم أنا أيضاً بالطبع، كنا نقوم بتمييز لا مناص عنه، بيننا وبين الآخرين: أبناء العاصمة والغرباء.

مختلف الجماعات الموزعة في أركان الفتاة، منذ استراحة الليلة الأولى، كانوا نموذجاً غنياً يمثل الأمة. لم تكن هناك خصومات مادام كل واحد في ميدانه. وكانت علاقتي المباشرة مع المتحدرين من ساحل

الكاريبي، من كنا مشهورين، عن جدارة، بأننا صاخيون، متعصبون لتضامن الجماعة، ومولعون بالرقص. وقد كنتُ استثناءً من تلك القاعدة. ولكن أنطونيو مارتينث سيررا، وهو راقص رومبا، من كارتاخينا، علّمني الرقصات الرائجة، خلال الاستراحات الليلية، وكذلك فعل ريكاردو غوثالث ريبول، شريكى الكبير في إبحاراتى السرية، الذي صار مهندساً معمارياً مشهوراً. ولكنه لم يقطع، مع ذلك قط، الأغنية التي يدندن بها من بين أسنانه، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. وظل يرقص وحيداً حتى آخر أيامه.

مينتشو بورغوس، عازف البيانو الفطري، الذي توصل إلى أن يكون مايسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسس فريق غنا، المدرسة، ورغب في أن أتعلم معهم العزف على آلة موسيقية ما. وقد علّمني سرّ الصوت الثاني في غنا، البوليسرو وأغنيات الغايناتو. ومع ذلك، فإن تأثيره الكبرى هي تدريب غييرمو لوبيث غيراً، البوغوتي الصافي، على الفن الكاريبي. في عزف الرموز الموسيقية، وهي مسألة ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

أما هومبرتو خاميس، فكان دارساً مجتهداً لم يهتم بالرقص قط. يضحى بعطلات نهاية الأسبوع، ويظل يدرس في المدرسة. وأظن أنه لم يرق قط، كرة قدم ولم يقرأ وصفاً لأي نوع من المباريات الرياضية. إلى أن تخرج مهندساً في بوغوتا، ودخل جريدة التسمبو، كمحرر رياضي متدرب، حيث توصل إلى أن يكون واحداً من أفضل معلقي كرة القدم في البلاد. ولكن أغرب حالة أتذكرها، هي دون شك، حالة سيلفيو لونا، وهو أسمر داكن من تشوكو، تخرج محامياً، ثم بعد ذلك طبيباً.

وكان يستعد لبدء دراسة ثالثة، عندما توارى عن نظري، ولم أعد أراه. دانييل روثو - باغوئيو - تصرف على الدوام، كعالم في كل ميادين العلوم الإنسانية واللاهوتية. وكان يقدق منها دون حساب، في الدروس والاستراحات. وكنا نلجأ إليه على الدوام، ليطلعنا على أحوال العالم، خلال الحرب العالمية التي كنا نشاهدها بعض المتابعة، من خلال الإذاعات. إذ لم يكن مسموحاً دخول الصحف أو المجلات بانتظام، إلى المدرسة. أما المذباح، فلم نكن نستخدمه إلا للرقص، كل واحد منا يرقص مع زميل آخر. ولم يُتَح لنا قط، أن نعرف من أين يأتي باغوئيو بمعاركه التاريخية التي يخرج منها الحلفاء منتصرين، دوماً.

ربما كان سيرخيو كاسترو - دي كيشامي - أفضل تلميذ في كل سنوات المدرسة. وقد أحرز، دوماً، أعلى الدرجات منذ دخوله، ويبدو لي أن سره هو نفسه الذي نصحتني به مارتينا فونسيكا، في مدرسة سان خوسيه: لم يكن يضيع كلمة واحدة من المعلم أو من مداخلات زملائه في الدروس. ويدون ملاحظات حتى عن أنفاس الأساتذة، ويرتبها في دفتر مستقن. وربما هذا هو السبب في أنه لم يكن يحتاج إلى وقت، لكي يحضّر للامتحانات. ويقرأ كتب المغامرات، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما نحن الآخرين، نفتني أنفسنا في الدراسة.

أكثر أصدقائي مواظبة في الاستراحات، هو البوغوتي المحالض ألفارو رويث توريس الذي كان يتبادل معي الأخبار البومسية عن المحطبات في الاستراحة الليلية، بينما نحن نغشي بخطوات عسكرية في الفناء. ومن الأصدقاء الآخرين، خايمي براقو، وهومبيرتو غيبين، وألفارو بيدال بارون، الذين كنتُ على علاقة جيدة بهم في المدرسة. وواصلنا

اللقاء معاً، طوال سنوات في الحياة الواقعية. كان ألفارو رويث يذهب إلى بوغوتا، في نهاية كل أسبوع، لزيارة أسرته. ويرجع عموماً بالسجائر وأخبار الخطيبات. وكان هو من شجعني على إيمان هذين الأمرين. خلال الوقت الذي درسنا فيه معاً، ومن أهدى إليّ في هاتين السنتين الأخيرتين، أفضل ذكرياته، لينعش في ذاكرتي هذه المذكرات.

لست أدري ما الذي تعلمته في الواقع. خلال السجن في ذلك المعهد الوطني. ولكن أربع سنوات من المعيشة حسنة الانسجام مع الجميع، ألهمتني رؤية لحدوية الأمة. واكتشفت كم كنا متعددين، وما هي فائدتنا. وتعلمت ما لن أنساه أبداً، بأنه في جوهر كل واحد منا، توجد البلاد بأسرها. وربما كان هذا هو ما أرادوا قوله لي في الوزارة، حول التفتلات، بين المناطق التي ترعاها الحكومة. وبعد أن بلغت سن النضج، دُعيت إلى كاهنة قيادة طائرة عابرة للمحيط. وكانت أول كلمات وجهها إليّ كاهنة الطائرة، هي سؤالي من أين أنا. وقد كان سماعي لتلك الكلمات، كافياً لأن أقول له:

- إنني ساحلي، بقدر ما أنت سوغسوسمي.

فقد كان له الأسلوب نفسه، والإيماءات نفسها، ومادة الصوت نفسها التي ماركو فيدل بويّا، زميلي في مقعد السنة الرابعة، في تلك المدرسة. ضربة الحدس تلك، علمتني الإبحار في مستنقعات ذلك المجتمع الذي لا يمكن توقع مفاجآته، حتى وأنا بلا بوصلة ويعكس التيار. وربما كانت مفتاحاً يفتح كل الأبواب في مهنتي، ككاتب.

كنت أشعر، كما لو أنني أعيش حلماً. ذلك أنني لم أكن أتطلع إلى المنحة، لأنني أريد الدراسة. وإنما، من أجل الحفاظ على استقلالي عن

أي التزام آخر، دون الإساءة إلى علاقتي بالأسرة. ووجود ثلاث وجبات مضمونة، يكفي لافتراض أننا كنا نعيش في ملاذ الفقراء ذاك. أفضل من الحياة في بيوتنا، تحت رقابة ذاتية أقل صرامة من السلطة المنزلية. كان يسود قاعة الطعام نظام سوق يتبع لكل واحد منا، ترتيب الوجبة على هواه. دون أن تكون للنفود أي قبضة. فقد كانت بيضتنا الفطور المسلوقتان هما العملة التسعيرية، إذ يمكن بهما، شراء أي طبق آخر من الوجبات الثلاث. وكان لكل شيء قيمته العادلة، ولم يكن هناك ما يعكس تلك التجارة الشرعية. بل أكثر من ذلك؛ فأنا لا أذكر نزاعاً واحداً بلغ حد تبادل للكلمات، لأي سبب، خلال أربع سنوات من الدراسة الداخلية.

ولم يكن المعلمون الذين يأكلون على مائدة أخرى، في القاعة نفسها، بعيدين عن تلك المقايضات الشخصية، فيما بينهم. لأنهم ما زالوا يجربون عادات مدارسهم التي تخرجوا منها حديثاً. وكان معظمهم عازبين، يعيشون هناك بلا زوجات. وروايتهم ضئيلة، مثل المبالغ الشهرية التي ترسلها لنا أسرنا، تقريباً. فكانوا يشكون من الطعام، لأسباب كثيرة مثلنا. وفي إحدى الأزمات الخطرة، اقترنا من إمكانية التوافق مع بعضهم، على إضراب عن الطعام. ولكنهم عندما كانوا يتلقون هدايا، أو يستقبلون زائرين من الخارج فقط، تقدم لهم بأطباق ملهمة، مما يفسد المساواة. وكان هذا ما حدث، ونحن في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب جاموس، لدراسته في دورة التشريح التي يشرف عليها. وفي اليوم التالي، أرسل القلب إلى تلاجحات المطبخ، وهو لا يزال طازجاً ودامياً، ولكننا لم نجد هناك عندما

ذهبت لإحضاره للدرس. ثم تبين، في اللحظة الأخيرة، أن الطبيب، عندما لم يجد قلب جاموس، أرسل قلب عامل بناء بلا أهل، سقط مهشماً من طابق رابع. ونظراً لأن القلب لا يكفي للجميع، قام الطهاة بإعداده مع صلصات، شهية معتدين أنه قلب الجاموس الذي طلب منهم طهوه لمائدة الأساتذة. أظن أن تلك العلاقات المتدفقة، بين الأساتذة والطلاب، كانت مرتبطة بحركة إصلاح التعليم التي لم يبق منها إلا القليل للتاريخ. ولكنها أفادتنا على الأقل، في تبسيط البروتوكول، فنقلصت الفوارق في السن، وأهمل استخدام ربطة العنق، ولم يعد هناك من يصاب بالذعر، لأن المعلمين والطلاب يتناولون بضعة كؤوس معاً، ويذهبون، في أيام السبت، إلى الرقص، مع الحطبات معاً.

هذا الجو، لم يكن ممكناً، إلا مع نوع من المعلمين بسمحون، عموماً، بعلاقة شخصية سلسلة. فأستاذ الرياضيات، بسعة معارفه وحس سخريته اللاذع، يحوّل الدرس إلى حفلة مخيفة. كان يدعى خواكين خيرالدو سانتا، وهو أول كولومبي حصل على درجة دكتوراه في الرياضيات. ومن سوء حظي، رغم جهودي وجهوده الجبارة، لم أتوصل قط، إلى الاندماج بدرسه. كان من عاداته القول آنذاك، إن المسول الشعرية تتداخل مع الرياضيات، وإن الأمر لا ينتهي بأحدنا، إلى تصديق ذلك وحسب، وإنما الغرق فيه. وربما كانت الهندسة أكثر رحمة، بفعل وفضل سمعتها الأدبية. أما الحساب، بالمقابل، فيتصرف بتبسيط عدائي. وأنا مازلت أجد نفسي حتى اليوم، عندما أريد إجراء عملية جمع ذهنية، مضطراً إلى تفكيك الأعداد، إلى أبسط مكوناتها، وبخاصة السبعة والتسعة، اللذين لم أستطع حفظ جدولهما قط. ولكي

أجمع سبعة وأربعة، أحذف اثنين من السبعة، وأجمع الأربعة إلى الخمسة المتبقية، ثم أعود أخيراً، لجمع الاثنين المخدوفين من السبعة: "أحد عشراً". أما عمليات الضرب، فحقيقت تخونني دوماً، لأنني لم أستطع قط، تذكر الأعداد التي في ذاكرتي. وقد كرت للجبر، أفضل ما لدي من حماس، ليس احتراماً لروحه الكلاسيكية وحسب، وإنما حباً لمعلمي وخرفاً منه. ولكن دون جدوى. فقد كانوا يوبخونني في كل فصل دراسي، وقد تأهلت فيه مرتين، وخسرت في محاولات أخرى غير مشروعة، فكانوا يمحونني النجاح فيه، كصدقة.

ثلاثة معلمين آخرين متفانين هم معلمو اللغات. الأول - معلم الإنكليزية - هو مستر آيلا: كاربي صاف، ينطق أوكسفوردي متقن، وغيره كنسبة تجاه معجم ويبسترز الذي كان يتلوه، وهو مغمض العينين. وكان خليفته هو هيكتور فيغيروا، معلم شاب طيب، لديه هوى محوم بأغنيات البيليرو التي كنا نغنيها بأصوات متعددة في الاستراحات. لقد بذلت أفضل ما أستطيعه، في سيات الدروس وفي الامتحان النهائي، ولكنني أظن أن درجتي الجيدة لم تكن بفضل شكسبير، بقدر ما هي بفضل أغنيي البيليرو ليو مارني وهوغو روماني، المسؤولين عن الكثير من فراديس الحب وانتحاراته. أما معلم اللغة الفرنسية، طوال أربع سنوات؛ المنسيور أنطونيو بيلا ألبان، فوجدني مسمماً بالروايات البوليسية. وكانت دروسه تضجرتني، كما هي دروس الآخرين جميعهم. ولكن اقتباساته المناسبة من فرنسية الشوارع، ساعدتني كثيراً، في النجاة من الموت جوعاً في باريس، بعد عشر سنوات من ذلك.

معظم المعلمين كانوا قد تكونوا في دار المعلمين العليا، بإدارة

الدكتور خوسيه فرانسيسكو سوكاراس. وهو عالم نفس من سان خوان دي سيسر، عكف على تغيير التربية الكهنوتية التي سادت، طوال قرن من الحكومات المحافظة، ليُحلَّ محلها تربية عقلانية إنسانية. فكان مانويل كويبو دل ريو، ماركسياً واديكالياً. وربما لهذا السبب نفسه، كان يقدر لين بوتانغ، ويؤمن بظهور الموتى. وكانت مكتبة كارلوس كالدبيرون، التي تصدرها أعمال ابن بلدته خوسيه إوستاسيو ريفيرا، مؤلف رواية "الدوامة"، موزعة بالتساوي، بين الكلاسيكيين الإغريق، والشعراء "الحجر سماويين" المحليين، ورومنسيي كل الأنحاء. وبفضل هؤلاء وأولئك، كنا نحن القراء، القليلين المواطنين، نقرأ سان خوان دي لاکروث أو خوسيه ماري بارغاس بيلا. ولكننا كنا نقرأ كذلك، مؤلفات رسل الثورة البروليتارية، فاستاذ العلوم الاجتماعية غونزالو أوكامبو، كان يملك في غرفته، مكتبة سياسية جيدة، يجري تداولها دون نوايا خبيثة، في قاعات درس التلاميذ الكبار. ولكنني لم أفهم قط، لماذا كنا ندرس "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لغريديك إنجلز، في أمسيات الاقتصاد السياسي الجملة، وليس في دروس الأدب، باعتبارها ملحمة مغامرة إنسانية جميلة. لقد قرأ غييرمو لوبيث غيراً، في الاستراحات، كتاب "أنتي دوهرنغ" للإنجلز أيضاً. وكان قد استعاره من الاستاذ غونزالو أوكامبو. ومع ذلك، عندما طُلبت استعارته، لكي أتناقش فيه مع لوبيث غيراً، قال لي أوكامبو إنه لن يقدم لي هذا الجميل البغيض، بإعارتي ذلك المجلد الضخم والأساسي لتقدم الإنسانية، إنما الطويل والممل جداً إلى حد، ربما سيحول دون دخوله التاريخ. وربما أسهمت تلك المبادلات الأيديولوجية بسوء سمعة المعهد، واعتباره مخبر إفساد

سياسي. ومع ذلك، فقد احتجت لنصف حياة لكي أنتبه إلى أنها كانت أقرب إلى تجربة عفوية وتلقائية، لاستبعاد الضعفاء، وتلقيح الأقوياء، ضد أي نوع من الدوغمائية.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دوماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالدبيرون، معلم اللغة القشتالية في السنوات الأولى، ومعلم الأدب العالمي في السنة الرابعة، والأدب الإسباني في السنة الخامسة، والأدب الكولومبي في السنة السادسة، ومعلم شيء غريب عن تكوينه وعن ذوقه: المحاسبة. لقد ولد في نيفيا، عاصمة إقليم هويلا، ولم يكن يتعب من الإعلان عن تقديره الوطني للكاتب خوسيه إوستاسيو ريفيرا. وقد اضطر إلى قطع دراسة الطب والجراحة. وكان يتذكر ذلك على أنه إحباط حياته. ولكن شغفه بالفنون والآداب كان جارفاً. وقد كان أول معلم ينسف مسوداتي بملاحظاته وتوجيهاته المناسبة.

وعلى أي حال، كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين، تجري بطبيعية استثنائية، ليس في الدروس وحسب، وإنما في فناء الاستراحة، بعد العشاء بصورة خاصة. فكان ذلك يتيح تعاملاً مختلفاً عن الذي اعتدنا عليه، ومواتياً بكل تأكيد لأجواء الاحترام والرفاقية التي كنا نعيشها. إنني مدين بإحدى المغامرات المرعبة لأعمال فرويد الكاملة، التي وصلت إلى المكتبة آنذاك. لم أكن أفهم، بكل تأكيد، شيئاً من تحليلاته العويصة. ولكن عرضه للحالات السريرية كان يحبس أنفاسي حتى النهاية، مثل خيال جول فيرن. طلب منا المعلم كالدبيرون أن نكتب قصة قصيرة بموضوع حر، في حصة اللغة القشتالية. وخطرت لي قصة مريضة نفسية في حوالى السابعة من عمرها ويعنوان مدع، يمضي في اتجاه

معاكس للشعر: "عقدة نفسية هاجسية". طلب المعلم قراءة القصة في
الدرس. واستنكر جاري في المقعد، أوريليو بيريتو، دون تحفظ، غرور
الكتابة دون أدنى تكوين علمي أو أدبي حول تلك المسألة بالغة التعقيد.
فأوضحت له، بحقد أكثر من التواضع، بأنني أخذت الموضوع من حالة
سريرية يصفها فرويد في مذكراته، وأن هسي الوحيد هو استخدامها
لكتابة الواجب المدرسي. وربما ظن المعلم كالدبرون بأنني ساخط من
الانتقادات القاسية التي وجهها عدد من زملائي في الصف، فاستدعاني
جانبا، في الاستراحة، ليشجعني على المواصلة قداماً، في الطريق نفسه.
وأشار إلى أنه يبدو جلياً في قصتي، أنني أجهل تقنيات القصة
الحديثة. ولكنني أمتلك مع ذلك، الفطرة والرغبة، ورأى أن القصة
مكتوبة جيداً، وبنوايا أصيلة على الأقل. وقد حدثني لأول مرة، عن
البلاغة. قدم لي بعض الحيل العملية في الأسلوب والتنظيم، لتثبيت
الأمور، دون مزاعم وادعاءات. وانتهى إلى القول إنه عليّ في كل
الأحوال، أن أتاير على الكتابة، ولو من أجل صحتي الذهنية وحسب.
وكانت تلك هي أولى المحادثات المطولة التي دارت بيننا، خلال سنواتي
في المعهد، في الاستراحات وفي ساعات الفراغ الأخرى. وأدين لها
بالكثير في حياتي، ككتائب.

لقد كان ذلك هو جوي المثالي. فمنذ مدرسة سان خوسيه، تجردت لدي
إدماناً قراءاً كل ما يقع بين يدي، وصرتُ أشغل وقت فراغي وكل وقت
الدروس تقريباً، في القراءة. وفي السادسة عشرة من عمري، كنت
قصاراً، بنطق إسلاني سليم أو من دونه، على ترديد القصائد التي
تعلمتها في مدرسة سان خوسيه، دون أن ألتقط أنفاسي. كنتُ أقرأها

وأعيد قراءتها، دون مساعدة أو ترتيب، وخفية في معظم الأحيان خلال
الدروس. أظن أنني قرأت كامل مكتبة المعهد التي لا يمكن وصفها،
والمؤلفة من فضلات مكتبات أخرى قليلة الجدوى: مجموعات كتب
رسمية، وميرات أساتذة فقدوا الشهية إلى القراءة، وكتب لا ريب في
أنها وصلت إلى الشاطئ من سفينة غارقة لم بدر بها أحد. لا يمكنني أن
أنسى مجموعة "المكتبة الريفية" التي أصدرتها دار نشر مينيرفا،
بإشراف دون دانييل سامير أورتيغا، ووزعتها وزارة التربية على المدارس
والمعاهد. لقد كانت مجموعة من مئة مجلد، تضم كل ما هو جيد، وأسوأ
ما كتب في كولومبيا حتى ذلك الحين. فقررت قراءتها، وفق تسلسلها
الرقمي، إلى حيث سمحت به وحي. والأمر الذي ما زال يرعيني حتى
الآن، هو أنني كنت على وشك الانتهاء منها، خلال السنتين الأخيرتين.
ولم أستطع خلال حياتي التالية، أن أحسم إذا ما كانت قد أفادتني في
شيء.

الفجر في قاعة النوم، كان له شبه مربب بالسعادة، لولا الجرس
القاتل الذي برن كنافوس خطر - مثلما اعتدنا أن نقول - في الساعة
السادسة من منتصف الليل. وكان اثنان أو ثلاثة من المتخلفين ذهيباً
فقط هم الذين يقفزون من أسرهم، ليكوتوا الأوائل في الدور، على
دوشات الماء الجليدي الستة، في حمام قاعة النوم. أما نحن البقية،
فكنا نستغل الفرصة، لعصر آخر قطرات النعاس، إلى أن يأتي المعلم
المنابوب ويجوب القاعة، منتزعا البطانيات عن النائمين. لقد كانت ساعة
ونصف الساعة من الحميمية المكشوفة، من أجل ترتيب الفراش، وتلميع
الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد الذائب الذي يسيل من أنبوب دون

مشرقة، بينما كل واحد منا يُفْرُج عن إجاباته صارخاً، ويسخر من الآخرين، فتنتهك أسرار غرامية، وتعتقد صفقات ومحاكمات، وتبرم المقابضات التي ستمت في قاعة الطعام. وكان موضوع المناقشات الصباحية الدائم، هو الفصل الذي قُرئ في الليلة السابقة.

كان غييرمو غراناداس يطلق العنان، منذ الفجر، لمزاياه، كمغني تينور، في الشدو بقائمه غير المتناهية من أغنيات التانغو. وكنت أشكل ثنائياً مع جاري في قاعة النوم، ريكاردو غونثالث ريبول، لغناء أغنيات الغواراتشا الكاريبية، على إيقاع المحرقة، أثناء تلميع أذيتنا، عند رأس السرير. بينما زميلي ساباس كاريايو يذرع قاعة النوم، من أقصاها إلى أقصاها، مثلما ولدته أمه، وهو يعلق منشقة على عضوه الذي من الإسمنت الملح.

لو كان ممكناً، لهرب عدد لا بأس به منا، نحن الداخلين، حتى الفجر، لإنجاز مواعيد متفق عليها في نهاية الأسبوع. لم يكن هناك حراس ليليون، ولا أساتذة في قاعة النوم، باستثناء الأستاذ الأسبوعي المناوب، وبواب المعهد الأيدي، ريفيريتا الذي كان في الواقع، ينام مستيقظاً، طوال الوقت، بينما هو ينجز واجباته اليومية. لقد كان يعيش في الحجر التي عند المدخل، ويقوم بمهنته على أحسن وجه. ولكننا كنا نتمكن في الليل، من فتح باب الكنيسة الهائل، وإغلاقه دون ضجة، والاستمتاع طيلة الليل في بيت غريب، والعودة قبيل الفجر، عبر الشوارع الجليدية. ولم نعرف قط، إذا ما كان ريفيريتا ينام حقاً كالميت، مثلما كان يبدو، أم أن تلك هي طريقته المهدبة في التواطؤ مع قضاينه. لم يكن عدد من يهربون كسيراً. وكانت أسرارهم تتعفن في ذاكرة

زملاتهم المتواطئين معهم بإخلاص. لقد عرفت بعض من كانوا يهربون بصورة ورتينية، وآخرين يتجرؤون على الذهاب، مرة، متسلحين بالشجاعة التي يبشها توتر المغامرة، ويرجعون مستنفدين من الرعب. ولكننا لم نعلم قط أن هناك من انكشف أمره.

العائق الاجتماعي الوحيد الذي عانيت منه في المدرسة، هو الكوابيس المشؤومة التي ورثتها عن أمي، والتي كانت تبرز فجأة، في أحلام الآخرين، على شكل صرخات من وراء القبر. جيرانني في الأسرة، كانوا يعرفونها جيداً، ولا يخشونها، إلا بسبب رعب الصرخة الأولى في هدأة الفجر. وكان المعلم المناوب الذي ينام في قمره من الكرتون، يتجول مسرعاً، من أقصى قاعة النوم إلى أقصاها، إلى أن يستتب الهدوء من جديد. لم تكن أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، وإنما كانت لها علاقة كذلك بغذاب الضمير، لأنها جرت لي في مناسبتين، في بيوت التهتك والضلال. ولم يكن بالإمكان حل رموزها أيضاً، لأنها لم تكن ترد في أحلام مرعبة. وإنما على العكس من ذلك، في سياق أحداث سعيدة، مع أشخاص معروفين أو في أماكن مألوفة، وسرعان ما تكشف لي نظرة بريشة عن تفصيل مشؤوم. ولم يكن بالإمكان، مقارنة كابوسي بأحد كوابيس أمي، حين كانت ترى رأسها موضوعاً في حضنها، وهي تغليه من القمل والصبيان التي لا تتبح لها النوم. ولم تكن صرخاتي صرخات رعب، وإنما نداءات استغاثة، لكي يُحسن أحد إليّ ويوقظني. ولم يكن هناك في قاعة النوم متسع لأي تعقق في الكابوس، لأن الوسائد كانت تنهمر على، عند أول أنة، منطلقاً من الأسرة المجاورة. فاستيقظ لاهثاً، وبقلب مضطرب، إنما سعيد لكوني ما أزال حياً.

أفضل ما في المعهد، هو القراءات بصوت عالٍ، قبل النوم. كنا قد بدأنا تلك القراءات، بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالدرون، ويقصه لمارك توين، يتوجب على تلاميذ السنة الخامسة قراءتها من أجل امتحان مستعجل، في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. قرأ الأستاذ الصفحات الأربع بصوت عالٍ، من حجرته المفصلة بحاجز من الكرتون، لكي يتمكن التلاميذ الذين لم يتوفر لهم الوقت لقراءتها، من تدوين ملاحظات عنها، وكان الاهتمام كبيراً، إلى حدٍ فرضت معه تلك العادة بالقراءة بصوت عالٍ، نفسها كل ليلة، قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأن أستاذنا منافقاً اقترح الانتقائية في اختيار الكتب التي ستقرأ، وتهذيبها من الكلام الفاجر، ولكن خطر وقوع قمره، دفعهم إلى تفويض التلاميذ الكبار، مهمة الاختيار.

بدأت القراءات، بنصف ساعة كل يوم. فكان الأستاذ المناوب يقرأ من حجرته جبهة الإضاءة الموجودة عند مدخل قاعة النوم العامة، وكنا في أول الأمر، نُسكته بشخير ساخر، حقيقي أو متصنع، ولكنه يستحقه دوماً. ثم امتد وقت القراءة فيما بعد، إلى ساعة، حسب أهمية القصة. وبدأ الطلاب يحلون محل الأساتذة، في متاوبات أسبوعية. وقد بدأت الأزمنة الطيبة، عند قراءة "توستراداموس" و"ذو القناع الحديدي"، التي أعجبت الجميع. أما ما لم أستطع تفسيره حتى الآن، فهو النجاح المدوي الذي لقيته رواية "الجبل السحري" لتوماس مان، والتي تطلبت تدخل المدير، لمنعنا من قضاة الليل مستيقظين، بانتظار قبلة هانز كاستروب وكلوديا تشاوشات، أو ترقينا الفريد جسيعنا، ونحن جالسون في الأسرة، كيلا نضيق كلمة واحدة من المبارزة الفلسفية المهمة، بين نابشا

وصديقها ستيمبريني. وقد استمرت القراءة، في تلك الليلة، أكثر من ساعة. واحتُفي بها في قاعة النوم، بعاصفة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي ظل واحدة من أكبر الأحجيات في شبابه، هو المدير الذي وجدته هناك، عند وصولي. كان اسمه أليخاندررو راموس، وكان قظاً ومتوحداً. يضع نظارة ذات زجاج سميك، تبدو كأنها نظارة أعمى. وله سلطة غير استعراضية، تُثقل عليها كل كلمة ينطق بها، مثل لكمة حديدية. كان ينزل من ملجئه في الساعة صباحاً، للتفتيش على نظافتنا الشخصية، قبل دخولنا إلى قاعة الطعام. وكان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة، ذات ألوان زاهية، وياقة منشأة كأنها من السيلولويد مع ربطة عنق بهيئة، وحذاء لامع. وكان يسجل أي خطأ في نظافتنا الشخصية، بزمجرة تعتبر أمراً بالعودة إلى قاعة النوم، لتصحيح الخطأ. أما خلال بقية اليوم، فبعتكف في مكتبه في الطابق الثاني، ولا يعود لرؤيته حتى صباح اليوم التالي، في الساعة نفسها، أو حين يخطر الاثنتي عشرة خطوة، بين مكتبه وقاعة السنة السادسة، حيث يعطي درسه الوحيد في الرياضيات، ثلاث مرات في الأسبوع. وكان تلاميذه يقولون إنه عبقري في الأرقام، ومرح في الدروس، وأنه يذهلهم بحكمته، ويبعث فيهم الرجفة، من رعب الامتحان النهائي.

بعد وقت قصير من مجيئي، كان علي أن أكتب الخطاب الافتتاحي، لأحد احتفالات المعهد الرسمية. وقد وافق معظم المعلمين على موضوعي. ولكنهم اتفقوا جميعهم على أن الكلمة الأخيرة في مثل هذه الحالات، تبقى للمدير. كان يقيم في أقصى المدرسة، في الطابق الثاني. ولكنني عانيت من تلك المسافة، كما لو أنها رحلة حول العالم سيراً على الأقدام.

فردوسية". ولكن كلمة وفيرة (exuberante) نُكِّت من دون الحرف h، وكلمة فردوسية (paradisico) لا تحتاج إلى علامة التشديد فوق الحرف i. أحسست بالملذلة. ولم أجد جواباً أرد به على ملاحظته، عن الكلمة الأولى. ولكن لم يكن يخامرني أدنى شك، بالنسبة إلى الكلمة الثانية، فأجبت على الفور بما تبقى لي من صوت:

- عذراً أيها السيد المدير، المعجم يورد كلمة فردوسية (paradisico) بالتشديد ومن دونه. ولكن نبرة التشديد بدت لي أقوى وقعاً.

لا بد أنه أحس بأنه قد اعتدى عليه، مثلما أحسست أنا. ذلك أنه واصل عدم النظر إليّ، وهو يتناول المعجم من خزانة الكتب، دون أن يقول كلمة واحدة. انقبض قلبي، لأنه كان معجم أطلس الذي أهداني إياه جدي. إنما جديد ولاع. وربما لم يستخدم من قبل. ومنذ المحاولة الأولى، فتحت الكتاب على الصفحة المطلوبة بالضبط. قرأ وأعاد قراءة المادة، ثم سألتني دون أن يرفع بصره عن الصفحة:

- في أي سنة أنت؟

فقلت له:

- في الثالثة.

أطبق المعجم بضربة قوية، كأنها انطباق فح، ونظر إلى عيني، أول مرة، وقال:

- براقو. استمر على هذا النحو.

ولم يتقصني، في ذلك اليوم، سوى أن يتأدي بي زملائي في الصف، بطلاً. وبدؤوا بسمونني، بكل ما يمكن من سخرية "الساحلي الذي تكلم إلى المدير". ومع ذلك، فإن أكثر ما أثر بي في تلك المقابلة،

كنت قد غُت بصورة سيئة، في تلك الليلة، ووضعت ربطة عنق أيام الأحاد، ولم أكد أتمكن من تذوق الفطور. طرقتُ طرقتاً خفيفاً جداً على باب الإدارة الذي لم يفتح لي المدير، إلا بعد الطرق للمرة الثالثة. وأفسح لي الطريق للدخول دون أن يحييني. وكان ذلك من حسن حظي، لأنني ما كنت سأجد صوتاً للرد عليه. ليس بسبب جفاته وحسب، وإنما بسبب مهابة وترتيب وجمال مكتبه ذي الأثاث المصنوع من أخشاب ثمينة ومخمل، وجدرانه المغطاة بخزائن مذهلة تضم كتباً ذات أغلفة جلدية. انتظر المدير، بتسهل رسمي، إلى أن استعدت أنفاسي. ثم أشار إلى الجالوس على كرسي، قبالة منضدة مكتبه، وجلس هو على مقعده. كنت قد هياتت توضيحاً لسبب زيارتي، بالاهتمام نفسه الذي أعددت به الخطبة. استمع إليّ بصمت، ووافق على كل كلمة بحركة من رأسه. ولكن دون أن ينظر إليّ، وإنما إلى الورقة التي ترعج في يدي. وعند نقطة كنت أظنها مضحكة، حاولت أن أفوز منه بابتسامة، ولكن دون جدوى. بل أكثر من ذلك: فأنا واثق من أنه كان مطلعاً، مسبقاً، على هدف زيارتي. ولكنه أجبرني على توضيحه له.

وعندما انتهيت، مدّ يده من فوق المنضدة، وتلقى الورقة مني. نزع نظارته، ليقرأها باهتمام عميق. ولم يتوقف إلا لإجراء تصويبين اثنين، بريشة الكتابة. ثم أعاد وضع نظارته، وحدثنني دون أن ينظر إلى عيني، بصوت حجرى هزّ قلبي. قال لي:

- توجد هنا غلظتان، فقد كتبت: "كما انسجام نباتات بلادنا الوفيرة، التي عرّف بها ودرسها العالم الإسباني خوسيه ثيليبستينو موتيس، في القرن الثامن عشر، نعيش في هذا المعهد، أجواءً

هو مواجهتي، مرة أخرى، لمأساتي الشخصية مع الإملاء. فأنا لم أستطع فهمه. وقد حاول أحد أساتذتي أن يوجه إليّ الضربة القاضية، عندما قال لي إن سيمون بوليفار لا يستحق كل تلك الأمجاد، بسبب أخطائه الإملائية. بينما حاول آخرون مواساتي بالقول إنه داء بصيب كثيرين. وحتى اليوم، بعد أن صار لي سبعة عشر كتاباً منشوراً، ما زال مصححو نجاتي المطبعية، بشرفوني بكياسة تصويب أخطائي الإملائية. على أنها مجرد أخطاء مطبعية.

الحفلات الاجتماعية في ثيباكيرا تناسب عموماً، مع ميول وأسلوب كل فرد. فمناجم الملح التي وجدها الإسبان مكتشفة هناك، كانت عامل جذب سياحي، في عطل نهاية الأسبوع، تستكمل مع اللحم في القرن والبطاطا المثلجة، في مراحل ملح ضخمة. وكنا، نحن التلاميذ الداخليين الساحليين، بشهرتنا المستحقة كصاخبين ومشاغبين، نتمتع بحسن التربية في الرقص، كفنانيين على الموسيقى الدارجة، وبالذوق السليم، في الحب حتى الموت.

توصلتُ إلى أن أكون متطوعاً في كل شيء، إلى حدّ أنه في اليوم الذي علمنا فيه بانتهاك الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع، في مظاهرة ابتهاج ترفع الأعلام واللافتات، وتطلق هتافات النصر. وعندما طلب أحدهم، متطوعاً لإلقاء الخطاب، خرجت دون تفكير في الأمر، إلى شرفة النادي الاجتماعي، قبالة الساحة الكبرى، وارتجلتُ الخطاب بصرخات مدوية، بدا للكثيرين أنني أحفظه عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مضطراً إلى ارتجاله في السبعين سنة الأولى من حياتي. وأنهيت خطابي بامتداح غنائي لكل

واحد من الأربعة الكبار. ولكن الذي لفت الانتباه في الساحة، هو امتداح رئيس الولايات المتحدة، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل: "فرانكلن ديلاو روزفلت الذي يعرف، مثل السيد المتحول، كيف يكسب المعارك بعد موته". بقيت العبارة تطفو في المدينة لعدة أيام. وجرى استنساخها في لافتات الشوارع، وعلى صور روزفلت، في واجهات بعض المتاجر. وهكذا، فإن أول نجاح شعبي لي، لم يكن باعتباري شاعراً ولا روائياً، وإنما كخطيب. بل أسوأ من ذلك: كخطيب سياسي. ومنذ ذلك الحين لم يعد يقام احتفال في المعهد إلا ويطلبون مني الصعود إلى شرفة المنصة. غير أنها صارت، عندئذ، خطابات مكتوبة، ومصححة حتى النفس الأخير.

وقد أقادني ذلك الاستهتار، مع مرور الوقت، بإصابتي برعب مسرحي أوصلني إلى حد الصمت المطلق، سواء في حفلات الزفاف الكبرى أو في حانات عامة الهنود ذوي صنادل القنب، حيث كنا ننتهي على الأرض؛ وفي بيت بيرينسي الجميلة البعيدة عن الأحكام المسبقة، التي حالقها حسن الحفظ بعدم الزواج مني، لأنها كانت منجذبة بحب شخص آخر، أو في مكتب التلغراف، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى تبعث، بالدين، برقيات غمّي، عندما يتأخر أبواي في إرسال مصروفني الشخصي. وقد دعت لي أكثر من مرة قيمة الحوالات مقدماً، لتُخرجني من المأزق. ومع ذلك، فإن أقلهن بُعداً عن النسيان، لم تكن محبوبة أحد بعينه، وإنما حورية محبّي الشعر جميعهم. اسمها سيسيليا غوثالث بيشانو، وكانت ذات ذكاء، لامع، وخفة ظل شخصية، وروح متحررة في أسرة من سلالة محافظة، وذكرة خارقة لحفظ كل أنواع الشعر. كانت

تعيش قبالة بوابة المعهد، مع عمدة أرسطوقراطية وعازبة، في منزل كولونبالي، تحيط به حديقة أزهار تتفتح مع شروق الشمس. كانت العلاقة معها في البدء، مقتصرة على المباريات الشعرية. ولكن سيسيليا انتهت إلى أن تكون رفيقة حياة حقيقية، وكانت توت من الضحك على الدوام. وقد تسلمت أخيراً، إلى دروس الأدب التي يلقها المعلم كالديرون، بتواطؤ من الجميع.

خلال أزمئتي في آراكاتاكا، كنت أحلم بأن أعيش حياة سعيدة، بالغناء، منتقلاً من مهرجان شعبي إلى آخر، مزوداً بأكورديون وبصوت جيد. وكان يبدو لي أنها أقدم الطرق وأبهجها، لقص حكاية. فإذا كانت أمي قد تخلت عن البيانو، لكي تنجب أبناء، وعلق أبي الكمان ليتمكن من إعالتنا، فإنه من العدل تقريباً، أن يستشعر أكبر أبنائهما تلك السوابق الطيبة، ليموت جوعاً مقابل الموسيقى. وقد أثبتت مشاركتي المحتملة، كمغن وعازف جيتار صغير (تبيلي) في فرقة المعهد، بأن لي أذناً صالحة لتعلم العزف على آلة قليلة الصعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة في مناسبة وطنية أو اجتماع احتفالي في المعهد، إلا لي فيه يد بطريقة ما. والفضل في ذلك دوماً، للمايسترو غييرمو كيليدو ثورنوسا، مؤلف الموسيقى، ووجيه المدينة، والمدير الأيدي لفرقة الموسيقى البلدية، وصاحب موسيقى "برقوقة" - على الطريق، حمراء مثل القلب -، وهي أغنية شبابية كانت في أيامها، روح السهرات والسيرنادات. وفي أيام الأحاد، بعد القداس، كنت أول من يجتازون الحديقة لحضور عزفه، الذي يبدأ دوماً بمقطوعة "الغراب السارق"، و"كورال المطارق"، ثم "التروبادور" في الختام. لم يعرف

المايسترو قط، ولم أتجرأ أنا على إخباره، بأن حلم حياتي، في تلك السنوات، هو أن أكون مثله.

عندما طلب المعهد متطوعين، لدورة دراسية في تذوق الموسيقى، كنت أنا وغييرمو لويث غيراً، أول من رفعتنا إصبعينا. الدورة ستكون في أيام السبت صباحاً، بإشراف الأستاذ أندريس بيدرو تويار، مدير أول برنامج موسيقى كلاسيكية في "صوت بوغوتا". لم نشغل سوى أقل من ربع قاعة الطعام التي جرى تأهيلها لتكون قاعة دروس. ولكننا وقعنا على الفور، بطلاوة لسانه الرسولية. لقد كان الكاتشاكو الكامل، يتألق في منتصف الليل، بستره من المخمل، وصوت متلو، ومتهمل فوق ذلك، أما ما قد يبدو الآن تحفة نادرة، بسبب قدمه، فهو الفونوغراف ذو ذراع التدوير الذي كان يديره ببراعة ومحبة مروض فقسات، كان يتطلق من افتراض - وهو صحيح في حالتنا - أننا مستجدون بالكامل. ولهذا بدأ بـ "كرنفال الحيوانات"، لسان-سين Saint-Saens، واصفاً طريقة كل حيوان في الحياة. ثم عزف بعد ذلك - وكيف لا - "بيتر والذئب"، لبروكوفيف. السبي، في حفلات أيام السبت تلك، أنها رسخت في ذهني الاحتشام بالنظر إلى موسيقى المعلمين الكبار، على أنها رذيلة شبه سرية. وقد احتجت لسنوات طويلة كي أميز بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم أعد إلى إجراء أي اتصال مع المدير، حتى السنة التالية، عندما تولى هو نفسه تدريس مادة الهندسة للسنة الرابعة. دخل إلى قاعة الدرس في أول يوم الثلاثاء، الساعة العاشرة صباحاً. حيا تحية الصباح بزمجرة، دون أن ينظر إلى أحد، ونظف السبورة بالسحاحة إلى أن لم يبق

أدنى أثر للغيبار. ثم التفت عندئذ نحونا. ودون أن يقوم بتفقد قائمة الحضور، سأل ألفارو رويث توريس:

- ما هي النقطة؟

لم يكن هناك متسع من الوقت للإجابة، لأن أستاذ العلوم الاجتماعية، فتح الباب، دون أن يطرقة، وقال للمدير إن هناك مكالمة مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مسرعاً ليرد على الهاتف ولم يرجع إلى الدرس، إلى الأبد. فقد كانت المكالمة، لإبلاغه بنقله من منصبه كمدير، وهو المنصب الذي شغله بضمير، طوال خمس سنوات في المعهد، وبعد حياة كاملة من الخدمة الحسنة.

كان خلقه هو الشاعر كارلوس مارتين، الأصغر سنًا بين شعراء جماعة "حجر وسما" الجيدين، الذين ساعدني سيسر دل بايي على اكتشافهم في بارانكيّا. وكان المدير الجديد في الثلاثين من عمره، وله ثلاثة كتب مطبوعة. كنت أعرف بعض قصائده، وقد رأيته في إحدى المرات، في مكتبة في بوغوتا، ولكن لم يكن لدي ما أقوله له قط، ولم أكن أملك أحد كتبه لأطلب منه توقيع عليه. ظهر في أحد أيام الاثنين، دون سابق إنذار، في استراحة الغداء. لم تكن تنتظر رؤيته، بكل تلك السرعة. وقد بدا محامياً أكثر منه شاعراً، بهدلة إنكليزية مخططة، وجبهة مكشوفة، وشارب رفيع بصرامة في الشكل تُلاحظ كذلك في شعره. تقدم بخطواته المحسوبة جيداً نحو أقرب جماعة منه، هادئاً، ونائباً بعض الشيء.. ومدّ لنا يده:

- مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنتُ في تلك المرحلة مولعاً بالنشر الغنائي الذي ينشره إدواردو

كارانثا في الصفحات الأدبية، في جريدة "إلتيمبوس" وفي مجلة "السبت". وكان يبدو لي أنه جنس أدبي مستوحى من "حماري بلاتيرو وأنا" لحوان رامون خيمينث، الذي كان زائجاً بين الشعراء الشباب المتطلعين إلى أن يمحو، من الخريطة، أسطورة غييرمو بالينثيا. وقد رعى الشاعر خورخي ريوخاس، وارت ثروة سريعة الزوال، باسمه ووصيده، نشر كتيبات شعر أصيلة، أيقظت اهتماماً كبيراً، بين أبناء جيله، ووحدت جماعة من الشعراء المعروفين.

كان ذلك تديلاً عميقاً في العلاقات المنزلية. فصورة المدير السابق الطيفية، استبدلت ليحل محلها حضور ملموس يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه في تناول اليد دوماً. تخلى المدير الجديد عن التفتيش الروتيني على المظهر الشخصي وغيره من القواعد المعلنة. وكان يتبادل الحديث مع التلاميذ، أحياناً، في الاستراحة الليلية.

الأسلوب الجديد، وضعني في اتجاهي الصحيح. ربما كان كالدريون قد حدثت مديري الجديد عني. ذلك أنه في إحدى الليالي الأولى، أجرى لي سيراً حول علاقاتي بالشعر، فأطلقت العنان لكل ما في داخلي. فسألني إذا ما كنتُ قد قرأت "التجربة الشعرية"، وهو كتاب لألفونسو ريبس. أثار الكثير من التعليقات. فاعتزقتُ له بأنني لم أقرأه، فأحضره لي في اليوم التالي. التهمتُ نصفه تحت المقعد، خلال ثلاثة دروس متتالية. والبقية خلال الاستراحة، في ملعب كرة القدم. وقد أسعدني أن كاتباً يمثل تلك الشهرة الواسعة، يهتم بدراسة أغنيات أغوستين لارا، كما لو أنها أشعار غارثيلاسو، متذرعاً بعبارة ذكية: "أغنيات أغوستين لارا الشعبية ليست أغنيات شعبية". وقد كان ذلك، بالنسبة إليّ، أشبه بالعثور على الشعر، مُدأباً في حساء الحياة اليومية.

تخلي مارتين عن الشقة الرائعة المخصصة للمدير. وأقام مكتبه،
 مفتوح الأبواب، في الفناء الرئيسي، فقرّب ذلك أكثر من مسامراتنا بعد
 العشاء. وقد استقر، للإقامة طويلاً مع زوجته وأبنائه في بيت
 كولونبالي كبير، في حالة جيدة، في أحد أركان ميدان المدينة الرئيسي.
 وكان فيه مكتب تغطي جدرانه كل الكتب التي يمكن أن يحلم بها قارئ
 متابع لأذواق التجديد، في تلك السنوات. وهناك كان يزوره، في نهاية
 الأسبوع، أصدقائه من بوغوتا، ولا سيما زملاؤه في جماعة "حجر
 وسما". وفي أحد أيام الأحاد، كان عليّ أن أذهب إلى بيته، مع
 غييرمو لوبيث غيرا، من أجل مراجعة عارضة. وكان هناك إدواردو
 كارانثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. طلب منا المدير الجلوس،
 بإيماة سريعة، كيلا تقطع المحادثة، فبقينا هناك حوالي نصف ساعة،
 دون أن نعلم كلمة واحدة، لأنهم كانوا يناقشون حول كتاب لبول
 فاليري، لم تكن قد سمعنا به. كنتُ قد رأيتُ كارانثا أكثر من مرة في
 مكتبات ومقاهي بوغوتا، وكنتُ قادراً على تمييزه من إيقاع صوته
 وتدفعه، وهو يتوافق مع ملبسه الشوارعية وطريقته في الحياة؛ كشاعر.
 أما خورخي روخاس بالقابل، فلم أستطع التعرف عليه من ملبسه
 وأسلوبه الوزاري، إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه. كنتُ أتلهف لأن
 أكون شاهداً على نقاش حول الشعر بين أكبر ثلاثة شعراء. ولكن ذلك لم
 يحدث. وفي نهاية حديثهم، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيفيه:
 - هذا شاعر كبير.

قال ذلك تلعفياً بالطبع، ولكنني أحسست بالزهو. وأصر كارلوس
 مارتين عليّ أن يلتقط لنا صورة مع الشعارين الكبيرين، وقد التقطها

بالفعل. ولكنني لم أعرف عنها شيئاً، إلا بعد نصف قرن من ذلك، في
 بيته على الساحل الكئالاتي، حيث تقاعد ليستمتع بشيخوخته الطيبة.
 هزت المعهد رياح التغيير. فالمذبذب الذي لم تكن تستخدمه إلا
 للرقص، رجلاً مع رجل، تحول بفضل كارلوس مارتين إلى وسيلة انتشار
 اجتماعي. ولأول مرة صارت تُسمع وتناقش الأخبار الليلية في فناء
 الاستراحة. تضاعف النشاط الثقافي مع تأسيس المركز الأدبي، ونشر
 جريدة أدبية. وعندما وضعنا قائمة المرشحين المحتملين ذوي الميول الأدبية
 الواضحة، وفر لنا عددهم تسمية الجماعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بدأ
 لنا ذلك ضرورة حظ، لأنه كان فوق ذلك، تحدياً للتطير من العدد ثلاثة
 عشر. وكانت المبادرة من التلاميذ أنفسهم، وتتلخص فقط في
 اجتماعنا، مرة كل أسبوع، للتحديث في الأدب، مع أننا لم تكن في
 الحقيقة تفعل شيئاً غير ذلك، في أوقات فراغنا، داخل المعهد وخارجه.
 كل واحد منا كان يأتي بما لديه، فيقرؤه ويخضعه لأحكام الجميع.
 وكنتُ، أنا المذهول بذلك النموذج، أساهم في قراءة سونيتات أوقعها
 بالاسم المستعار: خابيير غارثيس. ولم أكن أستخدمه في الواقع للتمييز،
 وإنما لأختين خلفه. لأن سونيتاتي كانت مجرد قمارين حرفية، دون إلهام
 ودون تطلعات. ولا يمكن أن تعزى إليها أي قيمة شعرية، لأنها لم تكن
 تخرج من الروح. كنتُ قد بدأتُ بمحاكاة كيفيدو، ولوبي دي بيغا، وحتى
 غارسيا لوركا، ولا سيما ثمانياته العفوية التي يكفي البدء بها،
 للمواصلة تلقائياً. وقد وصلت بعيداً في حضي المحاكاة تلك، حتى إنني
 فرضت على نفسي مهمة التحوير الساخر، لكل واحدة من سونيتات
 غارثيلسو دي لايبغا الأربعين، وبالترتيب نفسه. وكنتُ أكتب كذلك، ما

يطلبه بعض تلاميذ القسم الداخلي، ليقدموه إلى صديقاتهم في أيام الأحاد، على أنه من تأليفهم. وقد قرأت لي إحداهن بنأثر، وفي سرية مطلقة، الأشعار التي أهداها إليها حبيبها، على أنها من كتابته.

قدم لنا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً في الطابق الثاني من المعهد، نوافذه موصدة لدواع أمنية. وكنا حوالى خمسة أعضاء نتولى وضع برنامج الاجتماع التالي. لم يتخذ أي واحد منهم مهنة الكاتب، ولكن المسألة لم تكن في ذلك، وإنما في اختيار إمكانيات كل واحد. كنا نناقش أعمال الآخرين، ونستشيط غضباً، كما لو أننا في مباراة كرة قدم. في أحد الأيام اضطر، ريكاردو غونزالث ريبول إلى الخروج في منتصف المناقشة، وفوجئ بالمدير يضع أذنه على الباب، ليسمع مجادلاتنا. كان فضوله مشروعاً، لأنه لم يستطع أن يصدق أننا نكرس أوقات فراغنا للحديث عن الأدب.

في أواخر شهر آذار، وصلنا خبر أن المدير السابق، دون أليخاندر و راموس، قد أطلق رصاصة على رأسه، في الهديفة الوطنية في بوغوتا. لم يقتنع أحد بنسبة ذلك التصرف إلى طبعه المنعزل، وربما المكتئب. كما لم يكن ممكناً تصور أي سبب معقول للانتحار وراة شمال الجنرال أوبيسي أوربيي، المحارب في أربع حروب أهلية، والسياسي الليبرالي الذي جرى اغتياله بالفوس، على يد متعصبين اثنين في ردهة الكابيتوليو. ذهب وفد من المعهد، برئاسة المدير الجديد، للمشاركة في جنازة المعلم أليخاندر و راموس الذي بقي في ذاكرة الجميع، كنقطة وداع مرحلة أخرى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية متدياً جداً في المدرسة الداخلية. لقد سمعت من يقول، في بيت جدي، إن الفرق الوحيد بين الحزبين، بعد

حرب الألف يوم، هو أن الليبراليين يذهبون إلى قدام الساعة الخامسة، كيبلا يراهم المحافظون في قدام الثامنة، ويظنهم مزمئين. ومع ذلك، فقد بدأت الاختلافات الحقيقية تصحح ملموسة بعد ثلاثين سنة من ذلك، عندما فقد الحزب المحافظ السلطة، وحاول الرؤساء الليبراليون الأوائل أن يفتحوا البلاد لرياح العالم الجديدة. وانهماك الحزب المحافظ، المهزوم بصدأ سلطته المطلقة، في إعادة ترتيب وتنظيف بيته، تحت التألق الثاني لموسوليني في إيطاليا، وظلمات الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما كانت الإدارة الجديدة للرئيس ألفونسو لوبيث بوماريوخو، مع جماعة من الشباب المثقفين، تحاول خلق الظروف للسيرالية محدثة. وربما دون الانتباه إلى أنهم يحققون القدرة التاريخية في تقسيمنا إلى النصفين اللذين كان العالم منقسماً إليهما. وكان ذلك حتمية لا سبيل إلى تجنبها. فقد قرأت في أحد الكتب التي كان الأساتذة يعيروننا إياها، قولاً منسوباً إلى لينين: "إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك، في نهاية الأمر".

ومع ذلك، وبعد ست وثلاثين سنة من سيطرة الرؤساء المحافظين الكهفية، بدأ السلام يبدو ممكناً. فثلاثة رؤساء شباب، بذهنية حديثة، بدؤوا بفتح منظور ليبرالي يبدو مستعداً لإزاحة ضباب الماضي. والرئيس ألفونسو لوبيث بوماريوخو، أبرز الثلاثة، والإصلاحي المجازف، حقق إعادة انتخابه لولاية ثانية، في عام ١٩٤٢. ولم يكن هناك، كما يبدو، ما يعكر إيقاع تداول الرئاسة. وهكذا كنا، في سنواتي الأولى في المعهد، متشربين بأخبار الحرب الأوروبية التي تبقيتنا متيقظين، بطريقة لم تستطع السياسة المحلية التوصل إليها قط. لم تكن الصحف تدخل

المعهد، إلا في حالات خاصة جداً، لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها. ولم تكن هناك أجهزة مذبذب نقالة. والمذبذب الوحيد في المعهد، هو مذبذب الرف القديم في قاعة الأساتذة الذي كنا نشعله بأعلى صوت في الساعة السادسة، لكي نرقص وحسب. وكنا يعيدون عن التفكير في أنه كانت تُفْرَحُ في ذلك الحين، الحرب الأكثر دموية وعشوائية، بين كل حروبنا.

دخلت السياسة فجأة إلى المعهد. انقسمنا إلى فريقين: ليبراليين ومحافظةين. وعرفنا لأول مرة، في أي جانب يقف كل واحد منا. برزت تضاليتنا الداخلية، ودية، وأكاديمية، إلى حد ما في البداية، ثم راحت تتردى، بالتوافق مع الحالة المعنوية نفسها التي بدأت تُعْفَنُ البلاد. أول التوترات في المعهد، كانت غير ملموسة تقريباً، ولكن أحداً لم يراوده الشك في التأثير الطب، لكارلوس مارتين الذي يقف على رأس جهاز أساتذة لم يخفوا أيديولوجياتهم يوماً. ومع أن المدير الجديد لم يكن مناصراً بجلاء لأحد الفريقين، إلا أنه أعطى موافقته على سماع الأخبار ليلاً، من مذبذب القاعة، وصارت الأخبار السياسية، منذ ذلك الحين، تتغلب على الموسيقى الراقصة. وكان يقال، دون تأكيد مثبت، إنه يعلق في مكتبه، صورة للينين أو ماركس.

لا بد أن التمرد المرير الوحيد الذي حدث في المعهد، كان ثعرة تلك الأجواء المخلخلة. فقد تطايرت في قاعة النوم الوسائد والأحذية، على حساب القراءة والنوم. لم أستطع أن أحدد السبب، ولكنني أظن أن السبب، على ما أتذكر - ويتفق معي في ذلك عدد من زملائي - هو أحد مقاطع الكتاب الذي كان يُقرأ بصوت عالٍ في تلك الليلة: البوح

بما يجول في الذهن"، للفنزويلي رومولو غاييغوس. لقد وقعت مشادة قتالية غريبة.

دخل كارلوس مارتين، وقد استُدعي على عجل، إلى قاعة النوم، وجابها من أقصاها إلى أقصاها، عدة مرات، وسط صمت عميق سببه ظهوره. وبعد ذلك، في نوبة سلطوية، غريبة عن طبع كطبعه، أمرنا بمغادرة قاعة النوم بالسجاجات والأخفاف، والاصطفاف في الفناء المتجمد. وألقى علينا هناك خطبة حماسية بأسلوب كاتيلينا المراوغ، ورجعنا بانتظام تام لمواصلة نومنا. كان ذلك هو الحادث الوحيد الذي أتذكره، خلال سنواتنا في المعهد.

كان ماريو كونفيرس، وهو طالب جاء في تلك السنة إلى الصف السادس، يبقينا مشوشين في ذلك الحين، بموضوع إصدار جريدة مختلفة عن المعهود في المدارس. وكان أحد أول اتصالاته معي. وبدأ لي من المناسب، أن أوافق على أن أكون رئيس التحرير. كنتُ مفتوناً بذلك، ولكن دون أن تكون لدي أي فكرة واضحة عن مهماتي. تزامن آخر الإعدادات للجريدة مع اعتقال الرئيس لوبيث بوماربخو على يد جماعة من كبار ضباط القوات المسلحة في الثامن من تموز ١٩٤٤، بينما كان في زيارة رسمية في جنوبي البلاد. والحكاية، مثلما رواها هو نفسه، لم تكن تتضمن أية فضلات. ربما دون أن ينوي ذلك، قدم للمحققين رواية رائعة، لم يعلم، بمقتضاها، بالحادثة إلا عندما جرى تحريره. وقد ظلت حركة باسكو الانقلابية، شديدة الالتصاق بحقائق الحياة الواقعية، حدثاً مضحكاً آخر من أحداث تاريخنا الوطني.

ألبيرتو بيراس كامارغو، الذي عُيِّن رئيساً، أبقى البلاد منومة

بصوته وإلقائه المتقنين، طوال عدة ساعات، عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن جرى تحرير الرئيس لوبيث وأقر النظام. ولكن تم فرض حالة طوارئ صارمة، مع رقابة على الصحافة. بدت التنبؤات غامضة ومثبسة. فقد حكم المحافظون البلاد، منذ الاستقلال عن إسبانيا سنة ١٨٣٠، حتى انتخاب أولابا هيريرا، بعد قرن من ذلك، دون أن تظهر عليهم أي ملامح للتوجه نحو اللبرلة. أما الليبراليون بالمقابل، فكانوا يتحولون أكثر فأكثر، نحو المحافظة، في بلاد تمضي مخلفة، في تاريخها، مرقاً من لحمها. وفي تلك اللحظة كانت هناك نخبة من المثقفين الشباب المفتونين بوهم السلطة، مثالهم الأكثر جذرية وقابلية للعيش هو خورخي إيسير غايتان. لقد كان واحداً من أبطال طفولتي، بسبب أعماله المناهضة للقمع في منطقة الموز، وهو ما كنت أسمع عنه دون أن أفهمه، منذ بدأت أعي الحياة. كانت جدتي تقدره. ولكنني أظن أنه كان يقلقها توافقه آنذاك مع الشيوعيين. وكنت أنا نفسي، أقد خلفه، بينما هو يلقي خطاباً مدوياً من شرفة في ساحة ليباكيرا. وقد بهرني رأسه الذي له شكل شمامة، وشعره السبط والسميك، وبشرة الهندي النقي، وصوته الواعد بنبرة البوغوتيين التي، ربما، كان يبالغ فيها لحسابات سياسية. لم يتحدث في خطابه عن ليبراليين ومحافظين، أو عن مستغلين ومستغلين، مثلما يتحدث الجميع، وإنما عن فقراء وأوليغاركية، وهي كلمة كنت أسمعها عندئذ، أول مرة تدق كمطرقة، في كل جملة، وقد سارعت للبحث عنها في المعجم.

كان محامياً لامعاً، وتلميذاً نجيباً في روما، للحقوقي الإيطالي إنريكو فيري. وقد درس هناك بالذات فنون موسوليني الخطابية، وكان

له شيء من أسلوبه المسرحي على المنبر. أما محازبه المنافس غابرييل تورباي (طرية)، فكان طبيباً مثقفاً وأنيقاً، يضع نظارة ذهبية فاخرة، تضفي عليه هيئة الفنان السينمائي. وكان قد ألقى خطاباً غير متوقع، في مؤتمر حديث العهد، للحزب الشيوعي، فاجأ الكثيرين وأثار قلق بعض محازبيه البرجوازيين. ولكنه كان مقتنعاً بأنه لا يتناقض في كلامه ولا في أفعاله مع تكوينه الليبرالي أو ميوله الأرستقراطية. ويرجع تألفه مع الاتحاد السوفييتي، بوصفه سفيراً لكولومبيا في روما. وقد جعلها رسمية في واشنطن، بوصفه وزير كولومبيا المفوض في الولايات المتحدة.

كانت علاقته بالسفارة السوفيتية في بوغوتا حميمة جداً، وله صداقات مع بعض قادة الحزب الشيوعي الكولومبي، بمن يمكن لهم التوصل إلى تحالف انتخابي مع الليبراليين. وكثيراً ما جرى الحديث عن مثل هذا التحالف في تلك الأيام، ولكنه لم يُبرم قط. وقد انتشرت في كولومبيا، آنذاك أيضاً، وهو سفير في واشنطن، إشاعة ملحة بأنه الخطيب السري لواحدة من كبار نجوم هوليوود - ربما هي جين كراوفورد أو بوليت غودار - ولكنه لم يتخل قط، عن سيرته كعازب لا يساوم.

كان يمكن لناخبي غايتان وطرية أن يشكلوا أغلبية ليبرالية، وأن يفتحوا درواً جديدة، ضمن الحزب نفسه. غير أنه لا يمكن لأي النصفين، منفصلاً، أن يحقق الفوز على المحافظين المتحدن والمسلحين.

في تلك الأيام السيئة، ظهرت صحيفتنا "المجريدة الأدبية". وقد فوجئنا، نحن أنفسنا الذين تسلمنا العدد الأول مطبوعاً، من مظهره الاحترافي، في ثماني صفحات من القطف النصف (تابلود). كان جيد

الإخراج والطباعة. وكان كارلوس مارتين وكارلوس خوان كالدرون أهد المتحمسين. وقد ناقش كلاهما، في أثناء الاستراحات، بعض المقالات. وكان أحد أهم تلك المقالات هو الذي كتبه كارلوس مارتين، بناء على طلبنا، وطرح فيه ضرورة التسلح بوعي شجاع في النضال ضد المتاجرين بمصالح الدولة، من السياسيين المتسلقين والسماسرة الذين يعرقلون مسيرة البلاد الحرة، ونُشر المقال مع صورة كبيرة له في الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لكونفيرس، حول الهيسبانية، ونشر غثنائي لي موقع باسم خابيير غارثيس. وقد أخبرنا كونفيرس بأن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوغوتا، ومساعدات محتملة لإطلاق الجريدة بصورة أكبر، بحيث تكون مشتركة لكل المدارس.

لم يكن العدد الأول قد وُزع، عندما وقع انقلاب باستو. وفي اليوم الذي أُعلن فيه عن تعكر الأمن العام، حضر عمدة ثيباكيرا إلى المعهد، على رأس فصيلة مسلحة، وصادر الأعداء الجاهزة للتداول. كان هجوماً سينمائياً، لا يمكن تفسيره إلا بوشاية خبيثة، بأن الجريدة تتضمن مواد هدامة. وفي اليوم نفسه، وصل إشعار من المكتب الصحفي لدى رئاسة الجمهورية، بأن الجريدة قد طُبعت دون المرور على رقابة حالة الطوارئ. وجرى عزل كارلوس مارتين من إدارة المعهد، دون إعلان مسبق.

لقد كان قراراً غير معقول بالنسبة لنا، جعلنا نشعر بالمهانة وبأهينتنا في الوقت نفسه. لم يكن عدد نسخ الجريدة يتجاوز المئتين، لتوزيعها بين الأصدقاء، ولكنهم أوضحوا لنا أن مطلب الرقابة هو أمر محتم لا بد منه، في ظل حالة الطوارئ. وألقي التصريح حتى إشعار آخر، لم يأت قط.

لقد مرت أكثر من خمسين سنة، قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين، من أجل هذه المذكرات، عن تلك الواقعة العيشية. ففي اليوم الذي صُودرت فيه "الجريدة"، استدعاه وزير التربية بالذات إلى مكتبه في بوغوتا، وهو الوزير نفسه الذي عينه مديراً - أنطونيو روتشا - وطلب منه الاستقالة. وجد كارلوس مارتين أمام الوزير، نسخة من "الجريدة الأدبية". وقد رُسمت خطوط حمراء تحت جمل كثيرة، اعتبروها هدامة. وفعلوا الشيء نفسه بمقاله الافتتاحي، ومقال ماريو كونفيرس، وكذلك بقصيدة لمؤلف معروف اعتُبرت مريبة ومكتوبة برموز مشفرة. "حتى الكتاب المقدس نفسه، يمثل هذه المخطوط سيئة النية، تحت عبارات منه، يمكن أن يُعرب عن عكس معناه الحقيقي". قال له ذلك كارلوس مارتين، في رد فعل غاضب بصورة ملحوظة، دفع الوزير إلى تهديده باستدعاء الشرطة. جرى تعيينه مديراً لمجلة "السبت"، وهو أمر يجب اعتباره، في نظر مشقف مثله، ترقية كبيرة. ومع ذلك، فقد ظل يشعر إلى الأبد، بأنه كان ضحية مؤامرة قوى يمينية. وقد تعرض إلى اعتداء في أحد مقاهي بوغوتا، أوشك أن يرد عليه بالرصاص. ثم عينه وزير آخر، فيما بعد، رئيساً لقسم الشؤون القانونية، فمارس حياة مهنية متألقة تُوّجت بتقاعد محاط بالكاتب والحنين، في مكان إقامته الهادئ في تاراغونا (إسبانيا).

في الوقت نفسه الذي أبعد فيه كارلوس مارتين - ودون أي علاقة به بالطبع - انتشرت في المعهد، وفي بيوت المدينة وحاناتها، رواية بلا سند تقول إن الحزب مع اليسير، في سنة ١٩٣٢، كانت تلفيقاً من الحكومة الليبرالية، لتدعم نفسها بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة

المنهكة. وتؤكد الرواية التي وُزعت، حتى في منشورات مطبوعة، أن الدراما قد بدأت، دون أية نوايا سياسية، عندما اجتاز ملازم بيروي نهر الأمازون مع دورية عسكرية، واختطف من الضفة الكولومبية، الخطينية السرية للحاكم المحلي في مدينة ليتسيا. وهي خلاسية فاتنة يدعونها بيلا، كتصغير لاسمها بيلاز. وعندما اكتشف الحاكم المحلي الكولومبي أمر الاختطاف، اجتاز الحدود، مع جماعة العمال المسلحين، واسترد بيلا من أراضي البيرو. ولكن الجنرال لويس سانتشيث ثيرو، دكتاتور البيرو، عرف كيف يستغل تلك المناوشة، ليغزو كولومبيا، ويحاول تبديل الحدود الأمازونية، لمصلحة بلاده.

عندئذ، عمد الرئيس الكولومبي أولايا هيريرا - تحت ضغط شرس من جانب الحزب المحافظ المهزوم، بعد نصف قرن من الحكم المطلق - إلى إعلان حالة الحرب، فأعلن التعبئة الوطنية، وسلّم قياد جيشه لرجال يتستعون بشقته، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اغتصبها البيرويون. دوت في البلاد صرخة حرب أجمت طقولتنا: "قلتعث كولومبيا، وتسقط البيرو". وفي فورة الحرب انتشرت كذلك، الرواية القائلة إنه قد جرت عسكرة الطائرات المدنية التابعة لشركة "سكادتا" SCADTA وتسلبها كأسراب حربية مقاتلة. وإن واحدة منها، بسبب نقص القنابل، فركت موكباً بمناسبة أسبوع الألام في بلدة "عجيبه" البيروية، بقصفه بجوز الهند. الكاتب الكبير خوان لوثانو إي لوثانو، الذي عبأه الرئيس أولايا ليعقبه على اطلاع على الحقيقة، في حمى الأكاذيب المتبادلة تلك، كتب بنثره البارع، القصة الحقيقية للمحادثة. ولكن الرواية الزائفة ظلت هي السائدة لوقت طويل.

وجد الجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو في الحرب، بالطبع، فرصة من السماء، لكي يرسخ نظامه الحديدي في البيرو. وفي الوقت نفسه، عبث الرئيس أولايا هيريرا قاتلاً عاماً للقوات الكولومبية، هو الجنرال والرئيس السابق المحافظ ميغيل آباديا مينديث، الذي كان في باريس آنذاك. وقد اجتاز الجنرال المحيط الأطلسي بسفينة مزودة بالمدافع، وتوغل عبر مصبات نهر الأمازون، حتى بلدة ليتسيا، في الوقت الذي كان فيه دبلوماسيو الطرفين، قد يدؤوا بإطفاء نيران الحرب. ودون أي علاقة بانقلاب باستو، ولا بحادثة الجريدة، جرى تعيين مدير جديد، بدلاً من كارلوس مارتين، هو أوسكار إسبيتيا براند، المرص مهنباً والمشهور فيزيائياً. وقد استشار المدير البديل في المعهد، كل أشكال الشكوك. محفظاتي ضده هزتي، منذ التحية الأولى، بسبب ذلك القدر من النعاس الذي نظر به إلى شعري الطويل كشاعر، وشاربي غير المشذب. كان له مظهر قاس، وينظر مباشرة إلى العيون نظرة صارمة. وقد أوعبني خبر أنه سيكون أيضاً، أستاذنا في الكيمياء العضوية.

في يوم سبت من تلك السنة، كنا في السينما، في منتصف عرض بعد الظهر. عندما أعلن صوت مضطرب من مكبرات الصوت بأن هناك طالباً ميتاً في المعهد، كان ذلك مؤثراً، حتى إنني لم أستطع تذكر أي فيلم كنا نشاهد. ولكنني لن أنسى أبداً توتر كلوديت كوليسير، وهي توشك أن تلقي بنفسها في نهر صاحب، من فوق حاجز جسر. كان الميت طالباً في السنة الثانية، عمره سبعة عشر عاماً. جاء حديثاً من مدينته باستو الثانية، بالقرب من الحدود مع الإكوادور. وقد أصيب بتوقف عن التنفس، في أثناء هرولة، نظمها أستاذ الرياضة، كعقوبة نهاية أسبوع

لتلاميذه المتكاسلين. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي مات فيها طالب، خلال وجودي في المعهد، وقد سبب موته تأثراً شديداً، ليس في المعهد وحسب، وإنما في المدينة أيضاً. اختارني زملائي لألقي في الجنازة، بضع كلمات وداع. وفي تلك الليلة بالذات، طلبت لقاء المدير الجديد، لأريه خطبتي التأبينية، وقد هزني الدخول إلى مكتبه، كتكرار خارق للهزة الوحيدة التي أصابتنني، لدى اللقاء بالمدير الأسبق الميت. قرأ الأستاذ إسببياً مسودة كلمتي بلامح مأساوية، ووافق عليها دون تعليق. ولكنني، عندها نهضت للخروج، أشار لي بأن أعود للجلوس. كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري. من تلك الكثيرة التي يجري تداولها من يد إلى يد في الاستراحات، وبدا له أن بعضها جدير بأن يُنشر في ملحق أدبي. ولم أكد أحاول تجاوز خطي القاسي، حتى أعرب هو عن هدفه الحقيقي، دون شك، من إيقانتي. نصحتني بأن أقص شعر الشاعر المشعث، غير اللائق برجل جدي، وأن أشذب شاربي الذي كالفرشاة، وأنخلى عن ارتداء القمصان المزينة بعصافير وأزهار، وتبدو كأنها ملايس كرنفال. لم أكن أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط. ولحسن الحظ أنني لم أره عليه بإجابة وقحة. وقد لاحظت ذلك، فأنخذ نبرة طقوسية ليوضح لي مخاوفه من أن تنتشر موضتي بين التلاميذ الصغار، بسبب شهرتي كشاعر. خرجت من المكتب متأثراً للاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من قبل مرجعية، على تلك الدرجة من الأهمية. وكنت مستعداً لإرضاء المدير بتغيير مظهري، من أجل تلك المناسبة الوقورية. حتى إنني فسرت إلغاء تكريم الموقوف، بناء على رغبة أسرته، باعتباره إخفاً شخصياً لي.

كانت النهاية غائمة. فقد اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت، يبدو مغشى بالبخار، وهو معروض في مكتبة المعهد. فتحه ألفارو رويث توريس، بناء على طلب الأسرة. وتأكد بالفعل من أنه رطب من الداخل. وفي بحثه بالتمس، عن سبب وجود البخار في ذلك الصندوق الكئيم، ضغط برفق، برؤوس أصابعه، على صدر الميت، فأصدرت الجثة أنة مؤثرة. وبلغت الأسرة حد الهوس بفكرة أنه لا يزال حياً، إلى أن أوضح الطبيب أن الرئتين قد احتبسنا الهواء، عند إصابته بالفشل التنفسي، ثم أطلقته بالضغط على الصدر. وعلى الرغم من بساطة التشخيص، أو ربما لهذا السبب بالذات، بقي الخوف قائماً عند البعض من أنه قد دُفن حياً. وبهذه الروح المعنوية، ذهب في إجازة السنة الرابعة، متلهفاً إلى إقناع والدي بعدم مواصلة الدراسة.

نزلت من السفينة في سوكري، تحت وذاذ مطر غير مرئي. بدا لي سور المرقأ مختلفاً عما هو عليه في حثيني. وكانت الساحة أصغر حجماً وعُرباً مما هي عليه في ذاكرتي. والكنيسة والرابية المشحرة يشع منها ضوء الخذلان، تحت أشجار اللوز المقلمة. وتشير الأكابيل الملونة في الشارع، إلى اقتراب أعياد الميلاد. ولكن هذه الأعياد لم تبعث في الانفعال الذي أثارته في نفسي في مرات أخرى، ولم أتعرف على أي واحد من الرجال، حاملي المظلات الذين ينتظرون في المرقأ، إلى أن قال لي أحدهم لدى مروري، بنبرته وزنة صوته المعروفة:

- كيف هي الأمور

كان أبي. وقد هزل كثيراً بسبب فقدان الوزن، يرتدي بدلة القطن الرقيقة البيضاء التي كانت تميزه من بعيد، منذ سنوات شبابه، وإنما

بنظراً بيتياً، ومقيصاً مدارياً قصير الأكمام، وقبعة مراقب عمال، غريبة الشكل. وكان يرافقه أخي غوستافو الذي لم أتعرف عليه بسبب غمّه، مع بلوغه السنة التاسعة من العمر.

لحسن الحظ فإن الأسرة ما زالت تحافظ على مظاهر فقرها، وبدا العشاء المبكر، كما لو أنه قد أُعدَّ عمداً للتأكيد على أن ذلك البيت هو بيتي، وأنه لا بيت لي سواه. وكان الحبر الطيب، على المائدة، هو أن أختي ليخيا قد كسبت البانصيب، والقصة - مثلما روتها هي نفسها - بدأت عندما حملت أمنا بأن أباهما قد أطلق النار في الهواء، لإخافة لص فاجأه يسرق من بيت آراكاتاكا القديم. روت أمي الحلم أثناء الفطور، حسب العادة العائلية، واقترحت شراء بطاقة بانصيب تنتهي بالعدد سبعة، لأن هذا العدد له شكل سدس المجد نفسه. لم يحالفهم الحظ في البطاقة التي اشتريتها أمي بالدين، على أن تدفع ثمنها من قيمة الجائزة نفسها. لكن ليخيا، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، طلبت من أبي، ثلاثين سنتافو، لتدفع قيمة البطاقة الخامسة، وثلاثين سنتافو أخرى للإصرار، في الأسبوع التالي، على الرقم الغريب: ٢٠٧.

خبأ أخوتنا لويس إنريكي البطاقة ليخيف ليخيا، ولكن خوفه كان أكبر بكثير، في يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل إلى البيت صارخة، مثل مجنونة، بأنها كسبت البانصيب. ذلك أن أخي، في تسرع شقاوته، نسي أين خبأ البطاقة، واضطروا في حمى البحث المبهور، إلى إقراغ الخزائن والصناديق، وقلب البسبب رأساً على عقب، بدءاً من الصالة، حتى المراض. ولكن ما كان أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو قيمة الجائزة: ٧٧٠ بيزو.

والحبر السيئ هو أن أبي قد حقق أخيراً حلمه بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية فونتيدينيو - في ميدلين -، مقتنعاً بأنها مدرسة للأبناء العاقين، وليس كما هي في الحقيقة: سجناً لإعادة تأهيل المنحرفين الأحداث الخطرين جداً.

القرار الأخير اتخذه أبي، عندما أرسل ابنه العاق لتحصيل دين الصيدلية. وبدلاً من أن يسلم إلى أبيه البيزوات الثمانية التي أعطيت له، اشترى بها آلة تبيلي جيدة، تعلم العزف عليها كمعلم. لم يعلق أبي بكلمة واحدة، عندما اكتشف وجود الآلة الموسيقية في البيت. وواصل مطالبة ابنه بتحصيل ذلك الدين. فكان الأخير يرد عليه دوماً، بأن صاحبة الحانوت لا تملك النقود لتدفعها. وكان قد انقضى حوالي شهرين، عندما وجد لويس إنريكي أباه يعزف على التيبلي، تحتاً مرتجلاً: "انظر إليّ كيف أعزف هذا التيبلي الذي كلفني ثمانية بيزوات".

لم ندر قط، كيف عرف الحقيقة، ولا لماذا تظاهر بعدم معرفته بحيلة ابنه. ولكن هذا الأخير اختفى من البيت، إلى أن هدأت أمي زوجها. وعندئذ سمعنا أبي يطلق أول تهديداته بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية الأحداث في ميدلين. غير أن أحداً لم يوله اهتماماً، ذلك أنه كان قد أعلن من قبل، عن نيته في إرسالني إلى دير أوكانيا، ليعاقبني على لا شيء، سوى نيل شرف أن يكون هناك خوري في البيت، وقد نسي ذلك قبل أن يتمكن من تصوره. ومع ذلك، كان أوكوردون التيبلي هو القطرة التي جعلت الكأس يطفح.

لم يكن الدخول إلى دار الإصلاح ممكناً، إلا بقرار من قاضي الأحداث. ولكن أبي تجاوز انعدام توفر الشروط المطلوبة، من خلال

أصدقا، مشتركين، مع رسالة توصية من مطران ميلدين، المونسنيور غارسيا بينيتز. وقد أبدى لويس إنريكي من جانبيه، طيب جبلته، حين سمح بأن يقتادوه، بسعادة وكأنه ذاهب إلى حفلة.

الإجازة من دونه، لم تكن كالإجازات السابقة. كنت أحسن التواصل في الغناء كمحترف مع عزف فيلادلفيو بيليبيا، الحياض السحري وعازف التيبلي البار، ومع المعلم بالديس أيضاً بالطبع. وكان ذلك في منتهى السهولة. ولدى الخروج من حفلات رقص الأغنيا، المربكة تلك، كانت تنفض علينا من للال الحديقة أسراب من المتدربات، يومئ خفية، بكل أنواع الإغواء. وكانت هناك واحدة قرماً قريباً، ولكنها لم تكن منهن، فأخطأت بها وعرضتُ عليها أن تذهب معي. فردت علي بمنطق مثالي، أنها لا تستطيع، لأن زوجها نائم في البيت. ولكنها بعد ليلتين من ذلك، أخبرتني أنها ستترك الباب الخارجي، دون إن توصده بالمزلاج، ثلاث مرات كل أسبوع، لكي أتمكن من الدخول، دون أن أطرقة، عندما لا يكون زوجها في البيت.

إنني أتذكر اسمها وكنتها. ولكنني أفضل أن أسميها: نيغروماتنا. كانت ستكمل العشرين من عمرها، في عيد الميلاد. ولها بروفيل حشبية وبشرة كاكاو. وكانت مرحة في الفراش، وذات رعشة نشوة محزونة ومندفعة، كأنها انهيار سيل حجري، وغريزة في الحب لا تهدو غريزة كائن بشري، وإنما نهر مائج. وقد تحولنا، منذ المرة الأولى، إلى مجنونين في الفراش. كان لزوجها - مثل خوان بريفيا - جسد مارد وصوت طفلة. وكان ضابطاً في الأمن العام من جنوبي البلاد، بجرجر سمعة سيئة بأنه كان يقتل الليبراليين كيلا يفقد دفته في التصويب

وحسب. كانا يعيشان في غرفة مقسومة بحاجز من الكرتون، لها باب يؤدي إلى الشارع، وآخر يطل على المقبرة. فكان الجيران يتذمرون من أنها تُقلق راحة الموتى، بنباح الكلبة السعيدة الذي تطلقه. ولكن الموتى كانوا يبتهجون منها، دون ريب، أكثر مما يقلقون، كلما كان نباحها أقوى.

في الأسبوع الأول، اضطرت إلى الهرب من الحجرة، في الرابعة فجراً، لأننا أخطأنا في تاريخ اليوم. وكان يمكن للضابط أن يعود في أي وقت. خرجتُ من الباب المؤدي إلى المقبرة، خلال ضوء الفجر الكاذب، وتباح الكلاب مزعجة الموتى. وعلى جسر القناة المائية الثاني، رأيت تقدم هيئة ضخمة لم أتعرف على صاحبها، إلى أن تحاذينا. لقد كان الرقيب شخصياً، وكان سيجدني في بيته، لو أنني تأخرت، خمس دقائق أخرى.

- صباح الخير أيها الأبيض - قال لي بنيرة ودودة.

وأجبت دون قناعة بما أقول:

- فليحفظك الرب، أيها الرقيب.

توقف عندئذ ليطلب مني ناراً. قدمتها إليه، وقد اقتربتُ منه كثيراً لأحسي عود الثقب من ربح الفجر. وعندما ابتعد بالسيجارة المشتعلة، قال لي بمزاج رائق:

- تتبعث منك رائحة عاهرة لا طاقة لك بها.

دام رعيي أقل مما كنتُ أتوقع، ففي يوم الأربعاء التالي غلبني النوم ثانية، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في مواجهة الخصم المتضرر الذي كان يتأملني بصمت، من طرف السرير. كان رعيي شديداً إلى حد

وجدتُ معه مشقة في مواصلة التنفس. فحاولت المرأة، وكانت لا تزال عارية أيضاً، أن تتدخل، لكن زوجها أبعداها جانباً، بسبطانة المسدس قائلاً:

- لا تتدخلِي. مسائل الفراش تُحل بالخصاص.

وضع المسدس فوق الطاولة، ثم فتح زجاجة روم، ووضعها إلى جانب المسدس، وجلسنا وجهاً لوجه لنشرب دون كلام. لم أكن قادراً على تصور ما الذي سيفعله. ولكنني فكرتُ في أنه لو أراد قتلي لفعل ذلك، دون مراوغة. بعد قليل، ظهرت ليفغرومانتا مشدرة بملامة، وعلى رأسها قلنسوة احتفالية. ولكنه صوب إليها المسدس قائلاً:

- هذه مشكلة رجال.

ففقزت هي واختبأت وراء الحاجز.

كنا قد أنهينا الزجاجة الأولى، عندما انهمر وإبل المطر. وفتح عندئذ الزجاجة الثانية، وأستد فوهة المسدس إلى صدغه وحدقَ في بعينين جامدتين. ثم ضغط عندئذ الزناد حتى أقصاه. ولكن مطرقتة ردت في الفراغ. وحين قدّم إليّ المسدس، بدا عاجزاً عن التحكم بارتعاش يده. وقال لي:

- الآن دورك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها مسدساً بيدي. وقد فاجأني أنه ثقيل وساخن. لم أدر ما عليّ عمله. كنتُ صلباً بعرق جليدي، ويظني مترع بزبد ملتهب. أردتُ أن أقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج. لم أفكر في إطلاق النار عليه، وإنما أعدت إليه المسدس، دون أن أدرك أن تلك كانت فرصتي الوحيدة.

- ماذا، هل تميزت؟ - سألتني بازدياء سعيد، وأضاف: - كان عليك أن تفكر في هذا، قبل أن تأتي هنا.

كان بإمكانني أن أقول له إن الفحول يتبرزون أيضاً. ولكنني أدركت أنني لا أجرؤ على مثل تلك الدعابات القاتلة. عندئذ فتح طاحونة المسدس، وأخرج الطلقة الوحيدة، وألقى بها على المنضدة؛ كانت فارغة. لم يكن ما شعرت به هو الراحة، وإنما مذلة رهيبة.

خفّت قوة وإبل المطر، قبل الساعة الرابعة. وكلتا كان منهوكاً بسبب التوتر. حتى إنني لا أتذكر في أي لحظة، أصدر لي الأمر بارتداء ملابسني، فانصعبت بقدر من مهابة المباراة. وعندما عاد للجلبوس فقط، انتبهت إلى أنه هو الذي كان يبكي، بغزارة ودون خجل، كما لو أنه يتياهى بدموعه. وأخيراً مسحها بظاهر يده، ونف أنفه بأصابعه، ونهض واقفاً.

- هل تعرف لماذا ستخرج من هنا حياً؟ - سألتني. ثم أجاب هو نفسه: - لأن أباك هو الشخص الوحيد الذي عالجني من إصابة بالسيلان. جعلتني مثل كلب عجوز. ولم يستطع أحد مداواتي منها طوال ثلاث سنوات.

ريت على ظهري تربيطة رجل، ودفعني إلى الشارع. كان المطر لا يزال متواصلاً، وكانت البلدة غارقة، فمضيت في الطريق، والماء يصل حتى ركبتني، ويخدر أنني ما زلت حياً.

لستُ أدري كيف علمت أمي بالأمر. ولكنها بدأت في الأيام التالية، حملة مهووسة، لمنعي من مغادرة البيت ليلاً. وصارت تعاملني في أثناء ذلك، مثلما عاملت أبي، بأساليب إلهاء. لم تكن تتفجع كثيراً.

كانت تبحث عن إشارات تدل على أنني قد خلعت ملابس خارج البيت، وتكتشف آثار عطور لا وجود لها، وتعد لي أطعمة صعبة، قبل أن أخرج إلى الشارع، إيماناً منها بالمخافة الشعبية بأن زوجها وابنها لن يتجرأ على ممارسة الحب، في أثناء عملية هضم تلك المأكولات. وأخيراً، عندما لم نجد في إحدى الليالي، مزيداً من الأعذار، لاختجازه في البيت، جلست قبالتني وقالت لي:

- يقولون إنك متورط مع امرأة شرطي، وإنه أقسم أن يطلق عليك رصاصة.

تمكنت من إقناعها بأن ذلك غير صحيح. ولكن الإشاعة تواصلت بالحاح. وكانت نيفروسانتا ترسل إليّ المراسيل بأنها وحيدة، وأن زوجها قد غادر في مهمة، وأنها لم تره منذ بعض الوقت. وكنت أبذل كل ما هو ممكن، كيلا ألتقي به، ولكنه كان يسارع إلى تحييتي عن بُعد، بإيماءة يمكن لها أن تكون مصالحة أو تهديداً على السواء. وقد رأيت آخر مرة في إجازة السنة التالية، في ليلة عريضة دعاني خلالها، إلى تناول كأس روم ثقيل لم أتحجر على رفضه.

لست أدري، بسبب فنون أية شعوة بدأ الأساتذة والزملاء الذين اعتبروني على الدوام طالباً منزوياً، ينظرون إليّ في السنة الخامسة، كشاعر ملعون، وريث أجواء الانتفاخ التي ازدهرت في عهد المدير كارلوس مارتين. ألا تكون رغبتني في الظهور بهذه الصورة، هي ما دفعني إلى البدء بالتدخين في المعهد، وأنا في الخامسة عشرة؟ كانت ضربة التدخين الأولى رهيبية. فقد أمضيت نصف ليلة أحتضر، وسط قبتي على أرض الحمام، وطلع عليّ الصباح مستنفداً، لكن آثار سكرة

التبغ تلك، بدل أن تبعث في القرف، أثار لدي رغبات لا تقاوم في مواصلة التدخين. وهكذا بدأت حياتي كمُدخن ضارٍ، إلى حد أنني لم أعد قادراً على التفكير في جملة واحدة، ما لم يكن فمي ممتلئاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المعهد، إلا خلال الاستراحات. ولكنني كنتُ أطلب الإذن للذهاب إلى المراض، مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، لكي أأخذ لهفتي إلى التدخين وحسب. وهكذا وصلتُ إلى تدخين ثلاث علب من ذات العشرين سجارة، في كل يوم. وقد أتجاوز الأربعة في صخب الليل. وفي إحدى الفترات، بعد مغادرة المعهد، حسبتُ أنني سأصاب بالجنون، بسبب جفاف الحلق وآلام العظام. فصممت على ترك التدخين، لكنني لم أصمد أكثر من يومين، من الجزع.

لا أدري إذا ما كان هذا هو نفسه ما أطلق بدي في النشر، في الواجبات المدرسية المتزايدة المرأة التي كان يطالبنا بها الأساتذة كالدكتورون، وفي كتب نظرية الأدب التي كان يفرض عليّ، بالإكراه تقريباً، أن أقرأها. واليوم، بينما أنا أسترجع حياتي، أتذكر أن مفهومي للقصة القصيرة، كان بدائياً على الرغم من كثرة القصص التي قرأتها، منذ انبهارني الأول بقصص ألف ليلة وليلة، حتى إنني تحجرت على التفكير في أن العجائب التي تروها شهرزاد، كانت تحدث فعلاً، في الحياة اليومية، في عصرها. ولم تعد تحدث بسبب عدم تصديق الأجيال التالية، وجننها الواقعي. وكان يبدو لي أنه من المستحيل، للسبب نفسه، أن يعود أحد في عصرنا إلى تصديق أنه يمكن الطيران فوق المدن والجبال، على متن حصيرة، أو أن يُعاقب عبد من كارتاخينا دي إندياس بالعيش، متنتي سنة، داخل قارورة، اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادراً على جعل قرائه يصدقون ذلك.

كانت الدروس تُصغرنني. باستثناء دروس الأدب - التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب - حتى صرت البطل الوحيد فيها. والمللي من الدراسة، كنتُ أترك كل شيء، لمشيئة حسن الطالع. وقد كنتُ أفتع بغريزة خاصة تمكنني من حدى نقاط الضعف عند كل معلم، فأتوقع بصورة تقريبية، ما هو أهم ما يشير اهتمام المعلمين، كيلا أدرس ما عداه. والواقع أنني لم أكن أفهم لماذا يتوجب علي التضحية بالمروية وبالوقت، في دراسة مواد لا تحرك مشاعري، ولن تفيديني كذلك، مطلقاً، في حياة هي ليست حياتي.

وقد تجرأت على التفكير في أن معظم أساتذتي يقيمونني، تبعاً لطريقتي في الحياة، وليس وفق امتحاناتي. فقد كانت تنقذني إجاباتي غير المتوقعة، وخواطري الجنونية، وابتكاراتي غير العقلانية. ومع ذلك، عندما أنهيت السنة الخامسة بامتياز أكاديمي، لا أشعر بأنني قادر على تجاوزه، أدركت مدى محدوديتي. كانت الثانوية حتى ذلك الحين، طريقاً معبداً بالمعجزات، ولكن القلب كان ينهني إلى أنه ينتظرني، في نهاية السنة الخامسة، سواءً لا يمكنني تجاوزه. والحقيقة العارية من الزخرف هي أنه كانت تنقصني الإزادة، والميل، والتنظيم، والنقود، والإملاء. لكي أتمكن من الالتحاق بدراسة أكاديمية جامعية. وبكلمة أخرى: كانت السنوات تقضي طيراناً، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما سأفعله في حياتي. وكان لا بد من مضي زمن طويل، قبل أن أدرك أن حالة الهزيمة تلك، مواتية أيضاً. لأنه لا وجود لشيء في هذا العالم، ولا في العالم الآخر، إلا له فائدة للكاتب.

ولم تكن أوضاع البلاد أحسن حالاً. فقد استقال ألقونسو لوبيث

بومارخو من رئاسة الجمهورية في الثالث عشر من تموز ١٩٤٥، بعد أن حاصره المحافظون الرجعيون بضراوة. خلفه ألبيرتو بيراس كامارغو، الذي عينه مجلس الشيوخ، ليكمل السنة الأخيرة من الفترة الرئاسية. ومنذ خطابه في تولي المنصب، بصوته المسكّن ونثره الأسلوبى الفخم، بدأ بيراس المهمة الواهمة في تهدئة خواطر البلاد، تمهيداً لانتخاب رئيس جديد.

وبوساطة من المستشار لوبيث بيراس، ابن عم الرئيس الجديد، توصل مدير المعهد إلى تحديد موعد للقاء خاص مع الرئيس، من أجل طلب مساعدة من الحكومة، لرحلة طلابية إلى ساحل الأطلسي. ولم أدر أيضاً لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى ذلك الاجتماع، شريطة أن أرتب قليلاً، شعري المشعث وشاربي المنفوش. وكان المدعوون الآخرون هم غييرمو لوبيث غيراً، وهو من معارف الرئيس، وألفارو رويث توريس، ابن أخت لورا فيكتوريا، وهي شاعرة مشهورة بموضوعاتها الجريئة في "جيل الجُدُد"، الذي كان ينتمي إليه الرئيس بيراس كامارغو نفسه أيضاً. لم أجد مخرجاً آخر. وفي ليلة السبت، بينما غييرمو غرانادوس يقرأ في قاعة النوم رواية لا علاقة لها بعائتي، قام صبي حلاق متدرب من طلاب السنة الثالثة، بقص شعري كمجند غرّاً، وشذّب لي شارب تانغو. وقد تحمّلت، طوال ما تبقى من ذلك الأسبوع، سخريات الطلاب الداخليين والخارجيين، من مظهري الجديد. كان مجرد التفكير في الدخول إلى القصر الرئاسي، يجمد الدم في عروقي. ولكن ذاك كان خطأ من القلب، لأن الملمح الوحيد لغموض السلطة الذي وجدناه هناك، هو الصمت السماوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار ذات السجاء وستائر المخمل، اقتادنا ضابط بالزي العسكري إلى مكتب الرئيس.

كان مظهر الرئيس بيراس كامارغو، قليل الشبه بصوره. وقد أثر في ظهره المثلث، ببذلة الجوخ الإنكليزي المتقنة، ووجنتيه البارزتين، وشحوب الرق في بشرته، وأسنان الطفل الهيبث التي كانت تفتن رسامي الكاريكاتير، وبطء حركاته، وطريقته في المصافحة، وهو ينظر مباشرة إلى العيتين. لا أذكر ما هي الفكرة التي كانت لدي عن الرؤساء، ولكنني لا أظن أنهم جميعهم مثله. ومع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه بصورة أفضل، أدركت شيئاً، ربما لن يعرفه هو نفسه أبداً، أنه كاتب قد ضل الطريق، قبل أي شيء آخر.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير، باهتمام أكثر من جلي، قدم بعض التعليقات المناسبة، ولكنه لم يتخذ قراره، قيل أن يستمع كذلك، إلى الطلاب الثلاثة. وفعل ذلك باهتمام مائل، وأشعرنا بأننا نُعامل بالاحترام واللطف نفسيهما اللذين يعامل بهما المدير. وكانت الدقيقتان الأخيرتان كافيتين لنوقن أنه يعرف في الشعر، أكثر مما يعرف في الملاحظة النهرية. وأن اهتمامه به أكثر من اهتمامه بها بكل تأكيد.

منحنا كل ما طلبناه، ووعد فوق ذلك، بحضور احتفال نهاية العام الدراسي في المعهد، بعد أربعة شهور. وقد فعل ذلك، مثلما يحضر أكثر نشاطات الحكومة جديدة، وضحك أكثر من الجميع من كوميديا المواقف المضحكة التي قدمناها على شرفه. وابتهج في حفل الاستقبال الحماسي، كما لو أنه طالب آخر من طلاب المعهد، ومظهر مختلف عن مظهره الرسمي. ولم يستطع مقاومة إغراء القيام بمداعبة طلابية، حين مدَّ إحدى ساقيه، معترضاً طريق من كان يوزع الكؤوس، فلم يتمكن هذا من تفادي الوقوع، إلا بصعوبة.

ذهبت، مسلحاً بحماس حفلة نهاية العام الدراسي، لقتضاء إجازة السنة الخامسة مع أسرتي. وكان أول خبر قدموه لي هو الخبر السعيد جداً، بأن أخي لويس إنريكي قد رجع بعد أن أمضى سنة وستة شهور في دار الإصلاح. وقد فاجأني مرة أخرى، بحسن طبعه. لم يكن يشعر بأدنى قدر من الضغينة على أحد، بسبب الحكم عليه. وكان يروي المصائب بمزاج مرح لا يهزم. وقد توصل في تأملاته، وهو سجين، إلى النتيجة بأن أهيئنا قد أدخلنا الإصلاحية بطيب نية. ومع ذلك، فإن حماية المطران وتوصيته لم تعفياها من التعرض لشجارب قاسية في حياة السجن اليومية. ولكن بدل أن تفسده تلك المحن، وتغرقه في الضلال، أغنت طبعه ومزاجه الساخر.

وكانت أول وظيفة شغلها بعد عودته، هي منصب سكرتير عمدة سوكري. وبعد بعض الوقت، أصيب العمدة بتوسعك مفاجئ في المعدة، فوصف له أحدهم دواء سحرياً نزل للتو إلى السوق؛ ألكاسيلتير. ولكن العمدة لم يذّب ذلك الدواء في الماء، وإنما ابتلعه مثلما يتلغ أي قرص دواء عادي. ولم يختنق بأعجوبة، بالفوران الذي أحدثه الدواء الفوار في معدته. وقيل أن يستعيد الطمأنينة من المذعر الذي ألمّ به، احتاج إلى عدة أيام من الراحة. ولكن كانت لديه أسباب سياسية تحول دون تكليف أي واحد من معاونيه الشرعيين، بمهام منصبه؛ فمنح التفويض المؤقت لأخي. وبسبب هذه المصادفة الغريبة - وهو دون السن القانونية للمنصب - دخل لويس إنريكي تاريخ البلدية، باعتباره العمدة الأصغر سناً.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقني حقاً، في تلك الإجازة، هو اليقين بأن أفراد أسرتي، في أعماق قلوبهم، يتنون مستقبلهم على ما يعقدونه

من آمال عليّ. وكنت أنا الوحيد الموقن من أن تلك الآمال ليست سوى أوهام باطلّة. وقد جعلتني جملتان عارضتان أو ثلاث، قالها أبي أثناء الغداء، أدرك أن هناك الكثير مما يجب الحديث فيه عن مصيرنا المشترك. فسارعت أمي إلى التأكيد: "إذا ما استمرت الحال على هذا المنوال، فسوف نضطر عاجلاً أو آجلاً، إلى العودة إلى كاناكا." ولكن نظرة واحدة من أبي، دفعته إلى التصحيح:

- أو إلى أي مكان آخر.

لقد صار الأمر واضحاً عندئذ: احتمال انتقال جديد إلى أي مكان، هو موضوع مطروح في الأسرة. ليس بسبب الجو الأخلاقي، وإنما من أجل مستقبل أوسع أفقاً للأبناء. لقد كنتُ أجد العزاء حتى ذلك الحين، بفكرة أن أعزو روح الهزيمة التي أعاني منها، إلى القرية وناسها، وحتى إلى أسرتي. ولكن دراماتيكية أبي كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن، دوماً، العثور على مذنب لكي لا يكون أحدنا هو نفسه المذنب.

ما لمحت في الجو، كان شيئاً أشدّ زخماً. فأمي تبدو مهتمة فقط، بحالة خيمي الصحية. وهو الابن الأصغر، الذي لم يستطع مجاوز وضعه كخديج، فكانت تقضي معظم اليوم، مستلقية معه في أرجوحته في حجرة النوم، مشغلة بالحزن والحمل، وبدأ البيت يتصدع بسبب إهمالها. فبدأ أخوتي طليقي العنان، دون عراية تحصيلهم. وكان نظام تناول الطعام قد تراخى كثيراً، بحيث صرنا نأكل دون توقيت معين، كلما أحسنا بالجوع. أما أبي، وهو أكثر الرجال تعلقاً بالبيت، فصار يقضي النهار، متأملاً الساحة من الصيدلية، ويذهب في المساء للعب بضعة أدوار في نادي البيلياردو. لم أستطع، في أحد الأيام، تحسّل

المزيد من التوتّر، فاستلقت إلى جانب أمي في أرجوحة النوم، مثلما لم أستطع أن أفعل في طفولتي. وسألتها ما هو السر الذي يجري نفسه في أجواء البيت، فابتلعت زفرة كاملة، كيلا يرنجف صوتها، وفتحت لي روحها:

- لأبيك، ابن في الشارع.

ومن الراحة التي أحسست بها في صوتها، أدركت كم كانت تتلهف لسؤالي. لقد اكتشفت الحقيقة ببصيرة الغيرة، عندما رجعت إحدى طفلات الخدم إلى البيت متأثرة، لأنها رأت أبي يتكلم بالهاتف في مركز التلغراف. ولم تكن امرأة غيورة مثل أمي بحاجة لمعرفة المزيد. فذلك الهاتف هو الوحيد في القرية، ولا يُستخدم إلا في المكالمات الخارجية، وبناء على موعد مسبق، مع ما يتخلل ذلك من انتظار غير مؤكد ودقائق غالبية التكاليف، مما يحصر استخدامه في الحالات الحرجة القصوى. فكل مكالمات، مهما كانت بسيطتها، توقف النذر الخبيثة في مجتمع الساحة. ولهذا، عندما رجع أبي إلى البيت، راحت أمي تراقبه دون أن تقول شيئاً، إلى أن مزق قصاصة ورقية كانت في جيبه تتضمن إشعاراً باستدعائه قضائي بتهمة سرقة استغلال المهنة. انتظرت أمي الفرصة المواتية لتسأله مباشرة، ودون مقدمات، عنم كان يكلمه بالهاتف. وكان السؤال مبالغاً جداً، لم يجد معه أبي جواباً سريعاً قابلاً للتصديق، أكثر من الحقيقة:

- كنت أكلم محامياً.

فقال أمي:

- هذا أعرفه. ولكنني بحاجة لأن تخبرني ذلك أنت بالذات،

وبالصراحة التي أستحقها.

وقد وافقت أمي فيما بعد. على أنها هي من أصابها الرعب من القدر المتعنتة التي يمكن لها أن تكون قد كشفت الغطاء عنها. دون أن تتشبه. لأنه إذا كان قد تجرأ على قول الحقيقة لها، فإنما فعل ذلك. لاعتقاده بأنها تعرف كل شيء. وأن عليه أن يخبرها به.

وهذا ما حدث. اعترف أبي بأنه تلقى إشعاراً بدعوى قضائية ضده، بتهمته اغتصاب مريضة مخدرة بحقنة مورفين في عيادته. الحادثة وقعت في مركز قضائي منسي، حيث أمضى فترات قصيرة لعلاج مرضى لا يملكون موارد. وقدم على القصور دليلاً بيئاً على نزاهته؛ ميلودراما التخدير والاعتصاب هي تلفية إجرامية دبرها أعداء - له. أما الطفل فهو منه فعلاً، وحبلت به أمه في ظروف طبيعية.

لم يكن من السهل على أمي، تفادي الفضيحة، لأن شخصاً من الوزن الثقيل هو الذي كان يحرك خيوط المؤامرة في الظل. لقد كانت هناك سابقة آبيلاردو وكارمن روسا، اللذين عاشا معنا في فترات مختلفة محاطين بحبة الجميع. ولكن كليهما ولد قبل زواج أمي وأبي. ومع ذلك، فقد تجاوزت أمي الضغينة أيضاً بجرعة الابن الجديد المريرة، وعدم وفا، الزوج، وناضلت إلى جانبه بوجه سافر، إلى أن قضت على أكذوبة الاغتصاب.

عاد السلام إلى الأسرة. ومع ذلك، فقد وصلت بعد قليل، أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف بها أبي على أنها ابنته. وكانت تعيش في ظروف يرثى لها. لم تضع أمي الوقت في منازعات واقتراضات، وإنما خاضت معركة إحضارها إلى البيت. وقد قالت في تلك المناسبة: "لقد فعلت مينا الشيء نفسه بأبنا، أبي المبعثرين، ولم تندم على

ذلك قط." وهكذا تمكنت بنفسها من جعلهم يرسلون الطفلة إليها، دون ضجة عامة. وضمتها إلى الأسرة كبيرة العدد، أصلاً.

كل تلك الأمور كانت قد صارت جزءاً من الماضي، عندما وجد أخي خيمي، في حفلة في قرية أخرى، صبيّاً يشبه أخي غوستافو إلى حد التطابق. وكان ذلك هو الابن الذي تسبب في النزاع القضائي. وقد كبر جيداً محاطاً برعاية أمه. ولكن أمنا قامت بكل أنواع المساعي، وأحضرته ليعيش معنا في البيت - عندما كان عددنا أحد عشر ابناً - وساعدته على تعلم مهنة، وعلى الانطلاق في الحياة. عندئذ لم أستطع إخفاء دهشتي من إقدام امرأة غيبور إلى حد الهديان، على مثل تلك التصرفات، فردت عليّ هي نفسها، بجملة ما زلتُ أحفظها، منذ ذلك الحين. مثل قطعة ألماس:

- لا يمكن ترك من يحملون دمّ أبنائي نفسهُ، هاتمين على وجوههم. كنتُ أرى اختي في إجازاتي السنوية فقط. وبعد كل رحلة، كنتُ أجد صعوبة أكبر في التعرف عليهم، وفي حفظ اسم جديد في ذاكرتي، فإضافة إلى أسمائنا المعهودة، كان لكل واحد منا، اسم آخر في البيت، ينادوننا به فيما بعد من أجل البساطة اليومية. ولم يكن تصغيراً لاسمنا وإنما لقباً عارضاً. فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوتني غابيتو - وهو تصغير غير نظامي لاسم غابرييل في ساحل غواخيرا - فكنتُ أشعر على الدوام بأن هذا هو اسمي الأول، وأن اسم التصغير هو غابرييل. وقد سألتنا شخص أدهشته تلك التسميات الغريبة، لماذا لم يُعمد أبوانا منذ الأصل، جميع أبنائهم بالأسماء المستعارة.

ومع ذلك، فإن ليبرالية أمي تلك، بدت كما لو أنها تمضي باتجاه

معاكس، في موقفها من ابنتها الكبيرتين، مارغوت وعابدا، اللتين حاولت أن تفرض عليهما الصرامة نفسها التي فرضتها أمها عليهما في أثناء غرامياتها مع أبي. كانت تريد الانتقال من القرية، أما أبي بالمقابل، الذي لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك مرتين، من أجل أن يجمع أمتعته وينطلق عبر العالم، فلم يكن موافقاً على الرحيل، في تلك المرة. انقضت عدة أيام، قيل أن أعرف أن المشكلة هي وقوع الابنتين الكبيرتين في حب رجلين مختلفين، ولكن لهما الاسم نفسه: رافائيل. وعندما أخبروني بذلك، لم أستطع منع نفسي من الضحك، وأنا أتذكر رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمي. وقد قلتُ لها ذلك. فردت:

الحالة ليست نفسها.

فقلتُ بإصرار:

بل هي نفسها.

حسنٌ - قالت بشبهة مصالحة - إنها نفسها، ولكنها مكررة مرتين، في الوقت نفسه.

ومثلما حدث لها في حينه، لم يكن ثمة نفع لأية مبررات أو مساع، لم يُعرف قط، كيف علم الأبوان بالأمر. لأن كلاً من أختي، كانت قد اتخذت، على انفراد، الاحتياطات كيلا ينكشف أمرها. ولكن الشهود كانوا هم الأشخاص الذين لا تفكران في الارتياح بهم، إذ كانت الأختان تأخذان معهما أحياناً أحد أخوتنا الصغار، لإضفاء المصداقية على براءتهما. وكانت المفاجأة الكبرى هي أن أبي نفسه شارك أيضاً في ترصدهما، ليس بصورة مباشرة، ولكن بالإصرار السلبي نفسه الذي مارسه الجند نيكولاس، ضد ابنته.

«كنا نذهب إلى حفلة رقص، فيدخل أبي إلى الحفلة ويعيدنا إلى البيت، إذا ما اكتشف وجود الرافائيلين هناك»، هذا ما روته عابدا روسا في مقابلة صحفية. لم يكن أبواي يسمحان لهما برحلة إلى الريف أو بالذهاب إلى السينما، أو إرسالن معهما شخصاً لا يتوقف عن مراقبتهما. وكانت كل واحدة منهما تختلق ذرائع غير مجددة للذهاب إلى مواعيدها الغرامية، فيظهر هناك شبح غير مرئي يشي بهما. وقد اكتسبت أختي ليخيا، التي تصفرهما، الشهرة بأنها جاسوسة وواشنية، ولكنها هي نفسها كانت تبرر تصرفها بحجة أن الغيرة بين الأخوة هي طريقة أخرى في الحب.

حاولتُ في تلك الإجازة أن أدخل لدى والدي، كيلا يكررا الأخطاء، التي اقترفها أبوا أمي ضدها، فكانا يجدان على الدوام، أسباباً ملتوية لعدم التفهم، وكان أكثر تلك الأسباب إثارة للريبة، هو المنشورات التي كشفت أسراراً فظيعة - حقيقية أو مختلقة - حتى في أقل الأسر إثارة للشكوك. فقد وشت بأبوات مستترة، وخبائات زوجية مخجلة، ومفاسد فراش كانت معروفة للملأ عبر أساليب أكثر بساطة من المنشورات. ولكن لم يُعلق أي منشور يكشف أمراً غير معروف بطريقة ما، مهما كان خفياً، أو أمراً سيحدث عاجلاً أو آجلاً. وكان أحد الضحايا يقول:

«المنشورات من فعل الشخص نفسه».

ما لم يحسب أبواي حسابه، هو أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالأساليب نفسها التي اتبعها هما. لقد أرسلوا مارغوت لتدريس في مونتريي، وذهبت عابدا بقرار منها إلى سانتا مارتا. كانتا داخليتين. وفي أيام العطل، يكون هناك شخص متيقظ براقبتهما. ولكنهما كانتا

تسديران الأمر دوماً، للاتصال بالرافاتيلين البعيدين. ومع ذلك، فقد نجحت أُمي في ما لم ينجح به أبواها معها. إذ أمضت عايدي نصف حياتها في دير، وعاشت هناك دون أحزان ولا أمجاد، إلى أن شعرت بأنها صارت بمنجى من الرجال. وبقينا أنا ومارغوت متحدين دوماً، بذكريات طفولتنا المشتركة. عندما كنتُ أنا نفسي أراقب الكبار كيلا يعضطوها وهي تأكل التراب. وصارت أخيراً مثل أم ثانية للجميع، وبخاصة كيكى، الذي كان يحتاج إليها أكثر من سواء، وأبقتة معها حتى نفسها الأخير.

اليوم فقط، ألاحظ إلى أي حد كانت حالة أُمي المنوية، والنوترات الداخلية في البيت، متطابقة مع تناقضات البلاد القائلة التي لم تكن تخرج إلى العلن، بيد أنها موجودة. كان على الرئيس بيراس أن يدعو إلى انتخابات في السنة الجديدة. وكان المستقبل يبدو مكفهراً. فالمحافظون الذين تمكنوا من الإطاحة بلوبيث، حققوا بذلك الحدث لعبة مزدوجة: فهم يتملقون الرئيس الجديد، بامتداح عدم تحيزه وحياده المحسوب رياضياً، غير أنهم يشجعون الشقاق في بروبينشيا، ليستولوا مجدداً على السلطة بالحق أو بالقوة.

ظلت سوكري مستثناة من العنف. والحالات القليلة التي تُذكر، لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. إحدى تلك الحالات هي اغتيال خواكين بيرغا. وكان موسيقياً محبوباً يعزف البومباردينو^(١) في الجوقة الموسيقية المحلية. وقد كان يعزف في الساعة السابعة مساءً، عند مدخل السينما، عندما وجه إليه أحد أقربائه المعادين، ضربة واحدة بحد السكين على

(١) آلة موسيقية نحاسية من آلات النفخ.

عنقه المنتفخ من النفخ في آنته الموسيقية. ونزف على الأرض حتى الموت. كلاهما كان محبوباً في القرية، والنفسي الوحيد المعروف، وغير المؤكد، هو أنها قضية شرف. في تلك الساعة بالذات، كنا نحتمل بعيد ميلاد أختي ريتا، فأفسدت صدمة الخبر الحفلة التي كان مقرراً لها أن تستمر عدة ساعات.

المبارزة الأخرى، وهي سابقة جداً لتلك، ولكنها لا تحمي من ذاكرة القرية، كانت بين بليتيو بالماسيدا وديونيسيانو باريوس. أولهما ينتمي إلى أسرة قديمة ومحترمة. وقد كان هو نفسه، رجلاً ضخماً ولطيفاً. ولكنه يتحول إلى باحث عن المشاكل أيضاً وذو طبع مشاكس، عندما يسرف في تناول الكحول. فحين يكون بكامل وعيه، يتمتع بزجاج وظرف أي رجل مهذب. غير أنه إذا ما زاد عيار الشرب، صار عربيداً يسرع باللجوء إلى المسدس، ويحمل سوط فارس على خصره يجلد به من لا يروقه مظهره. وكانت الشرطة نفسها تحاول إبقائه بعيداً عنها، تفادياً لشروعه. وقد تعب أفراد أسرته الطيبة من جرحته إلى البيت، كلما أسرف في الشراب، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه لمصيره.

أما ديونيسيانو باريوس فكان نقيض ذلك: رجل خجول وعائر الحظ، عدو الخصام، ولا يشرب الكحول منذ مولده. لم تحدث له أي مشكلة مع أحد قط، إلى أن بدأ بليتيو بالماسيدا يستغزه بسخريات مهينة من مسكنته وطيبته. فصار يتجنبه كيفما استطاع، حتى اليوم الذي صادفه بالماسيدا في طريقه وصنع وجهه بسوطه، لأنه رغب في عمل ذلك. عندئذ تغلب ديونيسيانو على خجله، وعلى خنوعه وسوء طالعاه، وتواجه مع المعتدي بالرصاص. كانت مبارزة سريعة، سقط

كلاهما جريحاً في حالة خطيرة، ولكن ديوتسيبانو وحده هو الذي مات.
ومع ذلك، فإن المباراة التاريخية في القرية، هي الموت التوأم الذي
أودى بحياة بلينيو بالماسيدا المذكور، وتاسيو آتاناياس، وهو رقيب
شرطة مشهور بتأنقه، وابن مثالي لماورينيو آتاناياس، عازف الطبل في
الجوقة الموسيقية نفسها التي كان يعزف فيها خواكين بيغا آلة
البومباردينو. كانت مباراة رسمية في منتصف الشارع. وقد أصيب
فيها كلاهما، بجرح بليغ. واحتضر كل منهما طويلاً في بيته. استعاد
بلينيو الصحو بعد المباراة مباشرة تقريباً، وأبدى قلقه فوراً على مصير
آتاناياس. وفوجئ هذا الأخير بدوره من القلق الذي يتضرع به بلينيو،
من أجل نجاته. فبدأ كل منهما يتوسل إلى الله ألا يموت الآخر. وأبقت
أسرتها كلاً منهما على إطلاع على حال الآخر حتى النفس الأخير.
وعاشت القرية كلها حالة الذهول تلك، باذلة كل أنواع الجهود لإطالة
حياتيهما.

بعد أربع وعشرين ساعة من الاحتضار، قُرعت أجراس الكنيسة،
حداً على امرأة ماتت لتوها. سمع المحتضران الأجراس. وظن كل منهما
في سريره، أنها تُقرع لموت الآخر. توفي آتاناياس على الفور تقريباً من
الحزن، وهو يبكي موت بلينيو. عرف هذا الأخير بالأمر، فمات بعد
يومين، وهو يبكي بحرقة على الرقيب آتاناياس.

في بلدة أصدقا، مسالين مثل تلك، اتخذ العتف في تلك السنوات
مظهراً أقل فتكاً. ولكنه ليس أقل أذى: إنها المنشورات. كان الرعب
يتأجج في بيوت الأسر الكبيرة التي تنتظر طلوع صباح اليوم التالي،
مثل من ينتظر بانصيب القدر. وفي أقل الأماكن توقعاً، تظهر ورقة

عقابية، تكون مبعث راحة لما لا تقوله عن أحدهم. وأحياناً حفلة سرية لما
تقوله عن آخرين. وأبهي الذي ربما كان أكثر رجل مسالم عرفته، زُيت
المسدس الموقر الذي لم يطلق النار قط، وأفلت لسانه في صالة البلياردو
صارخاً:

- من يخظر له أن يس أي واحدة من بناتي بكلمة، سيناله رصاص
هذا الباسل.

بدأت أسر عديدة بالنزوح، خوفاً من أن تكون المنشورات مقدمة
للعنف البوليسي الذي كان يعيثُ خراباً بقرى بكاملها، في المناطق
الداخلية من البلاد، لتخويف المعارضة.

تحول التوتر إلى خبزٍ آخر لكل يوم. في البدء جرى تنظيم دوريات
مشخفية، ليس للكشف عن كتيبة المنشورات، بقدر ما هي لمعرفة ما
تقوله، قبل أن تُمزق عند الفجر. وقد وجدنا، نحن المتأخرين في السهر،
موظفاً بلدياً في الساعة الثالثة فجراً، يستمتع بالبرودة أمام باب منزله.
ولكنه في الحقيقة كان يترصد من يعلقون المنشورات. قال له أخي، بين
المزاح والجد، إن بعض المنشورات تقول الحقيقة. فأخرج الرجل مسدسه
وصوبه مُهياً:

- كرر ما قلته!

عندئذ علمنا أنهم قد علقوا في الليلة السابقة، منشوراً صحبياً،
ضد ابنته العازبة. ولكن المعلومات كانت متداولة بين الجميع، حتى في
بيته بالذات. والوحيد الذي لم يكن يعرفها هو أبوها.
بدأ جلياً في أول الأمر أن من يكتب المنشورات هو الشخص نفسه،
بالريشة نفسها، وعلى الورق نفسه. ولكن في سوق تجارية ضيقة كالتي

في الساحة، لم يكن هناك سوى متجر واحد بإمكانه بيع تلك الأوراق. وقد سارع صاحبه بالذات إلى إثبات براءته. وعرفت منذ ذلك الحين، أنني سأكتب رواية عن المنشورات، ولكن ليس عما تقوله، وهو في الغالب، تخيلات يعرفها الجميع، وليس فيها الكثير من الطرافة. وإنما عن التوتير غير المحتمل الذي توصلت تلك المنشورات إلى توليده في البيوت.

وفي "ساعة الشؤم"، روايتي الثالثة التي كتبتها بعد عشرين سنة من ذلك، بدأ لي أن أبسط متطلبات الاحترام تفرض عليّ عدم استخدام حالات محددة بعينها، أو يمكن التعرف عليها، بالرغم من أن بعض الحالات الواقعية كانت أفضل من تلك التي اختلقتها أنا. ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأنني كنت أهتم على الدوام، فضلاً عن ذلك، بالظاهرة الاجتماعية، أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصة. وبعد أن نشرت الرواية فقط، عرفت أن منشورات كثيرة كانت سبباً للاحتفال في الأحياء الهامشية، حيث كنا مكروهين، نحن من نسكن في الساحة الكبرى.

والحقيقة أنني لم استفد من المنشورات، إلا كنقطة انطلاق في قصة لم أستطع مجسدها في أي وقت، لأن ما كنتُ أكتبه بالذات كان يؤكد أن المشكلة، في أعماقها، هي سياسية، وليست أخلاقية مثلما كنت أعتقد. ولقد فكرتُ على الدوام، بأن زوج نيفرومانتا هو نموذج جيد للعمدة العسكري في "ساعة الشؤم"، ولكنني بينما كنتُ أطوره كشخصية، راح يغويني ككائن بشري. ولم أجد مبرراً لأن أميته، ذلك أنني اكتشفت أنه لا يمكن للكاتب المبدئي أن يقتل شخصية، ما لم يكن لديه مبرر مقنع، ولم يكن الموت مقنعاً في تلك الحالة.

إنني أرى اليوم، أنه يمكن للرواية نفسها أن تكون رواية أخرى. لقد كتبتها في فندق للطلاب في شارع كوجا، في الحي اللاتيني في باريس، على بعد خمسين متراً من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تنقضي بانتظار شبك مصرفي لم يصل قط. وعندما أنهيتها، جعلت من الأوراق لفافة وربطتها بوحدة من ربطات العنق الثلاث التي أخذتها معي، في أزمئة أفضل، ودفنتها في قاع الخزانة.

بعد سنتين من ذلك، وبينما أنا في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أبن هي تلك الأوراق، عندما طلبت مني من أجل مسابقة في الرواية، تنظمها شركة إسو الكولومبية. وبجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من نقود أيام الأزمات تلك. كان المبعوث هو المصور الضوئي غييرمو أنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود أصول الرواية، مذ كنتُ أكتبها في باريس. وقد أخذها بالوضع الذي كانت عليه، وهي لا تزال مربوطة بربطة العنق، دون أن ينساح لي على الأقل، كسبها على البخار، بسبب ضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أدنى أمل بالجائزة التي كانت تكفي لشراء بيت. ولكنني ما إن أرسلتها حتى أعلن عن فوزها، من قبل لجنة تحكيم سامية، في السادس عشر من نيسان ١٩٦٢. وفي الساعة نفسها تقريباً التي ولد فيها ابني الثاني، غوثالو، وخيزه تحت إبطه.

لم يكن قد أتبع لنا الوقت حتى للتفكير في الأمر. عندما تلقيت رسالة من الأب فيلكس ريبستريبو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطيب الذي ترأس لجنة تحكيم الجائزة، ولكنه كان جهل ما هو عنوان الرواية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني في تسرع الساعة الأخيرة، نسيت كتابة العنوان على الصفحة الأولى: "قرية البراز تلك".

ذُعر الأب ريستريبو حين عرف العنوان، وطلب مني عن طريق خيرمان بارغاس، وبأكثر الطرق تهذّباً، أن أستبدله بعنوان آخر أقل فظاظاً، وأكثر ملامسة لإيقاع الكتاب، وبعد تداول مطول معه، حسمت أمرى بعنوان ربما ليس له علاقة كبيرة بالدراما، ولكنه ينفعها كراية، لتبحر في بحار النفاق: "ساعة الشؤم".

بعد أسبوع من ذلك، دعاني الدكتور كارلوس أرانغو بيليث، سفير كولومبيا في مكسيكو، والمرشح حديثاً لرئاسة الجمهورية، إلى لقاء في مكتبه ليطلعني على أن الأب ريستريبو يرجوني أن أبدل كلمتين تبدوان له غير مقبولتين في النص الفائز: "الواقعي الذكري" و "استمنا". ولم أستطع أنا ولا السفير إحقاقاً ذهولنا، ولكننا اتفقنا على أنه لا بد من إرضاء الأب ريستريبو للوصول إلى نهاية سعيدة، للمسابقة التي لن تنتهي، بحل غير متحيز. فقد قلت للسفير:

- لا بأس أيها السيد السفير، سوف أحذف إحدى الكلمتين، ولكنك أنت من ستقدم لي الجميل باختيارها.

أطلق السفير زفرة راحة، وهو يحذف كلمة "استمنا". وهكذا صُنّي الخلاف، وطبعت الكتاب دار نشر إبيرو أميركانا في مدريد، بطبعة كبيرة وإطلاقة مجرومية، بغلاف من الجلد، وعلى ورق ممتاز، وطباعة متقنة. ولكنه كان شهرٌ عسلٍ عابر، لأنني لم أستطع مقاومة إغراء القيام بقراءة متفحصة، فاكتشفت أن الكتاب المكتوب بلغتي الهندية، قد جرت دبلجته - مثل أفلام ذلك الزمان - إلى أنصع اللهجات المدريدية.

كنتُ قد كتبت: "Así como ustedes viven ahora, no sólo están en" "una situación insegura sino que constituyen un mal ejemplo para el pueblo

وقد بعثت إعادة الكتابة التي قدمها المحرر الإسباني القشعريرة في جلدي: "Así como vivís ahora, no sólo estáis en una situación insegura sino que constituís un mal ejemplo para el pueblo" (١) والأخطر من ذلك، أن من يقول هذه العبارة هو كاهن. مما سيدفع القارئ الكولومبي إلى الظن أنها غمزة من المؤلف للإشارة إلى أن المحوري، في الرواية، إسباني، وهو ما سيعقد سلوكه، وينزع الأجواء الطبيعية تماماً عن مظهر جوهري في الدراما. ولم يكتف المصحح بنمسيط النحو في الحوارات، بل خوك نفسه التدخل بيد مسلحة في الأسلوب، فامتلاً الكتاب بترقيعات مدرديبة لا علاقة لها بالأصل. وبالنتيجة، لم يبق لي من مخرج سوى عدم الاعتراف بتلك الطبعة، باعتبارها مزيفة، وجمع النسخ التي لم تُبع وإحراقها. أما ردّ المسؤولين فكان الصمت الكامل.

منذ تلك اللحظة، اعتبرت الرواية غير منشورة. وإنهضت في المهمة القاسية لإعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن نسخة المخطوط الأصلية الوحيدة هي تلك التي أرسلتها إلى المسابقة. وهي نفسها التي ذهبت إلى إسبانيا، من أجل تلك الطبعة. وبعد إقرار النص الأصلي الذي صححته في أثناء ذلك، مرة أخرى، بمبادرة مني، نشرت الرواية دار إبرا، في مكسيكو، مع التنبيه المطبوع والواضح بأنها الطبعة الأولى.

(١) الفوارق هي في تحويل الأفعال التي أضرتنا بخط تحتها من التكلم بكلفة - إلى التكلم برفع الكلفة - وهما أسلوبان تختلف دلالتهما (في اللغة المتداولة) في إسبانيا عما هي عليه في بعض بلدان أميركا اللاتينية. وبخاصة الكاريبية منها. أما ترجمة العبارة فهي كما يلي: "هذه الحياة التي تعيشونها الآن، لا تجعلكم في وضع غير آمن وحسب، وإنما تقدمان بها قدوة سيئة للقرية". وهذه العبارة يقولها الأب أنخل في رواية "ساعة الشؤم" لدون ساباس وعشيقته وهو يعضهما على الزواج بصورة شرعية.

لم أدر قط، لماذا كانت "ساعة الشؤم" هي الوحيدة بين كتبي التي تحيلني إلى زمانها ومكانها، في ليلة ذات قمر كبير ونسمات ربيعية. كان ذلك في يوم سبت، وكان المطر قد انقطع، ولم تكن السماء تتسع للنجوم. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة للتو عندما سمعتُ أمي في غرفة الطعام تهمس بأغنية حب شعبية لكي تنوم الطفل الذي تمشي. وهي تحمله بين ذراعيها. سألتها من أين أتت الموسيقى، فردت عليّ بطريقتها:

- من بيوت قاطعات الطريق.

أعطتني خمسة بيزوات دون أن أطلب منها ذلك، لأنها رأته أتدي ملاسي للذهاب إلى الحفلة. وقيل أن أخرج تبهتني، ببعد بصيرتها المؤكد، إلى أنها ستترك باب الفناء مغلقاً، دون أن توصده، لكي أتمكن من العودة في أي وقت أشاء. دون أن أوقف أمي. لم أصل إلى بيوت قاطعات الطريق، لأنه كانت هناك تدريبات موسيقية في بيت المايسترو بالديس، وكان لويس إتركي قد انضم إلى فرقته، فور عودته إلى البيت.

انضمت إليهم في تلك السنة، للعرض على التيبلي والغناء مع معلميهم الستة المجهولين، حتى الفجر. لقد كنتُ أنظر دوماً إلى أخي على أنه عازف جيتار جيد، ولكنني عرفت، منذ الليلة الأولى، أن الجميع، بمن فيهم خصومه الألداء، يعتبرونه فناناً بارعاً. لم تكن هناك فرقة موسيقية أفضل. وكانوا واثقين من أنفسهم، إلى حد أنه عندما يتعاقد أحد معهم من أجل سرناد مصالحة أو استرضاء. تحت نافذة حبيبته، يطمئنه المايسترو بالديس مسبقاً:

- لا تقلق، سنجعلها تنام، وهي تعض وسادتها.

الإجازات من دونه، لم تكن كالإجازات التي يكون فيها. فقد كان هو ولويس إتركي، مع فيلادلفو بيليا يعزفون كمحترفين. وكان أن اكتشفتُ آنذاك، وفاة الكحول، وتعلمت العيش بصورة سوية، بالنوم نهاراً والغناء ليلاً. ومثلما تقول أمي: لقد أفلتُ العنان للعريضة.

لقد قيل عني كل شيء، وشاع القول عن أن رسائلي لا تصل إلى عنوان أبوي، وإنما إلى بيوت قاطعات الطريق. تحولتُ إلى أكثر الزبائن مواظبة على ما يطهونه من وجبات السانكوتشو الملحمة، بمرارة النمر، ومرق عظام الإغوانا التي تمنح القوة لثلاث ليالٍ متتالية. لم أعد أقرأ أو أنضم إلى مائدة الأسرة. وكان ذلك ينطبق على الفكرة التي عبرت عنها أمي مرات عديدة، بأنني أفعل ما يحلو لي، كما أشاء. بينما المسكين لويس إتركي هو الذي يجرجر سوء السمعة. وقد قال لي لويس إتركي، في أحد تلك الأيام، دون أن يعرف بأمر عبارة أمي: "الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إتني المسؤول، ویرسلوني مرة أخرى إلى دار الإصلاح".

قررت أن أهرب في عيد الميلاد من منافسة العريبات السنوية. وقد فررت برفقة صديقين متواطئين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنتُ في البيت أنني سأذهب لثلاثة أيام. ولكنني بقيت عشرة. وكان اللذنب في ذلك هو ذنب ماريا أليخاندرينا ثيرفاتنس، وهي امرأة غير معقولة، تعرفت عليها في الليلة الأولى، وفقدت معها عقلي في أشد حفلات العريضة صحياً في حياتي. حتى صباح يوم الأحد الذي لم أجدها فيه في فراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات من ذلك، أخرجتها من حنيني،

ليس بسبب أفضالها ومحاسنها، بقدر ما هو بسبب رنين اسمها.
وبعشتها لتحمي امرأة أخرى، في واحدة من روياتي، كصاحبة وسيدة
بيت متعة لم يكن له وجود قط.

حين رجعتُ إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ، في
الساعة الخامسة فجراً. فطلبت مني، بهمسها المتواطين، أن أبقى معها،
لأن أبي قد استيقظ، وهو مستعد لأن يثبت لي أنني لست حراً كما أظن
نفسي، حتى وأنا في إجازتي. قدمت لي فنجاناً من القهوة الحسنة،
بالرغم من معرفتها بأنها لا تروقني، وأجلستني إلى جانب الموقد. دخل
أبي بالبججما، والنعاس لا يزال بادياً عليه، وفوجئ برؤيتي، ومعني
الفتجان الذي يتصاعد منه البخار، ولكنه وجه إلى سؤالاً موارباً:

- ألم تكن تقول إنك لا تشرب القهوة؟

ودون أن أجد ما أردُ به، اختلقت أول ما خطر لي:

- أشعر بالعطش دوماً، في مثل هذه الساعة.

فردُّ هو:

- مثل كل السكيرين.

لم ينظر إليّ بعدها. ولم يعد إلى الحديث في الموضوع. ولكن أمي
أخبرتني أن أبي الذي تضايق منذ ذلك اليوم، بدأ يعتبرني حالة مبنوساً
منها، وإن لم يُشعرني بذلك قط.

تزايدت نفقاتي إلى حدِّ قررت معه السطو على نقود أمي. وقد
برأني لويس إتريكبي بمنطقه القائل إن النقاد التي تُسرق من الآباء، إذا
استُخدمت من أجل السينما وليس للتعهر، فإنها نقود شرعية. عانيتُ
من حرج تواطؤ أمي في سعيها لتلا بعرف أبي أنني أمضي في دروب

خيثة. وقد كانت على حق، إذ كان ملحوظاً، بصورة واضحة في البيت،
أنني أظل نائماً أحياناً، دون مسوغ حتى موعد الغداء، وكان لي صوت
ديك أبع، وأمضي ساهياً إلى حد لم أسمع معه في أحد الأيام، سؤالين
طرحهما أبي عليّ، فوجه إليّ عندئذ، أشدَّ تشخيصاته قسوة:

- أنت مريض في كبدك.

وعلى الرغم من كل ذلك، تمكنتُ من الحفاظ على المظاهر
الاجتماعية، فكنت أبدو حسن الملبس، وأكثر تهذباً في حفلات الرقص
وولاتم الغداء التي تنظمها في المناسبات أسرُ الساحة الكبرى، بمن تظل
بيوتهم مغلقة طوال السنة، ويفتحونها في عطلة عيد الميلاد، عندما
يرجع الطلاب.

كانت تلك السنة هي سنة كابتانو خينتيلي الذي احتفل بإجازته،
بإقامة ثلاث حفلات رقص بديعة. وقد كانت تلك الحفلات بالنسبة لي
تواريخ حظ، لأنني رقصت طوال الوقت، في الحفلات الثلاث، مع الفتاة
نفسها. دعوتها إلى الرقص في الليلة الأولى، دون أن أتكلف مشقة
السؤال عن تكون، أو ابنة من هي، أو من ترافق. بدت لي متحفظة
جداً، فافتحرتُ عليها في الرقصة التالية، بجدية، أن نتزوج، وكان
جوابها أكثر غموضاً:

- أبي يقول إنه لم يولد بعد كما يبدو من سيتزوجني.

بعد أيام رأيتها تجتاز المنهل في الساحة، تحت شمس الثانية عشرة
الحارقة، مرتدية فستاناً برقاً من الأورغزنا، وهي تقود بيديها طفلاً
وظفلة في السادسة والسابعة من عمرهما. "إنهما ابناي"، قالت لي
وهي تبت من الضحك، دون أن أسألها عنهما. وقد قالت ذلك، بمكر
كبير، بدأت أفكر معه في أن اقتراحي بالزواج، لم يذهب أدراج الرياح.

تعلمتُ النوم في أرجوحة النوم، منذ طفولتي المبكرة في بيت أراكاتاكا، ولكنني في سوكري فقط، جعلت منها جزءاً من طبيعتي. ليس هناك ما هو أفضل منها للقبولة، ولعيش ساعة النجوم، وللتفكير بتمهل، وللممارسة الحب دون مزاعم وأوهام. في اليوم الذي عدتُ فيه من أسبوعي الماجن، علقتها بين شجرتين في الفناء، مثلما كان يفعل أبي في أزمنة أخرى، وتمتُ مطمئن الضمير. ولكن أُمي المرعوبة من أننا نحن أبناؤها، سنموت في أثناء نومنا، أيقظتني في نهاية المساء. لترى إذا ما كنتُ ما أزال حياً. وعندئذ اضطجعت إلى جانبي، وتطرفت دون مقدمات، إلى المسألة التي تنغص حياتها.

- أبوك وأنا، نريد أن نعرف ما الذي أصابك.

لا يمكن للجملة أن تكون أكثر دقة. كنتُ أعرف منذ بعض الوقت أن أبوي يتقاسمان القلق من طريقتي في الحياة، وكانت هي ترجل تفسيرات تافهة لطمأنته. لم يكن يحدث شيء في البيت لا تعلم به أُمي، وكانت نوبات غضبها أسطورية، منذ زمن. ولكن الكأس طفحت بعودتي إلى البيت في وضع النهار، طوال أسبوع. وكان موقفي الصحيح هو تفادي أسئلتها أو تركها معلقة إلى فرصة مناسبة، ولكنها كانت تعرف أن مسألة مثل تلك الجديدة، تتطلب إجابات فورية.

كانت كل حججها مشروعة: فأنا أغادر عند الغروب، مرتدياً ملابس من هو ذاهب إلى عرس. ولا أرجع للنوم في البيت، ولكنني أغفو في اليوم التالي، في أرجوحة النوم إلى ما بعد موعد الغداء، لم أعد أقرأ. ولأول مرة منذ ولادتي، صرت أبحراً على العودة إلى البيت، دون أن أعرف أين كنتُ بالضبط. وقالت لي أُمي: "حتى إنك لا تنظر

إلى أخوتك، وتخطئ بأسمائهم وأعمارهم. وقبل أيام قبّلت حفيد كليمينثيا موراليس، معتقداً أنه أحد أخوتك" ولكنها سرعان ما وعت مبالغاتها، فعوضتها بالحقيقة البسيطة:

- وباختصار، لقد صرتُ غريباً في البيت.

قلت لها:

- كل هذا صحيح، ولكن السبب بسيط جداً: لم أعد أطبق هذه

الحال.

- متا؟

وكان يمكن لردي أن يكون بالإيجاب، ولكنه لن يكون عادلاً. فقلت:

- من كل شيء..

وعندئذ، أخبرتها بحقيقة وضعي في المعهد، وبأنهم يحكمون علي، من خلال درجاتي التي أنالها. وأن أبوي يفاخران بنتائجي سنة بعد سنة، وهما لا يظنان أنني التسليد الذي لا تشويه شائبة وحسب، وإنما كذلك الصديق المشالي، والأكثر ذكاءً وسرعة، والأوسع شهرة، بفضل لطفه وكياسته. أو مثلما كان يقول جدي: "الطفل الكامل".

ومع ذلك، من أجل أن أنتهي بسرعة، فإذ الحقيقة هي عكس ذلك. فأنا أبدو كذلك فقط، لأنني لا أمتلك جرأة أخي لويس إنريكي، وحسه بالمسؤولية. لأنه يفعل ما يشاء على هواه. وهو سوف يتوصل دون ريب إلى سعادة غير تلك التي يتناها الآباء لأبنائهم؛ ولكنها التي تتبجح لهم تجاوز حنان الأبوين المفرط، ومخاوفهما غير العقلانية، وآمالهما السعيدة. صُعقت أُمي، للصورة المناقضة لتلك التي صاغها في أحلامهما المتوحدة. وقالت بعد صمت قاتل:

— لا أدري ماذا ستفعل الآن، لأنني إذا ما أخبرتك أبداً بكل هذا، فسوف يموت في الحال. ألا تدرك أنك فخر الأسرة؟

المسألة في نظرهما كانت بسيطة؛ بما أنه ليس هناك أي إمكانية لأن أكون الطيب اللامع الذي لم يستطع أبي أن يصير إليه، بسبب شح الموارد، فإنهما يحلمان على الأقل، بأن أكون خريجاً جامعياً في أي شيء آخر.

فاختتمت:

— لن أكون شيئاً. إنني أرفض أن تجعلوا مني، بالإكراه، ما لا أريد أن أكونه، وأرفض أن أكون مثلما تريدون أن أكون. وأقل من ذلك، مثلما تريد الحكومة.

استمر الجدل، بشيء من الصدامية الطائشة، طوال بقية الأسبوع. وأظن أن أمي كانت تريد كسب الوقت، لكي تتحدث في الأمر مع أبي، وقد منحنتني هذه الفكرة نفساً جديداً. وفي أحد الأيام أطلقت اقتراحاً مفاجئاً:

— يقولون إنه يمكن لك، إذا ما صُمت، أن تصير كاتباً جيداً. لم أكن قد سمعت مثل ذلك الكلام، من قبل، في الأسرة قط. فمبولي منذ الطفولة، كانت تتيح الافتراض بأنني قد أصير رساماً، موسيقياً، معنياً في الكنيسة، أو شاعراً جوالاً في أيام الأحاد. وكنت قد اكتشفت ميلاً معروفاً لدى الجميع، إلى أسلوب في الكتابة، أقرب إلى التلوين والرقعة الأثرية. ولكن رد فعلي في هذه المرة، كان أقرب إلى المفاجأة، فقد أجبت أمي:

— إذا كان علي أن أصير كاتباً، فلا بد لي من أن أكون أحد

الكبار. وهؤلاء لا يصنعونهم. وهناك في نهاية المطاف، منهن أفضل كثيراً إذا ما كنتُ أرغب في الموت جوعاً.

في إحدى تلك الأمسيات، وبدلاً من أن تتبادل الحديث معي، بكت دون دموع. لو أن ذلك حدث اليوم لأنار هلعني، لأنني أقدّر البكاء المكبوح كدواء، ناجع ومؤكد لتجأ إليه النساء القويات، لفرض نوابهن، ولكنني في الثامنة عشرة من عمري، لم أدِر ما أقول لأمي، فأحبط صمتي دموعها. وقالت عندئذ:

— حسن جداً، عاهدني على الأقل أن تنهي الثانوية، على أفضل وجه ممكن، وأنا سأتولى ترتيب ما تبقى مع أبيك.

كلانا أحسنا في الوقت نفسه، براحة الفوز. وافقت على طلبها، من أجلها ومن أجل أبي على السواء، لأنني خفت أن يموتا إذا لم تتوصل بسرعة إلى اتفاق. وهكذا وجدنا الحل السهل بأن أدرس الحقوق والعلوم السياسية، ليس لأن هذه الدراسة تشكل قاعدة ثقافية جيدة، لأي مهنة أخرى وحسب، وإنما كذلك لأنها دراسة إنسانية، تُقدّم دروسها في الفترة الصباحية، فيكون لدي متسع من وقت الفراغ للعمل بعد الظهر. ولقلقي كذلك، من شحنة التأثير التي تحملتها أمي في تلك الأيام، طلبت منها أن تهين الأجزاء، لكي أكلّم أبي وجهاً لوجه. عارضت ذلك، وهي واثقة من أننا سنتتهي إلى النزاع. وقالت لي:

— لا وجود في هذا العالم لرجلين أكثر تشابهاً من تشابهكما، أنت وهو. وهذا أسوأ حال للنقاش.

لقد كنتُ أعتقد على الدوام، عكس ذلك. ولكنني الآن فقط، وبعد أن مررت بكل المراحل العمرية التي سرّ بها أبي في حياته المديدة، بدأت أرى نفسي في المرأة، أكثر شبهاً به من نفسي.

وكان على أمي، أن تتوج تلك الليلة بأسلوبها في تزيين الأمر، لأن أبي جمع الأسرة كلها حول المائدة، وأعلن بصورة غير متوقعة: "سيكون لدينا محام في البيت". ولخشيتها من أن يفتح أبي المجال مجدداً لنشارك فيه الأسرة بكاملها، تدخلت أمي بأفضل ما لديها من براءة لتوضح لي:

- في وضعنا هذا، ومع هذا العدد من الأبناء، فكرنا في أن أفضل حل هو الدراسة الوحيدة التي يمكنك تغطية نفقاتها بنفسك. لم يكن أمر الدراسة بتلك البساطة أيضاً، ولا بأي حال. ولكنه يمكن أن يكون بالنسبة لنا، أهون الشرور، ويمكن لأضرامه أن تكون أقل دمية. وهكذا طلبت من أبي أن يبدي رأيه، لأجاريها في اللعبة، وكان جوابه فوراً وبصراحة مؤثرة:

- ماذا تريدني أن أقول؟ إنك تمزق قلبي إلى نصفين. ولكن يبقى لي على الأقل، الفخر بمساعدتك في أن تكون ما تشاؤه أنت.

ذروة ترف كانون الثاني لسنة ١٩٤٦ ذاك، قمت في رحلتي الأولى بالطائرة، بفضل خوسيه بالينشا الذي جاء، ولديه مشكلة كبيرة. كان قد أنهى، بقفزات متتالية، سنوات الدراسة الثانوية الخمس الأولى في كارتاخينا، ولكنه أخفق في السنة السادسة. تعهدت بأن أجد له مكاناً في معهدنا، لكي يحصل أخيراً على شهادته، فدعاني للذهاب معه بالطائرة.

كانت هناك رحلتان أسبوعياً، إلى بوغوتا في طائرة من طراز DC-3 تابعة لشركة LANSO. ولم تكن مجازفة الرحلة الكبرى هي الطائرة نفسها، وإنما الأبقار الطليقة على المدرج الطيني المرتجّل في المراعي.

فكان على الطائرة في بعض الأحيان أن تقوم بعدة جولات حتى تتمكن من إخافة الأبقار وإبعادها. ويعود إلى تلك الفترة، تديشني خوفي الخرافي من الطائرة، وهي الفترة نفسها التي كانت الكنيسة تحظر فيها نقل خبز القربان المقدس بالطائرة لتجنبه الكوارث. كانت الرحلة تستمر حوالي أربع ساعات دون توقف، بسرعة ثلاثمئة وعشرين كيلومتراً في الساعة. وكنا نحن الذين قمنا من قبل بالرحلة النهرية العجيبة، نتشبع الطريق من الجو، على الخريطة الحية، لنهر مجدلينا الكبير، نتعرف على القرى كأنها ماكينات مصغرة، وعلى السفن كأنها ألعاب تتحرك بناييض، وعلى الدمى السعيدة التي تلوح لنا مودعة من باحات المدارس. وكانت المضيفات اللواتي من لحم وعظم، يقضين الوقت في طمأننة الركاب الذين يسافرون وهم يملّون، وفي إسعاف من يخشى عليهم، وفي إقناع كتشبرين بأنه لا وجود لخطر الاصطدام بأسراب نسور الرخمة التي تنرصده الجيف التي يحملها النهر. وكان المسافرون الخجبيرون من جانبيهم، يروون أخبار رحلاتهم التاريخية الطائرة، مرة بعد أخرى، كمآثر في الشجاعة. وقد شعرنا بالارتفاع للتحليق فوق نجد بوغوتا، دون تكييف للضغط الجوي، ودون أفتحة أوكسجين، كأنه قرع طبول في قلوبنا، فكانت الاهتزازات وخفق الأجنحة يزيدان من سعادة الهبوط. ولكن المفاجأة الكبرى هي أننا وصلنا قبل برقياتنا التي أرسلناها في اليوم السابق.

أثناء مرورنا العابر في بوغوتا، اشتري خوسيه بالينشا آلات موسيقية لفرقة أوركسترا كاملة. ولست أدري إذا ما فعل ذلك، بناء على تفكير مسبق، أم حدس مسبق، ولكن منذ أن رأه المدير إسبينيّا

بدخل، وهو يبطأ الأرض بشبات، ومعه تلك الجيتارات والطبول والمراكات والهورمنتكات، أدركت أنه قد قبل في المعهد. كما أحسست أنا أيضاً من جهتي بوزن وأهمية وضعي الجديد، منذ أن اجترزت المدخل: فقد صرت تلميذاً في السنة السادسة. لم أكن أعني، حتى ذلك الحين أنني أحمل في جهتي نجمة يحلم بها الجميع، وكان ذلك يبدو جلياً من الطريقة التي يتفربون بها منا، واللجة التي يتكلمون بها إلنا، بشي، من الخوف التوقيري. وقد كانت تلك السنة كذلك، هي سنة عيب بكاملها. فعلى الرغم من أن قاعة النوم مخصصة لذوي المنح الدراسية وخدمهم، إلا أن خوسيه بالينشيا استقر في أفضل فندق في محيط ساحة المدينة، وكانت إحدى صاحبات الفندق تعزف البيانو، فتحولت حياتنا إلى يوم أحد متواصل طوال السنة.

كانت تلك قفزة أخرى في حياتي. لقد كانت أمني تشتري لي ملابس مستعملة، في مراهقتي، وعندما لا تعود تنفع لمقاسي، تكيفها لأخوتي الصغار. وكانت أكثر السنوات إشكالية هما السنتان الأوليان في المعهد، لأن ثياب الصوف المناسبة للمناخ البارد، كانت غالية وصعبة. وبالرغم من أن جسدي لم يعد ينمو باندفاع كبير، إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت، لتكيف الألبسة نفسها لمقاسين مختلفين، في الوقت نفسه. وما زاد الطين بلة، أن عادة تبادل الملابس، بين الطلبة الداخليين، لم تصل إلى حد فرض نفسها، لأن الاستعارات كانت تبدو واضحة، بحيث تعرض لابسها الجدد إلى سخريات لا تطاق. وقد حلت هذه المسألة جزئياً، عندما فرض المدير إسببياً زياً موحداً من سترة زرقاء وبنطال رمادي، فوحد المظهر وأخفى الملابس المستعملة.

في السنتين الثالثة والرابعة، استخدمت البدلة الوحيدة التي أصلحها لي خياط سوكري. ولكنني اضطررت إلى شراء بدلة أخرى في حالة جيدة للسنة الخامسة. غير أنها لم تنفعني حتى السنة السادسة. ومع ذلك، فقد تحمس أبي جداً لنواياي في إصلاح نفسي، فأعطاني نقوداً لشراء بدلة جديدة على مقاسي، كما أهدى إليّ خوسيه بالينشيا، بدلة أخرى من بدلاته في السنة السابقة، وهي من صوف الجمال، وغير مستعملة تقريباً. ولكنني سرعان ما تأكدت من أن المسوح وحدها لا تصنع الراهب. فقد حضرت، بالبدلة الجديدة، حفلات الرقص التي كان يسيطر عليها الساحليون، ولم أتوصل إلى التعرف إلا على خطيبة واحدة لم تدم علاقتي بها سوى أقل من عمر زهرة.

استقبلني إسببياً بحماس غريب، فكان يبدو كأنه يملني حصتي الكيمياء الأسبوعيتين عليّ أنا مجدداً، مع دفع من الأسئلة والإجابات. وقد تكشف لي ذلك الاهتمام، كنقطة انطلاق جيدة، لإنجاز ما وعدت به أبوي من نهاية جديرة. وما سوى ذلك، تكفل به منهج مارتينا فونسيكا الوحيد والبسيط: تركيز الانتباه، في الدروس من أجل تجنب السهر والفرغ في لحظات الرعب الأخيرة. لقد كانت من التعليمات الحكيمة. وقد هدأت مخاوفني، منذ قررت تطبيقها في السنة الأخيرة في المعهد. فكتبتُ أجيب بسهولة على أسئلة الأساتذة الذين صاروا أكثر تالفاً معنا، وأدركت كم هو سهل إنجاز العهد الذي قطعته لأبوي.

أما مشكلتي الوحيدة المثيرة للقلق، فبقيت هي مسألة ولولات الكوابيس. وكان الأستاذ المشرف على الانضباط آنذاك، والمرتبط بعلاقات طيبة مع تلاميذه، هو الأستاذ غونشالو أوكامبو. وقد دخل في

إحدى لبالى الفصل الثاني من السنة، على رؤوس أصابعه، إلى قاعة النوم المظلمة، ليطلب منى مفاتيح له، نسبتُ إعادتها إليه. وما كاد يضع يده على كتفى، حتى أطلقت زعيقاً متوحشاً أبقت الجميع. وفي اليوم التالي، نقلوني إلى غرفة نوم أخرى مرتجلة تتسع لسته أشخاص، في الطابق الثاني.

كان ذلك حلاً لمخاوفي الليلية، ولكنه حلٌ مغرٍ جداً، لأن الغرفة كانت فوق مستودع المؤونة. وقد تسلل أربعة من طلاب حجرة النوم المرتجلة تلك، إلى المطبخ وسطّوا عليه، مثلما يشتهون، من أجل عشاء في منتصف الليل. وقد بقيت أنا، أقلهم جرأة، وسيرخيو كاسترو غير المريب، في سريرنا لنقوم بالتفاوض في حالة الطوارئ. وبعد مرور ساعة من الوقت، رجعوا، ومعهم نصف التسمون جاهزاً للأكل. وكانت تلك هي أضخم وجبة في سنوات إقامتنا الداخلية الطويلة، غير أنهم، لسوء الهضم، اكتشفوا فعلتنا خلال أربع وعشرين ساعة. وفكرتُ في أن تلك الواقعة ستضع حداً لكل شيء، إلا أن موهبة المدير إسيبتياً في التفاوض، أنقذتنا من الطرد.

لقد كانت مرحلة جيدة في المعهد، وواعدة على الأقل، في البلاد. فقد أدت حياوية الرئيس المؤقت بيراس، دون أن يخطط لذلك، إلى زيادة التوتر الذي بدأنا نشعر به، لأول مرة في المدرسة. ومع ذلك، فبانتني أدرك اليوم، أنه كان موجوداً قبل ذلك، في داخلي. ولكنني في ذلك الحين فقط، بدأت أعي نوعية البلاد التي أعيش فيها. فبعض الأساتذة الذين كانوا يحاولون البقاء على الحياد، منذ السنة السابقة، لم يستطيعوا التوصل إلى ذلك في الدروس، وراحوا يطلقون زخات عسيرة

الهضم، حول أفضلياتهم السياسية. ولا سيما بعد بدء الحملة الدعائية القاسية، للرئاسة التالية.

وفي كل يوم كان يظهر بجلاء أكبر، أن الحزب الليبرالي، بمرشحيه: غايتان وطوبيه، في الوقت نفسه، سيخسر رئاسة الجمهورية، بعد خمس وعشرين سنة من حكمه المطلق. كانا مرشحين شديدي التباين، كما لو أنهما من حزبين مختلفين، ليس في خطاياهما الشخصية وحسب، وإنما كذلك بسبب تصميم المحافظين الديموي، الذين رأوا الأمر واضحاً، منذ اليوم الأول: فبدلاً من مرشحهم لاوريانو غوميث، فرضوا ترشيح أوسبينا بيريث. وكان مليونيراً اكتسب شهرة واسعة بكونه بطريكاً. وبوجود التيار الليبرالي منقسماً، والتيار المحافظ متحداً ومسلحاً، لم يكن هناك خيار آخر: جرى انتخاب أوسبينا بيريث.

استعد لاوريانو غوميث، منذ ذلك الحين، ليخلفه، باللجوء إلى استخدام القوات الرسمية في أعمال عنف شاملة. فكانت استعادة جديدة للواقع التاريخي، في القرن التاسع عشر، حيث لم تعرف السلام، وإنما فترات هدنة عابرة بين ثماني حروب أهلية عامة، وأربع عشرة محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، انتهت أخيراً بحرب الألف يوم التي خلقت حوالي ثمانين ألف قتيل في الجانبين، من عدد سكان يقل عن أربعة ملايين. هكذا كان الوضع ببساطة: برنامج مشترك ومتكامل للتقهقر مئة سنة إلى الوراء.

في نهاية العام الدراسي، قام الأستاذ خيرالدو باستثناء مشهود تجاهي، لم أستطع التخلص من عاره حتى الآن. فقد أعد لي قائمة أسئلة ببسبطة لكي أنجح في مادة الجبر التي تجاهلتها طوال أربع سنوات،

وتركتني وحدي في مكتب الأساتذة، ووسائل الغش كلها في متناول يدي. رجع وأهأ بعد ساعة من ذلك، ورأى النتيجة الكارثية، فألقى كل صفحة بخطين متقاطعين، من أعلاها إلى أسفلها، وأطلق زمجرة شرسة: "يا لهذا الرأس المتعفن". ومع ذلك، فقد ظهرت ناجحاً بمادة الجبر في التقويم النهائي، ولكنني وجدت ما يكفي من الوقار، لعدم شكر الأستاذ على مخالفته مبادئه وواجهته لمصلحتي.

عشية الامتحان النهائي لتلك السنة، وقعت حادثة مؤسفة بيئي أنا وغيري مو لوبيث غيراً من جهة، والأستاذ غونشالو أوكامبو من جهة أخرى، بسبب مشادة سكارى. كان صديقنا خوسيه بالينثيا قد دعانا للدراسة معه في غرفته في الفندق، وهو درة معمارية على الطراز الكولونيالي، مع إطلالة حاملة على الحديقة المزهرة، والكاتدرائية كخلفية. وبما أنه لم يكن قد تبقّى سوى الامتحان الأخير، فقد بقينا هناك حتى الليل، ورجعنا إلى المدرسة، مارين في طريقنا على حانات الفقراء التي اعتدنا ارتيادها. كان الأستاذ أوكامبو هو أستاذ الانضباط المناوب، فوبخنا لعودتنا في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولحالتنا المتردية، فواجهناه كلانا بالسباب. فأيقظ رد فعله الغاضب، وأصواتنا الصارخة جميع من في قاعة النوم.

كان قرار جمعية الأساتذة هو منعي أنا ولوبيث غيراً من التقدم إلى الامتحان النهائي الوحيد المتبقي. وهذا يعني أنه لا يمكن لنا، في تلك السنة على الأقل، إنهاء الدراسة الثانوية. لم ندر قط. كيف جرت المفاوضات السرية بين الأساتذة، لأنهم التفتوا في تضامن لا يمكن اقتنحاه. فكان على المدير إسببتيّاً أن يتولى حل المشكلة على

مسؤوليته. وتوصل إلى إمكانية أن نتقدم إلى الامتحان في وزارة التربية، في بوغوتا. وكان هذا ما جرى. وقد رافقنا إسببتيّاً نفسه إلى العاصمة، وبقي معنا بينما نحن نحجيب عن أسئلة الامتحان التحريري الذي جرى تصحيحه هناك بالذات. وكانت النتيجة جيدة.

لا بد أن الوضع الداخلي كان معقداً جداً، لأن أوكامبو لم يحضر الحفل الرسمي، ربما بسبب الخلل السهل الذي لجأ إليه إسببتيّاً، وتقديرنا الممتاز. وأخيراً أهلتني نتائج الشخصية لتيل جائزة خاصة، هي كتاب لا ينسى: "حيوات الفلاسفة اللامعين"، من تأليف ديوجينس لايرثيو. لم تكن النتيجة أكثر مما كان أبواي ينتظرانه وحسب، وإنما كنت الأول في تقويم تلك السنة، على الرغم من أن زملائي في الصف - وأنا أكثر من الجميع - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

لم أتصور قط أن قصتي القصيرة الأولى ستُنشر، بعد تسعة شهور على تخرجي من الثانوية، في الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" الذي تصدره جريدة الاسبكتادور في بوغوتا، وهي أكثر صحف تلك المرحلة أهمية وصرامة. وبعد اثنين وأربعين يوماً من ذلك، نُشرت القصة القصيرة الثانية. ومع ذلك، فإن أكثر ما فاجأني هو الملاحظة التكريسية التي كتبها نائب مدير الجريدة، ومدير الملحق الأدبي، إدواردو ثالاميا بوردا، الملقب أوليسيس، وكان ألمع ناقد أدبي آنذاك، والأكثر تيقظاً لظهور قيم أدبية جديدة.

لم يكن أمراً متوقفاً، وليس من السهل روايته. كنتُ قد سُجلت، في مطلع تلك السنة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوغوتا، مثلما جرى الاتفاق مع أبوي. وكنتُ أعيش في مركز المدينة تماماً، في نزل في شارع فلوريدا، معظم نزلاته طلاب من منطقة ساحل الأطلسي. وكنتُ في فترات ما بعد الظهر، بدلاً من أن أعمل لأعيش، أظل أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت قراءاتي في كتب يوفرها الحظ والمصادفات، تعتمد على حظي أكثر من اعتمادها على مصادفاتي، ذلك أن الأصدقاء القادرين على شرائها يعيرونني إياها

لفترة محدودة، فأفضى الليالي ساهراً كي أتفكر من إعادتها إليهم في الموعد المحدد. ولكن، على العكس من الكتب التي قرأتها في معهد ثيباكيرا، والجديرة بأن تكون في ضريح للكتاب المكرسين، صرنا نقرأ الآن كتباً حديثة، كأنها خبز طازج، مترجمة لتوها ومطبوعة في مدينة بوينس آيرس التي عرفت حياة نشر طويلة. خلال الحرب الأوربية الثانية. وهكذا حالفتي الحظ في اكتشاف من هم مكتشفون جيداً منذ زمن، مثل خورخي لويس بورخيس، ودي. أنش. لورانس، وألدوس هكسلي، غراهام غرين، تسيسترتون، وويليام إيريش، وكاترين مانسفيلد وغيرهم. كانت هذه المستجدات معروضة في واجهات المكتبات البعيدة عن متناول يدي. غير أنه كان يجري تداول عدد من النسخ في مقاهي الطلبة، وهي آنذاك مراكز فعالة للانتشار الثقافي بين الجامعيين الريفيين. وقد كانت لكثيرين منهم أماكنهم المحجوزة، سنة بعد أخرى، في تلك المقاهي. فيها يتلقون رسائلهم، وحتى حوالاتهم البريدية. وقد كان فضل أصحاب بعض تلك المقاهي، أو العاملين الموثقين فيها، حاسماً في إنقاذ الكثير من الدراسات الجامعية. فالكثير من خريجي البلاد يدينون لهم أكثر مما يدينون إلى متكفليهم غير المرئيين.

أنا فضلتُ "الطاحونة"، مقهى الشعراء الكبار، وهو على بُعد حوالي مئتي متر عن النزول الذي أقيم فيه، وعلى ناصية تقاطع جادة خيمينث دي كيسادا مع الشارع السابع. لم يكونوا يسمعون هناك أن يحتل الطلاب مائدة ثابتة، ولكن أهدنا يكون واثقاً هناك من أنه سيتعلم من المحادثات الأدبية التي كنا نسمعها، ونحن لا بدون على الطاولات المجاورة، أكثر وأفضل مما يتعلمه من الكتب المقررة. كان المقهى بيتاً

فضيحاً وجيد البناء على النمط الإسباني. جدرانها زينها الرسام سانتياغو مارتينيث ديلغادو. بمشاهدة تمثل معارك دون كيشوته ضد طواحين الهواء. ومع أنه لم يكن لي مكان محجوز، فقد كنت أتدبر الأمر دوماً، لكي يجلسني النذل أقرب ما يكون من المعلم الكبير لبون دي غريف - ملتجئ، مهمهم، فاتن -، الذي كان يبدأ مسامراته الأدبية عند الغروب، مع بعض أشهر كتّاب ذلك الحين، وينتهي عند منتصف الليل، مختقاً بخمرة رديئة مع تلاميذه في لعب الشطرنج. كانت قليلة أسماء كبار عالم الفنون والآداب الذين لا يميرون بتلك المنضدة. وكنا نحن نصنع الموت على منضدتنا كيلا تضع كلمة واحدة مما يقوله. ومع أنهم كانوا يتحدثون دوماً عن النساء أو المكاييد السياسية، أكثر مما يتحدثون عن فنونهم ومهنتهم. إلا أنهم يقولون على الدوام، شيئاً جديداً نتعلمه، وكنا نحن، أبناء ساحل الأطلسي، أكثر الطلاب مواظبة، ليس لانحدانا بالتأمر الكاربي ضد الكاتشاكو، بقدر ما هو بسبب إيمان الكتب، فحوسيه ألفارو إسبينوسا، وهو طالب حقوق، علمني الإبحار في الكتاب المقدس، وجعلني أحفظ عن ظهر قلب، الأسماء الكاملة لأعضاء منتدى يوب، جاء في أحد الأيام، ووضع على المنضدة أمامي سقراً ضخماً صريعاً، وأصدر حكمه بسلطة مطران:

- هذا هو التوراة الجديد.

وقد كان ذلك الكتاب، وكيف لا، هو "أوليسيس" لجيمس جويس، فقرأته في نطف منقطعة وتعثرت، إلى أن لم يعد الصبر يسمح لي بالمزيد. لقد كان رعباً ميكراً. بعد سنوات من ذلك، حين صرت ناضجاً منقاداً، عكفت على قراءته بجد. ولم تكن تلك القراءة مجرد اكتشاف لعالم

خاص لم يخطر لي يوماً وجوده في داخلي، وإنما كان كذلك، مساعدة تقنية لا تقدر بـشمن، في حرية اللغة؛ والأفضل في لعبة الزمن والبناء لكتبي.

كان أحد زملائي في الحجرة هو دومنغو مانويل بيغا، طالب طب ترينيني به صداقة منذ وجودنا في سوكرى، ويشاطرني نهم القراءة. وزميل آخر هو ابن خالي نيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للمخال خوان دي ديوس، الذي كان يحافظ على روابط الأسرة حيّة لدي. وقد رجع بيغا في إحدى الليالي، ومعه ثلاثة كتب اشتراها لثو، فأعارني واحداً لا على التعيين منها، مثلما كان يفعل بكثرة، لمساعدتي على النوم. ولكنه توصل، في تلك الليلة، إلى عكس ما يريد تماماً؛ إذ لم أعد قط، إلى النوم بالوداعة السابقة. كان الكتاب هو "المسخ" لفرانز كافكا، في ترجمة بورخيس المزيغة التي نشرتها دار النشر لوسادا في بوينس آيرس. وقد حدد ذلك الكتاب مساراً جديداً لحياتي منذ السطر الأول، وهو اليوم أحد رايات الأدب العالمي: "حين استيقظ غريغوريو سامسا، في صباح أحد الأيام، بعد حلم مضطرب، وجد نفسه في السرير، وقد تحول إلى حشرة هائلة". كانت كتباً غامضة، فتعرجات دروبها لم تكن مختلفة وحسب، وإنما في أحيان كثيرة، متناقضة لكل ما كنت أعرفه حتى ذلك الحين. فإثبات الأحداث ليس ضرورياً فيها؛ يكفي أن الكاتب قد كتبها لكي تبدو حقيقية، دون أي دليل آخر سوى قدرة موهبته وسلطة صوته. إنها شهرزاد من جديد، ولكن ليس في عالمها القديم، حيث كل شيء كان ممكناً، وإنما في عالم آخر لا خلاص له، ضاع فيه كل شيء.

حين انتهيت من قراءة "المسخ"، بقيت لدي لهفة لا تقاوم إلى العيش في ذلك الفردوس الغريب. وفي اليوم التالي، فاجأني دومنغو مانويل بيغا نفسه بالآلة الكاتبة النقال التي أعارني إياها، لكي أحاول شيئاً يشبه موظف كافكا المسكين المتحول إلى صرصار ضخّم. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة، خوفاً من كسر ذلك السحر، وواصلت تعرق قطرات من الحسد إلى أن نشر إدواردو ثالاميا بوردا، على صفحات ملحقه الأدبي، ملاحظة متفجعة، يتحسر فيها من أن جيل الكتاب الكولومبيين الجدد يفتقر إلى أسماء يمكن تذكرها، وأنه ليس هناك ما يلمح في المستقبل، ويمكنه التعويض وتعديل تلك الحال. لا أدري بأي حق أحسست أنني المعني، باسم أبناء جيلي، بما تتضمنه الملاحظة من تحدٍ، فعدت إلى تناول القصة المهجورة، في محاولة لإصلاح الحيف. صفتُ الفكرة المحورية للجنّة الواعية في "المسخ"، إنما متخلصة من أسرارها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسبقة.

كنت أشعر بانعدام الثقة، إلى حدّ لم أتحجراً معه على التشاور في الأمر مع أي واحد من زملاء متضدتي في المهقهي. ولا حتى مع غونثالو مايارينو، زميلي في كلية الحقوق، الذي كان القارئ الوحيد لما أكتبه من نشر غنثاني يعيّنني على تحمل ضجر الدروس. أعدت قراءة القصة وتصحيحها حتى الإتهام، ثم كتبتُ أخيراً، ملاحظة شخصية موجهة إلى إدواردو ثالاميا - ولم أكن قد رأيت قط - ولست أذكر من الملاحظة نفسها الآن، حرفاً واحداً. ووضعت كل شيء في مغلف أخذته بنفسه، إلى حجرة الاستقبال، في جريدة الاسبينكتادور. سمح لي البواب بالصعود إلى الطابق الثاني، لتسليم الرسالة إلى ثالاميا نفسه، بجسده

وروحه. ولكن الفكرة بعد ذاتها، أصابني بالشلل. فتركت المغلف على منضدة البواب، ومضيت هارباً.

حدث ذلك في يوم الثلاثاء. ولم أكن أشعر بأذني قدر من القلق على مصير قصتي القصيرة. ولكنني كنت واثقاً من أنه في حال نشرها، لن يكون ذلك في وقت قريب جداً. وفي أثناء ذلك، تسكعت متنقلاً من مقهى إلى آخر، طوال أسبوعين، لأشغل نفسي عن لهفة أيام السبت مساءً، حتى يوم الثالث عشر من أيلول، حين دخلت إلى مقهى الطاحونة، واصطدمت، مواجهته، بعنوان قصتي على كامل عرض الاسبكتادور التي صدرت لتوها: "الاستسلام الثالث".

كان ردّ فعلي الأول هو اليقين الساحق بعدم امتلاكي خمسة سنتات لشراء الصحيفة. وقد كان ذلك هو الرمز الأكثر جلاءً للفقر، لأن أشياء كثيرة أساسية من متطلبات الحياة اليومية، فضلاً عن الصحيفة، كانت تكلف خمسة سنتات: الترام، والهاتف العمومي، وفتجان القهوة، ومسح الحذاء. انطلقت إلى الشارع، دون حماية من رذاذ المطر المتواصل. ولكنني لم أجد في المقاهي المجاورة أحداً من معارفي، يمكنه أن يمنحني قطعة نقد كصدقة. كما أنني لم أجد أحداً في النزول، في تلك الساعة المبكرة من يوم السبت، اللهم إلا صاحبة النزول. وهذا كأن نقول لا أحد، لأنني كنتُ مديناً لها بخمسة سنتات مكرورة ستمئة وعشرين مرة، مقابل أجره السرير والخدمة لشهرين. عندما رجعتُ إلى الشارع، مستعداً للإقدام على أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية، بترجل من سيارة تكسي، وفي يده جريدة الاسبكتادور، فطلبت منه، مواجهة، أن يهديها إليّ.

هكذا استطعت قراءة قصتي الأولى مطبوعة، مع رسم توضيحي لهيرمان ميرينو، رسام الجريدة الرسمي. قرأت القصة مختبئاً في حجرتي، بقلب جامع، وفي نفس واحد متواصل. لقد كنتُ أكتشف، في كل سطر، القدرة الساحقة للكلمة المطبوعة. فما ينشئه بكثير من الحب والألم، كحماكاة خاضعة لعبقري عالمي، تكشف لي عندئذ على أنه مونولوج متشابهك وهش، يستند بمشقة على ثلاث أو أربع جمل تنح العزاء. كان لا بد من مرور عشرين سنة، قبل أن أنجزاً على قراءتها مرة ثانية. وكان حكيمي آنذاك - دون أن تخفف منه الشفقة كثيراً - أقل رضى بكثير.

أصعب ما في الأمر، كان تدفق الأصدقاء الذين داهموا الغرفة، حاملين نسخاً من الجريدة، وإطراء مبالغاً فيه للقصة التي لم يفهموها بكل تأكيد. وكان هناك، بين أصدقائي في الجامعة، من ثمنوا القصة، وآخرون فهموها بقدر أقل، وغيرهم - وهم محقون - لم يتجاوزوا السطر الرابع: أما غوثشالو ميساريتو الذي لم يكن من السهل وضع أحكامه الأدبية موضع الشك، فقد أتى عليها، دون تحفظ.

كانت لهفتي الكبرى في معرفة رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، لأن مبضعه النقدي هو الأشد رهبة، حتى في ما هو أبعد من محيطنا. كنت أشعر بمزاج متناقض: فأنا أريد رؤيته فوراً، ولكنني كنت خائفاً، في الوقت نفسه، من فكرة مواجهته. اختفى حتى يوم الثلاثاء. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، على قارئ نهم مثله. وعندما عاد للظهور في مقهى الطاحونة، لم يبدأ الحديث معي عن القصة، وإنما عن جرأتي.

- أظن أنك مدرك للوضع الذي أدخلت نفسك فيه - قال لي ذلك

وهو يصوب عينيه المحضرواين، كعيني الكوبرا الملكية، إلى عيني،
وأضاف: - أنت الآن في واجهة الكتاب المعترف بهم. وعليك بذل جهد
كبير لتكون جديراً بذلك.

بقيت متحجراً حيال الرأي الوحيد الذي يمكن له أن يهمني بقدر ما
يهمني رأي أوليسيس. ولكن قبل أن ينهي كلامه، صممت أن أسبقه بما
كنت، وما زلت أعتبره الحقيقة:

- هذه القصة ليست سوى براز.

فرد علي يهدوء، دون أن يظراً عليه أي تبدل، بأنه لا يستطيع أن
يقول شيئاً حتى الآن، لأنه لم يكد يجد الوقت إلا لقراءة مستعجلة.
ولكنه أوضح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً مثلما أقول، فإنها
ليست سيئة إلى الحد الذي أضحي فيه بالفرضة الذهبية التي وفرتها لي
الحياة. وانتهى إلى القول:

- هذا أمر آخر، لأن هذه القصة صارت من الماضي، والمهم الآن هو

القصة القادمة.

أصابني الارتباك، وارتكبت حماقة البحث عن حجج مضادة، إلى
أن اقتنعت بأنني لن أسمع نصيحة أذكى من نصيحته. وقد توسع في
فكرته الثابتة بأنه لا بد، أولاً، من وضع تصور للقصة. وبعد ذلك يأتي
الأسلوب. بيد أن استناد كل منهما إلى الآخر، في عبودية متبادلة، هو
عصا الكلاسيكيين السحرية. وقد استوقفتني قليلاً برأيه الذي طالما
ردده، بأنني بحاجة إلى قراءة معمقة وشاملة للكتاب الإغريق، لا تقتصر
على هوميروس وحده، وهو الوحيد الذي قرأته مضطراً، ضمن منهاج
الثانوية. وعدته بذلك، ورجبت في سماع أسماء أخرى. ولكنه غير

الموضوع للحديث عن "مزيفو النقود" لأندريه جيد؛ وكان قد قرأها في
نهاية ذلك الأسبوع. لم أجد، قط، الحماس لأن أقول له إن محادثتنا
تلك، ربما هي التي حسمت مسار حياتي. أمضيت تلك الليلة ساهراً،
أدون ملاحظات من أجل قصتي التالية، دون تلويات تنسيق القصة
الأولى وزخرفها.

كانت تراودني الشكوك في أن من حدثوني عن القصة، لم يكونوا
مجهولين بها - وربما لم يقرؤوها، وهم لم يفهموها بكل تأكيد - وإنما
فعلوا ذلك لأنها نُشرت باهتمام غير مألوف في صفحة بتلك الأهمية.
ومن أجل أن أبدأ، لاحظتُ أن نفيصتي الكبيرين هما الأخطر؛ رعونة
الكتابة وجهل القلب البشري. وقد بدا ذلك جلياً في قصتي الأولى التي
كانت تاملأً مجريدياً مشوشاً، زاد من سونها التعسف المفرط في استغلال
المشاعر المختلقة.

وبينما أنا أبحث في ذاكرتي عن مواقف من الحياة الواقعية، من
أجل القصة الثانية، تذكرت أن إحدى أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن
في طفولتي، قالت لي إنها ترغب في أن تكون داخل قط ذي جمال
غريب، كانت تداعبه في حضنها. فسألتهما لماذا، وردت علي: "لأنه
أجمل مني". عندئذ وجدت نقطة إسناد للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً:
"حواء داخل قطها". وما تبقى، كما في القصة الأولى، اختلقت من
العدم، وللسبب نفسه - مثلما كان يروق لنا أن نقول آنذاك - كانت
القصتان كلتاها محمل في أحشائها بذرة دمارها.

نُشرت هذه القصة بالإبراز نفسه الذي نُشرت به القصة الأولى، في
يوم السبت، الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٧، يزينها رسم

متواصل، عموداً يرد فيه على أسئلة القراء، على بعد خمسة أمتار من منضدة إدواردو ثالاميا. ولحسن الحظ أن هذا الأخير لم يبحث عني، ولم أبحث أنا عنه أيضاً. رأيت مرة على مائدة الشاعر دي غريف، وعرفتُ صوته وسعاله الجاف كمدخن مدمن، ثم رأيتُه عن قرب في عدة أنشطة ثقافية، غير أن أحداً لم يحاول أن يُعرّف أحدنا على الآخر. لأن البعض ما كانوا يعرفوننا، بينما يظن آخرون بأنه من غير الممكن ألا يكون كل منا على معرفة بالآخر.

من الصعب تصور إلى أي حد كانت الحياة تعاش، آنذاك، في ظل الشعر. لقد كان الشعر شغفاً جنونياً، طريقة أخرى في الحياة، كرة من لهب تتدحرج تلقائياً في كل الاتجاهات، نفتح الجريدة، حتى في الصفحة الاقتصادية والصفحة القضائية، أو نقرأ بقايا القهوة في قعر الفنجان، فنجد أن ما ينتظرنا هو الشعر، ليستولى مسؤولية أحلامنا. وهكذا، كانت بوغوتا، في نظرنا نحن جميع الريفيين، هي عاصمة البلاد ومقر الحكومة. ولكنها قبل كل شيء، المدينة التي يعيش فيها الشعراء. ولم تكن نؤمن بالشعر، ونوت من أجله وحسب، وإنما كنا نعلم علم اليقين - مثلما كتب ذلك لويس كاردهو إي أراغون - أن "الشعر هو الدليل الملموس الوحيد على وجود الإنسان".

لقد كان العالم للشعراء. وكان جديدهم، في نظر أبنائنا جيلي، أهم من الأخبار السياسية المخيبة للأمال، أكثر فأكثر. كان بضيء سماء الشعر الكولومبي، في القرن التاسع عشر، نجم وحيد هو خوسيه أسونشيون سيلفا، الرومانسي الأعلى الذي أطلق، وهو في الحادية والثلاثين، رصاصة مدس على منتصف الدائرة التي رسمها له الطبيب

بريشة نجم صاعد في سماء الكاريبي: الرسام إنريكي غراو. ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة كأمر روتيني من كاتب مكربس. أما أنا بالمقابل، فتألمت للأخطأ، وتشككت بما هو صواب. ولكنني توصلت إلى إبقاء روعي معلقة في الهواء. وجاءت الضربة الكبرى بعد عدة أيام من ذلك، في ملاحظة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار المعهود "أوليسيس"، وفي عموده اليومي في صحيفة الإسيبيكتادور. وقد توجه مباشرة إلى ما يريد قوله: "لا بد أن قراء (نهاية الأسبوع)، ملحق هذه الصحيفة الأدبي، قد لاحظوا ظهور موهبة جديدة، أصيلة، وذات شخصية قوية". ويواصل بعد ذلك: "ضمن التخيل القصصي، يمكن حدوث كل شيء، إنما معرفة كيفية إظهار اللؤلؤة التي يمكن استخراجها منه، بصورة طبيعية، ببساطة، ودون أي تصنع. وهذا أمر لا يمكن أن يتوصل إليه كل الشبان الذين هم في العشرين من عمرهم، وبدوا، للتو، علاقاتهم بالأدب". وينتهي إلى القول دون تحفظ: "مع غارسيا ماركيز يولد كاتب جديد وبارز".

لقد سببت لي الملاحظة - وكيف لا! - صدمة سعادة، ولكنني ذهلت في الوقت نفسه، لأن ثالاميا لم يترك نفسه سبيلاً للتراجع، فكل شيء صار ناجزاً؛ ولا بد لي من أن أفسر أرحمته تلك، على أنها دعوة لضميري، على مدى الحياة. وقد كشفت لي الملاحظة كذلك، أن أوليسيس قد اكتشف هويته الحقيقية، من خلال أحد زملائه في التحرير. وفي تلك الليلة، علمت أن من فعل ذلك هو غونشالو غونثالث، ابن عم قريب لأبناء عمي الأقراب؛ وهو من كتب، طوال خمس عشرة سنة، في الصحيفة نفسها، بالاسم المستعار "غوغ"، وبشغف

باليهود، في موضع القلب. ولم أولد في الوقت المناسب لأتعرّف على رافائيل موميو أو على إدواردو كاستيو - الغنائي الكبير -، الذي يصفه أصدقاؤه بأنه شبح هارب من القبر عند الغروب، بعبارة من طبقتين، وبشرة مائلة إلى الخضرة بفعل المورفين، وبيروفيل نسر رجمة: التمثيل الجسدي للشعراء الملعونين. لقد مررت في عصر أحد الأيام، قبالة منزل ضخم في الشارع السابع، ورأيت عند البوابة أشد الرجال الذين رأيتهم في حياتي مهابة، ببذلة لا تشوبها شائبة، وقبعة إنكليزية، ونظارة سوداء لعينيه اللتين بلا نور، وعباءة أهالي السهوب. كان ذلك، الشاعر ألبيرتو آنخل مونتويا، وهو رومانسي على شيء من الأبهة، نشر بعض القصائد المهمة في زمنه. وقد كان أولئك الشعراء جميعهم، بالنسبة إلى جيلي، أشباحاً من الماضي الغابر، باستثناء المعلم ليون دي غريف الذي رصده وراقبته طوال سنوات، في مقهى الطاحونة.

ولكن أياً منهم لم يستطع بلوغ المجد الذي بلغه غييرمو بالينثيا، وهو أرستقراطي من بويايان، فرض نفسه قبل بلوغه الثلاثين، حبراً أعظم لشعراء جيل المثوبة الذين عرفوا بهذا الاسم، لأن تجميعهم في عام ١٩١٠، توافق مع مرور القرن الأول على الاستقلال الوطني. ولم يحصل معاصراه إدواردو كاستيو وبورفيريو باربا خاكوب، الشعاران الكبيران ضمن السلالة الرومانسية، على الإنصاف النقدي الذي يستحقانه بجدارة، في بلاد مبهورة بالخطابية الرخامية لشعر بالينثيا الذي سدّ، بظله الأسطوري، الطريق في وجه ثلاثة أجيال من الشعراء. الجيل التالي مباشرة، وقد برز في العام ١٩٢٥، باسم واندفاع "المجدد"، كان لديه شعراء رانعون مثل رافائيل مايا، وليون غريف مرة أخرى، لم يُعترف

بعظمتهم كلها طوال الوقت الذي ترعب فيه بالينثيا على عرشه. وقد تمتع هذا الأخير حتى ذلك الحين، بأمجاد خاصة مميزة، رفعتة محمولاً حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرؤوا على اعتراض طريقه، طوال نصف قرن، هم جماعة "حجر وسما" بدفاترهم الشبابة. وكانت مزيتهم الوحيدة المشتركة في نهاية المطاف، هي عدم كونهم من أتباع بالينثيا: إدواردو كارانشا، ألاتورو كاماتشو راميريث، أوريليو أرتورو وخورخي روخاس نفسه الذي موك نشر قصائدهم. لم يكونوا متشابهين في الشكل ولا في الإلهام، ولكنهم زعزعوا، معاً، أطلال البرناسيين الأثرية، وأيقظوا إلى الحياة شعراً جديداً صادراً من القلب؛ بأصداً متعددة، من خوان رامون خيمينث، أو روبين داريو، أو غارسيا لوركا، أو بابلو نيرودا، أو فيشتي هويدوبرو. التقبل الشعبي لم يكن قوياً، وكان يبدو أنهم هم أنفسهم غير واعين أنه يُنظر إليهم كمبعوثين من العناية الإلهية، من أجل كنس بيت الشعر. ومع ذلك، فإن دون بادوميرو سانين كانوا، الدارس والناقد الأوسع احتراماً في تلك السنوات، سارع إلى كتابة مقال حاسم ليقطع الطريق على أي محاولة للتبيل من بالينثيا. فاختلف موازينه ومقاساته النقدية التي كانت مضرب المثل. وبين أحكامه الحاسمة الكثيرة، كتب أن بالينثيا قد تمكّن من العلوم القديمة، ليعرف روح العصور الماضية المغرقة في القدم؛ وتأمل في النصوص المعاصرة، ليفاجئ، بالتناظر، روح الإنسان كلها". وكرسه مرة أخرى كشاعر بلا زمان وبلا حدود، وصفه بين أولئك الشعراء "من أمثال لوكريسيو، ودانتى، وغوته، الذين حفظوا الجسد لإنقاذ الروح". ولا بد أن أكثر من شخص قد فكر آنذاك، بأن بالينثيا، بوجود أصدقاؤه مثل ذلك، لن يكون بحاجة إلى أعداء.

رداً إدواردو كارانشا على سائين كانو، بمقال يقول كل شيء من العنوان: "حالة شاعر واحد أحد". وكانت تلك هي الهجمة الأولى والموقفة لوضع بالينشيا ضمن حدوده، واختصار قاعدة تقديسه إلى مكانها وحجمها الحقيقيين. اتهمه بأنه لم يشعل في كولومبيا شعلة الروح، وإنما تجبير عظام للكلمات؛ ووصف أشعاره بأنها أشعار حرفي متحذلق، وبارد، وحاذق، ونحات مجتهد. وكانت النتيجة التي توصل إليها هي سؤال ووجهه إلى نفسه بالذات، وبقي في جوهره كإحدى قصائده الجيدة: "إذا لم ينفع الشعر في تسريع دمي، في أن يفتح لي التوافذ فجأة على الغموض، في مساعدتي على اكتشاف العالم، في مرافقة هذا القلب المحزون في الوحدة وفي الحب، في الاحتفال وفي الكراهية، فما هي فائدة الشعر؟". وينتهي قائلاً: "أما أنا - وأعوذ من قول أنا - فأرى أن بالينشيا ليس أكثر من شاعر مقبول".

نشر "حالة شاعر واحد أحد" في ملحق "قراءات أندية"، الصادر عن جريدة التيمبو، وكانت واسعة الانتشار آنذاك، أثار هزة اجتماعية. وكانت نتيجته العجيبة، في الوقت نفسه، هي إعادة تقييم معمقة للشعر في كولومبيا، من أصوله. وهو ما لم يجر بجديّة، منذ أن كتب دون خوان دي كاستيانيوس إحدى عشارياته المئة والخمسين، في "مراثي رجال بلاد الهند البارزين".

صار الشعر، منذ ذلك الحين، مكشوقاً في العراء. ليس فقط لجماعة "الجُدد" الذين أصبحوا رائجين، وإنما لآخرين كذلك، برزوا فيما بعد، وراحوا يتنافسون على مكانتهم بالمناكب. وبلغت شعبية الشعر حداً لم يعد بالإمكان اليوم، فهم إلى أي حد كان يعيش كل عدد من ملحق

"قراءات أندية" الذي يشرف عليه كارانشا، أو من مجلة "السبت" التي كان يديرها آنذاك كارلوس مارتين، مدير معهدنا القديم. وقضلاً عن أشعاره، فرض كارانشا بأمجاده طريقته في أن يكون شاعراً في الساعة السادسة مساءً، في الشارع السابع في بوغوتا، حيث يتشمس كما لو أنه في واجهة زجاجية طولها عشر كوادرات، وفي يده كتاب مسند إلى قلبه. لقد كان نموذجاً لجيله، وكوّن مدرسته من الجيل التالي، كل واحد على طريقته.

في أواسط تلك السنة جاء إلى بوغوتا الشاعر بابلو نيرودا، بقناعته بأنه لا بد للشعر من أن يكون سلاحاً سياسياً. وعلم خلال مسامراته البوغوتية بمدى رجعية لاوريانو غوميث. وعلى سبيل الوداع، كتب على شرفه، بسرعة القلم تقريباً، ثلاث سونيتات هجاء عقابية. الأبيات الأربعة الأولى منها تمنح البقية إيقاعها ونبرتها:

وداعاً يا لاوريانو الذي لن يكفل بالغار أبداً،

أيها المرزبان الحزين والملك الوصولي.

وداعاً يا إمبراطور طابق رابع،

قبل مواعده، ويا مأجوراً على الدوام.

على الرغم من ميول كارانشا السمينية، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غوميث نفسه، إلا أنه أبرز سونيتات بابلو نيرودا في صفحاته الأدبية، وفعل ذلك كسبق صحفي، أكثر مما هو موقف سياسي. ولكن الاستنكار جاء بالإجماع تقريباً. ولا سيما بسبب نشرها المخالف للمنطق، في جريدة يملكها ليبرالي ذو عظم أحمر، مثلما هو الرئيس السابق إدواردو سانتوس، المعارض لفكر لاوريانو غومث الرجعي، بقدر

معارضته لفكر بابلو نيرودا الثوري. وجاء أشد ردود الفعل صخباً، من جانب من لم يتسامحوا حبال إقدام أجنبي على السماح لنفسه بمثل ذلك التصادي. إن مجرد تمكّن ثلاث سوتينات، وجدانية تعتمد الصنعة أكثر منها شاعرية، من إثارة مثل تلك الضجة، كان دليلاً ساطعاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. ولكن نيرودا مُنع فيما بعد، على أي حال، من الدخول إلى كولومبيا. ومن متعه هو لاوريانو غوميث نفسه، حين صار رئيساً للجمهورية، والجنرال غوستافو روخاس بيتيّا في حينه. لكن نيرودا نزل مع ذلك، في كارتاخينا وفي بونافيينتورا عدة مرات، أثناء توقيفه الغابر في رحلات بحرية، بين تشيلي وأوروبا. وكان كل عبور له، في الذهاب والإياب، احتفالاً كبيراً بالنسبة لأصدقائه الذين كان يخبرهم، مسبقاً، بمروره.

عندما دخلت كلية الحقوق، في شباط ١٩٤٧، كان توافقني مع جماعة "حجر وسما" لا يزال سارياً. ومع أنني كنت قد تعرّفت على أبرزهم في بيت كارلوس مارتين، في ثيباكيرا، إلا أنني لم أجد الجرأة على أن أذكر بذلك حتى كارائنا، وكان أكثر من يسهل الوصول إليه منهم. في إحدى المرات وجدته قريباً جداً ووحيداً في مكتبة غرانكولومبيا، فوجهت إليه تحية معجب به. رد علي بلطف شديد، ولكنه لم يتذكرني. أما المعلم ليون دي غريف بالمقابل، فنهض في مناسبة أخرى عن مائدته في مقهى الطاحونة، وجاء بحبيبتني على طاولتي، عندما أخبره أحدهم بأنني قد نشرت قصصاً في الاسبينكتادور، ووعدني بأن يقرأها. ولسوء الحظ أنه بعد أيام قليلة من ذلك، وقعت أحداث التاسع من نيسان الشعبية، واضطرت إلى هجر المدينة التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. وعندما رجعت إليها، بعد أربع سنوات، كان مقهى الطاحونة قد اختفى تحت رماده، والمعلم قد انتقل بقضه وقضيضه، وبطانة أصدقائه إلى مقهى "إل أوتوماتيكو"، حيث صرنا أصدقاء كتب وخمر، وعلمني كيف أحرك أحجار الشطرنج، دون فن ولا حظ.

كان أصدقاء مرحلتي الأولى يستخربون انكبابي على كتابة القصص القصيرة. وأنا نفسي لم أكن أجد تفسيراً لذلك، في بلاد بعد الشعر فيها هو الفن الأكبر. وقد كنت أعرف ذلك منذ طفولتي المبكرة، بسبب النجاح الساحق لقصيدة "بؤس بشري"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تباع في كرارس صغيرة من ورق أسمر، أو تُلقى مقابل سنتين اثنتين في أسواق ومقابر قرى منطقة الكاريبي. أما الرواية بالمقابل، فكانت نادرة جداً. فمند رواية "ماريا" لخورخي إسكس، كُتبت روايات كثيرة لم تُحدث صدى يذكر. وكان خوسيه مازيا بارغاس بيلا ظاهرة فريدة بكتابته اثنتين وخمسين رواية موجهة مباشرة إلى قلوب الفقراء، كان رحالة لا يكل. أمتعتة المفرطة هي كتبه نفسها التي تُعرض وتنفذ مثل الحيز عند أبواب الفنادق، في أميركا اللاتينية وإسبانيا. وقد مزقت روايته الفلكية "أورا أو زهور البنفسج" من القلوب، أكثر بكثير من روايات أخرى أفضل منها لمعاصريه.

الروايات الوحيدة التي استطاعت البقاء حية بعد زمنها، هي "الحروف" التي كتبها الكاتب الإسباني خوان رودريغيث فريجلي، بين عامي ١٦٠٠ و١٦٢٨، في أوج العهد الاستعماري. وهي قصة شديدة الشطط في المبالغة والشحرر من القيود، حول تاريخ غرناطة الجديدة

(كولومبيا)، مما حوّلها إلى عمل روائي بارع؛ ورواية "ماريا" لخورخي إساكس، في سنة ١٨٦٧؛ و"الدوامة" لخورسيه إوستاسيو ريفيرا، سنة ١٩٢٤؛ و"مركيزة بولوميو" لتوماس كاراسكيّا، سنة ١٩٢٦؛ و"أربع سنوات على متن نفسي" لإدواردو ثالاميا، سنة ١٩٥٠. ولم تستطع أي من هذه الروايات بلوغ المجد الذي كان الشعر يتمتع به، بحق أو دون حق. وبالمقابل، كانت القصة القصيرة - مع سابقة بارزة مثلها كاراسكيّا نفسه، كاتب أنتيوكيا الكبير - غارقة في بلاغية منبوشة ومنقبة عنها بجهد، ودون روح.

والدليل على أنه كانت لدي ميول قصاص فقط، هو الأشعار المبعثرة التي خلفتها في المعهد، دون توقيع أو بأسماء مستعارة، لأنني لم أكن مستعداً على الإطلاق، للموت من أجلها. بل أكثر من ذلك: فعندما نشرت قصصي الأولى في الاسبيكتادور، كان كثيرون يتنازعون هذا الجنس الأدبي، ولكن دون إمكانيات كافية. وأنا أفكر اليوم في أنه يمكن فهم ذلك، لأن الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر متعددة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر. وبخاصة في بوغوتا الأربعينيات الكئيبة التي كانت لا تزال تخن إلى العهد الاستعماري، عندما أخرجت تسجيلي، دون ميول ولا رغبة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية.

وللتأكد من ذلك يكفي الغوص في المركز العصبي لتقاطع الشارع السابع مع جادة خيمينث دي كيسادا، وهو التقاطع الذي اعتبرته المبالغة البروغوتية أفضل ناصية في العالم. فعندما تعلن الساعة العامة، في برج كنيسة سان فرانسيسكو، الثانية عشرة ظهراً؛ يتوقف الرجال في الشارع، أو يقطعون أحاديثهم في المقاهي، ليضبطوا ساعاتهم على

ساعة الكنيسة الرسمية. وفي ما حول ذلك التقاطع والشوارع المجاورة، كانت تقع أكثر الأماكن ارتياداً، حيث يلتقي، مرتين في اليوم، التجار والسياسيون والصحفيون - والشعراء بالطبع - وجميعهم يرتدون السواد حتى أقدامهم، مثل مولانا ملك إسبانيا دون فيليبي الرابع.

وفي أزممتي كطالب، كانت لا تزال تُقرأ، في ذلك المكان، جريدة ربما لم يوجد الكثير مثلها في العالم. إنها سيورة سوداء كالتي في المدارس، تُعلق على شرفة الاسبيكتادور في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ثم في الساعة الخامسة مساءً. وقد كُتبت عليها آخر الأخبار بالطباشير. عندئذ يصبح مرور حافلات التراب صعباً، إن لم يكن مستحيلًا، بسبب عرقلة الحشود التي تنتظرها بفارغ الصبر. وكان يمكن لقراء الشارع أولئك، أن يصفقوا بحماس، للأخبار التي تبدو لهم جيدة، وأن يصفقوا أو يقدفوا الحجارة على السيورة، عندما لا تروقهم الأخبار. لقد كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية الفورية، تحصل الاسبيكتادور من خلالها، على ميزان حرارة أكثر فعالية من أي ميزان آخر لقياس درجة حرارة الرأي العام.

لم يكن التلفزيون قد وجد بعد، وكانت هناك نشرات أخبار إذاعية كاملة جداً، ولكنها تُبث في ساعات محددة وثابتة. وهكذا كان المرء، قبل أن يذهب لتناول الغداء أو العشاء، ينتظر ظهور السيورة، ليذهب إلى البيت، ولديه رواية أكثر تكاملاً عن حال الدنيا. هناك عُرف وتُوع بصرامة نموذجية لا تُنسى خبر الطيران الوحيد للكابتن كونتشا بيتيغاس، بين ليما وبوغوتا. فعندما تكون ثمة أخبار مثل هذا الخبر، يجري تبادل السيورة عدة مرات، في غير الموعد المحدد، لتغذية نهم الجمهور بملاحق

استثنائية. لم يكن أي واحد من قراء تلك الجريدة الشوارعية الفريدة، يعرف أن مبتكر الفكرة، وعيها، يدعى خوسيه سالغار. وهو محرر رائد في الاسبينكتادور، توصل وهو في العشرين من عمره، لأن يكون صحفياً من الكبار، دون أن يكون قد تجاوز مرحلة الدراسة الابتدائية. المؤسسة التي كانت تشكل علامة بوغوتا المميزة، هي مقاهي مركز المدينة. وفيها تصب عاجلاً أو آجلاً شؤون حياة البلاد بأسرها. وكان كل مقهى منها يتفتح، في زمانه، باختصاص محدد - سياسي، أدبي، مالي - بحيث أن تسمياً كبيراً من تاريخ كولومبيا، في تلك السنوات، كان مرتبطاً بها بطريقة ما. فكل شخص له مقهاه المفضل، كعلامة مؤكدة لشخصيته.

فكتاب وسياسيو النصف الأول من القرن - بمن فيهم بعض رؤساء الجمهورية - درسوا في مقاهي الشارع الرابع عشر، قبالة مدرسة روساريو. وكان مقهى إوندزور الذي عاش مرحلة ازدياد السياسيين المشهورين له، أحد أكثر المقاهي استمرارية. وكان ملاذ رسام الكاريكاتير الكبير ريكاردو ريندون الذي أنجز هناك عمله الأكبر، ثم ثقب جمجمته العبقريّة، بعد سنوات من ذلك، برصاصة مسدس، في الحجرية الخلفية لمقهى غران بيبيا.

الوجه الآخر لأمسيات ضجري الكثيرة، كان اكتشافي، مصادفة، لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية. فجعلت منها ملاذي المفضل لأقرأ في كتب كبار الموسيقين الذين كنا نطلب أعمالهم خطياً من موظفة فاتنة. وقد اكتشفنا، بين الرواد المعهودين تشابهات، من كل صنف من خلال نوع الموسيقى التي نفضلها. وهكذا عرفت معظم

مؤلفي الموسيقى المفضلين، من خلال أذواق الآخرين، على كشرتهم وتنوعهم. وسئمت شويان لسنوات طويلة، بسبب هاجم للموسيقى يظلمه في كل يوم تقريباً، دون أي رحمة.

في أحد الأيام، وجدت القاعة مقفلة، لأن جهاز الموسيقى معطل. ولكن المديرية سمحت لي بالجلوس للقاعة وسط الصمت. أحسست في البدء، كما لو أنني في بركة سلام راکدة. ولكنني لم أتكن. قبل مرور ساعتين، من التركيز، بسبب ومضات جزع تعرقل قراءتي، وتُسعرتني بأنني غريب عن جلدي. وقد احتجت إلى عدة أيام لكي أدرك أن علاج جزعي، ليس صمت القاعة، وإنما جو الموسيقى الذي صار منذ ذلك الحين، وإلى الأبد، شغفاً شبه سري.

في أمسيات أيام الأحاد، عندما كانوا يغلقون قاعة الموسيقى، كانت متعتي المشرفة هي ركوب حافلات الترام ذات الزجاج الأزرق التي تجول الشوارع دون توقف، مقابل خمسة سنتافو، من ساحة بوليفار حتى جادة تشيلي، وكنت أقضي فيها أمسيات مراهقة تبدو كأنها تجر وراءها ذيلاً بلا نهاية من أيام أحاد أخرى ضائعة، الشيء الوحيد الذي كنت أقوم به، خلال جولات الحفلات المفرغة تلك، هو قراءة كتب أشعار، ربما كوادرا من المدينة مقابل كل كوادرا من الشعر، إلى أن تضاه أول الأنوار تحت رذاذ المطر الأبدى. عندئذ أجد إلى المقاهي الهادئة في الأحياء القديمة، بحثاً عن من يقدم لي صدقة تبادل النقاش معي، حول القصائد التي انتهت من قراءتها. كنت أجد، في بعض الأحيان، من يفعل ذلك - وهو دائماً من الرجال - فنبتني إلى ما بعد منتصف الليل، في حجرة بائسة، مجهز على أعقاب السجائر التي كنا قد دخناها نحن أنفسنا،

وتحدثت عن الشعر، بينما الإنسانية في ما تبقى من العالم بأسره،
قمارس الحب.

في ذلك الزمان كان الجميع شباباً. ولكننا كنا نجد دوماً آخرين
أكثر شباباً منا. كانت الأجيال يدفع بعضها بعضاً، وبخاصة بين الشعراء
والمجرمين. ولا يكاد أحدهم يفعل شيئاً إلا ويظهر له من يتوعد بأنه قادر
على عمل ذلك بصورة أفضل. إنني أجد بين أوراقي القديمة أحياناً بعض
الصور التي كان يلتقطها لنا مصورو الشوارع الجوالون، عند مدخل
كنيسة سان فرانسيسكو، فلا أستطيع أن أكيح إحساساً بالشفقة، لأنها لا
تبدو صوراً لنا، وإنما لأبنائنا بالذات، في مدينة أبواب مغلقة، حيث لا
وجود لشيء سهل، ولا سيما البقاء، على قيد الحياة دون حب، في
أصمبات أيام الآحاد. وهناك تعرفت مصادفة، على خالي خوسيه ماريما
بالديبلاتكيث، عندما ظننت أنني أرى جدي يشق طريقه، حاصلًا مظلة
بين حشود يوم الأحد الخارجة من القديس. فخامة ملابسه لم تخف شيئاً
من هويته: كان يرتدي بدلة كاملة من الجوخ الأسود، وقصيصاً أبيض
بباقة من السيلولويد، وريطة عنق ذات خطوط مائلة، وصدراً بسلسلة
ساعة، وقبعة قاسية، ونظارة مذهبة. كان تأثري كبيراً إلى حدٍ قطعت
عليه الطريق دون أن أنتبه. فرفع المظلة متوعداً، وأوقفني على بُعد شبر
عن عينيته:

- هل يمكنكني المرور؟

فقلت له خجلاً:

- اغذرتني. لقد حسبتك جدي.

واصل تفحصي بنظرة عالم فلكي، وسألني بسخرية خبيثة:

- وهل يمكنكني أن أعرف من هو جدك الشهير هذا؟

ولاضطرابي من وقاحتي المتهورة، أخبرته باسمه كاملاً. فأنزل عندئذ

المظلة، وابتسم بمزاج طيب قائلاً:

- هناك سبب إذن للتشابه. فأنا ابنه البكر.

الحياة اليومية كانت أقل وطأة في الجامعة الوطنية. ومع ذلك، لا
أتوصل إلى أن أجد في ذاكرتي واقع ذلك الزمن، لأنني لا أصدق أنني
كنت طالباً ولو لبوم واحد، بالرغم من أن درجاتي في السنة الأولى -
وهي السنة الوحيدة التي أنهيتها في بوغوتا - تتيح التفكير في عكس
ذلك. لم يكن هناك الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كذلك
التي توصلت إليها في المعهد. كما أن زملاء الدراسة يتفرون في
أنحاء المدينة، بعد انتهاء الدروس. أما مفاجأتي الكبرى فتتمثلت في أن
الأمين العام لكلية الحقوق، هو الكاتب بيدرو غوميث بالدبراما، وكانت
لدي أخبار عنه من خلال مشاركاته المبكرة في الصفحات الأدبية. وقد
بقي واحداً من أصدقائي المقربين حتى موته المبكر.

أما زميلي الأكثر مواظبة، منذ السنة الأولى، فكان غونثالو مايارينو
بوتيرو، الوحيد المعتاد على الإيمان بأن بعض أعاجيب الحياة حقيقية، حتى
وإن لم تكن صحيحة. وكان هو من علمني أن كلية الحقوق ليست جدباً،
إلى الحد الذي أظنه. فحصد البوم الأول، أخرجني من درس الإحصاء،
والسكان، في الساعة السابعة صباحاً، وتحدثني في مباراة شخصية
بالشعر، في مقهى المدينة الجامعية. وكان في ساعات الصباح المبكرة، يتلو
من الذاكرة، أشعار الكلاسيكيين الإسبان، فأرد عليه بقصائد للشعراء،
الشباب الكولومبيين الذين فتحوا النار على ذبول القرن السابق البلاغيين.

الأخيرة. وقد التقيت في بعض المرات مع مدير الجريدة، وكنتُ معجباً بسوثياته، وأكثر منها بترجمة لحياة الشخصيات الوطنية التي كان ينشرها في مجلة "السبت". وكان يتذكر بشيء من الغموض، الملاحظة التي كتبها أوليسس عني، ولكنه لم يقرأ أي قصة من قصصي. وقد تهربتُ من الموضوع، لأنني كنت متأكداً من أنها لن تروقه. ومنذ اليوم الأول، قال لي وهو يودعني، إن صفحات جريدته مفتوحة لي. ولكنني اعتبرت ذلك مجرد مجاملة بوغوتية.

في مقهى أستورياس، عرفني زميلاني في كلية الحقوق، كاميلو توريس ريستريبو ولويس بيستار بوردا، على بيلينيو أبوليو ميندوتا الذي نشر، منذ كان في السادسة عشرة، مجموعة من نصوص الشعر الغنائي، هذا الجنس الأدبي الرائج آنذاك، بعد أن فرضه إدواردو كارانثا، من خلال الصفحات الأدبية لصحيفة التيمبو. كان ذا بشرة مدبوغة، وشعر داكن وأملس، يُبرز مظهره كهندي. وكان قد توصل، على الرغم من سنه، إلى جعل مقالاته تُعتمد في مجلة السبت الأسبوعية التي أسسها أبوه بيلينيو ميندوتا نبيراً، وهو زير حرب قديم وصحفي كبير، ربما لم يكتب سطوراً كاملاً واحداً طوال حياته. ومع ذلك، فقد علم كثيرين الكتابة في الصحف التي كان يؤسسها بكل أهبة، ويهجرها إلى مناصب سياسية رفيعة، أو لإقامة مؤسسات أخرى هائلة وكارثية. أما ابنه فلم أراه سوى مرتين أو ثلاث مرات في تلك الفترة، ودوماً مع زملاء لي. وقد أذهلني أنه في سنه تلك، كان يحاكم الأمور كعجوز مسن، ولكن لم يخطر لي آنذاك أننا ستعاون، بعد سنوات، في جولات صحافة جريئة، لأنني لم أكن قد فكرت بعد، في غواية الصحافة كهنة. أما اهتمامي بها كعلم، فكان أقل من اهتمامي بالحقوق.

دعاني في أحد أيام الأحاد إلى بيته، حيث كان يعيش مع أمه وأخواته وأخوته، وسط توترات أخوية مثل تلك التي بيبت أبوي. فالأخ الأكبر، فيكتور، كان رجل مسرح طوال الوقت، ومغني أوبرا معترفاً به في ميدان اللغة الإسبانية. منذ أن هربت من وصاية أبوي، لم أشعر قط أنني في بيتي، إلى أن تعرفت إلى بيبا بوتيرو، أم الأخوة مايبانو، وهي أنتيوكية^(١) لم يروضها العيش في نخاع الأستقراطية البوغوتية الكتيم. وكانت، بذكايتها الفطري وطريقتها العجيبة في الكلام، تمتلك قدرة لا تنضب على معرفة المكان الدقيق الذي عليها أن تستعيد فيه الكلمات البذينة لسلالتها الثيرفانتسية. كانت أمنيات لا تُنسى، مع رؤية الغروب على زمرد السهب غير المحدود، ودفء الشوكولاته المعطرة في المعجنات الساخنة. ما تعلمته من بيبا بوتيرو، برطانتها المكشوفة، وطريقتها في قول أشياء الحياة العادية، لم يكن يُسمن، في التعرف على بلاغة الحياة الواقعية.

وكان من الزملاء الآخرين المشاهين، غيرمو لوبيث غيراً وألفارو بيدال بارون. وكانا متواظنين معي في معهد ثيباكيرا. ومع ذلك، فقد كنتُ في الجامعة، أقرب إلى لويس بيستار بوردا وكاميلو توريس ريستريبو، اللذين كانا ينجزان بالأطفال، وحباً بالفن، الملحق الأدبي لجريدة "لاراثون"، وهي صحيفة شبه سرية، كان يديرها الشاعر والصحفي خوان لوثنو إي لوثنو. وعشية صدور كل عدد من الملحق، كنتُ أذهب معهما إلى مكاتب التحرير، وأقدم لهما مساعدة الساعة

(١) أنتيوكية Antioquia تنسب إلى مقاطعة أنتيوكيا Antioquia (إسبانية) الكولومبية.

لم أفكر، في الواقع قط، أن الصحافة ستكون موضع اهتمامي يوماً، حتى ذلك اليوم الذي قامت فيه إلفيرا ميندوتا، شقيقة بليسيو، بإجراء مقابلة عاجلة مع مغنية الأوبرا الأرجنتينية بيرتا سينغيرمان، فبدلت تماماً أحكامي المسبقة ضد المهنة، وكشفت عن ميل مجهول لدي. فالمقابلة التي بدت أبعد ما يكون عن مقابلات الأسئلة والأجوبة التقليدية - وهو النمط الذي كان، ولا زال، يخلف لدي الكثير من الشكوك - كانت واحدة من أكثر المقابلات التي نُشرت في كولومبيا أصالة. وبعد سنوات من ذلك، عندما صارت إلفيرا ميندوتا صحفية عالمية مكرسة، وإحدى أفضل صديقاتي، أخبرتني بأن ما فعلته يومذاك، إنما كان وسيلة يائسة لإنقاذ إخفاقيها.

لقد كان وصول المغنية بيرتا سينغيرمان حدث ذلك اليوم. فطلبت إلفيرا - وكانت مسؤولة القسم النسائي في مجلة السبت - أن تُكلف بإجراء مقابلة معها. وقد تلقت التكليف، مع بعض التحفظات من جانب أبيها، بسبب ضالة خبرتها في ذلك النوع من العمل الصحفي. كانت مكاتب تحرير مجلة السبت آنذاك مركز اجتماع أشهر مشقفي تلك السنوات، فطلبت منهم إلفيرا أن يقدموا لها بعض الأسئلة للمقابلة، ولكنها بلغت حافة الهلع عندما لاحظت الاستخفاف الذي استقبلتها به بيرتا سينغيرمان، في الجناح الرئاسي في فندق غرانادا.

فقد وجدت المغنية متعة، منذ السؤال الأول، في استنكار الأسئلة باعتبارها حقا، وغبية، دون أن يخطر لها بأن وراء كل سؤال منها كاتباً جينداً من الكتاب الكثيرين الذين عرفتهم وقدرتهم خلال زيارتها المتعددة إلى كولومبيا. وكان علي إلفيرا، المعروفة دوماً بطبعها الحى،

أن تبتلع دموعها، وأن تتحمل بشرق قلب تلك الكارثة. ولكن دخول زوج بيثرا سينغيرمان المفاجئ أنقذ تحقيقها الصحفي، بعد أن أوشك على التحول إلى حادث خطير. فقد تكفل الزوج بتحريك الوضع بلحظة عذبة وحسن سخريه طيب.

لم تكتب إلفيرا الحوار الذي تصورته مسبقاً، من أجوبة مغنية الأوبرا، وإنما كتبت ريبورتاجاً عن مصاعبها معها. واستغلت تدخل الزوج الذي وفرته لها العناية الإلهية، وحولته إلى البطل الحقيقي في اللقاء. وقد ثارت ثائرة بيرتا سينغيرمان، في واحدة من نوبات غضبها التاريخية، عندما قرأت المقابلة. ولكن السبت كانت المجلة الأسبوعية الأوسع انتشاراً، وقد ارتفع توزيعها الأسبوعي إلى مئة ألف نسخة، في مدينة عدد سكانها ستمئة ألف نسمة.

برود الأعصاب والذكاء اللذان استغلت بهما إلفيرا خواء بيرتا سينغيرمان، لتكشف حقيقة شخصيتها، دفعاني إلى التفكير، للمرة الأولى، في إمكانيات الريبورتاج الصحفي، ليس كوسيلة باهرة لتقديم المعلومات، وإنما أكثر من ذلك: كجس أدبي. ولن تنقضي سنوات طويلة قبل أن أخوض تلك التجربة بنفسى، وأن أتوصل إلى الإيمان، مثلما أومن اليوم أكثر من أي وقت آخر، بأن الرواية والريبورتاج الصحفي هما ابناؤنا للأمة نفسها.

لم أكن قد جازفت حتى ذلك الحين، إلا بكتابة الشعر: أشعار ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه، ونثر غنائي أو سونيتات غراميات متخيلة على طريقة شعراء "حجر وسما"، في العدد الوحيد من الجريدة الأدبية. في مدرسة المعهد الوطني. وقبل ذلك بقليل، كانت سيسيليا غونزالث، المتواظنة معي في ثيباكيرا، قد أقنعت الشاعر والباحث

دانييل أرانغو بأن ينشر أغنية قصيرة كتبها باسم مستعار، وقد نُشرت بحروف طباعية "ثمرة سبعة"، في ركن غير ظاهر من ملحق يوم الأحد لجريدة التبصر. ولم يجعلني نشرها أنبهز، ولا أن أشعر بأنني شاعر أكثر مما كنتُ عليه. أما ريبورتاج إغويرا بالمقابل، فقد جعلني أعي الصحفي الهاجع في قلبي، وتشجعت على إبقائه. بدأتُ بقراءة الصحف بطريقة أخرى. وكان كاميلو توريس ولويس بييَّار بوردا متفتحين معي، فكررا العرض الذي قدمه دون خوان لوثانو، بالكتابة في صفحات جريدته "الرائون". غير أنني لم أنجز إلا على نشر قصيدتين تقنيتين، لم أعتبرهما لي قط. اقترحا عليّ أن يكلما بليثيو أبوليبو ميندونا للكتابة في مجلة "السبت". ولكن حياثي الوصي، نبهني إلى أنني ما زلتُ بحاجة إلى الكثير، قبل أن أجازف، تحت أضواء مظفأة، في مهنة جديدة. ومع ذلك، فقد كان لاكتشافني الذي توصلتُ إليه، فائدة فورية. ففي تلك الأيام كنتُ مشوشاً بإدراكي أن كل ما أكتبه، نثرأ أو شعراً، بما في ذلك واجباتي المدرسية في المعهد، ما هي إلا محاكاة بليدة لجماعة "حجر وسما". وطرحت على نفسي مهمة إجراء تحول حاسم، ابتداءً من قصتي التالية. وقد انتهت التجربة إلى إقناعي بأن ظروف الحال الناجزة في الذهن، ما هي إلا نقبسة مُقبرة، فبدأتُ بسمعاها، أينما اعترضت طريقي، وفي كل مرة كان ذلك الهوس يجبرني على إيجاد أشكال أخرى أكثر غنى وقدرة على التعبير. ومنذ زمن طويل لم يعد يرد في كتبي طرف منها، اللهم إلا في استشهادات مقتبسة بنصها. ولست أدري بالطبع، إذا ما كان مترجمو أعمالني قد التقطوا ذلك هذا الهوس الأسلوبى، وأصيبوا بعدواه، بسبب طبيعة مهنتهم.

سرعان ما تجاوزت صداقتي لكاميلو توريس وبييَّار بوردا، حدود قاعات الدرس والتحرير. وصرنا نقضى معاً في الشارع، وقتاً أطول من الذي نقضيه في الجامعة. وكلاهما كان يغلي على نار هادئة، في استياء قاس من وضع البلاد السياسي والاجتماعي. أما أنا المتضخم بأسرار الأدب، فلم أكن أحاول حتى فهم تحولاتهم الدورانية وتوقعاتهم القائمة. غير أن آثار صداقتهم فاقت أحب صداقتي وأكثرها فائدة في تلك السنوات.

أما في الدروس الجامعية بالمقابل، فكنتُ غارقاً في ورطة. وقد نذمت دوماً على قلة ورزعي تجاه جدارة الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين كانوا يتحملون نفورنا من الدروس. وكان منهم ألفونسو لوبيث ميتشيلسين، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه مرة ثانية في القرن العشرين. وأظن أن ذلك هو مبعث الانطباع العام الذي كان شائعاً، بأنه هو أيضاً مرصود، منذ مولده، ليكون رئيساً. وهو ما صار إليه فعلاً. كان يصل إلى منبر أساتذته في مادة "مدخل إلى الحقوق" بدقة تشير الغيظ، مرتدياً سترات كشميرية بديعة مصنوعة في لندن. ويلقي دروسه دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المظهر المساوي لحسيري النظر الأذكيا. ممن يبدوون دوماً، كما لو أنهم يمشون عبر أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي منولوجات رتيبة على وتيرة واحدة، مثلما هو بالنسبة لي أي درس آخر غير الشعر. إلا أنه كان لرتابة صوته المضجر، ميزة القدرة على التنويم التي يتمتع بها جاري الأفاعي. وكانت ثقافته الأدبية الواسعة تستند، منذ ذلك الحين، إلى أسس راسخة، يعرف كيف يستخدمها كتابةً أو بصوته الحي مباشرة. ولكنني لم أبدأ بتقديره إلا عندما عدنا للتعارف بعد سنوات من ذلك، وصرنا صديقين بعيداً عن

سبب الدروس الجامعية. كانت سمعته، كسياسي صلب، تتغذى من فتنة شخصية سحرية، ومن صفاء ذهن وبصيرة خطيرة في اكتشاف النوايا الخفية للناس. وخاصة من يحبهم أقل. ومع ذلك، فإن فضيلته الأكثر تميزاً، كشخصية عامة، هي قدرته المذهلة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع مرور الزمن إلى صداقة جيدة. ولكنني لم أكن في الجامعة من أكثر الطلاب دأباً ومواظبة. وكان خجلي الذي لا مفر منه، يبقيني على مسافة لا يمكن لي تجاوزها، خاصة مع الناس الذين أقدرهم وأحترمهم. ولهذا فوجئت كثيراً عندما استدعاني إلى الامتحان النهائي للسنة الأولى، بالرغم من أن كثرة غيابي عن الدروس جعلتني جديراً بلقب الطالب الخفي. لجأت إلى حيلتي القديمة في تحويل اتجاه الحديث حول الموضوع بأساليب بلاغية. ولاحظت أن الأستاذ واع لحيلتي، ولكنه ربما قدرها كتسلية أدبية. وكانت الزلة الوحيدة هي استخدامي في الامتحان النهائي كلمة تَقَادِم (prescripcion)، فسارع هو إلى الطلب مني أن أحدد معناها، ليتأكد من أنني أعرف ما الذي أقوله.

فقلت له:

- الفعل تقادم prescribir يعني اكتساب خواص معينة مع مرور الزمن.

فسألني على الفور:

- اكتسابها أم فقدانها؟

إنه النسيء نفسه^(١)، ولكنني لم أناقشه في ذلك، بسبب عدم يقيني القطري. وأظن أن تلك كانت واحدة من مداعباته الشهيرة التي

(١) الفعل prescribir + يتضمن معنيين متناقضين: فهو يعني: في الوقت نفسه، اكتساب مزية بالتقادم أو فقدانها.

بوجهها بعد الامتحان، لأنه لم يحاسبني عليها ولم يتقاضى مني ذلك الدين عند وضع درجة التقويم. وقد حدثته بعد سنوات من ذلك، عن الواقعة، فلم يتذكرها بالطبع. ولكننا لم نكن عندئذ، أنا وهو، متأكدين من أن تلك الحادثة كانت صحيحة.

لقد وجد كلانا في الأدب، ملاذاً طيباً لتناسي السياسة وأسرار "التقادم"، واكتشفنا بالمقابل كتباً مذهلة وكتأباً منسيين في محادثات لانهائية أدت، في بعض الأحيان، إلى إفساد زيارات، وإثارة حفيظة زوجتي. أقنعني أمني بأننا قريبان، وقد كان الأمر كذلك بالفعل. ومع ذلك، فإن ما كان يحده هويتنا، أفضل من أي رابطة غائمة، هو شغفنا المشترك بأغاني منطقة بايتاتو.

وكان هناك قريب عارض آخر، من جهة أبي، هو كارلوس هـ. باريخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غرانكولومبيا، المكتبة المفضلة لدى الطلاب، بسبب عاداتها الحميدة في عرض الكتب الجديدة لكبار الكتاب على مناضد مكشوفة ودون مراقبة. فكان، حتى نحن طلابه، نغزو المحل في سهو الغروب، ونسرق الكتب بفنون خفة الأصابع. وكانت سرقة الكتب تعتبر، حسب العرف المدرسي، جريمة؛ ولكنها ليست خطيئة. أما دوري في عمليات السرقة تلك، فكان يقتصر، ليس بدافع الفضيلة وإنما بسبب الخوف الجسدي، على حماية ظهر من هم أكثر مهارة؛ شريطة أن يسرقوا، فضلاً عن الكتب التي يريدونها لأنفسهم. بعض الكتب الأخرى التي أطلبها أنا، وفي مساء أحد الأيام، وكان أحد زملائي المتواطئين قد انتهى للتو من سرقة المدينة دون لاورا^١ لفرانثيسكو لويس بيرنارديث، عندما أحسست بقبضة قوية تمسك بكتفي، وبصوت رقيب يقول:

- أخيراً.. يا للعة!

التفت مذعوراً، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع الأستاذ كارلوس هـ. باروخا، بينما كان ثلاثة من شركائي يهربون متدافعين. ولحسن الحظ أنني انتبهت، قبل أن أفهم من الاعتذار، إلى أن الأستاذ لم يقاجأ لأنه ضبطني ككلص. وإنما لأنه لم يرتني في دروسه منذ أكثر من شهر. وبعد تأنيب أقرب إلى العادي، سألتني:

- هل أنت ابن غابرييل إليخيو حقاً؟

كان ذلك صحيحاً، ولكنني أجبت أنه لا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأبي قريبان بعيدان بحادثة شخصية لم أفهمها قط. ولكنه عرف الحقيقة فيما بعد. ومنذ ذلك اليوم صار يعاملني بتمييز، في المكتبة وفي الدروس، باعتباري ابن أخ له. وقد احتفظنا بعلاقة سياسية أكثر مما هي أديبة، بالرغم من أنه كان قد كتب ونشر عدة كتب شعرية متفاوتة القيمة، بالاسم المستعار "سيمون اللاتيني". ولكن وعي صلة القرابة أفاده هو فقط، لأنني لم أعد أقوم بدور المنتسب على سرقة الكتب.

أستاذ آخر رائع هو ديفغو مونتانيا كويار. وكان نقيض لوبيث ميتشيلسين. ويبدو أنهما كانا على خصومة سرية. لوبيث كلبيرالي مشاكس ومونتانيا كويار كيساري رديكالي. لقد أقمت مع هذا الأخير علاقة جيدة خارج الجامعة. وبدا لي على الدوام أن لوبيث ميتشيلسين ينظر إليّ، على أنني فرخ شاعر، بينما يرى في مونتانيا كويار داعية جيداً لمعتقداته الثورية.

تعاطفت مع مونتانيا كويار بدأً بمشكلة تعرض لها مع ثلاثة ضباط شباب، من المدرسة العسكرية، كانوا يحضرون دروسه بزي المراسم.

وكانوا يواظبون على الدروس بدقة الشكنة، ويجلسون معاً على المقاعد الجانبية نفسها، ويدونون ملاحظات متقنة لا تشويها شائبة، ويحصلون على درجات يستحقونها بجدارة في الامتحانات الصارمة. تصحهم ديفغو مونتانيا كويار بعدم المجيء إلى الدروس بالزي العسكري. فقالوا له بأكثر أساليبهم تهدياً إنهم ينفذون أوامر عليا. ولم يفوتوا فرصة لمجعله يشعر بذلك. ومع ذلك، وعلى الرغم من غرابة سلوكهم، فقد كان الضباط الثلاثة، في نظر الطلاب والأساتذة، طلاباً محبيين.

كانوا يأتون بزيمهم العسكري المشابه، والمتقن، معاً على الدوام، وفي الموعد الدقيق. ويجلسون جانباً. لقد كانوا أكثر الطلاب جدية ومنهجية. ولكنني كنت أرى على الدوام أنهم في عالم مختلف عن عالمنا. فإذا ما توجه أحد إليهم الكلام، يُبدون الاهتمام والطف، ولكن بصورة رسمية وشكلية لا يمكن التغلب عليها؛ فهم لا يقولون أكثر مما يُسألون عنه. وفي أزمئة الامتحانات، كنا نحن المدنيين نتوزع في جماعات من أربعة طلاب لندرس في المقاهي، وكنا نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي المبارزات الطلابية، وفي الحانات الهادئة ومواخير ذلك العصر الكئيبة. ولكننا لم نكن نلتقي قط، بزملاتنا العسكريين.

لم أكد أتبادل معهم التحية، خلال السنة الطويلة التي أمضيتهاها معاً في الجامعة. فضلاً عن أنه لم يكن هناك متسع لذلك، لأنهم كانوا يحضرون إلى الدروس في الموعد المحدد بدقة، ويغادرون مع آخر كلمة ينطق بها الأستاذ، دون أن يتعاملوا مع أحد، اللهم إلا مع شيان عسكريين آخرين في السنة الثانية. يجتمعون وإياهم معاً في الاستراحات. لم أعرف أسماءهم قط، ولم أحصل على أي خبر عنهم

فيما بعد. وأنتبه اليوم إلى أن أكبر الموانع لم تكن من جانبهم. بقدر ما هي من جانبي، لأنني لم أستطع قط أن أعجز المرارة التي كان جدائي يستذكران بها حروبهما المحبطة والمذابح الفظيعة في مناطق الموز.

كان أستاذ مادة القانون الدستوري، خورخي سوتو دل كورال، مشهوراً بأنه يعرف عن ظهر قلب، كل دساتير العالم. وكان يبهرنا، في دروسه، بذكائه وعلوه الحفوية، التي لا يعكرها إلا ضعف حس الدعاية لديه. وأظن أنه كان واحداً من الأساتذة الذين يبذلون ما أمكنهم من جهد كيلا تظهر اختلافاتهم السياسية في الجامعة، ولكنها كانت تبدو بوضوح أكبر مما يظنون، حتى من خلال إيماءات أيديهم ونبرة التفخيم لأفكارهم. ذلك أن الجامعة هي المكان الذي كان يلمس فيه، أكثر من سواه، النبض العميق للبلاد التي كانت على حافة حرب أهلية جديدة، بعد بضع وأربعين سنة من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي الزمن وإهمالي القانوني، فقد نجحت في المواد السهلة من سنة الحقوق الأولى، بفضل تحميمات في اللحظة الأخيرة؛ ونجحت بأصعبها، بفضل حيلتي القديمة في تحاشي الموضوع المطلوب بوسائل مستنبطة. والحقيقة أنني لم أكن مرتاحاً داخل جلدي، ولم أكن أعرف كيف أوصل المتشئ بالتملس في ذلك الطريق المسدود. فقد كان فهسي للحقوق قليلاً، واهتمامي به أقل بكثير من أي مادة دراسية في المعهد. كما أنني صرت أشعر بأنني قد نضجت بما يكفي لاتخاذ قراراتي بنفسى. وأخيراً، بعد ستة عشر شهراً من البقاء حياً، بأعجوبة، لم يبق لي إلا جماعة من الأصدقاء الجيدين الذين سيمقون كذلك مدى الحياة.

ضالّة اهتمامي بالدراسة تضالمت أكثر بعد ملاحظة أوليسيس، وبخاصة في الجامعة، حيث بدأ بعض زملائي يمنحي لقب أستاذ تقديمي ككاتب. وتوافق ذلك مع تصميمي على تعلم بناء بنيان يكون في الوقت نفسه، محتسلاً وخيالياً. إنما دون فجوات؛ وفق نماذج كاملة الإتقان وصعوبة، مثل أوديب ملكاً لسوفوكليس، حيث يبحث بظلمها عن قاتل أبيه، وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل؛ ومثل "قائمة القرء" و. و. جاكوب W.W. Jacob، هذه القصة المحكمة، حيث كل ما يجري هو مصادفة. ومثل "كتلة الشحم"، لموباسان، وغيرهم كثير من الخطاة الكبار الذين أرجو أن يحفظهم الرب في ملكوته. وكنتُ أفكر في هذا الأمر، في ليلة يوم أحد جرى لي فيها أمر يستحق أن يروى. كنت قد أمضيت ذلك النهار بطوله في تهوية إجاباتي، ككاتب، مع غونشالو مايارينو، في بيته في جادة تشيلي. وأثناء عودتي إلى المنزل، في الترام الأخير، صعد "فونوس"^(١) من لحم وعظم في محطة تشابينيرو. لم أخطئ القول: فونوس. لاحظتُ أن أحداً من ركاب منتصف الليل القلائل، لم يفاجأ برؤيته، فدفعني ذلك إلى التفكير في أنه واحد آخر ممن ينتكرون بهيئات مختلفة، في أيام الأحاد، لبييعوا كل شيء في حدائق الأطفال. ولكن الواقع أقتنعني بأنه لا يمكنني الشك، لأن له قرني تيس ولحيته، حتى إنني أحسست لدى مروره، برائحة شعره الماعزي. وقيل بلوغنا الشارع ٢٦، وهو شارع المقبرة، نزل بمظهر رب أسرة طيب، واختمنى بين أشجار الحديقة.

(١) فونوس أو Fauno: إله الغابات والمراعي وحاشي القطعان والزراعة عند الرومان. يمثل بهيئة غفريته وبرأس ذي قرنين، وله لحية وقدمتا تيس، وشعر كشعر الماعز.

استيقظتُ بعد منتصف الليل، من نومي القلق في فراشي. فسألني دومنغو مانويل بيغا عما أصابني. "لقد سعد فنونوس إلى الترام"، قلت له ذلك وأنا بين النوم واليقظة. فردّ علي، وهو مستيقظ تماماً، بأنه إذا كان كابوساً فلا بد أن السبب هو سوء هضم من الذي يصيب المرء في يوم الأحد. أما إذا كان موضوعاً لقصتي القصيرة القادمة، فإنه يبدو له موضوعاً رائعاً. ولم أعد أدري، في الأيام التالية، إذا ما كنت قد رأيت حقاً "فونوساً" في الترام أو أنها مجرد أضغاث أحلام أحدهة. وبدأت أتقبل أنني قد مُت تحت تأثير إرهاق ذلك اليوم، ورأيت حلماً واضحاً جداً لا يمكن فصله عن الواقع. ولكن الجوهرى بالنسبة لي لم ينته بهل كان الفونوس حقيقياً، وإنما بما إذا كان كذلك. وبالتالي - سواء أكان حقيقياً أم حلماً - لم يكن من المشروع اعتباره سحراً من المخيلة، وإنما كسجربة عجيبة في حياتي.

وهكذا كتبتُ القصة في اليوم التالي، دفعة واحدة، ووضعتها تحت الوسادة، وقرأتها وأعدت قراءتها طوال ليال عديدة قبل النوم، أو لدى استيقاظي صباحاً. كانت القصة وصفاً خارجياً وحرفياً لواقعة الترام، مثلما جرت تماماً، وبأسلوب بالغ البراعة، مثل خبر تعميد طفل في صفحة الأخبار الاجتماعية. وأخيراً، وبدافع شكوك أخرى، قررت إخضاع القصة لتجربة الكلام المطبوع المحتمسية. ولكن ليس في جريدة الاسبيكتادور، وإنما في الملحق الأدبي لجريدة التيمبو. وربما كانت تلك هي الطريقة لمعرفة وجهة نظر أخرى، مختلفة عن رأي إدواردو ثالاميا، دون أن أوظفه في مغامرة ليس هناك ما يستدعي إشراكه فيها. أرسلت القصة مع زميل في النزول، ومعها رسالة، إلى دون خيمي بوسادا، المدير

الجديد والشاب جداً لـ "الملحق الأدبي" في جريدة التيمبو. ولكن القصة لم تُنشر مع ذلك، ولم أتلق رداً على الرسالة.

قصص تلك المرحلة، وفق تسلسل كتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختلفت من أرشيف جريدة الاسبيكتادور خلال الهجوم على هذه الجريدة وإحراقها، على يد جموع الشغب الرسمية في السادس من أيلول ١٩٥٢. أنا نفسي، لم تكن لدي نسخة منها، ولم تكن كذلك لدى أصدقائي المهتمين. ولهذا ظننت، بشيء من الراحة، أن النسيان قد ابتلعها. ومع ذلك، فقد كانت بعض الملاحق الأدبية المحلية في الأقاليم، قد أعادت نشرها في حينها دون إذن، ونُشر بعضها كذلك في مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها في كتاب دار نشر "ألفيل" في مونتيفيديو سنة ١٩٧٢، وأصدرتها بعنوان قصة منها: "تابو، الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون".

وكانت تنقصها قصة واحدة لم تُضم إلى الكتاب، ربما بسبب الاقتتار إلى نسخة موثوقة منها: "توبال كاين بصوغ نجمة"، التي نُشرت في الاسبيكتادور يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨، واسم البطل، مثلما لا يعرف الجميع، هو اسم حداد توراني ابتدع الموسيقى. لقد كانت ثلاث حكايات، وقرأتها وفق الترتيب الذي كُتبت ونُشرت فيه، بدت لي معدومة الترابط وتجريدية، بعضها غير معقول، ولا تستند أي واحدة منها إلى مشاعر حقيقية. ولم أستطع قط، أن أتبين وجهة النظر التي قرأها بها ناقد بالغ الصرامة مثل إدواردو ثالاميا، ومع ذلك، فإنها تتمتع في نظري، بأهمية لا يراها أحد سواي. ذلك أن في كل واحدة منها شيئاً يتناسب مع تطور حياتي السريع في ذلك الحين.

كثير من الروايات التي كنتُ أقرأها آنذاك، وأقدرها، كانت تشد اهتمامي بما تتضمنه من تعليم تقني فقط. أي ما فيها من صعقة سرية. فمن التجريد الميتافيزيقي في القصص الثلاث الأولى، حتى قصص ذلك الحين الثلاث الأخيرة، وجدت دروباً محددة ومفيدة جداً للتكوين الأولي للكاتب. لم تكن قد وردت إلي خاطري، فكرة ارتياد أشكال أخرى. فقد كنتُ أفكر في أن القصة والرواية لبسا جنسين أدبيين مختلفين وحسب، وإنما هما جسدان من طبيعتين مختلفتين، وسيكون الخلط بينهما وخيماً. وما زلتُ اليوم أومن بذلك، مثلما كنتُ أومن به آنذاك. وصرتُ أكثر اقتناعاً بتفوق القصة القصيرة على الرواية.

سبب لي النشر في الاسبيكتادور، على هامش النجاح الأدبي، مشاكل أخرى أكثر دنيوية ودعابة. فقد صار أصدقاء غافلون يوقفونني في الشارع، ليطالبوا مني أن أقرضهم نقوداً منقذة، فما كان بإمكانهم أن يصدقوا أن كاتباً يمثل ذلك الانتشار، لا يتلقى مبالغ مالية ضخمة مقابل قصصه. وقلة قليلة فقط هم الذين كانوا يصدقون أنه لم يُدفع لي مقابل نشرها سنت واحد؛ وأنتي أنا نفسي، لم أكن أنتظر أن يُدفع لي، لأن ذلك لم يكن شائعاً في صحافة البلاد. والأخطر من ذلك، هو خيبة أمل أبي عندما اقتنع بأنني لن أتمكن من تغطية نفقاتي الخاصة، في الوقت الذي كان يدرس فيه ثلاثة من أختوتي الأحد عشر الذين كانوا قد ولدوا جميعهم. كانت الأسرة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر. وكان النزول وحده يكلفني ثمانية عشر بيزو، دون أن يكون لي الحق بالحصول على بيضة على الفطور. وكنتُ أجد نفسي غير قادر على استكمال المبلغ على الدوام، بسبب نفقات طائرة. ولحسن الحظ، لا أدري من أين

أصابني عدوى الرسم، وأنا ساء، على هوامش الصحف، وعلى المناديل الورقية في المطاعم، وعلى موائد الرخام في المقاهي. وأتجمرأ على الاعتقاد بأن تلك الرسوم هي سبيلة مباشرة لما كنتُ أرسمه، وأنا طفل، على جدران مشغل صياغة الجهد. وربما كانت صماصات أمان سهلة للتفريغ عن النفس. كان لأحد رواد مقهى الطاحونة الطارئين، وساطة في إحدى الوزارات، فعُيِّن رساماً فيها دون أن تكون لديه أدنى دراية بالرسم. وعرض عليّ أن أقوم بالعمل بدلاً منه، ونتقاسم الراتب في ما بيننا. لم أقرب طوال ما تبقى من حياتي قط إلى ذلك الحد من الفساد، ولكنني لم أقرب منه آنذاك، إلى الحد الذي أندم عليه.

تزايد اهتمامي بالموسيقى أيضاً، في تلك الفترة التي كانت فيها أغاني الكاريبي الشعبية - التي رضعتها منذ الصغر - تشق طريقها في بوغوتا. كان البرنامج الإذاعي الأوسع رواجاً هو ساعة ساحلية الذي ينشطه دون باسكوال ديلفيتكيو. وكان بمثابة قنصل موسيقي من ساحل الأطلسي إلى العاصمة. وقد حاز البرنامج على شعبية واسعة في أيام الأحاد صباحاً، إلى حد أننا، نحن الطلاب الكاريبيين، كنا نذهب للرقص في مكاتب محطة البث الإذاعي، حتى وقت متقدم من بعد الظهر. كان ذلك هو منشأ الشعبية الواسعة لموسيقائنا في مناطق البلاد الداخلية، ثم بعد ذلك في أقصى أركانها، وتنشيطاً اجتماعياً للطلاب الساحليين في بوغوتا.

أما العائق الوحيد، فكان شبح الزواج الإجباري. ولست أدري ما هي السوابق السيئة التي أدت إلى أن يزدهر في الساحل، الاعتقاد بأن الفتيات البوغوتيات يسعدن بالشبان الساحليين وينصبون لنا الحبائل ليتزوجن منا بالقوة. ليس بدافع الحب، وإنما بحلم العيش في بيت تطل

نافذته على البحر. لم تراودني هذه الفكرة قط. بل على العكس، فأكثر الذكريات غير المرغوبة في حياتي هي المواخير المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنا نذهب لتقيؤ سكراتنا المكفهرة. وقد أوشكت، في أكثرها قذارة، على التخلي عن بصبص الحياة الضئيل المتبقي في داخلي، عندما ظهرت امرأة، كنتُ معها للتو، عارية في المر، وهي تصرخ قائلة إنني سرقت اثني عشر بيزو من درج خوان زينتها. طرحتني اثنان من العاملين في المحل أرضاً بالللكمات، ولم يكتفيا بانتزاع آخر بيزوين متبقيين في جيوبي، بعد ممارستي حياً مشؤوماً، وإنما عراباني حتى من الحفا. وراحا يفتشانني بأصابعهما بحثاً عن النقود المسروقة، وكانا قد قررا عدم قتلي على أي حال، وإنما تسليمي إلى الشرطة، عندما تذكرت المرأة أنها بدكت مخبأ نقودها في اليوم السابق، ووجدتها كاملة، دون نقصان.

بين الصداقات المتبقية لي من الجامعة، لم تكن صداقتي لكاميلو توريس هي الأقل عرضة للنسيان فقط، وإنما الأكثر دراماتيكية في شبانتي. في أحد الأيام تغيب عن الدروس لأول مرة، فانتشر السبب مثل ثمار البارود. لقد رتب أشياء، وقرر الهرب من بيته للذهاب إلى مدرسة تشيكينيكيرا الإكليريكية، على بعد أكثر من مئة كيلومتر عن بوغوتا. أدركته أمه في محطة القطار وحيسته في مكتبها. وقد زرته هناك، كان شاحباً أكثر من المعتاد، بغفارة بيضاء، وطمانينة دفعتني لأول مرة إلى التفكير في حالة الرضى الرباني. لقد قرر الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية، استجابة لمبول كان يخفيها جيداً، ولكنه مصمم على الانصياع لها حتى النهاية.

قال لي:

- لقد انقضى أصعب ما في الأمر.

وكانت تلك هي طريقته في القول لي إنه قد فارق خطيبته، وإنها قد احتفت بقراره. وبعد أمسية خصيبة، قدم لي هدية لا يمكن فك رموز اختياراتها: أصل الأتواع لداروين. ودعته، يراودني يقين غريب بأنه وداع إلى الأبد.

لم أره طوال فترة وجوده في المدرسة الدينية. وبلغتني أخبار غامضة عن أنه قد ذهب إلى لوفانيا، مدة ثلاث سنوات، للإعداد اللاهوتي، وأن استسلامه الديني لم يبذل روحه الطلابية وأساليبه العلمانية، وأن الفتيات كن يتنهذن من أجله، يعاملنه كما لو أنه ممثل سينمائي جعلته المسوح أعزل.

بعد عشر سنوات من ذلك، عندما رجعتُ إلى بوغوتا، كان قد تسنم جسداً وروحاً طبيعة مكانته، إلا أنه بقي يحتفظ بأفضل فضائله، كمرهق. وكنتُ أنا آنذاك كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوجاً ولدي ابن واحد، رودريغو، الذي ولد يوم ٢٤ آب ١٩٥٩ في مستشفى باليرمو في بوغوتا. وقررنا في الأسرة، أن يكون كاميلو هو من يتولى تعميد ابننا؛ وأن يكون العراب هو بلينيو أبوليو ميندوتا الذي كنا أنا وزوجتي، قد أقسمنا معه صداقة عرابين من قبل. أما العرابة فكانت سوزانا ليناريس، زوجة خيرمان بارغاس الذي نقل إلي فنوته، كصحفي جيد وصديق مفضل. كان كاميلو أقرب إلى بلينيو مما هو إلينا، وعلاقته به أقدم بكثير، ولكنه لم يشأ قبوله كعراب، بسبب اتصالاته آنذاك مع الشيوعيين، وربما كذلك بسبب روحه الساخرة التي يمكن لها أن تسيء

إلى وقار الطقوس المقدسة. فتعهدت سوزانا بأن تتولى بنفسها أمر تكوين الطفل روحياً؛ ولم يجد كاميلو، أو لم يشأ أن يجد، حججاً أخرى لتقطع الطريق على العراب.

جرت طقوس التعميد في مصلى مستشفى باليرمو. في شبه الظلمة الجليدية للساعة السادسة مساءً، دون وجود أحد سواي أنا والعرابان، وفلاح عباءة جليبة وصندلاً، اقترب منا لحضور القداس كما لو أنه يطغو فوق الأرض، دون أن يكشف عن حضوره. وعندما وصلت سوزانا ومعها الوليد، أفلت العراب الذي لا سبيل إلى إصلاحه استفزازه الأول ساخراً:

- سنجعل من هذا الطفل رجلَ حرب عصابات جيداً.

فرد عليه كاميلو الذي كان يعدّ حوائج الطقوس المقدس، بهجوم مضاد بالنبرة نفسها: "أجل، ولكنه سيكون محارباً في سبيل الرب". وياشر الطقوس بقرار من أكبر العيارات مقاساً، وغير مألوف تماماً في تلك السنوات:

- سوف أعمده بالإسبانية، لكي يفهم الجاحدون ما الذي يعنيه هذا السر المقدس.

راح صوته يرنّ بقشالية مدوية، تابعتها من خلال لاتينية سنوات صباي. كخادم كاهن في أراكاتاكا. وفي لحظة الرش بالماء، ودون أن ينظر إلى أحد بعينه، ابتدع كاميلو صيغة استفزازية أخرى:

- فليركع كل من يؤمن بأن الروح القدس سينزل الآن، على هذا الطفل.

بقيت أنا والعرابان واقفين، وربما متضايقين قليلاً من مكر صديقنا

المخوري، بينما الطفل يزعق تحت رشاش الماء البارد. والشخص الوحيد الذي جثا راکعاً هو الفلاح ذو الصندل. لقد ظلت صدمة هذه الواقعة، واحدة من العبر القاسية في حياتي، لأبني اعتقدت دوماً، بأن كاميلو هو من جاء بالفلاح، بتخطيط مسبق، لمعاقبتنا بدرس في الإذلال، أو في حسن التربية على الأقل.

عدتُ للقاء به مرات قليلة. ودائماً لسبب قوي أو قاهر، يكون مرتبطاً على الدوام تقريباً، بأعمال إحصائه لمصلحة المطاردين السياسيين. وفي أحد الأيام حضر إلى بيتي، ومعه لص سطو على المنازل أنهى حكماً بالسجن، ولكن الشرطة لم تمنحه الراحة وتخفف من وطأتها عنه؛ فكان رجال الشرطة يستولون على كل ما يملكه. في إحدى المرات، أهديتُ إليه هذا كشاف، في أسفل تعليه رسم خاص من أجل مزيد من الأمان. وبعد أيام قليلة، تعرفت خادمة البيت على النعل، في صورة جانح مشرد عُثر عليه مبيتاً، في تصفية حسابات. لقد كان ذلك القشيل هو اللص الصديق.

لست أزعم أنه كان لتلك الواقعة علاقة بالمصير النهائي الذي صار إليه كاميلو. ولكنه بعد شهور قليلة من ذلك، دخل إلى المستشفى العسكري لزيارة صديق مريض. ولم يعد يعرف أي شيء عنه، إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر كمقاتل حرب عصابات عادي، في صفوف جيش التحرير الوطني. وقد مات في الخامس من شباط ١٩٦٦، في السابعة والثلاثين من عمره، خلال معركة حامية مع دورية عسكرية.

تزامن التحاق كاميلو بالمدرسة الدينية مع قراري الخاص بعدم مواصلة إضاعة الوقت في كلية الحقوق. ولكنني لم أجد الشجاعة

لمواجهة أبوي بذلك، دفعة واحدة. وقد علمت من خلال أخي لويس إتركي - الذي جاء إلى بوغوتا في وظيفة جيدة في شهر شباط ١٩٤٨ - أن أبوي راضيان جداً عن نتائجي في الثانوية وسنة الحقوق الأولى. وقد أرسل إليّ هدية مفاجئة، هي أخف وأحدث آلة كاتبة معروضة في السوق. كانت تلك هي أول آلة كاتبة أحصل عليها في حياتي، وأكثرها سوء طالع في الوقت نفسه، لأنني رهنها في ذلك اليوم بالذات مقابل اثني عشر بيزو من أجل مواصلة حفلة الترحيب بأخي مع زملائي في المنزل. وفي اليوم التالي، بينما آلام الرأس تسبب لنا الجنون، ذهبت إلى بيت الرهونات للاطمئنان إلى أن الآلة الكاتبة لا تزال هناك وأن خاتم تغليفها لم يمس. وللتأكد من أنها لا تزال في حالة جيدة، رشما تسقط علينا من السماء النقود اللازمة لتخليصها. وقد انتنا فرصة طيبة بفضل ما دفعه لي شريكى الرسام المزيف، ولكننا قررنا في اللحظة الأخيرة، التخلي عن فك الرهن إلى ما بعد. وكلما مررنا أمام بيت الرهونات، أنا وأخي، معاً أو منفصلين، كنا نتأكد ونحن في الشارع، من أن الآلة الكاتبة ما تزال في مكانها، مغلفة مثل جوهرة بورق السيلوفان، مع شريط من الحرير، وسط صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيداً. بعد مرور شهر، لم تتحقق الحسابات السعيدة التي كنا قد أجريناها في نشوة السكر. ولكن الآلة الكاتبة بقيت في مكانها دون أن تمس. ويمكن لها أن تبقى هناك إلى أن تدفع، في الوقت المناسب، الفوائد الفصلية عن قيمة الرهن.

أظن أننا لم نكن نعي بعد، التوترات السياسية الرهيبة التي بدأت تعكر صفو البلاد. وعلى الرغم من سمعة المحافظ المعتدل التي وصل بها

أوسينا بيريث إلى السلطة، فإن أغلبية حزبه كانت تعرف أن فوزه لم يكن ممكناً إلا بانقسام الليبراليين. وكان هؤلاء، وقد أفقدتهم الضربة صوابهم، يؤنون ألبيرتو بيراس على حيادته الانتحارية التي سمحت بوقوع الهزيمة. أما الدكتور غابرييل طريه المثقل بمزاجه المعكر، أكثر من ضيقه من الأصوات المعادية، فقد غادر إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى، بحجة تخصص عالٍ في أمراض القلب. ومات وحيداً تحت وطأة ريو الهزيمة، بعد سنة ونصف، بين الأزهار الورقية الداوية في فندق بلاس آتينيه الباريسي. أما خورخي إلبير غايتان بالمقابل، فلم يقطع يوماً واحداً، حملته الانتخابية من أجل الدورة التالية، وإنما جدرها بعمق؛ ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهورية تجاوز اقتسام البلاد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، وعمقه بشرح أفقي وأكثر واقعية، بين المستغلين والمستغلين: البلد السياسي والبلد الوطني. وبصرخته التاريخية - إلى الهجوم! - نشر بحماسة فوق الطبيعي، بذرة المقاومة حتى في أقصى الأركان، عبر حملة تحريض ضخمة راحت تكسب أرضية صلبة، خلال أقل من سنة، حتى وصلت إلى عشية ثورة اجتماعية حقيقية.

وهكذا فقط، وعينا أن البلاد بدأت تنحدر في مهاوي الحرب الأهلية نفسها التي بقيت لنا، منذ الاستقلال عن إسبانيا، وراحت تصل إلى الجيل الثاني من أحفاد أبطالها الأصليين. فالحزب المحافظ الذي استعاد الرئاسة من الفريق الليبرالي، بعد أربع دورات متتالية، كان مصحماً على عدم فقدانها من جديد، مهما كلف الأمر. وللتوصل إلى ذلك، استبقت حكومة أوسيبيو بيريث الأمور، بانتهاج سياسة أرض محروقة أدمت البلاد، ووصلت إلى الحياة اليومية في البيوت.

لم أستطع بانعدام وعيي السياسي، ومن ضيابتي الأدبية، أن ألمح ذلك الواقع الجلي، حتى ليلة كنتُ عائداً فيها إلى النزول، والتقيت بشيخ وعيي. كانت المدينة مقفرة، تعصف فيها رياح جليدية تهب من المضائق الجبلية، يحاصرها صوت خورخي إليسير غايتان المعدني ونبرة تفخيظه الشعبية المتعمدة، في خطابه الدوري الصارم، كل يوم جمعة في المسرح البلدي. لم تكن طاقة المكان الاستيعابية تزيد على ألف شخص متزاحمين، ولكن الخطاب كان ينتشر في موجات متحدة المركز، أولاً من مكبرات الصوت في الشوارع المجاورة، وبعد ذلك من أجهزة المذياع التي تلتلعق بأعلى صوت، مثل ضربات مدوية في أجواء المدينة الناهلة، وتستحوذ لثلاث ساعات، وحتى أربع ساعات، على الاستماع الوطني. راودني في تلك الليلة الإحساس بأنني الوحيد في الشوارع، اللهم إلا عند ناصية تقاطع جريدة التيمبو، المحروسة كما في كل يوم جمعة، بفصيلة من رجال الشرطة المسلحين كما لو أنهم في حالة حرب. لقد كان ذلك كشفاً أتاح لي عجرفة عدم الإيمان بخورخي غايتان؛ فقد أدركتُ فجأة، في تلك الليلة، أنه قد تجاوز البلد الذي خلفته إسبانيا، وأنه يخترع لغة صريحة للجميع. ليس من خلال ما تعنيه الكلمات بقدر ما هو بسبب الهياج الذي يبشّه، والدهاء الذي في صوته. لقد كان هو نفسه، في خطابه الملمحمة، ينصح مستمعيه بنبرة أبوية مآكرة، بأن يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فيترجموا نصيحته بصورة سوية على أنها أمر مشفر للإعراب عن رفضهم لكل ما يمثله التفاوت الاجتماعي وسلطة الحكومة الجائرة، وحتى رجال الشرطة أنفسهم الذين يتوجب عليهم حفظ النظام، كانوا يجدون تبريراً لأنفسهم، من خلال تنبيه بفسروته معكوساً.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة، سرداً مكشوفاً للأضرار والحسائر التي أحدثها العنف الرسمي، بانتهاج سياسة الأرض المحروقة من أجل تدمير المعارضة الليبرالية، وما أسفرت عنه من عدد لم يحدد بعد من القتلى على يد قوات الأمن العام في المناطق الريفية، وتحول سكان قرى بكاملها إلى لاجئين في المدن، دون سقف ودون خبز، وبعد تعداد مرعب للاغتبيالات وخرق القوانين، بدأ غايتان برفع صوته، متلذذاً بما يقوله كلمة كلمة، جملة جملة، بإعجاز بلاغي مبهرج وصائب. كان توتر الجمهور يتزايد على إيقاع صوته، حتى بلغ انفجاراً نهائياً في أجواء المدينة، ودوى عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

اندفعت الحشود الغاضبة إلى الشارع، في معركة حامية وغير دامية، وسط تسامح سري من جانب الشرطة. وأظن أنني فهمت أخيراً، في تلك الليلة، إحباطات جدي وتحليلات كاميلو توريس رستريبو الشاقبة. ما فاجأني هو أن طلاب الجامعة الوطنية بقوا منقسمين إلى ليبراليين وقوطيين (محافظين)، مع وجود حلقات شيوعية. ولكن الشغرة التي كان يشقها غايتان في البلاد لم تتجاوز ذلك. وصلت إلى النزول ذاهلاً من صدعة تلك الليلة، ووجدت زميلي في الغرفة يقرأ في سيره بسلام، كتاباً لأورتيغا آي غاسيت، فقلت له:

- لقد جئت متحولاً إلى شخص آخر جديد يا دكتور بيغا. فقد عرفت الآن كيف ولماذا كانت تبدأ حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز. بعد أيام قليلة من ذلك - في السابع من شباط ١٩٤٨ - أقام غايتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياتي: مسيرة حداد على ضحايا العنف الرسمي في البلاد الذين لم يُعرف عددهم، وقد شارك

فيها أكثر من ستين ألف امرأة ورجل يرتدون ملابس الحداد، ويرفعون رايات الحزب الحمر، ورايات الحداد الليبرالي السودا. وكان شعار المسيرة الوحيد هو: الصمت المطلق. وقد طُبق الشعار بدرامية لا يمكن تصورها، حتى في شرفات المنازل والمكاتب التي شهدت مرورنا عبر الإحدى عشرة كوادرا المزدهمة في الجادة الرئيسية. وكانت هناك إلى جانبي، امرأة تدمدم بترتيلة من بين أسنانها. فنظر إليها باستغراب رجل يسير بجوارها:

- أرجوك يا سيدتي.

فأصدرت المرأة زفرة أسف، وغرقت وسط بحر الأشباح الصامتة. ومع ذلك، فإن ما جرجرتني إلى حافة البكاء هو احترام الخطوات وهي تطلّ الأرض، وأنفاس المشهود في صمتها الحارق. لقد انضممت إلى المسيرة دون أية قناعة سياسية، يجتذبي فضول الصمت. وفجأة داهمتني عقدة البكاء الحبيسة في حنجرتي. ذلك الخطاب الذي ألقاه غايتان في ساحة بوليفار، من فوق شرفة دار البلدية، كان صلاة مآتية ذات شحنة انفعالية تبعث على القشعريرة. وعلى خلاف تنبؤات حزبه المشؤومة، أنهى خطابه بالشرط الأكثر ملاءمة لشعار المسيرة: ولم يكن هناك أي تصفيق.

هكذا كانت "مسيرة الصمت"، الأكثر إثارة للمشاعر، بين كل المسيرات التي جرت في كولومبيا. الانطباع الذي تبقى من تلك الأمسية التاريخية، بين المناصرين والمعادين، هو أن انتخاب غايتان صار أمراً محتملاً لا يمكن وقفه. وقد كان المحافظون يعرفون ذلك أيضاً، بسبب درجة التلوث التي بلغها العنف في كل أنحاء البلاد، وبسبب شراسة

شرطة النظام ضد الليبرالية العزلاء، وبسبب سياسة الأرض المحروقة. والتعبير الأكثر ضبابية عن حالة البلاد المعنوية، عاشه في عطلة نهاية الأسبوع تلك، من حضروا مصارعة الشبران في ميدان المصارعة في بوغوتا، حيث انقض جمهور المدرجات على الحلبة بسخط، وقد استثارته وداعة الثور وعجز المصارع عن الإجهاز عليه. فمزقت الحشود الغاضبة الثور حياً. صحفيون وكتاب كثيرون ممن عاشوا ذلك الرعب أو سمعوا به، فسروه على أنه العارض الأشد هولاً للغضب الهمجي الذي كان يعتمل في البلاد.

في مناخ التوتر العالي ذلك، افتتح في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أميركا، في الثلاثين من آذار، الساعة الرابعة والنصف مساءً. كان قد جرى تجديد شباب المدينة بكللفة باهظة، وبالرؤية الجمالية الباذخة لوزير الخارجية لاوريانو غوميث الذي كان، بحكم منصبه، رئيساً للمؤتمر. وحضره وزراء خارجية جميع بلدان أمريكا اللاتينية، وشخصيات بارزة من ذلك الزمن. وكان جميع السياسيين الكولومبيين البارزين ضيوف شرف، باستثناء وحيد وذو مغزى لخورخي إلسير غايتان، إذ أُلغيت دعوته، دون ريب، بالفيتو ذي المغزى الكبير الذي فرضه لاوريانو غوميث، وربما بعض القادة الليبراليين أيضاً، ممن كانوا يكرهونه لمهاجمته الأوليفارشية في كلا الحزبين. أما نجم القطب في المؤتمر فكان الجنرال جورج مارشال، مندوب الولايات المتحدة والبطل الأكبر للحرب العالمية المنتهية حديثاً، والمتألق كفتان سينمائي مبهز في قيادته إعادة أعمار أوروبا التي دمرتها الحرب.

ومع ذلك، فقد كان خورخي إلسير غايتان هو رجل اليوم، في

استجعت أنفاسي بصعوبة لأجتاز ، بأقصى سرعة ، جادة خيمينث دي كيسادا ، طائراً . ووصلت منقطع الأنفاس ، قبالة مقهى القط الأسود ، عند ناصية التقاطع مع الشارع السابع تقريباً . كانوا قد نقلوا الجريح للتر ، إلى المستشفى المركزي ، على بعد حوالي أربع كوادرات من المكان . وكان لا يزال حياً إنما دون أمل بالنجاة . وكانت هناك جماعة من الرجال يغمسون مناديلهم في بركة الدم الدافئ ، ليحتفظوا بها كأثر تاريخي . وزمجرت امرأة تضع مندبلاً أسود وتنشعل صندلاً ، كانت بين النساء اللواتي يبعن أشياء رخيصة في ذلك المكان ، وهي ترفع المنديل الدامي :

- لقد قتله أبناء العاهرة!

حاولت زهر ماسحي الأحذية ، المسلحين بصناديقهم الخشبية ، أن يحطموا الستارة المعدنية لصيدلية "تويفا غرانادا" ، حيث كان عدد قليل من رجال الشرطة قد احتجزوا المعتدي ، لحمايته من الجموع المتأججة غضباً . وكان هناك رجل طويل القامة ، شديد الثقة بنفسه ، يرتدي بدلة رمادية متفنة ، كما لو أنه في حفل زفاف ، يحرض الجموع بصرخات محسوبة جيداً . وقد كان لصرخاته مفعولها ، مما اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع ستارة الباب المعدنية ، خوفاً من أن يقدموا على إحراقها . أما المعتدي ، فقد انهيار هلعاً ، في مواجهة الحشد الغاضب الذي اندفع باتجاهه ، فتشبث بأحد رجال الشرطة ، وهو يتوسل دون صوت تقريباً :

- لا تدعهم يقتلوني أيها الشرطي .

لن أستطيع نسيانه إلى الأبد . كان شعره مشعثاً ، وذقنه لم تحلق منذ يومين ، يغطي وجهه شحوب الموت ، وعينه جاحظتان من الرعب .

الأخبار ، في ذلك التاسع من نيسان ، لأنه توصل إلى إصدار حكم بتبرئة الملازم خيسوس مارينا كورتيس بوييدا ، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارثا أوسا . كان قد وصل ممثلاً بالنشوة إلى مكتبه كمحام ، في التقاطع المزدهم للشارع السابع مع جادة خيمينث كيسادا ، قبل الساعة الثامنة صباحاً بقليل ، على الرغم من أنه كان قد بقي في المحاكمة حتى الفجر . وكانت لديه مواعيد عديدة للساعات التالية ، ولكنه تقبل فوراً ، الدعوة إلى الغداء التي وجهها إليه بلينيو ميندوتا نيرا ، قبل الساعة الواحدة بقليل ، مع ستة أصدقاء ، شخصيين وسياسيين ، ذهبوا إلى مكتبه لهشنته بالفوز الحاسم الذي لم تتصنك صحف ذلك اليوم من نشره . وكان بينهم طبيبه الخاص ، بيدرو إليسيو كروت ، وهو في الوقت نفسه أحد أفراد بطانته السياسية .

في ذلك الجو المتوتر ، جلستُ لتناول الغداء في قاعة الطعام ، في المنزل الذي أعيش فيه ، على بعد أقل من ثلاث كوادرات ، لم يكن الحساء قد قدم إلى بعد ، عندما وقف ويلفريدو ماتيو أمام المنضدة ، وقال لي :

- لقد تخوزقت هذه البلاد ؛ فقد قتلوا للتر غايتان ، قبالة "القط الأسود" .

كان ماتيو طالب طب وجراحة مثالياً ، ينحدر من سوكري مثل نزلاء آخرين في المنزل ، ويعاني من نوبات مشؤومة . وقد أخبرنا أقل من أسبوع ، بأشد نوباته هولاً وأقربها إلى الحدوث ، بسبب عواقبها المدمرة ، وهي احتمال أن يجري اغتيال خورخي إليسير غايتان . غير أن ذلك ما كان ليدهش أحداً ، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى التبرعات من أجل توقع حدوثه .

وكان يرتدي بدلة جوخ بنية مستخدمة طويلاً، ذات خطوط رأسية، وقد نزلت ياقنتها مع أول أعمال شدّ ومجاذب الجموع له. كانت رؤية خاطفة وأبدية، لأن ماسحي الأحذية انتزعوه من الشرطة بضربات صناديقهم، وأجهزوا عليه ركلاً بالأقدام. ومنذ تعثره الأول، فقد إحدى فرديتي حذائه. صرخ الرجل ذو البدلة الرمادية الذي لم تُحدد هويته قط:

- إلى القصر! إلى القصر!

انصاع له أشد الناس اندفاعاً. أمسكوا جسد القاتل الدامي وسحلوه في الشارع السابع، باتجاه ساحة بوليفار، بين آخر حافلات الترام التي عرقل الخبر مسيرها، مطلقين سباب وشتائم الحرب ضد الحكومة. ومن الأرصفة والشرفات، كانوا يحشونهم بالصرخات والتصفيق، بينما الجثة الممزقة بالضرب، تخلف تنفأً من الملابس والجسد على حجارة الشارع. انضم كثيرون إلى المسيرة، وخلال اجتياز أقل من ست كوادرات، صارت أشبه بانفجار حرب في اتساع حجمها وقوتها. ولم يبق على الجسد الممزق سوى سرواله الداخلي وفرده من الحذاء.

أما ساحة بوليفار التي أعيد تصميمها حديثاً، فلم تكن لها مهابة وجلال أيام الجمعية التاريخية الأخرى، فالأشجار جُردت من ملائكتيتها، ونصبت التماثيل الغظة المعبرة عن الجماليات الرسمية الجديدة. وفي مبنى الكابيتوليو الوطني (البرلمان)، حيث أقيم قبل عشرة أيام، مؤتمر عموم أمريكا، كان المندوبون قد غادروا لتناول الغداء. وهكذا واصلت الجموع مسيرها حتى قصر الرئاسة، وكان أيضاً بلا حراسة. وهناك تركوا ما تبقى من الجثة التي لم يعد عليها من الملابس، سوى مزق من السروال الداخلي وفرده الحذاء اليسرى وربطتي عنق لا تفسير لهما، معقودتين

عند العنق. بعد دقائق، وصل رئيس الجمهورية ماريانو أوسينا بيريث وزوجته لتناول الغداء، بعد أن افتتحا معرضاً للثروة الرعوية والماشية في بلدة إنغاتيغا. وكانا يجهلان حتى تلك اللحظة، خبر الاغتيال، لأن جهاز المذبح في السيارة الرئاسية، كان مطفأً.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق أخرى، مذهولاً من السرعة التي تتبدل فيها روايات الشهود، شكلاً ومضموناً، إلى أن تفقد أي تشابه لها مع الواقع. كنا في تقاطع جادة خيمينيث والشارع السابع، في الوقت الذي بلغ فيه تجمع الناس ذروته، على بعد خمسين خطوه من صحيفة التيمبو. وعرفنا عندئذ أن من كانوا يرافقون غايتان، عند خروجه من مكتبه، هم بيدرو إليسيو كروث، واليخانندرو بايخو، وخورخي باديا، وبيلينو ميندوتا نييرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لويث بومارينخو الأولى. وكان هذا الأخير هو من دعاهم إلى الغداء. لقد خرج غايتان من البناء الذي يوجد فيه مكتبه، دون أي نوع من الحراسة، وسط جماعة مترصة من الأصدقاء. وما إن بلغوا الرصيف، حتى أمسكه ميندوتا من ذراعه، وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

- ما أريد أن أقوله لك، هو أمر تافه.

لم يستطع قول المزيد. فقد غطى غايتان وجهه بذراعه، وسمع ميندوتا الطفله الأولى قبل أن يرى في مواجهتهم الرجل الذي سدد مسدسه، وأطلق النار ثلاث مرات على رأس الزعيم، ببرود أعصاب قاتل محترف. بعد لحظة من ذلك، كان هناك حديث عن طلقة رابعة أطلقت دون اتجاه، وربما عن خامسة أيضاً.

بيلينو ابوليو ميندوتا الذي وصل مع أبيه وأخته، إلفيرا وروسا

إنيس، تمكن من رؤية غايتان مطروحاً على ظهره على الرصيف، قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى. وقد أخبرني بعد سنوات من ذلك: "لم يكن يبدو ميتاً. كان أشبه بتمثال مهيب ممد على ظهره فوق الرصيف، بجوار بقعه دم صغيرة، وبحزن عظيم في عينيه المفتوحتين والثابتتين". في لحظات الاضطراب تلك، فكرت أخناه في أن أباها قد مات أيضاً، وكاتنا ذاهلتين إلى حد أن بيلينيو ابوليو صعد بهما إلى أول ترام مر من هناك، ليبعدهما عن المكان. لكن السائق أدرك ما حدث بالكامل، فألقى قبعته على الأرض، وغادر الترام في وسط الشارع، لينضم إلى صرخات التمرد الأولى. بعد دقائق كان ذلك الترام هو الأول الذي قلبته الحشود التي أصابها الجنون.

كانت هناك خلافات لا حل لها، حول عدد المشاركين في الاعتصام وأدوارهم؛ فقد أكد أحد الشهود أنهم كانوا ثلاثة، وتوالوا على إطلاق النار. وقال آخر إن القاتل الحقيقي قد اندس بين الجموع الهائجة، وصعد دون تسرع إلى ترام ساتر. ولم يكن ما أراد سيندوثا نيسيرا طلبه من غايتان، عندما اقتاده من ذراعه، أي شيء من الأشياء الكثيرة التي قبلت منذ ذلك الحين؛ وإنما أراد إبلاغه بمنحه الموافقة على إنشاء معهد لإعداد القادة الثقابيين. أو "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، مثلما سخر منه حموه قبل أيام من ذلك، ولكنه لم يتمكن من قول ذلك له، عندما دوت أمامهما الرصاصة الأولى.

بعد مرور خمسين سنة، ما زالت راسخة في ذاكرتي، صورة الرجل الذي بدا أنه يحرض الناس أمام الصيدلية، ولم أعثر عليه في أي واحدة من الشهادات الكثيرة التي قرأتها عن ذلك اليوم. لقد رأيته عن قرب،

بملايس من النوع الفاخر، وبشرة من المرمر، وسيطرة محكمة على تصرفاته. وقد لفت انتباهي إلى حد بقيت معه أتابعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً فور سحل جثة القاتل. ومنذ تلك اللحظة، بدا محمواً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي، إلى ما بعد سنوات طويلة، في أزمته عملي كصحفي، حين داهمتني فجأة فكرة أن ذلك الرجل قد تمكن من دفع الجموع إلى قتل قاتل مزيف ليخفي هوية القاتل الحقيقي.

وقد كان وسط تلك الفوضى المتفلتة من عقابها، القائد الطلابي الكريبي فيديل كاسترو، في العشرين من عمره، مندوباً عن جامعة هافانا إلى مؤتمر طلابي، انعقد كرد ديمقراطي على مؤتمر عموم أمريكا. كان قد حضر قبل حوالي ستة أيام، برفقة ألفريدو غينفارا، وإتريكي أوفارسيس، ورفائيل دل بيتو - وهم طلاب جامعيون كوبيون مثله - وكانت إحدى مساعبه الأولى، طلب موعد للقاء مع خورخي البيسير غايتان، وكان معجبا به. بعد يومين من وصوله، التقى كاسترو بغايتان، وحدث له هذا الأخير موعداً لمقابلته يوم الجمعة التالي. وقد سجل غايتان، شخصياً، هذا الموعد في مفكرة مكتبه، في الصفحة الموافقة ليوم التاسع من نيسان: "فيديل كاسترو، في الثانية بعد الظهر".

ووفق ما قاله فيدل نفسه لوسائل إعلام عديدة، وفي مناسبات مختلفة، وفي استعادتنا معاً، مرات لا حصر لها، لتلك الأحداث على امتداد صداقتنا القديمة، فقد سمع بأول خبر عن الجريمة، بينما كان يتجول قريباً من المكان، لكي لا يتخلف عن مواعده في الساعة الثانية. وفاقأته بغتة أول الجماعات التي كانت تركض غاضبة، ومطلقة الصيحة العامة:

- لقد قتلوا غايتان!

لم ينتبه فيديل كاسترو، إلا في ما بعد، إلى أنه ما كان يمكن له إنجاز مرعده، بأي حال من الأحوال، قبل الساعة الرابعة أو الخامسة، بسبب دعوة الغداء الطارئة التي قدمها ميندوثا نييرا لغايتان.

لم يكن هناك متسع لأي شخص آخر في موقع الجريمة. فقد كانت حركة المرور متوقفة، وعربات الترام مقلوبة، فتوجهت إلى النزول لأنهي غدائي، عندما اعترض طريقي أستاذي كارلوس هـ. باريخا أمام باب مكتبه، وسألني إلي أين أنا ذاهب، فقلت له:

- إنني ذاهب لتناول الغداء.

فقال بطلاقة الكاربية المتصادية:

- يا للعتة! كيف يخطر لك تناول الغداء، وقد قتلوا لتروهم غايتان؟

ودون أن يمنحتني وقتاً لقول أي شيء آخر، أمرني بأن أذهب إلى الجامعة، وأن أقف على رأس حركة الاحتجاج الطلابي. الغريب أنني انصعت له على خلاف طبيعتي. واصلت مسيرتي عبر الشارع السابع باتجاه الشمال، وهو عكس اتجاه الحشد الذي كان يتراكم نحو الناصية التي وقعت فيها الجريمة، بغضول وألم وغضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية، يفودها طلاب هائجون، تتقدم المسيرة، وفي حديقة سانتاندير، على بعد متر من ناصية الجريمة، كان الموظفون يغلغون بأقصى سرعة بوابات فندق غرانادا - أفخم فنادق المدينة -، حيث كان ينزل في تلك الأيام بعض وزراء الخارجية وضيوف مؤتمر عموم أمريكا.

راحت جمهرة جديدة أخرى من الفقراء، تبرز من كل النواصي، في وضع قتالي. كثيرون منهم جاؤوا مسلحين بمناجل مثشبتة سُرقَت للتو،

في أول هجمات على المشاجر. وكانت تبدو عليهم اللمهفة إلى استخدامهما. لم تكن لدي رؤية واضحة لنتائج الاغتيال المحتملة؛ وواصلت طريقي مفكراً في الغداء أكثر من تفكيري في الاحتجاج. وهكذا رجعت ثانية باتجاه النزول. صعدت الدرج قفزاً وأنا واثق من أن أصدقائي المسييين يقفون على أهبة الحرب، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كانت قاعة الطعام لا تزال مقفرة، وكان أخي وخوسيه بالنشيا - اللذان يقيمان في الغرفة المجاورة - يغنيان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم. فصرختُ بهم:

- لقد قتلوا غايتان!

أومؤوا إلي بأنهم يعرفون ذلك. ولكن مزاجهم جميعاً كان أقرب إلى الاحتفالية منه إلى المأتمية، ولم يقطعوا غناهم. بعد ذلك جلسنا لتناول الغداء في قاعة الطعام الحاوية، مقتنعين بأن الأمر لن يتجاوز الحد الذي بلغه، إلى أن رفع أحدهم صوت المذيع ليسمعه غير المباين. وأكد كارلوس هـ. باريخا، عبر المذيع، على ما كان قد نبهني إليه قبل ساعات؛ فأعلن أنه جرى تشكيل مجلس حكومي ثوري مكون من أبرز ليبراليي اليسار، ومنهم الكاتب والسياسي الأوسع شهرة، خورخي ثالامبسا. وكان أول اتفاق توصل إليه هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقياده الشرطة الوطنية وكل الأجهزة اللازمة للدولة الثورية. ثم تحدث بعد ذلك أعضاء اللجنة الآخرون بشعارات أكثر فأكثر تقادياً.

كان أول ما خطر لي، في وقار المهرجان، هو ما الذي يمكن لأبي أن يفكر فيه عندما يعلم، وهو المحافظ الصلب، أن ابن عمه هو الزعيم الأكبر لثورة اليسار المتطرف. فوجنت صاحبة النزول، خيال كثره أسماء

الأساتذة الجامعيين، ورأت أنهم لا يتصرفون كأساتذة، وإنما كطلاب
سيئي التربية. كان يكفي تجاوز رقمين على مؤشر المذيع، ليجد أحدها
نفسه في بلد مختلف. ففي الإذاعة الوطنية، كان دعاة الليبرالية يدعون
إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى يحرضون ضد الشيوعيين الموالين
لموسكو، بينما كبار زعماء الليبرالية الرسمية يتحدون أخطار الشوارع
التي في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي ليتفاوضوا
على تسوية وحدة مع الحكومة المحافظة.

بقينا حائرين من تلك البلبلة الجنونية إلى أن صرخ ابن صاحبة
النزل، فجأة، بان البيت يحترق. وبالفعل، كانت قد انفتحت شق في الجدار
الرخامي في أقصى البناء، وبدأ دخان أسود كثيف يخلخل هواء غرف
النوم. لا شك أنه كان يأتي من مبنى الإدارة الحكومية - المجاور للنزل -
الذي أحرقه المتظاهرون. ولكن الجدار بدا قوياً بما يكفي للصدور. وهكذا
نزلنا الدرج قافزين، ووجدنا أنفسنا وسط مدينة في حالة حرب. كان
المهاجمون المندفعون يلقون من نوافذ المبنى الحكومي، كل ما يجدونه في
المكاتب. وكان دخان الحرائق يعبق في الهواء، وبدت السماء المكفهرة
بالدخان كأنها غطاء مشؤوم. بينما كانت الشراذم الغاضبة، المسلحة
بمناجل المتشيتي وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات المخردوات،
تنقض على متاجر الشارع السابع والشوارع المجاورة، وتضرم فيها
النار، بمساعدة رجال الشرطة المتمردين. وكانت نظرة آنية واحدة، كافية
لندرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة. وسبق أخي تفكيرى، مطلقاً
صرخة:
- يا للجنة! الآلة الكاتبة.

ركضنا باتجاه بيت الرهونات الذي ما زال سليماً، وبوابته ذات
القضبان الحديدية محكمة الإغلاق. ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في
المكان الذي كانت فيه دائماً. لم نلق، وفكرنا في أنه يمكننا استعادتها
في الأيام التالية، دون أن يدور في خلدنا أنه لن تكون هناك، بعد تلك
الكارثة الفظيعة، أية أيام تالية.

اكتفت حامية بوغوتا العسكرية بحماية المراكز الرسمية والمصارف.
وبقي الأمن العام على عاتق لا أحد. تحصن عدد كبير من كبار قادة
الشرطة في مقر الفرقة الخامسة، منذ الساعات الأولى، ولحق بهم الكثير
من رجال شرطة الشوارع، مع شحنت أسلحة جمعوها من الطرق. وقد
أطلق بعضهم، وكانوا يضعون عصاة المتمردين الحمراء على أذرعهم،
زخات من رصاص يتأدهم قريباً منا؛ فأحسستُ بها تدوي في صدري.
ومنذ ذلك الحين صرت على قناعة بأنه يمكن للبندقية أن تقتل بالذوي
وحده.

لدى رجوعنا من بيت الرهونات، رأينا اجتياح وتدمير متاجر الشارع
الثامن في دقائق. وكانت تلك هي أغنى المتاجر في المدينة. المجوهرات
الشمعية، والأجواخ الإنكليزية، وقبعات بوند مسترث التي كنا، نحن
الطلبة الساحلين، ننظر إليها بإعجاب في واجهات المتاجر البعيدة عن
متناولنا، صارت جميعها حينذاك، في متناول يد الجميع. أمام الجنود
غير المباليين الذين يحرسون المصارف الأجنبية. وكان مقهى سان مارينو
الراقي، حيث لم نستطع الدخول قط، مفتوحاً ومخرباً، ولأول مرة دون
البوابين ذوي السموكينغ الذين كانوا يبادرون إلى منع الطلاب الكاربيين
من الدخول.

بعض من كانوا يخرجون محمليين بالملابس الفاخرة، ولفائف أقمشة الجوخ الكبيرة على أكتافهم، لا يلبثون أن يتركوها في الشارع. التقطت واحدة منها، دون أن يخضر لي أنها ثغيلة إلى ذلك الحد، واضطرت إلى الصخلى عنها بالرغم من ألم روحي. كنا نتعشر في كل مكان، بأجهزة منزلية ملقاة في الشارع. ولم يكن من السهل المشي بين زجاجات ويسكي من أفخر الأصفاف، وكل أنواع المشروبات الغريبة التي كان المجموع تذبحها بضربات المشيشي. وجد أخي لويس إنريكي وخوسيه بالينشيا ما تبقى من نهب أحد متاجر الثياب الجيدة، وكانت بينها بدلة زرقاء، سماوية من قماش جيد جداً، ومناسبة تماماً لمقاس والذي الذي استخدمها طوال سنوات في المناسبات المهمة. أما غنيمتي الوحيدة التي وفرتها لي العناية الإلهية، فكانت حافظة أوراق من جلد البقر، وجدتها في أعلى قاعة شاي في المدينة. وقد أفادتني في حمل مخطوطاتي تحت إبطي، خلال لبالي السنوات التالية الطويلة التي لم أكن أجد فيها مكاناً أنام فيه.

كنت أمضي مع جماعة تشق طريقها في الشارع الثامن، متوجهة إلى الكابيتوليو، عندما كنست زخة من رصاص رشاش، أولاً من أطلوا على ساحة بوليفار. القتلى والجرحى الذين سقطوا فوراً متكومين في منتصف الشارع، جعلونا نتوقف فجأة، خرج زاحفاً من ذلك الكوم، محتضراً مضرج بالدماء، وأمسك بساق بنطالي، وصرخ بتوسل مؤثر يمزق القلب:

- حباً بالرب أيها الشاب، لا تتركني أمت!

هربت خائفاً. ومنذ ذلك الحين تعلمت نسيان أهوال أخرى، خاصة بي أو بالآخرين؛ ولكنني لن أنسى أبداً خذلان تينك العينين في وميض

المحراق. ومع ذلك، ما زال يفاجئني أنني لم أفكر لحظة واحدة، أنه كان يمكن لنا، أنا وأخي، أن نموت في ذلك الجحيم الذي تداخلت فيه المواقع. كان المطر قد بدأ بالهطول متقطعاً، منذ الساعة الثالثة بعد الظهر. ولكنه انفلت بعد الخامسة في وابل توراتي أطفأ الكثير من المحراق الصغرى، وخفف من حدة اندفاع التمرد. عمدت حماية بوغوتا ضئيلة العدد إلى تفكيك غضب الشوارع، لعجزها عن مواجهته. ولم يتم تعزيزها إلى ما بعد منتصف الليل، بقوات طوارئ من المقاطعات المجاورة، وبخاصة من بويكافا، ذات السمعة السيئة، باعتبارها مدرسة العنف الرسمي. وكانت الإذاعة حتى ذلك الحين تحت ومحض، ولكنها لا تقدم أخباراً. ولهذا لم يكن هناك منشأ أصلي لأي نيا. وكان من المستحيل معرفة الحقيقة. عند الفجر، استعادت القوات التي أحضرت حديثاً، السيطرة على المركز التجاري الذي دمرته المجموع، ولم يبق فيه وسيلة إنارة سوى المحراق. ولكن المقاومة المسيسة تواصلت لعدة أيام بعد ذلك، مع وجود قناصين متمركزين في الأبراج وعلى الأسطح. أما عدد القتلى في تلك الساعة، فكان لا يحصى.

عندما رجعنا إلى المنزل، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من معظم أجزاء مركز المدينة. وكانت هناك حافلات ترام مقلوبة، وأنقاض سيارات تستخدم كمباريس عارضة. دستنا في حقيبة، أشياء القليلة التي تستحق أن تحمل، ولم أنتبه إلا في ما بعد، إلى أنه يقبت لي هناك مسودة قصتين أو ثلاث قصص قصيرة غير منشورة، ومعجم الجد الذي لم أسترده قط، وكتاب دوجين ليرسيو الذي تلقينته كمكافأة، في سنة دراسي الثانوية الأولى.

الشيء الوحيد الذي خطر لنا، أنا وأخي، هو طلب اللجوء في بيت الخال خوانيتو. وكان لا يبعد سوى أربع كوادرات عن المنزل. في شقة طابق ثانٍ، مؤلفة من صالة، وغرفة طعام وحجرتي نوم، حيث يعيش الخال مع زوجته وأبنائه إدواردو، ومارغريتا، ونيكولاس. وكان أكبرهم قد أمضى بعض الوقت معي في المنزل. كان المكان يكاد لا يتسع، إلا أن آل ماركيز كاببيرو كانوا طبيين إلى حد أنهم ارحلوا أماكن حيث لا مكان، حتى في غرفة الطعام، ليس لنا وحسب، وإنما كذلك للعديد من أصدقائنا وزملائنا في المنزل: خوسيه بالينشيا، دومينغو مانويل بيغا، كارميلو مارتينيث - جميعهم من سوكري - وآخرون كنا لا نكاد نعرفهم.

قبيل منتصف الليل بقليل، عندما توقف المطر، سعدنا إلى السطح لتشاهد المنظر الجهنمي للمدينة المضاة بقايا الحرائق. بدأ جبال مونيرات وغوادالوبي، في أقصى المشهد، مثل كتلتني ظلال على خلفية السماء الغائمة بالدخان. ولكن الشيء الوحيد الذي كنت ما أزال أراه في الغمام الكثيب هو الوجه الهائل للمحتضر الذي زحف نحوي ليتوسل مساعدة مستحيلة. كانت عمليات الصيد الشوارعى قد تقلصت، ولم يعد يُسمع في الصمت الرهيب، سوى صوت طلقات متفرقة من القناصين الكثيرين المنتشرين في كل أنحاء مركز المدينة، وجلبه القوات التي تصفي شيئاً فشيئاً بقايا المقاومة المسلحة أو العزلاء، للسيطرة على المدينة. وقد أعرب الخال خوانيتو، المتأثر بمشهد الموت، في زفرة واحدة عن مشاعر الجميع:

- ربا، يبدو هذا أشبه بحلم!

لدى الرجوع إلى الصالة المعتمة، انهرتُ على الأريكة. كانت النشرات الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم بانوراما عودة تدريجية إلى الهدوء. لم تعد هناك خطابات، ولكن لم يكن ممكناً التمييز بدقة بين الإذاعات الرسمية، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة المتمردين. وحتى هذه الأخيرة، كان من المستحيل تمييزها وسط وابل بريد الساحرات الجارف. قيل إن كل السفارات تغص باللاجئين، وإن الجنرال جورج مارشال يقيم في سفارة الولايات المتحدة، تحت حماية حرس شرف من المدرسة العسكرية. وقد التجأ لاوريانو غوميث كذلك إلى السفارة نفسها، منذ الساعات الأولى، وأجرى من هناك اتصالات هاتفية مع رئيسه، محاولاً الحيلولة دون دخول الرئيس في مفاوضات مع الليبرالين، في ظل وضع يتلاعب به، حسب رأيه، الشيوعيون. أما الرئيس السابق ألبيرتو بيراس، وهو يومذاك أمين عام اتحاد عموم أميركا، فقد نجا بحياته بأعجوبة، حين تم التعرف عليه وهو في سيارته غير المصفحة، عندما غادر مبنى الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على الموافقة على تنازل المحافظين عن السلطة وتسليمها بصورة شرعية. وعند منتصف الليل كان معظم المندوبين المشاركين في مؤتمر عموم أميركا، قد صاروا في أماكن آمنة.

ووسط الأخبار الكثيرة، أعلن أن غيبرمو ليون بالينشيا، ابن الشاعر الذي يحمل الاسم نفسه، قد رُجم بالحجارة حتى الموت، وأن جثته معلقة في ساحة بوليفار، ولكن فكرة أن الحكومة تسيطر على الوضع، بدأت تتضح عندما راح الجيش يستعيد محطات البث الإذاعي التي سيطر عليها المتمردون. وبدلاً من صرخات الحرب، صارت الأخبار ترمي عندئذ

إلى طمانة البلاد بعزاء أن الحكومة هي سيده الموقف، بينما كانت القيادات الليبرالية العليا تتفاوض مع رئيس الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أن الوحيدين الذين بدا أنهم يعملون بحس سياسي، هم الشيوعيون. وكانوا قلة ومتحمسين؛ فقد خرجوا إلى الشوارع وسط القوضى، ليوجهوا الحشود - مثل شرطة المرور - ويقودوها نحو مراكز السلطة. أما الليبرالية بالمقابل، فكشفت انقسامها إلى النصفين اللذين ندد بهما غايتان في حملته الانتخابية: القادة الذين يتفاوضون على حصّة من السلطة مع القصر الرئاسي، وجمهور منتخبهم الذين خاضوا المقاومة، كبقمما استطاعوا وإلى حيث استطاعوا، من فوق الأبراج والأسطح.

أول الشكوك التي برزت في شأن مقتل غايتان، كانت حول هوية قاتله، وليست هناك. حتى يومنا هذا، قناعة إجماعية بأن القاتل هو خوان روا سيبيرا، رجل المسدس المنفرد الذي أطلق النار عليه بين الحشود في الشارع السابع. وما يصعب فهمه هو أن يكون قد تصرف من تلقاء نفسه، مادام يبدو بلا ثقافة ذاتية تمكنه من اتخاذ قرار تلك الميثة المدعرة، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي ذلك المكان، وبتلك الطريقة نفسها. أمه إنكارناثيون سيبيرا. أرملة روا، وكانت آنذاك في الثانية والخمسين من عمرها، علمت من الإذاعة بمقتل غايتان، بظلمها السياسي. وكانت تصبغ أفضل ثوب لديها بالأسود من أجل الحداد. ولم تكن قد انتهت من عمل ذلك، عندما سمعت بأن القاتل هو خوان روا سيبيرا، الابن الثالث عشر بين أبنائها الأربعة عشر. لم يكن أي واحد

منهم قد تخطى المدرسة الابتدائية، وأربعة منهم - طفلان وطفلتان - ماتوا ميكراً.

وقد صرحت بأنها لاحظت، منذ حوالي ثمانية أشهر، تبدلاً غريباً في سلوك خوان. كان يتكلم وحييداً، ويضحك دون سبب. وفي إحدى المرات اعترف للأسرة باعتقاده بأنه تجسيد للجنرال فرانسيسكو دي باولا سانتاندير، بطل استقلالنا. ولكنهم ظنوا أنها مجرد دعابة سكير سيئة. لم يخطر لها قط أنه يمكن لابنها أن يسيء إلى أحد. وكان قد توصل إلى الحصول على توصيات من أناس يتمتعون ببعض النفوذ، من أجل الحصول على وظيفة. وكان يحمل واحدة من تلك التوصيات في محفظته، عندما قتل غايتان. وقبل ستة شهور من ذلك، كتب رسالة يخط يده إلى الرئيس أوسيبيو بيريث، يلتمس فيها أن يقابله ليطلب منه توفير عمل له.

أعلنت الأم للمحققين أن ابنها قد طرح مشكلته على غايتان شخصياً كذلك، ولكن هذا لم يمنحه أي أمل. لم يُعرف عنه أنه أطلق النار من سلاح في حياته، ولكن الطريقة التي استخدم به سلاح الجريمة، كانت أبعد ما تكون عن مبتدئ. فقد كان المسدس من عيار ٨٣، طويلاً، قديماً ومستهلكاً، إلى حد أن عدم انحراف أي طلقة عن هدفها، بدا مشيراً للدهشة.

أعرب بعض موظفي المبنى عن اعتقادهم بأنهم رأوه، عشية الاغتيال، في الطابق الذي توجد فيه مكاتب غايتان. وأكد البواب، دون أي مجال للشك، بأنه رآه صباح التاسع من نيسان يصعد السلالم، ثم ينزل بعد ذلك في المصعد مع شخص مجهول. وبدا له أن كليهما قد

انتظرا عدة ساعات بالقرب من مدخل المبني، ولكن روا كان وحيداً إلى جانب البوابة، عندما صعد غايتان إلى مكتبه، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل.

غابرييل ريستريبو، وهو صحفي في جريدة لآخورنادا - صحيفة حملة غايتان الانتخابية -، وضع قائمة بالوثائق الشخصية التي كان روا سبيرا يحملها عند اقتراف الجريمة. وهي لا تترك مجالاً للشك حول هويته ووضعه الاجتماعي. فقد كان في جيوب بنطاله، اثنان وثمانون سنتافو على شكل قطع معدنية مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه أشياء كثيرة، من مستلزمات الحياة اليومية، تكلف خمسة سنتافو. وكان يحمل في جيب سترته الداخلي، محفظة من جلد أسود، فيها ورقة نقدية من فئة البيزو الواحد. وكان يحمل كذلك، شهادة تؤكد حسن سيرته، وأخرى من الشرطة تشير إلى أنه بلا سوابق جنائية، ووثيقة تالفة عليها عنوانه في حي الفقراء الذي يسكنه: الشارع الثامن، الرقم ٣٠-٧٣. وحسب دفتر الخدمة العسكرية، كاحتياطي من الدرجة الثانية، الذي كان يحمله في الجيب نفسه، فهو ابن رافائيل روا وإنكارثايسون سيبيرا. وقد ولد قبل إحدى وعشرين سنة من ذلك: في الرابع من تشرين الثاني ١٩٢١. كل شيء كان يبدو عادياً، اللهم إلا كونه رجلاً ذا وضع باتس ودون سوابق جنائية، يحمل معه كل تلك الأدلة على حسن سيرته وسلوكه. ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي حُفِّفَ لدي أثره من الشك، لم أستطع تجاوزه أبداً، هو الرجل المتسائق ذو الملابس الجسيدة الذي حرص عليه الشراذم الغاضبة، ثم اختفى إلى الأبد، في سيارة فخمة. وسط جلبة المأساة، وبينما كان يجري تحنيط جثمان الزعيم المقتول،

اجتمعت قيادة الليبراليين في قاعة الطعام، في المستشفى المركزي، للاتفاق على صيغ طوارئ. وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحاً، هي التوجه إلى القصر الرئاسي، دون طلب مسبق، لمناقشة رئيس الدولة في صيغة طوارئ يمكن لها أن تدرأ خطر الكارثة التي تهدد البلاد. هدأ هطول المطر قبل الساعة التاسعة بقليل، وشق أول المندوبين الليبراليين طريقهم كيفما استطاعوا، عبر الشوارع التي حولتها الثورة الشعبية إلى أنقراض، وبين الجثث التي اخترقها رصاص القناصين الطائش من الشرفات والأسطح.

مع نهاية المساء، كان الرئيس قد فقد الاتصال مع أشد الأماكن حرجاً وخطورة. وكان يحاول مع قادة عسكريين ووزراء، وراء أبواب مغلقة، تقويم وضع الأمة. أخذته زيارة القادة الليبراليين على حين غرة، قبيل الساعة العاشرة ليلاً، ولم يشأ أن يقابلهم دفعة واحدة، وإنما كل اثنين منهم على حدة. ولكنهم صمموا أن آياً منهم لن يدخل بتلك الطريقة. فتنازل الرئيس، ولكن الليبراليين رأوا في الأمر مبرراً للباس.

وجدوه جالساً على رأس منضدة اجتماعات طويلة، ببذلة لا تشوبها شائبة، ودون أدنى ملمح من الجزع. وكان الشيء الوحيد الذي يشي ببعض التوتر، هو طريقته المتواصلة والشرهة، في التدخين؛ فكان في بعض الأحيان يطفئ السجارة وهي في منتصفها، لكي يُشعل واحدة أخرى. وقد أخبرني أحد الزائرين بعد سنوات من ذلك، عن الوقع الذي خلفه في نفسه وميض الحرائق المتعالية، وراء رأس الرئيس الفضي غير المبالئي. فقد كان جمر الأنقراض تحت السماء الملتهبة، يلمح من خلال واجهات المكتب الرئاسي الزجاجية الكبيرة، ممتداً حتى أطراف الدنيا. ما هو معروف عن ذلك الاجتماع، ندين به للقليل الذي رواه أبطاله،

المداخلة التالية قدمها دون لويس كاتو، المعروف جيداً ببريق حذره وتعقله. كان يحسن بمشاعر شبه أبوية تجاه الرئيس. واكتفى بعرض استعداده للقبول بأي قرار سريع وعادل يوافق عليه الرئيس أوسبينا، ويحظى بتأييد الأغلبية. فأكد له هذا الأخير على ضرورة التوصل إلى الإجراءات الضرورية للعودة بالأوضاع إلى حالتها الطبيعية؛ ولكن مع التمسك بالدستور دوماً. ثم ذكّرهم بسخرية غير مكبوحة تماماً، وهو يشير من التواضع إلى المجيم الذي يلتهم المدينة، بأن الحكومة ليست من تسببت بكل ذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على نقبض صحب وزير خارجيته لاوريانو غوميث، وغطسة آخرين من محازبيه المحافظين، الحبراء في الانتخابات المركبة. ولكنه أثبت في تلك الليلة التاريخية، أنه غير مستعد لأن يكون أقل منهم عناداً. وهكذا امتد النقاش حتى منتصف الليل، دون التوصل إلى أي اتفاق. وكانت تقطعه بين حين وآخر، زوجة الرئيس، دونيا بيرتا دي أسبينا، حاملةً إليه أخباراً مروعة، إلى هذا الحد أو ذلك.

كانت أعداد القتلى عندئذ لا تحصى في الشوارع. وكذلك أعداد القناصين الذين يتركزون في مواقع لا يمكن الوصول إليها، وأعداد الحشود التي أفقدها صوابها الحزن والغضب وأصناف الحمر الغالبية المسلوبة من المناجر الفخمة. كان مركز المدينة مهدماً، والحرائق ما زالت تشتعل قيد. كما هدمت أو أحرقت دكاكين بيع الكتب والأشياء الدينية، وقصر العدل، ودار الحكومة، وأبنية تاريخية أخرى كثيرة. لقد كان الواقع هو الذي يضيق، دون رحمة، دروب التوصل إلى اتفاق هادئ بين عدة رجال ضد رجل واحد، في جزيرة المكتب الرئاسي المعزولة.

واعترافات بعضهم السرية النادرة، وتخييلات آخرين الكثيرة، وإلى إعادة تركيب فئات ما جرى في تلك الأيام المشؤمة، على يد الشاعر والمؤرخ أرتورو ألابي، وهو الذي أتاح إلى حد كبير، تقاسم هذه المذكرات.

كان الزائرون هم: دون لويس كاتو، مدير جريدة الاسبينكتادور المسائية، وويلينو ميندوثا نبيرا الذي نشط ذلك الاجتماع، وثلاثة آخرون من أنشط قادة الليبراليين وأكثرهم فعالية: كارلوس بيراس ريسترينو، داريو إتشانديا، وألفونسو آراوخو. وفي سياق النقاش، دخل وخرج ليبراليون آخرون بارزون.

ووقفاً للاستذكارات الواضحة التي سمعتها، بعد سنوات، من بيلينو ميندوثا نبيرا، في منفاه الضجر، في كاراكاس، لم تكن لدى أي واحد منهم خطة جاهزة بعد. وكان هو نفسه الشاهد الوحيد بين الحضور، على عملية اغتيال غايتان. وقد روى ما جرى، خطوة خطوة بفنونه كراوٍ فطري وصحفي مزمّن. استمع إليه الرئيس باهتمام مهيب، ثم طلب في النهاية أن يعرب الزائرون عن أفكارهم من أجل حلّ عادل ووطني لذلك الوضع الطارئ المخطر.

فرد عليه ميندوثا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته البعيدة عن المجاملة، بأن تفويض الحكومة سلطاتها إلى القوات المسلحة، بسبب الثقة التي توليها إليها الشعب في تلك اللحظات. فقد كان وزيراً للحرب مؤخراً، في حكومة الليبرالي ألفونسو لوبث بوماريوخو، ويعرف العسكريين جيداً من الداخل، ويرى بأنهم هم وحدهم من يستطيعون إعادة الأمور إلى نصابها، ولكن الرئيس لم يوافق على واقعية هذه الصيغة، ولم يزيدها كذلك الليبراليون أنفسهم.

داريو إتشانديا، الذي ربما كان صاحب أعلى سلطة. لكنه بدأ أقل الحضور تكلماً. فقد اكتفى بتعليقين أو ثلاثة تعليقات ساخرة حول الرئيس، وعاد يلوذ بعلمه الضيائي. كان يبدو المرشح المؤكد للحلول محل أوسينا بيرث في رئاسة البلاد. ولكنه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً يجعله جذباً بالنصب أو يجنبه إياه. أما الرئيس الذي اعتبر محافظاً معشداً، فقد صار يبدو أقل فاقلاً اعتدالاً. لقد كان حفيد وابن أخي رئيسين سابقين في قرن واحد، ورب أسرة، ومهندساً متقاعداً، ومليونيراً منذ الأزل، فضلاً عن أشياء أخرى كان يمارسها دون أدنى ضجيج. حتى إنه كان يقال، دون الاستناد إلى أي أساس، إن من يحكم في الواقع، سواء في البيت أو في القصر، هي زوجة الرئيس التي امتشقت السلاح. ومع ذلك، انتهى الرئيس إلى القول، بسخرية فظة، إنه لا يجد غمضة في تقبل الاقتراح، غير أنه يشعر بالراحة في قيادته الحكومة من المقعد الذي يجلس عليه بمشيئة الشعب.

كان يتكلم مستقرباً، دون شك، بخبر لا يعرفه الليبراليون: فهو مطلع تماماً وبدقة على الوضع الأمني العام في البلاد. وكان يعرف ذلك طوال الوقت، من خلال المرات العديدة التي خرج فيها من المكتب للحصول على معلومات معقدة. لم تكن حامية بوغوتا تزيد على الألف رجل. وكانت هناك أخبار خطيرة إلى هذا الحد أو ذاك، تصل من كل القطاعات. إلا أن كل شيء لا يزال تحت السيطرة، إضافة إلى وراء القوات المسلحة. وفي مقاطعة بوبابكا المجاورة، المشهورة بتيارها الليبرالي التاريخي، وتيارها المحافظ الشرير، لم يكن حاكم المقاطعة خوسيه مازيا بياريال - وهو قوطي قلياً وقالياً - قد أفلح في قمع

أعمال الشغب المحلية، منذ وقت مبكر وحسب، وإنما راح يرسل قوات أفضل تسليحاً لإخضاع العاصمة. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان الرئيس يحتاج إليه، هو إلهاء الليبراليين باعتداله المحسوب جيداً، بالتكلم قليلاً والتدخين ببطء. لم ينظر في أي لحظة إلى ساعته، ولكنه كان يقدر جيداً دون ريب، الوقت الذي ستكون فيه المدينة محمية جيداً. بقوات المدد الإضافية والمجربة في أعمال القمع الرسمي.

وبعد تبادل طويل لصيغ تجريرية، اقترح كارلوس بيراس ريسترينو الصيغة التي اتفق عليها القادة الليبراليون في المستشفى المركزي، واحتفظوا بها كوسيلة أخيرة قصوى: الاقتراح على الرئيس بأن يسلم السلطة إلى داريو إتشانديا، في سبيل الوئام السياسي والسلام الاجتماعي. ولا بد أن الفكرة كانت ستلقى القبول دون تحفظ، من جانب إدواردو سانتوس وألفونسو لوبيث بوماريوخو، الرئيسين السابقين اللذين يتمتعان برصيد سياسي كبير، ولكنهما كانا خارج البلاد في ذلك اليوم. ومع ذلك، فإن إجابة الرئيس التي قالها بالبطء نفسه الذي كان يدخن به، لم تكن ما يرجى انتظاره منه. فهو لم يبذل تلك الفرصة ليكشف عن طبعه الحقيقي، وكان من يعرفونه قلقة حتى ذلك الحين. فقد قال إن الأمر المريح له ولأسرته، هو التخلي عن السلطة والعيش في الخارج، على ثروته الشخصية، بعيداً عن الهموم السياسية، إلا أن ما يقلقه هو ما يمكن أن يعنيه للبلاد، خروج الرئيس المنتخب هارباً من منصبه ومسؤولياته. فالحرب الأهلية ستكون حتمية عندئذ. ورجال إلحاح جديد من جانب بيراس ريسترينو، حول تخلي الرئيس عن السلطة، سمح هذا الأخير لنفسه بالتذكير بواجبه في الدفاع عن الدستور والقوانين،

وبأنه يعاهد وطنه فقط على ذلك، وإنما عاهد عليه أيضاً ضميره والله. وعندئذ نطق، كما يقال، بالجملة التاريخية التي يبدو أنه لم يقلها قط. ولكنها بقيت مسجلة باسمه إلى أهد الأبدين: "الديمقراطية الكولومبية تنتفع برئيس ميت، أكثر من انتفاعها برئيس هارب".

لا يتذكر أي واحد من الشهود أنه سمعها من فمه، ولا من قم أي شخص آخر. وقد نُسبت مع مرور الزمن إلى موهوبين عديدين، بل نُوقشت كذلك مزايها السياسية، وقيمتها التاريخية. ولكن دون أن يُطرح رونقها الأدبي للنقاش قط، وقد صارت هذه الجملة، منذ ذلك الحين، هي العلامة المميزة لحكومة أوسينا بيريث، وأحد أعمدة مجدها. ووصل الأمر إلى نسبة صياغتها إلى صحفيين محافظين مختلفين، ووجدت مبررات أكبر لنسبتها إلى الكاتب السياسي المعروف، وزير المناجم والنفط الحالي، خواكين إدواردو مونسالقي. وكان موجوداً يومذاك في القصر الرئاسي بالفعل. ولكن ليس في قاعة الاجتماعات. وبقيت الجملة للتاريخ على أي حال، مقولة بلسان من كان عليه أن يقولها، في مدينة مدمرة، حيث بدأ الرماد يتجمد، وفي بلاد لن تعود أبداً لأن تكون هي نفسها.

ولكن كفاءة الرئيس وأهليته لم تتجلبا في ابتكار عبارات تاريخية، وإنما في إلهام الليبراليين بسكاكر منومة إلى ما بعد منتصف الليل، حين وصلت قوات النجدة الإضافية، لتقمع قرد العامة، وتفرض السلام المحافظ. عندئذ فقط، في الساعة الثامنة من صباح العاشر من نيسان، أيقظ داريو إتشانديا بكابوس أحد عشر رئيساً من الهاتف، وأبلغه بتعيينه وزير دولة في نظام مواساة من الحزبين. وعمد لاوريانو غوميث

المساء من هذا الحبل، والقلق على أمنه الشخصي، إلى السفر إلى نيويورك مع أسرته، بينما كانت الشروط متوفرة لتحقيق رغبته الأبدية في أن يكون رئيساً.

أما أحلام التحول الاجتماعي العميق الذي مات غايتان من أجلها، تلاشت كلها وسط أنقاض مدينة يتصاعد منها الدخان. وزاد عدد القتلى، ممن سقطوا في شوارع بوغوتا، وتواصل سقوطهم على يد القمع الرسمي في السنوات التالية، على المليون، فضلاً عن بؤس ونفي الكثيرين، وقبل وقت أبعد بكثير من بدء القادة الليبراليين، في الحكومة العليا، بالانتباه إلى أنهم قد جازقوا بدخول التاريخ، كمتواطئين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين على ذلك اليوم في بوغوتا، كان هناك اثنان لا يعرف أحدهما الآخر. ولكنهما سيكونان بعد سنوات من أعظم أصدقائي. أحدهما هو لويس كاردوتا أي أراغون، الشاعر والكاتب السياسي والأدبي الغواتيمالي. وكان يحضر مؤتمر عموم أميركا بصفته وزير خارجية بلاده ورئيس قدها. والآخر هو فيدل كاسترو. وقد اتهم كلاهما، فوق ذلك، في أحد الأوقات، بالتورط في أحداث الشغب. فقد قبيل عن كاردوتا أي أراغون تحديداً، إنه كان واحداً من المحرضين، مستتراً بأوراق اعتماده كمندوب خاص لحكومة خاكوبو أريينز التقدمية، في غواتيمالا. لا بد أن تدرك أنه لا يمكن لكاردوتا أي أراغون، وهو مندوب حكومة تاريخية، وشاعر كبير في لغتنا، أن يقدم أبداً على مثل تلك المغامرة الجنونية الطائشة. لقد كانت أشد الذكريات ألماً في كتاب مذكراته البديع، هي الاتهام الذي وجهه إليه إنريكي

قنوطه في تلك الشكنة المتردة حيث بدأ من المستحيل، فرض وجهة نظر
جماعية مشتركة.

قابل قادة الهامية وغيرهم من الضباط المتمردين، وحاول، دون
جدوى، إقناعهم بأن كل قوة تعتمد بشكنتها هي قوة مهدورة. اقترح
عليهم أن يخرجوا رجالهم للنضال في الشوارع، من أجل الحفاظ على
الأمن، ومن أجل نظام أكثر عدالة. وحشهم بكل أنواع السوابق
التاريخية، ولكنهم لم يسمعوا نصيحته، بينما كانت القوات والدبابات
الرسمية تطلق النار على الشكنة، وأخيراً قرر أن يربط مصيره بمصير
الآخرين.

وفي فجر، جاء بيلينو ميندوتا نيبيرا إلى مقر الفرقة الخامسة،
ومعه تعليمات من قيادة الليبراليين، للتوصل إلى استسلام سلمي، ليس
فقط للضباط والشرطيين المتمردين، وإنما كذلك للعديد من الليبراليين
العاديين الذين كانوا ينتظرون الأوامر للبدء بالتحرك. وخلال الساعات
الطويلة التي استغرقتها مفاوضات الاتفاق، بقيت راسخة في ذاكرة
ميندوتا نيبيرا، صورة ذلك الطالب الكويتي، المربوع والمحب للجدال، الذي
توسط عدة مرات، في المحادثات بين القياديين الليبراليين والضباط
المتمردين، ببعد بصر فاتح الجميع، ولم يعرف من هو إلا بعد عدة سنوات
من ذلك، لأنه رأى مصادفة في كاراكاس، في صورة فوتوغرافية من
صور الليلة الرهيبة، بعد أن كان فيدل كاسترو قد بدأ نضاله في جبال
سييرا مايبسترا في كوبا.

أما أنا فتعرفت عليه بعد إحدى عشرة سنة، عندما سارعتُ
بالذهاب كصحفي، لدى دخوله الظافر إلى هافانا، وتوصلنا مع مرور

سانتوس مونتيخو، الملقب "كاليبان"، في عموده المشهور في جريدة
إلتيمبو، "رقصة الساعات"، حين نسب إليه أنه مكلف رسمياً بمهمة
اغتيال الجنرال جورج مارشال. وقد بذل عدد من المتدربين إلى المؤتمر،
مساعيهم لكي تقوم الصحيفة بتصويب تلك الإشاعة الهذيانة المختلفة.
ولكن ذلك لم يكن ممكناً. أما جريدة السيفلو، لسان المحافظين الذين في
السلطة، فأعلنت في الرياح الأربع، بأن كاردوتا أي أراغون، هو
المحرض على الفتنة.

لقد تعرفتُ عليه بعد سنوات طويلة من ذلك، في مدينة مكسيكو،
مع زوجته ليا كوستاكووسكي، في بيته في كويواكان، المترع بصور
ذكرياته، والأكثر تجملاً بأعمال أصلية لرسامين من زمانه. وكنا نحن
الأصدقاء، نقضي هناك ليالي الأحد، في سهرات حميمة ذات أهمية بلا
مزامع. لقد كان يعتبر نفسه ناجياً من الموت، أولاً عندما تعرضت
سيارته لرصاص رشاشات القناصين، بعد ساعات قليلة من وقوع الجريمة،
ثم بعد أيام من ذلك، وكان قد تم القضاء على المتمرّد، عندما اعترض
طريقه سكير في الشارع، وأطلق النار على وجهه من مسدس استعصى
معه مرتين. وقد كان التاسع من نيسان موضوعاً متواتراً في أحاديثنا،
حيث كان يختلط الغضب بالحنين إلى السترات الضائعة.

وكان فيدل كاسترو بدوره، ضحية لكل أنواع الاتهامات العيشية،
بسبب بعض الأعمال المتصلة بوضعه كناشط طلابي. في تلك الليلة
السوداء، وبعد يوم رهيب بين الجموع الصاخبة، انتهى به المطاف إلى
ثكنة فرقة الشرطة الوطنية الخامسة، بحثاً عن طريقة يكون فيها مفيداً
في وضع حد لمذبحة الشوارع. ولا بد من معرفته لتصور ما كان عليه

الزمن، إلى صداقة شخصية صمدت عبر السنين، لما لا حصر له من العشرات. وفي أحاديثي الطويلة معه، حول كل ما هو إلهي وبشري، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً كثير التواتر، لا يتوانى فيدل كاسترو عن تذكره كأحد المآسي الحاسمة في تكوينه. وخاصة الليلة التي أمضاها في ثكنة الفرقة الحاسمة، حيث انتبه إلى أن معظم المتطرفين الذين يدخلون ويخرجون، كانوا يحطون من قيمة أنفسهم، في أعمال السلب والنهب، بدل أن يُصروا في ممارستهم، على ضرورة الإسراع في التوصل إلى حل سياسي.

بينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي قسمت تاريخ كولومبيا إلى قسمين، بقيت أنا وأخي على قيد الحياة، في الظلمات، مع اللاجئين الآخرين في بيت الخال خوانيتو. لم أع في أي لحظة آنذاك، أنني صرت كاتباً متدرباً، وأنتي سأحاول في أحد الأيام، أن أعيد، من الذاكرة، تركيب شهادتي عن الأيام الرهيبة التي كنا نعيشها. فقد كان همي الوحيد حينذاك هو أكثر الهموم دنيوية: إخبار أسرنا بأننا ما زلنا على قيد الحياة - حتى تلك اللحظة على الأقل - وأن نعرف في الوقت نفسه، أخبار أبويننا وأخوتنا، وخاصة أكبرهم، مارغوت وعائدا، الطالبتين الداخليتين بمدرستين في مدينتين بعبدتين.

لقد كان ملجأ الخال خوانيتو أشبه بمعجزة. وقد كانت الأيام الأولى شاقة بسبب تبادل إطلاق النار المتواصل، والافتقار إلى أية أخبار موثوقة. ولكننا، شيئاً فشيئاً، رحنا نرتاد المتاجر القريبة، وتمكنا من شراء أطعمة نأكلها. كانت الشوارع محتلة بقوات عسكرية لديها أوامر حازمة بإطلاق النار. تنكر خوسيه بالاثيوس الذي لا سبيل إلى إصلاحه

بملاص عسكرية، لكي يتجول دون قيود، معتمراً قبعة كشاف، وبطماق وجده في صندوق قمامة. وقد هرب بأعجوبة من أول دورة اكتشفته.

أخضعت محطات البث الإذاعي التجارية التي أسكنت قبل منتصف الليل، لرقابة الجيش. أما التلفزيون والهواتف البدائية والقليلة، فكانت محجوزة لقوات الأمن العام. ولم تكن هناك وسائل أخرى للاتصال. كانت صفوف الانتظار أبدية أمام مكاتب التلفزيون المزدحمة. ولكن محطات الإذاعة رتبت خدمة رسائل عبر الأنير، موجهة إلى من يحالفهم الحظ بالتقاط بثها. وقد بدت لنا هذه الوسيلة هي الأسهل والأضمن، وإليها توجهنا دون آمال كبيرة.

خرجت أنا وأخي إلى الشارع، بعد ثلاثة أيام من الحبس في البيت. كان المشهد مرعباً، فالمدينة تحولت إلى أنقاض، بدت غائمة وعكرة بالمطر المتواصل الذي خفف من استشراب الحرائق، ولكنه أحر استرداد المدينة. كثير من الشوارع كانت مغلقة بأعشاش القناصين، على أسطح مباني مركز المدينة. فكان لا بد من القيام بالتفافات بلا معنى، استجابة لأوامر الدوريات المسلحة، كما لو أنها في حرب عالمية. كانت رائحة الموت في الشوارع لا تطاق. ولم تتمكن شاحنات الجيش من تحميل أكوام الجثث المتراكمة على الأرصفة، فكان على الجنود أن يواجهوا جماعات اليانسين الآتين للتعرف على جثث أقرانهم.

في أطلال ما كان المركز التجاري، لم تكن النتانة تسمح بالتنفس، حتى إن أسراً كثيرة اضطرت إلى التخلي عن البحث عن جثث مفقودها. وفي أحد أهرامات الجثث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بنطال. أما سترتها فلم تكن تشوبها شائبة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام، كان

الرماد لا يزال يطلق نشانة الأجساد التي لا أهل لها، متعفنة بين الأثقاض أو مكومة على الأرصفة.

وفي وقت لم يكن يخطر ببالنا، أوقفت أنا وأخي فجأة، بتهيشة بندقية مؤكدة وراء ظهرنا، وصوت يأمر بحزم:

- ارفعا أيديكما!

رفعتُ بدي دون تفكير، وقد جمدني الرعب، إلى أن أعادتني إلى الحياة، قهقهة صديقنا أنخل كاسيخ، وكان قد استجاب لنداء القوات المسلحة، باعتباره احتياطياً من الدرجة الأولى. وبفضلة تمكنا، نحن اللاجئين في بيت الخال خوانيتو، من إرسال رسالة عبر الأثير، بعد يوم من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية. سمع أبي الرسالة في سوكري، بين ما لا حصر له من الرسائل التي كانت تقرأ نهاراً وليلاً، طوال أسبوعين. أحسست أنا وأخي بأننا سنكون ضحية لا مفر منها، لنزوات الأسرة التخمينية، فبقينا خائفين من أنه يمكن لأمننا أن تفسر الخبر على أنه صدقة طمأنة من الأصدقاء، ريشما يهيشونها لما هو أسوأ. ولكننا أخطأنا في تفكيرنا قليلاً؛ إذ كانت أمننا قد حلت، منذ الليلة الأولى، بأننا نحن، ابنيها الكبيرين، قد غرقنا في بحر من الدم، خلال أعمال الشغب. ولا بد أنه كان كابوساً مقنعاً جداً، إلى حد أنها عندما عرقت الحقيقة عبر وسائل أخرى، قررت ألا تسمح لأحد منا بالعودة أبداً إلى بوغوتا، حتى لو اضطررنا إلى البقاء في البيت، والموت جوعاً. ولا بد أن ذلك القرار كان قاطعاً، لأن الأمر الوحيد الذي تلقيناه من أبونا في برقيتهما الأولى، هو السفر إلى سوكري، بأسرع ما يمكن، للبت في شأن المستقبل.

وفي توتر الانتظار، زين لي عدد من الزملاء، إمكانية مواصلة الدراسة في مدينة كارتاخينا دي إندياس، مفكرين بأن بوغوتا تستطيع الخروج من بين أنقاضها. ولكن البوغوتيين لن يشفوا أبداً من رعب المجزرة وهولها. وأخبروني بأن هناك في كارتاخينا، جامعة عريقة واسعة الشهرة، مثل أوابدها التاريخية، وكلية حقوق بالحجم الإنساني، سينظرون فيها إلى نتائج السينة في جامعة بوغوتا، على أنها جيدة.

لم أشأ استبعاد الفكرة، قبل أن أغليها أولاً، على نار حامية، ولا أن أذكرها لأبوي، قبل أن أذهب وأتأكد من ذلك، بنفسي. أخبرتهما فقط، بأنني سأسافر إلى سوكري بالطائرة عن طريق كارتاخينا، لأنه يمكن لنهر مجدلينا أن يكون طريقاً انتحارياً في ظل تلك الحرب الهامية. أما لويس إنريكي من جانبه، فأخبرهما بأنه سيسافر إلى بارانكيا للبحث عن عمل، بعد أن يصفى حساباته مع رب عمله في بوغوتا.

لقد كنتُ أعرف، على أي حال، أنني لن أصير محامياً في أي مكان. وما كنتُ أريده هو كسب قليل من الوقت لإلهاء أبي، ويمكن لكارتاخينا، بالتالي، أن تكون محطة فنية جيدة للتفكير في الأمر. ولكن ما لم يخطر لي على بال مطلقاً، هو أن تلك الحسابات العقلانية ستقودني إلى أن أقرر، وقلبي في بدي، أن ذلك هو المكان الذي أرغب في أن أوصل فيه حياتي.

الموصول في تلك الأيام، على خمسة أماكن في طائرة متوجهة إلى أي مكان على الساحل، كان واحدة من مآثر أخي، بعد الوقوف في صفوف انتظار لانهاية وخطرة، والركض من مكان إلى آخر، طوال يوم يكامله، في مطار طوارئ، وجد الأماكن الخمسة في ثلاث طائرات

مختلفة، ومواعيد غير مؤكدة، ووسط إطلاق نار وانفجارات غير مرئية. ثبتوا لي ولأخي، أخيراً، حجز مقعدين في الطائرة نفسها، إلى بارانكيآ. ولكننا غادرنا في النهاية، في طائرتين مختلفتين. كان رذاذ المطر والضباب المتواصلين في بوغوتا منذ يوم الجمعة السابق يعيقان برائحة البارود والأجساد المتفسخة. ومن البيت إلى المطار، جرى استجوابنا في حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما مرتبكين من الرعب. وعند الحاجز الثاني انبطحوا أرضاً وجعلونا نبطح مثلهم بسبب انفجار تلاء تراسق إطلاق نار من أسلحة ثقيلة، تبين بعد ذلك أنه تسرب غاز صناعي. وقد تفهمنا نحن المسافرين، ذلك عندما قال لنا أحد الجنود إن مسأسته هي في وجوده هناك منذ ثلاثة أيام، في توبة حراسة متواصلة، دون بديل؛ ولكن دون ذخيرة أيضاً، لأن الذخائر قد نفذت في المدينة. لم نكد نتجرأ على الكلام منذ أن أوقفونا. وقد جاء رعب الجو ليجهز علينا. ومع ذلك، بعد الإجراءات الرسمية للثبوت من الهوية وأسباب السفر، أحسنا بالعزاء حين علمنا أنه علينا البقاء هناك، دون الخضوع لأي إجراءات أخرى، إلى أن يقدادونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخنته، خلال الانتظار هو سيجارتين من السجائر الثلاث التي تصدق بها أحدهم عليّ. واحتفظت بالسيجارة الثالثة لتساعدني على تحمل رعب الرحلة.

وبما أنه لم تكن هناك هواتف، فقد كان الإعلان عن الرحلات، وعن التبدلات الطائرة الأخرى، يُعرف في مواقع المفارز العسكرية المتباعدة، بواسطة مراسلين عسكريين على دراجات نارية. في الساعة الثامنة صباحاً، استدعوا جماعة من الركاب للعودة فوراً إلى طائرة، غير

طائرتي، متوجهة إلى بارانكيآ. وقد علمتُ بعد ذلك أن أصدقائنا الثلاثة وأخي قد سافروا عبر موقع مفزرة عسكرية أخرى. كان بقائنا في الانتظار وحيداً، علاجاً حصارياً لحرفي الفطري من الطيران، لأن السماء في لحظة صعودنا إلى الطائرة، كانت مليدة برعود وعرة. كما أن سلم طائرتنا كان قد نُقل إلى طائرة أخرى. فاضطر جنديان إلى مساعدتي على الصعود، باستخدام سلم بئآ. وكان ذلك في المطار نفسه، والساعة نفسها التي صعد فيها فيدل كاسترو إلى طائرة أخرى متوجهة إلى هافانا، محملة بشيران مضارعة - مثلما أخبرني هو نفسه، بعد سنوات من ذلك.

ومن حسن - أو سوء - الحظ، أن طائرتي كانت من نوع DC-3، تعقب برائحة طلاء طري وتشحيم حديث، دون أنوار فردية، وبلا تهوية منتظمة في كابينة الركاب. وكانت قد أُعدت لنقل قوات عسكرية؛ فيدلاً من مقاعدها الثلاثية المتالية، كما في الرحلات السباحية، كان هناك مقعدان طوليان من ألواح خشبية عادية، مثبتة جيداً بالأرضية. وكانت كل أمتعتي في حقيبة واحدة من الكتان، فيها غياران أو ثلاثة غيارات من الملابس المتسخة، وكتب شعر وقصاصات من ملاحق أدبية تمكن أخي لويس إنريكي من إنقاذها. جلسنا نحن الركاب، في صفين متقابلين يمتدان من كابينة القيادة حتى الذيل. وبدلاً من أحزمة الأمان، كان هناك حبلان من القنب المستخدم في ربط السفن، يشكلان حزامي أمان طويلين جماعيين، في كل جانب. أما أقمسي ما حدث لي، فهو أنني ما كدت أشعل السيارة الوحيدة التي استبقيتها لتساعدني على اجتياز الرحلة، حتى أعلن لنا الطيران من كابينته بأنه ممنوع علينا

التدخين، لأن خزانات وقود الطائرة موجودة عند أقدامنا، تحت أرضية الألواح الخشبية، فكانت ثلاث ساعات من الطيران غير النهائي.

توافق وصولنا إلى بارانكيًا، مع هطول مطر من ذاك الذي لا يهطل إلا في نيسان، مع وجود بيوت منبوثة من جذورها، يجرفها التيار في الشوارع، ومرضى متوحدين يغرقون في أسرهم. فكان علي أن أنتظر توقف المطر، في المطار المضطرب من الفيضان. وتوصلت بصعوبة إلى معرفة أن طائرة أخي ومرافقيه قد وصلت في موعدها. ولكن الثلاثة سارعوا إلى مغادرة المطار قبل أول عود وإبل المطر الأول.

احتجت إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر. ولم أستطع اللحاق بالحافلة الأخيرة التي خرجت إلى كارتاخينا، قبل موعدها، بسبب اقتراب العاصفة. لم أشعر بالقلق، لأني ظننت أن أخي كان هناك. ولكنني أحسست بالخوف على نفسي، حيال فكرة اضطراري لقضاء ليلة دون نقود في بارانكيًا. وأخيراً، حصلتُ بفضل خوسيه بالينثيا، على مدجاً طوارئ في بيت الأختين الجميلتين إبلسي وليلا ألبارثيا، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، سافرتُ إلى كارتاخينا، في حافلة وكالة البريد المخلعة. أما أخي لويس إنريكي فسبقى بانتظار العثور على عمل في بارانكيًا. لم يبق لي أكثر من ثمانية بيرويات، ولكن خوسيه بالاثيوس وعدني بإحضار بعض النقود الأخرى لي، في حافلة الليل. لم أجد مكاناً شاغراً في الحافلة، ولا حتى وقفاً على الأقدام. ولكن السائق وافق على حمل ثلاثة ركاب على السطح، جالسين على أمتعتهم وحمولتهم، وبربع قيمة التعرّف النظامية. في ذلك الوضع الغريب، وتحت الشمس الساطعة، أظن أنني أدركت أن ذلك التاسع من نيسان لعام ١٩٤٧، هو بداية القرن العشرين في كولومبيا.

في نهاية رحلة من الارتجاج والمخضخضة المميتة، عبر طريق للبالغ، أطلقت حافلة وكالة البريد آخر أنفاسها، في مكان يليق بها، متوقفة في مستنقع أشجار مانغلي نقي ذي أسماك متعفنة، على بعد نصف فرسخ من كارتاخينا دي إندباس. وتذكرتُ بذاكرة جدي: "من يسافر في الحافلة، لا يدري أين يموت". الركاب المخبولون، بعد ست ساعات من الشمس العارية ورائحة عفونة المستنقع، لم ينتظروا إنزال السلم لكي يترجلوا، بل سارعوا يلقون، من فوق الحافة، بأقفاص الدجاج، وحزم الموز وكل أصناف مواد البيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الحافلة. قفز السائق من مقعده وأعلن بصرخة لاذعة:

- البطلة!

وهذا هو الاسم الرمزي الذي تُعرف به مدينة كارتاخينا دي إندباس، لأمجادها الغابرة. ولا بد أن المدينة كانت هناك، ولكنني لم أرها، لأني كنت أكاد لا أستطيع التنفس، في بدلة الجوخ السوداء التي أرديتها منذ التاسع من نيسان. أما البدلتان الأخريان اللتان كانتا في خزانتني، فلقبتي المصير نفسه الذي لقبته الآلة الكاتبة في محل رهونات "مونتني دي بيداد". إلا أن الرواية الجديرة بالاحترام التي قدمتها لأبوي، هي أن

الألة الكاتبة، وأشياء شخصية أخرى غير ذات قيمة، قد اختفت مع الملابس، في فوضى الحريق. السائق المتفطرس الذي سخر، خلال الرحلة، من مظهري كقطاع طريق، أوشك على التفجر بهجة، عندما واصلت الدوران حول نفسي، دون أن أعثر على المدينة. فصرخ بي، ليُسمع الجميع:

- إنها في طيزك! وكن حذراً، فإنهم هناك يقلدون أوسمة للحمقى. وبالفعل، كانت كارتاخينا دي إندياس في مكانها، وراء ظهري، منذ أربعمئة سنة. ولكنني لم أستطع تصور أن تكون على بعد نصف فرسخ من منبت أشجار المانغلي، متوارية وراء السور الأسطوري الذي أبقاها بمنجى من الوثنيين والقراصنة، في سنوات عظمتها. وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء تحت أجسام ملتفة من الأغصان المشعثة، وصفوف طويلة متدلّية من أزهار الجرس الصفراء. انضمتُ إلى جلبة المسافرين الآخرين، وسحبتُ الحقيبة عبر دغل تغطي أرضه سرطانات حية، تتهشم دروعها القشرية كأنها المفرعات تحت تعال الأحذية. كان من المستحيل، ألا أتذكر عندئذ، صرة الأمتعة التي ألقى بها رفاقي إلى نهر مجدليتا، خلال رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي جرّجته عبر نصف البلاد، وأنا أبكي من القهر، في سنواتي الأولى في المعهد، ثم ألقيت به أخيراً في أحد مهاوي جبال الأنديز، على شرف إنهائي الدراسة الثانوية. لقد بدا لي، على الدوام، أن هناك شيئاً غريباً في قدري، في تلك الحملات الزائدة التافهة. ولم تكف سنوات حياتي الطويلة لتفتيد ذلك الإحساس.

ما إن بدأنا نلمح بروفييل بعض قباب الكنائس والأديرة في غبش

الغروب، حتى خرجت للقائنا عاصفة خفافيش تطير فوق رؤوسنا، ولا تطرحنا أرضاً بفضل حكمتها فقط. كانت أجنحتها تنز مثل دوي الرعد، مخلقة وراءها نثانة قاتلة. أربعتني المفاجأة، فأفلتُ الحقيبة وتكورت على نفسي، فوق الأرض، حامياً رأسي بذراعي، إلى أن صرخت بي امرأة متقدمة في السن، كانت تمشي بجانبني:

- صلُ صلاة التعظيمة!

وهي تعني تلك الصلاة السرية، للتخلص من هجمات الشيطان، المكروهة من الكنيسة، ولكنها مكرسة من قبل كبار الملحدين، عندما لا يجدون ما يكفي من التجديف. انتهت المرأة إلى أنني لا أعرف كيف أصلي، فأمسكت حقيبتني من حزامها الآخر، لتساعدني في حملها. وقالت لي:

- صلُ معي. ولكن عليك أن تفعل ذلك بإيمان كبير.

وهكذا راحت تلمي عليّ التعظيمة بيتاً قبيئاً، فرددها بصوت عالٍ، ويورج لم أعد إلى الشعور بمثله قط. تلاشى حلق أجنحة الخفافيش، وإن كنتُ أجد اليوم مشقة في تصديق ذلك، واختفت جميعها من السماء، قبل أن تنتهي من الصلاة. ولم يعد يُسمع عندئذ، سوى صخب البحر المدوي في وهاد الشاطئ.

كنا قد وصلنا إلى بوابة الساعة الكبرى. لقد كان هناك، منذ مئة سنة، جسر متحرك يصل المدينة القديمة بضاحية جشيمانتي وبحي الفقراء المزدحم في منابت أشجار المانغلي، ولكنهم كانوا يرفعون الجسر، منذ التاسعة ليلاً حتى فجر اليوم التالي. فيبقى الأهالي معزولين، ليس عن بقية العالم وحسب، وإنما عن التاريخ أيضاً. ويقال إن الإسبان قد أقاموا

ذلك الجسر، خوفاً من أن يتسلل إليهم فقراء الأرياض في منتصف الليل، لينذبحوهم وهم نائمون. ومع ذلك، فقد بقي للمدينة شيء من أبهتها، لأن خطوة واحدة خطوتها داخل الأسوار، كانت كافية لرويتها، بكل عظمتها، على ضوء الساعة السادسة مساءً، الحجازي. ولم أستطع كبح إحساسي بأنني قد ولدت من جديد.

هذا أقل ما يمكن أن يقال. ففي بداية ذلك الأسبوع، خلفت بوغوتا تنخبط في بركة من الدم والوحل، ولا تزال فيها أكوام جثث مجهولة الهوية، ومهجورة بين أنقاض يتصاعد منها الدخان. وفجأة، تغيرت الدنيا وصارت عالماً آخر في كارتاخينا. لم يكن هناك أي أثر للحرب التي تعصف بالبلاد. وقد وجدت مشقة في تصديق أن تلك الوحدة دون ألم، وذلك البحر غير المنقطع، وذلك الإحساس الفسيح بأنني قد وصلت، كانت تحدث لي في الحياة نفسها، بعد انقضاء أقل من أسبوع.

لكثرة ما سمعت من أحداث عنها، منذ ولادتي، تعرفت فوراً على الساحة الصغيرة التي كانت تتوقف فيها عربات الحبول، وعربات الحمولة التي تجرها الحمير، وفي أقصاها رواق القناطر، حيث تصيح السرق الشعبية أشد ازدحاماً وصخباً. ومع أنه لم يكن معترفاً به، على أنه كذلك، في الوعي الرسمي، إلا أن ذلك المكان هو القلب النابض الأخير للمدينة، منذ أصولها، فخلال العهد الاستعماري، سمي "ميدان التجار". ومن هناك كانت تحرك الحبوط غير المرئية لتجارة العبيد، وتتأجج المشاعر بالحماس ضد السيطرة الإسبانية. ثم سمي، فيما بعد، "ميدان الكتبة العموميين"، بسبب الخطاطين قليلي الكلام الذين كانوا يرتدون صدارات من الجوخ، وأكماماً مستعارة، ويكتبون رسائل حب،

وكل أنواع الوثائق لغبر المتعلمين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب مستعملة من تحت الطاولة، وخاصة الكتب التي تدينها محاكم التفتيش. ويُعتقد بأنهم كانوا متنبئين بمؤامرات الكريوليين المحليين ضد الإسبان. وقد اعتاد أبي، في مطلع القرن العشرين، أن يخفف من غلواء اندفاعه الشعري، في فن كتابة رسائل الحب في تلك الساحة، والواقع أنه لم يزدهر في هذا العمل أو ذاك، لأن بعض الزبائن الماكرين - أو البائسين حقاً - لم يكونوا يكتبون بطلب كتابة الرسائل كصدقة، وإنما يظهرون منه كذلك خمسة ريالاً لدفع أجور البريد.

قبل عدة سنوات، كان المكان يسمى "ميدان الحلويات"، بمظلاته العفنة، والمتسولين الذين يأتون ليأكلوا فضلات السرق، وصرخات عرأفي الهنود المشؤومة الذين يتقاضون أجراً غالباً مقابل امتناعهم عن إطلاق الزبون على يوم وساعة موته. وكانت سفن الكاربيبي الشراعية تتأخر في الميناء، لشراء حلويات ذات أسماء تخترعها لها النساء اللواتي يصنعنها، وينظمنها الساعة المتأدبون في ندوات مغناة: "البسكويت المحشو بمهلبية ولوز، مأكول القروود" أو "حلو الشوكولاته للرضع المصابين" أو "حلو جوز الهند للمجانين"، أو "بسكويت الفانيلا لمانويلا". وهكذا ظلت الساحة، في الحير والشر، مركز المدينة الحسوي، حيث تُكشف أسرار الدولة من وراء ظهر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي تعرف فيه بائعات المعجنات المقلبة، من سيكون حاكم المقاطعة القادم، قبل أن يخطر ذلك لرئيس الجمهورية في بوغوتا.

بهزني اللفظ والصخب على الفور، فشقت طريقي متعشراً، وأنا أجر حقيبي بين جموع السادسة مساءً. كان هناك عجزو بأسمال ليس

في جسمه سوى العظم، ينظر إليّ، دون أن يرف له جفن، من فوق منصة
ماسحي الأحذية، بعيني باشق جامدتين. اعترض طريقي فجأة. فما إن
رأى أنني رأيتُه حتى عرض عليّ أن يحمل لي الحقيبة. شكرته، ولكنه
حدد بلسانه الأوموي ما يريدُه مقابل ذلك:
- ثلاثون جدياً.

مستحيل. ثلاثون سنتافو مقابل حمل حقيبة هو قضم للبيزوات
الأربعة الوحيدة المتبقية لدي. إلى أن ألتقى مدداً من أبوي في الأسبوع
التالي. فقلت له:
- هذا المبلغ يساوي الحقيبة وكل ما فيها.

أضف إلى ذلك، أن النزول الذي يجب أن تكون شلة بوغوتا فيه
ليس بعيداً جداً. رضى العجوز بثلاثة جديان، فعلق حول عنقه، صندله
الجلدي الذي كان ينتعله، وحمل الحقيبة على كتفه، بقوة لا تُصدق،
بالنظر إلى هشاشة عظامه، واندفع راكضاً مثل رياضي يقدمين عاريتين،
في متاهة بيوت كولونبالية متداخلة بفعل قرون من الإهمال. كاد قلبي
أن يطفئ خارجاً من فمي، على الرغم من سنوات عمري العشرين، وأنا
أحاول ألا يغيب عن ناظري، ذلك العجوز الأولمبي الذي لم تبق له
ساعات كثيرة في الحياة. وبعد اجتياز خمس كوادرات، دخل من بوابة
الفندق الكبيرة، وصعد درجات السلم، مثنى مثنى، ثم وضع الحقيبة على
الأرض، بأنفاس هادئة، ومدّ لي راحة يده:
- ثلاثون جدياً.

ذكّرته بأنني قد دفعت له أجره، ولكنه أصر على أن الثلاثة سنتافو
التي تقاضاها في الساحة لا تتضمن صعود الدرج. وأبدت كلامه

صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا: فأجرة صعود الدرج تُدفع على
حدة. وقدمت لي المرأة نبوة ستنتفعني مدى الحياة:
- سوف ترى أن كل شيء مختلف في كارتاخينا.

وكان عليّ أن أواجه كذلك الخبير السمين بأن أياً من أصدقائي، في
نزول بوغوتا، لم يصل بعد، على الرغم من أن هناك حجراً مؤكداً في
الفندق لأربعة أشخاص، بمن فيهم أنا. البرنامج الذي اتفقنا عليه هو أن
نلتقي في الفندق، قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم. ومع أن
تبديل الحافلة النظامية بحافلة وكالة البريد التعسة، قد أخرني ثلاث
ساعات، إلا أنني كنتُ أكثرهم جميعاً، دقة في الوصول، دون أن أتكن
من عمل أي شيء بأربعة بيزوات نقصت ثلاثة وثلاثين سنتافو. فقد
كانت صاحبة الفندق أملاً لطيفة، ولكنها عبدة لأنظمتها التي فرضتها
بنفسها، مثلما سأؤكد من ذلك، خلال أكثر من شهرين أمضيتهما في
فندقها. وهكذا لم توافق على تسجيلي كنزير، ما لم أدفع أجرة الشهر
الأول مقدماً: ثمانية عشر بيزو مقابل وجبات الطعام والنوم في غرفة
لستة أشخاص.

لم أكن أأمل بوصول مساعدة أبوي قبل انقضاء أسبوع. ولهذا لن
تتجاوز حقيقتي صحن الدرج ما لم يصل أصدقائي الذين يمكن لهم أن
يساعدوني. جلست أنتظر على متكأ يليق بمطران، مزين برسوم زهور
كبيرة، بدا لي كسا لو أنه نزل من السماء، بعد يوم كامل تحت شمس
ساطعة، في حافلة نكيتي. الحقيقة أن أحداً لم يكن متأكداً من شيء في
تلك الأيام. واتفاقنا على اللقاء هناك، في يوم معين وساعة محددة،
كان بلا معنى في الواقع، لأننا لم نكن نتجرأ على القول حتى لأنفسنا،

إننا في بلاد تعيش حالة حرب دامية، مستترة في الأقاليم، منذ عدة سنوات، ومكشوفة وقائلة في المدن، منذ نحو أسبوع.

بعد ثماني ساعات من الانتظار، وبينما أنا سأزوم في فندق كارتاخينا، لم أستطع تصور ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لحوسبه بالينثيا وأصدقائه، وبعد ساعة انتظار أخرى دون تلقي أي خبر، خرجت للتسكع في الشوارع المقفرة، الظلام يخيم في شهر نيسان باكراً. وقد كانت الأنوار العامة مضأة، غير أن نورها شحيح جداً إلى حد يمكن الظن معه أنها مجوم باهتة بين الأشجار. قمت بجولة أولية من خمس عشرة دقيقة، دون وجهة محددة، في تعرجات القطاع الكولونيالي المرصوفة، وكانت كافية لأن أكتشف، بإحساس عظيم بالراحة، أن تلك المدينة الغربية ليست لها أي علاقة بالمستحاة المعلبة التي يصفونها لنا في المدرسة.

لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، فالجسوع التي تأتي من الضواحي عند الفجر، للعمل أو البيع، تعود متعجلة إلى أرباضها، في الساعة الخامسة مساءً. أما سكان المدينة داخل السور، فيلوذون ببيوتهم، ليتناولوا العشاء ويلعبوا الدومينو حتى منتصف الليل. لم تكن عادة السيارات الشخصية قد شاعت بعد. وسيارات الخدمة القليلة كانت تبقى خارج السور. وحتى أرفع الموظفين منزلة، كانوا يأتون حتى ساحة العربات، في حافلات النقل المحلية المزركشة. ومن هناك يشقون طريقهم إلى مكاتبهم، أو يقفزون فوق دكاكين البضائع الرخيصة، المعروضة على الأرصفة العامة. وقد تهاهى أحد أكثر حكام المدينة تكلفاً، في تلك السنوات المأساوية، بمواصلته التنقل من حبه الراقي إلى ساحة العربات، في الحافلات نفسها التي كان يذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من وطأة السيارات، كان اضطرارياً، لأنه وجودها مخالف للواقع التاريخي؛ إذ لا تتسع لها شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، حيث يتردد في الليل، وقع حوافر الحمول الضامرة غير المحذبة. وفي أزمته الحر الشديد، عندما تفتتح الشرفات لتدخل برودة الحدائق، تُسمع رشقات من أكثر الأحاديث حميمة، برنة شبيهة. ويسمع الأجداد المتناومون، وقع خطوات تتسلل خفية في الشوارع الحجرية، فيتباهونها باهتمام، دون أن يفتحوا أعينهم، إلى أن يتعرفوا على أصحابها، ويقولوا بخيبة أمل: "إنه حوسبه أنطونيو ذاهباً إلى حيث تشابيل". والواقع أن الشيء الوحيد الذي كان يُخرج المُرقيين عن طورهم، هو ضربات الفيشات، على طاولة الدومينو، التي تدوي في كل أرجاء المنطقة المسورة.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي. وكنت أكاد لا أعترف، في أرض الواقع، إلا بصعوبة، على تخيلات الكتب المدرسية التي هزمتها الحياة. لقد هزني الانفعال حتى الدموع، وأنا أرى أن قصور الماركيزين القديمة نفسها، موجودة أمام عيني، مخلعة الأبواب، ينام المتسولون في مداخلها. رأيت الكاتدرائية بلا نواقيسها التي انتزعها القرصان فرانسيس دراك، ليصنع منها مدافع، أما النواقيس القليلة التي نجت من الهجوم، فقد طُهرت بعد أن حكم عليها سحرة المطران بالحرقة، بسبب رتيبتها الجبث الذي يستدعي الشيطان. رأيت الأشجار الداوية، وتماثيل الشخصيات الرموقة التي لا تبدو منحوتة من المرمر الميت، وإنما هي نفسها ميتة بلحمها. ذلك أنها لم تكن محمية، في كارتاخينا، من صدأ الزمن، بل على العكس تماماً؛ فالزمن يحافظ على نفسه في الأشياء، التي ما زالت تملك عمرها الأصلي، بينما القرون تهرم. هكذا، في ليلة

وصولي بالذات، تكشفت لي المدينة، في كل خطوة، بحياتها الخاصة، ليس باعتبارها مستحاة الكرتون الحجري، مثلما يصفها المؤرخون، وإنما كمدينة من لحم وعظم، لم تعد تستند إلى أمجادها الحربية، وإنما إلى هبة أطلالها.

بهذا النفس الجديد، رجعت إلى النزول، عندما دقت ساعة البرج معلنة العاشرة. أخبرني الحارس شبه الغافي بأن أحداً من أصدقائي لم يأت، ولكن حقيقتي صارت في مكان آمن في مستودع الفندق. عندئذ فقط، تنبعت إلى أنني لم أتناول طعاماً أو شرباً منذ الفطور السين في بارانكيبا. تراخت ساقاي من الجوع، ولكنني اكتشيتُ بأن تقيل السيدة إيداع حقيقتي، وتسركتني أنام في الفندق، تلك الليلة فقط، ولو على أريكة الصالة. ولكن الحارس سخر من برائي، وقال لي بكاريبية فجة: - لا تكن أبله! فهذه "المدامة"^(١)، بفضل أكوام المال التي تملكها، تنام منذ الساعة السابعة، ولا تستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة، من اليوم التالي.

شعرتُ أنها حجة مقبولة، وخرجت للجلوس على مقعد في حديقة بوليفار، في الجهة الأخرى من الشارع، بانتظار مجيء أصدقائي، دون أن أزعج أحداً. كانت الأشجار الداوية تُرى بصعوبة على أنوار الشارع، لأن مصابيح المدينة لا تضاء إلا في أيام الأحاد والأعياد. كان على مقاعد الرخام، آثار كتابات محابها وأعاد كتابتها شعرا - صفيقون، مرات ومرات، وفي قصر محكمة التفتيش، وراء الواجهة الكولونيبالية المنحوتة من الحجر البكر، ويوابتها التي كيوابة كنيسة متقدمة، كان

(١) المدامة، استخدام عامي لكلمة مدام "سيدة" الفرنسية.

يُسمع أنين لا عزاء له، يصدره طائر مريض لا يمكن له أن يكون من هذا العالم. عندئذ، داهمتني فجأة، الرغبة في التدخين وفي القراءة، في أن واحد، وهما آفتان أدمنت عليهما، واختلطت إحداهما بالأخرى في شبابي، بسبب إلحاحهما وعتادهما. كانت رواية ألدوس هسكلي "مباراة شعرية" التي لم يُتَح لي الخوف الجسدي مواصلة قراءتها في الطائرة، ترقد حبيسة وراء قفل في حقيبتني. وهكذا أشعلت السجارة الأخيرة بإحساس غريب من الراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها، كاحتياط لليلة بلا غد.

وعندما كنت قد تهيأت معنوياً، للنوم على المقعد الذي أجلس عليه، بدا لي أن هناك شيئاً مختبئاً في الظلمة الدامسة، بين الأشجار. إنه تمثال سيمون بوليفار، منقطياً سهوة جواد. لا أقل من ذلك، الجنرال سيمون خوسيه أنطونيو دي لا سانتيسيسما ترينيداد بوليفار آي بالاثيوس، بطلتي المفضل منذ أن أمرني جدي بذلك، مرتدياً بدلة المراسم، وبرأس إمبراطور روماني، يغطيه براز طيور السنونو.

كان لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته المستحكمة، أو ربما بسببها، وهي في نهاية المطاف، مماثلة لتلك التي توصل جدي بفضلها، إلى رتبة كولونيل، وقامر بحياته، مرات عديدة، في الحرب التي شنّها الليبراليون ضد الحزب المحافظ الذي أسسه بوليفار نفسه وقواه. كنت مستغرقاً في تلك الأفكار الضبابية، عندما أعادني إلى أرض الواقع، صوت حازم وراء ظهري:

- ارفع يديك!

رفعتهما بإحساس بالراحة، واثقاً من أن أصدقائي قد وصلوا أخيراً.

ولكنني وجدت نفسي، حين استدرت، في مواجهة رجلي شرطة فظين، وبلايس أقرب إلى الأسنال، بصويان بنديقتيهما الجديتين بالجماهي. أراد أن يعرف لماذا خرقتُ حظر التجوال الذي بدأ قبل ساعتين من ذلك. لم أكن أعرف أنه قد فُرض منذ يوم الأحد السابق، مثلما أخبراني هما. ولم أسمع بوقاً أو نوافيس أو أي إشارة أخرى تشيح لي أن أدرك سبب عدم وجود أحد في الشوارع. وكان الشرطيان أكثر تكاسلاً وأقل تفهماً عندما رأيا أوراق الشبوتية، بينما أنا أشرح لهما سبب وجودي هناك. أعادا إلي الوثائق دون أن يتفحصاها. سألتني كم من النقود معي، فأخبرتتهما بأن ما أملكه لا يصل إلى أربعة بيزوات. عندئذ طلب مني أشدهما تصميماً أن أعطيهم سبجارة، فأرغمتهما عقب السبجارة المطفأ الذي كنت أتوي تدخينه قبل أن أنام. فانتزعني ودخنه حتى لامست جمرته ظفريه. ثم اقتادني الشرطيان بعد ذلك، من ذراعي، على امتداد الشارع، وهما متلهفان إلى التدخين أكثر من حرصهما على تطبيق القانون، بحثاً عن محل مفتوح لشراء بضع سجائر، من تلك التي تباع كل واحدة منها بستنافو. كان الليل قد تحول شفافاً وبارداً تحت القمر المكتمل، وبدا الصمت مادة غير مرئية، يمكن تنفسه كما الهواء. عندئذ فهمت ما كان يرويه لنا أبي كثيراً، دون أن نصدقه، من أنه كان يتمرن على العزف على الكمان فجراً، في صمت المقبرة، لكي يشعر بأن أنغام الحب التي يعزفها، يمكن أن تُسمع في كل أجواء منطقة الكاربيي.

بعد أن تعبتنا من البحث عن سجائر، خرجنا إلى خارج السور، حتى مرراً بمراكب رحلات قصيرة، يعيش حياته الخاصة وراء السوق العام، حيث ترسو سفن شراعية من جزر كوراساو وأروبه وغببرها من جزر

الأتشيل الصغرى. إنه مكان سهر أكثر الناس مرحاً وفائدة في المدينة بأسرها، ممن يملكون حق الحصول على تصريحات لحرق منع التجوال، بسبب طبيعة أعمالهم. إنهم يأكلون حتى الفجر، في مطاعم في الهواء الطلق، بأسعار مناسبة ورفقة طيبة؛ إذ لا يذهب إلى هناك، الموظفون الليليون وحدهم، وإنما كل من يرغب في الأكل، عندما لا يكون ثمة مكان يمكن تناول الطعام فيه. لم يكن للمكان تسمية رسمية، بل يُعرف باسم لا يناسبه بأي حال: الكهف.

وصل إليه الشرطيان وكأنهما يصلان إلى بيتهما. وكان واضحاً أن الزبائن الجالسين إلى الموائد يعرف بعضهم بعضاً منذ الأزل، ويشعرون بالسعادة لوجودهم معاً. وكان من المستحيل معرفة كتاباتهم الأسرية، لأن الجميع يتعاملون بألقابهم المدرسية، ويتكلمون بأصوات صارخة في وقت واحد، دون أن يفهموا أو ينظروا مع من يتكلمون. وكانوا يلبس العمل، باستثناء ستيني ذي رأس تلجي، يرتدي سموكغ من أزمئة أخرى، مع امرأة ناضجة ما زالت تحتفظ بجمال باهر، ترتدي فستاناً مزيتاً بالبرق، ومستهلكاً من كثرة الاستخدام، وتضع الكثير من الحلبي الأصلية. يمكن لوجودهما هناك أن يكون إشارة حية إلى حقيقة وضعهما، لأنه من النادر، وجود نساء يسمح لهن أزواجهن بالظهور في تلك الأماكن سيئة السمعة. وكان بالإمكان الظن أنهما سائحان، لولا نزقهما ولتكتنهما المحلية، وتآلفهما مع الجميع، وقد علمت، في ما بعد، أنهما لا يمان بصلة إلى ما يبدوان عليه، وإنما هما زوجان ساهبان من كارتاخينا، ينتهزان أي ذريعة لارتداء ملابسهما الاحتفالية من أجل تناول العشاء خارج البيت، وقد وجدا المضيفين، في تلك الليلة، نانسين، والمطاعم مغلقة بسبب حظر التجوال.

وكانا هما من دعوانا للعشاء. أفسح لنا الآخرون مكاناً في المكان، وجلسنا نحن الثلاثة، محشورين ومتلاصقين بعض الشيء. وكانوا يتعاملون كذلك، مع الشرطيين، بتألف الخدم. وقد كان أحد الشرطيين جدياً ومنفلقاً في الكلام، وله ردود أفعال طفل مؤدب على المائدة. أما الآخر، فكان حريصاً، اللهم إلا في الأكل والتدخين. وقد طلبت أطباقاً أقل منها، بدافع الحجل أكثر مما هو بدافع التأدب والاعتدال. وعندما انتبعت إلى أنني سأبقى بأكثر من نصف جوعي، كان الآخرون قد انتهوا. صاحب المطعم، وكان الخادم الوحيد في الكهف، يدعى خوسيه دولوريس، وهو زنجي شبه مراهق، له جمال مشير للقلق، يتلفع بملامت مسلم ناصعة البياض، ويضع طوال الوقت زهرة قرنفل نظرة على أذنه. ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فيه هو ذكازه المفرط، ومعرفته كيف يستخدم ذكاه، دون تحفظ، ليكون سعيداً وليسعد الآخرين. كان واضحاً أنه لا ينقصه إلا القليل جداً ليكون امرأة، وله سمعة راسخة بأنه لا ينام إلى مع "رجله". لم يداعبه أحد قط بالسخرية من وضعه، لأنه كان يتمتع بظرف وسرعة بدهية في الرد، لا يترك معهما صنيعاً دون شكر، ولا إساءة دون رد يناسبها. وكان هو وحده يقوم بكل شيء، ابتداءً من طبخه الصائب لما يعرف أنه يروق كل واحد من زبائنه، حتى قلى شرائح الموز الأخضر بإحدى يديه، وإجراء الحسابات بيده الأخرى، دون أي مساعدة إلا تلك الضئيلة التي يقدمها له صيني في حوالي السادسة، ويدعوه "ماما". عندما ودعناه، أحسستُ بالتأثر لتلك اللقبة، ولكنني لم أتصور أن ذلك المكان الذي يرتادُه متساحرون في السهر متمادون، سيكون أحد الأماكن التي لا تُنسى في حياتي.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، وافقت الشرطيين ليستكملا جولاتهما المتأخرة. كان القمر طبقاً ذهبياً في السماء. وكان الهواء قد بدأ يشتد ويجرجر معه، من بعيد جداً، نتفاً من الموسيقى وصرخات نائية من حفلة كبيرة. كان الشرطيان يعرفان أن أحداً، في أحياء الفقراء، لا يذهب إلى النوم بسبب خطر النجوال، وإنما يقيمون هناك كل ليلة حفلات رقص يساهمون جميعهم في نفقاتها، في بيوت بعيدة، لا يخرجون منها إلى الشارع حتى الفجر.

عندما أعلنت الساعة الثانية، طرقتنا باب فندقني، واثقين من أن أصدقائي سيكفونون قد حضروا. ولكن الحارس صرخ باستياء بأن نذهب إلى الجحيم، لأننا أبقتناه دون مبرر. عندئذ انتبه الشرطيان إلى أنه لا يوجد لدي مكان أنام فيه، وقررا أخذني إلى السجن. بدا لي ذلك سخرية شديدة الوقاحة، ففقدت طيب مزاجي ووجهت إليهما شتيمة. فوجئ أحدهما من رد فعلي الصياني، فأعادني إلى الانضباط بتوجيه فوهة البندقية إلى معدتي، وقال لي وهو يوشك على الموت من الضحك: - دعك من البلاهة. وتذكر أنك لا تزال معتقلاً، لأنك خرقت منع التجوال.

وهكذا، تمت ليلتي الأولى في كارتاخينا، في زنزانة تتسع لستة أشخاص، وعلى حصيرة متخمرة بعرق غريب. الوصول إلى روح المدينة، كان أسهل علي بكثير من تجاوز البيوم الأول حياً. وقبل انقضاء أسبوعين، كنت قد استعدت الاتصال بالوالدي، وقد وافقا دون تحفظ، على قراري بالعيش في مدينة لا حرب فيها. أما صاحبة الفندق التي ندمت لأنها حكمت علي بقضاء ليلة في السجن،

فقد أسكتنتني مع عشرين طالباً آخر في مهجع بني حديثاً على سطح بيتها البديع، المشيد على الطراز الكولونيالي. لم أجد سبباً للاحتجاج، لأن المهجع كان نسخة كاريبية عن قاعة النوم في المعهد الوطني، وكلفته أقل من نزل بوغوتا، مع تضمينه الطعام وكل شيء.

مسألة التسجيل في كلية الحقوق، حُلَّت خلال ساعة، بامتحان قبول أجراه أمين الكلية إغناسيو فيليث مارتينيث، وأستاذ في الاقتصاد السياسي لم أتمكن من العثور على اسمه في ذكرياتي. ومثلما كانت العادة المتبعة، جرى الامتحان بحضور طلاب السنة الثانية كلهم. وقد لفت انتباهي، منذ اللحظة الأولى، وضوح أحكام الأستاذين ودقة لغتهما، في منطقتهم مشهورة في أنحاء البلاد الداخلية، باضطراب نطقها. كان الموضوع الأول، في القرعة، هو الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وهو ما كنتُ أعرف عنه أقل من لا شيء بقليل. ومن المحزن أنني لم أكن قد قرأت بعد، الروائيين الأمريكيين الجدد الذين بدأت بعض أعمالهم بالوصول إلينا آنذاك. ولكن الحظ حالفتني حين بدأ الدكتور فيليث مارتينيث بإشارة عرضية إلى "كوخ العم توم". وكنْتُ أعرفها منذ الثانوية. فالتقطتُ الإشارة بسرعة خاطفة. ولا بد أن الأستاذين قد أصيبا بصدمة حين، ذلك أن الستين دقيقة المخصصة للاختبار انقضت كلها في تحليل، يظفي عليه التأثير والانفعال، لعار نظام العبودية في جنوبي الولايات المتحدة. ولم تتجاوز ذلك الموضوع. وهكذا، فإن ما كان يبدو لي نوعاً من الروايت الروسي، تكشف عن محادثة ممتعة استحققت عليها تفديراً جيداً، وبعض التصفيق الودي. بهذه الطريقة، دخلتُ الجامعة لأهني سنة الحقوق الثانية، مع الشرط

الذي لم أنجزه قط، بأن أتقدم لامتحان تأهيل في مادة أو مادتين لم أكن قد أنهيتهما من السنة الأولى في بوغوتا. تخمس بعض زملاء الدراسة لطريقتي في ترويض الموضوعات والالتفاف عليها؛ إذ كانت تنتشر بينهم فكرة النضال من أجل حرية الإبداع، في جامعة أصابتها الصرامة الأكاديمية بالجمود. وقد كان ذلك هو حلمي المتوحد منذ معهد الثانوية، ليس بدافع رفض مجاني للتقاليد، بل لأنه الأمل الوحيد للتمكن من النجاح في الامتحانات، دون أن أدرس. ومع ذلك، فإن من كانوا يطالبون باستقلالية وجهات النظر في قاعات الدرس، ما كانوا يجدون مفرّاً من الاستسلام للقدر، والصعود إلى منصة إعدام الامتحان، وقد حفظوا، عن ظهر قلب، مجلدات النصوص الضخمة الموروثة من المعهد الاستعماري. ومن حسن الحظ أنهم كانوا أساتذة متحمسين في فن تنشيط حفلات الرقص المساهمة أيام الجمعة، على الرغم من مخاطر القمع الذي صار أكثر فأكثر، تقيدياً، في ظل حالة الطوارئ. تواصلت إقامة حفلات الرقص، باتفاق غير معلن مع سلطات حفظ الأمن العام، خلال الوقت الذي استمر فيه منع التجوال. وعندما رُفِع، انبعثت الحفلات من احتضارها بقوة أكبر من السابق، ولا سيما في ضاحية توريس أو جُسيماني أو عند أطراف "لايوبا"، أكثر الأحياء صحياً احتفالياً في تلك السنوات المكفهرة. كان يكفي أن نطل من النافذة لاختيار الحفلة التي ستروقنا أكثر من سواها. ومقابل خمسين سنتافو، كان يمكن لنا الرقص حتى الفجر، على وقع أشد إيقاعات الموسيقى الكاريبية سخونة، مُضخمة بدوي مكبرات الصوت. أما الفتيات المدعوات مجاناً، فكن الطالبات أنفسهن اللواتي نلتقيهن خلال الأسبوع، لدى الخروج من

المدارس، غير أنهم يذهبن بلباس قديس يوم الأحد، ويرقصن كنساء الحياة الطيبات، تحت نظرات متيقظة من عمات مرافقات أو أمهات متحدرات. في إحدى ليالي الصيد الأكبر تلك، كنتُ أمضي في حي جشيمانتي الذي كان حياً للعبيد، خلال العهد الاستعماري، عندما أحسست بتربيت على ظهري، وفرقة صوت يقول، كما لو أنها كلمة سر:

- يا قاطع الطريق!

كان مانويل زاياتا أوليفييا، ساكن شارع "الشقاوة" المشهور، حيث عاشت أسرة أجداد أجداده الأفاقة. وكنا قد التقينا من قبل في بوغوتا، وسط أوار التاسع من نيسان. وكانت دهشتنا الأولى عند لقائنا مجدداً في كارتاخينا، هي معرفة كل منا أن الآخر لا يزال حياً. وقد كان مانويل، فضلاً عن أنه طبيب إحسان، روائياً، وناشطاً سياسياً، ومنتشطاً لموسيقى الكاريبي، غير أن ميله الساحق كان السعي إلى حل مشاكل الجميع. وما كدنا ننتهي من تبادل الحديث عن مجربتنا في يوم الجمعة العصيب، وعن خططنا للمستقبل، حتى اقترح عليّ أن أجرب حظي في الصحافة. قبل شهر من ذلك، كان الزعيم الليبرالي لويس إسكاوربانا قد أسس صحيفة الأونيفرسال، وكان رئيس تحريرها هو كليمنتي مانويل ثابالا. وكنتُ قد سمعت شيئاً عن هذا الأخير، ليس كصحفي، وإنما كعلامة في الموسيقى، وشيوعي كامن. أصر زاياتا أوليفييا على أن نذهب لقابلته، إذ كان يعرف أنه يبحث عن أناس جدد، لكي يُنشِط نغماً من الصحافة الخلاقة، في مواجهة الصحافة الروتينية المنقادة، السائدة في البلاد، وخاصة في مدينة كارتاخينا، وهي آنذاك إحدى أكثر المدن تخلفاً.

كنتُ أدرك بوضوح، أن الصحافة ليست مهنتي. فأنا أريد أن أصير كاتباً مختلفاً. ولكنني أحاول ذلك بمحاكاة كتّاب آخرين لا علاقة لهم بي. وقد كنتُ في تلك الأيام في استراحة تأمل؛ إذ بعد قصصي الثلاث الأولى التي نُشرت في بوغوتا، ولقيتُ بسببها، إطراء إدواردو ثالاميا ونقاد آخرين وأصدقاء طيبين وسيئين، شعرت بأنني وصلت إلى طريق مسدود. فألح زاياتا أوليفييا، مفنداً حججي، على أن الصحافة والأدب سينتهيان عما قريب ليكونا الشيء نفسه، وأنه يمكن لارتياحي بجريدة الأونيفرسال، أن يضمن لي ثلاثة مصائر في الوقت نفسه: حل شؤوني الحياتية بصورة كريمة ونافعة. والدخول في عالم أحترف فيه عملاً هو بعد ذاته مهنة مهمة. والعمل مع كليمنتي مانويل ثابالا، أفضل معلم صحافة يمكن تخيله. كان يمكن لكابح الحياة الذي أثاره في ذلك التحرير شديد البساطة، أن ينجيني من المصيبة. ولكن زاياتا أوليفييا لم يكن قادراً على تقبل الإخفاق في مساعيه، فطلب مني الحضور في اليوم التالي، الساعة الخامسة مساءً، إلى الرقم ٣٨١ بشارع سان خوان دي ديوس، حيث مقر الصحيفة.

نمت تلك الليلة قلقاً. وفي اليوم التالي، سألتُ صاحبة الفندق، أثناء تناول الفطور، أين هو شارع سان خوان دي ديوس، فأشارت بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

- هناك بالذات، بعد شارعين.

وهناك كان مقر الأونيفرسال، قبالة الجدار الحجري الضخم والمزخرف لكنيسة سان بيدرو كلافير، أول قديس، في أميركا، والذي ما زال جثمانه غير المتفسخ معروضاً، منذ مئة سنة، تحت مذبح الكنيسة الكبير،

كانت مكاتب الجريدة في بناء قديم من الطراز الكولونيالي، موسى بترميمات جمهورية، وبوابتين كبيرتين وبعض النوافذ التي يظهر من خلالها كل ما كانت عليه الجريدة. ولكن رعيي الحقيقي كان يقبع وراء شرفة من خشب دون سحج، على بُعد نحو ثلاثة أمتار من النافذة؛ إنه رجل ناضح ومتوحد، يرتدي بدلة قطنية بيضاء وربطة عنق، وله بشرة قائمة وشعر هندي قاس وأسود. يكتب بقلم رصاص، وراء مكتب عليه أكداش أوراق متأخرة. مررت ثانية بالاتجاه المعاكس، بافتتان طاعاً؛ ثم أعدت الكرة مرتين أخريين. وفي المرة الرابعة، مثلما في المرة الأولى، لم يراودني الشك في أن ذلك الرجل هو كليمنتي مانويل ثابالا، تماماً مثلما توقعت، ولكن أشد رهبة. وبينما الرعب يملؤني، اتخذت القرار البسيط بعدم الذهاب إلى الموعد، في ذلك المساء، مع رجل تكفي رؤيته من النافذة، لاكتشاف أنه يعرف أكثر مما يجب عن الحياة وعن مهنته. رجعت إلى الفندق، وأهديت يوماً آخر من أيامي، بلا ندم، وأنا مستلق على السرير، لقراءة "مزيقو النقود" لأندريه جيد، والتدخين دون توقف. في الخامسة مساءً، اهتز باب الحجرة بصعفة قوية كأنها رصاصة بندقية، وصرخ بي زاباتا أوليفييا من المدخل:

- هيا بنا، يا للجنة! ثابالا ينتظرك، وليس هناك في هذه البلاد من يسمح لنفسه بترف التخلف عن موعد معه وتركه معلقاً.

كانت البداية أصعب مما يمكن لي أن أتخيله في كابوس. استقبلني ثابالا دون أن يدرى ما يفعله. وكان يدخن دون توقف، باضطراب يزيد الحر من حدته. أرانا كل شيء: رئاسة التحرير والإدارة في جانب، وفي الجانب الآخر قاعة التحرير والورشة، وفيهما ثلاث مناضد غير مشغولة

في تلك الساعة المبكرة. وفي أقصى المكان مطبعة دوارة ناجية من فتنة، وألنا تنضيد وحيدتان من نوع لينوتيب.

وكانت مفاجأتي الكبرى أن ثابالا قرأ قصصي الثلاث، وبدت له الملاحظة التي كتبها ثابالا متصفة. فقلت له:

- أما أنا فلا أرى ذلك. القصص لم تعجبني. لقد كتبتها بدوافع غير واعية إلى حد ما. ويعد أن قرأتها مطبوعة، لم أعد أدري من أين سأواصل.

استنشق ثابالا الدخان عميقاً، وقال لزاباتا أوليفييا:

- إنها بادرة طيبة.

فالتقط مانويل الفرصة بسرعة، وقال له إنني قد أكون مفيداً له في الصحافة، خلال وقت فراغي من الجامعة. فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لي. وقد قدمني إلى المدير العام، الدكتور لوبييث إسكاورياتا، على أنني المساعد المحتمل الذي حدثه عنه في الليلة السابقة.

- سيكون ذلك رائعاً - قال المدير بابتسامته الأبدية، كسيد نبيل على الطريقة القديمة.

لم نتفق على شيء، غير أن المعلم ثابالا طلب مني الرجوع في اليوم التالي، ليقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو، وهو شاعر ورسام من الجيدين، وكتاب عمود لامع في الجريدة. لم أقل له إنه كان أستاذي في الرسم، في مدرسة سان خوسيه، بسبب خجل يبدو لي اليوم غير قابل للتفسير. وفور الخروج من هناك، قفز مانويل قفزة طرب في ساحة الجمارك، قبالة واجهة كنيسة سان بيدرو كلاير المهيبة، وهتف بفرح مبكر:

- أ رأيت أيها النمر، لقد أنجز الأمر!

تجاوبت معه بمجاراته في عناق ودي، كيلا أخيب أمله. ولكنني كنت أحتفظ بشكوك جدية حول مستقبلتي. سألتني مانويل عندئذ، كيف بدا لي ثابالا، وأجبتة بالحقيقة؛ لقد بدا لي صياد أرواح. وربما كان هذا هو السبب الخامس في أن الجماعات الشيبانية تتغذى على عقله ودهائه. واختتمت قائلاً، بتقويم عجوز ميكرو، وزائف دون ريب، إن طريقته تلك قد تكون هي التي حالت دون توليه دوراً حاسماً في حياة البلاد العامة.

اتصل بي مانويل ليلاً، وهو يكاد يموت من الضحك، بسبب محادثة دارت بينه وبين ثابالا. فقد حدث هذا الأخير عني بحماس شديد، وأكد على ثقته بأنني سأكون مكسباً مهماً لصفحة الافتتاحيات. وكان المدير متفقاً معه في الرأي. غير أن السبب الحقيقي لاتصاله كان رغبته في إخباري بأن الشيء الوحيد الذي يَقلق المعلم ثابالا، هو أنه يمكن لحبائتي المرضى أن يشكل عقبة كبيرة في حياتي.

وإذا كنت قد قررت في اللحظة الأخيرة، العودة إلى الصحيفة، فلأن زميلاً في الحجرة، فتح عليّ الباب، وأنا أستحم في صباح اليوم التالي، ووضع أمام عيني صفحة التعليقات الانتحارية في الأونيفرسال. كانت هناك ملاحظة سرعبة عن وصولي إلى المدينة، تورطني بكوني كاتباً قبل أن أصير كذلك، ويأنتني صحفي لامع قبل مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على رؤيتي، أول مرة، جريدة من الداخل. أثبتت مانويل الذي اتصل بي فوراً بالهاتف، لتنهتني، دون أن أداري غضبي من كتابته مثل تلك الملاحظة غير المسؤولة دون أن يخبرني بها مسبقاً. ومع ذلك، فإن شيئاً قد تغير في، وربما إلى الأبد، عندما

علمت أن المعلم ثابالا نفسه، هو الذي كتب تلك الملاحظة. وهكذا حرمت بتطالي ورجعت إلى تحرير الجريدة لأقدم له الشكر. لم يكذب يهتم بشكري. وقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو الذي كان يرتدي بنطالاً خاكياً وقميصاً مزيناً بزهور أمازونية. ويتكلم كلمات ضخمة يطلقها بصوت راعد، ولا يستسلم في المحادثات إلى أن يقتنص ظريدته. لم يتعرف عليّ بالطبع، كواحد آخر من تلاميذه في مدرسة سان خوسيه في باراناكيا.

وضعنا المعلم ثابالا - مثلما كان يدعوه الجميع - في مداره، بذكريات عن صديقين أو ثلاثة أصدقاء مشتركين، وعن آخرين يتوجب عليّ أن أتعرف عليهم. ثم تركنا وحدنا، ورجع إلى الحرب الضارية التي يخوضها بقلمه الرصاص المتوقد، على أوراقه المستعجلة، وكأنه لم تكن له قط، أي علاقة بنا. واصل هيكتور حديثه إليّ، على وقع ألتني اللينوتيب الرتيب الخافت، وكأنه هو أيضاً لم تكن له أي علاقة بشابالا. لقد كان محدثاً لا نهائياً، يتمتع بذلك تعبيره صيهر، ومغامراً في التخيل، يختلق وقائع لا تُصدّق، ينتهي به الأمر. هو نفسه، إلى تصديقها، تبادلنا الحديث طوال ساعات، عن أصدقاء آخرين، أحياء وفيتين، وعن كتب ما كان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسينا، لكننا لم نستطع نسيانهم، وعن شواطئ حاملة في فردوس تولوا الكاريبي - حيث ولد هو - وعن سحرة معصومين عن الخطأ، ونكبات أراكاتاكا التوراتية. وعن كل ما كان وما سيكون، دون شرب أي شيء. ودون أن نكاد نتنفس، ونحن ندخن حتى المرفقين، خوفاً من ألا تمتد بنا الحياة للتحدث عن كل ما نحتاج إلى التحدث عنه.

في الساعة العاشرة ليلاً، عندما أغلق محرير الصحيفة، ارتدى المعلم ثابالا سترته، وعقد ربطة عنقه. وبخطوة ياليه راقصة لم يبق فيها إلى القليل من الشباب، دعانا لتناول الطعام. ومثلما هو متوقع، ذهبنا إلى الكهف، حيث فوجئ بأن خوسيه دولوريس وعدداً من زبائن آخر الليل، تعرفوا عليّ كزبون قديم. وازدادت مفاجآت عندما مرّ أحد الشرطيين اللذين رافقاني في زيارتي الأولى للمعظم، ومازحتني بدعاية مستترة عن ليلتي السيئة في الحبس، وصادر مني علبة سجائر كنت قد فتحتها للتو. وبدوره، أثار هيكتور مبارزة كلامية مزدهجة المعنى مع خوسيه دولوريس. أثارت ضحك الزبائن، أمام صمت المعلم ثابالا السعيد. وتجرات أنا على التدخل بردّ لا طرف فيه، أفادني على الأقل في أن أكون معترفاً بي كواحد من الزبائن القليلين الذين يقدم لهم خوسيه دولوريس الطعام ديناً، حتى أربع مرات في الشهر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، واصلت أنا وهيكتور حديثنا الذي بدأنا مساءً، في شارع الشهداء، قبالة الخليج النتن بقضلات السوق العام الجمهوري. كانت ليلة رائعة في منتصف العالم، بينما أول سفن كوراساو الشراعية تُقلع خفية، في ذلك الفجر، قدّم لي هيكتور أول الإضاءات، حول تاريخ كارتاخينا الحففي، والمغطى ببحار من الدموع، وربما بدت أقرب إلى الحقيقة من خيال الأكاديميين المجامل. حدثني عن حياة الشهداء العشرة الذين تنتصب تماثيلهم النصفية على جانبي ممر الساحة، تخليداً لبطولتهم. الرواية الشعبية -وهي تبدو كما لو أنها من نبات أفكاره - تقول إنه عند وضع التماثيل في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماء الشهداء وتاريخ ميلادهم على التماثيل نفسها،

وإنما على القواعد التي استقرت عليها. ولهذا، عندما رفعوها من أماكنها لتنظيفها بمناسبة الذكرى المئوية لاستشهادهم، لم يعودوا يعرفون لمن تتبع الأسماء والتواريخ، واضطروا إلى إعادة وضع التماثيل على القواعد، كيما اتفق، لأن أحداً لم يكن يعرف اسم أحد. كانت الحادثة متداولة كدعابة، منذ سنوات طويلة. ولكنني فكرت بالمقابل، بأنها حققت العدالة التاريخية بتكرسها أولئك الأعيان دون أسماء، لأنهم لم يُخلدوا بسبب حياتهم التي عاشوها، بقدر ما هو بسبب مصيرهم المشترك.

تكررت ليالي السهر تلك، بصورة يومية تقريباً، خلال سنواتي في كارتاخينا. ولكنني منذ الليلتين أو الثلاث الأولى، انتشيت إلى أن هيكتور يتمتع بقدرته على الإغواء المباشر، مع حس صداقة شديد التعقيد، لا يمكن إلا لنا نحن الذين نحبه كثيراً، أن نتفهمه دون تحفظ. فقد كان رقيقاً جداً، إلا أنه قادر في الوقت نفسه، على اجترار غضبات صاخبة، وأحياناً كارثية، ثم يحتفل بنفسه، بعد ذلك، بصفح، كأنه الطفل يسوع. عندئذ يفهم أحدنا حقيقته، ويفهم لماذا يفعل ثابالا كل ما هو ممكن لكي نحبه كثيراً بقدر ما نحبه. في الليلة الأولى، مثلما في ليالٍ كثيرة أخرى تالية، بقينا حتى الفجر في شارع الشهداء، محتبين من حظر النجوال، بوضعنا كصحفيين. كان صوت هيكتور وذاكرته لا يزالان على خير ما يرام، حين رأى يريق النهار الجديد في أفق البحر، وقال:

- عسى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كازابلانكا".

لم يقل أي شيء آخر. ولكن صوته أعادني إلى كل بها صورة

همفري بوغارت وكلود رينس، وهما يضيان كنفاً إلى كنف، في الفجر الضبابي، بالجهة تائق الأفق المئع، والجملة التي صارت نائية عن تلك النهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

بعد ثلاث ساعات من ذلك، أيقظني المعلم تابالا هاتفياً، بعبارة أقل سعادة:

- أين وصلت في هذا المقال العظيم؟

احتججتُ إلى بضع لحظات لكي أدرك أنه بعني مساهمتي في الجريدة لليوم التالي. لا أتذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، أو أنني قلت نعم أو لا، عندما طلب مني أن أكتب مساهمتي الأولى. ولكنني كنت أشعر، في ذلك الصباح، بأنني قادر على أي شيء، بعد المحادثة الأولمبية في الليلة السابقة. ولا بد أن تابالا فهم الأمر على ذلك النحو، إذ كان قد أشار إلى بعض الموضوعات التي سيجري تناولها في ذلك اليوم. واقترحتُ عليه موضوعاً آخر بدا لي أكثر راهنية: حظر التجوال.

لم يقدم لي أي توجيه. وكنتُ أنوي رواية مغامرة ليلتي الأولى في كارتاخينا. وهذا ما فعلته، بخط يدي، لأنني لم أستطع التفاهم مع الآلات الكاتبة الخرافية في قاعة التحرير. كان مخاضاً استمر نحو أربع ساعات، راجعه المعلم أمامي دون أي ملمح أو تعبير يكشف عما يفكر فيه، إلى أن وجد أقل الأساليب مرارة ليقول لي:

- ليس سيئاً، ولكن من المستحيل نشره.

لم يفاجئني. بل على العكس، فقد كنت أتوقع الأمر، وحررتني من ذلك الهم الثقيل في أن أصير صحفياً. ولكن أسبابه الحقيقية التي كنت أجهلها، كانت حاسمة؛ فننذ التاسع من نيسان، صار هناك في كل

صحيفة في البلاد، وقيب من الحكومة، يقبع وراء منضدة في قسم التحرير، كما لو أنه في بيته، منذ الساعة السادسة مساءً، ويتمتع بالإرادة والسلطة في عدم السماح بنشر أي حرف يمكن له أن يمس الأمن العام.

كانت ميررات تابالا أشد وطأة عليّ، من ميررات الحكومة، لأنني لم أكن قد كتبت تعليقاً صحفياً، وإنما إعادة سرد ذاتية لحدث خاص، دون أية مزاعم بأنه تعليق صحفي. كما أنني لم أتعامل مع حظر التجوال كوسيلة شرعية تتخذها الدولة، وإنما كحجة يتذرع بها بعض الشرطيين الأفظاظ لكي يحصلوا على سجناء من تلك التي تساوي كل واحدة منها سنخافو واحداً. ولحسن الحظ أن المعلم تابالا، قبل أن يحكم عليّ بالإعدام، أعاد إليّ الملاحظة التي يجب إصلاحها من ألفها إلى يائها، ليس من أجله هو، وإنما من أجل الرقيب، وأنعم عليّ بحكم ذي حدين قائلاً:

- أنت تمتلك الكفاءة الأدبية، وهذا أمر لا شك فيه. ولكننا سنتحدث في ذلك فيما بعد.

هكذا كان هو. فننذ يومي الأول في الصحيفة، عندما تحدث تابالا معي ومع زاباتا أوليفينياً، لفتت انتباهي عاداته الفريدة بالتحدث إلى أحداً، وهو ينظر إلى وجه الآخر، بينما أطفاله تحترق بجمرة سيجارته. لقد سبب لي ذلك، في البدء، قلقاً مزعجاً. والأمر الأقل حماقة الذي خطر لي، بدافع الحياة المحض، هو الاستماع إليه بانتباه حقيقي واهتمام هائل، ولكن دون النظر إليه، وإنما إلى ماثويل، لكي أستخلص نتائج من كليهما. وبعد ذلك، عندما تبادلنا الحديث مع روخاس هيراثو، ثم مع

المدير لوبيث إسكاورينا فيما بعد، ومع كثيرين غيرهما، أدركت أن تلك هي طريقة ثابالا الخاصة، عندما يتحدث ضمن جماعة. فهمت الأمر على هذا النحو، وعلى هذا النحو استطعنا، أنا وهو، تبادل الأفكار والمشاعر من خلال النظر إلى شركاء غافلين ووسطاء بريئين. وعندما استقرت الثقة المتبادلة بيننا، مع مرور السنوات، تجرأت على التحدث إليه عن انطباعي ذلك، فأوضح لي دون استعراب، بأنه إنما ينظر إلى محدثه بصورة ماثلة تقريباً، كيلا ينفث دخان سيجارته في وجهه. لقد كان هكذا؛ لم أتعرف قط، على أحد، بطبع شديد الوداعة والتكتم مثله، ومزاج مدني مثل مزاجه، لأنه عرف أن يكون على الدوام، ما يريد أن يكونه؛ حكيماً في الظل.

الحقيقة أنني كنت قد كتبتُ خطابات، وأشعاراً مبكرة في معهد ثيباكيرا، ونداءات وطنية ومذكرات احتجاج على سوء الطعام، وكتابات قليلة أخرى، دون حساب الرسائل إلى الأسرة التي كانت أمي تعيدها إليّ. وقد صححت ما فيها من أخطاء إملائية، حتى بعد أن صرتُ كاتباً معترفاً به. لكن المقالة التي نُشرتُ أخيراً في صفحة التعليقات الافتتاحية، لم تكن لها علاقة بما كتبتّه. فما تبقى مني، بين ترقيعات المعلم ثابالا والرقيب، هو مجرد تنف نشر غنائي بلا وجهة نظر ولا أسلوب، أجهز عليها مصحح التجارب بتعصبه النحوي. اتفقتنا في نهابة المطاف على أن أتولى كتابة عمود يومي، ربما لتحديد المسؤوليات، يُنشر باسمي الكامل، وبعنوان دائم: "نقطة، وسطر جديد". تمكن ثابالا وروخاس هيراثو، المجربان جيداً في الاستنزاف اليومي، من مواساتي من الضيق الذي سببه لي ما حل بقلتي الأولى. وهكذا

تجرأت على المواصلة، بكتابة مقالة ثانية وثالثة، لم تكونا أوفر حظاً. بقيتُ في التحرير قرابة سنتين، أنشر حتى زاويتين صحفيتين يومياً، وأتمكن من كسبهما من الرقابة، بتوقيع ودون توقيع، حتى أوشتكت على الزواج من ابنة أخي الرقيب.

ما زلت حتى اليوم أتساءل، كيف كان يمكن لحياتي أن تكون، من دون قلم المعلم ثابالا، ومشد الرقيب الذي كان مجرد وجوده تحدياً خلاقاً. ولكن الرقيب كان يعيش باحتراس أكثر منا، بسبب هوسه في الملاحقة. فالاقتباسات من كبار الكتاب، تبدو له مكاييد صريية. وهي كذلك بالفعل، في أحيان كثيرة. لقد كان يرى أشباحاً. فهو كويتب تافه، يفترض معاني متخيلة. وفي إحدى ليالي سوء طالعاه اضطر إلى الذهاب إلى المحاض، كل ربع ساعة، إلى أن تجرأ على القول لي، إنه يوشك على أن يصاب بالجنون، لما نسبته له من الرعب، وصرخ:

- يا للجنة! يمثل هذا الذهاب والإياب، سأبقى دون مؤخرة!

كانت قد جرت عسكرة الشرطة، كدليل آخر على صرامة الحكومة تجاه العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع شيء من الاعتدال على ساحل الأطلسي. ومع ذلك، فقد أطلقت الشرطة النار في أوائل شهر أيار، دون سبب، على مركب الأسبوع المقدس، في شوارع بلدة كارمن دي بوليفار، على مسافة نحو عشرين فرسخاً من كارتاخينا. كنتُ أشعر بضعف عاطفي تجاه تلك البلدة، حيث ترعرعت العمة "ماما". وحيث ابتكر المد نيكولاس أسماكه الذهبية الشهيرة. فطلب مني المعلم ثابالا، المولود في قرية سان خاينتو المجاورة، بإصرار غريب، أن أتناول الخبر بمقالة افتتاحية، دون أن أولي اهتماماً للرقابة ولكل ما سيترتب على

ذلك، من نتائج. فطالبت الحكومة في مقالتي الأولى المغفلة من التوقيع، في صفحة الافتتاحية، بفتح تحقيق معمق حول الاعتداء، ومعاينة من قاموا به. وأنهيت المقالة بسؤال يقول: "ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟". وحيال التجاهل الرسمي، وفي حرب صريحة ضد الرقابة، واصلنا ترديد السؤال في تعليق يومي في الصفحة نفسها، بحماس متنام، وباستعداد لإثارة حفيظة الحكومة، أكثر مما كانت عليه. بعد ثلاثة أيام من ذلك، طلب مدير الجريدة من ثابالا تأكيداً بأنه تشاور في الأمر مع هيئة التحرير بكاملها. وكان هو نفسه موافقاً على وجوب مواصلة الموضوع. وهكذا واصلنا توجيه السؤال. وفي أثناء ذلك، كان الشي. الوحيد الذي صرفناه عن موقف الحكومة هو ما جأنا من خلال وشاية: لقد أصدروا الأوامر بتركنا نرصد موضوعنا كمجانين طلقاء، إلى أن يصيبنا الملل. لم يكن ذلك سهلاً، فسؤالنا اليومي كان ينتشر في الشارع كتحية شعبية: "مرحباً يا أخي، ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟".

وفي ليلة لا تخطر على بال، ودون أي إنذار مسبق، أغلقت دورية عسكرية شارع سان خوان دي ديوس بجلبة أصوات وقمقمة أسلحة، ودخل الجنرال أرنستو بولانسيا بويو، قائد الشرطة المجيشة، إلى مبنى جريدة الأوتيفرسال، وهو يبطاً الأرض بقوة، كان يرتدي الزي العسكري الأبيض المخصص للمناسبات الكبرى، وطماقاً ملمعاً بالورنيش. بينما السيف معلق إلى جانبه بحيل من الحرير، وأزراره وشاراته تلمع كأنها من الذهب. لم يكن ينتقص مقدار ذرة من سمعته كمتأنق وجذاب، وإن كنا نعرف أنه رجل صلب في السلام والحرب، وهو ما أثبتته بعد سنوات

من ذلك بقيادته للفرقة الكولومبية، في حرب كوريا. لم يتحرك أحد خلال الساعتين المتوترتين من محادثة، على انفراد، مع المدير. تناولا اثنين وعشرين فتجان قهوة سوداء، دون سجائر ودون كحول، لأنهما كليهما كانا متحررين من آفة الإدمان. ولدى خروجه، بدا الجنرال أكثر توتراً وهو يصفاحنا فرداً فرداً. وقد تأخر أكثر قليلاً في مصافحتي. نظر إلى عيني مباشرة بعينه الثاقبتين، وقال لي:

- أنت ستصل بعيداً.

طفر قلبي من مكانه، فقد فكرت في أنه ربما يعرف كل شيء عني، وأن البعيد الذي سأصل إليه، في نظره، قد يكون الموت. وعندما اجتمع المدير مع ثابالا على انفراد، ليطلععه على محادثته مع الجنرال، كشف له عن أن الجنرال يعرف من يكتب كل تعليق في الجريدة، باسمه وكنيته. وقد قال له المدير، بإيماء خاصة تميزه، إن كل ما يكتب يتم بأمر منه، وإن الأوامر في الصحف، تنفذ مثلما في الشككات العسكرية. ولكن الجنرال نصح المدير، على أي حال، بأن يهدئ الحملة، فقد يظهر متوحش، من رجال الكهوف، راغب في إحقاق العدالة باسم حكومته. فهم المدير المغزى من ذلك، وفهمنا جميعنا حتى ما لم يقله. وكان أكثر ما فاجأ المدير هو تباهي الجنرال بمعرفة تفاصيل الحياة الداخلية في الجريدة، كما لو أنه يعيش فيها. جمعنا كنا موقنين بأن عميله السري هو الرقيب، على الرغم من أن هذا الأخير أقسم برفات أمه، أنه ليس الواشي. الشي. الوحيد الذي لم يحاول الجنرال الإجابة عليه، خلال زيارته، هو سؤالنا اليومي. وقد نصحننا المدير، المعروف بحكمته، بأن نصدق ما قاله لنا، لأنه يمكن للحقيقة أن تكون أسوأ بكثير.

منذ أن التزمت بالحرب ضد الرقابة، لم أعد أعبأ بالجامعة، ولا بالقصص القصيرة. ولحسن الحظ، أن معظم الأساتذة لم يكونوا يجرون تفقداً للحضور، مما كان يسهل حضور الدروس والتغيب عنها. أضف إلى ذلك أن الأساتذة الليبراليين الذين يعرفون مشاكلي مع الرقابة، كانوا يعانئون أكثر مني وهم يبحثون عن طريقة لمساعدتي في الامتحانات. واليوم، بينما أنا أحاول رواية تلك الأحداث، لا أجد أثراً لتلك الأيام في ذاكرتي. وقد انتهى بي الأمر إلى الإيمان بالنسيان أكثر من الذاكرة.

نام أبوأي مطمئنين، منذ أن أعلمتهما بأنني أكسب في الجريدة، ما يكفيني للعيش. لم يكن ذلك صحيحاً. فراتبني الشهري كمتدرب، لم يكن يكفيني أسبوعاً. وقبل انقضاء ثلاثة شهور، تركت الفندق بديون لا يمكنني تسديدها. وقد قابضتني عليها صاحبة الفندق، فيما بعد، بنشر ملاحظة في صفحة المجتمع عن عبء ميلاد حفيدتها الخامس عشر. ولكنها لم توافق على مثل تلك الصفقة، سوى مرة واحدة.

مكان النوم الأكثر ارتياداً وبرودة في المدينة، كان لا يزال شارع الشهداء، حتى في أزمته حظر التجوال. فقد كنت أنام هناك جالساً، بعد أن تنتهي السهرات التي تستمر حتى الفجر. وفي أحيان أخرى، كنت أنام في مستودع الجريدة، فوق لفافات الورق، أو أذهب حاملاً أرجوحة نومي الشبكية، تحت إبطي، إلى غرف طلاب آخرين عاقلين، ما داموا قادرين على تحمل كوابيسي وعادتي السيئة بالتكلم نائماً. هكذا عشت تحت رحمة الحظ والقدر، أكل ما أجد وأنام حيث يشاء الله، إلى أن اقترحت عليّ قبيلة آل فرانكو مونيرا الإنسانية، أن تقدم لي الوجبتين اليوميّتين بسعر أقرب إلى الإحسان. كان والد القبيلة -بوليفار فرانكو

باريخا - معلماً تاريخياً في المدارس الابتدائية، ورب أسرة مرححة ومتعصبة، تضم فنانيين وكتّاباً. فكانوا يجبرونني على أن أكل، أكثر مما كنت أدفعه لهم، كيلا يجف دماغي. وفي أحيان كثيرة، لم يكن لدي ما أدفعه، ولكنهم كانوا يكتفون بأشعار أقيها عليهم بعد تناول الطعام. وكانت نسبة كبيرة من تلك الصفقة المشجعة، هي مقاطع لدون خورخي مانريك في موت أبيه، و"أغنيات العجر" لغارسيا لوركا.

المواخير المكشوفة في العراء على شواطئ تيسكا، بعيداً عن صمت سور المدينة المفلق، كانت أكثر ضيافة من فنادق السياح على الشواطئ. وكنا حوالي ستة طلاب جامعيين نلتقي في "البجعة" منذ ليلة التحضير للاختبارات الأولى، تحت أنوار فناء الرقص المبهرة. كان نسيم البحر وجوّار السفن عند الفجر، يواسينا من صحب التحاسيات الكاربية، ومن إثارة الفتيات اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية، ويتناير واسعة جداً، يرفعها هوا البحر حتى خصورهن. وبين حين وآخر، تدعوننا عصفورة نحن إلى أبيها، للنوم مع نزر الحب اليسير المتبقي لديها، عند الفجر. إحداهن، وما زلت أتذكر اسمها وحجمها جيداً، أسلمت نفسها لإغواء الادعاءات المتسجحة التي كنت أرويها لها، وأنا نائم. وفضلها نجحت بمادة القانون الروماني، دون تلاعبات لفظية؛ وأفلتت من عدة مدهامات، عندما حظرت الشرطة النوم في الحدائق. كنا متفاهمين كزوجين منتقمين، ليس في السرير فقط، وإنما كذلك، في الأعمال المنزلية التي كنت أقوم بها بدلاً منها، في الفجر، لكي تتمكن هي من النوم بضع ساعات إضافية.

في أثناء ذلك، بدأت أستقر جيداً في عملي. في كتابة التعليقات الاقتراحية. وكنْتُ أعتبره على الدوام، شكلاً أقرب إلى الأدب، منه إلى

الصحافة. كانت بوغوتا كابوساً من الماضي، على مسافة متني فرسخ، وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر. لا أتذكر منها إلا عفونة رماد التاسع من نيسان. وكنتُ ما أزال غارقاً في حمى الفنون والآداب، لا سيما في مسامرات منتصف الليل. ولكنني بدأت أفقد الحماس في أن أصير كاتباً. وكان ذلك صحيحاً إلى حد أنني لم أعد إلى كتابة قصة واحدة، بعد القمص الثلاث التي نُشرت في الاسبكتادور، إلى أن عشر عليّ إدواردو ثالاميا في أوائل شهر تموز، وطلب مني، بوساطة من المعلم ثابالا، أن أرسل إليه قصة أخرى لنشرها في جريدته، بعد ستة شهور من الصمت. ولأن الطلب جاء منه، استجعت، كيفما اتفق، بعض الأفكار الضائعة في مسوداتي، وكتبت "الضلع الآخر للموت"، وكانت أكثر قليلاً من الشيء نفسه. أتذكر جيداً أنه لم يكن لها أي موضوع مسبق. فرحت أختلقه في أثناء كتابتها. وقد نُشرت يوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٨، في ملحق "نهاية الأسبوع"، مثل سابقتها. ولم أعد إلى كتابة مزيد من القصص، حتى السنة التالية، عندما كانت حياتي قد تبدلت. لم يكن ينقصني إلا التخلي عن دروس الحقوق القليلة التي أتابعها، بين حين وآخر، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإلها. حلم أبوي.

لم أكن أنا نفسي، أنصور آنذاك، أنني سأكون عما قريب، طالباً أفضل مما كنته في أي وقت آخر، في مكتبة غوستافو إيبارا ميرلانو. وهو صديق جديد، عرفني عليه ثابالا وروخاس هيرانو بحماس كبير. كان قد رجع لتوه من بوغوتا، بشهادة من دار المعلمين العليا، وانضم فوراً إلى مسامرات الأصدقاء في الأونيفرسال، ومناقشات الفجر في

شارع الشهداء. وبين طلاقة لسان هيكتور البركانية وإرتياحية ثابالا الخلاقة، أسهم غوستافو بإضافة الصرامة المنهجية التي كانت تفتقدتها كثيراً، أفكاره المرجلة والمشعبة، وخفة قلبي. وكل هذا وسط رقة كبيرة وطبع حديدي.

منذ اليوم التالي، دعاني إلى بيت أبويه على شاطئ ماريبيبا، حيث يشكل البحر الفسح فناء خلفياً. وكانت فيه مكتبة تغطي جداراً كاملاً طوله اثنا عشر متراً، جديدة ومرتبنة، تحفظ فيها الكتب التي لا بد من قراءتها من أجل عيش الحياة دون تأنيب ضمير. كانت هناك طبعات لأعمال الكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، معتنى بها جيداً كما لو أنها لم تُقرأ، لكن هوامش صفحاتها تحمل خريشة ملاحظات حكيمة، بعضها باللاتينية. وكان غوستافو يقرؤها بأعلى صوته. وحين ينطق بها يحمر خجلاً، حتى جذور شعره، ويحاول هو نفسه أن يجد مخرجاً لها بسخریات لاذعة. لقد قال لي عنه أحد الأصدقاء، قبل أن أتعرف إليه: "هذا الشخص خوري". وسرعان ما أدركت السبب في سهولة تصديق ذلك، على الرغم من أنه، بعد التعرف إليه، كان من شبه المستحيل، تصديق أنه ليس كذلك.

في تلك الليلة الأولى، تبادلنا الحديث، دون توقف، حتى الفجر. وعرفت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ولكنها مدعمة بمعرفة متعمقة لأعمال المشفقين الكاثوليكيين المعاصرين، ممن لم أكن قد سمعت بهم قط. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، خاصة أشعار الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يقرأ أعمالهم في طبعات أصلية. وكانت لديه، أحكام تستند إلى معطيات جيدة، عن أصدقائنا

المشركين. وقد قدم لي معلومات ثمينة، لكي أحبيهم أكثر. وأكد لي كذلك، أهمية التعرف على صحفيي بارانكيثا الثلاثة - سيبيدا، وبارغاس، وفوينسيور -، الذين طالما حدثني عنهم روخاس هيراثو والمعلم ثابالا. وقد لفت انتباهي أنه، فضلاً عن كل مزاياه الفكرية والتمردية، يتقن السباحة، كبطل أولمبي، بجسدٍ مصاغٍ ومدربٍ ليكون كذلك. وكان أكثر ما ألقفه بشأني، هو ازدرائي للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يبدون لي، ملين وغير مقيدين، باستثناء الأوديسة التي كنت قد قرأتها وأعدت قراءتها، متفرقة، عدة مرات في المعهد. وهكذا، وقبل أن يودعني، اختار من المكتبة، كتاباً مجلداً بالجلد، وقدمه إليّ، بنوع من الوقار قائلاً: "يمكن لك أن تصير كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون جيداً جداً على الإطلاق، ما لم تتعرف بعمق، على الكلاسيكيين الإغريق." كان الكتاب هو الأعمال الكاملة لسوفوكليس. وكان غوستافو، منذ تلك اللحظة، أحد الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأن أوديب ملكاً تكشف لي من القراءة الأولى، عن أنها العمل كامل الإتقان.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لأنني اكتشفت فيها غوستافو إيبارا وسوفوكليس في الوقت نفسه، ولأنه كان يمكن لي، بعد ساعات من ذلك، أن أموت ميتة سيئة في حجرة خطيبي السرية في "البجعة". أتذكر كما لو أن ذلك حدث بالأمس، عندما قام وصي قديم عليها، كانت تظنه ميتاً منذ أكثر من سنة، بتحطيم باب غرفتها ركلاً، وهو يصرخ بشتائم من به مس. تعرفت فيه فوراً على زميل طيب من زملائي في مدرسة أراكاتاكا الابتدائية، عائد والسخط يملؤه ليستعيد مرقعه

في فراشها. لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ ذلك الحين، وقد أبدى سلامة ذوق، بتجاهله ما جاء من أجله، عندما تعرف عليّ وأنا عارٍ، بضمخني الرعب في السرير.

تعرفت في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار دي لا إسبريتا، وهما محدثان لا يملان الحديث، ولا سيما في البيوت التي تحظرها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في تروباكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهران كل يوم تقريباً، في مسامرات الكتاب والفنانين في صالة أميركانا للمثلاثات. كان راميرو، خريج كلية الحقوق في بوغوتا، مقرباً من جماعة جريدة الأوتيفرسال. وفيها كان ينشر عموداً طوعياً. كان أبوه محامياً صلياً وليبرالياً غير متزمت، وكانت زوجته امرأة محببة، ولا تستطيع أن تكتم سراً. وكلاهما يتمتع بالعادة الحميدة في تبادل الحديث مع الشباب. وقد قدما لي، خلال محادثاتنا الطويلة، تحت أشجار الدردار الوارقة في تروباكو، معلومات لا تشمن حول حرب الألف يوم، ذلك المعين الأدبي الذي جف بعد موت الجد. ومنهما ما زلتُ أحتفظ إلى الآن، بالرؤية التي أظنها أكثر دقة للجنرال راقانيل أوربي أوربي، بحضوره المهيب ومقاس معصيه.

أفضل شهادة عن الوضع الذي كنا عليه، أنا ورامون، في تلك الأيام، جسده في لوحة زينية على القماش، الرسامة سيسيليا بوراس التي كانت تشعر، في حفلات الرجال الصاخبة، كما لو أنها في بيتها، على الرغم من استنكار وسطها الاجتماعي. كانت اللوحة رسماً لنا نحن الاثنين، جالسين إلى طاولة المقهى الذي كنا نلتقي فيه معها ومع أصدقاء آخرين، مرتين كل يوم. عندما أراد كل واحد منا، أنا ورامون،

أن يمضي في طريق مختلف، دار بيننا جدل لا مجال فيه للاتفاق، حول من هو صاحب اللوحة. وقد حلت سيسيليا الأمر بالمعادلة السليمانية، إذ قصت اللوحة إلى نصفين بمقص تقليم أشجار، وأعطت كل واحد منا قسمه. بقي النصف الخاص بي ملفوفاً، لسنوات بعد ذلك، في خزانة شقة في كاراكاس، ولم أستطع استرداده قط.

على خلاف بقية أنحاء البلاد، لم يخلّف العنف الرسمي تأثيره في كارتاخينا حتى بدايات تلك السنة، عندما جرى اختيار صديقنا كارلوس أليمان نائباً في المجلس البلدي المحلي. عن دائرة مومبوكس الانتخابية الموقرة جداً. كان محامياً خارجاً لتوه من الفرن، وذا طبع مرح؛ ولكن الشيطان مازحه بتلك الدعاية الهيبثة، حيث جرى في الجلسة الافتتاحية تبادل إطلاق نار بين الحزبين المتضادين، وأحرقت رصاصة طائشة كتفية سترته، ولا بد أن أليمان قد فكر، بمبررات حسيدة، في أن سلطة تشريعية غير ذات نفع، مثلما هي عندنا، لا تستحق أن يضحى المرء بحياته من أجلها. وفضل أن يُنقِ حميته مقدماً، مع صحية طيبة من أصدقائه.

كان أوسكار دي لا إسبيريتا، وهو محب من الطراز الأول للهو واللصاف، يتفق مع وليم فوكنر في أن الماخور هو أفضل مقر إقامة للكاتب، لأن الصباحات فيه تكون هادئة، وهناك حفلة في كل ليلة، وعلاقة جيدة بالشرطة. وقد تبنى النائب أليمان ذلك الرأي بحذافيره، وصار ضيفنا طوال الوقت. ومع ذلك، فقد تدمت في إحدى تلك الليالي، لأنني صدقت أوهام فوكنر؛ عندما اندفع حام قديم لصاحبة الماخور، ماري ريبس، وحطم الباب ليأخذ ابنتها الذي كان يعيش معها.

وعمره حوالي خمس سنوات. فخرج حاميتها الحالي، وهو ضابط شرطة، من غرفة النوم بسروراله الداخلي، ليدافع عن شرف وممتلكات البيت، بمسدسه النظامي، فاستقبله الآخر برشقة رصاص دوت مثل قذيفة مدفع في قاعة الرقص. فارتعب رقيب الشرطة، ولاذ بغرفته للاختباء. وعندما خرجت من غرفتي، وأنا نصف عار، كان النزلاء العابرون يراقبون من غرفهم، الطفل الذي يبول في نهاية الممر، بينما الأب يمسد له شعره بيده اليسرى، ويمسك بيده اليمنى، المسدس الذي مازال الدخان يتصاعد منه. ولم تكن تُسمع في أجواء البيت سوى شتائم ماري، وهي تؤنب الرقيب لأنه جبان يفتقر إلى خصيتين.

في تلك الأيام بالذات، دخل إلى مكاتب الأوتيفرسال، رجل نارذ، خلع قميصه بحس مسرحي كبير، وراح يمشي في قاعة التحرير ليفاجئنا بظهوره وذواعبه المغطاة بقروح تبدو كما لو أنها من الاسمنت. وأوضح لنا بصوت راعد، وهو منفعل من الدهشة التي أثارها فينا، سبب تلك الآثار التي في جسده:

- إنها خرّمشات أسود!

الرجل هو إيميليو رازوري. وكان قد وصل لتوه إلى كارتاخينا، للإعداد لموسم السيرك الشهير الذي يملكه. وهو أحد أكبر سيركات العالم. كان السيرك قد غادر هافانا في الأسبوع السابق، في عابرة المحيطات أوسكيرا التي ترفع العلم الإسباني. ومن المنتظر وصوله يوم السبت التالي. وكان رازوري يتباهى بأنه وُجد في السيرك منذ ما قبل مولده. ولم تكن ثمة حاجة لرؤية استعراضه لاكتشاف أنه مروض حيوانات ضارية، كان يدعوها بأسمائها الخاصة، مثلما يدعو أفراد

أسرته، فترد عليه بمعاملة حميمة وقظة في الوقت نفسه. فهو يدخل أعزى إلى أقباص النور والأسود، ليقدم إليها طعامها بيده. وقد احتضنه، في إحدى المرات، دبه المدلل في عناق حب أقباص في المستشفى ربيعاً كاملاً. ومع ذلك، لم يكن هو نفسه جاذبية السيرك الكبرى، ولا عرض أكل النار كذلك، وإنما الرجل الذي كان يفك رأسه ويتمشى حول الحلبة، واضعاً الرأس تحت إبطه. ما لا يمكن نسيانه من إميليو رازوري، هو تمسكه الراسخ بالحياة. وبعد الاستماع إليه بانهار، على امتداد ساعات طويلة، نشرت في الأوتيفرسال تعليقاً افتتاحياً عنه، تجرأت فيه على الكتابة بأنه "أكثر الرجال الذين عرفتهم هولاً في إنسانيتهم". ولم يكن من تعرفت إليهم كثيرين، وأنا في الحادية والعشرين من عمري. ولكن تلك الجملة ما تزال صالحة، على ما أظن. حتى الآن. كنا نتناول طعامنا في "الكهف" مع العاملين في الصحيفة، وقد صار محبوباً هناك أيضاً بقصصه عن الضواري المأنسنة بالحب. وفي واحدة من تلك الليالي، بعد طول تفكير في الأمر، تجرأت على الطلب منه بأن يأخذني في سيركه، ولو لتنظيف الأقباص، عندما لا تكون النور بداخلها. لم يقل لي شيئاً، ولكنه مدّ لي يده بصمت. ففهمت ذلك على أنه كلمة سر خاصة بالسيرك، واعتبرت الاتفاق ناجزاً. الشخص الوحيد الذي اعترفت له بذلك، كان سلفادور ميسا نيشوس، وهو شاعر أنتيوكي (من أنتيوكيا)، يعيش خيمة السيرك إلى حد الجنون. حضر لتوه إلى كنا رتاخيتا كشيرك محلي لرازوري. وكان هو نفسه قد ذهب مع سيرك كذلك، عندما كان في مثل سني، فحذرتني من أن من يرون المهرجين، سيكون أول مرة، يرغسون في الذهاب معهم، ولكنهم

يتدمون في اليوم التالي. ومع ذلك، لم يكتف بتأييد قراري وحسب، بل أفتع المروض به، شريطة أن تتكتم على السر. بصورة مطلقة، كيلا يتحول إلى خبر قبيح أوانه. فتحول انتظاري السيرك إلى رغبة جامحة. بعد أن كان انفعالياً حتى ذلك الوقت.

لم تصل السفينة إوسكيرا في الموعد المحدد. وكان من المستحيل الاتصال بها. وبعد مرور أسبوع آخر، أقمتنا من الجريدة خدمة هواة راديو لتتبع الظروف المناخية في الكاريبي. ولكننا لم نتصن من الحيلولة دون بدء الصحافة والإذاعة في التفكير حول احتمالات الخبر المرعب. بقيت أنا وميسا نيشوس في تلك الأيام، متوترين مع إميليو رازوري، دون أكل ولا شرب، في غرفته في الفندق. رأناه بنهار، بضمراً حجماً وقدرة في الانتظار غير النهائي، إلى أن أكد القلب لنا جميعاً أن إوسكيرا لن تصل أبداً إلى أي مكان، ولن تتوفر أية أخبار عن مصيرها. بقي مروض الوحوش يوماً آخر معتكفاً في غرفته، وحيداً. وفي اليوم التالي، زارني في الصحيفة ليقول لي إنه لا يمكن لمئة سنة من المعارك اليومية، أن تتلاشى وتختفي في يوم واحد. ولهذا فإنه سيذهب إلى ميامي، دون مال ودون أسرة، لكي يعيد بناء السيرك الغارق. قطعة قطعة، انطلاقاً من العدم. لقد أذهلني تصميمه على تجاوز المأساة، فرافقته إلى بارانكيا لكي أودعه في الطائرة الذهابية إلى فلوريدا. وقيل أن يصعد إلى الطائرة، شكرني على قراري بالانضمام إلى سيركه، ووعدني بأن يعث في طلبي فور أن يتوفر لديه شيء ملموس. ودعني بعناق مستهتر، فهمت به من أعماق روحي، كيف هو حب أسوده. ولم أعد أعرف أي شيء عنه منذ ذلك الحين.

أقلعت الطائرة إلى ميامي في الساعة العاشرة من اليوم نفسه الذي ظهر فيه تعليقي عن رازوري في الجريدة: يوم السادس عشر من أيلول ١٩٤٨ . وكنت أستعد للعودة إلى كارتاخينا في مساء ذلك اليوم بالذات، عندما خطر لي زيارة إنناسيونال، الجريدة المسائية التي يكتب فيها خيرمان بارغاس وألفارو سيبيدا، صديقاً أصدقائي في كارتاخينا. كانت مكاتب تحرير الجريدة في بناء متآكل في المدينة القديمة، تتألف من صالة طويلة فارغة، يقسمها حاجز شرفة خشبي. وكان في أقصى الصالة، رجل شاب أشقر، يرتدي قميصاً قصير الكمين، ويكتب على آلة كاتبة تدوي ملامسها كأنها المفرعات في الصالة المقفلة. اقتربت على رؤوس أصابعي تقريباً، مغزماً من قطعة خشب الأرضية الكتيب، وانتظرت عند الشرفة إلى أن نظر إليّ، وقال لي بجفاً، ويصوت مديح محترف، متناسق:

ماذا تريد؟

كان شعره قصيراً، ووجنتاه فاسيتين. وبدت لي عيناه الصافيتان والحادتان متضابقتين من المقاطعة، فأجبتُه كيفما استطعت، وحرفاً حرفاً:

أنا غارسيا ماركيز.

ولدى سماعي اسمي منطوقاً بتلك القناعة، أدركتُ أنه يمكن لخيرمان بارغاس ألا يعرف من أكون، بالرغم من أن كثيرين في كارتاخينا، أخبروني بأنهم قد تحدّثوا عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرؤوا قصتي القصيرة الأولى. وكانت جريدة إنناسيونال قد نشرت تعليقياً متحمساً، كتبه خيرمان بارغاس الذي لا يتساهل مع المستجدات الأدبية. ولكن الحماس الذي قابلني به أكد لي أنه يعرف

جيداً من أكون، وأن عاطفته أكثر صدقاً مما قيل لي. بعد ساعات من ذلك، تعرفت على ألفونسو فوننمايور وألفارو سيبيدا في مكتبة "موندو"، وتناولنا المقبلات معاً في مقهى كولومبيا. أما دون رامون فينيس، الحكيم الكتلامي الذي كنت أرغب، بلهفة ووهية شديدتين، في التعرف إليه، فلم يحضر في مساء ذلك اليوم إلى جلسة الأصدقاء، في الساعة السادسة. عندما خرجنا من مقهى كولومبيا، بعد تناول خمسة كوؤس من الشراب، كنا نبدو كأننا أصدقاء، يعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات.

لقد كانت ليلة طويلة من البراءة. فآلفارو، السائق العبقري الأكثر ثقة بنفسه، والأكثر حذراً، كلما زاد في الشراب، قام باجتياز طريق المناسبات التاريخية. ففي "لوس أندروس"، وهي حانة في الهواء الطلق، تحت أشجار لوز مزهر، لا يستقبلون فيها سوى مشجعين متعصبين لنادي جونيور الرياضى، نشب نزاع بين عدة زبائن، أوشك أن ينتهي باللكمات. فحاولت تهدئتهم إلى أن نصحني ألفونسو بعدم التدخل، لأن رواد ذلك المكان هم دكاترة في كرة القدم، ويستأفون جداً من تدخل دعاة السلام. وهكذا أمضيت تلك الليلة في مدينة مختلفة تماماً، عن تلك التي عرفتها من قبل، وعن التي عرفها أبواي في سنواتهما الأولى، وعن مدينة سنوات الفقر التي عشناها مع أمي. وعن مدينة مدرسة سان خوسيه؛ إنها بارانكيا الأولى الخاصة بي، كبالغ، في فردوس مواخيرها.

كان الهي الصيني عبارة عن أربعة شوارع تضج بموسيقى معدنية ترج الأرض، إلا أن فيه كذلك، منعطفات خدمة منزلية تقارب الإحسان.

كان هناك مواخير أسرية يعكف أصحابها، مع نسايتهم وأبائهم، على خدمة زياتهم المجرين، وفق قواعد الأخلاق المسيحية وتقدم دون مانويل أنطونيو كارنيو. ويعمل بعضهم كفيلاً لكي توافق الفتيات المستجبات على مضاجعة الزبائن المعروفين بالدين. وكانت أقدمهن، مارتينا ألفارادو، تملك باباً سرياً وتعرفه إنسانية خاصة بالكهنة الثابنين. لم تكن هناك مشروبات مزيفة، ولا حسابات سكر، ولا مفاجآت أمراض زهرية، وكانت آخر الخبببرات الفرنسيات اللواتي جنن خلال الحرب العالمية الأولى، معتلات وكثيبات، يجلسن منذ الغروب، عند أبواب بيوتهن، تحت بقعة ضوء المصابيح الحمراء، بانتظار جيل ثالث من الزبائن. يؤمن بالقدرة الشبقية لواقباتهن الذكرية. وكانت هناك بيوت فيها صالونات مبردة لاجتماعات المتأمرين، ولتوفير ملاذ للعهد الهارين من زوجاتهم.

كان ساخور "القط الأسود"، مع فناه وقص تحت عريشة نبات متسلقة، فردوس البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيرية ذات بشرة برونزية تغني بالإنكليزية، وتبسع من تحت الطاولة، سراهم هذيانسة للسيدات والسادة. وفي ليلة تاريخية من حوليات، لم يستطع ألفارو سيبدا وكبكي سكوبيل تحمل عنصرية اثني عشر بحاراً ترويجياً، يقفون بالدور أمام حجرة المومس الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة بيضاء يشخرن جالسات في الفناء، فتحدباهم باللكمات. وخاض الاثنان مواجهة، بالقبضات وحدها، ضد الاثني عشر بحاراً، وأجبروهم على الفرار بمساعدة المومسات البيضاوات اللواتي استبقطن سعيدات، وأجهزن عليهم بالضرب بالكراسي. وأخيراً، في ترضية هذيانسة، توجوا الزنجية، وهي غارية، ملكة على الترويج.

كانت هناك، خارج الحي الصيني، بيوت علنية أو سرية أخرى، وجميعها على علاقة جيدة بالشرطة. أحدها كان فناه أشجار لوز كبيرة مزهرة في حي فقراء، فيه خيمة بائسة ومخدع بسريرين ضيقين للإيجار. أما بضاعته فكانت صغيرات مصابات بفقر الدم من الجوار، يكسبن مبلغ بيزو، دفعة واحدة من السكارى فاقتدي الرشد. لقد اكتشف ألفارو سيبدا المكان مصادفة، في مساء يوم ضل فيه الطريق، خلال وابل مطر تشريني، واضطر إلى اللجوء إلى الخيمة. فدعته صاحبة المحل لتناول البيرة، وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة، مع الحق بأن يكرر ذلك ريثما يتوقف المطر. وقد واصل ألفارو دعوة الأصدقاء لتناول البيرة المثلجة تحت أشجار اللوز، ليس من أجل مضاجعة الفتيات الصغيرات، وإنما لتعليمهن القراءة. وقد تمكن من الحصول على منح لأكثرهن مواظبة، كي يدرسن في المدارس الرسمية. وصارت واحدة منهن ممرضة في مستشفى الإحسان، بعد عدة سنوات، وأهدي البيت إلى السيدة، وحمل بيت الصغيرات البائس ذاك حتى انقراضه الطبيعي، اسماً مغريباً: "بيت الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع".

لم يخشوا ليلتي التاريخية الأولى في بارانكيا، سوى بيت الزنجية أوفيمبا، بفنائها الإسمنتي الفسيح المخصص للرقص، بين أشجار تمر هندي وارقة، وبأكواخه التي تزجر بخمسة بيزوات في الساعة، وموائده وكراسيه المطلية بألوان زاهية، تتمشى في ما بينها الكروانات على هواها. وكان أوفيمبا الهائلة والمنوية، تستقبل بنفسها الزبائن وتنتقيهم عند المدخل، وراء منضدة مكتب لا يوجد عليه سوى شيء واحد - لا تفسير له - هو مسمار ضخم من مسامير الكنيسة. وكانت هي

نفسها تتولى اختيار الفتيات، وفقاً لحسن تربيتهن ومفاتيهن الطبيعية. وتختار كل واحدة من الفتيات لنفسها الاسم الذي يروقها. وبعضهن كن يفضلن الأسماء التي يطلقها عليهن ألقارو سببيدا، والمستمدة من ولعه بالسبئما المكسبكية؛ إيما الحبيشة، سوزانا الشقية، عذراء منتصف الليل.

كان يبدو، من المستحيل، تبادل الحديث بوجود أوركسترا كاربية منتشية، بأعلى صوتها. بأغنيات المامبو الجديدة التي يغنيها بيرث برادو، وفرقة غنا بوليو، لنسيان الذكريات السيئة. ولكننا كنا جميعنا خبيرا في تبادل الحديث والنقاش، صارخين. وكان خيرمان وألقارو هما من أثارا موضوع النقاش في تلك الليلة، حول العناصر المشتركة في الرواية والريبورتاج الصحفي. وكانا متحمسين للريبورتاج الذي نشره لنتو، جون هيرسي حول قنبلة هيروشيما الذرية. أما أنا فكننت أفضل "يوميات سنة الطاعون" كشهادة صحفية مباشرة، إلى أن أوضح لي الآخرون بأن دانيل ديفو، لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، عند انتشار الطاعون في لندن. وهي الحالة التي استخدمها كنموذج.

وعبر هذا الطريق، وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو. وكان الثلاثة قد خاضوا حوله مناقشات سابقة، باعتباره أحجية للروائيين: كيف تمكن ألكسندر دوماس من جعل بحار ساذج، وجاهل، وفقير، ومسجون دون قضية، يتمكن من الهرب من قلعة محصنة، ويتحول إلى أغنى رجال عصره، وأكثرهم ثقافة؟ وكان الجواب هو أنه عندما دخل إدmond دانتس إلى قلعة إيف، كان قد تشكل فيه الأباتي قاربا، وهو

الذي نقل إليه في السجن، خلاصة حكمته ومعارفه، وكشف له عما يتوجب عليه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي يخبأ فيه كنز خراقي، وطريقة الهرب. هذا يعني أن دوماس قد صاغ شخصيتين مختلفتين، ثم عمد بعد ذلك، إلى تبديل مصيريهما. وهكذا، عندما هرب دانتس، كان قد صار شخصية ضمن شخصية أخرى. وكان الشيء الوحيد المتبقي منه هو جسده، كراو جيد.

كان من الواضح، لدى خيرمان، أن دوماس تعمد جعل شخصيته بحارا، لكي يمكنه من الهرب من الكيس، والسباحة حتى الشاطئ، عندما يلقون به إلى البحر. أما ألقونسو واسع المعرفة وأكثر الثلاثة تحيضا، فقد رد بأن كون الشخصية بحارا، لا يضمن ولا يعني أي شيء. لأن سبعين بالمئة من بحارة كريستوف كولومبس، ما كانوا يتقنون السباحة. لم يكن هناك ما يسعده أكثر من إلقاء ذرات الفلفل تلك، لكي يفقد الطبخ أي طعم من الحذقة. وفي خضم حماسي للعبة الألفاظ الأدبية تلك، رحن أحتسي دون حساب، كؤوساً من الروم مع الليمون، بينما كان الآخرون يتناولوه في رشقات تذوق صغيرة. وكانت النتيجة التي توصل إليها الثلاثة هي أن موهبة دوماس، وتلاعبه بالمعطيات، في تلك الرواية، وربما في كل أعماله، هي أقرب إلى موهبة وتلاعب كاتب ريبورتاجات صحفية، منها إلى روائي.

وقد انضح لي في النهاية، أن أصدقائي الجدد يقرؤون كينغيدو وجيسس جويس، بالجد والمنفعة نفسيهما اللذين يقرؤون بهما كونان دويل. وأنهم يتمتعون بحس دعابة لا ينضب. ويمكن لهم قضاء ليالٍ بطولها، وهم يغنون أغنيات بوليو وفانيتاتو، أو يلقون عن ظهر قلب، ودون تلغش،

أفضل أشعار العصر الذهبي. وقد توصلنا، عبر سبل مختلفة، إلى الاتفاق على أن ذروة الشعر العالمي هي مقاطع دون خورخي ماثريكي في موت والده. تحولت الليلة إلى تسلية متعمدة، قوضت آخر الأحكام المسبقة التي يمكن لها أن تعكر صداقتي لتلك العصابة من المرضى الأدبيين. لقد أحسست معهم، ومع الريم، بأنني على أحسن حال؛ فأزحت عن نفسي قيود الحياء. دعنتي سوزانا الشقية إلى الرقص، وكانت قد كسبت في شهر آذار من تلك السنة، مسابقة الرقص في الكرنفال، فأبعدوا الدجاج والكروانات من الحلبة، وأحاطوا بنا لتشجيعنا.

رقصنا مجموعة أغنيات المامبو الخاصة لداماسو بيريث برادو، واستوليت، بما تبقى لي من أنفاس، على المارাকা^(١) من مصطبة الفرقة الموسيقية التروبيكالية، وغنيت طوال أكثر من ساعة، أغنيات بوليو لدايسيل سانتوس، وأغوستين لارا، بيتشينيديو غرانادا، وكلما غنيت أكثر، أحسست بأنني أنتشي بتفحة حرية. لم أعرف قط، إذا ما كان الثلاثة فخورين بي أم خجلين مني. ولكنني، عندما رجعت إليهم على المائدة، استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ، عندئذ، موضوعاً لم يناقشه الآخرون من قبل؛ السينما. فكان بالنسبة لي، أشبه بلقبة وفرقتها العناية الإلهية، لأنني كنت أعتبر السينما على الدوام، فنّاً قرعياً يتغذى على المسرح أكثر من تغذّيه على الرواية. أما ألفارو بالمقابل، فكان يرى فيه إلى حد ما، ما أراه أنا في الموسيقى؛ فنّاً مقيداً لكل الفنون الأخرى.

(١) - المارাকা las maracas: آلة موسيقية كاريبية، تتألف من نشة مفرغ مجوفة تزود بنفوس، وتوضع فيها أحجار.

عند الفجر، كان ألفارو يقود السيارة المترعة بكتب حديثة الصدور، وملاحق نيويورك تايمز الأدبية، وهو بين التائم والمخمور، مثل سائق تكسي محترف. أوصلنا خيرمان وألفونسو إلى بيتيهما، وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته، لكي أتعرف على مكتبته التي تغطي ثلاثة جدران، من حجرة النوم، حتى السقف، وقد أشار بسبابته إلى الكتب، بحركة دائرية كاملة، وقال لي:

- هؤلاء هم الكتاب الوحيدون في العالم الذين يعرفون كيف

يكتبون.

كنتُ في حالة انشلاء، جعلتني أنسى ما كان يعنيه المجرع والنعاس بالأمس. كان الكحول لا يزال حياً في داخلي، كأنه حالة نعمة ربانية. أراني ألفارو كتبه المفضلة، بالإسبانية والإنكليزية. وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوته الصدى، وشعره المشعث، وعينيه الزائغتين أكثر من أي وقت آخر. تكلم عن أتورين وعن سارويان - وهما تقطننا ضعف لديه - وعن آخرين، يعرف حيواتهم العامة والخاصة، حتى سراويلهم الداخلية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم فيرجينيا وولف. وكان هو يسميها العجوز وولف، مثل العجوز فوكنر. وقد استشاره ذهولي حتى بلغ حد الهذيان. تناول كدسة الكتب التي أراني إياها، على أنها كتبه المفضلة، وضعها بين يدي قانلاً؛

- لا تكن أبله. خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها ستذهب

لإحضارها أينما تكون.

لقد كانت تلك الكتب بالنسبة لي، ثروة لا يمكن تصورها، فلم أنجزاً على المجازفة بأخذها، وأنا لا أملك حجرة صغيرة بانسة أضعها فيها.

واكتفى أخيراً بأن يهدي إلى الترجمة الإسبانية لرواية فيرجينيا وولف "السيدة دلوي"، مرفقاً ذلك بنسخة لا تقبل الاستئناف، بأنني سأحفظها عن ظهر قلب.

كان الفجر يبرغ. وكنت أرغب في العودة إلى كارتاخينا في أول حافلة. ولكن ألقارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريه. وقال بأخر نفس لديه:

- يا للجنة! ابق للعيش هنا، وغداً تجد لك وظيفة رائعة.

استلقيت بملايبي على السرير. وعندئذ فقط أحسست، في جسدي، بالثقل الهائل لكوني حياً. وفعل هو الشيء نفسه، وبقينا نائمين حتى الحادية عشرة صباحاً. عندهما أقدمت أمه، سارا سامرديو المحبوبة والحجولة، على طرق الباب بقبضتها، معتقدة أن ابن حياتها الوحيد قد مات.

- لا تهتم بها يا معلم - قال لي ألقارو من أعماق حلمه، وأضاف: - إنها تقول الشيء نفسه صباح كل يوم. والخطير هو أن ذلك سيكون صحيحاً في أحد الأيام.

رجعتُ إلى كارتاخينا بمزاج شخص اكتشف العالم. لم تعد جلسات ما بعد تناول الطعام، في بيت آل فرانكو مونيرا تقضي، عندئذ، في قراءة أشعار العصر الذهبي الإسباني و"عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة" لنيرودا، وإنما في قراءة مقاطع من "السيدة دلوي" وهذيانات شخصيتها المؤثرة سيبتيموس وارن سمث. لقد صرتُ شخصاً آخر، جزعاً وضعباً، إلى حد أن هكتور والمعلم ثابالا رأيا في ذلك، محاكاة واعية لألقارو سيبيدا. أما غوستافو إيبارا، برؤيته المشفقة كقلب كاربي، فقد

استمتع بقصتي عن ليلة بارانكيا، بينما هو يقدم لي جرعات أكثر فأكثر حكمة من الشعراء الإغريق، مع الاستثناء الواضح وغير المفسر أبداً، لأعمال بوربيديس. كشف لي عن ملفيل: ماثرة "موسى ديك"، والمعظمة العظيمة حول بونس، من خلال صيادي الحيتان المجريين في كل بحار العالم، تحت القبة الهائلة المشيدة من أضلاع الحيتان. وأعارني "البيت ذو الأسقف السبعة" لثانينال هوثورن الذي أثر بي مدى الحياة. وحاولنا معاً، التوصل إلى نظرية حول حتمية الحنين في تبه إوليسيس الأوديسي، وضره في الأفاق، حيث ضعننا ولم نجد مخرجاً. ولكنني وجدته محلولاً بعد نصف قرن من ذلك، في نص لميلان كوتندرا.

وإلى تلك المرحلة بالذات، يعود لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبيث، المشهور بلقب "الأعور"، والذي ابتكر طريقة مريحة لبيكون ميتاً دون أن يموت، ومدفوناً دون أن يُدفن، وبلا خطابات تكريم قبل ذلك كله. كان يعيش في مركز المدينة التاريخي، في بيت تاريخي يقع في شارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يزج أحداً. كان يُرى مع قلة من الأصدقاء الدائمين، بينما كانت سمعته كشاعر كبير، تواصل التعظيم في حياته، مثلما تتعظم أمجاد ما بعد الموت وحدها.

سمي الأعور، دون أن يكون كذلك، لأنه كان في الواقع، أحول وحسب. ولكن بطريقة مختلفة كذلك، ومن الصعب تمييزها. وكان أخوه دومنغو لوبيث إسكاوربانا، مدير جريدة الأوتيفرسال، يرد بالجواب نفسه دوماً، على من يسأله عنه:

- إنه هناك.

الجواب يبدو متهرباً، ولكنه الحقيقة الوحيدة: فقد كان هناك حياً أكثر من أي شخص آخر، ولكن مع مزية كونه حياً دون أن يُعرف الأمر كثيراً، متنبهاً إلى كل شيء ومصمماً على الذهاب للدفن بقدميه. كان الكلام يدور عنه، كما عن أثر تاريخي، ولا سيما بين من لم يسمعه قط. ولهذا لم أحاول رؤيته منذ وصولي إلى كازتاخيننا، احتراساً لامتيازاته كرجل خفي. كان عمره آنذاك ثمانية وستين عاماً، ولم يكن هناك من يخامره الشك في أنه أحد كبار شعراء اللغة، في كل العصور، مع أننا لم نكن كثيرين، نحن الذين نعرف قيمته وسبب تلك القيمة. ولم يكن من السهل، تصديق ذلك، بسبب نوعية أشعاره الغريبة.

ثالاثاً. وروخاس هيراثو، وغوستافو إيبارا، وجمبعينا، كنا نحفظ قصائد من شعره عن ظهر قلب، وكنا نردها دوماً دون تكبير، بصورة عفوية وصائبة، لكي ندخل الإشراق إلى أحاديثنا. لم يكن منعزل الطباع وإنما خجولاً. لا أتذكر أنني رأيت حتى الآن، صورة له، إذا كان له صورة ما. وإنما بعض رسوم الكاريكاتير السهلة التي كانت تنشر مكان الصورة. وأظن أننا نسينا أنه ما يزال حياً، بسبب عدم رؤيته. وفي أحد الأيام، بينما كنت أنهى مقالتي اليومية، سمعت صرخة ثالاثا المخنوقة:

- يا للجنة! إنه الأعور!

رفعت بصري عن الآلة الكاتبة، ورأيت أغرب رجل شاهدته في حياتي. أقصر بكثير مما كنا نتصوره، وشعر شديد البياض إلى حد يبدو معه أزرق، وشديد التشعث، بحيث يبدو مستعاراً. لم يكن أعور العين اليسرى، وإنما مثلما يشير لقبه، بصورة أفضل: أحول. وكان يرتدي ملابس، كما لو أنه في البيت: يتطال من قماش قطني رقيق وقاتم،

وقميص مخطط. يده اليمنى على مستوى الكتف، ومبسم فضي مع سيجارة مشتعلة لا يدخنها، ويسقط رمادها دون نقضه، عندما لا يعود تماسكه ممكناً.

مر، عَرَضاً، حتى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين من ذلك، عندما لم يبق أحد سواي، أنا وثالاثا في قاعة التحرير، ننتظر مصافحته. وقد مات بعد حوالي سنتين من ذلك. والهزة المؤثرة التي خلفها في الموالين له، لم تكن بسبب الإحساس بالأسى لموته، وإنما انبعائه. ففسي أثناء عرضه في التابوت، لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان عليه، وهو حي.

في تلك الفترة نفسها، ألقى الكاتب الإسباني داماسو ألونسو وزوجته، الروائية أولاليا كالغارباتو، محاضرتين في مدرج الجامعة الكبير. المعلم ثابالا الذي لم يكن يروقه أن يزجج حياة الآخرين، تغلب في تلك المرة، على تحفظه، وطلب منهما لقاء. ورافقناه أنا وغوستافو إيبارا، وهيكتور روخاس هيراثو. وقد حدث تفاعل فوري معهما. بقينا قرابة أربع ساعات في قاعة خاصة، في فندق الكاربيبي، نتبادل الانطباعات حول رحلتنا الأولى إلى أميركا اللاتينية، وأحلامنا ككتاب جدد. قدم إليهما هكتور كتاب أشعار، وقدمت أنا إليهما نسخة مصورة من إحدى قصصي المنشورة في الاسبكتادور. وكان أكثر ما أثار اهتمامنا، نحن الإثنين، هو صراحة تحفظاتهما، لأنهما يستخدمانها كتأكيد موارد للمديح.

في شهر أكتوبر، وجدت في الأوتيفرسال، رسالة من غنشالو مايارينو يقول لي فيها، إنه ينتظرنني مع الشاعر ألفارو موتيس في فيلا توليبان، وهو نزل لا ينسى في منتجع بوكاغراندي البحري، على

بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه الطيار تشالز لينديبرغ، قبل نحو عشرين سنة. وكان غونثالو - شريك في جلسات إلقاء الشعر الخاصة في الجامعة - محامياً ممارساً، وقد دعاه موتيس ليتعرف على البحر، بوصفه مدير العلاقات العامة في شركة LANSA، وهي شركة طيران محلية أسسها طياروها بالذات.

كان قد تصادف، مرة واحدة على الأقل، نشر قصائد موتيس وقصص لي في ملحق "نهاية الأسبوع". وكان لقاءنا كافياً لأن نبدأ محادثة لم تنته، في أماكن لا حصر لها من العالم، طوال أكثر من نصف قرن. وكثيراً ما سألتنا أولادنا أولاً، ثم أحفادنا بعد ذلك، عم نتكلم بكل ذلك الشغف الضاري. وكنا نجيبهم بالحقيقة؛ إننا نتكلم دوماً، في الموضوع نفسه.

صداقتي الإعجازية مع ناضجين في عالم الفنون والآداب، منحني الحماس لمواصلة العيش في تلك السنوات التي ما زلت أتذكرها، على أنها أكثر سنوات حياتي التباساً وتقلباً. في العاشر من تموز، نُشرت آخر مقالة لي في زاوية "نقطة وسط جديد" في الأوتيفرسال، بعد ثلاثة شهور عسيرة لم أستطع خلالها، تجاوز حاجزي كمتدرب مبتدئ، وفضلت قطعها والخروج بالميزة الوحيدة المتوفرة، ألا وهي الهرب قبل نوات الأوان. لذت بالإفلات من المسؤولية، في تعليقات الصفحة الافتتاحية، دون توقيع، اللهم إلا عندما يتوجب تضمينها لمسة شخصية. واطبت عليها بروتينية محض، حتى أيلول ١٩٥٠، حيث أنهيتها بمقالة رنانة عن إدغار آلان بو، ميزتها الوحيدة هي كونها الأسوأ. كنت ألع، طوال تلك السنة، على أن يعلمني المعلم ثابالا أسرار

كتابة الريبورتاجات الصحفية. ولكنه، بطبعه الغامض، لم يحسم الأمر. غير أنه أبقاني مشوشاً بلغز طفلة في الثانية عشرة من عمرها، دفنت في دير سانتا كلارا، وغما شعرها بعد موتها، أكثر من منتي متر، خلال قرنين. لم أتصور مطلقاً أنني سأعود إلى الموضوع نفسه، بعد أربعين سنة، لأقصه في رواية رومانسية ذات تداخلات مشؤومة. ولكن تلك الأزمنة لم تكن أفضل أزمتي للتفكير. فقد كنت أغضب لأنفسه الأسباب، وأتغيب عن العمل دون تفسير، إلى أن يرسل المعلم ثابالا من يكبح جماحي ويروضني. نجحت في الامتحانات النهائية لسنة الحقوق الثانية، بضرورة حظ، مع حملي مادتين اثنتين، واستطعت التسجيل في السنة الثالثة. وقد انتشرت إشاعة تقول إنني توصلت إلى ذلك النجاح، بفعل ضغوط سياسية من جانب الجريدة. وكان على المدير أن يتدخل، عندما جرى اعتقالي لدى الخروج من السينما، ومعني دفتر تجنيد مزيف. وكانوا قد أدرجوا اسمي في قائمة لتكليفني بمهمات أمن عام تاديبية. وبسبب غشاوتي السياسية في تلك الأيام، لم أعلم حتى بأن حالة الطوارئ قد فُرضت من جديد، في البلاد، بسبب تردي الأمن العام. شددت الرقابة من قبضتها على الصحافة، وتخلخلت الأجراء، كما في أسوأ الأزمنة، وراحت شرطة سياسية معززة بمجرمين عاديين، تزرع الرعب في الأرياف، أجبر العنف الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم. أما مرشحهم المحتمل، داريو إتشانديا، وهو أستاذ أساتذة في القانون المدني، متشكك بالولادة وقسائى مدمن للكتاب الإغريق واللاتينيين، فأعلن عن تأييده لامتناع الليبراليين عن خوض الانتخابات. صار الطريق مفتوحاً لانتخاب لاوريانو غوميث الذي بدا أنه يحرك الحكومة، بخيوط غير مرئية، من نيويورك.

لم أكن أعني بوضوح، في ذلك الحين، أن تلك الأحداث العارضة المشؤومة، ليست مجرد مخاز مشيئة يقترقها المحافظون، وإنما هي أعراض تبدلات خبيثة ستطرأ على حياتنا، إلى أن خطر لي في واحدة من ليالينا الكثيرة في الكهف، أن أتباهى بمشيتي في عمل ما أرغب فيه. فأبقى المعلم ثابلاً ملعقة الحساء معلقة في الفضاء، بعد أن كان على وشك تناولها، ونظر إليّ من فوق قوس نظارته، وأوقفني بجفاً:

- قل لي يا غابرييل: وسط كل الحماسات التي تمارسها، هل استطعت أن تلاحظ أن هذه البلاد آخذة بالدمار؟

أصاب السؤال الهدف. وبينما أنا مخمور حتى النخاع، استلقت لأثام عند الفجر، على مقعد في شارع الشهداء، فحولني مطر توراني إلى ما يشبه حساء عظام. بقيت أسبوعين في المستشفى مصاباً بالتهاب رئوي مقاوم لأول المضادات الحيوية المعروفة. وكانت تتمتع بالسمعة السيئة في أنها تسبب أعراضاً جانبية مخيفة، مثل العجز المبكر. صرت أكثر شحوباً وأقرب إلى هيكل عظمي مما أنا عليه عادة، فاستدعاني أبواي إلى سوكري، من أجل ترميم صحتي من العمل المجهد - حسب ما قالاه في رسالتهما -. وقد مضت الأونيفرسال أبعد من ذلك، بنشرها تعليق وداع، كرستني فيه صحفياً وكاتباً بارعاً. وفي تعليق آخر اعتبرتنى فيه مؤلف رواية لم يكن لها وجود قط، ويعنوان لم يكن لي: "لقد قطعنا الحشيش". والأغرب أن ذلك جاء في وقت لم تكن لدي فيه، أية نوايا للعودة إلى التورط في القصص التخيلي. الحقيقة أن من اخترع ذلك العنوان الغريب عني تماماً، هو هيكتور روخاس هيراثو، بسرعة الآلة الكاتبة، على أنه مساهمة أخرى من سيسر غيرا بالديس،

وهو كاتب وهمي من أنقى السلالات الأمريكية اللاتينية، اختلقه هيكتور نفسه لإغناء مناظراتنا. كان قد نشر في الأونيفرسال خيراً عن وصوله إلى كارتاخينا. وكتبت أنا تحية موجهة إليه في زاويتي "نقطة وسطر جديد" على أمل نفث الغبار عن الوعي الهاجع لرواية قارية حقيقية. وعلى كل حال، فقد جرت الإشارة بعد سنوات، في مقالة حول كتبي، لا أدري أين أو لأي سبب، إلى الرواية الوهمية ذات العنوان الجميل الذي أبدعه هيكتور، باعتبارها أحد الأعمال الأساسية في الأدب الجديد.

الجو الذي وجدته آنذاك في سوكري، كان ملائماً جداً لأفكارني في تلك الأيام. كتبت إلى خيرمان بارغاس، طالباً منه أن يرسلوا لي كتباً.. الكثير من الكتب.. أكبر عدد ممكن منها، لأغرق في أعمال بارزة، خلال فترة نقاهة مقدر لها أن تستمر ستة شهور. كانت القرية في حالة فيضان. وكان أبي قد تخلص من عبودية الصبديلية، وشيد عند مدخل القرية، بيتاً يتسع للأبناء.. وكنا قد صرنا أحد عشر ابناً منذ مولد إليخيو، قبل ستة عشر شهراً من ذلك. بيت كبير يغمره الضوء، مع شرفة لاستقبال الزوار، مفتوحة على تسعات كانون الثاني. كانت في البيت، ست غرف نوم جيدة التهوية، مع سرير لكل واحد منا. وليس كل اثنين في سرير، كما هو الحال في السابق. وكانت هناك حلقات لتعليق أراجيح النوم على مستويات متعددة، حتى في الممرات. أما الفناء غير المسيج، فيمتد حتى الجبل، وفيه أشجار مشرفة متروكة تحت تصرف العموم، وحيوانات لنا وللآخرين، تنجول في الحجرات. ذلك أن أمي التي كانت تحن إلى أفنية طفولتها في بارانكيا وآراكاتاكا، تعاملت مع

البيت الجديد، كما لو أنه مزرعة، فيه دجاج ويط دون قن، وخنزير
متهتكة تنسل إلى المطبخ لتأكل الأطعمة المعدة للغداء. وكان لا يزال
بالإمكان، استغلال فصول الصيف للنوم والنوافذ مفتوحة، مع مهمة
الريو التي يصدها الدجاج من فوق المشاجب، ورائحة ثمار الغوانابانا
الناضجة التي تسقط عن الأشجار عند الفجر، وتتفزر بفرقة آنية
وقوية. "تبدو كأنها أطفال"، هذا ما كانت تقول أمي لدى سماعها. أما
أبي، فقد قصر الاستشارات، في الفترة الصباحية، على قلة من المؤمنين
بالطب التجانسى، وواصل قراءة آية ورقة مطبوعة تصل إليه، وهو
مستلق في أرجوحة نوم يعلقها بين شجرتين. وأصيب بعدوى حمى
التسلية بالليباردو لتحمل كآبة الغروب. وكان قد تخلى كذلك، عن
ارتداء ملابس القطنية البيضاء وربطة العنق، وصار يضي في الشارع،
مثلما لم أره من قبل؛ بقمصان شياوية قصيرة الأكمام.

كانت الجدة ترانكيليتا إغوران قد ماتت قبل شهرين، عميا وخرفة.
وقد واصلت في صحو الاحتضار، الوعظ، بصوتها المشرق ونطقها
السليم، معلنة أسرار الأسرة. وكان موضوعها الأبدى. حتى النفس
الأخير، هو راتب الجد التقاعدي. هياً أمي الجثة بعيدان الند الحافظة،
وغظاها بالكلس داخل التابوت، من أجل تفسخ هادئ. لقد كانت لويسا
سنتياغا تقدر على الدوام، شغف أمها بالورود الحمراء، فغرست لها
حديقة منها في أقصى الغناء، كيلا تفتقدها أبداً، وهي في قبرها. وقد
حققت تلك الورود بها، رائعاً في تفتحها، حتى إن الوقت لم يعد يكفي
لإرضاء الغريباء الذين يأتون من بعيد، متلهفين لمعرفة إذا ما كانت كل
تلك الأزهار الباهرة، من شؤون الرب أم الشيطان.

تلك التبدلات في حياتي وفي أسلوبى، في العيش، كانت تستجيب
للتبدلات التي طرأت على أسرتي. ففي كل زيارة، تبدو لي الأسرة
مختلفة، بفعل إصلاحات ومحولات أبوي، وبسبب الأخوة الذين يولدون
ويكبرون متشابهين جداً، إلى حد يسهل معه الخلط بينهم، أكثر من التعرف
عليهم. فأخي خمسي، وكان في العاشرة من عمره، هو أكثر من تأخر في
مفارقة الحصن الأمومي، بسبب وضعه كخديج. ولم تكد أمي تتوقف عن
إرضاعه، حتى ولد هيرناندو (نانتشي). وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ولد
ألفريدو ريكاردو (كوكي). وسنة ونصف، بعدها، إليخيو (بيو)، الأخير.
وكان خلال إجازتي تلك، قد بدأ باكتشاف معجزة الحب.

وكنا نحصى كذلك، أبناء أبي قبل وبعد زواجه: كارمن روسا، في
سان ماركوس، وأبيلاردو اللذان كانا يأتيان لقضاء فترات في سوكرى؛
وخيرمان هاناى (إيمى) الذي تبنته أمي، كما لو كان ابنها، وسط رضى
الأخوة. وأخيراً أنطونيو ماريا كلاريت (تونيو) الذي تربي في كنف أمه
في سينشى، وكان يزورنا بكثرة، خمسة عشر ابناً في المحصلة، تأكل
كأننا ثلاثون، عندما يكون هناك ما يؤكل، ونحن لمجلس حيشا نستطيع.
الروايات التي صاغها أختي الكبار عن تلك السنوات، تقدم فكرة
شاملة عما كان عليه البيت الذي لم تكن تنتهي فيه تربية ابن إلا ويأتي
آخر، لقد كانت أمي نفسها واعية لذنبها، وكانت تتوسل إلى بناتها لكي
يتولين أمر الصغار. وقد كانت مارغوت تموت رعباً عندما تكتشف أن
أمها حبلى من جديد، لأنها تعرف أن الأم لن تجدد، وحدها، الوقت
الكافي لتربيتهم جميعاً. ولهذا رجت أمها بجديرة مطلقة، قبل أن تذهب
إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا، بأن يكون الأخ التالي هو الأخير.

وقد وعدتها أمي بذلك، كالعادة، ولو لمجرد إرضائها، لأنها كانت واثقة من أن الرب، بحكمته الواسعة، سيحل المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كانت الزوجيات على المائدة كارثية. لأنه لم تكن هناك طريقة لجمع الكل معاً. فكانت أمي وأختي الكبيرتان تقدمان الطعام كلما حضر الآخرون، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يحضر أحدهم متأخراً بعد البدء بتناول الحلوى، ليطالب بوجبه. وخلال الليل يأخذ الصغار بالانتقال إلى سرير الوالدين، لأنهم لا يستطيعون النوم بسبب البرد أو الحر، بسبب ألم الأضراس أو الخوف من الموتى، بدافع حب الأبوين أو الغيرة من الآخرين. ويطلع الصباح عليهم جميعاً، متكومين في السرير الزوجي. وإذا لم يولد أحد بعد إليخيو، فإن الفضل في ذلك يعود إلى مارغوت التي فرضت سلطتها، بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وجعلت أمي تنجز وعدها بعدم إنجاب مزيد من الأبناء.

لسوء الحظ، أن الواقع وجد متسعاً من الوقت ليفرض خطأً أخرى على شقيقتي الكبيرتين، فبقينا عازبتين مدى الحياة. فقد انضمت عايدا، كما في الروايات الوردية، إلى دير، مصدره على نفسها حكماً بالمؤبد، ولكنها تخلصت منه بعد اثنتين وعشرين سنة، بكل قانونية. وعندها لم تجد رافائيل نفسه، أو أي آخر سواء في متناول يدها. أما مارغوت، بطبعها الصلب، فقدت رافائيلها بسبب خطأ من كليهما. وخلافاً لهذه السوابق الحزينة، تزوجت ريشا من أول رجل أعجبها، وعاشت سعيدة مع خمسة أبناء وتسعة أحفاد. أما الأختان الأخريان - ليخيا وإيبي - فتزوجتا من أرادتتا، بعد أن تعب الأبوان من الصراع ضد الحياة الواقعية.

كانت كروب أسرتي تبدو كأنها جزء من الأزمة التي تعيشها البلاد، بفعل انعدام اليقين الاقتصادي، والنزف في العنف السياسي الذي وصل إلى سوكري، مثل موسم مشؤوم، ودخل البيت على رؤوس أصابعه، وإنما بخطوات واثقة. كنا قد أكلنا آنذاك الاحتياطي الضئيل، وصرنا فقراء جداً مثلما كنا عليه في بارانكيا، قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن أمي لم تشعر بالقلق، ليقينها المجرب بأن كل طفل يأتي إلى الدنيا وخبزه تحت إبطه. كان هذا هو وضع البيت، عندما أتيت من كارناخينا، للنقاها من الالتهاب الرئوي. غير أن الأسرة كانت قد تواطأت، منذ زمن، كيلا يظهر عليها ذلك.

الموضوع الذي كان يشغل الجميع، في القرية، هو العلاقة المزعومة بين صديقنا كايانو خينتيلي ومعلمة مدرسة، في دسكرة تشابهارال المجاورة؛ وهي فتاة جميلة، وضعها الاجتماعي مختلف عن وضعه. إلا أنها جذبة جداً، ومن أسرة محترمة. لم يكن ذلك غريباً؛ فقد كان كايانو صاحب غراحيات متنقلة على الدوام، ليس في سوكري وحدها، وإنما كذلك، في كارناخينا، حيث درس الثانوية وبدأ بدراسة الطب. ولكن، لم يكن يُعرف أن له خطيبة معينة في سوكري، ولا رقبقات مفضلات في حفلات الرقص.

في إحدى الليالي رأينا آتياً من مزرعته، على متن أفضل جواد لديه. وكانت المعلمة تجلس على السرج، ممسكة الأعنة في قبضتها، وهو على ردف الحصان، محتضناً خصرها. لم نحتاج إلى الحميمية التي بلغاها، وإنما بجرأتهما في الدخول من ممر الساحة الرئيسية، في ساعة الحركة القصوى. وفي قرية سيئة الظنون. وقد أوضح كايانو لمن رغب

كاسيخ الذي كنت قد رأيتَه آخر مرة، يعني ضمن فرقة موسيقية، في الحي الصيني، في بارانكايرميخا، في رحلتي الثانية أو الثالثة، عبر نهر مجدلينا. وجدته أكثر تعقلاً مما كان عليه في تلك المرة، ولديه قصة مهلوسة عن رحلاته العديدة إلى لاسيربي. وقد عرفت عندئذ، كل ما يمكن معرفته عن المركيزيتا، مالكة وسيدة تلك المملكة الفسيحة، التي تعرف ترتيبات سرية من أجل فعل الخيبر والشر، أو من أجل إنهاء محتضر من فراشه، دون معرفة أي شيء عنه سوى وصف جسده، والمكان الدقيق الذي هو فيه، أو من أجل إرسال أفعى، عبر المستنقعات، تسبب الموت لعدو، بعد ستة أيام.

الشيء الوحيد المحجوب عنها، هو بعث الموتى، لأنها قدرة تخص الرب وحده. وقد عاشت كل السنوات التي شاءتها. ويعتقد أنها بلغت مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة، ولكن دون أن تهرم يوماً واحداً، بعد بلوغها السادسة والستين. وقبل موتها، جمعت قطعانها الحراقية، وجعلتها تدور طوال يومين وليلتين، حول بيتها، إلى أن تشكل مستنقع لاسيربي، وهو بحر بلا حدود، تغطيه سحابة من شقائق النعمان الفوسفورية. ويقال إن في منتصفها، شجرة تحمل ثمار بقطين من الذهب، ويربط إلى جذعها زورق، يندفع مبحراً بمجرد في الثاني من تشرين الثاني، كل عام، وهو يوم الموتى، محرسه تماسيح بيضاء، وحيات ذات جلاجل ذهبية، حتى الضفة الأخرى، حيث دفنت المركيزيتا ثورتها الهائلة غير المحدودة. منذ أن روى لي أنخل كاسيخ هذه القصة الخيالية، بدأت أختنق بالهفة لزيارة فردوس لاسيربي الجناح في دنيا الواقع. جهزنا كل شيء: خبولاً محصنة بترتيلات معكوسة، زوارق غير مرئية، وخبراء ساحرين، وكل ما هو ضروري لكتابة تحقيق صحفي عن واقع خارق.

ومع ذلك، فقد بقيت البغال مسرجة تنتظر؛ إذ إن نقاهتي البطينة من الالتهاب الرئوي، وسخريبات الرفاق في حفلات الرقص، في الساحة، وعبر الأصدقاء الكبار المرعبة، اضطررتني إلى تأجيل الرحلة حتى سرعدت تال لم يحن قط. ومع ذلك، فإنني أتذكر ذلك الآن، كحدث حسن الطالع، لأنني باقتعاد المركيزيتا الخيالية، انقسمت منذ اليوم التالي، بعمق، في كتابة روايتي الأولى، وهي التي لم يبق لي منها سوى العنوان: "البيت".

كانت الرواية تطمح إلى أن تكون دراما من حرب الألف يوم، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وقد تحدثتُ عنها مع مانويل زاباتا أوليفيا، خلال زيارة سابقة إلى كارتاخينا. ففي تلك المناسبة، ودون أن تكون للأمر أي علاقة بمشروعي، أهدى إلي كتاباً كتبه أبوه عن محارب قديم من خاضوا تلك الحرب، فذكرتني صورته المطبوعة على الغلاف، بالسترة شبه العسكرية والشارب المحترق بالبارود، بجدي، بطريقة ما. لقد نسيت اسمه الأول، أما كنيته فظلت معي إلى أبد الأبدين؛ بوتنديا. ولهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان البيت، عن ملحمة أسرة، يمكن لها أن تتضمن الكثير من ملامح أسرتنا، خلال حرب الكولونيل نيكولاس ماركيز القاحلة.

كان العنوان يستند إلى التوبة في عدم خروج الأحداث مطلقاً، خارج البيت. كتبتُ عدة مطالع، ومخططات لشخصيات جزئية كنت أضع لها أسماءها الأسرية. وقد استخدمتها، فيما بعد، في كتب أخرى. إنني متحسّس للضعف تجاه جملة، تنتهي كلمتان متقاربتان فيها، بالقافية نفسها، حتى ولو كانت قافية صوتية. وأفضل عدم نشرها ما لم أتمكن

من إيجاد حل لها. ولهذا السبب، كنت على وشك التخلي، في مرات كثيرة، عن كنية بوينديا، بسبب قافيتها التي لا مهرب منها مع صيغة الفعل الماضي الناقص. ومع ذلك، فقد فرض اللقب نفسه عليّ، لأنني كنت قد توصلت إلي تكوين هوية مقنعة له.

لقد كنت مستغرقاً في هذا الأمر، عندما طلع الصباح في البيت، في سوكري، على صندوق خشبي بلا أي كتابة أو إشارة. وقد استلمته أختي مارغوت دون أن تدري من، مفتتحة بأنه بقية متأخرة من الصيدلية المباعية. وقد ظننت أنا الشيء نفسه، وتناولت الفطور مع الأسرة، وقلبي مستقر في مكانه. وأوضح أبي بأنه لم يفتح الصندوق لأنه فكر في أنه بقية أمتعتي، دون أن يتذكر أنه لم يبق لدي بقية من أي شيء في هذا العالم. وعندئذ قرر أخي غوستافو، وكان لديه، وهو في الثالثة عشرة، ما يكفي من الخبرة العملية لتسمير أي شيء، أو انتزاع المسامير منه، أن يفتح الصندوق دون الحصول على إذن بذلك. وقد سمعنا بعد دقائق، صرخته:

- إنها كتب!

قفر قلبي، قبلي. وكانت بالفعل كتباً دون أي أثر يدل على المرسل، معلبة بيد خبيثة حتى حافة الصندوق، ومعها رسالة يصعب حل رموزها، بسبب خطها الهيروغليفي وغنائية خيرمان بارغاس المحكمة: "ها قد وصلتك هذه اللعنة يا معلم. فلنر إن كنت ستتعلم أخيراً". وكانت تحمل كذلك، توقيع ألفونسو فونينابور، وخرينة عرفت أنها بخط دون رامون فينيس الذي لم أكن قد تعرفت عليه بعد، والشيء الوحيد الذي ينصحونني به هو عدم الإقدام على اعتراف أي انتحال يكون ملحوظاً

جداً. وكانت هناك، داخل كتاب فوكرتر، ملاحظة من ألفارو سيبيدا، يخطه العويص، وقد كتبت فوق ذلك بأقصى سرعة؛ يخبرني فيها أنه سيسافر في الأسبوع التالي مدة سنة، لاتباع دورة خاصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك.

كان أول ما فعلته هو عرض الكتب على منضدة غرفة الطعام، بينما كانت أمي ترفع بقايا الفطور. وكان عليها أن تتسلح بمكنسة، لإبعاد أبنائها الصغار الذين أرادوا قص الصور بمقص لتقليم الأشجار، والكلاب الشاردة التي راحت تتشمم الكتب، كأنها شيء، بؤكل. وأنا أيضاً، كنت أشمها، مثلما أفعل دوماً بكل كتاب جديد. تصفحتها جميعها، دون تعيين، لأقرأ منها بانتباه فقرات متفرقة. بدلت مكاني ثلاث أو أربع مرات، في الليل، لأنني لم أكن أجد الراحة أو لأن ضوء ممر الفناء الشاحب كان ينفد. واستيقظت، وقد أصيبت بالتواء في ظهري، ودون أن تكون قد تشكلت لدي أدنى فكرة بعد، عن الفائدة التي يمكن لي أن أجنيها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً مميّزاً لمؤلفين معاصرين، كلها بالاسبانية، ومختارة بنية واضحة، وهي أن تُقرأ من أجل هدف وحيد: تعلم الكتابة. وبينها ترجمات حديثة جداً مثل "الصخب والعنف" لوليم فوكرتر. لقد صار من المستحيل، بعد مرور خمسين سنة، أن أتذكر القائمة الكاملة. كما أن الأصدقاء الأيديين الثلاثة الذين يعرفونها، لم يعودوا هنا ليتذكروها. كنت قد قرأت اثنين منها فقط: السيدة دلوي للسيدة وولف، و"مباراة شعرية" لألدوس هاكسلي. والكتب التي أتذكرها أكثر من سواها، هي أعمال ولیم فوكرتر: البيت الريفي، والصخب والعنف،

وبينما أرقد محتضرة، والنخلات المتوحشات. وكذلك مانهاتن ترانسفير، وربما كتاب آخر لجون دوس باسوس؛ وأورلاند ليفيرجينا وولف؛ وفتران ورجال، وعناقيد الغضب لجون شتاينبيك، وصورة جيتي لروبيرت ناان، وطريق التبغ لإرسكين كالدويل. وبين العناوين التي لا أتذكرها عن مسافة نصف قرن، كان هناك، على الأقل، كتاب لهيمنغواي، ربما هو قصص قصيرة، لأنها كانت أكثر أعماله محطاً لإعجاب أصدقاء بارانكيا الثلاثة. وكتاب آخر لخورخي لويس بورخيس، لا شك في أنه كتاب قصص قصيرة أيضاً. وربما كتاب آخر لفيليب سبيريتو هيرانانديث، القصص الأروغواي الوحيد الذي كان أصدقائي قد اكتشفوه للتو. بإعجاب. قرأتها جميعها في الشهر التالي. بعضها بصورة جيدة وأخرى أقل من ذلك. وبفضلها استطعت الخروج من الليمبوس الإبداعي الذي كنت عالماً فيه.

منعت من التدخين، بسبب النزلة الصدرية. ولكنني كنت أذخن في الحمام، كما لو أنني أختبئ من نفسي. لاحظ الطبيب ذلك وكلمني بجدية. ولكنني لم أتمكن من الانصياع له. وعندما كنت في سوكرري، بينما أنا أحاول أن أقرأ، دون هواة، الكتب التي تلقيتها، كنت أشعل سيجارة من عقب أخرى، إلى أن لم أعد قادراً على المزيد. وكلما حاولت ترك التدخين، كنت أذخن أكثر. وصلت إلى تدخين أربع علب سجائر في اليوم. وكنت أقطع وجبات الطعام لكي أذخن، وأحرق ملامات السرير لأنني أغفو، والسيجارة مشتعلة. وكان الخوف من الموت، يوقظني في أي ساعة من ساعات الليل، فلا أستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التدخين، إلى أن قررت أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك، وكنت قد تزوجت وصار لي ابنان، واصلت التدخين. وحين رأى طبيب رتني على الشاشة، قال لي مدعوراً إنني لن أتمكن من التنفس، بعد سنتين أو ثلاث سنوات. أصابني الرعب، وبلغ بي الأمر حد البقاء جالساً لساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً آخر، لأنني لم أعد أستطيع القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تبادل الحديث مع الأصدقاء أو الأعداء، دون تدخين. وفي إحدى الليالي، خلال عشاء عارض في برشلونة، كان طبيب نفساني صديق يشرح لآخرين أنه، ربما كان التدخين هو الإدمان الذي يصعب التخلص منه أكثر من سواه. فتجرات على سؤاله عن السبب العميق وراء ذلك، فكان رده تبسيطاً يبعث على القشعريرة:

- لأن ترك التدخين سيكون بالنسبة لك، أشبه بقتل كائن عزيز. ما حدث كان أشبه بتفجر بصيرة. لم أعرف السبب قط، ولم أشأ معرفته. لكنني سحقت، في المنفضة، السيجارة التي كنت قد أشعلتها للتو، ولم أعد للتدخين بعدها، بلا جزع ولا أسف. طوال ما تبقى من حياتي. الإدمان الآخر، لم يكن أقل إلحاحاً. في مساء أحد الأيام، دخلت إحدى خادמות البيت المجاور. وبعد أن تكلمت إلى الجميع، جاءت إلى الشرفة. وباحترام كبير، طلبت مني الإذن بالتكلم معي. لم أقطع القراءة إلى أن سألتني:

- هل تتذكر ماتيلدي؟

لم أتذكر من تعني. لكنها لم تصدقني.

- لا تتظاهر بالغباء يا سيد غابيشو - قالت لي ذلك، بتفخيم

واش، وأضاف: - إنها نيغرو-ما-تا.

والحقيقة أن نيجروماتا كانت حينئذ امرأة طليقة، لديها ابن من الشرطي الميت. وكانت تعيش بمفردها، مع أمها وآخرين من أسرتها في البيت نفسه، إنما في حجرة منعزلة، لها مخرج خاص يؤدي إلى طرف المقبرة. ذهبت لرؤيتها، وألح عليّ اللقاء المتجدد مدة تزيد على الشهر. وكنت في كل مرة، أؤجل العودة إلى كارتاخينا، وأريد البقاء في سوكري إلى الأبد. حتى كان فجر يوم فاجأتني فيه، وأنا في بيتها، عاصفة رعد وبروق، مثل ليلة الروليت الروسي. حاولت الاحتساء تحت أفاريز البيسوت، ولكنني عندما لم أعد أستطيع ذلك، اندفعت إلى منتصف الشارع، حيث بلغ الماء ركبتي. وقد حالني الحظ بوجود أمي وحدها في المطبخ، فأخذتني إلى غرفة النوم، عبر الحديقة، كيلا يعلم والدي بالأمر. وما إن انتهت من مساعدتي على خلع القميص المبلل، حتى أبعدته بمد ذراعها بعيداً، وهي تمسك به بالسبابة والإبهام، وألقت به إلى الركن بحركة قرف، وقالت:

- كنت مع الساقطة.

أصابني الجمود.

- وكيف تعرفين!

فقالته بهدوء أعصاب:

- لأنها الرائحة نفسها التي جثت بها في تلك المرة. لحسن الحظ أن الرجل قد مات.

فاجأني إظهارها تلك القسوة، لأول مرة في حياتها. ولا بد أنها لاحظت ذلك، لأنها عززت قولها، دون تفكير في الأمر:

- إنها الميتة الوحيدة التي أسعدتني، عندما علمت بها.

- وكيف عرفت من تكون!

فتنهدت:

- آي بني، الرب يخبرني بكل ما له علاقة بكم.

ساعدتني أخيراً على خلع البنطال المبلل، وألقت به إلى الركن، مع بقية الملابس. "جميعكم ستكونون مثل أبيكم"، قالت لي ذلك فجأة بهمسة عميقة، بينما هي تمسح ظهرها بمنشفة من القنب. وانتهت إلى القول من روحها:

- عسى أن يجعلكم الرب أزواجاً صالحين مثله.

لا بد أن الرعاية الدراماتيكية التي أخضعتني لها أمي قد أعطت أكلها في محاشي عودة الالتهاب الرئوي. إلى أن انتهت إلى أنها كانت تعتقد تلك الرعاية دون سبب، لتمنعني من العودة إلى فراش رعد وبروق نيجراماتا. فلم أعد إلى رؤيتها قط.

رجعت إلى كارتاخينا مستعيداً عافيتي وسعيداً، وحاملاً خبر أنني أكتب "البيت". وكنت أتحدث عنها، كما لو أنها عمل ناجز. منذ أن كنت في فصلها الأولي. استقبلني ثابالا وهيكتور مثلما يستقبلان ابناً ضالاً. ويبدو أن أساتذتي الطيبين في الجامعة، قد استسلموا لتقبلي على ما أنا عليه. وواصلت في الوقت نفسه، كتابة تعليقات عارضة جداً، كانوا يدفعون مقابلها بالقطعة في الأونيفرسال. أما مسيرتي كقصص، فتواصلت بالقليل الذي استطعت كتابته، من أجل إرضاء المعلم ثابالا تقريباً: "حوار المرأة" و"مرارة المرسفين الثلاثة"، نشرتا في الاسبيكتادور، مع أنه كان يُلاحظ فيهما تخفُّف من البلاغة الابتدائية التي تبدت في القصة الأربع السابقة، إلا أنني لم أستطع الخروج من المستنقع.

كانت كارتاخينا قد أصيبت آنذاك، بعدوى التوتر السياسي الذي يعم بقية أرجاء البلاد. وكان لا بد من اعتبار ذلك نبوءة شوم، وإشارة إلى أن شيئاً خطيراً سيحدث. في أواخر تلك السنة، أعلن الليبراليون مقاطعتهم التامة للانتخابات، بسبب وحشية الاضطهاد السياسي. لكنهم لم يتخلوا عن مخططاتهم السرية لإسقاط الحكومة. اشتد العنف في الأرياف، فهرب الناس إلى المدن، لكن الرقابة كانت تجبر الصحافة على الكتابة المتوترة. ومع ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن الليبراليين الملاحقين قد شكلوا وحدات حرب عصابات في أماكن مختلفة من البلاد. ففي السهوب الشرقية - وهذه محيط فسبح من أعشاب خضراء يغطي أكثر من ربع مساحة الشراب الوطني - صارت تلك الوحدات أسطورية. وكان ينظر إلى قائدها العام، غوادالوبي سالثيدو، كشخصية خرافية، حتى من قبل الجيش. فكانت صورته توزع سراً، وتنسخ بالمشات وتضاء لها الشموع على المذابح.

كان الأخوة دي إسبريبياً يعرفون، كما يبدو، أكثر مما يقولونه، وكان الحديث داخل منطقة السور، يجري بصورة طبيعية عن انقلاب وشيك ضد النظام المحافظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل. ولكن المعلم ثابالا نبهني إلى وجوب المحضور فوراً إلى الجريدة، إذا ما لاحظت وقوع أية اضطرابات في الشوارع. لقد كان التوتر شديداً إلى حد يمكن معه لمسه باليد، عندما دخلت، لإيجاز موعد في محل مثلجات أميركانا، في الساعة الثالثة، بعد الظهر. جلست أقرأ على منضدة معزولة، ربما يأتي الشخص المنتظر، فقال لي أحد زملائي القداماء، وهو يمزح، ولم أكن قد تحدثت معه في السياسة قط:

- اذهب إلى الجريدة، فالأمر على وشك الحدوث.

فعلت عكس ما قاله: كنت أريد أن أعرف كيف سيحدث ذلك في مركز المدينة بالذات، بدلاً من أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق من ذلك، جلس إلى طاولتي، ضابط من مكتب الصحافة الحكومي، وكنت أعرفه جيداً. ولم يخطر لي بأنهم كلفوه بتحييدي. تبادلنا الحديث معه نحو نصف ساعة، بأقصى حالات البراعة. وعندما نهض لينصرف، اكتشفت أن صالة محل المشروبات الفسيحة قد أخلت بالكامل، دون أن ألاحظ ذلك. تابع هو نظرتي في المكان، وتأكد من الوقت: الواحدة وعشر دقائق. ثم قال لي براحة مكبوتة:

- لا تقلق، لن يحدث أي شيء.

وبالفعل، فقد كان أبرز قادة الليبراليين، ممن أصابهم العنف الرسمي بالقطوع، قد اتفقوا مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المراتب، لوضع حد للمذبحة التي يقتربها، في كل أنحاء البلاد، النظام المحافظ المستعد للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن. كان معظمهم قد شارك في اتصالات التاسع من نيسان، من أجل التوصل إلى السلام، من خلال اتفاق أبرموه مع الرئيس أوسيينا بيريث. ولم يكدمر عشرون شهراً على ذلك، حتى أدركوا، بعد فوات الأوان، أنهم كانوا ضحية خدعة هائلة. وهكذا، فإن العملية الانقلابية المحبطة التي كان مخططاً لها أن تتم في ذلك اليوم، صادق عليها رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس بيراس ريسترينو، من خلال بلينيو ميندوتا نيبيرا الذي تربطه علاقات ممتازة بالقوات المسلحة. مذ كان وزيراً للحربية، في ظل الحكومة الليبرالية. وكان يتوجب بدء العملية التي نسقها ميندوتا نيبيرا، بالتعاون المتكتم

مع محازبين في كل أنحاء البلاد، في فجر ذلك اليوم، بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية. وكان التحرك يلقى دعم القاعدتين البحريتين في كارتاخينا وأببسي، ومعظم الحاميات العسكرية في البلاد، والمنظمات النقابية المصممة على تولي السلطة لإقامة حكومة مدنية تتولى المصالحة الوطنية.

بعد إخفاق العملية فقط، عُرف أن الرئيس السابق إدواردو سانتوس، كان قد جمع في بيته في بوغوتا، قبل يومين من الموعد المقرر، القادة الليبراليين وقادة الانقلاب من أجل مراجعة نهائية للمشروع. وفي أثناء المناقشة، وجه أحدهم السؤال التقليدي:

- هل ستحدث إراقة دماء؟

ولم يكن هناك أحد ساذج أو صفيق إلى حد القول: لا، وأوضح قادة آخرون بأنه تم اتخاذ أقصى الاحتياطات كيلا تكون هناك إراقة دماء، إلا أنه لا توجد صفات سحرية للحيلولة دون حدوث ما هو غير متوقع. فأصدرت الإدارة الليبرالية، المرعوبة من مؤامرتها بالذات، الأوامر بالغاء العملية. عدد كبير من المتواطئين الذين لم يُبلغوا بالأمر في الوقت المناسب، جرى اعتقالهم أو قتلهم أثناء المحاولة. ونصح آخرون ميندوثا بأن يواصل العملية وحده حتى الاستيلاء على السلطة. فأحجم عن فعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية، ولكن لم يتوفر له الوقت ولا الوسائل لإخبار جميع المشاركين بالغاء العملية، وقد تمكن من اللجوء إلى سفارة فنزويلا. وعاش أربع سنوات متقيماً في كاراكاس، بعيداً عن المجلس الحربي الذي حكم عليه غيابياً، بخمس وعشرين سنة سجناً بتهمة التمرد. والآن، بعد اثنتين وخمسين سنة من

ذلك، لا يرتعش نبضي وأنا أكتب - دون إذن منه - بأنه أحسن بالندم طوال ما تبقى من حياته، في منفاه في كاراكاس، بسبب حصيلة القتل الذي حصدهم الحزب المحافظ وهو في السلطة: ليس أقل من ثلاثمئة ألف قتيل، خلال عشرين سنة.

لقد كانت لحظة حاسمة، بطريقة ما، بالنسبة لي أنا أيضاً. فقبل شهرين من ذلك، كنت قد تخلت عن دراستي لسنة الحقوق الثالثة، ووضعت حداً لالتزامي مع جريدة الأوتيفرسال، لأنني لم ألمح لي مستقبلاً في أي منها. وكانت الذريعة هي تحرير وقتي، من أجل كتابة الرواية التي لم أكد أبدأ بها، مع أنني كنت أعرف، في أعماق روحي، بأن ذلك لم يكن صدقاً ولا كذباً، وإنما تكشف لي مشروع الرواية، فجأة، على أنه صيغة بلاغية، فيها شيء قليل جداً من الجيد الذي استطعت استخلاصه من فوكر، وكل ما هو سيئ من انعدام تجريبي. وسرعان ما تعلمت أن رواية قصص موازية للقصص التي يكتبها أحدنا - دون الكشف عن جوهرها - هو جزء ثمين التصوير والكتابة. ولكن لم تكن هذه هي حالتي آنذاك، وإنما كان افتقاري إلى شيء محدد أعرضه، هو ما دفعني إلى اختلاق رواية محكية، ألهم بها المستمعين وأخدع نفسي.

أجبرني وعي ذلك، على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يزد قط عن أربعين صفحة غير مؤكدة، من أقصاه إلى أقصاه. ومع ذلك، فقد ذكر في مجلات وصحف - ومن قبلي أنا أيضاً - بل نُشرت عنه، مسبقاً، بعض المقالات النقدية شديدة الرصانة، كتبها قراء واسعو المخيلة. أما توجهي نحو عادة رواية مشاريع موازية لما أكتبه، فلم يكن يستحق، في العمق، اللوم. وإنما الشفقة، لأنه يمكن لرعب الكتابة أن

يكون غير محتمل مثل رعب عدم الكتابة. يضاف إلى ذلك، في حالتي، أنني مقتنع بأن رواية القصة الحقيقية هو مجلة لسوء الطالع. ومع ذلك، فإثني أجد العزاء في أنه يمكن للقصة المحكية، أن تكون أحياناً أفضل من المكتوبة، وأنا نقوم كذلك، دون أن ندرى، باختراع جنس أدبي جديد يحتاج الأدب إليه: تخيل التخيل.

حقيقة الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف سأواصل العيش. نقاهتي في سوكري أفادتني في إدراك أنني لا أعرف أين أمضي في الحياة. غير أنها لم تمنحني إشارة لتوجه صائب، ولا حجة واحدة جديدة أفتع بها أبوي بأنهما لن يموتا إذا ما سمحت لنفسي بحرية اتخاذ القرار بنفسي. وهكذا ذهبت إلى بارانكيا، ومعني متنا بيزو أعطتني إياها أُمي قبل عودتي إلى كارتاخينا، مختلسة من الرصيد العائلي.

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٩، دخلتُ إلى مكتبة سونديو، في الساعة الخامسة مساءً، لانتظر الأصدقاء الذين لم أعد لرؤيتهم، منذ ليلتنا في شهر أيار، عندما ذهبت مع السيد رازوري الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل معي سوى حقيبة شاطئ، فيها غيار ملابس آخر، وبعض الكتب وحافظة الأوراق المجلدية التي تضم مسوداتي. بعد دقائق من وصولي جاؤوا جميعهم إلى المكتبة، واحداً بعد الآخر. وكان ترحيباً صاحباً لم يحضره ألفارو سيبيدا الذي كان لا يزال في نيويورك، وعندما اكتملت الجماعة، ذهبنا لتناول المقليات. وكان تناولها قد تحول من مقهى كولومبيا المجاور للمكتبة، إلى فناء مسور يرتاده الأصدقاء المقربون على الرصيف المقابل: مقهى جابي.

لم تكن لي وجهة محددة، لا في تلك الليلة ولا في بقية حياتي.

والغريب أنني لم أفكر، قط، في أنه يمكن لتلك الوجهة أن تكون بارانكيا. وإذا كنتُ قد ذهبت إلى هناك، فبأنا للحدث في الأدب وحسب، وتقديم الشكر، بجسدي الحاضر، على إرسالية الكتب التي بعثوا بها، إليّ في سوكري. بالنسبة إلى الأمر الأول، توصلنا إلى فائض منه. أما الثاني فلا شيء، بالرغم من محاولاتي الكثيرة المتكررة، لأن الجماعة كانت تخاف خوفاً طقسياً من تقديم الشكر وتلقيه فيما بين أفرادها.

ارتجّل خيرمان بارغاس في تلك الليلة، طعاماً لاثني عشر شخصاً، كان بينهم أناس من كل الأوساط، ابتداءً من صحفيين ورسامين وموثقي عقود، حتى حاكم القطاع، وهو من المحافظين التقليديين في بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم. وقد انسحب معظمهم بعيد منتصف الليل، وراح الآخرون ينصرفون فرادى، إلى أن لم يبق سوى ألفونسو وخيرمان وأنا، ومعنا الحاكم، وهو لا يزال يحافظ، إلى هذا الحد أو ذاك، على سلامة أحكامه. مثلما اعتدنا أن نكون عند الفجر في سن المراهقة.

وخلال تبادلنا الطويل للأحاديث في تلك الليلة، تلقيت درساً مفاجئاً، حول طريقة حكام المدينة في التصرف، في السنوات الدامية. فقد كان الحاكم يقدر أن أضعف الناس أملاً، وسط أضرار تلك السياسة الهمجية، هو عدد مشير للدهشة من اللاجئين في المدينة، يعيشون دون سقف ولا خبز. وانتهى إلى القول:

- إذا ما استمرت الحال على هذا النحو، فإن حزبي سيبقى، بقوة السلاح، دون خصم يتنافس في الانتخابات القادمة، وسيكون سيد البلاد المطلق.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيًا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي ينتهجها المحافظون المحلبون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإحصار. أردتُ أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

- المعذرة. هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية تحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلسل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجيء، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللصراة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك. وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه الجرجرة، ذهبنا إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الانتشاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسمه المستعار في مقاله البيومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب. ثم أخرى بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف:-- فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفني، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبدت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعبياد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيًا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي ينتهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإعمار. أردتُ أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة لفة من يده، وقال:

- المعذرة. هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية مجدداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلل إلبنا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجيء، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللأسرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك. وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه المجررة، ذهبنا إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسمه المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفني، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه يتحدث مع إدارة الجريدة، وبدت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعياد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

هكذا نُشرت مقالتى الأولى في صفحة الافتتاحيات بجريدة الهيرالدو في بارانكيا، يوم الخامس من كانون الثاني ١٩٥٠. لم أشأ توقيعها باسمي لكي أخرج سليماً، إذا ما عجزتُ عن إيجاد طريق للاستمرار، مثلما جرى لي في جريدة الأونيفرسال. ولم أتردد وأفكر مرتين، في اختيار الاسم المستعار الذي سأكتب به: "سيبتيموس"، المأخوذ من سيبتيموس وارنر سميث، شخصية فيرجينيا وولف المهووس في رواية السيدة دلوي. أما عنوان العمود - "الزرافة" - فكان لقباً سرياً، لا يعرفه أحد سواي، لرفيقتي الوحيدة في الرقص في حفلات سوكري.

بدا لي أن رياح كانون الثاني تهب في تلك السنة، أقوى منها في أي وقت آخر. حتى إن المرء يجد صعوبة في المشي بعكس اتجاهها، في الشوارع التي تضربها الرياح حتى الفجر. فكان موضوع الأحاديث عند الاستيقاظ، هو الأضرار التي سببتها الرياح المجنونة خلال الليل، وما تذروه معها من أحلام وأقنان دجاج، ولحويها ألواح توتيا، السقوف إلى مقاصل طائرة.

إنني أفكر اليوم، في أن تلك الرياح المجنونة كانت تكنس بقايا

ماض فاحل، وفتحت لي أبواب حياة جديدة. لم تعد علاقتي بالجماعة متدفقة بتلقائية، وتحولت إلى تواطؤ مهني. في البدء، كنا تناقش الموضوعات التي تفكر فيها، أو نتبادل ملاحظات لبس فيها شيء من الخدلفة، ولكنها من النوع الذي لا يُنسى. وقد كانت المناقشة الحاسمة، بالنسبة لي، هي التي جرت في صباح يوم دخلتُ فيه إلى مقهى جابي، بينما كان خيرمان بارغاس ينهي بصمت، قراءة "الزرافة" في قفصاة من صحيفة ذلك اليوم. وكان أفراد الجماعة الآخرون، حول المنضدة، ينتظرون حكمه، بنوع من الرعب التوقيري، يزيد دخان الصالة من كثافته. وعندما انتهى خيرمان من القراءة، وحتى دون أن ينظر إليّ، مزق القفصاة إلى نصف صغيرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونثرها بين قمامة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنفضة. لم يقل أحد شيئاً، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجر التعليق على الحادث، في أي وقت آخر. ولكن الدرس ما زال ينفعني حتى الآن. كلما داهمني، بسبب الكسل أو التسرع، إغواء كتابة فقرة متسرعة، لكي أخرج من مأزق.

في فندق لاثني، الذي عشت فيه قرابة السنة، انتهى الأمر بأصحابه إلى معاملتي كفرد من الأسرة. كانت ثروتي الوحيدة آنذاك، هي صندلي التاريخي، وغباران من الملابس، أغسلهما تحت الدوش، عند الاستحمام، وحقبة الجلد التي سرقتها من صالة الشاي الأكثر أبهة في بوغوتا، خلال أحداث التاسع من نيسان. كنتُ أحملها معي أينما ذهبت، وأضع فيها أصول ما أكتبه. وهي الأشياء الوحيدة التي يمكن لي أن أفقدها. ولم أكن لأجازف بتركها، ولو ورا، سبعة أقفال، في صندوق

مصفح في أحد المصارف. والشخص الوحيد الذي كنتُ أثقته عليها في ليالي الأولى، هو لاثيديس المتكتم، بواب الفندق الذي تقبلها مني كضمان لأجرة الغرفة. فقد ألقى نظرة ناقبة على قصاصات الورق المكتوبة على الآلة الكاتبة، والمتشابهة بالتصحيحات، وخبأها في درج منضدة الكونستوار. افتديتها في اليوم التالي، في الساعة الموعودة، وواصلت دفع أجر الغرفة بصرامة. وكان يتقبل الحقيبة كرهن عن مبيتي مدة تصل إلى ثلاث ليال. وبلغ الأمر حد اتفاق جدي، إذ كنتُ أضعها أحياناً، على منضدة الكونستوار، دون أن أقول له شيئاً سوى طابت ليلتك، وأتناول بنفسني المفتاح، من لوحة المفاتيح، وأصعد إلى حجرتي.

كان خيرمان يتابع، على الدوام، حالات عوزي، حتى إنه كان يعرف إذا ما كنت لا أجد مكاناً أنام فيه، فيعطيني خفية، عندئذ، مبلغ البيزو والصف من أجل دفع أجرة السرير. لم أدر، قط، كيف كان يعرف ذلك، ويفعل حسن سلوكي، كسبت ثقة العاملين في الفندق. حتى إن العاهرات الصغيرات كن يعرني صابونهن الخاص، لأستحم. وفي موقع القيادة، كانت صاحبة الفندق وسيدته، كاتالينا الكبرى، بشديها المهيبين ورأسها البيقطيني، هي التي تتراًس الحياة فيه. أما فعلها، الخلاسي جوناس سان فيشتني، فكان عازف ترومبون راقياً إلى أن تهشمت أسنانه المذهبة في عملية سطو تعرض لها، لسرقة تلبيسة أسنانه الذهبية. فاضطر إلى تغيير مهنته، بسبب تكسر فكه وفقدانه القدرة على النسخ. ولم يستطع العثور، لبثوته ذي الست بوضات، على ما هو أفضل من سرير كاتالينا الكبرى الذهبي. وكانت هي نفسها تملك كذلك، كنزها الحميم الذي أفادها في الصعود، خلال سنتين، من ليالي المرفأ النهري البائسة، إلى

عرشها كأم كبرى. وقد حالفها الحظ بالتعرف على موهبة وأريحية
المكانتين، من أجل إسعاد أصدقائها. ولكنهم لم يستطيعوا هناك، أن
يفهموا قط، سبب افتقادي البيزو ونصف البيزو، لدفع أجره الغرفة، على
الرغم من أن أشخاصاً من عليية الناس، يأتون لأخذني في سيارات
لبموزين رسمية.

خطوة سعيدة أخرى في تلك الأيام، هي توصلني إلى أن أكون الريان
المساعد الوحيد لمونو غيراً. وهو سائق سيارة تكسي شديد الشقرة إلى
حد يبدو معه أنه أمهق، وبالغ الذكاء واللفظ إلى حد يمكن معه، للناس،
أن يختاروه عضواً في المجلس البلدي، دون حملة انتخابية. كانت
سهراته حتى الفجر في الحى الصينى، تبدو سينمائية، لأنه هو نفسه كان
يتولى إخراجها - وجعلها جنونية أحياناً - بتروا غير متوقعة. وعندما
يرغب في أن يقضي ليلة على هواه، يخبرني بذلك، وتذهب لقضائها
معاً في سراخير الحى الصينى المتردي، حيث تعلم آباؤنا وآباء آبائنا
كيف يصنعونها.

وسط حياة يمثل تلك البساطة، لم أعرف، قط، سبب غرقى المفاجئ
في حالة فتور طارئة. فروايتي التي كنت أكتبها - البيت - بدت لي،
بعد سنة شهور من البدء بها، مهزلة غير موفقة. وكان كلامي عنها أكثر
مما أكتبه فيها. والحقيقة أن الشيء المتناسك القليل الذي توصلت إليه،
هي المقطوعات التي نشرتها، قبل وبعد ذلك، في "الزرافة" وفي مجلة
كروتيكا، كلما وجدت نفسي بلا موضوع أكتب عنه. في وحدة عطلات
نهاية الأسبوع، عندما يلود الآخرون ببيوتهم، كنت أبقى وحيداً، أكثر مما
هي عليه البند اليسرى، في المدينة الخاوية. لقد كنت في حالة فقر

مدقع، وخجل طائر سمانى، أحاول أن أعارض ذلك بعجرفة لا نطاق،
وصراحة نظفة. كنتُ أشعر بأنني فائض عن الحاجة في كل مكان. وكان
بعض المعارف يُشعرونني بذلك. وبدا الأمر أشد حرجاً في قاعة تحرير
الهيرالدو، حيث كنت أكتب أحياناً طوال عشر ساعات متواصلة، في
ركن منعزل، دون أن أخاط أحداً، يلفني دخان السجائر الرخيصة التي
أدخنها دون توقف، في عزلة بلا عزاء. كنت أكتب بأقصى سرعة، وفي
أحيان كثيرة حتى الفجر، على شرائح ورق طباعة أحمله معي إلى كل
مكان في حقيبتي الجلدية.

في واحدة من لحظات السهو الكثيرة في تلك الأيام، نسيت الحقيبة
في سيارة تكسي، واعتبرت الأمر مزحة أخرى من مقالب سوء الطالع
الذي يلاحقني. لم أقم بأي جهد لاستردادها. لكن ألفونسو فونسايبور،
المدعور من تهاوتي، حرر ونشر ملاحظة في نهاية زاويتي: "يوم السبت
الماضي، نُسيبت حافظة أوراق في سيارة أجرة عامة. ونظراً لأن صاحب
حافظة الأوراق تلك، وكاتب هذه الزاوية هما، بالمصادفة، الشخص نفسه،
فإنهما يشكران من يتلطف بالاتصال بأي واحد منهما. علماً أن حافظة
الأوراق لا تحتوي أي شيء، ذا قيمة على الإطلاق؛ وإنما زرافات غير
منشورة وحسب". بعد يومين من ذلك، ترك أحدهم مسوداتي عند يواب
الهيرالدو، ولكن دون الحقيبة، بعد أن صحح ثلاثة أخطاء إملائية فيها،
بخط جميل جداً، وبحبر أخضر.

الأجر اليومي كان يكفيني، بالضغط، لدفع إيجار الغرفة. ولكن
أقل ما كان يقلقني، في تلك الأيام، هو هاوية الفسقر. وفي المرات
الكثيرة التي لم أستطع فيها دفع أجره الغرفة، كنت أذهب للقراءة في

الرحلة مع أمي لبيع البيت في أراكاتاكا، أنقذتني من تلك الهاوية. وكشف لي يقين الرواية الجديدة، مستقبلاً مختلفاً. لقد كانت رحلة حاسمة بين الرحلات الكثيرة في حياتي، لأنها أثبتت لي بالتجربة، أن الكتاب الذي حاولت كتابته، ما هو إلا مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية. وقد تفتت المشروع شظايا بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف لي في تلك الرحلة.

ما كان يمكن لنموذج ملحمة كالذي كنت أحلم به، أن يكون غير نموذج أسرتي بالذات، وهي أسرة لم تكن قط بظلة، أو حتى ضحية شيء محدد بعينه. وإنما مجرد شاهدة بلا فائدة، وضحية لكل شيء. بدأت بكتابتها منذ لحظة عودتي بالضيظ، إذ لم يعد يفيدني، في شيء، الشغل بأدوات مصطنعة. وإنما الشحنة الانفعالية التي أخرجها دون أن أدري، والتي انتظرتني سلبية في بيت المجددين. فمنذ خطواتي الأولى على رمال القرية الملتهبة، أدركت أن منهجي لم يكن هو الأكثر ملاءمة لرواية ذلك الفردوس الأرضي من الحراب والحنين، بالرغم من أنني أنفقت الكثير من الوقت والعمل، للعشور على المنهج الصحيح. ولم تكن مشاغل كروتنيكا التي على وشك الصدور تشكل عائقاً، بل على العكس تماماً: لقد شكلت كابحاً للمجزع.

وباستثناء ألفونسو فونينمايور - وقد فاجأني وأنا في حسي الإبداع، بعد ساعات من بدني الكتابة - ظل بقية أصدقائي يعتقدون، لوقت طويل، أنني ما زلت أوصل العمل في مشروع "البيت" القديم. فقررت أن أبقى الأمور على ذلك النحو، بسبب الخوف الطفولي من أن يُكتشف إخفاق فكرة كنت قد تكلمت عنها طويلاً، كما لو أنها عمل

مقهى روما، مثلما أنا في الواقع: متوحداً وهانئاً على وجهي في ليل شارع بوليفار. كنتُ أوجه التحية، من بعيد، لأي شخص أعرفه، إذا ما تنازلت بالنظر إليه. وأواصل قدماً حتى مكاني المحجوز المعهود، حيث أظل أقرأ في بعض الأحيان إلى أن "تكشني" الشمس. فقد كنتُ ما أزال آنذاك، قارئاً نهماً، دون أي تكوين منهجي، وخاصة للشعر، بما في ذلك الشعر السيئ، لأنني في أسوأ لحظات انحطاط معنوياتي، كنت مقتنعاً بأن الشعر الردي، يؤدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الجيد.

كنتُ أبدو، في زاويتي "الزرافة"، متحمساً جداً للثقافة الشعبية، على خلاف قصصي القصيرة التي تبدو أشبه بأحجيات كافكاوية، يكتبها شخص لا يدري في أي بلاد يعيش. ومع ذلك، فإن حقيقة روحي هي أن مأساة كولومبيا كانت تصلني كما في رجع بعيد، ولا تستثيرني إلا عندما تطفح الأنهار بالدم. كنت أشعل سيجارة قبل أن أنهى السجارة السابقة، وأعب الدخان بلهفة الحياة التي يعب بها المصابون بالربو الهوا، وكانت علب السجائر الثلاث التي أستهلكها، كل يوم، تظهر على أظفاري، وفي سعال الكلب العجوز الذي عكر سنوات شبابي. وباختصار، كنت خجولاً وكثيراً، مثل أي كاريبي طيب، وشديد الغيرة على حبيبتي إلى حد الرد على أي سؤال عنها، بعبارة سفاهة بليغة. وكنت مقتنعاً من أن سوء طالعي خلقي، ولا خلاص لي منه، خاصة مع النساء والنقود. ولكن ذلك لم يكن يهمني، لأنني كنت أؤمن بأنني لا أحتاج إلى حسن الطالع كي أكتب بصورة جيدة. لم أكن أحفل بالمجد، ولا بالمال، ولا بالشيخوخة، لأنني كنت واثقاً من أنني سأموت شاباً قتيلاً ومشرطاً في الشارع.

خالد. ولكنني فعلت ذلك أيضاً، لاعتقاد خرافي ما زلت أؤمن به، بوجود رواية قصة، وكتابة أخرى مختلفة كيلا يُعرف أي منهما هي الصحيحة. ولاسيما في المقابلات الصحفية، وهي في نهاية المطاف جنس تخييل خطير بالنسبة لكتاب خجولين لا يريدون أن يقولوا أكثر مما يجب عليهم قوله. ومع ذلك، لا بد أن خيرمان بارغاس قد اكتشف الأمر بفطنته الغربية، فبعد شهر من سفر دون رامون إلى برشلونة، قال له في إحدى رسائله: "أظن أن غابيتو قد تخلى عن مشروع البيت. وهو منكم الآن في رواية أخرى". وكان دون رامون يعرف ذلك بالطبع، قبل أن يغادر.

لقد كنت أشعر، منذ السطر الأول، بأنه لا بد للكتاب الجديد من أن يستند إلى ذكريات طفل في السابعة، ناج من مجزرة عام ١٩٢٨ العامة في منطقة الموز. ولكنني سرعان ما استبعدت ذلك، لأن القصة ستبقى محدودة ضمن وجهة نظر شخصية، ليس لديها ما يكفي من الموارد الشعرية لروايتها. وعندئذ وعيت أن مغامرتي بقراءة أوليسيس، وأنا في العشرين من عمري، ثم الصخب والعنف فيما بعد. كانت جرأة مبكرة بلا مستقبل؛ فقررت إعادة قراءتهما بنظرة أقل احتراماً. وبالفعل، فقد تكشف لي عندئذ، كثيراً مما بدا لي متحذلقاً ومغلقاً، عند جويس وفوكنر، عن جمال وبساطة جارفتين. فكرت في جعل المونولوج متعدد الأصوات، يشمل القرية كلها، مثل كورال إغريقي راو. على طريقة بينما أرقد محتضرة، حيث تنوأل تأملات أسرة كاملة محيط محتضرة. لم أتجرأ على تكرار أسلوبها البسيط في الإشارة إلى أسماء الأبطال، عند كل تكلم، مثلما في النصوص المسرحية، ولكنها أمدتني

بفكرة الاقتصار على استخدام ثلاثة أصوات، الجد والأم والطفل، يمكن لنبراتها ومضائرها المختلفة جداً، أن تحدد هوية المتكلم تلقائياً. والجد في الرواية لن يكون أعور مثل جدي، وإنما أعرج. وستكون الأم ذاهلة، ولكنها ذكية، مثل أمي. والطفل جامد، مرعوب ومتأمل، مثلما كنتُ وأنا في مثل سنه. لم يكن كل ذلك لبقية إبداعية بأي حال، وإنما مجرد وسيلة تقنية.

لم يتعرض الكتاب الجديد لأي تغيير معمم خلال كتابته، ولا لأي نسخة مختلفة عن الأصلية، باستثناء بعض الحذف والترقيع على امتداد ستين، قبل صدور طبعته الأولى، ربما بسبب إدماني عادة مواصلة التصحيح حتى الموت. أما القرية - وهي مختلفة تماماً عن تلك التي كانت لدي في المشروع السابق - فقد رأيتها رؤية العيان في الواقع، عند عودتي إلى أراكاتاكا مع أمي، غير أن هذا الاسم - مثلما نبهني دون رامون الحكيم جداً - بدا لي غير ملائم، مثله مثل بارانكيًا. وكان يخلو كذلك، من النفحة الأسطورية التي أبحث عنها للرواية. وهكذا قررت تسمية القرية بالاسم الذي كنت أعرفه، دون شك، منذ طفولتي؛ ولكن شحنته السحرية لم تتكشف لي حتى ذلك الحين: ماكوندو.

كان عليّ أن استبدل عنوان "البيت" - وهو مألوف جداً آنذاك بين أصدقائي - لأنه لا علاقة له بالمشروع الجديد. ولكنني اقتربت الخطأ بأن رحت أودن، على دفتر مدرسي، كل عنوان يخطر لي، بينما أنا أكتب. وقد تجمع لدي أكثر من ثمانين عنواناً، وأخيراً، وجدته دون أن أبحث عنه، في النسخة الأولى شبه المكتملة، عندما استسلمت لإلحاح كتابة مقدمة من المؤلف. لقد قفز العنوان في وجهي، كأكثر التسميات أنفة

وأكثرها إشفاقاً في الوقت نفسه، بين تلك التي أطلقتها جدتي، بما تبقى لديها من ترسيبات أرستقراطية، على بقايا اليونانيد فروت كومباني: عاصفة الأوراق^(١).

الكتاب الذين حفزوني أكثر من غيرهم على كتابتها، هم الروائيون الأمريكيون، وخاصة أولئك الذين أرسل لي أعمالهم إلى سوكري، أصدقائي في بارانكيّا. ولا سيما بسبب تشابهات من كل نوع كنت أجدّها بين ثقافات أعماق الجنوب الأمريكي وثقافة الكاريبي التي أتوحد معها توحداً مطلقاً وجوهرياً وغير قابل للتبدل، في تكويني ككائن بشري وكاتب. مذ وعيت ذلك، بدأت أقرأ ككاتب حرفي حقيقي، ليس للمتعة فقط، وإنما بدافع فضول لا يرتوي إلى اكتشاف كيف كُتبت أعمال الحكماء تلك. قرأتها أولاً بصورة سوية، ثم بالمقلوب، وأخضعتها لنوع من نزع الأحشاء الجراحي. بغية التوغل في أشد أسرار بنائها خفية. وبالتوجه نفسه، لم تكن مكتبتي قط، سوى أداة عمل، حيث يمكنني أن أجد في الحال، فضلاً لدوستويفسكي، أو التأكد من معلومة حول صرع بوليوس قبصر أو حول آلية مُقَحَّم سيارة. ولدي، فوق ذلك، مرجع في اعتراف الاغتيالات المحكمة، إذ قد بحثناج إليه أحد شخصي المعوزين. أما ما عدا ذلك، فأحجزه أصدقائي الذين كانوا يوجهونني في قراءاتي، ويعيرونني الكتب التي عليّ قراءتها في الوقت المناسب، والذين قاموا بالقراءات القاسية لأصول كتبي قبل نشرها.

لقد أمدتني تلك النماذج بوعي جديد لنفسني بالذات. وانتهى

(١) عنوان الرواية في الأصل La hojarasca، أي الأوراق اللذابة المتساقطة. ولكن الرواية تُرجمت إلى العربية، وعرفت بعنوان "عاصفة الأوراق". وهو عنوان موفق.

مشروع مجلة كرونیکا إلى منحي أجنحة. كانت معنوياتنا مرتفعة إلى حدّ توصلنا معه، على الرغم من العوائق الجسبية، إلى امتلاك مكتب خاص بالمجلة، في طابق ثالث بلا مصعد، بين نداءات الباعة المتجولين والحافلات المتشابكة في شارع سان بلاس الذي كان مهرجاناً صاخباً، منذ الفجر حتى الساعة السابعة ليلاً. لم يكن المكتب يكاد يتسع لنا. ولم يكن فيه هاتف بعد، أما جهاز تكييف الهواء فكان حليماً يمكن له أن يكلفنا أكثر من كلفة المجلة الأسبوعية. ولكن فوينمايور وجد الوقت الكافي لملء المكتب بموسوعات المهلهلة، وقصاصاته من صحف بكل اللغات، ومراجعه الشهيرة حول مهن غريبة. وعلى منضدته كمدبر، كان يقع "تاريخ أندروود" الذي أنقذه، مجازقاً بحياته، من حريق في إحدى السفارات. وهو اليوم درة في متحف بارانكيّا الرومانسي. أما المنضدة الوحيدة الأخرى، فكنتُ أشغلها أنا، وعليها آلة كتابة مستعارة من الهيرالدو، بحكم منصبني اللامع كرئيس للتحريير. وكانت هناك طاولة رسم مخصصة لألبخاندرو أوبريغون، وأورلاندو غيرا، وألفونسو ميلو، ثلاثة رسامين مشهورين التزموا، وهم بكامل وعيهم، بوضع رسوم توضيحية للمساهمات الكتابية. وهذا ما قعلوه، أولاً بدافع من كرمهم الفطري، وأخيراً لأننا لم نكن نملك فلساً فائضاً لنا نحن بالذات. أما المصور الأكثر مواظبة وتضحية، فكان كيكي سكوبيل.

فضلاً عن عملي في التحريير المرتبط بمنصبي، كان عليّ أن أتابع، كذلك، عملية تنضيد المواد، ومساعدة مصحح التجارب، على الرغم من إملائي الهولندي. ولأنني حافظت على التزامي مع الهيرالدو، بمواصلة كتابة "الزرافة"، لم أجد متسعاً كبيراً من الوقت، للمشاركة في

مساهمات منتظمة في كرونিকা. ولكنني كنت أجد وقتاً مع ذلك،
لكتابة قصصي القصيرة، في ساعات الفجر الميتة.
وضع ألفونسو، الحبير في كل الأجناس الكتابية، ثقل إيمانه في
القصص البوليسية، وكان مولعاً بها إلى حد التعطش. فكان يترجمها أو
ينتقها، ثم أخضعها أنا إلى عملية تبسيط شكلية ستيديني فيما بعد،
في مهنتي. وكان ما أفعله يتلخص في الاقتصاد في المساحة، ليس
فقط بحذف الكلمات غير الضرورية، وإنما كذلك، الأحداث الفائضة عن
الحاجة، إلى أن تبقى القصة في جوهرها الخالص، دون الانتقاص من
قدرتها على الإقناع. هذا يعني شطب كل ما يمكن أن يكون فائضاً عن
الحاجة في جنس كتابي جائر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع
البناء كله. وقد كان ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في تحرياتي
الموارة لتعلم تقنية حكاية قصة.

لقد أنقذتنا بعض أفضل قصص خوسيه فيلكس فوينمايور، عدة
سبوت. ولكن تداول المجلة بقي راكداً. ومع ذلك، فإن خشية النجاة
الأبدية ظلت تتمثل في صلابة ألفونسو فوينمايور الذي لم يُعرف عنه
قط، تمتعه بزايا رجل مقاولات، وقد انكب على العمل في مؤسستنا
بعناد يفوق قواه، كان هو نفسه يحاول كسره في كل خطوة، بحس
سخريته الرهيب. لقد كان يقوم بكل شيء، ابتداءً من كتابة أكثر
الاقتراحات بُعد نظر، حتى أقل الملاحظات فائدة، بالجدد نفسه الذي
يسمى به إلى الحصول على إعلانات، وقروض لا تخطر على بال.
وأعمال حصرية من كتاب يصعب إقناعهم. ولكنها كانت معجزات
قاحلة. وعندما يرجع الباعة بالكمية نفسها من النسخ التي تسلموها

للبيع، كنا نحاول التوزيع الشخصي في الهانات المفضلة، ابتداءً من
حانة الرجل الثالث، حتى حانات الميناء النهري المكفهرة، حيث كان علينا
أن نتقاضى الفوائد القليلة عينياً، بمقادير من الكحول.
تبين أن أحد أكثر المساهمين مواظبة في الكتابة، والمقروء أكثر من
الجميع دون ريب، هو فاتي أوسيو. فمنذ عدد كرونিকা الأول، كان أحد
أكثر المواظبين. وقد انتهى عموده "يوميات كاتب ألي"، الموقع بالاسم
المستعار دولي ميلو، إلى الاستحواذ على قلوب القراء. لم يكن هناك
من يصدق أن كل تلك المهن قد مارسها، بكل ذلك اللطف، الرجل نفسه.
وكان يمكن لبوب برينو، من جانبته، أن يمنع غرق كرونিকা بأي لقية
طبية أو فنية من العصر الوسيط. إلا أنه في موضوع العمل، كانت له
قاعدة تتميز بالشفافية: إذا لم تدفعوا، فلن أقدم نتاجاً. وبالطبع،
سرعان ما لم يعد الدفع ممكناً، رغم حسرة أرواحنا.

ومن خوليو ماريو سانتودومينغو، توصلنا إلى نشر أربع قصص
ألغاز كتبها بالإنكليزية. وكان ألفونسو يترجمها بلهفة صياد يعاسب،
في أجام معاجمه النادرة، ويزينها ألبخاندرو أويريقون برهافة رسام
كبير. لكن خوليو ماريو كان كثير السفر، وفي اتجاهات كثيرة
متناقضة. حتى صار شريكاً غير مرئي. وقد كان ألفونسو فوينمايور هو
الوحيد الذي عرف أين يجده. وكشف لنا ذلك بجملة مثيرة للقلق:

- كلما أرى طائرة تمر، أفكر في أن خوليو ماريو سانتودومينغو
موجود فيها.
أما بقية الكتاب فكانوا مساهمين مؤقتين، يُبقون أرواحنا معلقة
حتى لحظة إغلاق العدد، أو الدفع.

تقررت بوعوثنا منا، كسأنداد، ولكن لم يبذل أي من الأصدقاء النافعين جهوداً من أي نوع، لإيقا أسبوعينا طاقية. باستثناء خورخي ثالامبا الذي أدرك التشابه بين مجلته ومجلتنا، فاقترح علينا اتفاق تبادل للمواد، أعطى نتائج طيبة، إلا أنني أعتقد أن أحداً لم يقدر، في الواقع، ما الذي كانت تثله كرونيكا من معجزة. كان مجلس التحرير مؤلفاً من ستة عشر عضواً، اخترناهم لمزايا كل واحد منهم المعترف بها. وجميعهم كانوا من لحم وعظم، ولكنهم متنفذون ومشغولون إلى حد يمكن الشك بوجودهم.

لقد كان لكرونيكا، بالنسبة لي، أهمية جانبية، في أنها أجبرتني على ارتجال قصص مستعجلة لملء فراغات طارئة عند إغلاق العدد. كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة، بينما عمال اللبنتيب والإخراج يقومون بعملهم، فأخترع من العدم، قصة بحجم الفراغ المتبقي. على هذا النحو كتبت، "عن كيف قامت ناتانال بزياره"، وحلّت لي مشكلة مستعجلة عند الفجر؛ وقصة "عيننا الكلب الأزرق" بعد خمسة أسابيع من ذلك.

أول هاتين القصتين، كانت أصل سلسلة قصص بالشخصية الرئيسية نفسها. وقد أخذتُ اسمها، دون إذن، من أندريه جيد. وكتبتُ فيما بعد "نهاية ناتانال" لكي أحل مسألة أخرى، في اللحظة الأخيرة. وشكلت القصتان كلناهما جزءاً من مشهد من ست قصص، أرشفتها دون ألم عندما أدركتُ أنه ليس لها أي علاقة بي. وأتذكر مما بقي منها، واحدة ليست لدي أي فكرة عن موضوعها، بعنوان: "عن كيف ارتدت ناتانال ملابس العروس". الشخصية لا تبدو لي اليوم شبيهة بأحد عرفته، ولم تكن تستند إلى معاشاتي الخاصة أو معاشات آخرين، ولا

يمكنني حتى أن أتصور كيف أمكن لقصة لي، أن تتناول مثل ذلك الموضوع المحاطين جداً. لقد كانت ناتانال، في نهاية المطاف، مجازفة أدبية دون أية أهمية إنسانية. غير أنه من المناسب، تذكر تلك التكيّات، كيلا تنسى أن الشخصية لا تُخلق من الصفر، مثلما أردت أن أفعل بناتانال. ولحسن الحظ، أن المخيلة لم تتح لي المضي بعيداً جداً عن نفسي. ولسوء الحظ، أنني كنت مقتنعاً كذلك، بأنه لا يد من أن يُدفع للعمل الأدبي أجر جيد، مثلما يُدفع لبناً الأجر. وإذا كنا ندفع جيداً، وفي الموعد المحدد، لعمال الطباعة، فأولى بنا أن ندفع كذلك، للكاتب.

أفضل صدى كنا نتلقاه عن عملنا في كرونيكا، كان يأتي في رسائل دون رامون التي يرسلها إلى خيرمان بارغاس. لقد كان يهتم بأدنى الأخبار التي لا تخطر على بال، وبالأصدقاء والأحداث في كولومبيا. وكان خيرمان يرسل إليه قصاصات من الصحف، وبروي له في رسائل لانهائية، الأخبار التي تمنعها الرقابة. هذا يعني أنه كان يتلقى كرونيكا مزدوجة: المجلة التي تحررها نحن، وتلك التي يلخصها له خيرمان في نهاية كل الأسبوع. وقد كانت تعليقات دون رامون المتحمسة أو القاسية حول مقالاتنا، هي نهما الأكبر.

بين الأسباب العديدة التي أرادوا أن يفسروا، من خلالها، عشرات كرونيكا، وحتى تردد الجماعة، عرفتُ مصادفة أن البعض يعزونها إلى سوء طالع الخلق والمعدني. وكديل دامغ على ذلك، كانوا يذكرون تحقيقاتي الصحفية عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي أردنا المصاحبة من خلاله، بين الرياضة والأدب في جنس كتابي جديد، وكان إخفاقاً مدوناً. عندما علمت بسمعتي الشيعة، كان الأمر قد انتشر

بين زمانن مقهني جابني. فأقدمت، وقد وهنت عزيمتي حتى النخاع، على طرح الأمر مع خيرمان بارغاس؛ وكان مطلعاً على ما يقال، مثل بقية أفراد الجماعة، فقال لي دون أدنى تردد:

- اطمنن يا معلم. فكتابة مثل كتابتك، لا يمكن تفسيرها إلا بحسن طالع لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن الليالي كلها سيئة. فلبلة السابع والعشرين من تموز ١٩٥٠، في دار حفلات نيفرا إوفيميا، كان لها نوع من القبضة التاريخية في حياتي ككاتب. لا أدري لأي سبب، أصرت صاحبة المحل بطهي وجبة سانكوتشو ملحمية بأربعة أصناف من اللحوم. وقد ضاعفت الكروانات التي شوشتها الروائح الحادة، من نعيبها حول الموقد. فأمسك زبون هانج بعنق كروان منها، وألقى به حياً، في قدر الطبخ الذي يغلي. لم يستطع الحيوان أن يطلق أكثر من صرخة ألم مع خفقة أخيرة من جناحيه، وغرق في أعماق الجحيم. حاول القاتل الهسجي أن يسك كرواناً آخر، لكن نيفرا إوفيميا نهضت عن عرشها، بكل ما لديها من سلطة، وصرخت:

- يا لعنة! اهدؤوا، وإلا ستقلع الكروانات عيونكم!

لم يهتم أحد سواي بذلك، لأنني الوحيد الذي لم تتحمل روحه نذوق السانكوتشو المدنس. وبدلاً من أن أذهب للنوم، سارعت بالذهاب إلى مكتب كرونيكا، وكتبتُ في نفس واحد، قصة قصيرة عن ثلاثة زمانن في ماخوز، تقتلع الكروانات عيونهم، ولا يصدق ذلك أحد. كان حجم القصة أربع صفحات من القطع الرسمي، وبفراغ مزدوج بين الأسطر. وكانت مبروية بصيغة المتكلم المفرد، وهو في هذه المرة دون اسم. إنها

قصة ذات واقعية شفافة، وهي مع ذلك أكثر قصصي لغزية. وقد جعلتني أتوغل في الحياء كنتُ أوشك أن أهجره، لأنني لم أعد قادراً على مواصلته. بدأتُ الكتابة في الساعة الرابعة فجراً، من يوم الجمعة، وانتهيتُ في الثامنة صباحاً، بعدتني انتبهار عراف، ويتواطؤ منزه من جانب بورفيريو ميندونا، منضد الهيرالدو التاريخي، أعدت تنظيم مخطط طبعة كرونيكا التي ستوزع في اليوم التالي. وفي اللحظة الأخيرة، بينما أنا قانط من مقصلة إغلاق العدد، أمليت على بورفيريو العنوان النهائي الذي تمكنتُ، أخيراً، من العثور عليه. وقد كتبه هو مباشرة، بالرصاص المصهور: "ليلة الكروانات".

لقد كانت هذه القصة بالنسبة لي، بداية مرحلة جديدة، بعد تسع قصص لا تزال في الليمبوس الميتافيزيقي، وفي وقت لم يكن لدي فيه أي مشروع لمواصلة التقدم في جنس أدبي لم أستطع الإمساك به. أعاد خورخي ثالاميا نشر القصة، في الشهر التالي، في مجلة كريتبيكا، وهي مجلة ممتازة للشعر الكبير. وقد عدت لقراءتها، بعد خمسين سنة من ذلك، قبل أن أكتب هذه الفقرة بالذات، وأظن أنني غير مستعد لاستبدال فاصلة واحدة منها. ووسط القوضى التي كنت أعيش فيها دون بوصلة، كانت تلك القصة هي بداية ربيع.

أما البلاد، بالمقابل، فكانت تعيش في دوامة. فقد رجع لاوريانو غوميث من نيويورك، ليُعلن أنه المرشح المحافظ لرئاسة الجمهورية. امتنع الليبراليون عن خوض الانتخابات حيال سيطرة العنف، فاختير غوميث رئيساً في السابع من آب ١٩٥٠. وبما أن الكونغرس كان مغلقاً، فقد تولى المنصب أمام محكمة العدل العليا.

لم يكده يمارس الحكم بجسده الحاضر، إذ أنه استقال من الرئاسة، بعد خمسة عشر شهراً، لأسباب صحية حقاً. وحلّ محله الحقوقي والبرلماني المحافظ رويسرتو أوردانيتا أربلايز، بوصفه المسمى الأول لخلافة رئيس الجمهورية. وقد فسر الليبراليون ذلك، على أنه صيغة تليق تماماً بسلوك لاوريانو غوميث، إذ تتيح له ترك السلطة في أيدي أخرى، ولكن دون أن يفقدها، ويواصل الحكم من بيته عبر شخص وسيط. وعبر الهاتف، في الحالات المستعجلة.

أظن أن عودة ألفارو سيبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من التضحية بالكروان، كانت حاسمة لتجاوز أقدار تلك الأيام المشؤومة. لقد عاد أقصر شعراً، ودون شاربه الذي كالفرشاة، وأكثر فظاظة مما كان عليه عند ذهابه. كنت أنا وخيرمان بارغاس ننظره منذ عدة شهور، والخوف يتملكنا من أن يكونوا قد هدؤوا طباعه في نيويورك. وكدتا نموت من الضحك عندما رأيناه ينزل مرتدباً سترة وربطة عنق، ويلوح محبباً من سلم الطائرة، برواية هيمغواي حديثة الصدور: عبر النهر وبين الأشجار. انتزعت الكتاب من يديه، وداعبت حافتيه. وعندما أردت أن أسأله شيئاً، سبقتي ألفارو إلى القول:

- إنه براز!

غصّ خيرمان بارغاس بالضحك، وهمس لي: "لقد رجع مثلما ذهب". ومع ذلك، فقد أوضح لنا ألفارو، بعد ذلك، أن حكمه على الكتاب مجرد مزاح، لأنه بدأ بقراءته، خلال الرحلة، من ميامي فقط. وما رفع معنوياتنا، على أي حال، أنه جاء حاملاً معه، بصخب أكثر من السابق، حصية الصحافة والسينما والأدب. وخلال الشهور التالية، بينما هو يستعيد التأقلم، كان يبقينا محمومين بأربعين درجة مئوية.

لقد كانت العدوى مباشرة؛ فزاويتي "الزرافة" التي كانت، منذ شهور، تدور حول نفسها، وتضرب خبط عشواء. بدأت تتنفس من مقطعين مستلين من مسودة "البيت". أحدهما "ابن الكولونيل" الذي لم يولد قط، والآخر "ني"، عن طفلة متهربة، طرقت بابها مرات كثيرة، بحثاً عن دروب مختلفة، ولم تجيني قط. واستعدت كذلك، اهتمام صباي بالرسوم المتسلسلة، ليس كتسلية ليوم الأحد، وإنما كجنس أدبي جديد محكوم عليه، دون مسوغ، بالبقاء في حجرة الأطفال. وكان بطلني، بين الأبطال الكثيرين، هو "ديك تراكي". واستعدت فضلاً عن ذلك، وكيف لا، ولعي بالسينما الذي غرسه فيّ الجد، وغذاء دون أنطونيو داكوتني في آراكاتاك، وحركة ألفارو سيبيدا إلى شغف إنجيلي، في بلاد تُعرف فيها أفضل الأفلام، من خلال ما برويه الرحالة. وكان من حسن الحظ، أن رجوعه توافق مع عرض قليسين بارعين: *Intruder in the Dust*، من إخراج كلارنس براون عن رواية لوليم فوكنر، وصورة جيني، من إخراج ولیم دبتريل عن رواية لروبرت ناثن. وقد علقتُ على الفيلمين في "الزرافة"، بعد مناقشات مطولة مع ألفارو سيبيدا. وواظبت على الاهتمام، إلى أن بدأت أنظر إلى السينما بروية جديدة: قبل أن أعرف عليه، لم أكن أعرف أن اسم المخرج هو الأهم، مع أنه آخر من يظهر في "التبشرات". فقد كانت السينما، في نظري، مجرد كتابة سيناريو وتجريك ممثلين. وما سوى ذلك ينجزه بقية أعضاء الفريق الكثيرين. عندما رجع ألفارو سيبيدا، قدم لي دورة تعليمية كاملة، عمادها الصراخ والروم الأبيض حتى الفجر، على موائد أسوأ الحانات؛ لكي يعلمني، بالضرب، ما علموه إياه في الولايات المتحدة، عن السينما. وكان يطلع علينا الفجر ونحن نحلم، مستيقظين، بصنع سينما في كولومبيا.

وما خلا هذه الانفجارات المضنية، كان انطباعنا، نحن الأصدقاء الذين نتبع ألفارو في سرعة الطواف التي ينطلق بها، هو أنه لا يمتلك السكنينة ليجلس ويكتب. ولا يمكن لنا، نحن الذين عايشناه عن قرب، أن نتصوره جالساً لأكثر من ساعة، إلى أي منضدة. ومع ذلك، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من رجوعه، اتصلت بنا تيتا مانتواس - خطيبته لسنوات طويلة، وزوجته مدى الحياة - مدعورة، لتخبرنا بأن ألفارو قد باع شاحنته الصغيرة التاريخية، وأنه نسي في محافظتها، أصول قصصه القصيرة غير المنشورة، والتي لا توجد نسخة أخرى منها. لم يبذل ألفارو أي جهد للبحث عنها، متعللاً بديعة خاصة به تماماً، بأنها "ست أو سبع قصص برازية". انهمكنا، نحن الأصدقاء والمراسلين، في مساعدة تيتا في البحث عن الشاحنة التي أعيد بيعها، عدة مرات على امتداد ساحل الكاريبي والأراضي الداخلية حتى ميدلين. وأخيراً وجدناها في ورشة، في سينثيليكو، على بعد نحو مئتي كيلومتر. سلمنا الأصول المكتوبة على شرائح ورق طباعة، وكانت مجمعة وناقصة، إلى تيتا، خوفاً من أن يضيعها ألفارو مرة أخرى، سهواً أو عمداً.

نُشرت قصتان من تلك القصص في كرونيكا. واحتفظ خيرمان بارغاس بالأخرى بضع سنوات، ريثما يجد حلاً لنشرها. وقامت الرسامة سيميليا بوراس، الوفية للجماعة دوماً، بتزيينها برسوم ملهمة، هي صورة شعاعية لألفارو، مرتدياً كل ما هو ممكن في آن واحد: زي سائق شاحنة، مهرج مهرجان، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو أي مهنة أخرى، باستثناء إظهاره كرجل عادي وسوي. وقد تولت مكتبة "موندو" نشر الكتاب بعنوان جميعتنا كنا بالانتظار. وكان حدثاً

أديباً، لم يتجاهله سوى النقد الأكاديمي وحده. وقد كان في نظري - وهو ما كتبته آنذاك - أفضل كتاب قصص قصيرة، نُشر في كولومبيا، حتى ذلك الحين.

أما ألفونسو فونسيمايور، من جانبه، فكان كاتب تعليقات نقدية، ومعلم أدب في الصحف والمجلات. ولكنه بخجل كثيراً من جمع كتاباته تلك، في كتاب. وكان قارئاً استثنائياً في نهمة الذي يكاد لا يقارن إلا بنهم ألفارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. وقد كان هو وخيرمان بارغاس، ناقدين بارعين، لا سيما في نقد قصصهما أكثر من نقد قصص الآخرين. ولكن تزوتهما في العثور على قيم أدبية شابة، لم تخطئ التوجه قط. كان ذلك في الربيع الذي سرت فيه شائعة ملحة بأن خيرمان يتأخر في السهر، وأنه يكتب قصصاً بارعة. غير أنه لم يُعرف شيء عنها إلا بعد سنوات طويلة، عندما حبس نفسه في غرفة تومس، في بيت أبويه، وأحرق تلك القصص، قبل ساعات من زواجه من اشبينتي سوزانا ليناريس، ليؤكد من أن أحداً، بمن في ذلك هي نفسها، لن يتمكن من قراءتها. ويُعتقد أنها كانت قصصاً قصيرة ودراسات، وربما مسودة رواية، لكن خيرمان لم يقل قط، كلمة واحدة عنها، لا قبل ولا بعد. وعشية زفافه فقط، اتخذ الاحتياطات المشؤومة كيلا يعرف أحد شيئاً عنها، بمن في ذلك المرأة التي ستصير زوجته، منذ اليوم التالي. لقد انتهت سوزانا إلى ما يفعله، ولكنها لم تدخل الغرفة لمنع، لأن حضانها صا كانت لتسمح لها بذلك. وقد قالت لي سوزي بعد سنوات، بمزاح مستهور: "لم يكن بإمكان الخطيبة، في تلك الأزمنة، أن تدخل، قبل الزفاف، إلى غرفة نوم خطيبها".

لم تكن قد انقضت سنة، عندما بدأت رسائل دون رامون تصير أقل وضوحاً، وأشد كآبة وندرة. دخلتُ إلى مكتبة ميونخ، يوم السابع من أيار ١٩٥٢، في الثانية عشرة ظهراً، ولم يكن على خيرمان أن يقول لي شيئاً لأعرف أن دون رامون قد مات، قبل يومين من ذلك، في برشلونة أحلامه. وكان تعليقنا الوحيد، مع توالي وصولنا إلى المقهى عند الظهيرة، هو تعليق الجميع:

- يا للخسارة!

لم أكن واعياً، آنذاك، أنني أعيش سنة مختلفة من حياتي. ولم يعد لدي شك اليوم، في أنها كانت سنة حاسمة. لقد قنعت حتى ذلك الحين، بمظهري المهمل. كنتُ محبوباً ومحترماً من كثيرين، وألقي تقدير البعض، في مدينة يعيش كل امرئ فيها على طريقته وهواه. وكنت أمارس حياة اجتماعية مكثفة، وأشارك في مناظرات فنية واجتماعية بصندل الحجاج الذي أنتعله، والذي بدا كما لو أنه اشترى لمحاكاة ألفارو سيبيدا. ولم يكن لدي سوى بنطال واحد من الكتان، وقمصين أغسلهما تحت الدوش، أثناء الاستحمام.

وبين ليلة وضحاها، لأسباب متعددة - بعضها بالغ الابتذال - بدأت ملابسني تتحسن. وقصصتُ شعري كالمجندين، وشذبتُ شاربي وجعلته رغبياً، وتعلمت انتعال حذاء سيناتور أهده إليّ الدكتور رافائيل مارياسا، رفيق طريق للشلة، ومؤرخ المدينة، لأنه كبير على مقاس قدميه. ويفعل ديناميكية وصولية غير واعية، بدأت أشعر بانني أختنق من الحر، في حجرة الفندق الذي أسميناه "ناطحة السحاب"، كما لو أن أراكاتاكا موجودة في سيبيريا، وأعاني من زبائن الفندق العابرين الذين

يتكلمون بصوت عال، عند استيقاظهم. ولا أكلُ من التذمر لأن عصفورات الليل يواصلن اقتياد زمرة كاملة من بحارة المياه العذبة، إلى حجراتهن.

وأنا أدرك اليوم، أن مظهري كمتسول، لم يكن بسبب فقري أو لكوني شاعراً، وإنما لأن طاقاتي كانت مركزة بعمق، على الإصرار على تعلم الكتابة. وما إن لمحت الطريق الصحيح، حتى هجرت "ناطحة السحاب" وانتقلت إلى حي برادو الهادئ، في الجانب الأقصى الآخر، عمرانياً واجتماعياً، على بعد كوادرتين من بيت ميرا ديبلمار، وعلى مسافة خمس كوادرات من الفندق التاريخي، حيث يرقص أبناء الأغنياء مع حبيباتهم العذراوات، بعد قداس يوم الأحد. أو أنني، مثلما قال خيرمان: بدأت أنحسن إلى الأسوأ.

سكنت في بيت الأخوات أبيلا - إستير، ومايتو، وتونيا -، وكنتُ قد تعرفتُ عليهن في سوكري. وكن منهنمكات منذ زمن، في محاولة إنقاذي من الضياع. وبدلاً من حجيرة الكرتون التي فقدت فيها الكثير من حراشف الحفيد المدلل، صار لي حينئذ، غرفة نوم خاصة بي، لها حمام خاص وناقذة مظلة على الحديقة، مع تقديم الوجبات اليومية الثلاث، مقابل أجر يزيد قليلاً عن راتبني. اشترت بنظراً ونصف دزينة من القمصان التروبيكالية المزينة برسوم أزهار وطيور، استحققت عليها، لبعض الوقت، سمعة سرية بانني مخنث سفيينة. وبدأت أتسقي عندئذ، في كل مكان، بأصدقاء قداماء لم يكونوا بصادقونني في أي مكان من قبل. واكتشفتُ بهجة أنهم يحفظون، عن ظهر قلب، حماقات "الزرافة"، وأنهم متعصبون لمجلة كرونیکا بسبب ما يسمونه، هم، كبرياءها

والرياضي. بل إنهم كانوا يقرؤون قصصي كذلك، دون أن يتمكنوا من فهمها. وجدت ريكاردو غونثالث ريبول، جاري في قاعة النوم في المعهد الوطني، وكان قد استقر في بارانكيًا بشهادته كمهندس معماري. وخلال أقل من سنة، حلّ شؤون الحياة، باقتنائه سيارة شيفروليه "ذيل البطة"، ذات عمر غير محدد. وكان يحشر فيها، عند الفجر، حتى ثمانية ركاب. وقد اعتاد أن يأتي ليأخذني من البيت، في بداية الليل، ثلاث مرات كل أسبوع، كي نذهب للمسرح مع أصدقاء جدد مهوسين في تقويم حال البلاد، بعضهم بصيغ السحر السياسي، وآخرون يتبادل اللكمات مع الشرطة.

عندما علمت أمي بأمر هذه المستجدات، أرسلت لي رسالة شفهية تعبر تماماً عن شخصيتها: "المال يستدعي المال! أما جماعة الشلة، فلم أخيرهم بأي شيء، عن انتقالني، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمسكت بصيغة لوبي دي بيغا البارعة: "ورثيت نفسي، بما يلائم ترتيبني لفوضائي". ولست أتذكر صغير استهجان مائلاً حتى في سناد كرة القدم. وقد راهن خيرمان على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب". ورأى الفارو أنني لن أتحمّل مغص ثلاث وجبات يومية في موعدها الدقيق. وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إساءة تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونيكا. أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذنبون بشأن فوضائي، ولكنهم كانوا على درجة من الوفاق لا تتيح لهم أن يشكروني على قراري بإطلاق زفرة راحة.

عندما علمت أمي بأمر هذه المستجدات، أرسلت لي رسالة شفهية تعبر تماماً عن شخصيتها: "المال يستدعي المال! أما جماعة الشلة، فلم أخيرهم بأي شيء، عن انتقالني، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمسكت بصيغة لوبي دي بيغا البارعة: "ورثيت نفسي، بما يلائم ترتيبني لفوضائي". ولست أتذكر صغير استهجان مائلاً حتى في سناد كرة القدم. وقد راهن خيرمان على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب". ورأى الفارو أنني لن أتحمّل مغص ثلاث وجبات يومية في موعدها الدقيق. وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إساءة تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونيكا. أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذنبون بشأن فوضائي، ولكنهم كانوا على درجة من الوفاق لا تتيح لهم أن يشكروني على قراري بإطلاق زفرة راحة.

أجل إخراج المجلة من ركودها، ببريوراتاجات صدامية. ومع ذلك، فإن الفكرة - وهي فكرة الجميع - رُفضت مرة أخرى، بالحجة المفضلة لسعادتي: إذا ما خرجنا إلى الشارع، بمفهوما الغنائي المثالي عن الريبورتاج، فإن المجلة لن تصدر في موعدها - إذا صدرت -. وكان عليّ أن أفهم ذلك على أنه ثناء. غير أنني لم أستطع أن أتجاوز، قط الفكرة الحبيسة بأن السبب الحقيقي هو الذكرى المشؤومة لتحقيقي الصحفي عن بيراسكوتشيا.

وكان العزاء الطيب في تلك الأيام، هو المكاملة الهاتفية التي تلتقيتها من رافائيل إسكالونا، مؤلف الأغنيات التي كانت تُغنى، وما زالت تُغنى، في هذا الجانب من العالم. لقد كانت بارانكيًا مركزًا حيويًا، لكثرة ما يترده عليها عازفو الأكورديون البارعون الذين كنا نعرفهم في حفلات أراكاتاكا، ولسعة انتشارهم في إذاعات ساحل الكاريبي. وكان غييرمو بويتراغو، أحد المغنين المعروفين جداً آنذاك، يتباهى بأنه يطلع أولاً بأول، على مستجدات بروقيشيا. وكان هناك مقن آخر واسع الشعبية يدعى كريستينشو سالسيدو، وهو هندي حاف، اعتاد الوقوف عند ناصية محل أميركانا للمأكولات الخفيفة، ليغني، دون أي مرافقة موسيقية، حصاد أغنياته وأغنيات آخرين، بصوت فيه شيء من الصفيح، إنما بغير خاص تفرد به، وفرضه على الجموع البوهية في شارع سان بلاس. وقد أمضيت شطراً لا بأس به من شبابي المبكر، واقفاً إلى جانبه، حتى دون أن أحبيه، ودون أن أجعله براتي، إلى أن أحفظ عن ظهر قلب، أغنيات الجميع التي يغنيها.

وقد بلغت ذروة ذلك الشغف، في مساء يوم قانظ، قاطعتني فيه

الهاتف، بينما أنا أكتب "الزرافة"، وحياتي صوت، مثل أصوات كثيرين من أصدقاء طفولتي، دون العبارات والصيغ المتداولة:
- ما أخبارك يا أخي. أنا رافائيل إسكالونا.

بعد خمس دقائق، التقينا في مقهى روما لنبدأ صداقة ستستمر مدى الحياة. ما إن انتهينا من تبادل التحية، حتى بدأتُ بمحاصرة إسكالونا لكي يغني لي أغنياته الأخيرة. وقد غنى أبياتاً متفرقة منها، بصوت خافت جداً وموزون بدقة، رافقه بالقرع بأصابعه على المائدة. كان شعر منطقتنا الشعبي يخطر بزي جديد في كل مقطع يغنيه. وقد غنى: "سأقدم لك باقة من أزهار (لا تنسيني) لتعلمي معناها". وببست له أنا من جهتي، أنني أعرف، عن ظهر قلب، أفضل أغنيات منطقتنا، وأتني التقطتها منذ طفولتي المبكرة من نهر التقاليد الشفوية الصاحب. لكن أكثر ما فاجأه هو أنني أتكلم عن بروقيشيا، وكأنني أعرفها.

قبل أيام من ذلك، كان إسكالونا قد سافر بالحافلة، من بييانويفا إلى باييدوبار، بينما هو يؤلف، ذهنياً، موسيقى وكلمات أغنية جديدة من أجل الكرنفال، في يوم الأحد التالي. كان ذلك هو منهجه البار، لأنه لم يكن يعرف كيفية كتابة الموسيقى، ولا العزف على أية آلة موسيقية. وفي إحدى قرى الطريق، صعد إلى الحافلة مغني تروبادور جوال، ينتعل صندوقاً جلدياً ويحمل أكورديوناً. واحدٌ من أولئك المغنين الذين كانوا يجوبون المنطقة للغناء، منتقلين من مهرجان شعبي إلى آخر. أجلسه إسكالونا إلى جانبه، وغنى له بصوت هامس، المقطعين الناجزين من أغنيته الجديدة.

نزل العازف سعبداً في بييانويفا، بينما واصل إسكالونا طريقه في

الحافلة إلى باييدوبار، حيث اضطر إلى النوم ليشعر حتى الأربعين درجة التي سببها له رشع غادي، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، كان يوم أحد الكرنفال، فكنست أغنية إسكالونا، غير المكتملة التي غناها، همساً، للصديق الطارئ، كل الموسيقى القديمة والجديدة، من باييدوبار حتى رأس لايبلا، ولم يعرف أحد سواه، من الذي نشر الأغنية، بينما هو يتعرق حتى كرنفاله، ومن هو الذي وضع لها اسم: "سارة العجوز".

القصة صحيحة، ولكنها ليست غريبة ولا نادرة، في تلك المنطقة وفي أوساط نقابة المغنين تلك، حيث العجيب المدهش هو أكثر الأمور طبيعية. فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بكونومبيا أو شائعة فيها، يتمتع بشعبية واسعة في مقاطعة باييدوبار. وربما يكون قد جيء به إليها من جزيرتي أروية أو كوراساو. وخلال الحرب العالمية الثانية، توقف الاستيراد من ألمانيا، وبقيت الأكورديونات التي في المقاطعة على قيد الحياة، بفضل عناية أصحابها المحليين بها. وكان أحدهم لياندر ديات، وهو نجار لم يكن مؤلف موسيقى، عبقرياً، ومعلم أكورديون وحسب، وإنما الوحيد الذي عرف كيف يصلح تلك الآلات، طوال فترة الحرب، على الرغم من أنه كان أعشى منذ الولادة. لقد كان أسلوب حياة أولئك العازفين المتجولين، هو التنقل من قرية إلى قرية، وغناء أحداث ووقائع قصص الحياة اليومية الظريفة والعادية، في حفلات دينية أو دنيوية، ولا سيما في هرج ومرج الكرنفالات. أما رافائيل إسكالونا، فكان حالة مختلفة. فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن أخت المطران المشهور سيليدون، وهو فوق ذلك حاصل على الثانوية من معهد سانتا مارتا الذي يحمل اسمه. بدأ بتأليف

الموسيقى، منذ طفولته المبكرة، وسط استنكار الأسرة التي تعتبر الغناء وعزف الأكورديون من أعمال المعوزين. ولم يكن عازف الأكورديون الجوال الوحيد الحاصل على الثانوية وحسب، وإنما أحد القلة الذين يتقنون القراءة والكتابة في تلك الأزمنة، والرجل الأكثر كبرياء وسهولة في الوقوع في الحب على الإطلاق. ولكنه لم يكن، ولن يكون الأخير؛ فهناك منهم الآن بالمئات، وهم أكثر فنوة وشباباً في كل مرة. وقد فهم بيل كليبتون الأمر على هذا النحو، في الأيام الأخيرة من رئاسته، عندما استمع لجماعة أطفال مدرسة ابتدائية، سافروا من بروفينشيا، لكي يغنوا له في البيت الأبيض.

في أيام حسن الطالع تلك، التقيت مصادفة، بميرثيديس بارتشا، ابنة صيدلي سوكري التي عرضت عليها الزواج مذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وعلى خلاف المرات الأخرى السابقة، وافقت يومذاك، على دعوتي لها إلى الرقص، يوم الأحد التالي في فندق برادو. وقد علمتُ عندئذ فقط، أنها قد انتقلت مع أسرتها إلى بارانكيّا، بسبب الوضع السياسي الذي تزداد وطأة طغيانه أكثر فأكثر. لقد كان أبوها، ديميتريو، ليبرالياً متشدداً لم تُرهبه التهديدات الأولى التي كانت توجه إليه كلما اشتدت الملاحقة، ولا عار المنشورات الاجتماعي، ولكنه حيال ضغط أسرته، صفى ما تبقى له من ممتلكات قليلة في سوكري، وأقام صيدليته في بارانكيّا، على مقربة من فندق برادو. ومع أنه كان في سن والدي، إلا أنه احتفظ على الدوام، بصداقة شياوية معي، اعتدنا أن نعيد تحميتها في الحانة المقابلة. وانتهى بنا المطاف أكثر من مرة، إلى سكرات مجددي سفن، مع شلة الأصدقاء، بكاملها، في حانة الرجل الثالث.

غالان، المبدع المجيد لموسيقى "ميركوميري" التي بقي الناس يرقصون على إبقاعها طوال سنوات، وكانت أصل ألحان كاريبية جديدة لا تزال حية حتى الآن. كانت ميرثيديس ترقص جيداً على إيقاع الموسيقى الراقصة، وتستغل مهارتها لتتهرب، بتحايلاتها السحرية، من العروض التي كنتُ أحاصرها بها. بدا لي أن تكتيكها يرمي إلى جعلني أظن أنها لا تأخذني على محمل الجد، ولكنني كنتُ أتمكّن، بالمهارة التي أجدها دوماً، من العثور على طريقة للمواصلة قدماً.

أصابها الرعب في الساعة الثانية عشرة تماماً، بسبب مرور الوقت، فتركتني وحيداً في منتصف الرقصة. ولكنها لم توافق على أن أراقبها، ولو حتى الباب. وقد بدا ذلك التصرف غريباً جداً لأختي، فأحسّت بأنها المذنبية بطريقة ما. وما زلتُ أتساءل حتى الآن، عما إذا لم يكن لذلك المثال السيئ، علاقة ما بقرارها المفاجئ في الانضمام إلى دير الراهبات الساليسينيات، في ميدلين. وقد انتهى بنا الأمر، أنا وميرثيديس، منذ ذلك اليوم، إلى اختراع رموز خاصة، تتفاهم بوساطتها دون أن نقول شيئاً، وحتى دون أن يرى أحدهما الآخر.

عدت إلى تلقي معلومات منها، بعد شهر من ذلك، في الثاني والعشرين من كانون الثاني من السنة التالية، برسالة مقتضبة تركتها لي في الهيرالدو: "لقد قتلوا كابتانو". وهذا لا يمكن له، بالنسبة لنا، إلا أن يكون شخصاً واحداً: كابتانو خينيلي، صديقنا في سوكري، وهو طبيب لامع، ومنشط حفلات رقص، وعاشق بالمهنة. كانت الرواية المباشرة تقول إنه قد قُتل طعنًا بسكين على يد أخوي معلمة "مدرسة تشابارال" التي رأيناها يأتي بها على حصانه. وخلال ذلك اليوم، بين برقيسة وأخرى، حصلت على القصة كاملة.

كانت ميرثيديس تدرس، آنذاك، في ميدلين، ولا تأتي للعيش مع أسرته إلا خلال عطلة أعياد الميلاد. لقد كانت مرحة ولطيفة في تعاملها معي، على الدوام، ولكنها تمتلك موهبةً مشعوذٍ في التملص من الأسئلة والإجابات، وعدم الالتزام بأي شيء محدد. وكان عليّ أن أتقبل ذلك، على أنه استراتيجية أكثر رحمة من عدم المبالاة أو الصد. وكنت أكتفي بالتقائي مع أبيها وأصدقائه في الحانة المقابلة. وإذا كان هو نفسه لم ينتبه إلى اهتمامي بإجازات ابنته التي أنتظرها بلهفة، فلأن السر كان أفضل الأسرار صوتاً خلال العشرين قرناً الأولى من التقويم المسيحي. لقد تباهى مرات عديدة، في "الرجل الثالث"، بالجملة التي ذكرتُها هي نفسها في حفلة رقصنا الأولى في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد، الأمير الذي سيتزوجني". ولم أعرف إذا ما كانت تؤمن فعلاً بذلك. ولكنها كانت تتصرف كما لو أنها تؤمن به، حتى عشية عيد الميلاد ذاك الذي وافقت فيه على أن نلتقي يوم الأحد التالي، في حفلة الرقص الصباحية في فندق براوو.

إنني أؤمن بالخرافات، إلى حد أنني عزوت قرارها بالقبول، إلى طريقة الفنانين التي قص بها الحلاق شعري وشاربي، وإلى بدلة الكتان الخام وريطة العنق الحريرية اللتين اشتريتهما بالمناسبة، من تصفية أتراك. ولأنني كنتُ واثقاً من أنها ستحضر مع أبيها، مثلما تفعل حين تذهب إلى أي مكان، فقد دعوتُ كذلك، أختي عابدا روسا، وكانت تُمضي إجازتها معي. ولكن ميرثيديس حضرت وحيدة بروحها، ورقصت بصورة طبيعية وبكثير من المرح، بحيث يمكن لأي عرض جدي أن يبدو لها مضحكاً. في ذلك اليوم دُشن الموسم الذي لا ينسى لصديقي باتشو

لم تكن أزمة الهوانف السهلة قد بدأت بعد، وكانت المكالمات الشخصية البعيدة يُشغق عليها بيرقيات مسبقه. وقد كان ردّ فعلي الأول هو ردّ فعل كاتب التحقيقات الصحفية. قررت السفر إلى سوكري لكتابه ريبورتاج صحفي. ولكنهم فسروا ذلك في الجريدة، على أنه اندفاع عاطفي. وأنا أتفهم اليوم ذلك؛ لأننا نهنك، نحن الكولومبيين، منذ ذلك الحين، في قتل بعضنا بعضاً لأي سبب. وقد نختلق الأسباب اختلاقاً في بعض الأحيان لكي نقتتل؛ بينما تبقى الجرائم العاطفية ترفاً مقتصرأ على الأغنياء، في المدن. بدا لي أنه موضوع أبدي، ورحت أسجل المعلومات من الشهود، إلى أن اكتشفت أمة نواياي الخفية، فتوصلت إلى ألا أكتب ذلك الريبورتاج. على الأقل ما دامت دونيا خولييتا تشيستو، أم كايتانو، على قيد الحياة؛ لأنها كانت، وهذه ذروة الأسباب، أم ابنتها الروحية، باعتبارها عرابة تعميد هيرناندو، الثامن في الترتيب بين أخوتي. أما ميررها - وهو ما لا بد من ذكره في أي ريبورتاج صحفي - فكان من الوزن الثقيل. ذلك أن أخوي المعلمة لحقا بكائتانو، عندما حاول أن يهرب إلى بيته، لكن دونيا خولييتا، أمه، سارعت إلى إغلاق الباب الخارجي، لأنها ظنت أن ابنتها موجود في غرفة نومها. وهكذا، فإن من لم يستطع الدخول، كان هو ابنتها نفسه، وقد تمكنا من قتله بالسكاكين، عند الباب المغلق.

كان ردّ فعلي الفوري هو الجلوس لكتابة الريبورتاج عن الجريمة. ولكنني واجهت كل أنواع العوائق. لم يعد ما يهمني هو الجريمة بحد ذاتها، وإنما الموضوع الأدبي عن المسؤولية الجماعية. إلا أن أمة لم تتقنع بأي حجة. وبدا لي أن الكتابة دون موافقتها، هي ضرب من إساءة

الاحترام. ومنذ ذلك الحين، لم يمر يوم واحد إلا وكانت أصابعي تتحرق لهفة إلى كتابة ذلك التحقيق. وكنت قد بدأت أستسلم، بعد سنوات طويلة من ذلك، بينما أنا أنتظر طائرة مغادرة في مطار الجزائر. وفجأة نُفّح باب الدرجة الأولى، ودخل أمير عربي بعباءة قشبية من عبايات بني قومه، وعلى قبضته أنثى صقر جوال بديعة. وبدلاً من غصامة الجلد الثقليدية التي توضع للبيزان المروضة، كانت على أنثى الصقر تلك واحدة، من الذهب مرصعة بالماس. لقد تذكرتُ، بالطبع، كايتانو خينطلي الذي كان قد تعلم من أبيه، فنون التصقر الجميلة؛ في البدء ببواشق محلية، وبعد ذلك، بنماذج بديعة من الصقور المجلوبة من بلاد العرب السعيدة. وكان يملك في مزرعته، عند موته، محترفاً لتربية الصقور، فيه ذكر وأنثيان مروضة ومدربة على اصطيد الحجل، وصقر اسكتلندي مدرب على الدفاع الشخصي. وكنت أعرف، آنذاك، المقابلة التاريخية التي أجراها جورج بليمنتون مع إرنست هينغواي في مجلة "ذي بارنس ريفيو"، وسأله فيها عن عملية تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية. وقد رد عليه هينغواي: "إذا ما شرحت كيف أفعل ذلك، فسوف أتحول، في أحد الأيام، إلى مرجع للمحاميين المتخصصين في قضايا القدر والشهير". ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الذي وفرته لي العناية الإلهية في مدينة الجزائر، كان وضعي معكوساً تماماً؛ لم أعد أشعر بأنني سأجد الحماسة على مواصلة العيش بسلام، ما لم أكتب قصة موت كايتانو.

واصلت أمة التمسك بإصرارها على منع ذلك، مهما كانت الذرائع، إلى ما بعد ثلاثين سنة من المأساة؛ عندما اتصلت هي نفسها بي، وأنا

قال لي:

- أنت لا تدرك ما هو ذلك الجحيم، لأنك تعيش في واحة السلام هذه. أما نحن، فما زلنا أحياء هناك، لأن الرب يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء الحزب المحافظ القليلين الذين لم يضطروا إلى التواري عن أنظار الليبراليين المتأججين غضباً، بعد التاسع من نيسان؛ أما جماعته الذين كانوا يلوذون في ظله، فقد نبذوه الآن، بسبب فتور حماسته. رسم لي لوحة باللغة الرعب - وباللغة الواقعية - تسوغ تماماً قراره المتسرع بالتخلي عن كل شيء، والانتقال بالأسرة إلى كارتاخينا. لم تكن لدي حجة عقلانية أو عاطفية ضده، ولكنني فكرت في أنه قد يفهم ذلك على أنه حلّ أقل جذرية من الانتقال الفوري.

كان لا بد لي من كسب الوقت للتفكير. تناولنا شرباً مرطباً ونحن صامتان. كل منا مستغرق في أفكاره، وقد استرد هو مثاليته المحسومة قبل الانتهاء، وشلّ قدرتي على الكلام حين قال، وهو يطلق زفرة رهيبية: "عزائي الوحيد في كل هذا الأمر، هو سعادتني في أنك ستتمكن أخيراً من إنهاء دراستك". لم أخبره قط، بالتأثر الذي سببته لي سعاداته الوهمية تلك، بقضية على ذلك القدر من الاضلال. أحسست بنفحة جليدية في بطني، تفجرها الفكرة الخبيثة بأن رحيل الأسرة ليس سوى حيلة منه لإجباري على أن أصير محامياً. نظرت مباشرة إلى عينيه وكانتا بركتين ذاهلتين. إنه ينهني إلى أنه في حالة من الخذلان والجزع، لن يجبرني معها على شيء، ولن يرفض لي رأياً. ولكن إيمانه بنصيبه من العناية الإلهية، كان كافياً لأن يعتقد بأنه يمكن لي أن أستسلم من التعب. بل أكثر من ذلك: فقد كشف لي بالحماسة الأسرة نفسها، أنه قد

في برشلونة، لتطلعني على الخير السيئ بأن حوليها تشيمنتوا، أم كايانو، قد ماتت دون أن تستعيد توازنها لفقدان ابنتها، ولكن أمي لم تجدد، في هذه المرة، بأخلاقها المجرية، مبررات لمعي من كتابة الريبورتاج. فقالت لي:

- إنني أرجو منك، كأم، شيئاً واحداً فقط. تعامل مع الموضوع، كما لو أن كايانو هو ابني.

نُشرت القصة التي تحمل عنوان "قصة موت معلن"، بعد سنتين من ذلك. ولم تقرأ أمي الكتاب لسبب أحفظ به، في متحفى الشخصي، كجوهره أخرى منها: "إن أمراً حدث يمثل ذلك السوء في الحياة، لا يمكن له أن يكون جيداً في كتاب".

رَنّ الهاتف على متضدة عملي، في الساعة الخامسة مساءً، بعد أسبوع من موت كايانو. وكنت قد بدأت بكتابة واجبي اليومي في الهيرالدو. كان المتصل هو أبي. وقد وصل، لشوه، إلى بارانكيئا، دون إشعار مسبق. وكان ينتظرني بصورة مستعجلة في مقهى روما. أرعيني تهديج صوته، ولكنني دُعرت أكثر، حين رأيته مثلما لم أراه من قبل: مشعث المظهر وبذقن غير حليقة، يرتدي بدلة التاسع من نيسان الزرقاء السماوية، وقد لاکها الحر وطريق السفر. ولا يكاد يستند إلا إلى سكينته المهزومين.

سيطر عليّ ضيق لا أشعر معه بأنني قادر على نقل الغم والبراءة اللذين أطلعتني بهما أمي، على الكارثة الأسرية. قبلة سوكري، فردوس الحياة السهلة، والفتيات الجميلات، قد انساقت لتبار العنف السياسي المتلاطم. ولم يكن موت كايانو سوى أحد أعراضه.

حصل لي على وظيفة في كارتاخينا، وأن كل شيء جاهز لأبدأ عملي يوم الاثنين التالي. إنها وظيفة كبيرة، أوضح لي، لا يتوجب علي الذهاب إليها إلا مرة كل خمسة عشر يوماً، لقبض راتبي.

كان ذلك أكثر بكثير مما أستطيع هضمه. ضغطت على أسناني، وأنا أقدم له مسبقاً، بعض التحفظات لتهيئته من أجل رفض نهائي. أخبرته بمحادثتي الطويلة مع أمي، خلال الرحلة إلى أراكاتاكا التي لم أتلق منه أي تعليق حولها. ولكنني قهمت أن تجاهله الموضوع، هو أفضل إجابة. وكان المحزن في الأمر هو أنني ألاعبه، وأنا أدرك مسبقاً أن النتيجة محسومة، لأنني كنتُ أعرف أنني لن أقبل في الجامعة، بعد أن خسرت مادتين من السنة الثانية، لم أنجح فيهما قط. فضلاً عن مادتين آخرين لا يمكن لا سبيل إلى استيفائهما من السنة الثالثة. وقد أخفيت الأمر عن الأسرة لكي أجنبها غمّاً لا طائل منه، ولم أشأ أن أتصور ما سيكون عليه رد فعل والدي، إذا ما أخبرته بالحقيقة في ذلك المساء. كنت قد صممت، عند بدء المحادثة، على ألا أخضع لأي ضعف قلب، لأنني كنت سأتألم لرؤية رجل طيب مضطر إلى الظهور أمام أبنائه، بمثل ذلك المظهر من الهزيمة. ومع ذلك، فقد بدا لي أنني أمنح قدراً أكبر من الثقة للحياة، ثم استسلمتُ أخيراً، للمعادلة السهلة بتبديد ليلة رحمة وغفران، للتفكير في الأمر. فقال لي:

- موافق، شريطة ألا تتواري عن الأنتظار، لأن مستقبل الأسرة بين

يدبك.

إنه شرط كافي. فقد كان يعني جيداً نقطة ضعفي، حتى إنني عندما ودعته في الحافلة الأخيرة، في الساعة السابعة ليلاً، اضطرت إلى كبح

قلبي كيلا أذهب معه في المقعد المجاور. كان واضحاً بالنسبة لي، أن الدورة قد اكتسحت، وأن الأسرة ستعود فقيرة إلى حد لا يمكنها معه الحفاظ على بقائها إلا بتعاون الجميع.

لم تكن الليلة مناسبة لاتخاذ أي قرار. فقد أخلت الشرطة، بالقوة، عدة أسر من اللاجئين القادمين من المناطق الداخلية، عن أقاموا مخيمهم في حديقة سان نيكولاس، هرباً من العنف في الأرياف. ومع ذلك، كان السلام المتبع يسيطر على مقهى روما. وكان اللاجئين الإسبان يسألونني دوماً عن أخبار دون رامون فينيس، فأرد عليهم على الدوام بمازحاً، بأن رسائله لا تتضمن أخباراً عن إسبانيا وإنما أسئلة متلهفة عن بارانكييا. ومنذ أن مات، لم يعودوا إلى ذكر اسمه، ولكنهم أبقوا كرسيه شاغراً على المنضدة. هنأني أحد الرواد على "الزرافة" المنشورة في اليوم السابق، لأنها ذكّرت به بطريقة ما، برومانسية مريانو خوسيه دي لارا المؤثرة. ولم أدر قط، سبب ذلك. وقد أخرجني الأستاذ بيريث دومينش من المأزق، بإحدى عباراته التي تأتي في وقتها المناسب: "أمل ألا تحذو كذلك حذو مثله السيئ، بإطلاق رصاصة على نفسك". وأظن أنه ما كان ليقول ذلك، لو أنه عرف إلى أي حد، كان قوله صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة من ذلك، اقتدتُ خيرمان بارغاس من ذراعه إلى عمق مقهى جابي، وما إن قُدم لنا ما طلبناه، حتى قلت له إنني أريد استشارته في أمر مستعجل. بقي هو مسكماً بالفنجان الذي كان يوشك أن يتذوقه - مثل دون رامون بالضبط -، وسألني مذعوراً:

- إلى أين ستذهب؟

أدهشني بصيرته، فقلت له:

- وكيف عرفت!

لم يكن يعرف، ولكنه توقع ذلك، وكان يرى أن رحيلي سيعني نهاية كرونيتكا، وأنه انعدام حس بالمسؤولية خطير سيشغل على طوال ما تبقى من حياتي. وأوحى إلي بأن ذلك لا يقل إلا قدرأ قليلاً عن الحيانة. ولم يكن هناك من له الحق أكثر منه في أن يقول لي ذلك. لم يكن أحد منا يعرف ما الذي ستفعله بمجلة كرونيتكا، ولكننا جميعنا كنا ندرك أن ألفونسو قد حافظ على بقائها في لحظة مصيرية، وتحمل نفقات نفوق إمكانياته. ولهذا لم أستطع قط أن أنتزع من رأس خيرمان الفكرة الحبيشة بأن ذهابي الذي لا مفر منه، هو بمثابة الحكم بالموت على المجلة. إنني واثق من أنه، هو الذي يفهم كل شيء. كان يعرف أن مبرراتي قاهرة. ولكنه أنجز واجبه الأخلاقي بأن قال لي ما يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما ألفارو سيبيدا يوصلني إلى مكتب كرونيتكا، قدم لي دليلاً مؤثراً على القشعريرة التي تسببها له تقلبات الأصدقاء الحبيبة. مما لا شك فيه أنه كان على علم، من خلال خيرمان، بقراري في المغادرة. وقد أنقذنا، نحن الاثنين، خجله النموذجي، من أي ذرائع متكلفة. فقد قال لي:

- يا للجنة. الذهاب إلى كارتاخينا لا يعتبر ذهاباً إلى أي مكان. اللفظاعة هي في الذهاب إلى نيويورك، مثلما حدث لي. أما هنا فأنا على أحسن حال.

كان هذا هو نوع الردود الحكيمة التي تفيده في حالات كحالي، ليتجاوز الرغبة في البكاء. وللأسف نفسه، لم تفاجئني رغبته في التحدث للمرة الأولى، عن مشروع صنع سينما في كولومبيا، والذي

سنواصله دون التوصل إلى نتائج، طوال ما تبقى من حياتنا. تطرق إلى الموضوع كطريقة مواربة لتسركي مع شيء، من الأمل. وضغط مكبح السيارة فجأة، بين الجموع المتوقفة والمحانات الصغيرة، في شارع سان بلاس، ثم صرخ بي من نافذة السيارة:

- لقد أخبرت ألفونسو بأن يرسل هذه المجلة إلى الجحيم، ولنصنع واحدة مثل التايم!

المحادثة مع ألفونسو، لم تكن سهلة لي وله على السواء؛ إذ كانت هناك مسألة تحتاج إلى توضيح من كلنا، منذ نحو ستة شهور، وكلانا كنا نعاني نوعاً من التلعثم الذهني في المناسبات الصعبة. فقد حدث في إحدى نوبات غضبي الصبيانية، ونحن في غرفة الإخراج، أن حذفْتُ اسمي ومنصبي من قائمة هيئة تحرير كرونيتكا، ككتابة عن استقالة رسمية. وعندما مرت العاصفة، نسيت إعادة إدراجهما. لم ينتبه أحد إلى ذلك قبل خيرمان يارغاس، بعد مرور أسبوعين. وقد تحدث في الأمر مع ألفونسو الذي فوجئ به أيضاً. وقد أخبرهما بورفيريو، مسؤول قسم الإخراج، كيف حدثت المشكلة؛ فاتفقا على ترك الأمور على حالها، إلى أن أعرض عليهما وجهة نظري ومبرراتي. ولسوء حظي أنني نسيت الأمر تماماً، حتى اليوم الذي توصلت فيه أنا وألفونسو إلى الاتفاق على أن أترك كرونيتكا. وعندما انتهينا، ودعني وهو يكاد يموت من الضحك، بمداعبة من مداعباته، وكانت قوية ولكنها لا تقاوم، إذ قال:

- لحسن الحظ، أننا لن نضطر حتى إلى حذف اسمك من هيئة التحرير.

تعددت فقط، استعدادت الحادث كضربة سكين، وأحسست أن الأرض

تغور لحت قدمي، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة تماماً، وإنما لأنني نسيت توضيح الأمر في حينه. ومثلما هو مأمول منه، قدم لي ألفونسو تفسيراً شخصياً ناضج. إذا كان ذلك هو الخلاص الوحيد الذي لم نوضحه، فليس من اللائق تركه معلقاً في الفضاء دون تفسير. وما تبقى سيقوم به ألفونسو مع ألفارو وخيرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ المركب، بتعاون الجميع، فإنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أعود خلال ساعتين. وكنا نضع في اعتبارنا، كاحتياطي أخير، الاستعانة بمجلس التحرير؛ كنوع من العناية الإلهية، وإن لم نتمكن قط، من جمعه للجلاس على جانبي منضدة خشب الجوز التي نتخذ عليها القرارات الكبرى.

منحتني تعليقات خيرمان وألفارو الشجاعة التي كنت أفتقدها من أجل المغادرة. وقد تفهم ألفونسو مبرراتي وتقبلها بآريحية، ولكنه لم يُلَمِّح بأي شكل، إلى أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي باستقالتي. بل على العكس، فقد نصحني بأن أتناول الأزمة بهدوء، وطمأنني بفكرة تشبيد قاعدة راسخة للمجلة، مع مجلس التحرير، وأنه سيخبرني عندما يتمكن من تحقيق شيء يستحق العناء فعلاً.

كان تلك هي أول إشارة ألاحظها في أن ألفونسو يضع في اعتباره الاحتمال غير المعقول، في أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي. وهذا ما حدث، دون أحزان ولا أمجاد، في الثامن عشر من حزيران، بعد ستة وثماتية أعداد، في أربعة عشر شهراً. ومع ذلك، لدي انطباع، بعد انقضاء نصف قرن، بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية. لم تبق منها مجموعة كاملة، وإنما الأعداد الستة الأولى فقط، وبعض القصاصات في مكتبة دون رامون فينيس الكتالنية.

ومن محاسن المصادفات، أن أصحاب البيت الذي كنت أعيش فيه آنذاك، أرادوا استبدال أثاث الصالة، وعرضوه علي بسعر زهيد. وعشبة السفر، عند تصفية حساباتي في الهيرالدو، وافقوا على منحي أجر ستة شهور من "الزرافة" مقدماً. فاشترت بجزء من تلك النقود أثاث مايبينو لبيتنا في كارتاخينا، لأنني كنت أعلم أن الأسرة لن تأتي معها بأثاث بيتنا في سوكري، وليس لديها موارد لشراء أثاث آخر. ولا يمكنني أن أتجاهل أن ذلك الأثاث لا يزال، بعد خمسين سنة أخرى من الاستخدام، في حالة جيدة، وفي الخدمة، لأن الأم الممتنة لم تسمح ببيعه.

بعد أسبوع من زيارة أبي، انتقلت إلى كارتاخينا بحمولة الأثاث وحدها، وشي، أكثر بقليل من الملابس التي كنت أرتديها. وعلى خلاف المرة الأولى، كنت أعرف كيف أفعل كل ما يجب فعله، وعلى دراية بكل ما أحتاج إليه في كارتاخينا. وكنت أرغب من كل قلبي، في أن تمضي أمور الأسرة على أحسن حال، وأن تكون سيئة بالنسبة لي، كعقاب على افتقادي للعزيمة.

كان البيت في موقع جيد من حي لابويا، في ظل الدير التاريخي الذي يبدو، على الدوام، أنه على وشك أن ينهار. وكانت غرف النوم الأربع والحمامان في الطابق السفلي، محجوزة للأهوين والأبناء الأحد عشر: أنا أكبرهم، في السادسة والعشرين من عمري تقريباً؛ وإليخيو أصغرهم، في الخامسة. وقد تربى الجميع جيداً على ثقافة الكاريبي ذات أراجيح النوم والحصائر على الأرض، والأسرة لمن وجدوا لها مكاناً. أما في الطابق العلوي، فكان يعيش العم هيرموخينس سول، شقيق أبي، مع ابنه كارلوس مارتينيث سيماهان. لم يكن البيت بكامله كافياً

لكل ذلك العدد، إلا أن قيمة الإيجار كانت معتدلة بفضل علاقات العم مع مالكة البيت التي لم تكن تعرف عنها سوى أنها امرأة غنية جداً، وتدعى لايبيا. وسرعان ما وجدت الأسرة، بمهيتها في السخرية، عنواناً بارعاً للبيت، له إيقاع أغنية: "بيت لايبيا في حي لايبوا".

ما زال انتقال القبيلة، بالنسبة لي، مجرد ذكرى يلفها الغموض. كان النور قد انقطع عن نصف المدينة. وكنا نحاول أن نهيب البيت في العتمة، لكي ينام الصغار. وكنا نحن الأخوة الكبار نتعرف بعضنا على بعض، من أصواتنا. أما الصغار فكانوا قد تبدلوا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، حتى إن عيونهم الهائلة والمزينة كانت ترعيني على ضوء الشموع. عانيت من فوضى الصناديق، والحزم، وأراجيح النوم المعلقة في الظلام، وأحسست كما لو أنني أعيش تاسعاً من نيسان منزلياً. ومع ذلك، فإن تأثري الأكبر أحسست به عندما حاولت تحريك كيس بلا شكل راح يغلغ من يدي، وكان ما يحترقه هو رفات الجدة ترانكيلينا، فقد نشت عنها أُمي، وجاءت بها معها لتودعها في مقبرة سان بيدرو كلاتير، حيث توجد رفات أبي والحالة إلفيرا كاريو في المدفن نفسه.

لقد كان عمي هيرموخينس سول رجل العناية الإلهية في حالة الطوارئ تلك. فقد عُيّن أميناً عاماً لإدارة الشرطة في كارتاخينا. وكان تدبيره المجذري الأول هو فتح ثغرة بيروقراطية لإنقاذ الأسرة. من فيهم أنا، الضال السياسي، ذو السمعة الشيوعية التي لم أكسبها بأيديولوجيتي، وإنما لطريقي في الملبس. كانت هناك وظائف للجميع. فقد مُنح أبي منصباً إدارياً دون مسؤولية سياسية. وعيّن أخي لويس إنريكي محمياً، ومُنحت أنا وظيفة براتب وبلا عمل في مكاتب الإحصاء.

الوطني الذي انكبت الحكومة المحافظة على إنجازته، ربما لتتوفر لها فكرة عن عددنا، نحن الخصوم المتيقين على قيد الحياة. وقد كانت الكلفة الأخلاقية لتلك الوظيفة، أشد خطراً بالنسبة لي من كلفتها السياسية. لأنني كنت أقبض راتبي كل أسبوعين، ولا أظهر في القطاع بقية الشهر، تفادياً للتساؤلات. وكان التبشير الرسمي، ليس لي وحدي، وإنما لأكثر من مئة موظف آخر، هو أننا في مهمة خارج المدينة.

كان مقهى موكا، قبالة مكاتب الإحصاء، يزدحم بموظفين زائفين من القرى المجاورة، ممن يأتون لقبض رواتبهم وحسب. لم يكن ينبغي فلس واحد لاستخدامي الشخصي، خلال الفترة التي وقَّعت فيها جدول الرواتب. لأن راتبي كان مهماً، ويذهب بكامله إلى الموازنة المنزلية. وفي أثناء ذلك، حاول أبي إعادة تسجيلي في كلية الحقوق، وصُدِّم بالحقيقة التي أخفيتها عنه. وقد أحسست بالسعادة، كما لو أنني نلت الشهادة، لمجرد أنه عترف بالأمر. وكانت سعادتني أكثر جدارة من ذلك، لأنني وجدت الوقت والمكان أخيراً، وسط كل تلك التناقضات والمشاحنات، لأنهي الرواية.

لدى دخولي إلى جريدة الأوتيفرسال، جعلوني أشعر كما لو أنني قد رجعت إلى البيت. كانت الساعة السادسة، أشد الساعات نشاطاً وحركة. غير أن الصمت الوعر الذي فرضه دخولي على آلات اللبنتوب والآلات الكاتبة، شكل عقدة في حنجرتي. بدا لي كما لو أنه لم تمض لحظة واحدة على فراقي للمعلم ثابالا، بخصل شعره الهندي. وقد طلب مني، كما لو أنني لم أعادر قط، معروفاً بأن أكتب له تعليقاً افتتاحياً مستعجلاً. كان يشغل آلي الكاتبة مراهقاً مبتدئاً، تعثر بتعجله المرتبك وهو يخلي لي

المقعد. وكان أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة تعليق مغفل التوقيع، بالرصانة التي تتطلبها الافتتاحية، بعد حوالي سنتين من تجاوزي كل الحدود في "الزرافة". كنت قد أنهيت كتابة صفحة عندما اقترب المدير لوبيث إسكاوريانا لتحتيتي، فتوره البريطاني كان موضوعاً شائعاً في مساهمات الأصدقاء، ورسوم الكاريكاتير السياسية. وقد أثر بي خجل سعادته، وهو يحييني معانقاً. عندما أنهيت كتابة التعليق، كان ثابالا ينتظرني، ومعه قصاصة ورقة أجرى عليها المدير بعض الحسابات، ليقترح عليّ راتباً من مئة وعشرين بيزو، في الشهر، مقابل كتابة تعليقات افتتاحية. أذهلني الرقم، وهو غير المعقول في ذلك الزمان وذلك المكان، حتى إنني لم أجب ولم أقدم الشكر، وإنما جلست لأكتب تعليقين آخرين، ثملاً بالإحساس بأن الأرض تدور فعلاً حول الشمس.

بدا ذلك كما لو أنني قد عدت إلى الأصول. فالموضوعات نفسها التي يصححها المعلم ثابالا بالمحبر الأحمر، وتحذف منها الرقابة نفسها، كلمات من خلال رقيب هزمه تحايل المحررين؛ وأنصاف الليل نفسها، العابقة بعفونة الخيل ورائحة القلقاس في مطعم الكهف؛ وموضوع الحديث نفسه عن إعادة تركيب العالم، حتى الفجر في شارع الشهداء. كان روخاس هيرانو قد أمضى سنة في بيع اللوحات كي ينتقل إلى أي مكان آخر، إلى أن تزوج من روسا إيسابيل العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنت أجلس في آخر الليل، لأكتب "الزرافة" التي أرسلها إلى الهيرالدو بالوسيلة الوحيدة الحديثة في ذلك الحين، ألا وهي البريد العادي. وكان يتخلل ذلك تخلفي، في أحيان قليلة، عن كتابتها لأسباب قاهرة، إلى أن أكملت سداد الدين.

الحياة مع الأسرة بكاملها، وفي ظروف يتحكم بها القدر، ليس مجالها الذاكرة، وإنما المخيلة. كان الأبوان ينامان في حجرة، في الطابق السفلي، مع بعض الصغار. وكانت الأخوات الأربع يشعرن بأن لهن الحق في حجرة لكل واحدة منهن. وفي الحجرة الثالثة، كان ينام هيرناندو وألفونسو ريكاردو، حيث يرعيان الصغير خيمي الذي يبقيهما في حالة تأهب بمواعظه الفلسفية والرياضية. أما ريتا ذات الأربع عشرة سنة، فكانت تدرس حتى منتصف الليل، أمام الباب الخارجي، تحت نور مصباح الشارع، لكي تقتصد في نور البيت. كانت تحفظ الدروس عن ظهر قلب، وتغنيها بصوت عال، بالطرف والإلقاء الجيد اللذين ما زالت تحتفظ بهما. غرائب كثيرة في كتيبي مصدرها تمارين قراءتها، عن البغلة التي تمضي إلى الطاحونة، وشوكولاته الصبي ذي البرنيطة الصغيرة، والعراف الذي يتغمس في الشراب. كان البيت أكثر حياة، وأكثر إنسانية قبل ذلك، منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماء، أو الذهاب إلى المراض، لقضاء حاجات سائلة أو صلبة مستعجلة، أو في تعليق أراجيح النوم متقاطعة على مستويات مختلفة في الممرات. كنت أعيش في الطابق الثاني مع غوستافو ولويس إنريكي - عندما انتقل العم وابنه للاستقرار في بيتهما الأسري -، بعد ذلك مع خيمي الخاضع لوقف مواعظه حول أي شيء، بعد الساعة التاسعة ليلاً. وفي إحدى الليالي، أبقانا نغماً باهت ومتناوب، يطلقه حمل يتيم، مستيقظين عدة ساعات. فقال غوستافو حانقاً:

- يبدو كما لو أنه فنار.

لم أنس ذلك قط، لأنه كان نوعاً من التشبيهات التي كنت أتلقفها

في تلك الأزمنة، على الطائر، من الحياة الواقعية، لأضمنها روايتي
الوشيقة.

كان البيت الأكثر حيوية بين بيوت كارتاخينا الحسوية العديدة التي
سكنها، والتي راح مستواها ينخفض، باطراد، مع تقلص موارد الأسرة،
ففي بحثنا عن بيوت أرخص، راح مستوانا ينحدر حتى وصلنا إلى بيت
توريل، حيث كان يظهر في الليل، شبح امرأة، وقد حالفني حسن الحظ
بعدم وجودي هناك، ولكن شهادات الأبهين والأخوة وحدها، سببت لي
قدراً من الذعر، يعادل كوني موجوداً. كان أبواي يتناومان في الليلة
الأولى، على الصوفا في الصالة، ورأيا تلك الرؤيا التي مرت دون النظر
إليهما، تنتقل من حجرة نوم إلى أخرى، بغستان مزين بزهور حمراء
وشعر قصير معقود وراء الأذنين، بشرائط ملونة. وقد وصفنها أُمي
بتفصيل لم يفتها فيه شكل قستانها وطراز حذائهما. أما أبي، فأنكر أنه
رأها، كيلا يسبب مزيداً من الذهول لزوجته، والخوف لأبنائه. ولكن الألفة
التي كانت المرأة الشبح تتحرك بها في أرجاء البيت، منذ الغروب، لم
تكن تسمح بتجاهلها، فقد استيقظت أختي مارغوت في فجر أحد
الأيام، ورأتها عند طرف سريرها، تنفحها بنظرة حادة، ولكن أكثر ما
أثر بها، هو رعب كونها مريئة من حياة أخرى.

وفي يوم الأحد، لدى الخروج من القديس، أكدت إحدى الجارات
لأُمي أن أحداً لم يسكن ذلك البيت، منذ سنوات طويلة، بسبب تمادي
المرأة الشبح التي ظهرت مرة في غرفة الطعام، في وضوح النهار، بينما
الأسرة تناول الغداء. وفي اليوم التالي، خرجت أُمي مع اثنتين من
أخوتي الصغار، بحشاً عن بيت تنتقل إليه. وقد وجدته بعد أربع

ساعات. ومع ذلك، فقد تكلف معظم أخوتي مشقة في استبعاد فكرة أن
شبح المرأة الميتة قد انتقل معهم.

في البيت الذي على سفح لاوبوا، وعلى الرغم من الوقت الطويل
المتوقر لي، كانت لدي رغبة كبيرة في الكتابة. حتى إنني كنت أشعر بأن
الأيام قصيرة. وهناك عاد للظهور في أحد الأيام، راميرو ديلا إسبرييا،
بشهادته كدكتور في القانون، سياسياً أكثر مما كان عليه في أي وقت
مضى، ومتحمساً بقراءته لروايات حديثة الصدور، لا سيما رواية "الجلد"
لكورتسو مالبارتي التي تحولت في تلك السنة، إلى كتاب حاسم لأبناء
جيلي. فقد كانت تأسرنا فعالية النشر، وحدة الذكاء، والرؤية اللفظة
للتاريخ المعاصر، فتجذبنا ونستغرق في قراءتها حتى الفجر. ولكن
الزمن أثبت لنا، مع ذلك، أنه كان مقدراً لمالبارتي أن يكون نموذجاً جيداً
لمواصفات مختلفة عن التي أرغب فيها. وانتهى الأمر بتلك الميزات،
إلى استبعاد صورته. فكان حالة مناقضة تماماً لما جرى لنا، في الوقت
نفسه تقريباً، مع ألبير كامو.

كان الأخوة ديلا إسبرييا يعيشون آنذاك قريباً منا، وكان لديهم قُبُو
لتخزين الخمر، يسرقون منه زجاجات بريئة ليأتوا بها إلى بيتنا. وعلى
عكس نصيحة دون رامون فينييس، كنتُ أقرأ لهم ولأخوتي آنذاك،
مقاطع مطولة من مسوداتي، في الحالة التي كانت عليها دون تشذيب،
وعلى شرائح ورق المطبوعة نفسها التي كتبتُ عليها كل ما كتبت في
ليالي الأرق، في الأونيفرسال.

في تلك الأيام رجع ألفارو موتيس وغونثالو مايارينوس. ولكنني
كنتُ محظوظاً بامتلاك الحياء الذي يمنعني من أن أطلب منهما قراءة

المخطوط غير المنتهي، والذي لا يزال بلا عنوان. كنت أريد الاعتكاف دون راحة، لأنجز النسخة الأولى من المخطوط على ورق نظامي، قبل التصحيح الأخير. كان لدي حوالي أربعين ورقة زيادة على النسخة المتوقعة. ولكنني كنت ما أزال أجهل أنه يمكن لذلك أن يكون عشرة خطرة. وسرعان ما أدركت أنه كذلك: فأنا عميد لصرامة في الدقة والكمال، تضطرنني إلى إجراء حساب مسبق لطول الكتاب، وإلى ضبط عدد الصفحات بدقة، في كل فصل، وفي الكتاب بجممله. وكان خطأ واحد بارز في هذه الحسابات، يجبرني على إعادة النظر في كل شيء؛ بل إن وجود خطأ في الكتابة، على الآلة الكاتبة، يشير ذعري كما لو أنه خطأ إبداعي. كنت أظن أن هذا المنهج المطلق يستند إلى رؤية متشددة في المسؤولية، ولكنني أعرف اليوم أنه كان مجرد رعب رقبائي خالص.

غير أنني تجاهلت مرة أخرى، بالمقابل، نصيحة دون رامون فينيس، وأوصلت إلى غوستافو إيبارا، نسخة كاملة من الرواية، وإن كانت ما تزال دون عنوان، عندما اعتبرتها منتهية. بعد يومين من ذلك، دعاني إلى بيته. وجدته يجلس على كرسي هزاز من الخيزران، على الشرفة المظلة على البحر، يعرض جسده للشمس، ويسترخي بملابس البحر، وقد تأثرت للفرقة التي كان يداعب بها أوراقتي، بينما هو يكلمني. إنه معلم حقيقي، لم يمل على محاضرة حول الكتاب، ولم يقل لي إنه يراه جيداً أو سيئاً، وإنما جعلني أعي قيمه الأخلاقية. وعندما انتهى، تفحصني راضياً، وانتهى إلى القول ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة أنتيغون.

أدرك من ملامحي، أنني فقدت أنوارتي، فتناول من رفوفه، كتاب

سوفوكليس، وقرأ لي ما الذي يعنيه. وبالفعل، كانت الحالة الدرامية في روايتي، في جوهرها، مطابقة لأنتيغون المحكوم عليها بترك جثة أخيها بولينيس دون دفن، بأمر من عههما الملك كريون. كنت قد قرأت أوديب في كولون من المجلد الذي أهداه إليّ غوستافو نفسه، في الأيام الأولى لتعارفنا. ولكنني لم أكن أتذكر أسطورة أنتيغون بصورة واضحة، تتيح لي إعادة بنائها من الذاكرة، ضمن مأساة منطقة الموز، ولم أكن قد لمحت التشابهات الانفعالية بينهما حتى تلك اللحظة. أعدت في تلك الليلة، قراءة العمل، مزيج غريب من الفخر لتوافقي، حسن النية، مع كاتب يمثل تلك العظمة، والألم من أن يلحق بي عار الانتحال أمام الملأ. بعد أسبوع من أزمة التشوش، قررت إجراء بعض التغييرات المعقدة التي تتيح لي إنقاذ حسن نواباتي، دون أن أدرك أبعاد الزهو الذي يفوق طاقة البشر، وأنا أعمد إلى تعديل كتاب لي، كيلا يبدو أنه لسوفوكليس. وأخيراً أحسست - مستسلماً - بأن لي الحق الأخلاقي في استخدام جملة له، كخاتمة توقيرية. وهذا ما فعلته.

الانتقال إلى كارتاخينا حسناً، في الوقت المناسب، من ترودي سوكري المرح والخطر. ولكن معظم الحسابات بدت أحلاماً، سواء بسبب شح الموارد أو بسبب حجم الأسرة. كانت أمي تقول إن أبناء الفقراء يأكلون أكثر من أبناء الأغنياء، ويكبرون أسرع منهم. ولكي تثبت ذلك يكفيها مثال أسرتهما. فرواتبنا جميعنا لم تكن تكفي لكي نعيش دون مفاجآت.

وقد تولى الزمن كل ما عدا ذلك. فأخي خيمي، وفي تواطؤ أسري آخر، صار مهندساً مندياً. فكان المجاز الوحيد في أسرة تنظر إلى

الشهادة الجامعية، كما لو أنها لقب نبالة. وصار لويس إنريكي معلماً في المحاسبة، وتخرج غوستافو طوبوغرافياً، وبقي كلاهما عازف الجيتار والمغني نفسه في سيرنادات الآخرين. وفاجأنا بيئو، منذ طفولته المبكرة، بمبول أدبية واضحة، وبقوة شخصيته التي قدم لنا دليلاً مبكراً عنها، وهو في الخامسة من عمره، عندما باغتهوه وهو يحاول إضرام النار في خزانة ملابس، ليحقق حلمه برؤية رجال المطافئ، وهم يطفئون الحريق في البيت. وقيماً بعد، عندما دعاه، هو وأخوه كوكي، زملاً أكبر منهما سناً، لتدخين الماريجوانا، رفض بيئو ذلك مذعوراً. أما كوكي بالمقابل، وكان فضولياً ومتهوراً، فدخنها بحمق. وحين غرق، بعد سنوات من ذلك، في هول المخدرات، أخبرني أنه قال لنفسه منذ تلك المرة الأولى: "يا لللعنة! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر غير هذا في حياتي". ولم يفعل شيئاً آخر، خلال الأربعين سنة التالية، بشغف دون مستقبل، سوى إنجاز وعده لنفسه بالموت ضمن قوانينه. وفي الثانية والخمسين من عمره، تجاوز الحد في فردوسه المصطنع، وقضت عليه سكتة قلبية.

أما نانثشي - أكثر الرجال حباً للسلام في العالم - فبقي في الجيش، بعد إنهاؤه خدمته العسكرية الإلزامية، وأتقن استخدام كل أنواع الأسلحة الحديثة، وشارك في العديد من المناورات العسكرية. ولكن لم تُنح له الفرصة قط، للمشاركة في واحدة من حروبنا المزمعة. وهكذا تقع أخيراً بمهنة رجل المطافئ، عندما خرج من الجيش. ولكنه لم يجد الفرصة هناك أيضاً، لإطفاء حريق واحد طوال أكثر من خمس سنوات. غير أنه لم يشعر قط بالاحباط، بفعل جس سخريه كرسه ضمن الأسرة، أستاذاً في الدعاية القوية، وأتاح له أن يكون سعيداً لمجرد كونه جيداً.

عمل بيئو، في أفسى سنوات الفقر، كاتباً وصحفيّاً بجهوده المحالصة، دون أن يدخن قط، أو يشرب فطرة واحدة أكثر مما يجب في حياته. وقد استطاعت ميوله الأدبية الجارفة، وإبداعه المتكتم أن تفرض نفسها وتتغلب على المصاعب والعقبات. ومات، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن أتيج له الوقت لينشر كتاباً من أكثر من ستمئة صفحة، تضم تحريات بارعة حول الحياة السرية لرواية "مئة عام من العزلة". وقد اشتغل في الكتاب، طوال سنوات، دون أن أعرف ذلك، ودون أن يسألني قط، بصورة مباشرة، عن أية معلومات.

عرفت أختي ريتا، وكانت لا تزال في سن المراهقة تقريباً، كيف تستفيد من عبرة التنكيل بغيرها، فعندما رجعتُ إلى بيت والدي، بعد فترة غياب طويلة، وجدتها تعاني اجتياز المطهر نفسه الذي عانت منه أخواتها الأخريات، بسبب وقوعها في غرام شاب أسمر رشيق، جذبي، ووقور. والشيء الوحيد فيه غير الملائم لها، هو طول قامته الذي يزيد عنها شبرين ونصف الشبر. وجدتُ أبي، في تلك الليلة بالذات، يستمع إلى الأخبار، وهو في أرجوحة النوم المعلقة في مخدعه. أخفضتُ صوت المذياع، وجلست على السرير المقابل، وسألته بحقي، كابن بكر، عما يحدث بشأن غراميات ريتا، فأطلق في وجهي الجواب الذي كان قد أعده، دون شك، منذ الأزل:

- الشيء الوحيد الذي يحدث هو أن الرجل لص.

وهذا هو بالضبط ما كنتُ أنتظره منه. فسألته:

- ماذا تعني بلص؟

فقال لي، دون أن ينظر إليّ:

- لص. لص.

- وما الذي سرقه؟ - سألته دون رحمة.

وواصل هو عدم النظر إليّ. ثم تنهد أخيراً:

- حسن. ليس هو، ولكن له أخاً سجيناً بسبب السرقة.

- ليست هناك مشكلة إذن - قلت له ببلاهة سهلة -، لأن ريتا لا

تريد الزواج منه، وإنما من الآخر غير السجين.

لم يجب. لأن نزاهته التي لا يرقى إليها الشك، تجاوزت الحدود،

منذ الجواب الأول في ذلك اليوم، فقد كان يعرف عدم صحة الإشاعة عن

الأخ السجين. وحين لم يبق لديه مزيد من الحجج، حاول التثبيت بأسطورة

الكرامة.

- لا بأس. ولكن عليهما أن يتزوجا بأسرع ما يمكن، لأنني لا أريد

فترات خطوبة طويلة في هذا البيت.

وكان ردي فوراً، وبانعدام رحمة لم أغفره لنفسى قط:

- غداً، في أول ساعات الصباح.

- يا رجل! يجب عدم المبالغة أيضاً - ردّ عليّ أبي متفاجئاً، لكنه

أظهر ابتسامته الأولى. وأضاف: - لا يوجد لدى هذه البنت ما ترتديه

حتى الآن.

المرّة الأخيرة التي رأيتُ فيها العمّة "با"، وهي في التسعين من

عمرها تقريباً، كانت حين جاءت إلى البيت في كارتاخيتا، في مساء

ذي حر مُدّل، دون إشعار مسبق؛ قادمة من ريوهاثشا في سيارة تكسي

إكسبريس، ومعها حقيبة تلميذ؛ مرتدية ملابس حداد، وعمامة من

قماش أسود. دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحين، وصاحت بالجميع:

- إنني آتية لأودعكم، لأنني سأمت.

احتضناها، ليس لما تمثله لنا وحسب، وإنما لأننا كنا نعلم كذلك،

مدى معرفتها لشؤونها مع الموت. بقيت في البيت، منتظرة ساعاتها في

غرفة الخدمة، وهي الغرفة الوحيدة التي قبلت النوم فيها. وهناك ماتت،

عابقة برائحة العفّة، عن عمر قدناه بمئة سنة وسنة.

كانت تلك الفترة هي الأشدّ زحماً في الأونيفرسال. فقد كان ثابالا

بوجهني بحكمته السياسية لكي تقول مقالتي ما يجب أن تقوله، دون

أن تصطدم بقلم الرقابة. وأبدى للمرة الأولى، اهتمامه بفكرتي القديمة،

في كتابة ريبورتاجات للصحيفة. وسرعان ما برز الموضوع الرهيب

للسائحين الذين هاجمتهم أسماك القرش على شواطئ ماريبا. ومع ذلك،

فإن أكثر الحلول الذي خطر للبلدية أصالة، هو عرض مبلغ خمسين بيزو

مقابل كل سمكة قرش تُقتل. وفي اليوم التالي، لم تعد أغصان أشجار

اللوز تكفي لعرض الأسماك التي قُتلت خلال الليل. وقد كتب هيكثور

ووخاس هيراتو من بوغوتا، وهو يكاد يموت من الضحك، في عموده

الجديد في جريدة التيسيمبو. ملاحظة ساخرة حول الفكرة غير الموفقة،

بتطبيق ذلك المبدأ الخاطئ، وفق أسلوب اقتلاع الفجل من أوراقه، على

صيد أسماك القرش. وقد فر لي ذلك فكرة كتابة ريبورتاج عن الصيد

الليلي. ساندي ثابالا بحساس، لكن إخفاقي بدأ منذ لحظة صعودي

المركب، عندما سألوني عما إذا كنتُ أصاب بدوار البحر، وأجبت أن لا!

وعما إذا كنتُ أخاف البحر. والحقيقة أنني كنت أخافه، ولكنني قلت لا.

تم سألوني أخيراً، إذا ما كنت أعرف السياحة - وكان عليهم أن يوجهوا

هذا السؤال أولاً - ولم أنجزاً على الكذب بأنني أعرف. ولكنني علمت

على أي حال، وأنا على اليأس، من خلال محادثة مع بعض البحارة، بأن الصيادين يذهبون إلى بوكاس دي تينيتا، على بعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً عن كارتاخينا، ويعودون محملين بأسماك قرش بريشة لبيعوها، على أنها الأسماك المجرمة، بخمسين بيرو. غير أن هذا الخبر العظيم انتهى في اليوم نفسه، وانتهى بالنسبة لي الحلم بكتابة الريبورتاج. فنشرت بدلاً منه قصتي الثامنة: "تابو، الرنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون". وقد رأى ناقداً جديان على الأقل، وأصدقائي الصارمون في بارانكيّا، أن القصة تشكل تحولاً طيباً في توجهي.

لا أظن أن نضجي السياسي كان كافياً للتأثير عليّ، ولكنني عانيت في الحقيقة، انكسامة ماثلة للمسابقة. فقد أحسست أنني غارق في الوحل، إلى حد أن متعتي الوحيدة كانت تتمثل في طلوع الفجر عليّ، وأنا أغني مع السكارى في عقود فباب السور التي كانت مواخير للجنود. خلال العهد الاستعماري، ثم تحولت فيما بعد إلى سجن سياسي مشؤوم. وقد قضى الجنرال قرانيسكو دي باولا سانتاندر فيها حكماً بالسجن لمدة ثمانية أشهر، قبل أن ينفيه رفاقه، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

القيم على تلك الآثار التاريخية، كان عامل لينوتيب متقاعدًا، يجتمع معه، كل يوم، زملاؤه الذين ما زالوا يمارسون المهنة، بعد أن بنتها من طباعة الصحف، للاحتفال باليوم الجديد، بدمجانة من الروم الأبيض السري، المركب بفنون المحتالين البارعين في غش الخمر. لقد كانوا عمال طباعة مثقفين، عبر تقاليد أسرية، ونحويين دراميين، وشرييين عظاماً أيام السبت. وقد انضمت إلى نقابتهم.

أصفرهم سناً كان يدعى غيبرمو دافيللا. وكان قد توصل إلى مأثرة الحصول على عمل في منطقة الساحل، على الرغم من تشدد بعض القادة المحليين الذين يعارضون قبول الكاتشاكو في نقابتهم. وربما توصل إلى ذلك بفن من فنونه السحرية، إذ كان، فضلاً عن تخرسه الجيد في المهنة ولطفه الشخصي، مشعوذاً أعاجيب. وكان يبهرننا بالأعبيه السحرية في إخراج عصافير حية من أدراج المكاتب، أو تبييض الصفحة التي نكون قد انتهينا من كتابة تعليق افتتاحي عليها، وسلمناها للتو، بينما نحن على وشك إغلاق الطبعة. فكان المعلم ثابالا، الصارم جداً في الزواج، ينسى للحظة، باديرفسكي والثورة البروليتارية، ويطلب منا التصفيق للساحر، مع تبيهه المتكرر، والذي لا يتم التقيد به دوماً، بأنها المرة الأخيرة. أما أنا، فرأيت أنني قد اكتشفت الواقع أخيراً، بمشاطرتي ذلك الساحر، روتين الحياة اليومية.

في فجر أحد تلك الأيام، في غياب السور، أخبرني دافيللا بفكرته في إصدار جريدة من قطع خمسة وعشرين بخمسة وعشرين سنتيمتراً - أي بحجم نصف صفحة نظامية - توزع مجاناً في المساء، في ساعة الازدحام عند إغلاق المتاجر. ستكون أصغر جريدة في العالم، يمكن قراءتها في عشر دقائق. وهذا ما حدث. وقد أسيت "المضغوطة"، وكنت أتولى كتابتها خلال ساعة من الوقت، في الحادية عشرة صباحاً، بينما يتولى دافيللا تنضيدها وطباعتها خلال ساعتين، ويوزعها بائع صحف جري، لم يكن يتاح له الوقت لينادي عليها مرتين.

صدرت الجريدة يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول، ١٩٥١ ومن المستحيل تصور نجاح ساحق أكبر، وأمد حياة أقصر: ثلاثة أعداد في

لم أتجرأ على الاعتراف بأن ما يحدث لي في عاصفة الأوراق هو الشيء نفسه الذي كان يحدث لي في "البيت"، فقد بدأت أهتم بالتقنية أكثر من الموضوع. وبعد سنة من العمل بكثير من البهجة، تكشف لي أن ما أكتبه هو متاهة دائرية بلا مدخل ولا مخرج. وأظن أنني أعرف السبب اليوم؛ فنيار تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية الذي قدم نماذج مجيد جيدة في بداياته، انتهى به الأمر إلى التحجر في الموضوعات الوطنية الكبرى التي حاول أن يشق بها مخرج طوارئ، وتحولها بدورها إلى مستحاثات. والواقع أنني لم أكن أحتمل لحظة أخرى من التردد. ولم يكن ينقصني سوى التحقق من المعلومات وإحكام الأسلوب، قبل أن أضع نقطة النهاية، بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأن العمل ينتفس. ولكنني كنت متورطاً بعد كل ذلك الوقت من العمل في الظلمات، وكنت أرى أن الكتاب يغرق، دون أن أكتشف أين هي الشقوق فيه. والأسوأ من ذلك، أنني وصلت إلى مرحلة في الكتابة لا تفيدني فيها مساعدة أحد، لأن الخلل لم يكن في النص، وإنما في داخلي؛ ولا يمكن لأحد سواي أن يمتلك عيوناً ترى ذلك الخلل، أو قلباً يعانیه. وربما لهذا السبب بالذات توقفت، دون تردد، عن كتابة "الزرافة"، بعد أن انتهيت من تسديد سلفة الهيرالدو التي اشترت بها الأثاث.

لسوء الحظ أنه لم يكن بمقدور الذكاء، ولا الصدور، ولا الحب، أن تهزم الفقر. وبدا كما لو أن كل شيء يعمل لمصلحته. فقد انتهى العمل في جهاز الإحصاء بعد سنة، ولم يكن راتبني في الأونيفرسال كافياً لتعويضه. لم أرجع إلى كلية الحقوق، على الرغم من تحايل بعض الأساتذة ممن توظفوا لدينعي قديماً، على الرغم من عدم اهتمامي

ثلاثة أيام. وقد اعترف لي دافيلاً بأنه ما كان ليتصور، ولو بقدرات السحر الأسود، تحقيق فكرة يمثل تلك العظمة، ومثل تلك الكلفة المنخفضة، يسع لها مكان يمثل ذلك الصغر، وتنفذ بمثل ذلك الوقت القصير، وتنفذ بمثل تلك السرعة. الأمر الأكثر غرابة هو أنني توصلت إلى التفكير للحظة، في اليوم الثاني - وكنتُ فعلاً بتخاطف الجريدة في الشوارع، وتحمس المتعصين - في أنه يمكن لها ببساطة، أن تكون الحل لحياتي. استمر الحلم حتى يوم الخميس، عندما بين لنا المدير الإداري أن إصدار عدد آخر سيودي بنا إلى الإفلاس، حتى ولو قررنا نشر إعلانات تجارية. لأن الإعلانات ستكون صغيرة جداً، وغالبية إلى حد لا يمكن إيجاد حل عقلائي له. ففكرة الجريدة نفسها، المستندة أساساً إلى حجمها، تحمل معها - رياضياً - جرثومة دمارها؛ إذ أنها تصبح أقل مردوداً كلما زادت مبيعاتها.

بقيت كمن هو معلق بالمصباح. فقد كان الانتقال إلى كارتاخينا مناسباً ومفيداً، بعد تجربة كرونیکا، فضلاً عن أنه وفر لي أجواء ملائمة جداً لمواصلة كتابة عاصفة الأوراق، ولا سيما وسط حمى الإبداع التي كنت أعيشها في بيتنا، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة، محتملة دائماً. ويكفي أن أستذكر غداً كنا نتحدث فيه مع والدي، حول الصعوبة التي يواجهها كتاب كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما يفقدون القدرة على تذكر أي شيء. فخرج علينا كوكي ببساطة، ولم يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال:

- يجب على الكاتب إذن، أن يبدأ بكتابة مذكراته أولاً، وهو ما يزال يتذكر كل شيء.

باهتمامهم وعلمهم. لم تعد تقود الجميع قادرة على تغطية نفقات البيت. وكانت الفجوة كبيرة، بحيث أن مساهمتي لم تكن كافية قط، وكان شح الأحمال يؤثر بي أكثر من شح النقود.

وفي أحد الأيام، قلتُ أننا تناول الغداء:

- إذا كنا سنفرق جميعنا، فدعوني أُنجِّ لعلي أحاول أن أرسل

إليكم ولو زورق مجديف صغيراً.

وهكذا ذهبتُ مجدداً. في الأسبوع الأول من كانون الأول، إلى بارانكيا، بموافقة الجميع، وباليقين بأن زورقاً ما سيصلهم. ولا بد أن ألفونسو فونتمايور قد تصور ذلك منذ النظرة الأولى، عندما رأيته أدخل، دون إشعار مسبق، إلى مكتبنا القديم في الهيرالدو؛ ذلك أنه لم تعد هناك موارد للإبقاء على مكتب كرونিকা. نظر إليّ كما لو أنه ينظر إلى شيخ من وراء الآلة الكاتبة، وهتف مذعوراً:

- أبة لعنة تفعلها هنا دون إئثار مسبق!

وقليلة هي المرات التي أجبت بها، في حياتي. برد قريب إلى ذلك

الحد من الحقيقة:

- إنني غارق تماماً، يا معلم.

استعاد ألفونسو الطمأنينة:

- آه، جيد - ردةً بموجهته الدائمة، وأردف بيت الشعر الأكثر

كولومبية في النشيد الوطني: - الإنسانية بأسرها تتن هكنا، لمحسن

الحظ، في السلاسل.

لم يُبدِ أدنى قدر من الفضول حول سبب رحلتي. وبدت له نوعاً من

التخاطر، لأنه كان برد على كل من يسأله عني، خلال الشهور الأخيرة،

بأنني قد أصل في أي لحظة، لأبقى هناك. نهضتُ سعيلاً من وراء

المنضدة، بينما هو يرتدي سترته، لأنني جشع مصادفة، كما لو أنني

أسقط عليه من السماء. فقد كان لديه موعد، تأخر عنه نصف ساعة،

لكي ينهي كتابة مقالته الافتتاحية لعدد اليوم التالي، فطلب مني أن

أنهيها. ولم أكد أتأكد من سؤاله سوى عن موضوعها، فأجابني من

العجبة، على طريقتنا كأصدقاء، وهو يقادر مسرعاً، بنضارته التقليدية:

- اقرأ ما كتبته، وستعرف.

وفي اليوم التالي كانت هناك، من جديد، آلتان كاتبان متقابلتان

في مكتب الهيرالدو، وكتبتُ أكتب من جديد "الزرافة"، للصفحة المعهودة

نفسها، و - كيف لا! - بالأجر نفسه. وفي الظروف الخاصة نفسها،

بيتي وبين ألفونسو، حيث تظهر في كثير من المقالات، فقرات لأحدنا أو

للآخر، من المستحيل تمييزها. وقد رغب بعض طلاب الصحافة أو الأدب

في تمييزها بينها، في الأرشيف، ولم يجدوا سبيلاً إلى ذلك، اللهم إلا

في بعض الموضوعات المحددة، ليس من خلال الأسلوب وإنما من خلال

المعلومات الثقافية.

وفي حانة الرجل الثالث، أحرزني الخبر المشؤوم عن مقتل صديقنا

اللسن. فقد خرج في إحدى الليالي كعادته، لممارسة مهنته، والشيء

الوحيد الذي عُرف عنه بعد ذلك، دون مزيد من التفاصيل، هو أنه

تعرض لطلق نار في القلب، داخل البيت الذي سطا عليه. طالبت

بجثمانه أخته الكبرى، وهي العضو الوحيد من أسرته، ولم يحضر جنازه

سوانا نحن وصاحب الحانة.

رجعتُ إلى بيت الأخوات أفيللا. وواصلت ميريا ديلمار، وقد عادت

جارة من جديد، تطهير لبالي السيئة في القفط الأسود، بسهراتها المسكنة. وكانت تبدو، هي وأختها أليسيا، توأمين في طريقتهما في الحياة، وفي تمكنهما من جعل الزمن يصير دائرياً، عندما نكون معهما. وقد بقيتا، بطريقة خاصة جداً، ضمن الجماعة. فقد ظلتا تدعواننا، مرة واحدة في السنة على الأقل، إلى وليمة من لذائد المأكولات العربية التي كانت تغذي روحنا. وكانت تقام في بيئتهما سهرات مفاجئة لزائرين بارزين، ابتداءً من فنائين كبار في أي نوع من الفنون، حتى شعراء تانهين. وأظن أنهما هما من نظمتا ميولي الموسيقية المشوشة، وضممتاني إلى عصابة المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم، أن بارانكيًا قد وفرت لي أفضل لرواية عاصفة الأوراق؛ ذلك أنني ما إن امتلكت المنضدة، عليها آلة كاتبة، حتى بدأت التصحيح باندفاع متجدد. وفي تلك الأيام، تجرأتُ على عرض النسخة الأولى القابلة للقراءة، وأنا أعرف أنها غير منتهية، على شلة الأصدقاء. كنا قد تحدثنا عنها كثيراً إلى حد أن أي تنبيه كان يبدو قائضاً عن الحاجة. بقي ألفونسو يومين، يكتب قبالتني، دون أن يأتي على ذكرها. وفي اليوم الثالث، عندما أنهينا مهماننا في آخر المساء، وضع المخطوط مفتوحاً فوق المنضدة، وقرأ صفحات كان قد أشر عليها بقصاصات ورقية متطاولة. وكان يبدو مترصدًا لنقاط عدم الترابط، ومنقباً للأسلوب، أكثر منه ناقدًا. كانت ملاحظاته بالغة الصواب، وقد أخذتُ بها كلها، باستثناء واحدة بدت له مقحمة دون مسوغ، حتى بعد أن أثبت له أنها حادثة واقعية من طفولتي. فقال، وهو يكاد يموت من الضحك:

- حتى الواقع نفسه يخطئ عندما يكون الأدب رديئاً.

أما منهج خيرمان بارغاس فيتلخص في أنه لا يقدم تعليقات فورية إذا كان النص جيداً، وإنما يقدم فكرة مطمئنة ينهيهما بإشارة تعجب:

- بديع!

ولكنه يواصل في الأيام التالية، إطلاق وإبل من الأفكار المتفرقة حول الكتاب، ينهيهما في أي ليلة عريضة، بحكم سديد. أما إذا بدا له المخطوط غير جيد، فإنه يتفق مع المؤلف على موعد، على انفراد، ويطلع على رأيه بكل صراحة، ويلطف بالغ، لا يبقى معه للتدرب من مخرج سوى تقديم الشكر إليه من كل قلبه، على الرغم من إحساسه بالرغبة في البكاء. ولكن لم تكن هذه هي حالتي. ففي يوم لا يخطر على بال، قدم لي خيرمان، بين المزاح والمجد، تعليقا حول مخطوطتي، أعاد الروح إلى جسدي.

كان ألفارو قد اختفى من مقهى جابي، دون أدنى إشارة إلى أنه حي. وبعد أسبوع تقريباً، حين لم أكن أنتظر رؤيته، سدّ عليّ الطريق بسيارته في شارع بوليفار، وصرخ بي بأفضل مزاج لديه:

- اصعد يا معلم، سوف أخوزقك لفظاً هنك.

كانت تلك هي عبارته التخديرية. قمنا بعدة جولات، دون وجهة محددة، في المركز التجاري الملتهب قيظاً، بينما ألفارو يطلق، بالصراخ، تحليلاً لقرائه أقرب إلى الانفعالي، غير أنه مؤثر. وكان يقطع كلامه كلما رأى أحد معارفه على الرصيف، ليصرخ موجهاً إليه عبارة مداعبة متوددة أو ساخرة، ثم يواصل محاكمته العقلانية بحماس، بصوت

متهدج من الجهد، وشعر مشعث، وبشيك العينين الزانغتين اللتين تبدوان، كما لو أنهما تنظران إليّ من خلال مشهد عام وشامل. وانتهى بنا المطاف إلى تناول بيرة مثلجة على رصيف مقهى لوس ألبندروس، يُشقل علينا صخب مشجعي فريق جونيور وسيورتنينغ المتعصبين في ستاد كرة القدم، على الرصيف المقابل؛ وأخيراً داهمنا تدافع الموسمين الحارجين من الستاد، قانطين بسبب التعادل المشين بهدفين بهدفين. أما الحكم الحاسم الوحيد حول مخطوط كتابي، فقد صرخ به ألفارو في اللحظة الأخيرة، من خلال نافذة السيارة:

- ما زال لديك، على كل حال يا معلم، الكثير من رواية العادات والتقاليد!

وقد تمكنت، شاكرًا، من القول له صارخًا:

- ولكنه من جيد فوكنا!

فوضع هو حدًا لكل ما لم يقل وما لم يفكر فيه، بقهقهة مدوية:

- لا تكن ابن عاهرة!

بعد خمسين سنة من ذلك، وكلما تذكرت ذلك المساء، أعود لسماح القهقهة المدوية التي رنت بظعم الحجارة، في الشوارع الملتهب.

صار واضحًا لدي، أن الرواية قد أعجبت الثلاثة، مع محفوظاتهم الشخصية، وربما العادلة؛ ولكنهم لم يقولوا ذلك بصراحة كاملة، ربما لأنه يبدو لهم وسيلة سهلة، لم يتكلم أي واحد منهم عن نشرها، وكان هذا أيضاً من طباعهم، فالمهم في نظرهم، هو الكتابة بصورة جيدة. أما ما عدا ذلك فهو شأن الناشرين.

وباختصار: لقد كنتُ مرة أخرى، في مدينتنا بارانكيًا المعهودة، إلا

أن نكبتني ثقلت في الوعي بأنني لن أجد الحماسة، في هذه المرة، للمواظبة على كتابة "الزرافة". والحقيقة أن زاويتي الصحفية كانت قد أبحرت مهمتها في فرض حرقية الكتابة اليومية عليّ، من أجل تعلم الكتابة من الصفر، بالعناد والطموح الضاري لأن أكون كاتباً مختلفاً. لم أكن قادراً في أحيان كثيرة، على التعامل مع الموضوع. وكنت أستبدله بموضوع آخر، عندما أدرك أنه ما زال كبيراً على مقاسي. وقد كانت على أي حال، رياضةً أساسية لتكويني ككاتب، مع اليقين المريح بأنها ليست سوى مادة غذائية دون أي التزام تاريخي.

مجرد البحث عن موضوع يومي، ملاً شهوري الأولى تلك بالغم. لم يكن ذلك البحث يترك لي متسعاً من الوقت لعمل شيء آخر؛ فقد كنتُ أضيع ساعات في تفحص الجرائد الأخرى، وأدون ملاحظات من المحادثات الشخصية الخاصة، وأهم في تخيلات تعلق أحلامي؛ إلى أن واجهتني الحياة الواقعية. فكانت تجربتي الأكثر سعادة في هذا الاتجاه، هي رؤيتي في مساء أحد الأيام، وأنا أمر في الحافلة، إعلناً بسيطاً على باب بيت: "تبيع سعفاً نخيل جنائزياً".

كان أول ما تبادر إلى ذهني، هو طرق الباب لتحري معلومات عن تلك اللقمة. ولكن الحياة تغلب علي. وهكذا علمتني الحياة نفسها أن أحد أكثر الأسرار فائدة، في الكتابة، هو تعلم قراءة رموز الواقع دون توجيه أسئلة. وقد اتضح لي ذلك بصورة أكبر بينما أنا أعيد، قبل سنوات قليلة، قراءة أكثر من أربعين "زرافة" منشورة، ومقارنتها مع بعض النصوص الأدبية التي نشأت عنها.

في عظمة أعياد الميلاد، جاء أعضاء هيئة أركان جريدة

الاسبىكتادور. ابتداءً من المدير العام، دون غابرييل كانوا مع كل أبنائه: لويس غابرييل، الوكيل؛ وغيبيرمو، وهو نائب المدير آنذاك؛ وألفونسو، نائب الوكيل؛ وفيديل، أصغرهم سناً، وكان يتدرب على كل شيء. وجاء معهم إدواردو ثالاميا، الملقب أوليسيس، وكانت له مكانة خاصة بالنسبة لي، لأنه نشر قصصى القصيرة وملاحظة تقديمه لها. وكانوا معتادين على التمتع معاً، كعصبة، بالأسبوع الأول من العام الجديد، في منتجع برادومار، على بعد عشرة فراسخ عن بارانكيئا، حيث كانوا يقتحمون البيار معاً، بجلبية الشيء الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصخب، بشيء من الدقة، هو أن أوليسيس، شخصياً، كان إحدى أكبر المفاجآت في حياتي. لقد كنت أراه بكثرة في بوغوتا، في البدء في مقهى الطاحونة، ثم بعد سنوات من ذلك، في مقهى الأوتوماتيكو، وأحياناً في مسامرات المعلم دي غريف. كنت أتذكره بطبعه المتعزل وصورته المعدني. ومنهما خرجت باستنتاج أنه شخص نزق، وهذه كانت سمعته في الحقيقة، بين القراء الجيدين في المدينة الجامعية. ولهذا تجنبت في مناسبات عديدة كيلا أطلع الصورة التي اختلفتها له من أجل استخدامي الشخصي. وكنت على خطأ. فقد كان واحداً من أكثر الكائنات التي أتذكرها وداً وبدلاً لخدمته، مع تفهمي بأنه يحتاج إلى مبرر خاص، نابع من العقل أو من القلب، لإظهار ذلك. لم يكن، في مادته البشرية، شيء من مادة دون رامون فينيس، أو الفارو موتيس، أو ليون دي غريف، ولكنه يشاطرهم الكفاءة والقابلية الفظية في أن يكون معلماً في كل حين، وبأنه حظي بحسن حظ نادر أتاح له قراءة كل الكتب التي لا بد من قراءتها.

أما أبناء كانوا الشباب - لويس غابرييل، وغيبيرمو، وألفونسو، وفيديل - فتوصلت إلى أن أكون أكثر من صديق لهم، عندما عملت محرراً في جريدة الاسبىكتادور. وسيكون من المجازفة، تذكر حوار ما من تلك الأحاديث التي كان الجميع يخوضونها ضد الجميع في ليالي برادومار. ولكن من الصعب في الوقت نفسه، نسيان إلحاحها غير المحتمل على مرض الصحافة والأدب القاتل. لقد جعلوني واحداً منهم، وأشبه بحكائهم الشخصي الذي اكتشفوه وتنبهوا بأنفسهم، ومن أجلهم. ولكنني لا أتذكر - مثلما قلت كثيراً - أن أباً منهم اقترح عليّ الذهاب للعمل معهم، لم أتأسف لذلك، لأنه لم تكن لدي، في ذلك الوقت الرديء، أدنى فكرة عما سيؤول إليه مصيري، ولا إذا ما كانوا سيتيحون لي اختياره.

رجع الفارو موتيس، المتحمس لحماسة آل كانوا، إلى بارانكيئا لدى تعيينه مديراً للعلاقات العامة في شركة "إسو الكولومبية"، وحاول إقناعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. غير أن مهمته الحقيقية مع ذلك، كانت أكثر دراماتيكية بكثير؛ فبسبب خطأ رهيب ارتكبه أحد المتعهدين المحليين، ملؤوا خزانات الوقود في المطار ببترين سيارات، بدلاً من بترين الطائرات، ولم يكن هناك ريب في أنه لا يمكن لطائرة مزودة بذلك الوقود الخطأ، أن تصل إلى أي مكان. وكانت مهمة موتيس تتمثل في إصلاح الخطأ، بسرعة مطلقة، قبل حلول الفجر، دون أن يعلم بذلك موظفو المطار. وأقل منهم بكثير الصحافة. وهذا ما فعله. فقد تم استبدال الوقود بأخر جيد، خلال أربع ساعات من الويسكي تخللتها محادثة جيدة في المطار المحلي. لقد كان لدينا فائض من الوقت للتحدث

في كل الأمور. ولكن الموضوع الذي ما كنتُ قادراً على تصوّره، هو أنه يمكن لدار نشر لوسادا في بوينس آيرس، أن تنشر روايتي التي كنت على وشك الانتهاء منها. وكان ألقارو موتيس يعرف ذلك، مباشرة، من المدير الجديد لفرع الدار في بوغوتا، خوليو سيسر فيبيغاس، وهو وزير سابق في البيرو، ملتجئ منذ وقت قريب، في كولومبيا.

لست أتذكر تأثراً أشد حدة؛ فقد كانت لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في مدينة بوينس آيرس التي ملأت فراغ النشر الذي سببته الحرب الأهلية الإسبانية. كان ناشروها يغذوننا، بوضوح، بمستجدات باللغة الأهمية والشويق، بكاد لا يتاح لنا الوقت لقراءتها. وكان وكلاء مبيعاتها يأتوننا، في مواعيد دقيقة، بالكتب التي نوصي عليها، ونتلقاهم كسبعوثي السعادة. ومجرد التفكير في أن واحدة من دور النشر تلك يمكن لها أن تنشر عاصفة الأوراق، أوشك أن يزغزغني ويحدث فيّ اختلالاً. فلم أكد أنتهي من تدوين موتيس، وهو يسافر في طائرة مزودة بوقود سليم، حتى هرعْتُ إلى الصحيفة، لأقوم بمراجعة معمقة لأصول الرواية.

انكببتُ، بكامل جسدي، في الأيام التالية، على تفحص مهووس لنص يمكن له أن يخرج من بين يدي. لم يكن أكثر من ستة وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور، ولكنني قمت بعمليات ضبط، وتبديل، واختلاق لم أعد أعرف معها إذا ما صار النص أفضل أو أسوأ مما كان عليه. أعاد خيرمان وألفونسو قراءة أكثر الأجزاء، حساسية، وكانا طيبين القلب إلى حد أنها لم يوجها إليّ ملاحظات ومحفظات لا خلاص منها. في تلك الحالة من الجزع، راجعت

النسخة النهائية، وروحي في يدي، واتخذت القرار بعدم نشرها. وسيصبح ذلك، في المستقبل، هوساً لدي. فكلما أحسست بالرضى عن كتاب ناجز، يراودني شعور محزن بأنني سأكون عاجزاً عن كتابة آخر أفضل منه.

ولحسن الحظ، أن الشكوك راودت ألقارو موتيس حول سبب تأخري، فرجع إلى بارانكيا، ليأخذ نسخة الأصل الوحيدة المبيضة، ويرسلها إلى بوينس آيرس، دون أن يتيح لي الوقت لقراءة أخيرة. لم يكن التصوير الفوتوكوبي التجاري قد وُجد بعد. وكان الشيء الوحيد المتبقي لدي، هو المسودة الأولى المصححة، على الهوامش وبين السطور، بأحبار متنوعة الألوان، لتفادي البلبلة والاختلاط. أقيت بتلك المسودة إلى القمامة، ولم أستعد الطمأنينة على مدى أكثر من شهرين، تطلبهما تلقي الجواب.

وفي أحد الأيام، سلموني في الهيرالدو، رسالة كانت قد اختلطت بأوراق أخرى، على منضدة رئيس التحرير. جمّد قلبي مرأى عنوان دار نشر لوسادا في بوينس آيرس، على المغلف؛ ولكن الحياء منعني من فتحها هناك بالذات، فلم أفعل إلا في حجيراتي الخاصة. وبفضل تصرفي هذا، واجهت دون شهود، الخبير المتعصب بأن عاصفة الأوراق قد رُفضت. ولم أجد نفسي مضطراً إلى قراءة الحكم كاملاً، لأشعر بالصدمة القاسية، في تلك اللحظة، وبإحساسي بأنني سأموت.

كانت الرسالة هي القرار السامي للمسيد غيبرمو تورّي، رئيس مجلس إدارة النشر، مدعماً بمجموعة من الحجج البسيطة التي برن فيها تفخيم، وكفاءة، وخطابة أناس قشنتالة البيض. وكان العزاء الوحيد هو التساهل الأخير المفاجئ: "لا بد من الاعتراف للمؤلف، بمواجهته

الاستثنائية في كراصد وشاعر". ومع ذلك، ما زلت أفاجأ حتى اليوم، بصرف النظر عن ذهولي وخجلي، بأن أشد الاعتراضات فجاجة، تبدو لي مناسبة.

لم أحتفظ قط، بنسخة من الرسالة. ولم أدر أين صارت بعد أن تناولها، طوال عدة شهور، أصدقائي في بارانكيًا الذين لجؤوا إلى كل أنواع المبررات البليسية، في محاولة التسترية عني، والحقيقة أنني عندما حاولت الحصول على نسخة من الرسالة، من أجل توثيق هذه المذكرات، بعد انقضاء خمسين سنة، لم يجدوا لها أثرًا في دار النشر في بونيس آيرس. لست أدري إذا ما كانت قد نُشرت كخبر، رغم أنني لم أحاول أن تكون خبراً قط. ولكنني أعرف أنني احتجت إلى وقت لا بأس به، كي أستعيد حماسي بعد أن تهجمتُ على هواي، وكتبتُ رسالة غاضبة، نُشرت دون إذن مني. وقد سبب لي سوء الائتمان ذلك، حزناً كبيراً، لأن ردّ فعلي النهائي كان استغلال ما هو مفيد في الحكم، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، وفق وجهة نظري، والمواصلة قدماً.

أفضل تصحيح هو الذي وفره لي خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، والفارو سيبيدا. لقد وجدتُ ألفونسو في إحدى حانات السوق العام، حيث اكتشف واحة للقرابة وسط جلبة حركة التجارة. استشرته إذا ما كان عليّ، ترك روايتي على حالها، أم أنه يتوجب عليّ إعادة كتابتها في بناء جديد، ولا سيما أنني كنت أرى أنها تفتقد، في نصفها الثاني، الزخم الذي يسود نصفها الأول. استمع ألفونسو إليّ، بشيء من نفاذ الصبر، وأصدر لي حكمه:

- انظر يا معلم - قال لي أخيراً، كمعلم بكل معنى الكلمة -

السيد غييرمو دي تورّي شخص محترم جداً إلى الحد الذي يظنه هو نفسه، ولكنه لا يبدو لي مطلعاً تماماً على ما وصلت إليه الرواية اليوم.

وفي محادثات خرقاء، أخرى في تلك الأيام، وجدتُ العزاء في سابقة أن غييرمو دي تورّي كان قد رفض، من قبل، أصول ديوان إقامة في الأرض لبابلو نيرودا، عام ١٩٢٧. وكان فوينمايور يفكر في أن مصيبر روايتي سيكون مختلفاً، لو أن من قرأها هو خورخي لويس بورخيس؛ ولكن الضرر سيكون أكبر أيضاً لو أنه هو الذي رفضها.

وانتهى ألفونسو فوينمايور إلى القول:

- ولهذا، دعك من الإلحاح والإزعاج. فروايتك جيدة مثلما بدت لنا، والشيء الوحيد الذي عليك عمله، منذ الآن، هو مواصلة الكتابة. أما خيرمان - الوفي لأسلوبه المتزن - فقد طلب مني أن أقدم المعروف بعدم المبالغة. وكان يفكر في أن الرواية ليست سبباً إلى حد عدم الموافقة على نشرها، في قارة يعاني فيها هذا الجنس من أزمة. وليست جيدة إلى حد إثارة فضيحة دولية، المناسرة الوحيد فيها سيكون كاتباً مبتدئاً ومجهولاً. بينما لنخص الفارو سيبيدا حكم غييرمو دي تورّي بوحدة من عباراته المزهرة:

- المسألة هي أن الإسبان أناس شديدو القضاة.

وعندما انتهت إلى أنني لا أملك نسخة مبسطة من الرواية، أعلمتني دار النشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنها وفق أنظمتها، لا تعيد النصوص الأصلية إلى أصحابها. ولحسن الحظ أن خوليو سيسر ببيغاس كان قد استنسخ نسخة قبل إرسال نسختي إلى بونيس آيرس، فأوصلها إليّ. عكفتُ عندئذ على تصحيح جديد

بالاستناد إلى النتائج التي توصل إليها أصدقائي. ألغيت مقطعاً مطولاً عن البطلة التي تتأمل من ممر أزهار البيجونيا، وابل مطر يستمر ثلاثة أيام، وهو المقطع الذي تمحوك، فيما بعد، إلى القصة القصيرة "هونولوج لإيزابيل وهي ترى هطول المطر في ساكوندو". وحذفتُ حواراً غير ضروري للجدد مع الكولونيل أوريليانو هويتديا، قبل مذبحة شركات الموز، وحوالي ثلاثين صفحة تنوش، شكلاً ومضموناً، البناء الموحد للرواية. وبعد عشرين سنة من ذلك تقريباً، حين كنتُ أظن أنني قد نسيتهما، ساعدتني أجزاء من تلك المقاطع، في تدعيم حالات الحنين، على طول مئة عام من العزلة وعرضها.

كنت على وشك تجاوز الصدمة، عندما نُشر الخبر القائل إن الرواية الكولومبية التي اخترت للنشر، بدل روايتي، في دار نشر لوسادا، هي رواية إدواردو كابييرو كالدرون "المسيح مولياً ظهره". لقد كان خطأً أو حقيقة تنز سو، نية، لأن المسألة لم تكن مسابقة، وإنما برنامج دار النشر لوسادا من أجل الدخول إلى السوق الكولومبية بمؤلفين كولومبيين. وروايتي لم تُرفض في منافسة مع رواية أخرى، وإنما لأن غيرمو دي تورّي لم يجدها صالحة للنشر.

طاش صواحي أكثر مما اعترفتُ به أنا نفسي آنذاك، ولم أجد الجرأة على معاناة ذلك الوضع، دون أن أقنع نفسي به، ولهذا سقطتُ، دون إشعار مسبق، على صديقي منذ الطفولة، لويس كارميلو كورّيا، في مزرعة الموز في سيببّا - على بعد بضعة فراسخ عن كاتاكا - حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً للطقس، ومراجع ضرائب. وبقينا يومين نسترجع مرة أخرى، كما هي عاداتنا، طفولتنا المشتركة. كانت ذاكرته،

وبدايته، وصراحته تبدو لي كاشفة إلى حد تسبب لي شتاً من الربح. وبينما نحن نتبادل الحديث، كان يقوم، مستخدماً صندوق عدته، بإصلاح أعطال البيت، بينما أنا أستمع إليه من أرجوحة نوم تهزها نسيمات المزارع الخفيفة. وكانت زوجته، نينا سانتشيث، تصصح هذياناتنا ونسياننا، وهي تموت من الضحك، في المطبخ. وفي النهاية، في جولة مصالحة في شوارع أراكاتاكا المقفرة، أدركتُ إلى أي حد كنت قد استعدت صحتي المعنوية، ولم يبق لدي أدنى شك في أن عاصفة الأوراق - سواء أرفضت أم لم ترفض - ليست الكتاب الذي نويت كتابته بعد الرحلة مع أمي.

ومتحمساً بتلك التجربة، ذهبتُ بحثاً عن رافائيل إسكالونا في فردوسه في باييدوبار، محاولاً التنقيب عن عالمي حتى الجدور. لم أفاجأ، لأنني أحسست أن كل ما وجدته، كل ما كان يحدث، وكل الناس الذين عرفوني عليهم، هي أمور تبدو، كما لو أنني قد عشتها، ليس في حياة أخرى، وإنما في الحياة التي أعيشها. في ما بعد، في واحدة من رحلاتي الكثيرة، تعرفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد رافائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول، بوقاره وسلوكه كبطريرك على الطريقة القديمة. لقد كان نحيلاً ومستقيماً كقصبه بامبو، له بشرة مدهوغة وعظام متينة، ويتمتع بوقار يجاوز كل التجارب. لقد لاحقتني، منذ صباي، موضوع اللهفة والوقار اللذين انتظرَ بهما جدأي حتى نهاية حياتيهما المدينة، تقاعد المحارب القديم. ومع ذلك، عندما كتبتُ أخيراً، الكتاب في فندق قديم في باريس، بعد مرور أربع سنوات، لم تكن الصورة الراسخة في ذهني، طوال الوقت هي صورة جدي، وإنما صورة دون كليمنتي إسكالونا، كإعادة جسدية للكولونيل الذي لا يكتابه أحد.

عرفتُ من رافائيل إسكالونا أن مانويل ثاباتا أوليفيا قد استقر كطبيب فقراء في بلدة لايات، على بعد كيلومترات قليلة من بايدوبار، فذهبتُ إلى هناك. وصلنا عند الغروب، وكان هناك في الجو، شيء خائق يضيق أنفاسي. ذكرني ثاباتا وإسكالونا بأن القرية وقعت، قبل حوالي عشرين يوماً، ضحية هجوم شنته الشرطة التي كانت تزرع الرعب في المنطقة، لتفرض الإرادة الرسمية. لقد كانت ليلة رعب، قتلوا الناس دون تمييز، وأضرموا النار في خمسة عشر بيتاً.

ولم نعرف تلك الحقيقة بسبب الرقابة الحديدية. ومع ذلك، لم تُنح لي الفرصة آنذاك لتصورها. كان خوان لوبيث، أفضل موسيقي في المنطقة، قد غادر دون عودة، منذ الليلة السوداء. وقد طلبنا من أخيه الأصغر بابلو، في بيته، أن يعرف لنا شيئاً، فقال لنا ببساطة حاسمة:

- لن أعود إلى الغناء في حياتي، إلى الأبد.

عندئذ علمنا أن جميع موسيقيي البلدة، وليس هو وحده، قد خبزوا أكورديوناتهم، وطبولهم، وآلاتهم الموسيقية الأخرى، ولم يعودوا إلى الغناء، حزناً على موتاهم. لقد كان ذلك مفهوماً، حتى إن إسكالونا نفسه الذي كان معلم كثيرين، وثاباتا أوليفيا الذي بدأ بصير طبيب الجميع، لم يتمكنا من جعل أحد بأن يغني.

حيال إلحاحنا، توافد الجيران ليعرضوا مبرراتهم، ولكنهم كانوا يشعرون، في أعماق روحهم، بأنه لا يمكن للحداد أن يستمر أكثر. "هذا يبدو كما لو أن أحدنا قد مات مع من ماتوا"، قالت ذلك امرأة تضع وردة حمراء على أذنها. وقد أهدأ آخرون. عندئذ أحس بابلو لوبيث بأنه مخوّل بأن يلوي عنق أحرانه، إذ دخل إلى بيته دون أن يقول كلمة واحدة.

وخرج منه حاملاً الأكورديون. غنى، كما لو يغنّ قط. وبينما هو يغني، بدأ موسيقيون آخرون بالتوافد. فتح أحدهم الحانة المقابلة وقدم شراباً على حسابه. وما لبثت الحانات الأخرى أن شرّعت أبوابها، بعد شهر من الحداد، وأضيت الأتوار، واستغرقتنا جميعاً في الغناء. بعد نصف ساعة من ذلك، كانت القرية بأسرها تغني. وخرج في الساحة المقفرة أول مخمور منذ شهر، وراح يغني بأعلى صوته، إحدى أغنيات إسكالونا، مهداة إلى إسكالونا نفسه، تكريماً لمعجزته في بعث الحياة في القرية.

لحسن الحظ، أن الحياة كانت تتواصل في بقية العالم. وبعد شهرين من رفض أصول روايتي تعرّفت على خوليو سبسر بيبغاس، وكان قد قطع علاقاته بدار نشر لوسادا، وعيّن ممثلاً في كولومبيا لدار النشر غونثالث بورتو، المتخصصة في بيع موسوعات وكتب علمية وتقنية، بالتقسيط. لقد كان بيبغاس أطول الرجال قامه، وأقواهم بنية، والأوسع حيلة في مواجهة أسوأ عشرات الحياة الواقعية. وكان مستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الويسكي ثمناً، ومحدثاً لا سبيل للتهرب منه، وراوي بارعاً لحكايات الصالونات. في ليلة لقائنا الأول، في الجناح الرئاسي في فندق برادو، خرجت متعشراً، وأنا أحمل حقيبة بائع متجول مترعة بنشرات دعائية ونماذج من موسوعات مصورة، وكتب في الطب والحقوق والهندسية، من مطبوعات دار نشر غونثالث بورتو. فقد وافقت، منذ كأس الويسكي الثاني، على التحول إلى بائع كتب بالتقسيط، في مقاطعة بادييا، ابتداءً من بايدوبار حتى غواخيرا. وكان مكسبي هو سلفة تدفع نقداً بقيمة عشرين بالمئة من المبيعات، يجب أن تكفيني للعيش دون ضائقات، بعد دفع نفقاتي، بما في أجره الفندق.

هذه هي الرحلة التي حوكتها أنا نفسي، إلى أسطورة بسبب نقيصتي غير القابل للإصلاح في عدم تقدير أهدافي في الوقت المناسب. الأسطورة هي أنه جرى التخطيط للرحلة، على أنها حملة خرافية للبحث عن جذوري في أراضي أسلاقي، متتبعاً الطريق الرومانسي نفسه الذي قطعته أُمي عندما اقتادتها أمها لإبعادها عن شامل تلغراف أراكاتاكا. والحقيقة أن رحلتي لم تكن واحدة، وإنما برحلتين قصيرتين جداً وطائشتين.

ولم أرجع في الثانية منهما إلا إلى القرى المحيطة ببايبدويار. وعندما صرت هناك، كنت قد قررت مسبقاً بالطبع، أن أوصل قداماً، حتى رأس بيلا، على الطريق نفسه الذي اجتازته أُمي العاشقة. ولكنني لم أوصل إلا إلى ماناوري دي لا سييرا، ولايات، وبيبانويغا، على بعد فراسخ قليلة من بايبدويار. لم أتعرف آنذاك على سان خوان دي سيسر، ولا على بارانكاس، حيث تزوج جدّاي ووُلدت أُمي، وحيث قُتل الكولونيل نيكولاس ماركيز ميدرادو باتشيكو. ولم أتعرف على ريوهاتشا، وهي جنين قبيلتي، حتى عام ١٩٨٤، عندما أرسل الرئيس بيليساريو بيتانكور من بوغوتا، جماعة من الأصدقاء المدعومين لافتتاح مناجم الحديد في ثيرغون. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى غواخيرا، غواخيرا المتخيلة، التي بدت لي أسطورة مثلما وصفتها في مرات كثيرة، قبل أن أتعرف عليها. ولكنني لا أظن أن السبب هو ذكرياتي الزائفة، وإنما ذاكرة الهنود الذين كان جدي يشتري كل واحد منهم بمئة بيرو من أجل الخدمة في بيت أراكاتاكا. وكانت مفاجأتي الأولى، بكل تأكيد، هي رؤيتي الأولى لريوهاتشا، مدينة الرمل والملح، حيث ولد

أسلاقي منذ جدي الثالث، وحيث رأت جدتي عذراء المعجزات تطفئ القرن بنفخة جليدية، حين أوشك خبزها أن يحترق، وحيث خاض جدي حربته وعانى السجن بسبب جريمة غرامية، وحيث حبلت بي أُمي خلال شهر غسل أبوي.

لم يُتَح لي كثير من الوقت لبيع الكتب في بايبدويار. كنت أسكن في "فندق بيلكم"، وهو بيت كولونياتي بديع مُحْتَفَظ به في إطار الساحة الكبرى. في فناءه صف طويل متشابك من أشجار النخيل، وموائد حانة خشنة، وأراجيح نوم معلقة بأعمدة الدعائم. وكان صاحب المحل، فيكتور كوين، يحرص نظام البيت كأنه سيرير^(١)، مثلما يحرص سمعته الأخلاقية التي يتهددها الغريباء المشتهكون. وكان في الوقت نفسه، من دعاة نقاء اللغة، ينشد ثيرمانتس عن ظهر قلب، بشايات قشتالية، ويطرح أخلاقيات غارسيا لوركا على بساط البحث. وقد أقيمت علاقة طيبة معه لتعمقه في أعمال أندريس بييرو^(٢)، ولإلقائه الصارم لقصائد الرومانسيين الكولومبيين؛ وعلاقات سيئة جداً، كذلك، لهوسه في منع مخالفة الأنظمة الأخلاقية في أجواء الفندق المطهرة. وقد بدأ كل ذلك بصورة بالغة السهولة، لكونه صديقاً قديماً لخالي خوان دي دپوس، يُسعدُه استحضار ذكرياته عنه.

لقد كان فناء الفندق بالنسبة لي، ضرباً من البانصيب، لأنني كنت

(١) سيرير Cacerbero أو Cerbero في الأساطير الإغريقية، وحش بجسم كلب، له ثلاثة رؤوس وورقة أفي وأسنان مسمومة، يحرص مدخل الجحيم.

(٢) أندريس بييرو Andres Bello كاتب لغوي وسياسي أمريكي لاتيني، ولد في كاراكاس (١٧٨١)، وتوفي في ستيابغو دي تشيلي (١٨١٠)، أسس جامعة تشيلي، ووضع قانون الأحوال المدنية في تلك البلاد.

أقضي فيه الساعات الطويلة الفائضة، وأنا أقرأ في أرجوحة نوم. تحت فيظ الظهيرة. وقد وصل بي الأمر في أيام السغب، إلى أن أقرأ ابتداء من أبحاث في الجراحة وحتى مراجع في المحاسبة، دون أن يخطر لي أنها ستفيدني فيما بعد، في مغامراتي ككاتب. كان العمل بجري بصورة تلقائية تقريباً، لأن معظم الزبائن كانوا يرون بطريقة ما من غربال آل إغواران أو آل كوتيس، فكانت تكفيني زيارة، تمتد حتى موعد الغداء، أستحضر خلالها حبلاً أسرية. وكان البعض يوقعون العقد دون قراءته، لكي نصل في الوقت المناسب، إلى حيث بقية أفراد القبيلة الذين ينتظروننا، لتناول الغداء في ظل الأكورديونات. وما بين بايبدوهار ولاهث، جنيت محصولي الوفير خلال أقل من أسبوع، ورجعت إلى بارانكيًا وأنا أشعر، متأثراً، بأنني كنت في المكان الوحيد في العالم الذي أهتمه حقاً.

يوم الثالث عشر من حزيران، وبينما أنا ذاهب في الصباح الباكر في الحافلة، إلى مكان لا أدري ما هو، علمت أن القوات المسلحة قد استولت على السلطة، بسبب الفوضى التي تسود الحكومة والبلاد بأسرها، ففي السادس من أيلول من السنة السابقة، قامت زمر من المحافظين، في بوغوتا، بإضرام النار بمبنى التيمبو والاسبكتادور، أهم صحيفتين في البلاد، وهاجمت بالرصاص، منزل الرئيس السابق ألفونسو لويث بومارينا، وكارلوس بيراس ريستريبو، رئيس إدارة الحزب الليبرالي. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كسياسي صارم الطباع، من تبادل إطلاق النار مع المعتدين عليه. ولكنه اضطر في النهاية إلى الهرب عبر بيت مجاور. وكانت حالة العنف التي تعاني منها البلاد منذ

التاسع من نيسان، قد صارت لا تقا. وظلت على تلك الحال، حتى فجر الثالث عشر من حزيران، عندما أقدم الجنرال غوستافو روخاس بينييا على إخراج الرئيس المكلف، روبيرتو أوربانيتا أربيلاث، من القصر. عندئذ قام لاوربانو غوميث، الرئيس الوصي الذي كان ينعم بتقاعد طبي، باستعادة القيادة، وهو على كرسي ذي عجلات، بترتيب من أطبائه. وحاول القيام بانقلاب على نفسه، وممارسة الحكم خلال الخمسة عشر شهراً المتبقية على انتهاء ولايته الدستورية. ولكن الجنرال روخاس بينييا كان قد استولى، مع أركانه العامة، على السلطة، ليحافظ على تماسكه بها.

جاء التأييد الوطني فوراً وإجماعياً لقرار الجمعية التأسيسية التي أضفت الشرعية على الانقلاب العسكري. ووكي الجنرال روخاس بينييا السلطات حتى نهاية الفترة الرئاسية، في شهر آب من السنة التالية، بينما سافر لاوربانو غوميث مع أسرته إلى بينيدوم، على الساحل الشرقي الإسباني، مخلفاً وراءه الانطباع الواهم بأن أزمته غضبه قد انتهت. أعلن الزعماء التقليديون الليبراليون تأييدهم للمصالحة الوطنية بندا إلى محازبيهم الذين امتشقوا السلاح في كل أنحاء البلاد، والصورة ذات المغزى الكبير التي نشرتها الصحف في الأيام التالية، هي صورة الليبراليين الطليعيين الذين غنوا سيرناتد عشاق، تحت شرفة المدخع الرئاسي. وقد ترأس ذلك التكريم دون روبيرتو غارسيا بينيا، مدير جريدة إلتيمبو، وأحد أشد المعارضين للنظام البائد.

غير أن الصورة الأكثر وقعاً وتأثيراً في تلك الأيام، هي صورة وتل رجال حرب العصابات الليبراليين اللامتناهي، وهم يسلمون أسلحتهم في

السهوب الشرقية، يقودهم غوادالوبي سالثيدو الذي لمست صورته بعمق، كقاطع طريق رومانسي، قلب الكولومبيين المعذبين بالعنف الرسمي. لقد كانت سلالة جديدة من رجال حرب العصابات المناهضين للنظام المحافظ؛ اعتُبروا بطريقة ما، بقية متأخرة من حرب الألف يوم، وكانوا يقيمون علاقات ليست سرية بأي حال. مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي. كان على رأسهم، غوادالوبي سالثيدو قد أشاع لنفسه، في كل مستويات البلاد - بين الموالين والمعارضين - صورة أسطورية جديدة. وربما لهذا السبب، وبعد سبع سنوات من استسلامه، جرى قتله بالرصاص على يد الشرطة، في مكان ما من بوغوتا، لم يحدد بدقة قط؛ مثلما لم تتضح ظروف موته بصورة مؤكدة.

التاريخ الرسمي هو السادس من حزيران ١٩٧٧. وقد أودع الجثمان، في احتفال رسمي مهيب، في مدفن مرقم في مقبرة بوغوتا المركزية، بحضور سياسيين معروفين. ذلك أن غوادالوبي سالثيدو، ومن مراكز قيادته الحزبية، احتفظ بعلاقات ليست سياسية وحسب، وإنما اجتماعية أيضاً، مع قادة الاتجاه الليبرالي المنكوب. ومع ذلك، هناك ثماني روايات مختلفة، على الأقل، حول موته، ولا يخلو الأمر من مرتابين، في تلك الفترة وفي هذه، ما زالوا يتساولون إذا ما كانت الجثة هي جسده حقاً، وإذا ما كان مدفوناً فعلاً في المدفن الذي وري جثمانه فيه.

بتلك الحالة المعنوية، انطلقت في رحلة الأعمال الثانية إلى بروكيتشيا، بعد التأكد مع بيبغاس، من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومثلما في المرة السابقة، أنجزت مبيعاتي بسرعة كبيرة، في بايبدويار،

مع زياتن مقتنعين بالشراء مسبقاً. ذهبت مع رافائيل إسكالونا وبانتشو كوتيس إلى بيبانويغا، ولابات، وباتيبال، وماناوري دي لا سييرا، لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. وكان بعضهم قد تحدث مع بعض من اشترىوا الكتب مني في الرحلتين السابقتين، وكانوا ينتظرونني بطلبيات خاصة. وقد كانت أي ساعة من اليوم، مناسبة لإقامة حفلة مع الزياتن أنفسهم ورفاقهم المرحين. فبطلع علينا الفجر، ونحن نغني مع كبار عازقي الأكورديونات، دون الإخلال بأية التزامات أو دفعات مستحقة؛ إذ كانت الحياة اليومية كانت تواصل إيقاعها الطبيعي في حمى العريضة. كنا في بيبانويغا مع عازف أكوردون وقارعي طبل، يبدو أنهم أحقاد بعض من كنا نستمع إليهم في طفولتنا في أراكاتاكا. وهكذا تكشف لي في تلك الرحلة، إن ما كان إدماناً طفولياً، هو مهنة ملهمة سترافقتني إلى الأبد.

في هذه المرة تعرفت على ماناوري، قلب سلسلة الجبال. وهي قرية بدعرة وهادئة، وتاريخية في الأسرة، لأنهم أخذوا إليها أمي للاستشفاء. وهي طفلة، بعد إصابتها بحمى ثلاثية لم تنفع معها كل أنواع العقاقير، وكنت قد سمعت الكثير عن ماناوري؛ عن أسسباتها في أيار، وعن صيماها العلاجي. حتى إنني لاحظت عندما ذهبت إليها للمرة الأولى، أنني أتذكرها، كما لو أنني عرفتها في حياة سابقة.

كنا نتناول بيرة مثلجة في حانة القرية الوحيدة، عندما دنا من منضدتنا، رجل يبدو كأنه شجرة، يضع طمباق خيال. ويعلق على خصره مسدساً حريباً. قام رافائيل إسكالونا بتعريف أحدنا على الآخر، فأمعن الرجل النظر إلى عيني، وهو ما يزال يسك بيدي، وسألني:

- هل لك علاقة بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟

فقلت له:

- إنه جدي.

فقال:

- جدك هذا إذن، هو من قتل جدي.

هذا يعني أنه حفيد ميداردو باتشيكو، الرجل الذي قتله جدي في مباراة صريحة. لم يتح لي الوقت للفرح، لأنه قال ذلك بنبرة دافئة جداً، كما لو أن القتل هو أيضاً طريقة للارتباط بصلة قرابة. بقينا معه في حفلة سكر استمرت ثلاثة أيام بليلاتها، في شاحنة تحميل الأحجار التي يملكها، نشرب براندي ساخناً ونأكل سانكوتشو لحم جديان، تكريماً للذكرى جدينا الميتين. وقد انقضت عدة أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة: إذ كان قد اتفق مع إسكالونا على إخافتي، ولكن قلبه لم يطاوعه على مواصلة دعايات الجدين الميتين. والواقع أن اسمه كان خوسيه برودينشو أغيلار. وكان عمله مهرباً، وهو شخص مستقيم وطيب القلب. وتكريماً له، وكريلاً يكون أقل مكانة، عمدتُ باسمه الخصم الذي قتله خوسيه أركاديو بوينديا بحرية في ميدان صراع الديكة، في رواية مئة عام من العزلة.

أما الأمر السيئ، فهو أن الكتب التي بعثها، لم تكن قد وصلت بعد، عند انتهائها، رحلة الحنين تلك. ولا يمكن لي دون وصولها، أن أقبض سلفتي. لم يبق معي فلس واحد، بينما كان حساب الفندق يزايد بسرعة أكبر من ليالي المحبومة. وبدأ فيكتور كوين يفقد الصبر القليل المتبقي لديه، بسبب الشائعات بأنني أبعد نقود دينه على بنات هوى متردبات.

وفي أوكار عبرة بانسة. وكان الشيا الوحيد الذي يثب في بعض الطمانينة، هو الغراميات المعاكسة في مسلسل "الحق بالولادة"، الرواية الإذاعية التي كتبها دون فيليكس ب. كايغنتيت، وأنعشت الصدمة الشعبية التي أحدثتها، أحلامي القديمة بأدب الدموع. غير أن قراتي غير المتوقعة لرواية هيمنغواي الشيخ والبحر، التي وصلت فجأة في مجلة لايف بالإسبانية، جاءت لتسفيشي من كتاباتي.

وفي البريد نفسه، وصلت شحنة الكتب التي علي تسليمها إلى أصحابها، كي أقبض سلفتي عنها. جميعهم دفعوا ما عليهم، لكنني كنتُ مدبناً للفندق بضعف ما كسبته. وقد حذرتني بيغاس من أنني لن أحصل على أي شيء إضافي قبل مرور ثلاثة أسابيع. عندئذ تحدثتُ بجدية إلى فيكتور كوين، ووافق هو على قبول إيصال بوجوده ضامن يكفلي. ولأن إسكالونا وعصبته لم يكونوا في متناول يدي، فقد قدم لي تلك الخدمة صديق وفرته العناية الإلهية. دون أي التزام من جانبي، ولمجرد أنه أعجب بقصة لي منشورة في كرونিকা. ولكنني لم أستطع مع ذلك، أن أدفع شيئاً لأحد، عندما أذفت ساعة الحقيقة.

وقد صار ذلك إيصال تاريخياً، بعد سنوات، عندما أخذ فيكتور كوين يربه لأصدقائه وزواره، ليس كوثيقة اتهام وإنما كغنيمة. وفي المرة الأخيرة التي رأته فيها، كان عمره مئة سنة تقريباً، وكان منتصب القامة، صافي الذهن، ودون تغيير في مزاجه. وأثناء تعميده أحد أبناء أختي بالمعمودية كونسويلو أراوخونوغيرا، وكنتُ عرابه، عدتُ لرؤية الإيصال غير المدفوع، بعد مرور قرابة خمسين سنة. فقد عرضه فيكتور كوين على كل من رغب في رؤيته، بظرفه وتهذهب المعهودين. وفاجأتني

دقة الوثيقة التي حررها هو نفسه، والإرادة الهائلة بالدفع والسادات التي تتبدى في وقاحة توقعي. وقد احتفى به فيكتور في تلك الليلة، بأن رقص رقصة باسيو بايناتو، بثائق كولونيالي، مثلما لم يرقصها أحد منذ سنوات فرانتيسكو الرجل. وفي النهاية شكرني أصدقاء كثيرين لأنني لم أذفع، في الموعد المحدد، قسيمة ذلك الإيصال الذي أدى إلى تلك الليلة التي لا تقدر بثمن.

كانت شعرة الدكتور بيبغاس المغربية تحتل المزيد، ولكن ليس في ميدان بيع الكتب. فمن غير الممكن، نسيان البراعة النبيلة التي كان يناور بها الدائنين، والسعادة التي كانوا يتفهمون بها مبرراته كيلا يدفعوا في الوقت المناسب. وقد كان أكثر موضوعاته إغراء آنذاك، مرتبطاً برواية "لقد أغلقوا الدروب"، للكاتبة البارانكية أولغا سالتيديو دي ميدينا، التي أثارت حجة اجتماعية أكثر منها أدبية، ولكن بسوابق محلية ضئيلة. وباستلهاج مجاز المسلسل الإذاعي "الحق بالولادة" الذي تابعته باهتمام متزايد، طوال شهر بكامله، فكرت في أننا نشهد ظاهرة شعبية لا يمكن لنا، نحن الكتاب، أن نتجاهلها. وقد طرحت الأمر على بيبغاس، لدى عودتي إلى باييدوبار، دون أن أذكر الدين المتوجب عليّ. فاقترح عليّ كتابة الاقتباس بمكر يكفي لاجتذاب ثلاثة أضعاف جمهور المستمعين الواسع الذي تابع دراما فيليكس ب. كايغنيت الإذاعية.

قُمتُ باقتباس الرواية للإذاعة خلال أسبوعين من الاعتكاف. وقد بدوا لي أكثر كشفاً بكثير مما توقعت، لأنه كان عليّ تقدير الحوارات، وتدرجات التوتر، وتدرج مواقف وأزمنة متفلتة لا تشبه في شيء، كل ما كُتِب من قبل. ولعدم خبرتي في شؤون الحوار - وهو ما زال نقطة

ضعفي -، كانت التجربة مفيدة ومحمودة في التعلم، أكثر مما هي في الكسب المادي. ومع ذلك، ما كان بإمكانني أن أشكو في هذا الشأن الأخير أيضاً، لأن بيبغاس دفع لي نقداً نصف الأجر مقدماً، ووعد بأن يعفيني من الديون المترتبة عليّ، مع حصوله على أول دخل من الرواية الإذاعية.

جرى التسجيل في إذاعة أتلاتيكو، مع أفضل توزيع محلي ممكن للأدوار، وبإخراج دون خيرة ولا إلهام، قام به بيبغاس نفسه، ولأداء دور الراوي، نصحوه بخيرمان بارغاس، كمدبّع مختلف لتناقض بساطته واتزانه مع زعاق الإذاعة المحلية. وكانت المفاجأة الأولى في أن خيرمان وافق على العرض، أما المفاجأة الثانية فكانت في توصله هو نفسه، منذ التصريح الأول، إلى استنتاج أنه ليس الشخص المناسب. عندئذ تولى بيبغاس نفسه مسؤولية الراوي، بإيقاعه الرتيب وصغير صوته الأنديزي الذي فوض تلك المغامرة المشهورة.

بُثت الرواية الإذاعية كاملة، تكتنفها الأحزان أكثر من الأمجاد، وكانت درساً بليغاً لطموحاتي المتعطشة إلى أن أكون رايواً في أي جنس كتابي. حضرت عمليات التسجيل، وكانت تجري مباشرة على أسطوانة خام، وبإبرة محراث تغلف وراها خيوطاً دقيقة سوداء - ولا معة، يكاد لمسها يكون متعذراً، كما لو أنها شعر ملاك. وفي كل ليلة، كنت أحمل معي حفنة لا بأس بها من تلك الحبيوط لأوزعها على أصدقائي، كغنيمة غير مألوفة. ووسط تخطيط وعشرات لا حصر لها، جرى بث الرواية الإذاعية، على الهواء، في موعدها المحدد، ورافقتها حفلة هائلة من تلك التي يتميز بها صاحب المشروع.

خولييان دافيس إتشانديا الذي كان أول رئيس لألفارو، باستدعائه لكي يتولى المسؤولية الكاملة عن جريدته المسائية إلتاسيونال. وكان ألفارو نفسه قد استحثه بالمشروع الفلكي الذي قدمه إليه لدى عودته من نيويورك. ولكن ما إن أمسك بالمستبدون^(١) حتى استدعاني لكي أساعده، دون ألقاب أو واجبات محددة، إنما بالراتب الأول المدفوع مقدماً، والذي كان يكفيني لأن أعيش حتى دون أن أتقاضاه كاملاً.

لقد كانت مغامرة قاتلة. كان ألفارو قد أعد الخطة كاملة، بالاستناد إلى نماذج من صحف الولايات المتحدة. ومثلما الرب في الأعلى، بقي دافيس إتشانديا، أحد رواد الأزمنة البطولية للصحافة المحلية الضخمة، وأقل الرجال الذين عرفتهم قابلية لخل لغزه؛ طبيب المولد وعاطفي أكثر مما هو رحيم. أما بقية المحررين فكانوا من كبار الصحفيين الصداميين، من جماعة الحصاد الباسل. وجميعهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء عمل منذ سنوات طويلة. وكان لكل واحد منهم، نظرياً، مداره المحدد؛ غير أنه فيما وراء النظرية، لم يُعرف قط من الذي جعل المستبدون التقني عاجزاً عن أن يخطط خطوته الأولى. الأعداد القليلة التي صدرت كانت تتاج عمل بطولي، إنما لم يُعرف قط من الذي كان ينجز ذلك العمل. ففي موعد إدخال صفائح الزنكوغراف إلى الطباعة، مجدها ملطخة بالشحم، أو تختفي المواد المستعجلة فجأة، وسيطر علينا، نحن الغيورين، جنون الغضب. لا أتذكر مرة واحدة خرجت فيها الجريمة في موعدها، ودون إشكالات تسببها العفارت القابعة في المطبعة. لم يُعرف قط، ما الذي كان يحدث. وربما كان التفسير الذي شاع هو الأقل توقفاً: لم يستطع

(١) المستبدون mastodonte حيوان منقرض شبه بالليل.

لم يستطع أحد أن يبتدع حجة مجاملة، يجعلني أصدق معها أن العمل قد أعجبه، ولكن المسلسل الإذاعي اجتذب جمهور مستمعين لا بأس به، وقدراً من الإعلانات كافيّاً لإنقاذ ماء الوجه. وقد منحني أنا، لحسن الحظ، همة جديدة لجنس كتابي بدا لي أنه ينطلق إلى آفاق لا يمكن توقع أبعادها. وقد بلغ إعجابي بدون فيليكس ب. كايغيت ورواياته الإذاعي، حد الإقدام على طلب مقابلة خاصة معه، بعد نحو عشرة أعوام من ذلك، حين كنت أقضي بضعة شهور في هاوانا، كمحرر في وكالة الأنباء الكوبية برنسا لاتينا". ولكن، على الرغم من كل المبررات والحجج، لم يظهر لي قط. ولم يبق لدي منه سوى درس بليغ قرأته في مقابلة معه: "الناس يرغبون دوماً في البكاء؛ والشئ الوحيد الذي أفعله أنا، هو أنني أوفر لهم الذريعة". أما شعوات بيقاس بالمقابل، فلم تقض إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد تعقدت أموره أيضاً مع دار نشر غوثاليت بورتو - مثلما حدث له من قبل مع لوسادا - ولم تكن ثمة طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه تخلى عن أحلامه بالعظمة، لكي يعود إلى بلاده.

أخرجني ألفارو سيبيدا ساموديو من المطهر، بفكرته القديمة في تحويل إلتاسيونال إلى صحيفة حديثة كذلك التي تعلم صنعها في الولايات المتحدة. ولم تكن حتى ذلك الحين، باستثناء مساهماته القليلة في كرونيكا، وهي مساهمات أدبية على الدوام، قد أتاحت له فرصة ممارسة العمل بشهادته التي حصل عليها من جامعة كولومبيا (في نيويورك)، إلا بتعليقات موجزة ونموذجية يرسلها إلى سبورتنغ نيوز في سانت لويز، بولاية ميسوري. وأخيراً، في عام ١٩٥٣، قام صديقنا

بعض قداماء المحررين المتخشين التسامح مع ذلك النظام التجديدي،
فتأمروا مع توائهم أرواحهم إلى أن تمكثوا من تخریب المؤسسة.

غادر ألفاروا الجريدة صافقاً الباب وراءه. أما أنا فكنْتُ مرتبطاً
ببعقد عمل يمكن له، في الظروف العادية، أن يكون ضماناً لي. ولكنه
في تلك الظروف السيئة، كان أشبه بقيد. وفي تلفني لاستغلال الوقت
الضائع، حاولت أن أولف، بالسرعة التي تتيحها الآلة الكاتبة، أي شيء
نافع من المواد غير المكتملة المتبقية لدي من محاولات سابقة. تنف من
"البيت"، محاكيات مريعة لفوكر من نور في آب، ومن وإبل مطر
عصافير نانائيل هوورون الميتة، ومن القصص البوليسية المكرورة التي
أضجرتني، ومن بعض الكدمات المتبقية لي من الرحلة مع أمي إلى
أراكاتاكا. تركت كل ذلك يتدفق على هواء في مكتبي المقفر، حيث لم
يبق سوى المنضدة المقشورة، وآلة الكتابة التي على آخر نفس. إلى أن
وصلت في نفس واحد إلى العنوان النهائي: "يوم بعد السبت". وهي
قصة أخرى من قصص القليلة التي رضيت عنها منذ تسختها الأولى.

حاصرني في الناسيونال بائع ساعات معصم متجول. لم أكن قد
اقتنيت واحدة قط، لأسباب واضحة في تلك السنوات. وكانت الساعة
التي عرضها عليّ فاخترة جداً وغالية الثمن. وقد اعترف لي بائع
الساعات نفسه آنذاك، بأنه عضو في الحزب الشيوعي، مكلف ببيع
ساعات قطع لم اصطباذ ممولين للحزب. وقال لي:

- هذا يشبه شراء الثورة بالتنقيط.

فأجبت بطيبي نية:

- الفرق الوحيد هو أنك تعطونني الساعة فوراً، أما الثورة فلا.

لم ينظر البائع برضى كبير إلى دعايتي السيئة، وانتهى بي الأمر
إلى شراء ساعة أرخص ثمناً، لكي أرضيه فقط. وبنتظام أفساط يأتي هو
ليتقاضاه كل شهر. كانت تلك هي أول ساعة أمتلكتها، وكانت بالغة
الدقة والديمومة، حتى إنني لا زلت أحتفظ بها كلقبية أثرية من تلك
الأزمنة.

في تلك الأيام، عاد ألفاروا موتيس حاملاً خبر تخصيص شركته
لميزانية كبيرة من أجل تنشيط الثقافة، والظهور الوشيك لمجلة المصباح،
لسان حالها الأدبي. وعندما دعاني إلى المشاركة في المجلة، اقترحت
عليه مشروعاً مستعجلاً: أسطورة "لاسييري". لقد فكرت في أنه إذا ما
كان عليّ أن أرويها في أحد الأيام، فيجب ألا يكون ذلك عبر أي كتابة
خطابية، وإنما باستخراج الأسطورة من المخيلة الجماعية، مثلما هي عليه:
حقيقة جغرافية وتاريخية. هذا يعني أن تتحول - أخيراً - إلى ريبورتاج
صحفي عظيم.

فقال لي موتيس:

- افعل ما يخرج معك من أي مكان. ولكن انجزه، فهذا هو الجهر
والإيقاع اللذان نبحت عنهما للمجلة.

وعده بتسليمه الموضوع بعد أسبوعين. وقبل أن يذهب إلى المطار،
اتصل بمكتبه في بوغوتا، وأمر بأن تُدفع لي المكافأة مقدماً. الشيك
الذي وصلني بالبريد، بعد أسبوع، أفقدني أنفاسي. وأكثر من ذلك،
عندما ذهبت لصرفه. فقد أقلق مظهري أمين الصندوق في المصرف.
فأدخلوني إلى مكتب أعلى مرتبة، حيث سألني مدير بالغ اللطف، أين
أعمل. أجبت بأنني أكتب في الهيرالدو، وفقاً لعادتي في الرد، وإن لم

يكن جوابي صحيحاً في ذلك الحين. لا شيء سوى ذلك. تفحص المدير الشيك على منضدته. أمعن النظر إليه بإحساس بعدم الثقة الشخصية. ثم أصدر حكمه أخيراً:

- إنها وثيقة صحيحة تماماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، وبينما كنت أبدأ في كتابة "لاسيبيري"، أخبروني بأن هناك اتصالاً من المصرف. وتوصلت إلى التفكير في أن الشيك لم يكن سليماً لسبب من الأسباب الكثيرة المحتملة في كولومبيا. ولم أكن قد ابتلعت بعد، العقدة التي تشكلت في حلقي، عندما اعتذر لي موظف المصرف، بإيقاع الأنديزين الرتيب، بأنه لم يعرف في الوقت المناسب، أن المسئول الذي قبض قيمة الشيك هو كاتب "الزرافة" نفسه.

رجع موتيس مرة أخرى في نهاية تلك السنة. ولم يكذب بتذوق الغداء، وهو يسعى لمساعدتي على التفكير في طريقة مستقرة ودائمة، لكي أكسب أكثر ودون تعب. والفكرة التي وجدها أفضل من سواها، ونحن نتناول التحلية، هي إخبار آل كانوا بأنني سأكون تحت تصرف الاسبيكتادور، وإن كنت ما أزال أشعر بالقشعريرة لمجرد فكرة العودة إلى بوغوتا. ولكن ألفارو لم يكن يعرف الهدوء ولا التراجع عندما يتعلق الأمر بمساعدة صديق.

- فلنتفق على أمر - قال لي -، سأرسل إليك تذكرة السفر لكي تذهب إلى بوغوتا، عندما تشاء وكيفما تشاء، لكي نرى ما الذي يمكن أن يخطر لنا.

كان العرض أكبر من أن أرفضه، ولكنني كنتُ واثقاً من أن آخر

طائرة في حياتي، هي تلك التي أخرجتني من بوغوتا، بعد التاسع من نيسان. أضف إلى ذلك أن المكافأة الضئيلة التي تلقيتها عن الرواية الإذاعية ونشر الفصل الأول من "لاسيبيري" بصورة بارزة، في مجلة "المصباح" أتاحت لي توفير أجر بعض النصوص الإعلانية، مما مكنتني من إرسال زورق نجدة إلى الأسرة في كارتاخينا. ولهذا قاومت مرة أخرى، إغراء الانتقال إلى بوغوتا.

حدثني ألفارو سيبيدا، وخيرمان، وألفونسو، ومعظم رواد مقهبي جابي وروما، بإطراء عن "لاسيبيري" عندما نُشر الفصل الأول منها في المصباح. وكانوا متفقيين على أن الصيغة المباشرة للربورتاج، هي الأكثر ملاءمة للموضوع الذي كان على الحد الحرج لما يمكن تصديقه. وقد قال لي ألفونسو يوماً، بأسلوبه بين الجد والهزل، شيئاً لم أنسه قط: "لأن المصادقية، يا معلمي العزيز، تعتمد إلى حد كبير، على الوجه الذي يبديه أحدنا وهو يروي ما يرويه". كنت على وشك أن أكتشف لهم عن عرض العمل الذي قدمه لي ألفارو موتيس، ولكنني لم أتحجر على ذلك. وأنا أعرف اليوم أن السبب هو خوفاً من أن يؤيدوا ذلك. وقد عاد إلى الإلحاح عدة مرات، وحتى بعد أن حجز لي على الطائرة، وألغيتُ الحجز في اللحظة الأخيرة. أكد لي أنه لا يبذل، من وراء ظهره، أية مساعٍ لدى الاسبيكتادور، ولا لدى أي وسيلة مقرونة أو منطوقة أخرى. وأن هدفه الوحيد - وقد أصر على ذلك حتى النهاية - هو تبادل الحديث حول مجموعة من المساهمات الثابتة للمجلة، ومراجعة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة "لاسيبيري" الكاملة، والتي كان فصلها الثاني سيُشتر في العدد الذي يوشك على الصدور. وأعرب ألفارو موتيس عن يقينه من

أنه يمكن لهذا النوع من الريبورتاجات، أن يكون وخزة تنفيس لتيار أدب العادات والتقاليد المسطح في ميدانه بالذات. ومن بين كل الأسباب الأخرى التي طرحها عليّ، حتى ذلك الحين، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أستغرق في التفكير.

في يوم ثلاثاء - ذي رذاذ مطر كثيب، أدركت أنه لا يمكنني الذهاب، حتى لو رغبت في ذلك، لأنني لا أملك من الثياب أكثر من قمصاني المزركشة. لم أجد أحداً في الساعة السادسة، في مكتبة "موندو"، فبقيت أنتظر عند الباب، محتسباً كرة من الدموع على الغسق الحزين الذي بدأ بالتلاشي. وكانت هناك، على الرصيف المقابل، واجهة متجر ملابس رسمية لم أرها من قبل قط، بالرغم من أنها موجودة هناك منذ الأزل. ودون أن أفكر في ما أفعله، اجتزت شارع سان بلاس تحت رماد الرذاذ المطري، ودخلت بخظوات واثقة، إلى أعلى متجر في المدينة. اشترت بدلة كهنوتية من جوخ أزرق قاتم، مناسبة تماماً لروح بوغوتا في تلك الأرمنة؛ وقمصين أبيضين صلبى الباقة، وربطة عنق ذات خطوط مائلة وحذاء من تلك التي أشاع استخدامها الممثل خوسيه موخيكا، قبل أن يتحول قديساً. والوحيدون الذين أخبرتهم أنني ذاهب، هم خيرمان، وألفارو، وألفونسو، فأيدوا ذلك بقرار سديد يتشروط عليّ ألا أرجع أبداً. احتفظنا بذلك في الرجل الثالث مع الشلة كاملة، حتى الفجر. وكان احتفالاً مسيقاً بعيد ميلادي القريب. ذلك أن خيرمان يارغاس الذي كان حارس تقاويم المناسبات، أعلن أنني سأكمل في السادس من شهر آذار القادم، سبعاً وعشرين سنة من عمري. ووسط نبوات أصدقائي الطيبة، أحسست أنني على استعداد لأن أكل، نيشة، الثلاث والستين سنة المتبقية لي، لكي أكمل المئة سنة الأولى من حياتي.

استدعاني مدير جريدة الامبيكتادو، غييرمو كانو، بالهاتف، عندما علم أنني في مكتب ألفارو موتيس، فوق أربعة طوابق من مكتبه، في مبنى دشنوه حديثاً، على بعد خمس كوادرات من مقر الجريدة القديم. كنت قد وصلت في العشيّة، وكنت أستعد لتناول الغداء مع جماعة من الأصدقاء. ولكن غييرمو أصرّ عليّ أن أمر قبل ذلك لتحيته. وهذا ما حدث. بعد العناق الحار، على طريقة أهالي العاصمة، بالمعنى الطيب، وبعض التعليقات القصيرة حول خبر اليوم، أمسكتني من ذراعي واقتادني بعيداً عن زملائي في هيئة التحرير، وقال لي ببراعة لا تطاق: "اسمع يا غابرييل. لماذا لا تقدم لي معروفاً صغيراً بأن تكتب لي مقالة افتتاحية قصيرة أحتاج إليها لإغلاق عدد الجريدة؟"، وأشار بسبابته وإبهامه إلى حجم نصف كأس من الماء. وأضاف:

- بهذا الحجم.

فسألته وأنا أكثر مرحاً منه، عن المكان الذي يمكنني أن أجلس فيه، فأشار إلى منضدة خاوية، عليها آلة كاتبة من أزمنا أخرى. جلست دون مزيد من الأسئلة، لأفكر في موضوع مناسب لهم. وبقيت جالساً هناك على الكرسي نفسه، وإلى المنضدة نفسها، والآلة الكاتبة نفسها، طوال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي، خرج من المكتب المجاور إدواردو نالاميا بوردا، نائب المدير، مستغرماً في ززمة من الأوراق. وقد فزع لدى التعرف عليّ.

- يا رجل، دون غابو! - قال ذلك صارخاً تقريباً، وبالاسم الذي ابتدعه لي في بارانكيّا، مقتنعاً من لقب غابيتو، ولم يكن يستخدمه أحد سواه. ولكن اللقب تعمم في ذلك اليوم، في مكاتب التحرير، وواصلوا استخدامه حتى في حروف الطباعة: غابو.

لستُ أتذكر موضوع الزاوية التي كلفني غيرمو كانوا يكتبونها. ولكنني كنتُ أعرف على أحسن وجه، مذ كنت في الجامعة الوطنية، أسلوب جريدة الاسبينكتادور العريق. ولا سيما في زاوية "من يوم ليوم" في الصفحة الافتتاحية، وهو أسلوب يتمتع بشهرة يستحقها؛ وقد قررت محاكاته ببرود الأعصاب الذي كانت لويسا سانتياغا تواجه به شياطين الرزايا والمللمات. أنهيتُ المقالة المطلوبة في نصف ساعة، ثم أضفت إليها بعض لمسات التصحيح بالقلم، وسلمتها إلى غيرمو كانوا الذي قرأها واقفاً، من فوق قوس نظارة قصر البصر التي يضعها. لم يبد أن تركبزه في القراءة خاص به وحسب، وإنما هو تركيز سائلة من الأسلاف ذوي الشعور البيضاء، بدءاً من دون فيدل كانوا، مؤسس الجريدة في العام ١٨٨٧؛ واستمر به من بعده أخوه دون لويس، ورسخه ابنه دون غابرييل؛ ثم تلقاه ناضجاً ومنتدق الحبيوة، حفيده غيرمو الذي كان قد تسلّم للتو، منتصب المدير العام، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ومثلما كان أسلافه يفعلون، أجرى بعض المراجعات المقتنصة لعدة شكوك صغرى، وانتهى إلى أول استخدام عملي وبسيط لاسمي الجديد:

- جيد جداً يا غابو.

لقد انتهت، منذ ليلة عودتي، إلى أن بوغوتا لن تعود لتكون هي نفسها في نظري، طالما ظلت ذكرياتي حية. ومثلما هو شأن الكوارث الكبرى الكثيرة في البلاد، كان أثر التاسع من نيسان في النسيان، أكبر منه في التاريخ. كان الفندق الكبير قد هدم في حديثه القديمة التي تعود إلى مئات السنين، وبدأ ينتصب مكانه، بناء جديد لمصرف الجمهورية. ولم تكن شوارع سنواتنا هناك تشبه أحداً يامثثنا حافلات الترام المضاعة. وكانت ناصية الجرعة التاريخية قد فقدت عظمتها في الاتساعات الفسيحة التي قوضتها الحرائق. لقد صارت تبدو الآن، مدينة كبيرة بالفعل، قال ذلك أحد مرافقينا، ثم مزق قلبي بجملة طقوسية:

- لا بد من تقديم الشكر للتاسع من نيسان.

ولم أشعر قط، بالمقابل، بأنني لم أكن أحسن حالاً، في أي وقت على الإطلاق، مما كنتُ عليه في النزول الذي بلا اسم، حيث أنزلني الفارو موتيس. إنه منزل جملته النكبة، يقوم إلى أحد جوانب الحديقة الوطنية، حيث لم أستطع، في الليلة الأولى، تحمل إحساسي بالحسد تجاه جاري في الحجر المجاورة، اللذين يمارسان الحب، كما لو أنهما يخوضان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما رأيتهما يخرجان لم أستطع أن أصدق أن يكونا هما نفسيهما؛ بنيت ضامرة بفستان دار أبتام عمومية، وسيد متقدم في السن، بلاتيني البشرة، وبقامة طولها متران، يمكن له أن يكون جدّها. ظننت أنني أخطأت الظن بهما، ولكنهما تكفلا بتأكيد شكوكي، في الليالي التالية كلها، بموتهما في صراخ شبق حتى الفجر.

نشرت الإسيبيكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحيات، وفي مكان بارز منها. وقد أمضيتُ فترة الصباح، في شراء ملابس كان موتيس يفرضها عليّ باللكنة الإنكليزية المصاحبة التي يبتدعها، لكي يسلي البائعين. تناولنا الغداء مع غوثالو مابارتو وكتاب شباب آخرين، جرت دعوتهم من أجل تقديمي إلى المجتمع. ولكنني لم أعد أعرف شيئاً عن غييرمو كانو إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، عندما اتصل بي في مكتب موتيس، وقال لي بصراحة سببنا المحاكمة لصرامة رئيس تحرير:

- اسمع يا غابو، ما الذي جرى لك؟ يوم أمس تأخرنا في إغلاق تحرير الصحيفة، بانتظار مقالتك.

نزلتُ إلى قاعة التحرير لأحدث إليه. ولا زلتُ إلى الآن، لا أعرف كيف واصلت كتابة مقالات يومية دون توقيع، طوال أكثر من أسبوع، دون أن يكلمني أحد عن أية وظيفة أو أي راتب. كان المحررون في مسامرات الاستراحة، يعاملونني كواحد منهم. وقد كنتُ كذلك بالفعل، ولكن دون أن أتخيّل إلى أي حد.

صفحة "من يوم ليوم" التي لم تكن تحمل توقيع أحد قط، كان يتصدر عادة غييرمو كانو بزواية سياسية. وكان يعلوها، وفق ترتيب مقرر من رئاسة التحرير، زاوية ذات موضوع حرّ، يكتبها غوثالو غوثاليت، فضلاً عن أنه كان يتولى، كذلك، أذكي صفحات الجريدة وأكثرها شعبية - "أسئلة وأجوبة" - حيث يحل أية شكوك تراود القراء، مستخدماً الاسم المستعار "شوغ"، ليس تيمناً بجيوفاني بامبيني، وإنما اختصاراً لاسمه هو نفسه. ثم ينشرون بعد ذلك، مقالتي. وفي بعض المناسبات القليلة، ينشرون زاوية خاصة يكتبها إدواردو ثالاميا الذي

كان يحتل، يومياً، أفضل مساحة في صفحة الافتتاحيات بعنوان - "المدينة والعالم" - ويوقعها باسم أوليسيس، ليس تيمناً بهوميروس - مثلما اعتاد أن يقول -، وإنما تيمناً بجيمس جويس.

كان على ألفارو موتيس أن يقوم برحلة عمل إلى بورت دا برانس، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، فدعاني لرافقته. كانت هايتي في ذلك الحين، هي بلاد أحلامي، بعد أن قرأت رواية البخو كارينتيير "ملكة هذا العالم". ولم أكن قد أجيته في الثامن عشر من شباط، عندما كتبتُ زاوية حول الملكة الأم في إنكلترا، الضائعة في عزلة قصر بيكينغهام المتراصة الأطراف. ولغت انتباهي أنها نُشرت في الموقع الأول من صفحة "من يوم ليوم"، وجرى التعليق عليها بصورة جيدة في مكاتينا. في تلك الليلة، في حفلة ضمت جماعة قليلة العدد، في منزل رئيس التحرير خوسيه سالغار، قدم إدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماسة مما سبق. وقد أخبرني واثق أريحي فيسما بعد، بأن ذلك الرأي هو الذي أزال آخر الترددات لدى الإدارة، لتعرض عليّ رسمياً، وظيفة ثابتة في الجريدة.

في اليوم التالي، استدعاني ألفارو موتيس في وقت مبكر إلى مكتبه، لينقل إليّ الحيز المحزن بالغاء الرحلة إلى هايتي. ولكن ما لم يقله لي هو أنه توصل إلى هذا القرار، على أثر حديث عارض مع غييرمو كانو، طالبه فيه هذا الأخير، من كل قلبه، ألا يأخذني إلى بويرت دا برانس. فأراد ألفارو الذي لم يكن قد زار هايتي كذلك، أن يعرف السبب. فقال له غييرمو: "عندما تتعرف عليه، ستفهم أن هذه الرحلة هي أكثر ما يمكن أن يروق غابو في العالم." وأنهى ذلك المساء بإيماءة بارعة.

لا بد لي من الاعتراف بأن قلبي طفر من مكانه في اليوم التالي لإلغاء الرحلة إلى هايتي، عندما حدد لي المدير العام، لويس غابرييل كانو، موعداً في مكتبه، لم تستمر المقابلة، مع كل شكلياتها، أكثر من خمس دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنه رجل متجهم، كريم كصديق وبخيل كمدير جيد، ولكنه بدا لي، وظل يبدو لي على الدوام، بالغ الدقة والحسبية. وكان اقتراحه، في خطوطه العامة، هو أن أبقى في الجريدة، كمحرر ثابت، لأكتب أخباراً عامة، ومقالات رأي، وكل ما ينظلمه الأمر في طوارئ اللحظة الأخيرة، براتب شهري قدره تسعمئة بيزو. فقدت القدرة على التنفس، وعندما استعدتها، سألته: كم؟ فأعاد عليّ حرفاً حرفاً: تسعمئة. كان تأثيري شديداً إلى حد أن عزيري لويس غابرييل، وبينما كنت أتكلم في هذا الأمر في حفلة، بعد بضعة شهور، كشف لي أنه فسّر ذهولي على أنه رفض للعرض. وقد أعرب دون غابرييل عن ارتياحه الأخير، يخوف له ما بيرره: "إنك تحيل وشاحب إلى حد يمكن لك معه أن تموت في المكتب". وهكذا انضممت كمحرر، إلى طاقم الإسيبيكتادور، حيث استهلكت أكبر كمية من الورق في حياتي، خلال أقل من سنتين.

لقد كانت مصادفة حسنة الطالع. المؤسسة المرهوبة أكثر من سواها في الجريدة، هي دون غابرييل كانو، البطربك، الذي حول نفسه بتصميم خاص، إلى حاكم تفتيش لا يرحم في هيئة التحرير. كان يقرأ بعديسته المكيرة الملمسترية، كل شيء، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال في الطبعة اليومية، ويشير بالخبر الأحمر إلى العثرات في كل مقالة، ويعرض في لوحة إعلان، المقاطع المعاقبة مع تعليقات قاسية ساحقة منه.

- إذا ما ذهب غابو إلى هايتي، فلن يعود منها أبداً.
فهم ألفارو المطلوب، وألقى الرحلة، وقال لي إنه قرار اتخذته شركته التي يعمل فيها. وهكذا، لم أعرف قط، على بويرت دا برانس، ولكنني لم أعرف السبب الحقيقي إلا قبل سنوات قليلة، عندما أخبرني ألفارو ذلك، في واحدة من جلسات تذكرونا الطويلة كجدين. أما غيبرمو من جانب، وبعد أن قيدني بعقد عمل في الجريدة، ردد على مسامعي، طوال سنوات، بأن أفكر في ريسورتاج عظيم عن هايتي. ولكنني لم أستطع الذهاب قط، ولم أخبره بالسبب.

ما كان ليخطر ببالي أبداً، حلم العمل محرراً ثابتاً في الإسيبيكتادور؛ فقد كنت أدرك أنهم ينشرون قصصي القصيرة، بسبب ندرة هذا الجنس الأدبي وقره في كولومبيا. ولكن الكتابة اليومية في جريدة مسائية، كان محديداً مختلفاً تماماً بالنسبة لشخص ضئيل الخبرة في الصحافة الصدامية. فجريدة الإسيبيكتادور التي كان عمرها نصف قرن، ونشأت في بيت مستأجر، وبفائض آلات التيمبو - الصحيفة الغنية والقوية والمتنفذة - كانت جريدة مسائية متواضعة، في ست عشرة صفحة مزدحمة. غير أن تسخها الخمسة آلاف، غير المعدودة جيداً، يجري تلفها من المتادين عند أبواب مطبعتها تقريباً، وتقرأ خلال نصف ساعة، في المقاهي الهادئة في المدينة القديمة. كان إدواردو نالاميا بوردا شخصياً، قد صرّح عبر الـ BBC اللندنية، بأن الإسيبيكتادور أفضل جريدة في العالم. لكن المخرج الأكبر لم يكن في التصريح بحد ذاته، وإنما في أن جميع من يساهمون في صنع الجريدة تقريباً، ومعظم من يقرؤونها، كانوا مقتنعين بأن ذلك صحيح.

وقد فرضت لوحة الإعلان تلك نفسها، منذ اليوم الأول، على أنها "جدار العار". ولا أظن أن هناك محرراً واحداً أقلت من ريشته الدموية القاسية. ترقية غيبرمو كانوا الاستعراضية إلى منصب مدير الاسبيكتادور، وهو في الثالثة والعشرين، لم تكن تبدو ثمرة مبكرة لمزاياه الشخصية، وإنما تنفيذ قدر مكتوب منذ ما قبل مولده. ولهذا كانت مفاجأتي الأولى هي التأكد من أنه كان المدير بكل معنى الكلمة، في الوقت الذي كان الكثيرون يفكرون، من الخارج، في أنه ليس أكثر من ابن مطيع. وكان أكثر ما شد انتباهي هو السرعة التي يتعرف بها على الخبر.

كان يضطر أحياناً إلى مواجهة الجميع، حتى عندما لا يكون لديه الكثير من المهجع، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته. لقد كان زمن لا يجري فيه تعليم المهنة في الجامعات، وإنما يتم تعلمها عند قائمة البقرة، وباستنشاق حبر المطبعة، وكان في الاسبيكتادور أفضل الأساتذة وأطيبهم قلباً، إنما أشدهم صرامة في الوقت نفسه. وقد بدأ غيبرمو التعلم هناك منذ حروفه الأولى، بمقالات عن مصارعة الشيران، باللغة الصرامة واسعة الاطلاع، بدا معها أن ميله الغالب ليس التحول إلى صحفي وإنما إلى مربي عجول مصارعة. وهكذا، فإن أقصى تجربة في حياته، دون شك، هي صعوده، بين ليلة وضحاها، دون تدرجات وسيطة، من تلميذ ابتدائي إلى معلم كبير. وما كان بإمكان أحد لم يعرفه عن قرب، أن يلمح وراء أساليبه الرقيقة، وحتى المتهربة بعض الشيء، التصميم الرهيب في طبيعه. وقد خاض بالشغف نفسه، معارك واسعة وخطرة، دون أن يتوقف أبداً أمام اليقين بأنه يمكن للصوت أن يكون متأهياً بالمرصاد، وراء أشد القضايا نبلاً.

لم أتعرف في ما بعد، على شخص أشد منه رفضاً للتصهار في الحياة العامة، وأكثر من رافض للتشريعات الشخصية، وأكثر تهرباً من إغواءات السلطة. كان رجلاً قليل الأصدقاء، ولكن أولئك القلة كانوا طيبين جداً. وقد شعرت بأنني واحد منهم منذ اليوم الأول. وربما أسهم في ذلك كونني أحد الصغار سنأ، في قاعة تحرير تضم مجريين محترفين. وهو ما ولد بيننا نحن الاثنين، شعوراً بالتواطؤ لم يضعف أبداً. وما كان مشالياً في هذه الصداقة، هو قدرتها على تجاوز كل تناقضاتنا. فالاختلافات السياسية كانت عميقة جداً، وراح عمقها يزداد أكثر فأكثر، مع تفسخ العالم. ولكننا كنا نجد على الدوام، أرضية مشتركة، يمكننا منها مواصلة التصال في سبيل القضايا التي نراها عادلة.

كانت قاعة التحرير فسيحة جداً، تضم مناخد على الجانبين، ويسودها جو من المزاج الطيب والدعابة القاسية. هناك كان داريو باوتيسستا، وهو نوع نادر من نقيض وزير المالية، يعكف منذ أول صباح للديكة، على بعث المرارة في صباح أعلى الموظفين مرتبة، بتكهنات سحرية عن مستقبل مشؤوم، تكون صائبة في أغلب الأحيان. وكان هناك المحرر القانوني فيليب غونزالث توليدو، كاتب التحقيقات بالولادة. وقد سبق في أحيان كثيرة التحريات الرسمية، في فن إحباط ضرر أو كشف النقاب عن جريمة. أما غيبرمو لاناو الذي كان يغطي عدة وزارات، فقد حافظ على سرّ بقائه طفلاً حتى آخر طراوة عود شيخوخته. وكان روخيليو إنشيمباريا، وهو شاعر من الكبار، مسؤولاً عن الطبعة الصباحية، فلم نكن نراه أبداً على ضوء النهار. أما ابن عمي غونزالو

- لقد جاء العبقري

فلم يخطر لي سوى الدوران في نصف التفاتة مسرحية، ماداً ذراعي نحو الجميع. وقلت لهم أقل من خرج من روحي، ظرافة:
- في خدمتكم جميعاً.

وما زلت حتى الآن، أعاني من صدمة السخريّة العامّة. ولكنني أشعر كذلك، بالراحة للمعانقات والعبارات الطيبة التي قالها كل واحد منهم، وهو يرحب بي. منذ تلك اللحظة، صرت واحداً من جماعة النور المشفقة تلك، بصداقة وروح فريق لم تخمد قط. فكل معلومة أحتاج إليها لمقائلي، مهما صغر شأنها، كنت أطلبها من المحرر المعني. ولم تكن تتأخر قط عن موعدها.

درسي الكبير الأول في كتابة الريبورتاجات، تلقينته من غيبرمو كانو، وعاشته قاعة التحرير بكامل أفرادها في مساء يوم، هطل فيه على بوغوتا وابل من المطر، أبقاها في حالة قيصان كوني طوال ثلاث ساعات دون توقف. سيل الماء الجارف في جادة خيمينث دي كيسادا، جرف كل ما وجده في طريقه على السفوح، وخلف في الشوارع آثار كارثة. ظلت السيارات مختلفة الأنواع، ووسائل النقل العام، مشلولة في الأماكن التي فاجأتها فيها حالة الطوارئ؛ والتسجأ آلاف المارة مشدافعين ومتعثرين، إلى العصارات الغارقة حتى لم يبق فيها متسع للمزيد. محررو الصحيفة الذين فاجأتهم الكارثة في لحظة إغلاق تحرير الجريدة، راحوا يتأملون المشهد المكتئب من النوافذ، دون أن يدروا ما الذي يمكنهم عمله، مثل أطفال معاقين يضعون أيديهم في جيوبهم. وفجأة، بدا كما لو أن غيبرمو كانو قد استيقظ من حلم بلا قاع، والتفت نحو المحررين المشلولين وصرخ:

غوثالث، بساقه المفلوكة بالجيس، بسبب مباراة كرة قدم خبيثة، فكان عليه أن يدرس، لكي يرد على أسئلة حول أي شيء. وانتهى به الأمر إلى التحول إلى اختصاصي في كل شيء. وعلى الرغم من أنه كان لاعب كرة قدم من الطراز الأول، في الجامعة، فقد كان يؤمن إيماناً غير محدود، بالدراسة النظرية، لأي شيء، أكثر من إيمانه بالتجربة العملية. وقد قدم لنا الدليل الباهر على صحة رأيه في بطولة البولو للصحفيين، عندما عكف على دراسة قواعد اللعبة من مرجع مطبوع، بدل أن يمارسها مثلنا في الملاعب حتى الفجر، وأحرز بطولة تلك السنة.

بمثل هذه القانصة، كانت قاعة التحرير استراحة تسلية أبدية، خاضعة على الدوام لشعار داريو باوتيستا، أو فيليبي غوثالث توليدو: "من يتعهر بخوزق نفسه". جميعنا كنا نعرف الموضوعات التي يكتبها الآخرون، ويساعد بعضنا بعضاً إلى حيث يُطلب منا، أو إلى حيث تكون المساعدة ممكنة. وقد كانت المشاركة متبادلة إلى حد يمكن القول معه، إن العمل كان يجري بصوت عالٍ. ولكن عندما تشتد وطأة العمل، لا يعود يُسمع أي نفس. ومن المنضدة الوحيدة المستعرضة في أقصى القاعة، كان خوسيه سالغار يُصدر الأوامر. وقد اعتاد أن يتجول بين المحررين، ليُعلم ويستعلم عن كل شيء، بينما هو يظفي روحه بعلاج بهلواني.

أظن أن اليوم الذي اقتنadtني فيه غيبرمو كانو من منضدة إلى أخرى، على امتداد القاعة، ليقدمني إلى المجتمع، كان اختياراً بالنار لحجلي الذي لا سبيل إلى تجاوزه. فقدت القدرة على الكلام وخارت ركبتي، عندما جأر داريو باوتيسستا، دون أن ينظر إلى أحد، بصوته الراعد:

- هذا الوابل من الأمطار خيراً!

كان أصراً لم يُصدّره، وجرى تنفيذُهُ في الحال. ركضنا، نحن المحررين، إلى مواقعنا القتالية لكي نحصل، عبر الهاتف، على المعلومات المستعجلة التي يطلبها منا خوسيه سالغار، لنتكتب معاً، وبالتجزئة، ريبورتاجاً صحفياً عن عاصفة القرن المطرية. سيارات الإسعاف ودوريات الشرطة اللاسلكية التي استدعيت من أجل الحالات المستعجلة، شكّت حركتها بسبب السيارات العالقة في منتصف الشوارع. وكانت مجاري الصرف المنزلي مسدودة بالمياه. ولم تكف كل أطقم الإطفاء لدرء الخطر الطارئ. وتوجب إخلاء أحياء بكاملها، بالقوة، بسبب تصدع سدّ مديني مجاور. وفي أحياء أخرى، تفجرت المجاري. وكانت الأرصفة مشغولة بمسنين مشلولين وأطفال مختنقين. ووسط تلك الفوضى، نظم خمسة من مالكي الزورق ذات المحرك، تستخدم عادة للصيد في عطلّة نهاية الأسبوع، سباقاً في جادة كاراكاس، أكثر شوارع المدينة اختناقاً. راح خوسيه سالغار يوزع هذه المعطيات المتجمعة للتلو، على المحررين الذين انهكوا في إعدادها وصياغتها للطبعة الخاصة التي جرى ارجحالها في سياق العمل. وعكف المصورون الملهلون، على الرغم من معاناتهم المطرية، على معالجة الصور على الساخن. وقبل الساعة الخامسة بقليل، كتب غيريرو كاتو ملخصاً بارعاً عن أشد العواصف المطرية التي تتذكرها المدينة، دراماتيكية. وعندما توقف المطر أخيراً، كانت طبعة الاسيكتادور المرجلة قد صارت قيد التداول، كما في كل يوم، مع تأخير يكاد لا يزيد على ساعة واحدة.

علاقتي الأولية مع خوسيه سالغار، كانت الأصب، ولكنها الخلاقة

أكثر من أي علاقة أخرى. وأظن أنه كانت لديه مشكلة مناقضة لمشكلتي؛ فهو يحاول على الدوام، دفع كُتاب التحقيقات في القسم، إلى إطلاق أعرق صوت صديري، بينما كنتُ أتلهف إلى أن يضعني على الموجة الصحيحة. ولكن التزاماتي الأخرى مع الجريدة، كانت تقيدني، ولم يبق لي متسع من الوقت سوى في أيام الآحاد. أظن أن سالغار قد وضع عينه عليّ، لأنّ كُتاب تحقيقات، بينما وضع آخرون عينونهم عليّ، لأنّ تخصص في الكتابة السينمائية، والتعليقات الافتتاحية، والشؤون الثقافية، لأنّني عرّفت دوماً كقصاص. ولكني كنت أحلم، منذ خطواتي الأولى في الساحل، أن أصير كاتب تحقيقات. وكنتُ أعرف أن سالغار هو أفضل معلم، ولكنه كان يغلّق الأبواب في وجهي، ربما على أمل دفعي إلى تحطيمها، والدخول عنوة. كنا نعمل على أحسن وجه، بمودة وديناميكية. وكلما قدمت إليه مادة صحفية، مكتوبة بالاتفاق مع غيريرو كاتو أو حتى مع إدواردو ثالاميا، يوافق عليها دون تأخير، ولكنه لم يكن يتسامح مع الإخلال بالطقوس. كان يقوم بحركة انتزاع سداة قارورة بالقوة، ويقول لي بجد أكبر بما يعتقد هو نفسه:

- إلر عنق هذه البجعة.

ولكنه لم يكن مع ذلك، عدوانياً قط. بل على العكس تماماً؛ كان رجلاً ودوداً، تصلب في نار متأججة، ارتقى سلم الخدمة الجيدة، ابتداءً من تقديم القهوة في المطبعة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى التحول إلى رئيس تحرير بمنتع بأوسع سلطة مهنية في البلاد. أعتقد أنه لم يكن قادراً على أن يغفر لي إسرائفي في البيهلوانيات الغنائية، في بلاد تفتقر إلى الكثير من كُتاب التحقيقات الصدامية. أما أنا بالمقابل،

فكنت أفكر في أنه ليس هناك جنس صحفي أفضل من التحقيقات، للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك، فإني أعرف اليوم أن العناد الذي كنا نحاول به كلاً ما عمل ذلك هو أفضل حافز توفر لي من أجل تحقيق حلمي بأن أصير كاتب وبيورتاجات صحفية.

اعترضت الفرصة طريقي، في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، من صباح التاسع من حزيران ١٩٥٤، بينما أنا راجع من زيارة صديق في سجن بوغوتا النضوذي. كانت هناك قوات من الجيش، مسلحة كما لو أنها في حالة حرب، تعترض حشداً طلابياً في الشارع السامع، على بعد كوادرتين من الناصية التي جرى فيها قبل ست سنوات، اغتيال خورخي إيسير غابتان. لقد كانت مظاهرة احتجاج على مقتل طالب، في اليوم السابق، على يد جنود من الفرقة الكولومبية التي دُريت من أجل الحرب في كوريا، وأول صدام في الشوارع يخوضه المدنيون ضد حكومة القوات المسلحة. لم تكن تُسمع، من المكان الذي أنا فيه، سوى صرخات الجدل بين الطلاب الذين يحاولون مواصلة مسيرتهم حتى القصر الرئاسي، والعسكريين الذين يمنعونهم. ولم تتمكن، وسط الحشود، من فهم ما يقولونه صارخين، ولكن التوتر كان ملموساً في الجو. ولجأة، ودون سابق إنذار، سُمعت رشقة رصاص من بندقية رشاشة، ثم تلتها رشقتان أخريان. سقط عدد من الطلاب وبعض العابرين، قتلى على الفور. والأحباء الذين حاولوا حمل الجرحى إلى المستشفى، جرى إبعادهم بأعقاب البنادق. أخلت القوات العسكرية المنطقة، وأغلقت الشوارع. وأحسست في صدمة خاطفة، استمرت بضع ثوان. بأنني أعيش ثانية، كل هول التاسع من نيسان، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صعدتُ راکضاً، الكوادرات الثلاث، في الطريق الصاعد باتجاه مبنى الاسبينكتادور، ووجدت المحررين في معمة التأهب لمعركة. رويت بمشقة، ما تمكنت من رؤيته في سوق المجزرة. ولكن أقل المحررين اطلاعاً على ما جرى، بدأ، بسرعة خاطفة، في إعداد التقرير الأول عن هوية الطلاب التسعة القتلى، وعن حالة الجرحى في المستشفيات. كنت موقناً من أنهم سيطلبون مني رواية الواقعة، لأنني الوحيد الذي شهدتها. لكن شيرمو كانوا وخوسيه سالغار كانا قد اتفقا على وجوب أن يكون التقرير جماعياً يضع فيه كل واحد ما لديه. ويتولى المحرر المسؤول، فيليبي غوثالث توليدو، بعد ذلك، صياغة الوحدة النهائية للموضوع. وقد قال لي فيليبي القلق، لما لسه من خيبة أملي:

- اطمئن. فالناس يعرفون أننا جميعاً نعمل هنا في كل الموضوعات، وإن كانت لا تحمل تويجاً.

وقد واساني أوليسيس، من جانبه، بفكرة أنه يمكن للتعليق الافتتاحي الذي يتوجب عليّ كتابته، أن يكون الأكثر أهمية، لأنه يتناول مشكلة خطيرة تتعلق بالأمن العام. وقد كان محقاً، ولكنه كان تعليقاً شديد الحساسية ويألف التوريط لسياسة الجريدة، فكتب بعدة أيدي من أعلى المستويات. أظن أنه كان درساً عادلاً للجميع، ولكنه بدأ لي فاسياً جداً. كانت تلك هي نهاية شهر العسل، بين القوات المسلحة والصحافة الليبرالية، الذي بدأ قبل ثمانية شهور من ذلك، عندما تسلم السلطة الجنرال روخاس بينيّا، وأتاح للبلاد إطلاق زفرة راحة بعد حصار دم الحكومتين المحافظتين المتنازعتين، واستمر حتى ذلك اليوم. وقد كان ذلك اليوم بالنسبة لي أيضاً اختباراً بالنار لأخلاصي، ككاتب تحقيقات عادي.

بعد وقت قصير من ذلك، نُشرت صورة جثة طفل بلا أهل لم يتمكنوا من التعرف عليه في مشرحة الطب الشرعي. وقد بدت لي مشابهة لصورة طفل آخر ضائع، نُشرت قبل أيام. عرضت الصورتين على مسؤول الصفحة القضائية، فيليب غونثال توليدو، فاتصل بأم الطفل الأول الضائع الذي لم يكن قد عُثر عليه بعد. وكانت تلك الواقعة درساً تعلمته إلى الأبد. فقد انتظرتنا أم الطفل، أنا وفيليب، في فناء المشرحة. وبدت لي شديدة الفقر والضالة إلى حد بذلت معه جهداً فاتقاً من أعماق قلبي، كيلا تكون الجثة لطفها. وفي القبو الجليدي الطويل، تحت إضاءة قوية، كانت هناك حوالي عشرين طاولة مصفوفة، عليها جثث كأنها أكوام حجارة، تحت ملائمت متسخة. لحقنا، نحن الثلاثة، بالحارس المتجهم حتى المنضدة قبل الأخيرة، في أقصى القاعة. كان يبرز من تحت طرف الملاء نعلًا حذاءً كتيب، حذونا كعبيه مستهلكتان جداً من كثرة الاستعمال. تعرفت المرأة عليهما، فشحب لونها، ولكنها تقاسكت بآخر نفس لديها إلى أن نزع الحارس الملاء بحركة مصارع ثيران. كان الجسد ذو التسع سنوات، بعينه المفتوحتين والناهلتين، مرتدياً الملابس الممزقة نفسها التي وُجد بها ميتاً قبل عدة أيام، في ساقية إلى جانب الطريق. أطلقت الأم ولولة، وانهارت على الأرض، وهي تطلق العويل والصراخ. ساعدها فيليب على الوقوف، وهذأها بعبارات مواساة هامسة، بينما كنت أتسائل عما إذا كان ذلك كله خليق بأن يكون العمل الذي أحلم به. وقد أكد لي إدواردو نالاميا أن لا، إذ كان هو نفسه يفكر أيضاً، في أن التقارير الصحفية عن الجرائم والحوادث، المتجذرة جداً لدى القراء، هي اختصاص صعب يتطلب طبيعة خاصة، وقلباً قاسياً مجرباً. فلم أقرب ذلك العمل بعدها قط.

واقع آخر مختلف تماماً اضطرني إلى أن أصير ناقداً سينمائياً، لم يكن قد خطر لي من قبل، أنني قد أفعل ذلك. ولكنني في مسرح أولييا الذي كان يملكه دون أنطونيو داكوتني في أراكاتاك، وبعد ذلك في مدرسة ألفارو سيبيدا الجواله، ألمت بالعناصر الأساسية لكتابة ملاحظات توجيهية سينمائية، برؤية أكثر فائدة من الشائعة آنذاك، في كولومبيا. كان إرنست فولكينغ، وهو كاتب وناقد أدبي ألماني كبير، استقر في كولومبيا منذ الحرب العالمية الثانية، يبت من الإذاعة الوطنية تعليقاً حول العروض الافتتاحية للأفلام؛ غير أن ما يشهه كان مقتصراً على جمهور متخصص من المستمعين. وكان هناك معلقون آخرون جيدون، ولكنهم عارضون، حول المكتبي الكتلامي لويس فيننس، المستقر في بوغوتا، منذ الحرب الأهلية الإسبانية. وكان هو نفسه من أسس أول نادٍ سينمائي، بالتواظف مع الرسام إنريكي غراو والناقد هيرناندو سالتيدو، ويمسح من الصحفية غلوريا فالينثيا دي كاستانيو كاستيو التي حصلت على بطاقة العضوية رقم واحد. كان هناك في البلاد، جمهور واسع لأفلام الحركة ومآسي الدعوى. أما السينما النوعية، فكانت تقتصر على المثقفين الهواة. وكان أصحاب دور العرض يجازفون أقل فأقل، في عرض أفلام لا تستمر سوى ثلاثة أيام في اللاتحة. فكان انتشار جمهور جديد من هذا الحشد الغفير الذي بلا وجه، يتطلب تربية شاقة، إلا أنها ممكنة، من أجل تشجيع الزبائن على ارتياد أفلام نوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الراغبين في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون تمويله. كانت العقبة الكبرى في أن أصحاب دور العرض يُبقون التهديد بإلغاء إعلانات السينما، مسلطاً على الصحافة - وهي إعلانات تمثل

دخلاً كبيراً للصحف -، كعقوبة على النقد المضاد. وكانت الاسببكتادور هي أول صحيفة تحملت المجازفة، وكلفتني مهمة التعليق على عروض الأسبوع الأولى، كرسالة أولية بسيطة موجهة إلى هواة السينما، أكثر منها موعظة استعراضية. وكان الاحتياط الذي اتخذ باتفاق مشترك، هو عدم استخدام بطاقة دخولي المجانية، كدليل على دخولي لمشاهدة العروض ببطاقة مشتراة من شبك التذاكر.

طمانت المقالات الأولى أصحاب دور العرض، لأنها تناولت أفلاماً من السينما الفرنسية الجيدة، وكان منها بوتشيني Puccini، وهو استذكار مطول لحياة ذلك الموسيقى العظيم، وقيلم قسم مذهبة، وهو قصة بارعة عن المغنية غريس مور، وقيلم حفلة إنريكيتا، كوميديا سلمية لجين دلاتوي. وكان أصحاب دور العرض الذين نلتقي بهم لدى الخروج من الصالة، يعربون لنا عن رضاهم عن مقالتنا النقدية. أما ألفارو سيبيدا بالمقابل، فقد أيقظني في السادسة صباحاً، بكلمة من بارانكيئا، عندما علم بأمر جرأتي. وصرخ بي على الهاتف، وهو بكاد يموت من الضحك:

- يا للجنة! كيف تفكر في نقد الأفلام، دون إذن مني، بالرغم من جلافتك في ما يتعلق بالسينما!

لقد تحوّل، بالطبع، إلى مساعدي الثابت، على الرغم من أنه لم يوافق، قط، على فكرة أن الأمر ليس تشكيل مدرسة نقدية، وإنما توجيه جمهور مبتدئ، وبلا تكوين أكاديمي. ولم يكن شهر العسل مع أصحاب دور العرض كذلك حلوّاً كذلك، مثلما ظننا في البدء. فعندما واجهنا السينما التجارية المحالصة والمجردة، شكا حتى أكثرهم تفهماً، من قسوة

تعليقاتنا. وقد امتلك إدواردو ثالاميا وغبيرمو كانوا ما يكفي من المهارة لإلهانهم عبر الهاتف، حتى أواخر شهر نيسان، عندما اتهمنا أحدهم، بخيلاء زعيم، في رسالة مفتوحة، بأننا نفزح الجمهور لإلحاق الضرر بمصالحهم. بدا لي أن عقدة المشكلة هي في أن كاتب الرسالة لا يعرف معنى كلمة "يُفزع" (amendrentar)، غير أنني أحسست بأنني على حافة الهزيمة، لأنني لم أكن أظن، في ظل الأزمة المتعاطمة التي كانت تعيشها الصحيفة، أن دون غابرييل كانوا سيتخلى عن الإعلانات السينمائية، في سبيل المتعة الجمالية المحض، وفي يوم تلقي تلك الرسالة، دعا أبناءه وأوليسيس إلى اجتماع مستعجل، فاعتبرت أن موت زاويتي السينمائية ودفنها صار أمراً واقعاً. ومع ذلك، ولدى مروره قبالة منضدتي، بعد انتهاء الاجتماع، قال لي دون غابرييل دون أن يحدد الموضوع، وبدهاء جد عجوز:

- اطمئن يا سمي.

وفي اليوم التالي، ظهر في زاوية "من يوم ليوم" الرد على المنتج. وقد كتبه غبيرمو كانوا بأسلوب أكاديمي متعمد، ونهايته تلخص كل شيء: "لا يوجد إقناع للجمهور، ولا أي ضرر بمصالح أحد، في نشر الصحافة لنقد سينمائي جدي ومسؤول، يتشابه قليلاً مع ما هو عليه في بلدان أخرى، ويكسر النماذج القديمة والمؤدية في كبل المديح المفرط لما هو جيد، وبالقدر نفسه لما هو سيئ". لم تكن تلك هي الرسالة الأخيرة التي تلقيناها، ولا ردنا هو الرد الأخير. كان العاملون في دور السينما يستقبلوننا بمطالب قاسية، وكنا نلتقي متناقضة من قراء غافلين. ولكن كل ذلك كان بلا طائل: فقد عاش عمودي السينمائي إلى الوقت الذي لم

يعد فيه النقد السينمائي أمراً عارضاً في البلاد، وتحول إلى تقليد في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الحين، وخلال أقل من سنتين، نشرتُ خمساً وسبعين ملاحظة نقدية، لا بد أن يضاف إليها الساعات الموظفة في مشاهدة الأفلام. فضلاً عن حوالي ستمئة تعليق افتتاحي، وخبر موقع أو مغفل من التوقيع. وقد نُشرت المساهمات الأدبية، منذ ذلك الحين، في ملحق "مغازين الأحد"، التابع للجريدة نفسها. وكان بينها عدة قصص قصيرة وسلسلة ريبورتاجات "لاسيبريبي" الكاملة، التي نوقف نشرها في مجلة الصباح بسبب خلافات داخلية.

كانت تلك هي أول فترة رخاء في حياتي، ولكن دون أن يتاح لي الوقت للاشتغال بها. الشقة التي استأجرتها مفروشة، مع خدمة الغسيل، لم تكن سوى حجرة نوم مع حمام، وهاتف وفطور في السرير، ونافذة واسعة مع رذاذ المطر الأبدى. في أكثر مدن العالم كآبة. لم أستخدما إلا للنوم، منذ الساعة الثالثة فجراً، وبعد قضية ساعة في القراءة، حتى نشرة الأخبار الإذاعية الصباحية، لأعرف مستجدات اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من القلق، في أنها أول مرة يكون لدي فيها مكان ثابت وخاص للعيش، ولكن دون أن يكون لدي وقت للملاحظة ذلك. كنتُ مشغولاً في تصريف شؤون حياتي الجديدة، إلى حد أن إنفاقي الوحيد البارز، كان يقتصر على زورق الإنقاذ الصغير الذي واطيت على إرساله بدقة، في نهاية كل شهر، إلى الأسرة. واليوم فقط، أتنبه إلى أنني كنتُ أكاد لا أجِد الوقت الكافي للاهتمام بحياتي

الخاصة. ربما لأنه كانت تعيش في داخلي فكرة الأمهات الكاربيات، عن أن الفتيات البوغوتيات يسلمن أنفسهن، دون حب، للشبان الساحليين، لمجرد تحقيق حلمهن في العيش قبالة البحر. ومع ذلك، فقد توصلت في شفتي الأولى، كعازب، في بوغوتا، إلى تحقيق مرامي دون مجازفة. منذ أن سألتُ البواب عما إذا كانت زيارة الصديقات عند منتصف الليل، مسموحاً بها.

- إنها ممنوعة يا سيدي، ولكنني لا أرى ما يجب عليّ ألا أراه.
في أواخر شهر آب، ودون إنذار مسبق، ظهر خوسيه سالغار أمام منضدتي، بينما أنا أكتب تعليقاً، ونظر إليّ بصمت طويل. قطعتُ الكتابة في منتصف جملة، وقلت له قلقاً:

- ما المشكلة!

لم يظفر له رمش. وكان يلعب بوليرو غير مرئي بقلمه الرصاص الأحمر، ويبتسم ابتسامة شيطانية تبدو نوابها مكشوفة. أوضح لي دون أن أسأله، بأنه لم يفوضني بكتابة ريبورتاج مذبحة الطلاب في الشارع السابع، لأنه خبر صعب على شخص مبتدئ. ولكنه عرض عليّ بالمقابل، بصورة مباشرة، إما دون أدنى نية في التحدي، أن يمنحني على عاتقه ومسؤوليته، دبلوم كاتب الريبورتاجات، إذا كنت قادراً على أن أتقبل اقتراحاً قاتلاً منه:

- لماذا لا تذهب إلى ميدلين، وتروي لنا حقيقة اللعنة التي جرت هناك؟

لم يكن من السهل فهم ما يعنيه، لأنه كان بكلمني عن أمر حدث هناك، منذ أكثر من أسبوعين، مما يفسح المجال للظن بأنه يعرض عليّ

المدينة، ولكن الحقيقة الباعثة على القشعريرة، تمثلت في أنه ليست لدي أدنى فكرة من أين سأبدأ. مشيت على غير هدى في الشوارع المشرقة، تحت طحين الذهب الذي ترسله الشمس المشعة بعد العاصفة، ثم اضطرت، بعد ساعة، إلى أن ألوذ بأول متجر، لأن المطر عاد للهطول على الرغم من الشمس المشرقة. وعندئذ بدأت أشعر في قلبي، بأول خفقات الهلع. حاولت كبحها بمعادلة جدي السحرية وسط المعركة، ولكن الخوف من الخوف انتهى إلى التسبب في انهيار معنوياتي. أدركت أنني لن أتكن قط، من إنجاز ما كُلفت به، ولم أجد الشجاعة لقول ذلك. وأدركت عندئذ أن التصرف الوحيد العاقل، هو كتابة رسالة شكر إلى غيريرو كاتو، والعودة إلى بارنكيئا، إلى حالة الرضى الربانية التي كنت عليها قبل ستة شهور.

وبالراحة الهائلة التي أحسست بها، لمخروجي من المجحيم، وكنيت سيارة تكسي، لأعود إلى الفندق. كانت نشرة أخبار الظهيرة تقدم تعليقاً مطولاً، بصوتين متناوئين، كما لو أن الانهيار قد حدث بالأمس. فراح السائق يُفجّع عن نفسه، بالصراخ تقريباً، ضد إهمال الحكومة وتهاونها، وسوء التصرف بالمساعدات للمتضررين. أحسستُ بأنني مذنب بطريقة ما، ومسؤول عن غضبه العادل. ولكن المطر توقف عندئذ، من جديد، وصار الهواء شفافاً يعقب بتفجر الزهور في حديقة بيريو. وفجأة، دون أن أدري كيف، أحسستُ بضربة مخلب الجنون. فقلت للسائق:

- قدم لي خدمة. قبل الذهاب إلى الفندق، خذني إلى موقع الانهيارات.
فقال هو:

حدثاً بانئناً لا خلاص لي منه. كان معروفاً أنه وقع، في الثاني عشر من تموز صباحاً، انهيار أرضي في "ميدبا لونا"، وهو مكانٌ وعمر شديد الانحدار، إلى الشمال من ميدلين. ولكن الضجة التي أثارها الصحافة، وتخطيط السلطة، وهلع المتضررين، تسببت في إشاعة بلبلية إدارية وإنسانية، حالت دون رؤية الواقع على حقيقته. لم يطلب مني سالغار أن أحاول عرض ما حدث بأقصى ما يمكن من الدقة، وإنما أمرني مباشرة بأن أذهب لإعادة بناء الحقيقة كلها على الأرض. ولا شيء آخر سوى الحقيقة، وخلال أقصر وقت ممكن. ومع ذلك، فقد كان في طريقته في قول ذلك، شيء دفعني إلى التفكير في أنه سيفلت لي العنان، أخيراً.

الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم بأسره، عن ميدلين، حتى ذلك الحين، هو أن المغني الأرجنتيني كارلوس غارديل، قدم مات فيها، متفحماً في كارثة جوية. وأنا كنتُ أعرف كذلك، أنها أرض كتاب وشعراء كبار، وأنه توجد فيها مدرسة "لابريستنتايشون" التي بدأت ميريتيديس بارتشا الدراسة فيها، تلك السنة، وحيال مهمة هذيانية إلى ذلك الحد، لم أعد أشعر بأنه من غير الواقعي بأي حال، إعادة تصوير الجزيرة التي تسبب بها انهيار الجبل، قطعة فقطعة. وهكذا حطت بي الطائرة في ميدلين، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسط عاصفة رهيبية أوصلتني إلى التوهم بأن أكون آخر ضحايا الانهيار.

تركت حقيبتي في فندق نوتيبارا، وقبها ملابس ليومين، وربطة عنق للطوارئ، واندفعتُ إلى الشارع، في مدينة حاملة لا تزال تلفنها نتائج العاصفة وحصادها. رافقتني ألفارو موتيس لمساعدتي في تجاوز خوفاي من الطائرة، وقرر لي عناوين أناس لهم مكانة جيدة في حياة

- ولكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة. لا شيء سوى الشموع المضاءة فقط. والصلبان الصغيرة للموتى الذين لم يستطيعوا إخراجهم من بين الأنقاض.

وهكذا علمت أن الضحايا والناجين على السواء، هم من أماكن مختلفة من المدينة. وأن هؤلاء قد اجتازوها في جموع غفيرة لإخراج أجساد من سقطوا في الانهيار الأول. وكانت المأساة عندما ملأ الفضوليون المكان، وانزلق جزء آخر من الجبل في انهيار جارف. وهكذا فإن الوحيدين الذين بإمكانهم رواية الحكاية، هم القلة الذين أفلتوا من الانهيارات المتتالية، وما يزالون أحياء في طرف آخر من المدينة. فقلت للسائق، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي:

- مفهوم. خذني إذن إلى حيث يوجد الأحياء الناجون.

قام بالدوران في منتصف الشارع، وأنطلق في الاتجاه المعاكس. ولم يكن صمته نتيجة السرعة التي صار يمضي بها الآن، وإنما نتيجة الأمل باقناعي بمراته.

بداية المحيط كانت طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بيتهما لقطع الحطب، يوم الثلاثاء ١٢ تموز، في الساعة السابعة صباحاً. وكانا قد ابتعدا نحو مئة متر، عندما أحسا بدوي انهيار الأتربة والصخور التي اندفعت نحوهما من سفح الجبل. تمكنا من الهرب بصعوبة. وظلت أخواتهم الثلاث محتجزات، في البيت، ومعهن أمهما وأخوهما حديث الولادة. وكان الناجيان الوحيدان هما الطفلان اللذان خرجا قبل قليل، ورب الأسرة الذي غادر باكراً، إلى عمله في محجر للرمل، على بعد عشرة كيلومترات عن البيت.

كان المكان قفراً موحشاً على الطريق العام، بين ميدلين وريونغرو. وفي الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن قد بقي فيه سكان لسقوط مزيد من الضحايا. نشرت المحطات الإذاعية الخبر ببالغة أرفقتها بكثير من التفاصيل الدامية، ونداءات مستعجلة جعلت أول المتطوعين يصلون قبل رجال المطافئ. وعند الظهر، حدث انهياران آخران، دون وقوع ضحايا، ففاقما حالة العصبية العامة، وأقامت محطة إذاعة محلية مركز بث مباشر من موقع الكارثة. وفي تلك الساعة كان قد احتشد هناك سكان القرى والأحياء المجاورة بمجملهم تقريباً، فضلاً عن الفضوليين القادمين من كل أرجاء المدينة، ممن اجتذبتهم نداءات الإذاعة، والمسافرين الذين كانوا يترجلون من حافلات السفر، ليسيبوا عرقلة أكثر مما يقدمونه من العون. وإضافة إلى الأجساد القليلة التي طُرت في الصباح، كان هناك عندئذ، ثلاثمئة جثة أخرى سببتها الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وقبيل الغروب بقليل، كان لا يزال هناك أكثر من ألفي متطوع عفوي، يقدمون مساعدات طائشة للناجين. وعند الغروب، لم يعد هناك متسع للتنفس. فقد كانت الحشود كثيفة وفوضوية في الساعة السادسة، عندما وقع انهيار ساحق آخر، قُدر بمئتي ألف متر مكعب، رافقه دوي هائل، وأوقع عدداً كبيراً من الضحايا، كما لو أنه قد حدث في حديقة بيريو المزدهحة في ميدلين. وقد وقعت الكارثة بسرعة، إلى حد أن الدكتور خابيسير مورا، سكرتير الأشغال العامة في البلدية، وجد بين الأنقاض، جثة أرنب لم يجد متسعاً من الوقت للهرب.

بعد أسبوعين من ذلك، عندما وصلت إلى المكان، لم يكن قد أُخرج سوى أربع وسبعين جثة. وكان عدد كبير من الناجين قد أسعفوا وصاروا

بأمن. ولم يكن معظمهم ضحايا الانتهيارات، وإنما ضحية التهور والتضامن غير المنظم. ومثلما في الزلازل، لم يكن بالإمكان كذلك، تقدير عدد الذين لديهم مشاكل خاصة، واستغلوا الفرصة للاختفاء، دون أن يخلقوا أثراً، هرباً من الديون أو لاستبدال نساتهم. ومع ذلك، فقد أسهم حسن الحظ بدوره أيضاً، إذ أثبت تحقيق تال أنه منذ اليوم الأول، بينما كانت تجري محاولات الإنقاذ، أو شكت على السقوط كتلة صخور أخرى، يمكن لها أن تسبب انهيار خمسين ألف متر مكعب. وبعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين الذين استردوا عافيتهم، استطعت أن أعيد بناء القصة التي لم تكن روايتها ممكنة في حينها، بسبب عقبات الواقع واضطرابه.

لقد تلخصت مهمتي في استخلاص الحقيقة الضائعة، من بين خليط من الاقتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب المأساة الإنسانية، وفق التسلسل الذي جرت به، بعيداً عن أية حسابات سياسية أو عاطفية. وكان ألفارو موتيس قد وضعني على الطريق القويم، عندما أرسلني مع خبيرة الإعلان سيسيليا وارين التي نظمت لي ما رجعت به من معلومات، من موقع الكارثة. نُشر الريبورتاج على ثلاث حلقات، وكانت له على الأقل ميزة إيقاظ الاهتمام بخبر منسي، بعد أسبوعين من التأخير، وإعادة ترتيب فوضى المأساة.

ومع ذلك، فإن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام، لم يكن ما فعلته، وإنما ما كنت على وشك أن أفعله، بفضل المخيلة الهذيانة لزميلي القديم في بارانكيّا، أورلاندو ريفيرا، الملقب "قيغوريتا"، الذي التقيت به فجأة، في إحدى لحظات التنفس القليلة، أثناء البحث والتحريرات. كان

يعيش في ميدلين منذ بضعة شهور، وكان سعيداً ومتزوجاً حديثاً من سول سانتاماريا، وهي راهبة فاتنة وذات روح حرة، ساعدها على الخروج من دير مغلق، بعد أن أمضت هناك سبع سنوات من الفقر، والطاعة، والعفة. وفي واحدة من سكراتنا الشهيرة، كشف لي قيغوريتا عن أنه قد أعد مع زوجته، وعلى مسؤوليته، خطة محكمة لإخراج ميرثيديس بارتشا من مدرستها الداخلية. وأن كاهناً صديقاً له، مشهوراً بفتونه في عقد الزيجات، سيكون مستعداً لتزويجنا في أي وقت. وكان العائق الوحيد بالطبع، هو أن توافق ميرثيديس نفسها، ولكننا لم نجد طريقة للاستفسار منها، وهي ضمن جدران محبسها الأربعة، واليوم، أكثر من أي وقت آخر، ينهشني الغضب لأنني لم أمتلك المرأة لعيش دراما المسلسلات تلك. أما ميرثيديس، فلم تعلم بأمر الخطة، إلا بعد بضع وخمسين سنة من ذلك، حين قرأت مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك واحدة من آخر المرات التي رأيت فيها "قيغوريتا". ففي كرنفال ١٩٦٠، وكان متنكراً بهيئة نمر كوبي، انزلق عن عربة الكرنفال التي كانت تعبده إلى بيته في بارانوا، بعد مشاركته في معركة تقاذف الزهور، ودقّ عنقه على حجارة الشارع المفروشة بأنقاض وفضلات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي في انهيارات ميدلين، وجدت بانتظاري في الفندق، محررين من صحيفة الكولومبيانو - وكانا فتيين إلى حد أنهما أكثر سباباً مني -، وقد صمما على إجراء مقابلة معي، حول قصصي المنشورة حتى ذلك الحين. لقد تكلفا جهداً في إقناعي، لأنه كان لدي منذ ذلك الحين، ولا يزال، حكم مسبق، ربما هو جائز، ضد المقابلات

الصحفية التي تجري على صورة جلسة أسئلة وأجوبة، حيث يبذل الطرفان جهداً لعقد محادثة كاشفة. لقد عانيت من هذا الحكم المسبق في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، وعانيت بخاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل عدوى تحفظاتي إلى المشاركين الآخرين في تحريرها. ولكنني وافقت، مع ذلك، على تلك المقابلة الأولى مع جريدة الكولومبيانو، وكانت صريحة إلى حد انتحاري.

لا حصر اليوم للمقابلات التي كنت ضحية لها على مدى خمسين سنة، وعلى امتداد نصف العالم. ولم أتمكن حتى الآن، من الاقتناع بفعالية هذا الجنس من الكتابة، بأي حال من الأحوال. الأكثرية الساحقة من المقابلات التي لم أستطع تفاديها، حول أي موضوع، يجب أن تُعتبر جزءاً هاماً من أعمالي التخيلية، لأنها ليست سوى هذا: تخبيلات حول حياتي. ولكنني أرى بالمقابل، أنها ذات قيمة لا تُشمن، ليس للنشر، وإنما كمادة أولية للريپورتاج، وهو الجنس الكتابي الذي أقدره باعتباره الجنس الأبرز في أفضل مهنة في العالم.

لم تكن تلك الأزمنة مناسبة، على أي حال، للمهرجانات؛ فحكومة الجنرال روخاس بينييا، وكانت قد دخلت في نزاع مفتوح مع الصحافة وجزء كبير من الرأي العام، توجت شهر أيلول بقرارها في تقسيم مقاطعة تشوكو، الثانية والمنسية، بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيا، وكالداس، وبابي. ولم يكن الوصول إلى كيببدو، عاصمة المقاطعة، ممكناً إلى من ميدلين، عبر طريق يتجه واحد، وبحالة بالغة السوء، مما يتطلب أكثر من عشرين ساعة، لقطع مئة وستين كيلومتراً. والظروف اليوم ليس بأفضل مما كانت عليه آنذاك.

وكنا نرى في المجرى، كأمر واقع، أنه لا يمكن عمل الكثير، لمنع تقسيم المقاطعة الذي أقرته الحكومة دون اعتبار للصحافة الليبرالية. وقد أرسل بريمو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور المجرى في كيببدو، أخباراً في اليوم الثالث، عن أن مظاهرة شعبية لأسر بكاملها، بمن في ذلك الأطفال، قد احتلت الساحة الرئيسية، مع التصميم على البقاء هناك، تحت الشمس والندى، إلى أن تتراجع الحكومة عن نواياها. راحت الصور الأولى، للأمهات المتسردات، وبين أذرعهن أطفالهن، تفتت مع مرور الأيام، بفعل الأضرار التي سببها سهر الأهالي في العراء. وكنا نعزز هذه الأخبار، كل يوم، في هيئة التحرير، بتعليقات افتتاحية أو بتصريحات لسياسيين أو مثقفين من مقاطعة تشوكو، يقيمون في يوغوتا. ولكن الحكومة بدت مصممة على كسب المعركة، بصم أذنيها وعدم المبالاة. وبعد عدة أيام مع ذلك، دنا خوسيه سالغار من منضدتي بقلمه الذي كعيدان مُحرك الدمى، واقترح عليّ أن أذهب لأتحري عما يحدث فعلاً في تشوكو. حاولتُ أن أرفض، مستغلاً السلطة الضئيلة التي اكتسبتها بفضل ريبورتاج ميدلين، ولكن ذلك لم يقدني كثيراً. فقد صرخ غيريرو كانو الذي كان يكتب مديراً لنا ظهره، دون أن ينظر إليّ:

- اذهب يا غابو، ففتيات تشوكو أفضل من اللواتي كنت ترغب في رؤيتهن في هايتي!

وهكذا ذهب دون أن أتساءل حتى عن كيف يمكن لي كشابة ريبورتاج عن مظاهرة احتجاجية ترفض اللجوء، إلى العنف. رافقتي المصور غيريرو سانثيث الذي كان يضايقني منذ شهر، بمعزوفة دعوتي إلى أن تقوم معاً، بإعداد ريبورتاج عن الحرب. ولضجري من سماع ذلك منه، قلت له صارخاً:

- يا للعتة، أية حرب تعني!

فأقلت فجأة، الحقيقة في وجهي:

- لا تتظاهر بالغباء، يا غايو، فأنا أسمعك تردد منذ بعض الوقت،

أن هذه البلاد تعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

حضر في فجر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول، وهو

يرتدي ملابس محارب، أكثر مما هي ملابس مصور تحقيقات صحفية.

وكان يحمل آلات التصوير، وتتدلى الجعب من كل أنحاء جسده، لكي

تذهب لتغطية أخبار حرب يلفها الصمت. وكانت المفاجأة الأولى أنه يمكن

الذهاب إلى تشوكو قبل مغادرة بوغوتا، عبر مطار ثانوي لا وجود فيه

لخدمات من أي نوع، بين أنقاض شاحنات ميتة وطائرات صندة. أما

طائرنا فكانت لا تزال حية بقدره فنون السحر. فهي طائرة من طراز

كاتالينا الأسطورية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. وقد

أعدت شركة مدنية تأهيلها لاستخدامها في الشحن. لم تكن فيها

مقاعد. وكانت ضيقة وكالحة من الداخل، مع وجود نوافذ صغيرة غيصة،

وحمولة من حزم ألبياف تصنع منها المكائس. وقد كنا المسافرين

الوحيدين فيها. أشار لنا مساعد الطيار ذو القمصيص قصير الأكمام،

وهو شاب وأنيق مثل طياري السينما، بأن مجلس على حزم الحمولة التي

بدت له أكثر راحة. لم يتعرف عليّ، ولكنني كنتُ أعرف أنه كان لاعب

بيسبول بارزاً في فريق لاماتونا، في كارتاخينا.

كان الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر محب للمجازفة، مثل

المصور غييرمو سانتشيث، بسبب دوى المحركات الراعد، وقرقرة حدائد

بدن الطائرة. ولكنها ما إن استقرت في سماء السهب الصافية، حتى

انسابت بقوة محارب مجرب. ومع ذلك، وبعد أن تجاوزنا استراحة ميدلين،

فاجأنا وابل من المطر فوق غابة متشابكة بين سلسلتين جبليتين، واضطررنا

إلى دخول تلك العاصفة مواجهة. وربما عشنا عندئذ، ما لم يعشه إلا قلة

من البشر الفاتين: تسرب المطر إلى داخل الطائرة من خلال ثقوب بدنها.

وجاء مساعد الطيار الصديق قافزاً بين حزم المكائس، حاملاً إلينا صحف

ذلك اليوم لنستخدمها كمظلات. فغطيتُ حتى وجهي بالصحيفة، ليس

لأحميه من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يروني أبكي من الرعب.

بعد نحو ساعتين من الاستسلام للحظ والقدر، مالت الطائرة على

جانباها الأيسر، ونزلت في وضع الانقراض على غابة كثيفة، ثم دارت

دورتين حول ساحة كيبديو الرئيسية. استعد غييرمو سانتشيث لكي

يلتقط، من الجو، صوراً للمظاهرة المستفدة من الإنهاك والسهو، فلم يجد

سوى الساحة المقفرة. قامت الطائرة البرمائية المخلعة بجولة أخيرة،

للتأكد من أنه لا وجود لعوائق حية أو ميتة في نهر أتراتو الهادئ،

وأكملت هبوطها السعيد في قيط الظهيرة.

كانت الكنيسة المربعة بألواح خشبية، والمقاعد الإسمنتية الملتطخة

ببقايا العصافير، وبغلة بلا صاحب تلبط أغصان شجرة عملاقة، هي

الإشارات الوحيدة على الوجود البشري في الساحة المغفرة والمقفرة التي

لا تشبه شيئاً أكثر مما تشبه عاصمة أفريقية. كان هدفنا الأول التقاط

صور مستعجلة للحشود المحتجة، وإرسالها إلى بوغوتا في الطائرة

العائدة، ريثما يجمع ما يكفي من المعلومات الجديدة وغير المعروفة،

لنرسلها بريقاً. كي تُنشر في طبعة اليوم التالي. لم يكن بالإمكان عمل

شيء من ذلك، لأن شيئاً لم يكن يحدث.

اجتازنا، دون شهود، الشوارع الطويل جداً بموازاة النهر. وكانت تحف به متاجر مغلقة من أجل الغداء، وبيوت ذات شرفات خشبية وسقوف صدفية. لقد كان المشهد مناسباً تماماً، إنما كانت تنقصه الدراما. كان زميلنا المحطوب بريمو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور، ينام القبلولة دون همّ في أرجوحة نوم ريعية، تحت عريشة بيته، كما لو أن الصمت الذي يحيط به هو سلام المقابر. وما كان يمكن للصرخة التي أوضع لنا بها إهماله وتهاونه، أن تكون أكثر موضوعية. فبعد مظاهرات الأيام الأولى، تراخت حدة التوتر بسبب الافتقار إلى موضوعات. عندئذ قام بترتيب تعبئة للقرية بأسرها، بتقنيات مسرحية، والتقطت بعض الصور التي لم تُنشر، لأنها بدت غير مقنعة، وألقيت الخطابات الوطنية التي هزت البلاد فعلاً. ولكن الحكومة ظلت على عدم مبالاتها. غير أن بريمو غيريرو، وبمرونة أخلاقية ربما يكون الرب نفسه قد سامحه عليها، أبقى الاحتجاجات حية في الصحافة، بقدرة البرقيات وحدها.

كانت مشكلتنا المهنية بسيطة: فنحن لم نعلم بتلك الرحلة الطرزانية، لكي نخبر الجريدة بأنه لا وجود للخبر. وكانت في متناول يدينا، بالمقابل، الوسائل لكي يكون الخبر صحيحاً، وينجز الهدف منه. عندئذ اقترح بريمو غيريرو أن ننظم مرة أخرى المظاهرة النقالية. ولم يخطر لأبي منا فكرة أفضل من تلك. وكان أكثر مساعدتنا في ذلك حماسة هو النقيب لويس آ. كانو، الحاكم الجديد المعين بعد استقالة سلفه الساخطة. وقد كانت لديه الجرأة على تأخير إقلاع الطائرة، لكي تتلقى الجريدة صور غيريرو سانتشيث، في الوقت المناسب. وهكذا انتهى الأمر بالخبر المُختلق يدافع الحاجة، إلى أن يكون الخبر الوحيد الصحيح. فقد ضخمته الصحافة

والإذاعة في كل أنحاء البلاد؛ وسرعان ما تلقفته الحكومة العسكرية لتنفذ وجهها. في تلك الليلة بالذات، بدأت تعبئة عامة للسياسيين المنتمين إلى مقاطعة تشوكو - وكان لبعضهم نفوذ في بعض قطاعات البلاد - فما كان من الجنرال روخاس بينيّا، بعد يومين من ذلك، إلا الإعلان عن إلغاء قراره بتوزيع مقاطعة تشوكو بين جيرانها.

لم نرجع أنا وغيريرو سانتشيث إلى بوغوتا فوراً، لأننا أقمنا الجريدة بأن تسمح لنا بالتجوال في مناطق تشاكو الداخلية، للتعرف بعمق على واقع ذلك العالم الخيالي. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا إلى قاعة التحرير، وقد دبت الشمس جلدنا، ونحن نكاد نتهار من النعاس، استقبلنا خوسيه سالغار سعيداً، ولكن على طريقته. فقد سألتنا بتأكيد حاسم:

- هل تعلمان منذ متى انتهى خبر منطقة تشاكو؟

وقد وضعني السؤال مواجهة، للمرة الأولى، أمام شرط الفناء الذي يحكم الصحافة. وبالفعل، لم يعد هناك من يهتم بمنطقة تشاكو، منذ أن نُشر القرار الرئاسي بإلغاء تقسيمها. ومع ذلك، فقد أيدني خوسيه سالغار في المجازفة بظهو ما هو ممكن من تلك السمكة الميتة.

ما حاولنا نقله في أربع حلقات طويلة، هو اكتشاف بلاد أخرى لا يمكن تصورها داخل كولومبيا، ولم تكن لدينا أية معرفة بها. فهناك وطن سحري، تسوده الأدغال المزهرة والفيضانات الأبدية، حيث يبدو كل شيء كنسخة غير معقولة من الحياة اليومية. كانت العقبة الكبرى التي تعترض شق طرق بريّة، هي تلك الكمية الهائلة من الأثوار الجامحة. غير أنه لم يكن هناك سوى جسر واحد في المنطقة كلها. وجدنا طريقاً معبداً

بطول خمسة وسبعين كيلومتراً، عبر الغابة العذراء، مقامة بكلفة باهظة من أجل وصل بلدة إتسمينا ببلدة بوتو، ولكنها لا تمر من الأولى أو الثانية، كإجراء عقابي من المفاوض الذي دخل في منازعات قضائية مع عمدي البلديتين.

في إحدى قرى المنطقة الداخلية، طلب منا وكيل البريد أن نحمل، إلى زميله في إتسمينا، البريد المتراكم لديه منذ ستة أشهر. لقد كان ثمن عبية السجائر الوطنية هناك، ثلاثين سنتافو، مثلما هو في بقية أرجاء البلاد. ولكن عندما تتأخر الطائرة الصغيرة الأسبوعية التي تمون البلدة بالسجائر، يرتفع السعر عن كل يوم تأخير، إلى أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من الوطنية. أما كيس الرز، فيزيد سعره خمسة عشر بيزو عما هو عليه في مناطق الزراعة، لأنهم ينقلونه عبر ثمانين كيلومتراً من الغابات العذراء، على متن البغال التي "تشعبط" كاللفظ على الدروب الجبلية الضيقة. وتعمل نساء أشد القرى فقراً في غربلة الذهب والبلاتين في الأنهار، بينما يتصرف رجالهن إلى صيد السمك. وفي أيام السبت يبيعون للتجار المتجولين دزينة من الأسماك، وأربعة غرامات من البلاتين، بثلاثة بيزوات فقط.

كل هذا كان يحدث في مجتمع مشهور بلهفته إلى الدراسة والعلم. ولكن المدارس قليلة ومتباعدة. وعلى التلاميذ أن يقطعوا عدة فراسخ كل يوم، سيراً على الأقدام وفي الزوارق، من أجل الذهاب والإياب. وقد كانت بعض المدارس مزدحمة إلى حد أنهم كانوا يستخدمون البناء نفسه في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، وأيام الثلاثاء والخميس

والسبت للإناث. والسبب نفسه، كانت تلك المدارس هي الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الغسالة الذي يكاد لا يجد ما يأكله، يرتاد المدرسة نفسها التي يذهب إليها ابن العمدة.

قلة قليلة من الكولومبيين كانوا يعرفون آنذاك، أنه هناك في أدغال تشوكو، تنتصب أكثر مدن البلاد حداثة. إنها مدينة تدعى انداغويا، تقوم عند التقاء نهري سان خوان وكوتدوتو. وكان فيها نظام اتصال هاتفي متقن الكمال، وأرصعة لاستقبال السفن والمراكب، تعود ملكيتها للمدينة نفسها التي تشقها شوارع فسحة ومشجرة. وكانت البيوت الصغيرة والنظيفة، ذات الأفنية الواسعة المسيجة والأدراج الخشبية البهية عند البوابات، تبدو مزروعة وسط العشب. وفي منتصف المدينة، كان هناك كازينو فيه مطعم-كباريه، وبار تُقدم فيه خمور مستوردة بأسعار أرخص من بقية أنحاء البلاد. إنها مدينة يقطنها أناس من كل أنحاء العالم، نسوا الخنين، ويعيشون هناك أفضل مما في بلادهم، تحت السلطة الكلية للجنرال المحلي لتشوكو باسيفيكو. لقد كانت أنداغويا، في الحياة الواقعية، بلداً أجنبياً وملكية خاصة، تحرف كراكاته قيعان الأنهار الحراقية، لتذهب الذهب والبلاتين، وتحمله في سفينة خاصة، تخرج به إلى العالم بأسره، دون مراقبة من أحد، غير مصبات نهر سان خوان.

كانت تلك هي تشوكو التي أردنا كشفها للكولومبيين، ولكن دون أي نتيجة، لأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، بعد أن انقضى الخبر، وبقيت أكثر المناطق المنسية في البلاد. وأظن أن السبب واضح وجلي؛ فكولومبيا كانت على الدوام بلداً كاريبي الهوية، مفتوحاً على العالم من

خلال حبس الخلاص الذي تمثله بنما، وجاء اقتطاع بنما الإيجاري وفصلها عن كولومبيا، ليحكم علينا بأن نكون ما نحن عليه اليوم: بلاداً أنديزية بالشروط المناسبة لكيلا تكون القناة بين المحيطين ملكاً لنا، وإنما للولايات المتحدة.

كان يمكن لإيقاع التحرير في الجزيرة، أن يكون قاتلاً لولا أيام الجمعة مساءً، بعد محررتنا من واجباتنا، إذ كنا نلتقي في بار فندق كونتيننتال، على الرصيف المقابل، في جلسات تفريح عن النفس تستمر حتى الفجر. وقد عمد إدواردو ثالاميا تلك الليالي باسم خاص: "الجمعة الثقافية". وكانت تلك الجلسات هي فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه، كيلا يفوتني قطار مستجدات العالم الأدبية التي يتابعها، لحظة بلحظة، بقدرته كقارئ غير عادي. أما المواطنون المتمسكون بسهرات المشروبات الكحولية غير المتناهية، وذات النهايات غير المتوقعة تلك - فضلاً عن صديقين أو ثلاثة من أصدقائنا أوليسيس الأبديين -، فكننا نحن المحررين الصحفيين الذين نخشى انتهاء الجلسة قبل حلول الفجر.

لقد لفت انتباهي على الدوام، أن ثالاميا لم يقدم قط، أي ملاحظة حول تعليقاتي الصحفية، بالرغم من أن معظمها كانت مستوحاة من تعليقاته ومقالاته. ومع ذلك، عندما استقرت لقاءات "الجمعة الثقافية"، أطلق العنان لأفكاره حول الزوايا الصحفية. وقد اعترف لي بأنه لا يتفق مع كثير من وجهات نظر تعليقاتي، واقترح عليّ غيرها، ولكن ليس بنبرة المعلم لتلميذه، وإنما كاتب لكاتب. ملاذ آخر كنا نتردد عليه بكثرة، بعد تأسيس النادي السينمائي،

هو السهرات حتى منتصف الليل، في شقة لويس فيشنس وزوجته نانسي، على بعد كودارات قليلة من الاسبيكتادور. وكان هو، الذي ساهم فيما مضى، في الكتابة مع مارسيل كولين ورفال، وترأس تحرير مجلة "السينما الفرنسية" في باريس، قد بدأ أحلامه السينمائية، وتحول إلى مكتبتي جهد في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت نانسي تتصرف كمضيفة سحرية، قادرة على تكبير غرفة طعام أربعة أشخاص، لتستوعب اثني عشر شخصاً. لقد تعارفا بعد وقت قصير من مجيئه إلى بوغوتا، سنة ١٩٢٧، خلال عشاء عائلي. لم يكن هنالك على المائدة، سوى مكان شاعر وحيد، إلى جانب نانسي، حين رأته برعب، دخول المدعو الأخير، بشعره الأبيض وبشرة متسلق الجبال الملوحة بالشمس. فقالت لنفسها: "يا لسوء الحظ! سيجلس الآن إلى جانبي هذا البولوني الذي لا يعرف حتى التكلم بالإسبانية". وكانت على صواب تقريباً، في ما يتعلق باللغة، لأن القادم الجديد كان يتكلم الإسبانية بكتلاية نيشة، مختلطة بالفرنسية. وكانت هي المتحدرة من مقاطعة بويكا، متحدثة اللغة وطليقة اللسان. ولكنهما تفاهما على أحسن وجه، منذ تبادلهما التحية الأولى إلى حد أنهما بقيا ليعيشا معاً إلى الأبد.

سهراتهما كانت تُرحل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبرى، في شقة مترعة بخليط من كل الفنون، حيث لم يكن هناك متسع لمزيد من الرسامين المبتدئين الكولومبيين، ممن سيصبح بعضهم مشهوراً في العالم بأسره. وكان المدعوون مختارين من بين أبرز أهل الفنون والآداب، وقد تظهر شلة بارانكيًا هناك بين حين وآخر. دخلتُ إلى ذلك البيت، كما لو أنني في بيتي، منذ ظهور مقالتي الأولى في النقد السينمائي.

الاستراحة الوحيدة التي كنت أبيعها لنفسي، في أيام الضيق تلك، هي أمسيات الأحاد في بيت ألفارو موتيس الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى، دون أحكام طبقية مسبقة. كنا نستلقي على السجادة لنستمع بقلبتنا، إلى كبار الموسيقيين، دون تأملات نظرية حكيمة. وكان ذلك هو أصل شغفي بالموسيقى الذي بدأ في القاعة الخفية، في المكتبة الوطنية، ولم ينسنا قط. لقد استمعت اليوم إلى كل ما استطعت الحصول عليه من الموسيقى، ولا سيما موسيقى الهجرة الرومانسية التي أعتبرها ذروة الفنون. أما في مكسيكو، بينما كنت أكتب مئة عام من العزلة - في عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ -، فلم يكن لدي سوى أسطوانتين اثنتين، استهلكتنا لكثرة ما استمعت إليهما: الاستهلاكات لديبوسي، وبألبلة ذلك اليوم لفرقة البيتلز. وفي ما بعد، عندما امتلكت في برشلونة الكثير من الأسطوانات، بقدر ما كنت أرغب على الدوام تقريبا، بدا لي أن التصنيف الأبجدي تقليدي جداً، فاخترت من أجل راحتي الخاصة، اتباع ترتيب يأخذ في الاعتبار الآلات الموسيقية: التشيلو، وهو المفضل لدي، من فيفالندي إلى براهمز؛ والكمان، من كوريلي حتى شونبرغ؛ الكلاف والبيانو، من باخ حتى بارتوك. إلى أن اكتشفت معجزة أن كل ما يرن هو موسيقى، بما في ذلك الأطباق وأدوات الطعام في المجلى، ما دامت تؤدي وهم إشعارنا بالمسار الذي تمضي فيه الحياة.

كنت أعاني من محدودية عدم قدرتي على الكتابة، بوجود الموسيقى، لأنني أولي انتباهي إلى ما اسمعه أكثر مما أوليه إلى ما أكتبه، وما زلت حتى اليوم لا أترد إلا نادراً على المحفلات الموسيقية، لأنني أشعر أنه يقوم، في مقعد الصالة، نوع من الحميمية القوية مع

وعندما كنت أخرج من الجريدة قبل منتصف الليل، أقطع الكوادرات الثلاث ماشياً، وأجيرهما على السهر حتى وقت متأخر. وقد كانت المعلمة نانسي - فضلاً عن أنها طاهية رائعة - ساعة زواج ضاربة، ترجمل ولائم عشاء بريئة، لتعرفني على أكثر فتيات عالم الفن جاذبية وتحوراً، ولم تغفر لي قط، عندما قلت لها، وأنا في الثامنة والعشرين، إن ميلي الحقيقي ليس أن أكون كاتباً ولا صحفياً، وإنما عازياً لا يُهزم.

في فجوات الفراغ التي تسبق لألفارو موتيس، من رحلاته حول العالم، قام بإدخالي إلى أعلى مستويات المجتمع الثقافي وتعريفني عليه. فبحكم وضعه كمدير علاقات عامة لشركة إسو الكولومبية، كان ينظم ولائم غداء، في أعلى المطاعم. وهو ما يوفر في الواقع، التأثير والوزن في عالم الفنون والآداب، وكان مدعووه في أحيان كثيرة، ضيوفاً من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورخي غابثان دوران الذي كانت تتسلط على ذهنه، فكرة إصدار مجلة أدبية كبرى، تتطلب ثروة باهظة، حل الأمر جزئياً، من أرصدة ألفارو موتيس المخصصة لتشجيع الثقافة. وكان ألفارو كاستانيو كاستيو وزوجته، غلوريا بالينشيا، يحاولان منذ سنوات، تأسيس محطة بث إذاعي، مكرسة بالكامل للموسيقى الجيدة، ولبرامج ثقافية في متناول اليد. وكنا جميعنا نسخر من عدم واقعية مشروعهما، باستثناء ألفارو موتيس الذي بذل كل ما يمكنه لمساعدتهما. وهكذا أسسنا إذاعة HICK، "العالم في بوغوتا" بث قدرته ٥٠٠ واط، وهي الطاقة الدنيا في ذلك الحين. ومع أن التلفزيون لم يكن قد وجد بعد في كولومبيا، إلا أن غلوريا بالينشيا اخترعت الأعجوبة المتنافسية بتقديدها، عبر الإذاعة، برنامجاً عن عروض الأزباء.

جيران غرباء. ومع ذلك، مع مرور الزمن وتوفر الإمكانيات لسماع موسيقى جيدة في البيت، تعلمت الكتابة بوجود خلفية موسيقية تتوافق مع ما أكتبه: نكتورنات شوبان للأحداث الهادئة، أو سداسيات براهمز للألسبيات السعيدة، ولم أعد أستمع، بالمقابل، إلى موزارت لسنوات طويلة، منذ أن داهمتني الفكرة الشيطانية بأن موزارت غير موجود، لأنه عندما يكون جيداً فهو بيتهوفن، وعندما يكون سيئاً يصير هايدن.

لقد توصلت، في السنوات التي أستحضر فيها هذه الذكريات، إلى معجزة عدم الشعور بالضيق من أي نوع من الموسيقى، وأنا أكتب؛ وربما دون أن أعي فضاءاتها الأخرى؛ ذلك أن المفاجأة الكبرى جاءتني من موسيقيين كنالتين، شابين ودؤوبين، يعتقدان بأنهما اكتشفا تشابهات مفاجئة بين خريف البطريرك، روايتي السادسة، وكونشيرتو البيانو الثالث لبيلا بارتوك. صحيح أنني كنت أستمع إلى هذا الكونشيرتو دون توقف، بينما أنا أكتب، لأنه كان يولد في حالة خاصة جداً من الحماسة، وغريبة بعض الشيء، ولكنني لم أفكر قط، في أنه يمكن لتلك الموسيقى أن تكون قد أثرت بي إلى الحد الذي تلمع به في كتابتي. ولست أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضعوا تلك الموسيقى نفسها، كخلفية، عند تسليمي جائزتي. إنني أشكرهم من أعماق روحي بالطبع، على تلك اللقطة، ولكن لو أنهم سألوني - مع كل امتناني واحترامي لهم ولبيللا بارتوك - لكنت أحببت أن توضع إحدى مقطوعات فرانثيسكو الرجل، الرومانسية الطبيعية التي كانت تُعزف في طفولتي.

لم يكن هناك في كولومبيا، في تلك السنوات، مشروع ثقافي

يتحقق، أو كتاب يُكتب، أو لوحة تُرسم، دون المرور قبل ذلك، من مكتب موتيس. لقد كنتُ شاهداً على حوارهِ مع رسام شاب لديه كل شيء جاهز من أجل رحلته البحرية التي لا بد منها إلى أوروبا، ولكنه كان يفتقر إلى النقود اللازمة للرحلة. لم يكن ألفارو قد استمع إلى قصته كلها، عندما أخرج حقيبته السحرية من المنضدة، قائلاً له:

- ها هي ذي تذكرة السفر.

كنت أشهد مذهولاً، التلقائية التي يحقق بها تلك المعجزات، دون أدنى تفاخر سلطوي. ولهذا ما زلتُ أتساءل عما إذا لم تكن له علاقة بالطلب الذي عرضه عليّ، في إحدى حفلات الكوكنيل، سكرتير جمعية الكتاب والفنانين الكولومبيين، أوسكار ديلغادو، لكي أشارك في مسابقة وطنية للقصة القصيرة، يوشكون الإعلان عن حجب جائزتها. وقد قال ذلك بأسلوب بالغ الاستخفاف إلى حد بدا لي الاقتراح معه مشيناً، على أن أحدهم سمعه، فأكد لي أنه لا يمكن للمرء، في بلاد مثل بلادنا، أن يصير كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى مسرحيات إيمانية اجتماعية؛ بما في ذلك جائزة نوبل. أنهى كلامه بهذه العبارة دون أدنى قدر من الحث؛ فوضعني منذ ذلك الحين، دون أن يكون قد فكر في الأمر، في حالة تأهب لاتخاذ قرار خطير آخر اعترضني بعد سبع وعشرين سنة من ذلك.

ضمت لجنة تحكيم مسابقة القصة القصيرة هيرناندو تيبث، وخوان لوثانو آي لوثانو، وبيدرو غوميث فالديراما وثلاثة كتاب ونقاد آخرين من الوزن الثقيل. ولهذا لم أحسب حساباً للاعتبارات الأخلاقية والاقتصادية، وإفا أمضيت ليلة في التصحيح النهائي لقصة "يوم بعد

السبت" التي كنت قد كتبتها في بارانكيا، في ضربة إلهام فاجأتني في مكاتب جريدة إناسيونال - وبعد نومها أكثر من ستة في الدرج، بدت لي قيادة على إبهار لجنة تحكيم جيدة. وهذا هو ما حدث، فضلاً عن حصولي على مكافأة مالية هائلة: ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام بالذات، ودون أي علاقة بالمسابقة، جاني إلى المكتب دون صامويل ليزمان باوم، الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح للتو، مؤسسة للنشر بإصداره كتاب أشعار للمعلم ليون دي غريف: "أوراق الدفتر الخامس المختلطة". كانت الطبعة حسنة المظهر، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا قدمت إليه نسخة مرقعة جداً من "عاصفة الأوراق"، وصرفته طيراناً مع الوعد بأن نتحدث في ما بعد. وبخاصة عن النقود. وكان هذا - بالفعل - هو الموضوع الوحيد الذي لم نتحدث فيه أبداً، وقد رسمت سيسيليا بوركس غلاقاً تجديداً - لم تتمكن من تقاضي ثمنه كذلك -، مستندة إلى وصفي لشخصية الطفل، وقدمت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسبكتادور كليشيات الغلاف بأربعة ألوان، كهدية.

لم أعد إلى معرفة أي شيء إلا بعد خمسة أشهر من ذلك، عندما اتصلت بي دار نشر سيبا في بوغوتا - ولم أكن قد سمعتُ باسمها من قبل - لتقول لي إن طبعة من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها، لأن أحداً لا يعرف أين هو ليزمان باوم. ولم يستطع حتى كتيبة الريبورتاجات في الجريدة أن يعرفوا أي شيء عنه، ولم يجده أحد حتى شمس هذا اليوم. فعرض أوليسيس على المطبعة أن تتولى بيع النسخ للمكتبات، بالاستناد إلى الحملة الصحفية التي بدأها

هو نفسه، بمقالة لم أشكره عليها حتى الآن. كان النقد رائعا، لكن معظم الطبعة ظل في المستودع، ولم يُعرف قط، عدد النسخ التي بيعت، كما أنني لم أتلق من أحد استئاقوا واحداً من حقوقي.

بعد أربع سنوات من ذلك، قام إدواردو كابييرو كالديرون، المشرف على سلسلة "المكتبة الأساسية للشقافة الكولومبية" بضم طبعة جيب من "عاصفة الأوراق" إلى مجموعة أعمال بيعت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا ومدن أخرى. وقد دفع لي الحقوق المتفق عليها، وهي ضئيلة ولكن في موعدها المحدد، وكانت لها قيمة عاطفية لأنها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. وقد تضمنت الطبعة، عندئذ، بعض التغيرات التي لم أتعرف عليها بأنها لي، ولم أهتم بعدم تضمينها في طبعات تالية. وبعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، عندما مررت بكولومبيا بعد إطلاق "مئة عام من العزلة" في بوينس ايريس، عثرتُ في أكشاك الشوارع، في بوغوتا، على أعداد من النسخ المتبقية من الطبعة الأولى من "عاصفة الأوراق" بسعر بيزو واحد للنسخة. فاشترت منها كل ما استطعت حمله. ومنذ ذلك الحين، وجدت كميات أخرى متفرقة، في مكتبات متعددة في أمريكا اللاتينية، يحاولون بيعها على أنها كتب تاريخية. وقبل نحو عامين، باعت وكالة إنكليزية للكاتب القديمة، بثلاثة آلاف دولار، نسخة تحمل توقيعني من الطبعة الأولى من "مئة عام من العزلة".

لم تحرفني أي واحدة من تلك الحالات، لحظة واحدة، عن انهماكي في الصحافة. فقد اضطرنا النجاح الأولي للتحقيقات الصحفية المتسلسلة، إلى البحث عن علف لتغذية وحشٍ نهم لا يشبع. وكان التوثق

اليومي لا يُحتمل، ليس في تحديد الموضوعات والبحث عنها وحسب، وإنما كذلك في سياق كتابتها المهددة، على الدوام، بالافتتان بالخيال. لم تكن ثمة شكوك في الاسبكتادور، فالمادة الأولية في المهنة يجب أن تكون الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وكان ذلك يبقينا في حاله توتر دائم. وانتهى بنا الأمر، أنا وخوسيه سالغار، إلى حالة من الإدمان لا تتيح لنا لحظة سلام حتى في عطلة أيام الآحاد.

شاع في عام ١٩٥٦ أن البابا بيو الثاني عشر يعاني من نوبة فواق يمكن لها أن تكلفه حياته. وكانت الحالة المماثلة الوحيدة سابقاً التي أتذكرها، هي قصة سومرست موم الرائعة "P & O"، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي، بنوبة فواق، قضت عليه في خمسة أيام، بينما كانت تصله من العالم بأسره، كل أنواع الوصفات الغربية، لكنني اعتقد بأنني لم أكن أعرف القصة في ذلك الحين. لم تكن مجردة، في عطلة نهاية الأسبوع، على الذهاب بعيداً في رحلتنا إلى قرى السهب، لأن الصحيفة كانت تستعد لإصدار طبعة استثنائية خاصة إذا ما توفي البابا. وكنت أؤيد أن تكون لدينا طبعة جاهزة مسبقاً، يُبقى فيها فراغات تُملأ عند وصول أول البرقيات عن الوفاة. بعد سنتين من ذلك، وكنت قد صرت مراسلاً في روما، كان العالم لا يزال ينتظر نهاية فواق البابا.

مشكله أخرى في الصحيفة، لم يكن هناك سبيل لمقاومتها، هي الميل إلى قصر الاهتمام على موضوعات مثيرة، يمكن لها أن تجتذب مزيداً من القراء. وكان لديّ ميلي المتواضع بعدم فقدان جمهور آخر يفكر بالقلب فقط، ويتلقى قدرأ أقل من الاهتمام. وبين الموضوعات القليلة

التي تمكنت من العثور عليها، ما زلت أتذكر الريبورتاج الأكثر بساطة، والذي شدني بصورة خاطفة من خلال نافذة الحافلة. فعلى باب بيت كولونبالي بديع، في الرقم ٥٦٧ في الشارع الثامن، في بوغوتا، كان هناك إعلان يقلل من شأن نفسه: "مكتب متأخرات البريد الوطني". لا أتذكر بأنني فقدت شيئاً في تلك المتاهات، ولكنني نزلت من حافلة الترام، وطرقت الباب، الرجل الذي فتح لي كان المسؤول عن المكتب مع ستة موظفين منهجين، يغطيهم صدأ الروتين، تتمثل مهمتهم الرومانسية في العثور على من أرسلت إليه أي رسالة غير واضحة العنوان.

كان بيتا جميلاً، ضحكاً ومعرفاً، له أسقف عالية وجدران متأكلة، وممرات قائمة وردحات مترعة بأوراق لا صاحب لها. تدخله، وسطياً، مئة رسالة متأخرة كل يوم. عشر رسائل منها على الأقل، وضعت عليها الطوابع، ولكن المغلف بقي أبيض لا يحمل حتى اسم المرسل. وكان رجال المكتب يسمونها "رسائل الرجل الخفي". ولا يتوانون عن بذل جهودهم من أجل تسليمها أو إعادتها. لكن طقوس فتحها للبحث عن مؤشرات، كانت عملية بيروقراطية صارمة وغير مجدية، إلا أنها تستحق التقدير.

نُشر الريبورتاج على صفحة واحدة، تحت عنوان "ساعي البريد يطرق الباب ألف مرة"، مع عنوان فرعي: "مقبرة الرسائل الضائعة". وقد قال لي سالغار عندما قرأه: "لا حاجة إلى ليّ عنق هذه البجعة، لأنها ولدت مبيتة". ونشر الريبورتاج على المساحة اللازمة له بالضبط، لا أكثر ولا أقل، ولكن كان يبدو عليه الشعور بالمرارة مثلي، لما كان يمكن للريبورتاج أن يكون عليه. أما روخيليو إتشيباريّا، ربما لأنه شاعر، فقد احتفى به

بمزاج طيب، وبجملة لن أنساها أبداً؛ المسألة هي أن غابو يتمسك حتى بـسـمار ساخن".

شعرت بالقنوط، فقررت أن أتولى بنفسى، وعلى مسؤوليتى - دون أن أخبر سالغار بذلك - العثور على صاحبة رسالة استحققت منى اهتماماً خاصاً. كانت مرسله من مصحة الجذام "أغوا دي ديوس"، وموجهة إلى "سيده الحداد التي تذهب، كل يوم، إلى قداس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس". بعد أن قمت بكل أنواع التحريات غير المجدية، مع كاهن الكنيسة ومساعديه، واصلت اللقاء، عدة أسابيع، مع المؤمنتين المواظبتين على قداس الخامسة، ولكن دون نتيجة. وقد فرحت بأن أكثر رواد القداس مواظبة، كن ثلاث متقدمات في السن، يأتين دائماً بملابس حداد كاملة، ولكن لا علاقة لأي واحدة منهن بمصحة الجذام "أغوا دي ديوس". كان إخفاقاً تطلب تجاوزه منى بعض الوقت، ليس بسبب الأثمانية وحب الذات، ولا لأنى قستُ بعمل أقرب إلى الإحسان وحسب، وإنما لأننى كنتُ وانقا من أن هناك، وراء قصة امرأة الحداد تلك، قصة أخرى مؤثرة.

وكلما كنتُ أغوص في مستنقعات الريبورتاج الصحفي، كانت علاقتى بجماعة بارانكييا تزداد زخماً. لم تكن رحلاتهم إلى بوغوتا كثيرة، لكنى كنتُ أنقضُ عليهم هاتفياً في أي وقت، وحيال أي مشكلة، وبخاصة على خيرمان بارغاس، بسبب مفهومه التريوي للريبورتاج الصحفي. كنتُ أستشيرهم في كل مشكلة، وكانت المشاكل كثيرة، أو أنهم كانوا يتصلون بي لتهنئتي. لقد كنتُ أرى في ألفارو سيبيدا زميلاً يجلس على الكرسي المجاور. وبعد السخريات الودية

المتبادلة التي كانت تقليداً صارماً ضمن الجماعة، كان يُخرجني من المستنقع الذي أغوص فيه، ببساطة تشير دهشتى على الدوام. أما استشاراتي مع ألفونسو فوينمايور بالمقابل، فكانت أدبية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يمتلك القدرة السحرية الصائبة على إنقاذى من كل ورطة، بأمثلة من كبار الكتاب، أو ليملى عليّ اقتباساً منقذاً من ترسانة معارفه التي لا قرار لها. وكانت دعايته الكبرى، حين طليت منه عنوانا لمقالة عن باعة الطعام في الشوارع الذين تطاردهم السلطات الصحية، فقد أفلت ألفونسو إجابته الفورية:

- من يبيع الطعام لا يموت جوعاً.

شكرته من كل أعماق روحي. وبدا لي العنوان مناسباً إلى حدٍ لم أستطع معه منع نفسى من سؤاله عن قائله. فأوقفتى ألفونسو، فجأة، بالحقيقة التي لم أكن أتذكرها:

- إنها لك يا معلم.

وبالفعل، كنتُ قد ارتحلت تلك العبارة في زاوية صحفية دون توقيع، ولكنى نسيتها. وقد جرى تداول هذه الحكاية لسنوات عديدة، بين الأصدقاء، في بارانكييا الذين لم أستطع إقناعهم بأنها لم تكن دعابة على الإطلاق.

شغلتنى لبضعة أيام، رحله عارضة قام بها ألفارو سيبيدا إلى بوغوتا، وأخرجتنى من دوامة الأخبار اليومية. جاء حاملاً فكرة إنجاز قبيل لم يكن لديه منه سوى العنوان: "الجرادة الزرقاء". كان خطأ صائباً، لأن لويس بيثينس وإنريكي غراو والمصور نيريو لوبيث أخذوا الأمر على محمل الجد. لم أعد أعرف شيئاً عن المشروع، إلى أن أرسل لي بيثينس

مسودة السيناريو لكي أضيف شيئاً مني إلى القاعدة الأصلية التي وضعها ألفارو. وقد أضفتُ شيئاً لم أعد أتذكره اليوم، لكن القصة بدت لي ممثلة، وتتضمن جرعة كافية من الجنون، لتبدو معها أنها من بنات أفكارنا.

لقد قدم كل واحد منا قليلاً من كل شيء، لكن أبا العمل الحقيقي، وصاحب الحق فيه، هو لويس بيثينس الذي فرض الكثير من الأشياء المتبقية لديه من بدايات تعلمه في باريس. أما مشكلتي، فتمثلت في أنني كنتُ مشغولاً بأحد تلك التحقيقات الصحفية المسهبة التي لا تترك لي وقتاً للتنفس. وعندما تمكنتُ من الانتهاء منه، كان الفيلم في أوج عملية التصوير في بارانكيا.

لقد كان عملاً بدائياً، ميزته الكبرى، كما يبدو، هي سيطرة البديهة التي ربما كانت الملاك الوصي على ألفارو سبييدا. ففي أحد عروض الفيلم المنزلية المتعددة في بارانكيا، حضر المخرج الإيطالي انريكو فولكونوني، وفاجأنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم جيداً. وبفضل تيتا مانتوتاس، زوجه ألفارو، وعنادها الحميد، جال ما تبقى من الجرافة الزرقاء العالم ليعرض في مهرجانات سينمائية جريئة.

كانت تلك الأمور تشغلنا أحياناً عن واقع البلاد، وهو واقع رهيب. لقد كانت كولومبيا تعتبر خالية من رجال حرب العصابات، منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة، تحت راية السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يخامر الشك أحداً في أن شيئاً تغير، إلى أن وقعت مجزرة الطلاب في الشارع السابع. فالعسكريون الجزعون، لأسباب خاصة بهم، أرادوا أن يشبتوا لنا، نحن الصحفيين، بأن هناك حرباً مختلفة عن تلك

الحرب الأزلية بين الليبراليين والمحافظين، وكنا في تلك الأجواء، عندما دنا خوسيه سالغار من مكتبي، بوحدة من أفكاره المرعبة: - استعد للتعرف على الحرب.

وكنا، نحن المدعوين للتعرف عليها، دون كثير من التفاصيل، دقيقين بالحضور في الساعة الخامسة فجراً، للذهاب إلى قرية فيباريكا، على بعد مئة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوغوتا. وكان الجنرال وخالس بيتيياً ينتظر زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته الكثيرة في قاعدة ميلغار العسكرية. وكان قد وعد بعقد مؤتمر صحفي ينتهي قبل الساعة الخامسة مساءً، مما يتيح لنا وقتاً كافياً للعودة بصور وأخبار طازجة.

كان مبعوثو التيمبو هم راميرو اندرادي والمصور خيرمان كاشيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أستطع تذكرهم؛ ودانييل رودريغيث وأنا من الاسبكتادور. بعضنا كان يرتدي ملابس الميدان، إذ جرى تنبيهنا إلى أننا قد نضطر إلى التوغل بضع خطوات في الأدغال.

ذهبنا بالسيارة حتى ميلغار. وهناك توزعنا على ثلاث طائرات هيلوكبتر أخذتنا عبر ممر جبلي ضيق ومعزول في سلسلة الجبال الوسطى، تحيط به قمم شاهقة وحادة الحواف. وكان أكثر ما أثر بي، مع ذلك، هو توتر الطيارين الشباب الذين كانوا يتفادون مناطق معينة، أسقط فيها رجال حرب العصابات، في اليوم السابق، طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة من التوتر، هبطنا في ساحة فيباريكا الفسيحة والمقفرة، وبدا كما لو أن سجادة أرضها الترابية غير قادرة على تحمّل ثقل الطائرة. كانت هناك في محيط الساحة، بيوت من

الخشب، فيها متاجر مشحولة إلى أطلال، ومنازل لا يسكنها أحد، باستثناء منزل واحد حديث الطلاء، كان فندق القرية إلى ما قبل أن يسود الرعب.

وكانت تُلح قبالة الهلوكيتر، المرتفعات المنخفضة الموازية لسلسلة الجبال، وسقف من التوتياء للبيت الوحيد الذي يكاد لا يرى في ضبابية السطح البعيد. وهناك، وفق ما قاله لنا الضابط المرافق، كان رجال حرب العصابات، ومعهم أسلحة قاذرة على إصابتنا. ولهذا علينا أن نركض حتى الفندق بصورة متعرجة، ونحن نحني جذوعنا، كاحتياط أولي لتجنب إمكانية إصابتنا بطلقات تأتي من الجبال. ولم نكتشف أن الفندق قد تحول إلى ثكنة عسكرية، إلا بعد أن وصلنا إليه.

كان هناك عقيد بزي وأمتعة الميدان، له رشاقة فنان سينمائي، ولطف ذكي، أوضح لنا دون تهويل، بأن طبيعة رجال حرب العصابات تتواجد، منذ عدة أسابيع، في ذلك البيت الذي على سلسلة الجبال، وأنهم حاولوا عدة مرات، انطلاقاً من هناك، القيام بغارات ليلية على القرية. وكان الجيش واثقاً من أنهم سيسحاولون عمل شيء عندما يرون طائرات الهلوكيتر في الساحة، وكانت قوات الجيش على أهبة الاستعداد، ومع ذلك، وبعد حوالي ساعة من الاستفزازات، بما في ذلك، التحديدات التي استخدم الجيش فيها مكبرات الصوت، لم يُبد رجال حرب العصابات ما يشير إلى وجودهم. عندئذ أرسل الكولونيل، وقد أصيب بالإحباط، دورية استطلاع للتأكد من أنه لا يزال هناك أحد في البيت.

خفت حدة التوتر. وخرجنا، نحن الصحفيين، من الفندق، واستطلعنا الشوارع المجاورة، بما في ذلك أقلها حماية حول الساحة. بدأنا أنا

والمصور، مع آخرين، في الصعود إلى الجبل، عبر درب بغال وعمر. وعند أول منعطف، كانت هناك جماعة من الجنود المنبطحين بين الشجيرات في وضعية الرمي. نصحنا أحد الضباط بالعودة إلى الساحة، لأنه يمكن حدوث أي شيء. لكننا لم نوله اهتماماً. فقد كان هدفنا الصعود إلى أن نلتقي بطليعة متقدمة من رجال حرب العصابات، تنقذ يومنا بخبر كبير. لم يتح لنا الوقت. فقد سُمعت فجأة عدة أوامر متزامنة، وتلا ذلك مباشرة إطلاق نار من جانب العسكريين. انبطحنا أرضاً قرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت الذي على الجبل. وفي الغوضى الأتية، غاب عن نظري المصور رودريغيث الذي أسرع للبحث عن موضع استراتيجي لآلة تصويره. استمر إطلاق النار لوقت قصير، ولكنه كان كثيفاً جداً، ثم حل بعد ذلك صمت قاتل.

كنا قد رجعنا إلى الساحة، عندما رأينا دورية عسكرية تخرج من الغابة حاملة جسداً على نقالة. ولم يسمح لنا قائد الدورية الهانج بالتقاط الصور. بحثت بنظري عن رودريغيث، ورأيتَه يظهر على بعد خمسة أمتار إلى يميني، وآلة تصويره جاهزة لالتقاط صورة. لم تره الدورية. عندئذ عشتُ أشد اللحظات توتراً، موزعاً بين الشك في أن أصرخ به، طالباً منه عدم التقاط الصورة، خوفاً من أن يطلقوا عليه النار سهواً، وبين الغريزة المهنية لالتقاط الصورة، مهما كان الثمن. لم يتح لي الوقت للاختيار، فقد سُمعت في تلك اللحظة نفسها، صرخة قائد الدورية المذوية:

- ممنوع التقاط هذه الصورة.

أترل رودريغيث آلة التصوير ببطء، واقترب مني. مرّ موكب الجنود

على مقربة شديدة منا، أحسنا معها بوميض المرارة المنبعث من الأجساد، وبصمت الجسد الميت. ويعد أن مروا، همس رودريغيث في أذني:

- لقد التقطت الصورة.

وكان ذلك صحيحاً، لكن الصورة لم تنشر قط. وقد انتهت تلك الدعوة بكارثة. فقد كان هناك جريحان آخران بين الجنود، وقتل اثنان على الأقل من رجال حرب العصابات، سُحبت جثتهما إلى المخبأ. بذلك العقيد حالته المعنوية مبدأً ملامح الأسى. وأخبرنا ببساطة بأن الزيارة قد ألغيت، وأن لدينا نصف ساعة لتناول الغداء، ثم العودة بعد ذلك مباشرة، إلى ميلغار عبر الطريق البري، لأن طائرات الهيلوكبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشف عدد تلك الجثث وأولئك الجرحى قط.

لم يعد أحد إلى ذكر المؤثر الصحفي المقرر عقده مع الجنرال روخاس بيتيّا. مررنا أمام بيته في ميلغار، ونحن في سيارة جيب تتسع لستة أشخاص. ووصلنا إلى بوغوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير بكاملها بانتظارنا في قاعة المحررين. فقد اتصلوا بهم من مكتب الإعلام والصحافة التابع لرئاسة الجمهورية ليخبروهم، دون مزيد من التفاصيل، بأننا سنصل براً، لكنهم لم يحددوا إذا ما كنا سنصل أحياء أم ميتين.

كان تدخل الرقابة العسكرية الوحيد، حتى ذلك الحين، هو الذي جرى عند مقتل الطلاب في وسط بوغوتا. ولم يكن هناك رقيب في قاعة التحرير، بعد أن استقال آخر رقيب للحكومة السابقة وهو يكاد يبكي، عندما لم يعد قادراً على تحمل الأخبار الزائفة ومكابد المحررين

الساخرة. كنا نعرف أن مكتب الإعلام والصحافة لم يكن يغمض عينيه عنا، وكثيراً ما كانوا يرسلون إلينا عبر الهاتف، تحذيرات ونصائح أبوية. أما العسكريون الذين أشاعوا في بداية حكومتهم، مودة أكاديمية مع الصحافة، فتحولوا إلى غير مرثيين أو متكئين. ومع ذلك، فإن طرف خيط مفلت ظل ينمو وحيداً بصمت، وأشاع تأكيداً لم يُشبهه ولم يتفقه أحد قط، بأن زعيم بؤرة حرب العصابات تلك، في توليما هو شاب في الثانية والعشرين، حقق شهرة في ميدانه، وأن اسمه الذي لم يستطع أحد أن يتقسه أو يؤكد هو: ماتوبيل مارولاتدا فيليث أو بيدرو انطونيو مارين، الشهير بلقب "تيروفيوخو". بعد أربعين سنة من ذلك، عندما سئل مارولاتدا عن هذه المعلومة، في معسكره الحرّي، أجاب بأنه لا يتذكر في الواقع، إذا ما كان هو نفسه.

لم يكن يمكننا الحصول على خبر آخر. فكنت أحاول متلهفاً، أن أكتشفه منذ عودتي من بييارىكا، ولكنني لم أجد باباً يوصلني إليه. فقد كان مكتب الإعلام والصحافة الملحق برئاسة الجمهورية محظوراً علينا، بينما بقيت واقعة بييارىكا غير المسارة. تقع مدفونة تحت التكتّم العسكري، كنت أعقد آمالي على سلة المهملات، عندما ظهر خوسيه سالغار أمام متضدتي، متظاهراً ببرود أعصاب لم يملكه قط، وأبرز لي بريقة تلقاها للتو، وقال لي:

- ستجد هنا ما لم تره في بييارىكا.

لقد كانت مأساة حشد من الأطفال الذين انتزعتهم القوات المسلحة من قراهم وداكرهم، دون خطة مسبقة، ودون موارد لإعالمتهم، من أجل تسهيل حرب الإبادة ضد رجال حرب العصابات في توليما. لقد فصلوهم

عن آبائهم، دون أن يتاح الوقت لمعرفة أبناء من هم. ولم يكن كثيرون منهم يعرفون نطق أسمائهم. وقد بدأت المساة بتجميع حشد من ألف ومئتي يافع، اقتيدوا إلى قرى عديدة في من توليما، بعد زيارتنا لميلغار، وجرى إسكانهم كيفما اتفق، والتخلي عنهم بعد ذلك لرحمة الله. كان عدد الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم لاعتبارات لوجيسته محضنة، ووزعوا على عدة ملاجئ في أنحاء البلاد، يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، من مختلف الأعمار والظروف. ولم يكن بينهم سوى ثلاثين من أبناء الأب والأم، وبين هؤلاء، تويمان لم يرض على مولدهما سوى ثلاثة عشر يوماً. وقد جرت عملية جمع الأطفال بسرية مطلقة، في كنف الرقابة على الصحافة، إلى أن أرسل إلينا مراسل الإسيكناور، أول الإشارات من أمبالما التي تبعد منتي كيلومتر عن بيباريكا.

عشرنا، خلال أقل من ست ساعات، على ثلاثمئة قاصر تقل أعمارهم عن خمس سنوات، في ملجأ "حماية الأطفال" في بوغوتا. وكان كثيرون منهم مجهولي الهوية. وقد تمكن هيلي رودريغيث، وكان في الثانية من عمره، من النطق باسمه بصعوبة. لم يكن يعرف شيئاً عن أي شيء، ولا أين هو موجود، أو لماذا هو موجود هناك، ولم يكن يعرف اسمي أبويه، ولم يستطع تفسير أي إشارة تتبع العشور عليهما. عزاه الوحيد هو أن له الحق بالبقاء في الملجأ، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وكانت ميزانية الملجأ تتمثل بشمانين سنتافو شهرياً لكل طفل، تقدمها حكومة الإقليم المحلية. وكان عشرة من أولئك الأطفال قد هربوا خلال الأسبوع الأول، وفي نيتهم التسلل مجاناً إلى القطارات المتوجهة إلى توليما، ولم نعر لهم على أثر.

لقد أجري لكثيرين منهم تعميم إداري، فأطلقت عليهم أسماء وكنيات من تلك الشائعة في المنطقة، من أجل التمكن من تمييزهم، ولكنهم كانوا كثيرين، وشديدي التشابه والحركة، بحيث يصعب التمييز بينهم في باحة الاستراحة، ولا سيما في شهور البرد، عندما يكون عليهم تدفئة أجسادهم بالجرى في الممرات وعلى السلالم. وكان مستحيلاً ألا تدفعني تلك الزيارة المؤلمة إلى التساؤل إذا ما كانت جماعة حرب العصابات التي قتلت الجندي في المعركة، قد استطاعت أن تلحق كل ذلك الأذى بأطفال بيباريكا.

نُشرت قصة تلك العملية اللوجستية الحمقاء في عدة حلقات متتالية، دون استشارة أحد. احتفظت الرقابة بالصمت، ورد العسكريون بالتفسير الشائع: أحداث بيباريكا هي جزء من تحرك شيوعي واسع النطاق ضد حكومة القوات المسلحة. وهذه القوات مضطرة إلى التصرف باستخدام الوسائل الحربية. وكانت قراءة سطر واحد من ذلك البلاغ، كافية لأن تدفعني إلى التفكير في الحصول على معلومات مباشرة من غيلبيرتو فييرا، الأمين العام للحزب الشيوعي الذي لم أكن قد رأيته من قبل.

لستُ أتذكر إذا ما كنت قد قمت بالخطوة التالية، بتفويض من الجريدة، أم أنني فعلت ذلك بمبادرة خاصة مني. ولكنني أتذكر جيداً أنني قمت بمساع عديدة، غير مجدية، للتوصل إلى اتصال مع قيادي في الحزب الشيوعي السري، يمكنه أن يطلعني على الوضع في بيباريكا. كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني هي أن النظام العسكري كان يفرض حصاراً غير مسبوق على الشيوعيين السريين. عندئذ قمت

والأصلع، ذا العينين المحضراوين الحادتين، والكلمات الدقيقة، هو الرجل الذي تبحث عنه الأجهزة السرية في البلاد، أكثر من أي رجل آخر.

لاحظتُ منذ البداية، أنه كان مطلعاً على حياتي أولاً بأول، منذ أن اشترت الساعة في جريدة إنناسيونال في بارانكيّا. وكان يقرأ ريبورتاجاتي في الاسبينكتادور، ويتعرف على مقالاتي التي بلا توقيع، في محاولة لاستكشاف ما تخفيه بين السطور. ومع ذلك، فقد كنتُ متفقاً معه على أن أفضل خدمة يمكن لي، أن أقدمها إلى البلاد، هي في حفاظي على الخط الذي أمضي فيه، دون أن أتورط مع أحد، بأي نوع من الانتماء السياسي.

وما إن أتيت لي فرصة الكشف له عن سبب زيارتي، حتى دخل في الموضوع فوراً. لقد كان مطلعاً على الوضع في بيياريكّا. كما لو أنه موجود هناك، وهو الوضع الذي لم تستطع أن تنشر عنه سطرًا واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك، فقد قدم لي معطيات مهمة لفهم أن ذلك الوضع، ما هو إلا توطئة لحرب مزمنة، بعد قرن من المناوشات العابرة. وكانت مادة لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تتضمن من خورخي إيسار غايتان أكثر مما تتضمن من ماركس الذي يحتفظ به قرب وسادته، من أجل التوصل إلى حلّ لا يبدو أنه استيلاء البروليتاريا على السلطة، وإنما هو نوع من تحالف المنسيين البائسين ضد الطبقات المهيمنة. ولم يكن الجيد في تلك المقابلة هو توضيح ما كان يجري وحسب، وإنما التعرف على منهج لفهمه بصورة أفضل. وهكذا أوضحتُ الأمر لكل من غييرمو كاتو وثالامبا، وتركتُ الباب موارباً، على أمل أن أجد في أحد الأيام، نهاية ما لذلك الريبورتاج غير المكتمل. ولا حاجة إلى القول إنني

باتصالات مع صديق شيوعي. وبعد يومين من ذلك، ظهر أمام منضدتي بائع الساعات الذي كان يبحث عني ليقاضي مني الدفعات التي لم أتمكن من دفعها في بارانكيّا. دفعت له ما استطعت دفعه، وقلت دون مبالاة إنني بحاجة إلى التحدث، بصورة مستعجلة، مع أحد قادته الكبار؛ ولكنه ردّ عليّ بالصيغة المعروفة قائلاً إنه ليس الوسيلة لبلوغ ذلك، وليس بإمكانه أن يوصلني إلى من يمكنه تحقيق طلبي. غير أنني فوجئت في ذلك المساء، بالذات، ودون إنذار مسبق، بصوت متناغم وغير قلق، يقول لي على الهاتف:

- مرحباً غابرييل، أنا غيلبرتو فييرا.

وبالرغم من أنه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، إلا أن فييرا لم يكن قد تعرض، حتى ذلك الحين، للحظة واحدة من النفي أو السجن. ومع ذلك، وبالرغم من إمكانية أن يكون كلا الهاتفين مراقباً، فقد أعطاني عنوان بيته السري، لكي أزوره في ذلك المساء بالذات.

كان البيتُ شقةً مؤلفة من صالة صغيرة، مشرعة بكتب سياسية وأدبية، وغرفتي نوم في طابق سادس؛ حيث الأدراج شديدة الانتصاب ومظلمة، يصل المرء وقد فقد أنفاسه، ليس بسبب الارتفاع فقط، وإنما لبقينه بأنه يدخل إلى أحد أكثر الأماكن سرية في البلاد. كان فييرا يعيش مع زوجته سيسيليا، وابنة حديثة الولادة. ولأن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يُبقي مهد الطفلة في متناول يده، وبهزه هزاً خفيفاً كلما علا البكاء. خلال المعارضات الطويلة التي تخللت معادتنا، وهي محادثة سياسية وأدبية على السواء، ولكنها تخلو إلى حد كبير من حس السخرية. كان من المستحيل تصور أن ذلك الأريعيني المتورد

توصلت إلى علاقة صداقة جيدة مع فيبيرا، منسهل اتصالاتنا حتى في أشد أزمته سرية نسوة.

وفي أثناء ذلك، كانت تتفاهم، تحت السطح، مأساة أخرى لأناس بالغين، ما لبثت الأنبا، السينة أن كشفت النقاب عنها، في شباط ١٩٥٤، عندما نُشر في الصحافة أن محارباً سابقاً، ممن شاركوا في حرب كوريا، قد رهن أوسمته لكي يأكل. لقد كان واحداً فقط، من أكثر من أربعة آلاف جُندوا كيفما اتفق، في واحدة أخرى من لحظات تاريخنا غير المعقولة، عندما كان يمكن لأي مصير أن يكون أفضل من لا شيء.. في نظر الفلاحين الذين طردهم العنف الرسمي، بالرصاص، من أرضهم. لم تكن المدن المكتظة بالمبعدين عن قراهم، توفر أي بارقة أمل. لقد كانت كولومبيا، مثلما كان يتردد كل يوم تقريباً في التعليقات الافتتاحية، وفي الشوارع، والمقاهي، والأحاديث العائلية، جمهورية لا يمكن العيش فيها. فكانت الحرب الكورية في نظر الكثير من الفلاحين المبعدين، والعديد من الشبان الذين بلا أفق، هي الحل الفردي، وإليها ذهب خليط من كل نوع، دون أي تمييز محدد، اللهم إلا الحالة الجسدية، وهو ما يشبه، تقريباً، الظروف التي جاء بها الإسبان لاكتشاف أميركا. ولدى عودة أولئك المجددين إلى كولومبيا، قطرة قطرة، صار لتلك الجماعة غير المتجانسة، تسمية مشتركة في نهاية المطاف: "المحاربون القدامى". وكان يكفي أن يشتبك أحدهم في مشاجرة، حتى تقع جريرة سلوكة على الجميع. لقد أوصدت الأبواب في وجوههم، بالذريعة السهلة القائلة إنه لا حق لهم في العمل، لأنهم أصبح متزئنين عقلياً. ولم تكن هناك بالمقابل، دموع كافية لبكاء الكثيرين الذين رجعوا متحولين إلى ألفي رطل من الرماد.

خبر المحارب الذي رهن أوسمته، بدأ مناقضاً بصورة قاسية لخبر آخر، نُشر قبل عشرة شهور من ذلك، عندما رجعت آخر دفعة من أولئك المحاربين إلى البلاد، ومعهم قرابة مليون دولار نقداً، أدت لدى تحويلها في المصارف، إلى انخفاض قيمة الدولار، في كولومبيا، من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتافو إلى بيزوين اثنين وتسعين سنتافو. ومع ذلك، كانت سمعة المحاربين تتردى أكثر كلما ازدادت مواجهتهم لواقع البلاد. فقبل عودتهم، نُشرت قصص متنوعة عن أنهم سيتلقون منحة خاصة لتأهيلهم في مهنة منتجة، وأنهم سيحصلون على تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات تتيح لهم البقاء في الولايات المتحدة، والعيش فيها، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ فبعد قليل من عودتهم، جرى تسريحهم من الجيش، والشئ، الوحيد الذي تبقى في جيوب الكثيرين منهم، هو صور خطيباتهم اليابانيات اللواتي يقين ينتظرنهم في معسكرات اليابان، حيث كانوا يأخذونهم للاستراحة من الحرب.

كان من المستحيل ألا تذكّرني تلك المأساة الوطنية، بجدي الكولونيل ساركيز، في انتظاره الأبدى لتقاعده، كمحارب قديم. وتوصلت إلى التفكير في أن ذلك الإذلال، ما هو إلا عقوبة موجهة إلى كولونيل ناج من الحرب الدامية ضد هيمنة المحافظين، أما الناجون من حرب كوريا بالمقابل، فقد قاتلوا ضد قضية الشيوعية، ولمصلحة جشع الولايات المتحدة الإمبريالي. ومع ذلك، لم تكن أخبارهم تظهر، بعد عودتهم، في صفحة المجتمع، وإنما في صفحة الجرائم. لقد أقدم أحدهم على قتل شخصين برينين، بإطلاق الرصاص عليهما، وقد قال للقضاة: "لقد قتلت في كوريا مئة شخص، فلماذا لا يمكنني قتل عشرة في بوغوتا؟".

هذا الرجل، مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب، بعد أن جرى توقيع الهدنة. ومع ذلك، فإن كثيرين مثله كانوا ضحية حس الذكورة الكولومبي الذي تبدي في الظفر بقتل محارب سابق في كوريبا. فلم تكذب قضى ثلاث سنوات على عودة الدفعة الأولى منهم، حتى تجاوز عدد من لقي، من أولئك المحاربين، مصرعه بصورة عنيفة، اثني عشر شخصاً. وقد قُتل عدد منهم، لأسباب مختلفة، في مشاجرات تافهة بعد وقت قصير من عودتهم. فقد مات أحدهم مطعوناً في مشاجرة لأنه كرر الأغنية نفسها، عدة مرات، في صندوق الموسيقى في إحدى الحانات. أما الرقيب كانتور الذي شُرك اسمه بالفناء والعزف على الجيتار، في استراحات الحرب، فمات مقتولاً بالرصاص بعد أسابيع من عودته. ومات محارب آخر، طعناً بسكين أيضاً، في بوغوتا، وقد اضطر الجيران، من أجل دفنه، إلى جمع التبرعات فيما بينهم. والمحارب آنخل فايبو غوس الذي فقد عيناً وذراعاً في الحرب، قتل ثلاثة مجهولين، لم يُلق القبض عليهم قط.

أتذكر - كما لو أن ذلك حدث يوم أمس - أنني كنت أكتب القصة الأخير من سلسلة التحقيقات تلك عن المعارين القدماء، عندما رن الهاتف على مكتبي، وتعرفتُ فوراً، على صوت مارتينا فونسيكا المشرق.

- ألو؟

تركتُ المقال في منتصف الصفحة، بسبب طفرات قلبي، واجتزت الشارع لالتقي بها في فندق كونتيننتال، بعد اثنتي عشرة سنة دون رؤيتها. لم يكن من السهل التعرف عليها، من الباب، وهي بين النساء.

الأخريات اللواتي يتناولن الغداء في قاعة الطعام المزدهمة، لو لم تومن لي هي نفسها، بقفازاها. كانت ترتدي ملابسها بذوقها الشخصي المعهود: معطف من زمن سابق، ولرو ثعلب ذو إر على كتفها، وقبعة صياد. وقد بدأت السنون تُلاحظ بوضوح على بشرة الخوخ، المتأثرة بالشمس، والعينين المنطفنتين. وبدت متضائلة بأول ملامح شيخوخة جائرة. كان لا بد لكليتا أن يدرك أن اثنتي عشرة سنة ليست بالأمر القليل في مثل سنها، ولكننا تحملناها على أحسن وجه. لقد حاولتُ تتبع أثارها، خلال سنواتي الأولى في بارانكيا، إلى أن عرفت أنها تعيش في بنما، حيث صار قبطانها يعمل دليلاً لتوجيه السفن في القناة. ولم يكن تطرفي لهذه النقطة بدافع المفاخرة، وإنما الحجل.

أظن أنها كانت قد تناولت الغداء مع أحد تركها وحيدة، لتلتقي بي على انفراد. تناولنا ثلاثة فناجين قهوة قاتلة، ودخنا معاً نصف علبة سجائر ثقيلة، باحثين، بالتلمس، عن طريق لتبادل الحديث دون كلام، إلى أن تجرأت هي على سؤالي إذا ما كنت قد فكرتُ فيها يوماً. وعندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة: لم أنسها قط، إلا أن وداعها لي كان قاسياً، بحيث بدتُ طريقتي في الوجود، وكانت هي أكثر رحمة مني؛ - لا يمكنني أن أنس أبداً أنك كنتُ مثل ابن بالنسبة لي.

كانت قد قرأت مقالتي الصحفية، وقصصي القصيرة، وروايتي الوحيدة. وحدثتني عن كل ذلك بعهد نظر لا يخلو من فطنة وصرامة، ولا يمكن أن يكون الدافع إليه إلا الحب أو الحقد. أما أنا فلم أفعل شيئاً، مع ذلك، سوى تجنب أحابيل الحنين، بذلك الجين الحسيس الذي لا يقدر عليه غيرنا نحن الرجال. وعندما تمكنتُ أخيراً من تخفيف التوتر، تجرأت على

سؤالها عما إذا كانت قد أحببت الابن الذي كانت ترغب فيه. فقالت بسعادة:

- لقد وُلد، وهو ينهي الآن المرحلة الابتدائية.

فسألتهما بالسكينة التي تميز الغيرة:

- وهل هو أسود مثل أبيه؟

فلمجأت هي إلى حسن حسنها الدائم، وقالت: "هل أبيض مثل أمه.

أما أبوه فلم يكن من البيت، مثلما كنتُ أخشى. وإنما هو شخص أقرب إليّ." وحيال اختناقي الواضح، أكدت لي ظنوني، وهي تتسم قائلة:

- لا تقلق: إنه منه. وكذلك ابنتان متشابهتان، كما لو أنهما

واحدة.

أبدت سعادتها لمجيئي، واستوقفتني ببعض الذكريات التي لا

علاقة لي بها. وراودني غرور التفكير في أنها تنتظر مني رداً أكثر

حميمية. غير أنني، مثل كل الرجال، أخطأتُ أيضاً في الزمان والمكان.

نظرت إلى ساعة يدها، عندما طلبتُ القهوة، للمرة الرابعة، وغلبة سجانر

أخرى، ونهضت واقفة دون مقدمات.

- حسن يا صغيري، أشعر بالسعادة لأنني رأيتك. - قالت ذلك، ثم

أنهت كلامها: - لم أكن قادرة على تحميل قراءة كتاباتك دون أن أعرف

كيف صرت الآن.

فتجراتُ على سؤالها:

- وكيف أنا الآن؟

ضحكت من أعماق روحها:

- آه، لا! هذا لن تعرفه أبداً.

عندما استعدت أنفاسي قبالة الآلة الكاتبة فقط، انتهت إلى مدى

اللهافة التي كانت تسيطر عليّ دوماً لرؤيتها، وإلى الرعب الذي منعني

من البقاء معها طوال ما تبقى من حياتينا. إنه الرعب الباعث على

الكآبة نفسه الذي عدت إلى الإحساس به، مرات كثيرة، كلما رنَّ

الهاتف، منذ ذلك اليوم.

بدأ رأس سنة ١٩٥٥، بالنسبة للمصحفين، في الثامن والعشرين

من شباط، بخبر يقول إن ثمانية بحارة من المدمرة كالداس التابعة

للأسطول الوطني، قد سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم

يكن قد تبقى سوى أقل من ساعتين لوصول المدمرة إلى كارتاخينا.

وكانت قد أبحرت قبل أربعة أيام من موبيل، في ألاباما، بعد أن أمضت

عدة شهور هناك، من أجل إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة الشحيرير يكاملها تستمع بصمت إلى التقرير

الإذاعي الأول عن الكارثة، استدار جيرمو كانو، في كرسيه الدوار

باتجاهي، وبقي ينظر إليّ، وهو يوشك أن يصدر أمراً على طرف لسانه.

وتوقف خوسيه سالغار أيضاً، وهو في طريقه إلى المشغل، قبالي

بأعصاب صلبها الحبر. كنتُ قد رجعت قبل ساعة من ذلك من بارانكيا،

حيث أعددت تقريراً حول الدراما الأيدي في بوكاس دي تيبشاشا. وقد

بدأت أتأمل مرة أخرى عن الساعة التي تقلع بها الطائرة النالبة إلى

منطقة الساحل، لكي أكتب باكورة تحقيقاتي عن الغرقى الثمانية. ومع

ذلك، سرعان ما تبين، في التقرير الإذاعي، أن المدمرة ستصل إلى

كارتاخينا في الساعة الثالثة بعد الظهر، دون أي أخبار جديدة؛ ذلك

أنهم لم يتمكنوا من العثور على البحارة الثمانية الغرقى. فخاب أمل

جيرمو كانو، وقال:

- يا للخيبة يا غابو. لقد راحت علينا.

أخترت الكارثة إلى سلسلة من البيانات الرسمية، وأحيطت الأخبار بالتكريم الصارم للشهداء الذين سقطوا أثناء الخدمة، ولا شيء سوى ذلك. غير أن البحرية كشفت النقاب، في أواخر ذلك الأسبوع، عن أن واحداً منهم، ويدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو، قد وصل منهوكاً إلى شاطئ في منطقة أورابا، مصاباً بضربة شمس؛ ولكن بالإمكان إنقاذه. بعد أن أمضى عشرة أيام تتقاذفه الأمواج، بلا طعام ولا شراب، في طوف دون مجاديف. وقد اتفق رأينا جميعاً على أنه يمكن له أن يكون ريبورتاج السنة، إذا ما قبض لنا الاستفراء به، ولو لتصف ساعة.

لم يكن ذلك ممكناً. فقد أبقته البحرية معزولاً، دون اتصال، ريثما يستعيد عافيته، في مستشفى البحرية في كارتاخينا. وهناك التقى به، للحظات عابرة، محرر مآكر من جريدة إلتيمبو، هو أنطونيو مونتانيا الذي تسلم إلى المستشفى متنكراً كطبيب. ومع ذلك، وبالنظر إلى التناجج، فإنه لم يحصل من الناجي من الفرق إلا على بعض الرسوم، بقلم الرصاص، حول المكان الذي كان فيه عندما طوحت به العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، اتضح منها أن لديه أوامر بالآيروي حكايات. وقد صرح بيلاسكو بعد أيام من ذلك: "لو كنت أعرف أنه صحفي لساعدته". وبعد أن استعاد عافيته، وكان لا يزال في كنف البحرية، وافق على إجراء مقابلة مع لانيديس أوروثكو، مراسل الاسبيكتادور في كارتاخينا، الذي لم يستطع الوصول إلى ما نرغب في معرفته، عن كيف أمكن لهبة ريع أن تسبب مثل تلك الكارثة التي أدت إلى موت سبعة بحارة.

وبالفعل، كان لويس أليخاندرو بيلاسكو خاضعاً للالتزام حديدي، يمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوغوتا. وكان الملازم غيبيرمو فونسيكا يتولى الرّد، بتودد حميم ومتقن، على أي تساؤل تقني أو سياسي يخطر لنا، ولكنه كان يتجنب، بالتهذب نفسه، أية معلومات جوهرية حول الشيء الوحيد الذي كان يهمننا آنذاك: حقيقة تلك المغامرة. ومن أجل كسب الوقت فقط، كتبت سلسلة تعليقات عن أجواء عودة الناجي من الغرق إلى بيت أبويه، عندما معني رفاقه في الري، مرة أخرى، من التحدث إليه، بينما كانوا يسمحون له بمقابلة وحيدة مع إذاعة محلية، بدأ واضحاً عندئذ، أننا بين أيدي أساتذة في فنون تبريد الخبر. وهزنتي لأول مرة، فكرة أنهم يخفون عن الرأي العام شيئاً خطيراً بشأن الكارثة. وأنا أتذكر الآن ذلك اليوم، كما لو أنه نبوءة أكثر منه ارتياباً.

كان شهر آذار يعصف برياح جليدية، وكان رذاذ المطر المختلط بالغبار يزيد من شحنة إحساسي بتأنيب الضمير. وقبل أن أواجه قاعة التحرير، وأنا مشغل بالهزيمة، التجأت إلى فندق كوتيتينتال المجاور، وطلبت كأساً مضاعفة عند كورتوار البار المقفر. كنتُ أتناول الشراب في رشقات بطيئة، دون أن أخلع معظفي السميك، عندما سمعت صوتاً عذباً يقول في أذني تقريباً:

- من يشرب وحيداً يموت وحيداً.

- فليستجب الله لقولك يا جميلتي - أحببتها وروحي بين شفطي، مقتنعاً بأنها عاريتنا فونسيكا.

خلف الصوت في الهواء، أثر أزهار ناردين دافئة، ولكنها لم تكن

هي. رأيتها تخرج من الباب الدوار، وتختفي بظلتها الصفراء التي لا تُنسى، في الشوارع الملطخ برذاذ المطر الموحل. وبعد أن تناولت كأساً أخرى، اجتزت الشارع بدوري، ووصلت إلى قاعة التحرير في الجريدة، مستنداً إلى قوة الكأسين الأولين. رأيت غيبرمو كانوا، وأنا أدخل، فأطلق صرخة بهجة موجهة إلى الجميع:

- فلتر أي خير يحمله إلينا غابو العظيم!

فأجبتة بالحقيقة:

- لا شيء أكثر من سمكة ميتة.

وانتهبت، عندئذ، إلى أن دعابات المحررين القاسية، قد تحولت إلى التودد، عندما رأوني أمر بصمت وأنا أخرج معظفي المبلل. ولم يطاوع قلب أحد منهم البدء بالسخرية المعهودة.

واصل لويس ألبخاندرو بيلاسكو التمتع بأمجاده المقموعة. فلم يسمح له موجهوه بالانغماس في كل أنواع الضلال الدعائي فقط، بل وفروا له الرعاية في ذلك. فقد تلقى خمسمئة دولار وساعة جديدة، مقابل تحدّثه في الإذاعة عن حقيقة تحمّل ساعة معصمه قسوة الأحوال الجوية العاتية. ودفع له مصنع للأحذية الرياضية، ألف دولار لكي يتحدث عن متانة حدائه الذي لم يستطع تزيقه ليلهي جوعه بمضغ قطعة منه. وكان يلقي في أحد الاحتفالات، خطبة وطنية، ويسمح لملكة جمال بأن تقبله، ويُعرض على الأيتام، باعتباره نموذجاً ومثالاً للأخلاق الوطنية. وكنت قد بدأت بنسيانه في اليوم التاريخي الذي أخبرني فيه غيبرمو كانوا بأنه موجود في مكتبه، وأنه مستعد لتوقيع عقد لكي يروي مغامرته كاملة. أحسست بالملذلة والإهانة، وقلت بأصرار:

- لم بعد الآن سمكة ميتة، وإنما متعفنة.

ورفضت، لأول مرة، القيام بعمل للمصحفة، وهو من صلب واجبي. استسلم غيبرمو كانوا للواقع، وصرف التاجي من الفرق دون أي تفسير. وقد أخبرني فيما بعد، بأنه بعد أن ودعه في مكتبه، بدأ يفكر في الأمر. ولم يستطع أن يفسر لنفسه ما الذي فعله. عندئذ أمر البواب بأن يعيد إليه التاجي من الفرق. ثم اتصل بي هاتفياً لتبليغي، بقرار لا يقبل الاستئناف، بأنه قد اشترى الحقوق المحصورة للقصة الكاملة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي يصر فيها غيبرمو على قضية خاسرة تنتهي في آخر الأمر، إلى إظهار أنه على حق. نهسته بضيق، ولكن بأفضل أسلوب ممكن، إلى أنني سأعجز الريبورتاج، انصياعاً لواجبي في العمل فقط، ولكنني لن أوقعه باسمي. ودون أن أكون قد فكرت في الأمر، خرج مني ذلك القرار بصورة تلقائية عارضة، ولكنه كان صائباً من أجل الريبورتاج؛ إذ إنه يضطرني إلى رواية القصة على لسان المتكلم البطل، بأسلوبه الخاص وأفكاره الشخصية، وتوقيع الريبورتاج باسمه، هذا يعني أن التحقيق الصحفي سيكون منولوجاً داخلياً عن مغامرة فردية، بكل معنى الكلمة، مثلما جرت في الحياة. لقد كان قراراً إعجازياً، إذ تكشف بيلاسكو عن رجل ذكي، ذي حساسية وتهذب لا يُنسيان، ويتمتع بحس سخرية في الوقت والمكان المناسبين. وكل هذا خاضع، لحسن الحظ، لشخصية متماسكة بلا شروخ.

كانت المفاولة طويلة، دقيقة، استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة. وقد أجريتها وأنا أعرف أنها لن تُنشر كمادة خام، وإنما ستطهى في قدر

ثانية: قدر الريبورتاج الصحفي. بدأتها بقليل من سوء النية، محاولاً دفع الناجي من الغرق إلى الوقوع في تناقض، لكي أكتشف حقائقه المستترة. ولكنني سرعان ما تأكدت من أنه ليس لديه ما هو مستتر. لم أضطر إلى الضغط عليه. وبدا لي الأمر كما لو أنني أتمشى في مرج من الزهور، مع تمنعي بطلق الحرية في اختيار ما أفضله منها. كان بيلاسكو دقيقاً في المجيء إلى موعد اللقاء، الساعة الثالثة مساءً، في مكنتي في قسم التحرير؛ فراجع معاً الملاحظات السابقة، ونواصل تتبع خيط الأحداث وفق تسلسلها الزمني. وكل فصل يروي لي، أقوم أنا بكتابته في الليل، وينشر في مساء اليوم التالي. لقد كان من الأسهل والأضمن، كتابة المغامرة بكاملها أولاً، ثم نشرها بعد ذلك، منقحة، بكل تفاصيلها الموثقة تماماً. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. فقد كان الموضوع يفقد أنيته في كل لحظة، ويمكن لأي خبير صاحب آخر أن يقوضه.

لم تكن نستخدم آلة تسجيل، لأن آلات التسجيل كانت قد اخترعت حديثاً. والجيدة منها كبيرة الحجم وثقيلة كأنها آلة كاتبة، وشريطها المغنط يشابه مثل حلوى "عزل البنات". وكان تفريغ التسجيل بعد ذاته مأثرة. وبالرغم من أننا نعرف اليوم أن آلات التسجيل مفيدة جداً للتذكر، إلا أنه يجب عدم التخلي أبداً عن الاهتمام بلامع وجه من تقابله؛ إذ يمكن لها أن تعبر أكثر من الصوت بكثير، والعكس بالعكس أحياناً. كان عليّ أن أكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي. ولكنني بفضل هذا الأسلوب، لم أضيع، على ما أعتقد، كلمة واحدة، ولا أي نبرة من المحادثة. واستطعت

التعمق بصورة أفضل في كل خطوة. لقد واجهنا صعوبة في البروين الأولين، لأن الناجي من الغرق أراد أن يروي كل الأشياء معاً. ومع ذلك، فقد تعلم بسرعة كبيرة، من خلال ترتيب أسئلتي ومداهها، وكذلك من غريزته الخاصة كراوي، ومن السهولة الفظيرة التي يتمتع بها في فهم حرفية المهنة.

ولكي نهين القارئ، قبل أن نلقي به إلى الماء، قررنا بدء القصة من الأيام الأخيرة التي أمضاها البحار في موبيل. كما اتفقنا كذلك، على ألا نهي القصة عند لحظة بلوغه اليابسة، وإنما عند وصوله إلى كارتاخينا، وسط هتافات الحشود، وهي النقطة التي يمكن للقراء منها، متابعة خيط القصة التالي بأنفسهم. من خلال المعلومات المنشورة مسبقاً. وكان ذلك يتيح لنا كتابة أربعة عشر فصلاً للحفاظ على التشويق طوال أسبوعين.

نُشر الفصل الأول في الخامس من نيسان ١٩٥٥. وقد نفذت طبعة الاسبيكتادور، وكان قد أعلن عنها في الإذاعة، خلال ساعات قليلة. وفي اليوم الثالث، طُرحت العقدة المتفجرة، عندما قررنا كشف السبب الحقيقي للكارثة، بعد أن كانت الرواية الرسمية تدعي أنه عاصفة. ففي أثناء بحثي عن تفاصيل محددة وأكثر دقة، طلبت من بيلاسكو أن يروي ما جرى بكل تفاصيله. وكان قد تألف عندئذ مع منهجنا المشترك، فلمحت في عيته وميض خبث قبل أن يجيبني:

- المشكلة هي أنه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث - قال محمداً - هو عشرون ساعة من الرياح القوية. وهي رياح معروفة في المنطقة، خلال تلك الفترة من السنة. ولكن المسؤولين

عن الرحلة لم يأخذوها في الاعتبار. كان البحارة قد تلقوا روايتب عدة شهور متأخرة قبل الإبحار، فأنفقوها في آخر لحظة، بشراء كل أنواع الأجهزة المنزلية، لحملها إلى بيوتهم. وكان الأمر مرجحاً إلى حدّ أن أحداً لم يعترض عندما تجاوزت الحمولة الأماكـن الداخلية الشاغرة في السفينة، وربطوا على السطح الصناديق الكبيرة: ثلاثات، غسلات كهربائية، مدافئ. وهي حمولة ممنوعة في سفينة حربية، وفي أماكن شغلت مساحات حيوية من السطح. ربما جرى التفكير في أنه يجب عدم التعامل بصرامة مبالغ فيها، ما دامت الرحلة ليست ذات طابع رسمي، ومدتها أقل من أربعة أيام، ووسط تنبؤات جوية متشازة. كم من المرات فعلوا مثل ذلك، وما زالوا يفعلونه دون أن يحدث أي شيء؛ وكان سوء حظ الجميع هو أن رياحاً أقوى قليلاً من التنبؤات، حركت البحر تحت شمس رائعة، فأمالت السفينة أكثر مما هو متوقع بكثير، وتقطعت أحرمة تثبيت الحمولة سيئة التوضيب، ولو لم تكن السفينة متينة مثلما هي "كالداس"، لغاصت بكاملها إلى الأعماق دون رحمة، ولكن ثمانية من بحارة الحراسة على السطح، سقطوا عن الحافة، وهكذا فإن السبب الرئيسي للحادث، لم يكن عاصفة، مثلما أصرت المصادر الرسمية منذ اليوم الأول، بل ما صرح به بيلاسكو في ريبورتاجه: الحمولة الزائدة من الأجهزة المنزلية سيئة التوضيب، على سطح سفينة حربية.

كان هناك أمر آخر احتفظ به تحت الطاولة، ألا وهو نوع الأطواف التي كانت في متناول يد من سقطوا في البحر، الذين لم ينبج منهم سوى بيلاسكو. من المفروض أن يكون في السفينة نوعان من الأطواف النظامية، وأن تكون قد سقطت معهم. أطواف من الفلين وقماش الحيايم،

طول الواحد منها متران، وعرضه متر ونصف، في منتصفه سطح آمن ومزود بمؤونة، وماء للشرب، ومجاديف، وعلية إسعافات أولية، وأدوات صيد وملاحة، ونسخة من الكتاب المقدس. ويمكن في هذه الحالة لعشرة أشخاص البقاء على متنها طوال ثمانية أيام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك، فقد كان على متن السفينة "كالداس"، فوق ذلك، حمولة من الأطواف الصغرى، غير المزودة بأي مؤونة. وقد تبين من خلال أحاديث بيلاسكو أن طوفه كان خالياً من أية وسائل أو مؤن. والسؤال الذي بقي دون جواب إلى الأبد، هو كم من الغرقى تمكنتوا من الإمساك بأطواف أخرى لم توصلهم إلى أي مكان.

لقد كانت هذه هي، دون شك، الأسباب الأكثر أهمية التي أخرجت التوضيحات الرسمية لحادثة الفرق، إلى أن تبينوا أنه لا بد من تقديم توضيح، لأن بقية أفراد طاقم السفينة صاروا في بيوتهم. وهم يروون القصة في كل أنحاء البلاد. أصرت الحكومة حتى النهاية، على روايتها عن العاصفة، وأضفت عليها طابعاً رسمياً في تصريحات حاسمة، تضمنها بيان رسمي. لم يبلغ الأمر بالرقابة، حدّ حظر نشر الفصول المتبقية. وقد حافظ بيلاسكو من جانبه، إلى المدى الذي استطاعه، على غموض موال. ولم يُعرف قط إذا ما كانوا قد ضغطوا عليه كيلا يكشف الحقائق. كما أنه لم يطلب منا ولم يمنعنا من الكشف عنها.

بعد الفصل الخامس، جرى التفكير في إصدار طبعة إضافية للفصول الأربعة الأولى، استجابة لطلب القراء الراغبين في جمع فصول القصة كاملة. أما دون غابرييل كاتو الذي لم نكن قد رأيناه في قاعة التحرير، خلال أيام العمل المحموم تلك، فقد نزل من عش حمامته، وجاء مباشرة إلى حيث متحدثي ليسانتي:

- قل لي يا سمبي: من كم فصل ستكون قصة الغريق؟
كنا قد وصلنا إلى الحديث عن اليوم السابع، عندما أكل بيلاسكو بطاقة تعريف كان يحملها، لأنها الطعام الوحيد المتوفر له، ولم يستطع تمزيق حذائه بأسنانه ليحصل على شيء يمضغه. أي أن ما تبقى لنا هو سبعة فصول أخرى، فاستنكر دون غابرييل ذلك، وقال بتشنج:
- لا يا سمبي، لا. يجب أن تكون القصة من خمسين فصلاً على الأقل.

قدمتُ إليه حججي، لكن حججه كانت تستند إلى أن مبيعات الجريدة على وشك أن تتضاعف. ويمكن لها حسب تقديراته أن تبلغ رقماً لا سابق له في الصحافة المحلية. ارجل اجتماعاً لهيئة التحرير، ودُرست التفاصيل الاقتصادية، والفنية، والصحافية، وتم الاتفاق على حد معقول من عشرين فصلاً، أي بإضافة ستة فصول إلى ما كان مقرراً.
على الرغم من أن توقيعني لم يكن يرد في الفصول المطبوعة، إلا أن منهج العمل المتبع كان قد شاع وانتشر. وفي إحدى الليالي، حين ذهبت لإيجاز واجبي كناقد سينمائي، جرت في بهو صالة السينما مناقشة حامية حول قصة الناجي من الغرق. وكان معظم المتحاورين أصدقاءً من أبتادول وإياهم الرأي من أجل مقالتي النقدي السينمائي، بعد العروض السينمائية. كانت آراؤهم تساعدني في توضيح آرائني من أجل مقالتي النقدية الأسبوعية. وبالنسبة لقصة الغريق، كانت هناك رغبة عامة - مع استثناءات قليلة جداً - في إطالة القصة أكثر مما يمكن. وأحد تلك الاستثناءات كان رجلاً ناضجاً ومهيباً، يرتدي معطفاً بديعاً من وبر الجمال، ويعتصر قبة من اللبد، لحق بي حوالي أربع

كوادرات من المسرح، بينما أنا راجع بمفردي إلى الجريدة. كانت ترافقه امرأة باهرة الجمال، ترتدي ملابس لا تقل بذخاً عن ملابسه، ومعهما صديق أقل منهما تأقماً. خلع قبعته لبحييني، وقدم نفسه باسم لم ألتقطه منه. ثم قال لي، دون مواربة، إنه لا يستطيع أن يوافق على الريبورتاج عن الغريق، لأنه مملأه مكشوفة للشيعوية، فأوضحت له دون كبير مبالغة، أنني لستُ سوى ناقل القصة التي برويها بطلها نفسه. ولكن كانت لدى الرجل أفكاره الخاصة. وكان يرى أن بيلاسكو ليس سوى متسلل إلى القوات المسلحة، لخدمة الاتحاد السوفييتي. خمنتُ عندئذُ بأنني أتحدث مع ضابط كبير من الجيش أو البحرية، واستشارتني فكرة الحصول على توضيح منه. ولكنه كان يريد، كما يبدو، أن يقول لي ذلك وحسب. وقد أضاف:

- أنا لا أعرف إذا ما كنتُ تفعل هذا، بوغي أم دون وعي، ولكن مهما يكن الأمر، فإنك تسيء إلى البلاد، لمصلحة الشيوعيين.
أوسات زوجته المبهرة إيماءة ذعر، وحاولت اقتياده من ذراعه، متوسلة بصوت خافت جداً: "أرجوك يا روخيليو"، فأنهى هو كلامه بالتهذب نفسه الذي بدأ به:
- أرجوك أن تصدق بأنني أسمح لنفسني بقول هذا، تقديراً مني لكتابتك.

كانت تلك أول حادثة من سلسلة حوادث دفعتنا إلى التفكير، جديداً، بأخطار الشارع. ففي حانة بانسة ورا، مكاتب الجريدة، يرتادها حتى الفجر، عمال من الحي، حاول شخصان مجهولان قبل يومين من ذلك، الاعتداء دون سبب، على غوثالو غوثالث حين كان يتناول هناك

فنجان قهوته الأخير، في تلك الليلة. لم يستطع أحد أن يتصور الأسباب التي دفعتهما إلى التهجيم على الرجل المسالم أكثر من كل الرجال المسالمين في العالم، إلا كونهم أخطؤوا به معتقدين أنه أنا، بسبب تشابه أسلوبنا ومظهرنا الكاربيبي، وتكرر حرف الـ "غ" في اسمه المستعار "غوغ". وقد نبهني أمن الصحيفة على أي حال، إلى أنه عليّ عدم الخروج وحيداً في الليل، في مدينة كانت تصيح أكثر فأكثر خطراً. غير أنني، على خلاف ذلك، كنتُ أجد طمأنينة في الذهاب ماشياً إلى شقتي، بعد انتهاء عملي في الجريدة.

في فجر أحد أيام التوتر تلك، أحسست بأن ساعتني قد أزفت حين تساقط فتات زجاج سببته طوبة ألقيت من الشارع، على نافذة غرفة نومي. كان الفاعل هو أليخاندر أوبريغون، فقد أضاع مفاتيح بيته، ولم يجد أصدقاء مستبقيين أو مكاناً شاغراً في أي فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان يتام فيه، ومن قرع جرس شقتي المعطل، حلّ أمر ليلته تلك بقطعة أجر من ورشة البناء المجاورة. وعندما فتحت له الباب، اكتفى بتوجيه تحية سريعة إليّ، كيلاً يوقظني تماماً، ثم استلقى على الأرض العارية لينام حتى الظهيرة.

كان الازدحام لشراء الجريدة، عند أبواب الاسبيكتادور، قبل أن تخرج إلى الشارع، يتزايد أكثر فأكثر. وكان الموظفون في مركز المدينة التجاري يتأخرون، في الذهاب إلى بيوتهم، بعد خروجهم من العمل، لكي يشتروا الجريدة ويقرؤوا الفصل اليومي في الحافلات. وأظن أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، واستمر لأسباب أدبية، ثم لاعتبارات سياسية في النهاية. ولكنه كان يستند على الدوام، إلى زخم القصة

الداخلي. لقد روى لي بيلاسكو مقاطع راودني الشك في أنه اختلقها، وعشر على معان رمزية أو عاطفية لبعض الوقائع، كما هو شأن طائر النورس الأول الذي لم يشأ الابتعاد عنه. وكانت واقعة الطائرات التي راح يحصنها، ذات جمال سينمائي خالص. لقد سألتني أحد الأصدقاء كيف أمكن لي أن أعرف عالم البحر، بكل تلك الدقة، فأجبت بأنني لم افعل أكثر من استنساخ ملاحظات بيلاسكو حرفياً. وابتداءً من نقطة معينة، لم أعد مضطراً إلى إضافة شيء. لما يرويه.

قيادة البحرية لم تكن تتمتع بالمزاج نفسه، فقبل قليل من انتهاء الحلقات، وجهت إلى الصحيفة رسالة احتجاج، لأنها تعاملت بشيء من المتوسطية، وبصورة قليلة التهذب، مع مأساة يمكن لها أن تحدث في أي مكان تعمل فيه وحدات بحرية. وجاء في الرسالة: "على الرغم من الهداد والحزن اللذين يلقآن سبعة بيوت كولومبية، ورجال الأسطول كلهم، لم تتورع الجريدة عن التمادي إلى حد نشر قصة سلسلة لكتاب ميندين في الموضوع، تغص بكلمات ومصطلحات تخلو من الدقة التقنية والمنطقية، وتوضع على لسان البحار المحفوظ والمدير الذي استطاع إتقان حياته بشجاعة" ولهذا السبب طالبت قيادة الأسطول بتدخل مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، لكي يوقف - بمساعدة ضابط بحري - ما يُنشر عن الحادث في المستقبل. ولحسن الحظ أننا كنا قد وصلنا، عند تلقي الرسالة، إلى الفصل ما قبل الأخير، فتظاهرتنا بعدم معرفتنا بأمرها حتى الأسبوع التالي.

وحتى لإمكانية نشر النص كاملاً بصورة نهائية، كنا قد طلبنا من الناجي من الغرق أن يساعدنا بتقديم قائمة من الصور التي التقطها

خلال الرحلة. كانت هناك صور من كل نوع، ولكن معظمها لجماعات على سطح السفينة، وفي خلفيتها تظهر صناديق الأدوات المنزلية - ثلاجات، مدفئ، غسالات - وعليها ماركة الشركات الصانعة بصورة واضحة. فكانت ضربة الحظ هذه كافية لتكذيب التكتيبيات الرسمية. كان رد فعل الحكومة فورياً وحاسماً، وقد تجاوز توزيع الملحق كل التوقعات، وكل الطبعات السابقة. غير أنه لم يورق غيرممو كانوا وخرسيه سلغار، المتبعين، سوى سؤال واحد:

- والآن، أي لعنة يمكننا عملها؟

في لحظة دوار المجد تلك، لم يكن لدينا جواب على التساؤل. فكل الموضوعات بدت لنا تافهة.

بعد خمس عشرة سنة من نشر القصة في الاسبيكتادور، قامت دار نشر تونسيكتيس في برشلونة بإصدارها في كتاب ذي غلاف مُذهب، بيع كما لو أنه صادة للأكل. ويوحى من إحساسي بالعدالة، وتقديراً مني للبحار البطل، كتبتُ في نهاية المقدمة: "هناك كتب ليست لمن يكتبها، وإنما هي لمن يعانيتها. وهذا الكتاب هو واحد منها. وبالتالي فإن حقوق المؤلف ستكون لمن يستحقهما: مواطني المجهول الذي كان عليه أن يعاني على طوف، طوال عشرة أيام، دون أن يأكل أو يشرب، لكي يكون هذا الكتاب ممكناً".

لم تكن عبارة في الفراغ، إذ قامت دار النشر تونسيكتيس، ويتوجيه مني، بدفع حقوق الكتاب كاملة إلى لويس أليخاندر بيلاسكو، طوال ثلاث عشرة سنة، إلى أن أقنعه المحامي غيرممو ثيا فيرنانديث، في بوغوتا، بأن حقوق المؤلف هي من حقه قانونياً، مع أنها لم تكن كذلك، إلا بقرار مني، تقديراً لبطولته، وموهبته في السرد، وصداقته.

رُفعت الدعوى ضدي في محكمة الجزاء المدنية الثانية والعشرين، في دائرة بوغوتا القضائية. عندئذ أصدر محامي وصديقي ألفونسو غوميث مينديث الأمر إلى دار نشر تونسيكتيس، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدمة في الطبعات التالية، وعدم دفع سنتافو واحد من حقوق المؤلف إلى خوسيه أليخاندر بيلاسكو، إلى أن يحسم العدالة الأمر. وكان هذا منا حدث، فبعد مداولات طويلة، تضمنت أدلة وثائقية، وتقنية، وشهادات، قررت المحكمة أن مؤلف العمل الوحيد هو أنا، ولم تستجب للدعوى التي رفعها محامي بيلاسكو. وبالتالي، لم تعتبر الدفعات التي تقاضاها حتى ذلك الحين، يتنازل مني، دليلاً على الاعتراف بالبحار كمؤلف مشارك، وإنما نتيجة قرار إرادي وحر من كتب الكتاب. وهكذا تحولت حقوق المؤلف، منذ ذلك الحين، ويتنازل مني أيضاً، كتحريم إلى مؤسسة تعليمية.

لم يكن بإمكاننا العشور على قصة مثل تلك، لأنها لم تكن من القصص التي يمكن اختلاقتها على الورق. فالحياة هي التي تخلقها، وبصورة مفاجئة على الدوام. لقد أدركنا ذلك في ما بعد، عندما حاولنا كتابة سيرة حياة الدراج العظيم رامون هويوس. وكان قد توج في تلك السنة، بطلاً وطنياً للمرة الثالثة. أطلقنا الريبورتاج بضجة دعائية كنتك التي تعلمناها من ريبورتاج البحار، وأطلقناه حتى تسعة عشر فصلاً، قبل أن ننتبه إلى أن الجمهور يفضل رؤية رامون هويوس يصعد جبلاً ويصل قبل غيره، إلى خط النهاية، ولكن في الحياة الواقعية.

وقد لمحنا بارقة أمل ضئيلة في مساء أحد الأيام، عندما اتصل بي سلغار، هاتفياً، لكي أذهب للقاء به فوراً في بار فندق كونتينينثال.

وقد وجدته هناك، ومعه صديق قديم وجدي، كان قد انتهى للتو من تعريفه على مرافقه، وهو أمهق بالكامل، ويرتدي ملابس عامل. لشعره وحاجبيه لون شديد البياض إلى حد يبدو معه مبهراً، حتى في عتمة البار الخفيفة. وقد قدمه صديق سلغار، وهو رجل أعمال معروف، على أنه مهندس مناجم، يقوم بحفريات تنقيب في أرض خلأ، على بعد مئتي متر عن الاسبيكتادور. بحثاً عن كنز خرافي كان يملكه الجنرال سيمون بوليفار. وأكد لنا مرافقه - وهو صديق مقرب من سلغار، مثلما صار صديقاً لي منذ ذلك الحين - صحة القصة. لقد كانت القصة مريبة بسبب بساطتها؛ عندما كان بطل التحرير يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة من كارتاخينا، مهزوماً ومحتضراً، يفترض أنه فضل ألا يحمل معه كنزه الشخصي الضخم الذي جمعه في عوز حروبه، كاحتياط يستحقه من أجل شيخوخة لائقة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته المريرة - ولم يُعرف قط إذا ما كان يريد الذهاب إلى كاراكاس أم إلى أوروبا - تعمد ترك ذلك الكنز مخبأ في بوغوتا، تحت حماية نظام رموز الشعوذة واسعة الشبوع في زمنه؛ لكي يجده عندما يحتاج إليه، ومن أي مكان في العالم. لقد تذكرت هذه الأخبار بملهفة لا تُقاوم، بينما أنا أكتب 'الجنرال في مشاهته'، حيث يمكن لقصة الكنز أن تكون أساسية؛ ولكنني لم أتوصل إلى ما يكفي من المعلومات لكي أجعلها قابلة للتصديق، وبدت لي بالمقابل أنها هشّة في التخيل الروائي. وكانت تلك الثروة الخرافية التي لم يستعدها صاحبها، هي ما يبحث عنه الباحث جعداً وصبر. لم أدر لماذا كشفنا ذلك السر، إلى أن أوضح لي سلغار بأن صديقه المتأثر جداً بقصة الغريق، أراد أن يقدم لنا الحيشيات والمقدمات،

لكي نواصل عملية البحث يوماً بيوم، إلى أن يصبح نشرها ممكناً مثل ذلك الانتشار.

ذهبنا إلى قطعة الأرض المعنية. وكانت الأرض الخلاء الوحيدة إلى الغرب من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة. وقد شرح لنا الصديق، على خريطة من العهد الاستعماري، إحدائيات الكنز بتفاصيل حقيقية في رابتي مونتيسرات وغوادالوبي. لقد كانت القصة فانتة، وجائزتها ستكون خبيراً متفجراً مثل خبير الناجي من الغرق، وبانتشار عالمي أوسع.

واصلنا زيارة المكان بين حين وآخر، لكي نسقي مقلعين على ما يحدث. وكنا نستمع إلى المهندس طوال ساعات لانهائية، ونحن نتناول الخمر المزوج بالليمون، ونشعر في مرة بأننا نبتعد أكثر فأكثر عن المعجزة، إلى أن مرَّ وقت طويل، لم يبق معه لدينا حتى مجرد الحلم، والارتباب الوحيد الذي خامرنا في ما بعد، هو أن قصة الكنز ليست سوى ستارة لاستغلال منجم مادة ثمينة ما، في وسط العاصمة، وربما تكون هذه الشكوك نفسها مجرد ستارة أخرى أيضاً، للحفاظ على سرية كنز يطل التحير.

لم تكن تلك هي أفضل الأوقات للحلم. فقد نصحوني، منذ قصة الغريق، بأن أذهب إلى خارج كولومبيا لبعض الوقت، ريثما يهدأ الوضع بسبب التهديدات بالموت، الحقيقية أو المتخيلة، التي كانت تصلنا عبر وسائل متعددة. وكان هذا هو أول ما فكرت فيه عندما سألتني لويس غابرييل كاتو، دون مقدمات، عما أنوي عمله يوم الأربعاء القادم. وبما أنه لم يكن لدي أي مشروع محدد، فقد طلب مني بفتورده المعهد، أن

أهين أوراقي من أجل السفر، كمبعوث خاص من الجريدة، إلى مؤتمر الأربعة الكبار الذين سيجمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول ما فعلته هو الاتصال، هاتفياً، بأمي.. بدا لها الحبر عظيمًا، حتى إنها سألتني إذا ما كنت أعني مزرعة ما تسمى "جنيف". فقلت لها: "إنها مدينة سويسرية". ودون أن تبدي تأثراً، بهدونها غير المحدود في استيعاب شطط أبنائها الذي لا يخطر على بال، سألتني إلى متى سأبقى هناك. فأجبتها بأنني سأعود بعد أسبوعين على أبعد تقدير. الحقيقة أنني كنت ذاهباً لأربعة أيام، هي المدة التي سيستغرقها الاجتماع، ومع ذلك، ولأسباب لا علاقة لها بإرادتي، لم أتأخر أسبوعين، وإنما قرابة ثلاث سنوات. وعندئذ صرت أنا هو من يحتاج إلى زورق تجديد صغير، ولو من أجل التمكن من الأكل مرة واحدة. ولكنني توخيت عدم إشعار أسرتي بذلك. لقد حاول أحد أصدقائي في إحدى المناسبات، أن يستشير أُمي من خيانة ابنها الذي يعيش مثل أمير في باريس. بعد أن خدعها بالقول إنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين. فقالت له بائسامة بريئة:

- غابيتو لا يخدع أحداً. وكل ما في الأمر أن الرب نفسه يضطر أحياناً إلى جعل الأسابيع سنين.

لم أكن قد أحسست قط، بأنني شخص مجهول الهوية، بصورة بالغة الواقعية، مثل ملايين المهجرّين بفعل العنف. لم أكن قد شاركت بالتصويت في أي انتخابات، لأنني لا أملك بطاقة الهوية الشخصية. ففي بارثكيا، كنتُ أثبت شخصيتي ببطاقتي كمحرر في جريدة الهيرالدو، وكان تاريخ ميلادي فيها مزوراً، لكي أتهرب من الخدمة

العسكرية التي تخلّفت عنها منذ عدة سنوات. وكنت أثبت شخصيتي في حالات الطوارئ، ببطاقة بريد قدمتها إليّ موظفة التلغراف في ثيباكيرا. وضعني صديق وفرته العناية الإلهية، على اتصال بمعقب معاملات في إحدى وكالات السفر، ووعد بأن يمكنني من الصعود إلى الطائرة في الموعد المحدد، على أن أدفع مقدماً مبلغ مني دولار، وأن أضع توقيعِي في ذيل عشر أوراق بيضاء مختومة. وهكذا عرفت، بالمصادفة، أن حسابي المصرفي قد بلغ رقماً مفاجئاً، لأنني لم أكن أجد الوقت للإلتاق، بسبب انشغالي في كتابة التحقيقات الصحفية. وكانت النفقات الوحيدة، فضلاً عن حاجاتي الشخصية التي لا تتجاوز نفقات طالب فقير، تقتصر على الدفعات الشهرية التي أرسلها كزورق نجاة صغير للأسرة.

عشية السفر، ردد معقب معاملات وكالة السفر، أمامي، اسم كل وثيقة وهو يضعها فوق المكتب، لكيلا أخلط بينها: بطاقة الهوية الشخصية، دفتر الخدمة العسكرية، إيصالات براءة الذمة من مكتب الضرائب، ووثائق اللقاح ضد الجدري والحمى الصفراء. وطلب مني أخيراً، إكرامية خاصة لفتي هزيل أعطي له اللقاحان باسمي. مثلما كان يجري يومياً، منذ سنوات، تلقيح الزبائن المستعجلين.

سافرت إلى جنيف في الوقت المحدد لافتتاح مؤتمر إيزنهاور، وبولغانين، وإيدين، وفاور، دون معرفتي لأي لغة أخرى سوى الإسبانية، وبدقة مالية من الجريدة تكفي للإقامة في فندق من الدرجة الثالثة. غير أنني كنتُ أستند جيداً إلى حسابي المصرفي الاحتياطي. كان مقدراً لي أن أعود بعد حوالي خمسة أسابيع، ولكنني لا أعرف ما هو الهاجس

الغريب الذي دفعني إلى أن أوزع على الأصدقاء، كل ممتلكاتي في الشقة، بما في ذلك مكتبة سينمائية جيدة، كنتُ قد جمعتها على امتداد سنتين، بمساعدة من ألفارو سيببدا ولويس فينيس.

جاء الشاعر خورخي غايشان دوران لوداعي، عندما كنتُ أمزق أوراقاً لا لزوم لها، فدقعه الفضول إلى تفحص سلة المهملات، لعله يجد شيئاً ينفع للنشر في مجلته. أخرج ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من منتصفها، وقرأها بسرعة خاطفة، بينما هو يعيد تركيب أجزائها على المنضدة. سألتني من أين أتت تلك الأوراق، وأجبتته بأنها "مونولوج إيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو"، وأنتي قد حذفتها من المسودة الأولى لرواية عاصفة الأزراق. نهته إلى أنها قد نُشرت سابقاً في كرونيكا وفي ملحق "مغازين الأحد" في الاسبينكتادور، بالعنوان نفسه الذي اخترته أنا، وبتفويض لا أتذكر أنني قدمته على عجل في مصعد ما. لم يهتم غايشان دوران بكل ذلك، ونشرها في العدد التالي من مجلة "ميتو".

الوداع في بيت غيبرمو كانو، عشية سفري، كان صاحباً إلى حدّ أنتي لم أصل إلى المطار إلا بعد مغادرة الطائرة المتوجهة إلى كارتاخينا، حيث سأقضي تلك الليلة كي أودع الأسرة. ولكنني لحقت لحسن الحظ، بطائرة أخرى عند الظهر. وقد أحسنت صنعاً، لأن توتر الجو المنزلي قد تراخي عما كان عليه في المرة الأخيرة، وكان أبواي وأخوتي يشعرون بأنهم قادرين على العيش دون زورق النجاة الذي ساكون بحاجة إليه، أكثر منهم، في أوروبا.

سافرتُ إلى بارنكيّا برا، في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر،

لكي ألحق بالطائرة المغادرة إلى باريس، في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي محطة حافلات كارتاخينا، التقيت بلاثيديس. بواب "ناطحة السحاب" الذي لا يُنسى، ولم أكن قد رأيت منذ تلك الأيام. اندفع نحوي قمي عنق حقيقتي، ويعينين ممثلتين بالدموع، دون أن يدري ما يقول، أو كيف يعاملني. وبعد تبادل عبارات مستعجلة، لأن حافلته قد جاءت، وحافلتني تشرف على الانطلاق، قال لي بحماسة أصابت أعماق روحي:

- ما لا أفهمه يا دون غابرييل، هو لماذا لم تخبرني من تكون.

فأجبت، وأنا أكثر تألماً منه:

- آه يا عزيزي لاثيديس، لم أكن قادراً على أن أخبرك، لأنني أنا نفسي ما زلتُ حتى اليوم لا أعرف من أكون.

بعد ساعات، بينما أنا في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى مطار بارانكيّا، تحت السماء الموحدة، والأكثر شفافية من أي سماء أخرى في العالم، انتبهت فجأة إلى أنني في جادة العشرين من تموز. وبحركة لا شعورية، صارت جزءاً من حياتي منذ نحو خمس سنوات، نظرتُ باتجاه بيت ميرثيديس بارتشا. وهناك كانت هي، تجلس أمام البوابة مثل تمثال، نحيلة ونائية، دقيقة في مجازاة أزياء السنة، يشوب أخضر موسى بتطريزات مذهبة، والشعر مقصوص على شكل أجنحة السنونوا وبالهدوء المتوتر لمن ينتظر أحداً لن يأتي. لم أستطع تفادي صوت مدور في داخلي، بأنني سأفقدتها إلى الأبد، في ساعة ميكرة من يوم خميس تموزي؛ ففكرتُ للحظة بإيقاف سيارة التاكسي كي أودعها، ولكنني فضلت ألا أمجدي، مرة أخرى، فدرأ شديد الالتباس والنيات مثل قدرتي. بقيتُ أعاني، في الطائرة المعلقة، آلام المعص والندم. وكانت ما

تزال شائعة آنذاك. العادة الحميدة بوضع شيء، على ظهر كل مقعد، يُسمى بغنائية طبية: "أدوات كتابة"، مكونة من أوراق رسائل صغيرة ذات حواش مذهبة، ومغلف من الورق نفسه، بلون وردي، أو سكري، أو أزرق، ومعطر في بعض الأحيان. كنتُ أستخدم تلك الأوراق، في رحلاتي القليلة السابقة، لكتابة قصائد وداع أحوكها إلى طيارات ورقية، وأقذف بها لتطير متهادية عند نزولي من الطائرة. اخترت ورقة زرقاء سماوية، وكتبت أول رسالة رسمية موجهة إلى ميرثيديس، الجالسة عند بوابة بيتها في الساعة صباحاً، بفستان عروس أخضر، وبشعر على شكل سنونوة غير مؤكدة؛ حتى إنني لم أفكر من أجل من ارتدت تلك الملابس، منذ الصباح. كنت قد كتبت إليها من قبل، ملاحظات مداعبة أخرى، ارتجلها كيفما اتفق، ولا أتلقى على الدوام، عندما نلتقي مصادفة، سوى إجابات شفهية ومتهيرة. لم يكن ما كتبته أكثر من خمسة سطور، لأطلعها رسمياً على خبر سفري. ومع ذلك، فقد أضفت في نهايتها ملاحظة أبهرتني مثل وميض برق في الظهيرة، في لحظة التوقيع: "إذا لم أتلق جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، فسوف أبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". لم أكد أتبع لنفسي الوقت للتفكير في الأمر مرة أخرى، قبل أن ألقى الرسالة، في الساعة الثانية فجراً، في صندوق بريد مطار موتيو باي. وكان يوم الجمعة قد حلّ. وفي يوم الخميس من الأسبوع التالي، عندما دخلتُ إلى الفندق في جنيف، بعد جولة أخرى غير مجدبة من عدم الوداق الدولي، وجدت الرسالة الجوابية.